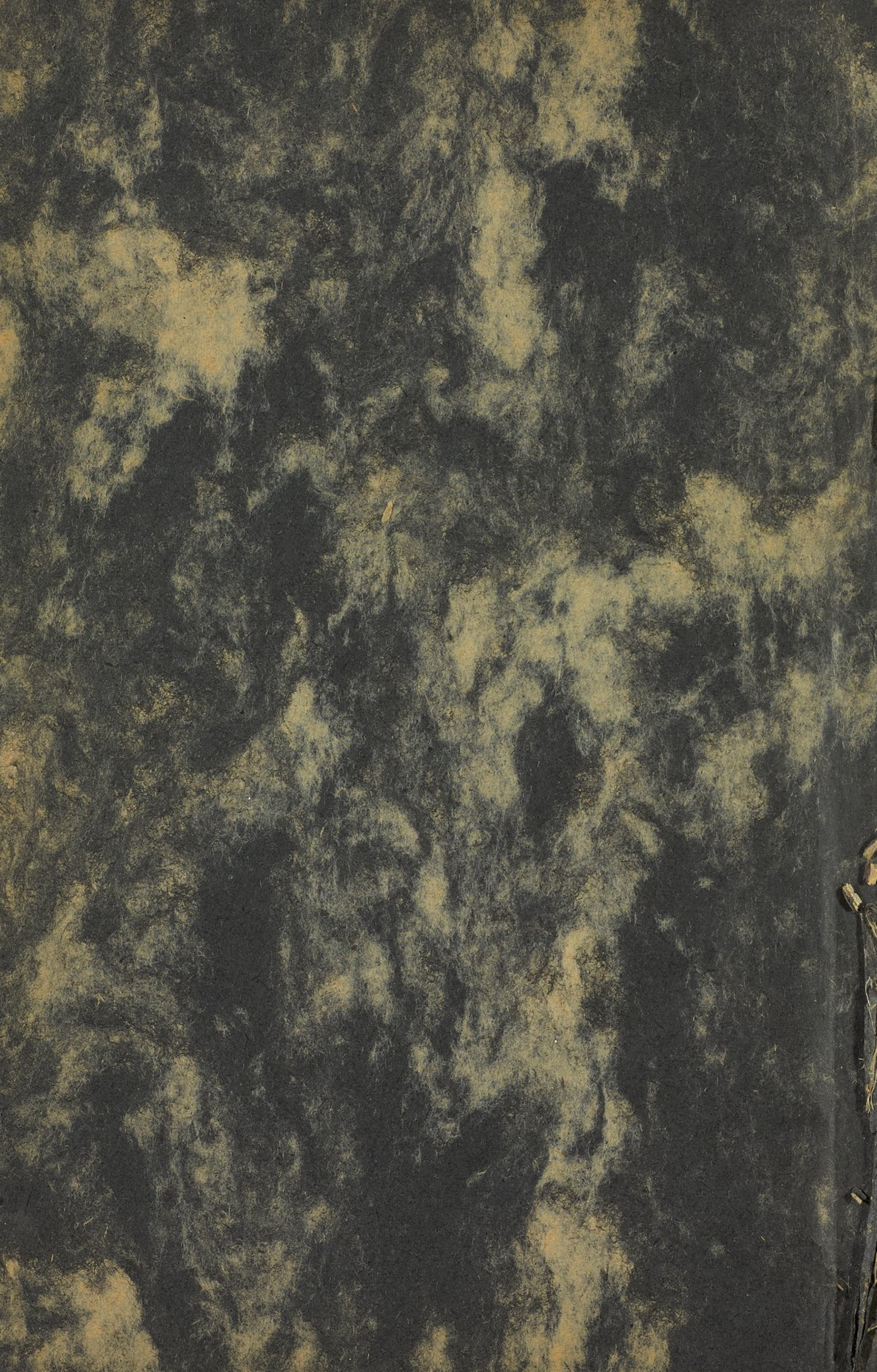
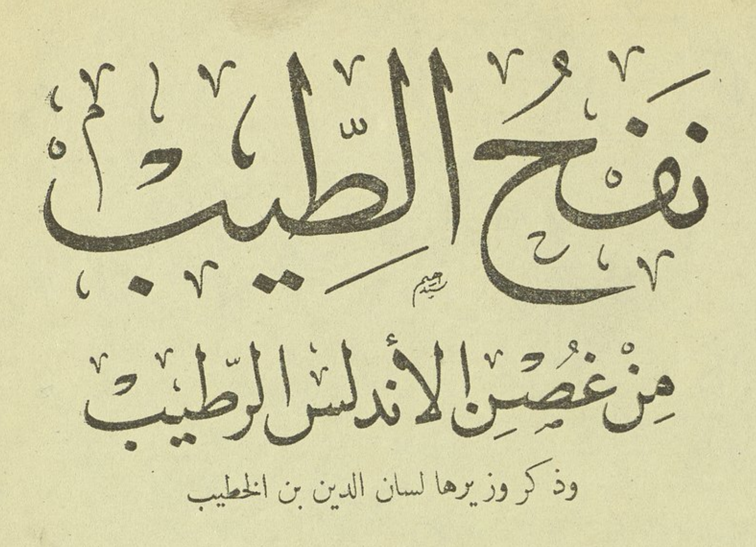








وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب

تأليف

أديب المغرب وحافظه الشيخ أحمد بن محمد المقرى التلمسانى

المتوفى فى عام ١٠٤١ من الهجرة

حققه ، وضبط غرائبه ، وعلق حواشيه

محمد محيى الدين عبد الحميد

الجزء الأول

الطبعـــة الأولى

في عام ١٣٦٧ هـ — ١٩٤٩ م

يطلب من المكتبة التجارية الكبرى

لصاحبها : مصطفى محمد

مطبعة السعادة بجوار محافظة مصر

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله على وافر نعمته ، والصلاة والسلام على صفوته من بَرِيّته ، وعلى آله وصحبه وعِتْرَته .

وبعد ، فهذا كتاب « نفح الطيب ، من غصن الأندلس الرطيب ، وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب » الذى صنّفه حافظُ بلاد المغرب وأديبُها ولسانُها المتحدثُ بفضلها ومؤرخُها الناشر لمحاسنها : الشيخ أحمد بن محمد المقَّرِىّ الأشعرى أزُفه إلى المكتبة العربية فى أبهى حُلَّة وآنق مظهر ، بعد أن جوَّدت ضَبْطه وأحكمت وَضْعه ونفيت عنه ما كان قد عَلِقَ به من غبار الإهمال ، فجاء على مايُرْضى رغبةَ الأديب ويَقَعُ موقعَ القبول من المؤرخ ، وأنا أرجو أن أكون بعملى هذا قد أسديت إلى قُرّاء العربية يدًا صالحة يذكرونها بالخير كلما ذكروا العاملين ، كما أرجو أن أكون قد أسْهَمْتُ بهذا الجُهْدِ فى تحبيب ذلك التراث الثمين إلى ناشئتنا فإنى أعلم أنه ما كان يَصُدّهم عن الانتفاع به غيرُ نشره على وَجْهٍ لا يرضى عنه العلمُ ولا العلماء ، وليس بى من حاجة إلى أن أذكر فى هذا الموضع شيئاً عن الكتاب ولا عن صاحبه ، فقد أتبعتُ هذه الكلمة ببَحْث عرفْتُ فيه بالمقرى وبكتابه تعريفاً مقاربًا . ولكنى لا أحِبُّ أن أغمط أولئك الذين أعانونى على ما أحببتُ من تجويد الكتاب حَقّهم ، فللرجل الوادع الحاج مصطفى محمد صاحب المكتبة التجارية فضلٌ لا ينبغى أن ننساه ، فهو الذى رَحَّبَ بالكتاب ، وطابت نفسه بالإنفاق عليه ، ولرجال مطبعة السعادة – وعلى رأسهم الشابّ على محمد إسماعيل – فضلٌ نذكره بالشكر ، فهمُ الذين دأَبُوا على العمل وتَنَوّقوا فى تجويد رَصْفه وطبعه ، جزى الله جميعهم خير الجزاء ! ؟

مصر الجديدة { ربيع الثانى ١٣٦٧ / فبراير ١٩٤٩ }

محمد محيي الدين عبد الحميد

التعريف بِالمَقَّرِيِّ صاحب كتاب

« نفح الطيب ، من غصن الأندلس الرطيب »

نسبه :

هو أبو العباس ، أحمد بن محمد بن أحمد بن يحيى بن عبد الرحمن بن أبى العيش بن محمد ، المقرِيّ التِّلْمِسَانى المولد ، نزيل فاس ، ثم القاهرة .

مولده ونشأته :

ولد بتِلْمِسَانَ ، ونشأ بها ، وحفظ القرآن الكريم ، وقرأ وحَصّل ببلده على عمه الشيخ الجليل العالم أبى عثمان سعيد بن أحمد المقرِيِّ مفتى تلمسان ، ومن جملة ما قرأ عليه صحيح البخارى سبع مرات ، وروى عنه الكتب الستة بسنده عن أبى عبد الله التَّنَسىّ عن والده حافظ عصره محمد بن عبد الله التنسى ، عن البحر أبى عبد الله بن مرزوق ، عن أبى حيان ، عن أبى جعفر بن الزبير ، عن أبى الربيع ، عن القاضى عياض بأسانيده المذكورة فى كتابه « الشفا ، فى التعريف بحق المصطفى »

وكان أبو العباس المقّرِى يخبر عن بلده تلمسان أنها بلدة عظيمة ، من أحاسن بلاد المغرب .

رحل إلى فاس مرتين : أما أولاهما فكانت فى سنة تسع بعد الألف من الهجرة ، وأما الثانية فكانت فى سنة ثلاث عشرة بعد الألف ، وكان يخبر عن فاس أنها دار خلافة المغرب .

ثم أراد أن يرتحل بعد ذلك قاصدا حج بيت الله الحرام فى أواخر شهر رمضان سنة سبع وعشرين بعد الألف ، ولقى فى مراكش صاحبها ، فأنشده متمثلا بقول على ابن عبد العزيز الحضرمى :

محبتى تقتضى مُقامى وحالتى تقتضى الرَّحيلا

هذان خصمان لست أقضى بينهما خوف أن أميلا

فلا يزالان فى خصام حتى أرى رأيك الجميلا

فأجابه صاحب مراكش بقوله :

لا أوحش الله منك قوما تعودُوا صنعك الجميلا

وذكر المقّرِى أن أبا الحسن عليا الخزرجى الفاسى الشهير بالشاحى لما سمع بعزم المقّرى على الارتحال عن الوطن كتب إليه بما كتبه أبو جعفر أحمد بن خاتمة المغربى إلى بعض أشياخه ، وهو :

أشمسَ الغربِ ، حقا ما سمعنا بأنك قد سئمت من الإقامهْ

وأنك قد عزمت على طلوع إلى شرق سموت به علامهْ

لقد زلزلت منا كل قلب بحق الله لا تُقِم القيامهْ

وبعد أن أدى المقّرى فريضة الحج ورد إلى مصر فى سنة ثمان وعشرين بعد الألف وسكنها ، وتزوج بها من السادة الوفائية ، ويقال : إنه سئل عن حظه بمصر ، فقال : قد دخلها قبلنا ابن الحاجب وأنشد فيها قوله :

يا أهل مصر وجدت أيديكم فى بذلها بالسخاء منقبضه

لما عدمت القِرَى بأرضكمُ أكلت كُتْبى كأننى أرَضَهْ

وأنشد هو لنفسه :

تركت رسوم عزى فى بلادى وصِرْتُ بمصر منسىَّ الرُّسُومِ

ونفسى عفتها بالذل فيها وقلت لها : عن العلياء صومى

ولى عزم كحد السيف ماض ولكن الليالى من خصومى

ثم زار بيت المقدس فى شهر ربيع الأول من سنة تسع وعشرين بعد الألف ورجع منها إلى القاهرة ، وكرر من مصر الذهاب إلى مكة فدخلها سنة سبع وثلاثين خمس مرات ، وأملى بها دروسا عديدة ، ووفد على طيبة مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم سبع مرات ، وأملى الحديث النبوى بجوار قبر النبى صلوات الله وسلامه عليه

وبمرأى منه ومسمع ، ثم رجع إلى مصر سنة تسع وثلاثين ، ودخل القدس في رجب من تلك السنة ، وأقام خمسة وعشرين يوما ، ثم ورد منها إلى دمشق فدخلها في أوائل شعبان ، وأنزلته المغاربة في مكان لا يليق به ، فأرسل إليه أحمد بن شاهين مفتاحَ مدرسة الجقمقية وكتب مع المفتاح هذه الأبيات :

كنفُ المقريِّ شيخي مَقرِّي ... وإليه من الزمان مَفرِّي
كَنَفٌ مثل صدره في اتِّساعٍ ... وعلوم كالبحر في ضِمْنِ بَحْرِ
أيَّ بَدْرٍ قد أطلع الدهرُ منه ... ملأ الشرقَ نورُه ؟ أي بدر
أحمد سيدي وشيخي وذخري ... وسميّي ، وذاك أشرفُ فخرِ
لو بغير الأقدام يسعى مَشُوقٌ ... جئته زائرا على وجه شكري

فأجابه المقريُّ بقوله :

أي نظم في حسنه حار فكري ... وتحلّى بدرِّه صدر ذكري
طائر الصيت لابن شاهين ينمى ... مَنْ بروض الندى له خيرُ ذكر
أحمد المنتطين ذِرْوةَ مجدٍ ... لِعَوَان من المعاني وبكر
حلَّ مفتاحُ وصله بابَ وصلٍ ... من معاني تعريفه دون نكْرِ
يا بديع الزمان دُم في ازدياد ... بالعُلاَ وازدياد تجنيس شكري

هكذا يحدثنا صاحب « خلاصة الأثر ، في أعيان القرن الحادي عشر » عن ارتحالات المقري ، وعما وجده في دمشق من التكرمة والإجلال ، وأنت لو تتبعت مقدمة كتاب المقري « نفح الطيب » لَمَسْتَ في حديثه عن دمشق ووصف مواطنها ومشاهدها ، والثناء على طيب أعراق أهليها ، ما كان الرجل يشعر به نحو هؤلاء الكرام الذي أكرموا وفادته ، وأحسنوا لقاءه ، وأنْسَوْه وطنه ، وأزالوا عنه لواعج الحزن التي كانت تعتريه لفراق أهله .

ثم قال صاحب الخلاصة : ولما دخل إليها أعجبته ، فنقل أسبابه إليها ، واستوطنها مدة إقامته ، وأملى صحيح البخاري بالجامع تحت قبة النسر بعد صلاة

الصبح ، ولما كثر الناس بعد أيام خرج إلى صحن الجامع تجاه القبة المعروفة بالباعونية وحَضَره غالبُ أعيان علماء دمشق ، وأما الطلبة فلم يتخلف منهم أحد ، وكان يوم ختمه حافلا جدا ، اجتمع فيه الألوف من الناس ، وعلت الأصوات بالبكاء فنقلت حلقة الدرس إلى وسط الصحن إلى الباب الذى يوضع فيه العلَم النبوى فى الجمعات من رجب وشعبان ورمضان ، وأتى له بكرسىّ الوعظ ، فصعد عليه ، وتكلم بكلام فى العقائد والحديث لم يُسْمَع نظيره أبدا ، وتكلم على ترجمة البخارى وأنشد له بيتين ، وأفاد أن ليس للبخارى غيرهما ، وهما :

اغتنم فى الفراغ فضل ركوع فعسى أن يكون موتك بغتهْ

كم صحيح قد مات قبل سقيم ذهبت نَفْسُه النفيسة فَلْتَهْ

ونزل عن الكرسى ، فازدحم الناس على تقبيل يده وكان ذلك نهار الأربعاء سابع عشر شهر رمضان سنة سبع وثلاثين وألف ، ولم يتفق لغيره من العلماء الواردين على دمشق ما اتفق له من الحُظْوة و إقبال الناس ، وكان ـ بعد ما رأى من أهلها ما رأى ـ يكثر الاهتمام بمدحها ، وقد عقد فى كتابه «عرف الطيب»(١) فصلا يتعلق بها و بأهلها ، وأورد فى مدحها أشعارا ، ومن محاسن شعره فى حقها قوله :

محاسنُ الشام جَلّت عن أن تقاس بحدّ

لولا حمى الشعر قلنا ولم نقف عند حد

كأنها معجزات مقرونة بالتَّحدّى

وقوله :

قال لى : ماتقول فى الشام ، حَبْرٌ شَامَ من بارق العُلاَ ما شَامَهْ

قلت : ماذا أقول فى وَصْفِ أرض هى فى جَنَّة المحاسن شامه

---

(١) هكذا يسميه صاحب الخلاصة ، ولكن المقرى نص على أنه كان قد سماه بذلك أولا ثم لما زاد عليه القسم الأول فى محاسن الأندلس سماه « نفح الطيب ، من غصن الأندلس الرطيب ، وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب » .

وقوله :

قل لمن رام النوى عن وَطَنٍ   قولَةً ليس بها مِنْ حَرَجِ
فَرِّج الهمَّ بسُكنى جِلّقٍ   إن فى جِلّقَ بابَ الْفَرَجِ

هذا كلام صاحب الخلاصة ، وقد رأيت فى مقدمته لـكتاب «نفح الطيب» العجب العاجب من تعلقه بأهل دمشق ، حتى إنه ليجعل هـذا الـكتاب فى موضوعه وفى بَعْث فـكرة تأليفه راجعا إلى فضلهم فيقول فى نهاية مقدمة الـكتاب « وله بالشام تعلق من وجوه عديدة ، هادية لمتأمله إلى الطرق السديدة ، أوولّها أن الداعى لتأليفه أهل الشام أبقى الله مآثرهم وجعلها على مر الزمان مديدة ، وثانيها أن الفاتحين للأندلس هم أهل الشام ذوو النجدة والشوكة الحديدة ، وثالثها أن غالب أهل الأندلس من عرب الشام الذين اتخذوا بالشام وطنا مستأنفاً وحضرة جديدة ، ورابعها أن غرناطة نزل بها أهل دمشق وسموها باسمها لشبهها بها فى القصر والنهر والدَّوح والزهر والغُوطَة الفيحاء وهـذه مناسبة قوية العرُا شديدة .

وهذا كلام ــ و إن استقام فى ظاهر الأمر ــ تجد عليـه من مسحة المبالغة الشعرية ما ليس يخفى ، والرجل معذور العذر كله ، فقد طوّحت به طوائح الاغتراب ، وقد تنقل فى كثير من البلدان التى يقصدها مثلُه من العلماء ، فلم يجد فى إحداها بعضَ ما وجده فى دمشق ، فلهج بالثناء ، وليس عليه أن يخلع عليها من المحاسن كفاء ما خلعت عليه من كرم ونبل ، ولو لم يفعل ذلك إنه لئيم .

مؤلفاته :

صنف المقرى كتباً كثيرة كلها ممتع ، وكلها مفيد أعظم الفائدة ، وتمتاز كتبه الأدبية بصفاء العبارة ونقاء الديباجة ، و إشراق المعنى ووضوحه ، وهو فى ذلك كله يتأسَّى بلسان الدين بن الخطيب وزير الأندلس وأديبها و ينسج على منواله ، ولكن كتب المقرى تمتاز بظاهرة ليست فى كتب لسان الدين ، هذه الظاهرة هى استطراداته الكثيرة وخروجه عما يعقد له الباب إلى ما يشبهه أو يتصل منه بسبب شأن الرجل الواسع العلم الكثير المحفوظ ، إذ تزدحم المتشابهات على ذهنه فتنساب على أثلات قلمه لا يستطيع لها دفعاً ولا يقوى على رد جامحها ، و إنه ليخيل إليه أنه قد قصر كل التقصير حين يحبس قلمه أو يقف به دون بلوغ الغاية ، وقد عده الأدباء لهذه الظاهرة جاحظ المغرب ، إذ كانت هذه أشهر ما امتاز به قلم أبى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، قال صاحب خلاصة الأثر فى التعريف به « حافظ المغرب جاحظ البيان ، ومن لم ير نظيره فى جودة القريحة ، وصفاء الذهن ، وقوة البديهة ، وكان آية باهرة فى علم الكلام والتفسير والحديث ، ومعجزاً باهراً فى الأدب والمحاضرات » .

ونحن نذكر لك ههنا أشهر مؤلفاته مرتباً على حروف الهجاء بحسب أوائل ما وضعه لكتبه من الأسماء :

١ — اتحاف المُغْرَى ، تكميل شرح الصغرى ، وهو تكميل لشرح السنوسية فى علم التوحيد .

٢ — أزهار الرياض ، فى أخبار عياض ، وهو أشبه كتبه بكتاب « نفح الطيب ، من غصن الأندلس الرطيب » جعل مبناه فى الأصل ترجمة للقاضى المغربى عياض بن موسى بن عمرون بن موسى ، اليحصبى ، السبتى . وقد شرع جماعة من إخواننا أدباء مصر بنشر هذا الكتاب نشراً علمياً بتكليف المعهد الخليفى

للأبحاث المغربية المعروف ببيت المغرب ، وظهر منه حتى الآن ثلاثة أجزاء ، والله المسئول أن يعينهم على إكماله .

٣ — أزهار الكمامة ، ولا نعلم من أمره أكثر من اسمه الذى ذكره صاحب خلاصة الأثر .

٤ — إضاءة الدُّجُنّة ، فى عقائد أهل السنة .

٥ — البَدْأة والنشأة ، قال فى الخلاصة « كله أدب ونظم » .

٦ — حاشية على شرح أم البراهين ، وأم البراهين هى السنوسية التى وضع لها كتابه « اتحاف المغرى » السابق .

٧ — الدر الثمين ، فى أسماء الهادى الأمين .

٨ — روض الآس ، العاطر الأنفاس ، فى ذكر مَنْ لقيته من علماء مراكش وفاس .

٩ — عرف الطيب ، فى أخبار ابن الخطيب ، وهذا هو الاسم الذى وضعه أولا لكتاب « نفح الطيب ، من غصن الأندلس الرطيب » وسنذكر لك وجه عدوله عن هذا الاسم إلى الاسم الذى اختاره أخيراً ، حين نتكلم على « نفح الطيب » .

١٠ — عَرْف النّشْق ، فى أخبار دمشق .

١١ — الغث والسمين ، والرث والثمين .

١٢ — فتح المتعال ، وهو كتاب صنفه فى وصف نعال النبى صلى الله عليه وسلم .

١٣ — قَطْف المُهْتَصَر ، فى أخبار المختصر .

١٤ — نفح الطيب ، من غصن الأندلس الرطيب ، وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب ، وكان أول الأمر قد عقد العزم على أن يؤلف كتابا فى التعريف بلسان الدين ابن الخطيب ، ويذكر أولية أمره وآله وشيوخه وسائر ما يتصل به ،

ووضع لما عقد عليه العزم اسما هو « عرف الطيب ، فى أخبار ابن الخطيب » على نحو ما صنع فى « أزهار الرياض ، فى أخبار عياض » ثم بدا له أن يقدم بين يدى هذا التعريف حديثا عن الأندلس وتاريخها من قبل الفتح الإسلامى ومن بعده ويجعله أقساما بعضُها عام وبعضُها خاص بكبريات مدنه التى صارت دار ملك لجماعة من ملوك الأندلس وأمرائه ، فلما تم له ذلك عدل عن الاسم الأول ليزيد فى اسم الكتاب ما يدل على القسم الذى زاده على أصل المشروع ، إذ ليس من المستحسن أن يترك أكبر أقسام الكتاب من غير شىء يدل عليه فى عنوانه ، قال فى أواخر مقدمة الكتاب بعد أن ذكر ثبتا بما ضمنه إياه من المباحث « وقد كنت أولا سميته بـ « عَرْف الطيب ، فى التعريف بالوزير ابن الخطيب » ثم رسمته — حين ألحقت أخبار الأندلس به بـ « نفح الطيب ، من غصن الأندلس الرطيب ، وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب » ، وسنتكلم على قيمة هذا الكتاب وما نسديه باخراجه على هذا الوجه إلى المكتبة العربية بعد تمام هذه الترجمة ، إن شاء الله .

وفاة المؤلف :

قال فى خلاصة الأثر : « ودخل مصر ، واستقر بها مدة يسيرة ، ثم طلق زوجته الوفائية ، وأراد العود إلى دمشق للتوطن بها ، ففاجأه الحمام ، قبل نَيْل المَرَام ، وكانت وفاته فى جمادى الآخرة ، سنة إحدى وأربعين وألف ، ودفن بمقبرة المجاورين ، وقال الأديب إبراهيم الأكرمى فى تاريخ وفاته :

قد خُتِم الفضلُ به فأرَّخوه « خاتِمٌ »(١)

ضبط نسبته :

أكثر العلماء يضبطون «المقرى» بفتح الميم وتشديد القاف مفتوحة وآخره راء

---

(١) حروف « خ ا ت م » بحساب الجمل تساوى ١٠٤١

مهملة ، ويذكر بعضهم أنه بفتح الميم وسكون القاف ، قال صاحب الخلاصة :
« والمقرى : بفتح الميم وتشديد القاف وآخرها راء مهملة ، وقيل : بفتح الميم وسكون القاف ، لغتان ، أشهرهما الأولى — نسبة إلى قرية من قرى تلمسان ، وإليها نسبة آبائه » اهـ . وقال ياقوت الحموى فى معجم البلدان : « مَقْرَة — بالفتح ثم السكون وتخفيف الراء — مدينة بالمغرب فى بر البربر ، قريبة من قلعة بنى حماد ، وبينها وبين طبنة ثمانية فراسخ ، وكان بها مسلحة للسلطان ضابطة للطريق » اهـ .

قال أبو أحمد غفر الله تعالى له ولوالديه : والذى نستنتجه من كلام المؤلف نفسه أنه كان يقرأ نسبته ويعرفها بتشديد القاف ، وكان أصحابه ومعارفه يعرفون عنه هذا الضبط ويذكرونه فى حديثهم عنه ، ونستدل على ذلك بما يلى :

أولا — تراه فى مفتتح كتابه « نفح الطيب » يقول بعد البسملة « يقول العبد الفقير ، الذليل المضطر الحقير ، مَنْ هو مِنْ صالح الأعمال عَرِىّ ، أحمد بن محمد الشهير بالمقّرِى » ونظام السجع الذى ذاع فى أسلوبه يقتضى هذا الضبط .

ثانياً — تراه فى مقدمة كتابه « أزهار الرياض » يقول - بعد البسملة والحمدلة والصلاة والسلام على رسول الله - ما نصه :

فيقول أحمد ذو القُصُو ... رِ المَقّرِىُّ إذا انتسَبْ
جَبَرَ المهيمنُ صَدْعَهُ ... ووَقاهُ سَيِّءَ ما اكتسب
وحَباهُ مِنْحَةَ مؤمنٍ ... مَحَضَ العبادة واحتَسَبْ

وكلمة « المقّرِى » فى البيت الأول من هذه الأبيات لا يجوز أن تقرأ بفتح الميم وسكون القاف لأن وزن البيت يختل حينئذ .

وإذ كان العلماء لا يذكرون إلا هذين الضبطين ، وكان أحدهما لا يصح قراءته فى نثر المؤلف ولا فى شعره ، تعين أن يكون ضبطه الذى عرفه هو وتكلم به هو الضبط الآخر ، وهو الذى ذكرناه أولا .

ثالثاً — ورد فى قصيدة الشاهينى التى بعث بها إلى المقرى يستنجز فيها

تأليف كتاب « نفح الطيب » قول الشاهينى :

ما للعلا والعلم إلا أبو الـ ـعباس شيخى أحمد المقّرِى

ولا يتم وزن البيت إلا على هذا الضبط .

ثناء العلماء عليه :

قد ذكرنا فيما سلف عبارة صاحب الخلاصة التى يجعله فيها جاحظ البيان ، كما ذكرنا البيت الذى أرَّخ فيه وفاته الأديب الأكرمى ، وقد جعله فيه خاتم أهل الفضل ، وليس أدل على براعته وفوقه ، وعلى اعتداده بنفسه وثقته بما عنده مما تجده من حاله فى كل بلدة يرتحل إليها ، أوليس قد نزل مصر فنزل من أهلها أعز منزلة وأسماها حتى زوجه نقباء أشرافهم إحدى عقائلهم ، والأشراف فى كل عصر من العصور السالفة يأبون كل الإباء أن يرتضوا لكرائمهم أصهاراً غير من يملأ نفوسهم ويمتلك عليهم قلوبهم ، والرجل غريب بمصر لا مال له ، فلم يبق إلا أنه كان قد حَصّل من المكانة العلمية ما جعله ملء العين ملء الفؤاد ، ثم أليس قد نزل دمشق فسارع إلى قراءة صحيح البخارى فى المسجد الجامع ، فما يزال إقبال الناس يتزايد عليه حتى يضطر أن ينقل مكان درسه من وسط الجامع إلى صحنه الخارجى ليكون المكان أفسح وأجمع للناس ، ثم ما يزال ذلك ديدنه فى كل بلد ؟ ومحال أن يحصل ذلك إلا من رجل وثق بنعمة الله عليه فهو لا يفتأ يظهر الناس عليها تحدثاً بها أو افتخاراً . واسمع إليه يتحدث عن بعض رحلاته وما صنع فيها من ذلك ، قال : « ثم رجعت إلى القاهرة ، وكررت منها الذهاب إلى البقاع الطاهرة ، فدخلت لهذا التاريخ الذى هو عام تسعة وثلاثين وألف مكة خمس مرات ، وحصلت لى فيها بالمجاورة المسرات ، وأمليت — على قصد التبرك — دروساً عديدة ، والله يجعل أيام العمر بالعود إليها مديدة ، ووفدت على طيبة المعظمة ميمما مناهجها السديدة ، سبع مرار ، وأطفيت بالعود إليها ما بالأكباد الحرار ، واستضأت بتلك

الأنوار . وألفت بحضرته صلى الله عليه وسلم بعض ما مَنَّ الله به على فى ذلك الجوار وأمليت الحديث النبوى على مرأى منه عليه الصلاة والسلام ومسمع ، ونلت بذلك وغيره ـ ولله المنة ـ مالم يكن لى فيه مطمح ولا مطمع ، ثم أُبتُ إلى مصر مفوضاً لله جميع الأمور ، ملازما خدمة العلم الشريف بالأزهر المعمور ، وكان عَوْدى من الحجة الخامسة بصفر سنة سبع وثلاثين وألف للهجرة ، فتحركت همتى أوائل رجب هذه السنة للعَوْد للبيت المقدس ، وتجديد العهد على المحل الذى هو على التقوى مؤسس ، فوصلت أواسط رجب ، وأقمت فيه نحو خمسة وعشرين يوما بدا لى فيها بفضل الله وَجْهُ الرشد وما احتجب ، وألقيت عدة دروس بالأقصى والصخرة المنيفة ، وزرت مقام الخليل ومن معه من الأنبياء ، ذوى المقامات الشريفة » . اهـ

ونذكر فى هذا الموضع وصف الشاهينى الدمشقى للمؤلف ، والشاهينى هذا هذا هو باعث همة المقرى على تأليف كتابه نفح الطيب ، قال الشاهينى من قصيدة بعث بها إلى المقرى :

ياسيداً أفديه بالأكثر	من أصغر العالم والأكبر
ويا وحيداً قلَّ قولى له	عُطَاردٌ أنت مع المُشْتَرِى
ويا مُجيداً ليس عندى له	إلا مقال المادح المكثِرِ
أقسمت بالبيت العتيق الذى	حَجّتْ إليه الناس والمشْعَرِ
ما للعلا والعلم إلا أبو الـ	ـعباس شيخى أحمد المقّرى
ذاك الذى آثرنى منه بالـ	ـعلم الذى للغير لم يؤثر

كتاب نفح الطيب[1] :

كان المؤلف أثناء إقامته بدمشق كثيرا ما يتذاكر مع أعيان علمائها درر

(١) كل كلام جعل بين هاتين العلامتين « » فهو من كلام المؤلف بنصه أو مع تغيير طفيف فيه .

الأخبار ، ويتجاذبون أهداب الآداب ، فينجر بهم الكلام « إلى ذكر البلاد الأندلسية ، ووصف رياضها السندسية ، التى هى بالحسن منوطة ، وقضاياها الموجّهة التى لا يستوفيها المنطق مع أنها ضرورية وممكنة ومشروطة ، والفِطَر السليمة والأفهام المستقيمة بتسليم براهينها قاضية لا سيما إن كانت بالإنصاف مربوطة، فصار يورد لهم من بدائع بلغاء الأندلس ما يجرى على لسانه ، ويسرد من كلام وزيرها لسان الدين بن الخطيب السلمانى ، ما تثيره المناسبات وتقتضيه ، وتميل إليه الطباع السليمة وترتضيه ، من النظم الجَزْل ، فى الجد والهزل ، والإنشاء ، الذى يدهش به ذاكره الألباب إن شاء . . . فلما تكرر هذا غير مرة على أسماعهم ، لهجوا به ، وعلق بقلوبهم ، وأضحى منتهى مطالبهم ومنية آمالهم وأطماعهم ، فطلب منه المولى أحمد الشاهينى أن يتصدى للتعريف بلسان الدين فى مصنف يعرب عن بعض أحواله وأنبائه ، وبدائعه وصنائعه ووقائعه مع ملوك عصره وعلمائه وأدبائه، ومفاخره التى قلد بها جيد الزمان ولَبَّته ، وبعض ما له من النثر والنظم ، وماله من المؤلفات الرائقة للأبصار » ولم يستطع المؤلف أن يشرع فى تصنيف هذا الكتاب بدمشق لأسباب ذكرها مفصّلة فى مقدمته ، فلما استقر بمصر « شرع فى المطلوب ، وكتب منه نبذة تستحسنها من المحبين الأسماع والقلوب ، وسلك فى ترتيبه أحسن أسلوب » وكانت النية على أن يقتصر الكتاب على التعريف بلسان الدين ، ولكن بعد أن « رقم من أنباء لسان الدين بن الخطيب حُللا لا تخلق جِدّتَهَا الأعصر ، وسلك من التعريف به مهامهَ تكل فيها واسعات الخطا وتقصُر ، حدث له بعد ذلك عزم على زيادة ذكر الأندلس جملة ومن كان يعضد به الإسلام وينصر ، وبعض مفاخرها الباسقة ، ومآثر أهلها المتناسقة ، لأن كل ذلك لا يستوفيه القلم ولا يحصر » .

أما لسان الدين فهو أديب الأندلس ووزيرها ومؤرخها الذى « قصرت ألسُن البلغاء عن علاه ، وزانت صدورَ الدواوين حُلاَه ، وجمع خلالا حسانا ، وكان

للدين لسانا ، وزاحمت مفاخره بالمناكب الكواكب ، وازدانت بمرآه النوادى والمواكب ، ونفحات الأزهار من آدابه ، ونسمات الأسحار عطر أذياله وأهدابه ، والسِّحْر من كتابته ، والسَّحَر من كنايته ، وروح النسيم من تعريضه ، والنثرة من نثره ، والشِّعْرى من شعره وقريضه ، وحلل المجد لباسه ، وأنوار العلم اقتباسه

لَهُ ذِهْنٌ يغوصُ ببحْرِ علم　　فيأتى منه بالدر النظيم
معانيه الرياضُ ، لأجل هذا　　سَرَتْ ألفاظه مثل النسيم

ومُباهيه النجوم ، ومُضاهيه الغيث السَّجُوم ، إلى آباء يحسُدهم القمر والشمس ، وإباء لو كان للمشرفى لما تحَيَّفه لمس ، وشرف لامُدَّعَى ولا منتحل ، وهمة لو نالها البدرُ لأستخذى له زُحَل ، وبراعة أرهفت سنان قلمه ، وبراعة سارت أمراؤها تحت علمه ، فكم فتح بفكره أقفالها ، ووسَمَ بذهنه الثاقب أغفالها ، وسبك معانيها فى قالب قلبه إبريزا ، ورقَمَ لسانُه بُرُودَ إحسانه بلفظه البديع تطريزا ، فرُفع فى ميدان الإجادة لواؤه ، وأتيح من أنهار البراعة العذبة إرواؤه ، ونال سبقا وتبريزا ، فقصائده أرخصت جواهر البحور ، المنظومة فى قلائد اللَّبات والنحور ، من حسان العقائل الحور ، وكلماته غدت للإبداع إقليدا ، وجمعت طَريفا من البلاغة وتليدا ، ومقطعاته ألذ فى الأسماع ، من مُطْرب السماع ، وأبهى فى الأحداق والنواظر ، من الحدائق ذوات الأغصان الملْدِ النواضر ، يعترف بفضلها من انتحل الإنصاف دينا ، وانتخل الأوصاف فاختار العدل منها خدينا » .

وأما الداعى إلى التصنيف « فلم يكن جمع المؤلف إياه لرفد يستهديه ، أو عَرَض نائل يستجديه ، بل لحق وُد يؤديه ، ودَيْن وعْد يقدمه ويُبْديه ، ووقوف عند حَدّ لايجوز تعدِّيه ، وتلبية داع يحَييه ويُفَدِّيه » .

وأما قيمة الكتاب فهو يحددها فى عبارات متواضعة ، بل عبارات شديدة التواضع ، حيث يقول « فدونك أيها الناظر هذا الكتاب ، المتجافى عن مذهب

النقد والعتاب ، كلماتٍ سوانح اختُلِست مع اشتغال الجوانح ، وتضادّ الأمور الموانع والموانح ، وألفاظا اقتُنِصت بين أشغال الجوارح ، وطُرَفا أسْمتُ الطّرف فى مرعاها وكانت هَملا غيرسوارح ، وتُحفًا يحصل بها لناظره الإمتاع، ولايعدُّهامِنْ سقط المتاع ويلهج بها المرتاح ، ويستأنس المستوحش المرتاع » .

والحقّ أن المؤلف قد تواضع أو قصَّر فى وصف هذا الكتاب على قوة عارضته وطول باعه .

والكتاب ـ كما قلنا من قبل ـ يكثر فيه الاستطراد ، والخروج عن الموضوع الذى عُقِد الكلامُ أول الأمر له ، لأدنى مناسبة ، وهذه بعض خصائص المؤلف ، وقد بينا السرَّ الذى دعا إلى هذا الاستطراد .

وفى الكتاب خصيصة أخرى : لانريد أن نغفل شأنها ، وهى التكرار الكثير ، وذكر الشىء الواحد فى مواضع متعددة ، ومعذرة المؤلف فى ذلك أنه يحكى فى الأمر الواحد عبارة كثير من المؤرخين بجملتها فى كثير من الأحيان ، ومقتصرا على موضع الحاجة أحيانا أخرى ، فتتكرر لذلك المسائل بتكرر المنقول عنهم ، وقد تكون فى العبارة عدة مسائل فينقلها بطولها مرتين أو أكثر تبعا للمسائل التى يبحثها ، ويضن بتجزئة المنقول رغبة منه فى رَبْط أجزاء الكلام فقد يدل بعضه على بعض وقد تضيع فائدة بتقطيع أوصاله .

وقد رأينا أن نفيد الباحث فى هذا الكتاب من هاتين الخصيصتين ، فوضعنا فهرس الموضوعات الذى ألحقناه بكل جزء من أجزاء الكتاب ، وجزأنا البحث الواحد إلى أجزاء صغيرة وضعنا لكل جزء منها عنوانا ، ووجهنا نظره إلى المواضع الأخرى التى يذكر فيها هذا الجزء ، وذكرنا هذا التوجيه فى كل موضع يذكر فيه ، حتى إذا عثر على واحد منها عرف مواطنه كلها ، واستقام له بمراجعة هذا الفهرس أن يعرف كل ما اشتمل عليه الكتاب ، سواء أكان مما يندرج تحت العنوان العام الذى وضعه المؤلف أم كان مما ذكر على سبيل الاستطراد ، ويسَّرنا

عليه أمر الرجوع إلى هذا فى الكتاب نفسه بما وضعنا من العناوين فى جانب الكتاب الخارجى .

وقد طبع هذا الكتاب كاملا قبل هذه الطبعة مرتين : أولاهما فى مطبعة بولاق فى عام تسعة وسبعين بعد المائتين والألف ، بتصحيح المرحوم الشيخ محمد ابن عبد الرحمن ، المشهور بقطة العدوى ، وهى طبعة جيدة ، لكنها لا تخلو من التصحيف ، وبخاصة فى أعلام البلدان والأناسىّ ، وقد جعلنا هذه الطبعة الأصل الذى اعتمدناه ونبهنا على ما ظهر لنا من أخطائها فى هوامش الكتاب وهذه الطبعة هى التى نرمز إليها بحرف ب ، والثانية فى المطبعة الأزهرية فى عام اثنين بعد الثلثمائة والألف ، وليس فى هذه الطبعة شىء يميزها عن المطبوعة السابقة إلا أن أخطاءها أكثر من أخطائها ، وهى التى نرمز إليها بحرف ز .

وطبع القسم الأول من الكتاب ـ وهو القسم الخاص بالأندلس ، وهو أكثر من نصف الكتاب ـ فى مدينة ليدن عام ١٨٥٥ خمس وخمسين وثمانمائة والألف الميلادى ، وهذه أدق من الأولى تصحيحا فوق أنها تشتمل على ضبط بعض الأعلام والكلمات ، وتشير فى أسفل صفحاتها إلى اختلاف النسخ ، وهذه النسخة هى التى نشير إليها بحرف ا .

وطبع أقل من ربع الكتاب فى دار المأمون فى تسعة أجزاء ، وتقديرنا أن الكتاب كان يتم فى اثنين وأربعين جزءا على النحو الذى صدرت عليه الأجزاء المذكورة ، ولعل هذا أحد الأسباب التى قعدت بالناشرين عن التمام ، على أن هذه المطبوعة ليس فيها ما تتميز به إلا هذه التعليقات النفيسة التى ذيل بها صديقنا العلامة الأستاذ أحمد يوسف نجاتى هذه القطعة منها .

وفى مكتبتى الخاصة نسخة خطية جليلة من هذا الكتاب تنقص من أولها جزءا من ستة أجزاء ، وفى هامشها ما يدل على مراجعتها على نسخ أخرى ، ولكن بائعها ـ جزاه الله بما هو أهله ! ـ قد عدا على أوائل الأجزاء وأواخرها

فلم يترك لى ما أستدل منه على مالكها أو ناسخها .

وقد راجعت هذه المطبوعة على هذه النسخ كلمةً كلمةً ، وضبطت من مفردات الكتاب وأعلامه ما أعتقد أنه محتاج إلى الضبط بالشكل ، وكثيرا ما أضبط أعلام الأماكن بالعبارة فى الهوامش وأنسب هذا الضبط إلى مَنْ ذكره ، كما أبين موضع هذه الأماكن ، وشرحت - فوق هذا - بعضَ الألفاظ شرحا لغويا وجيزا رغبة منى فى مَعُونة القارىء المتوسط على فهم عبارة الكتاب .

ولم أشأ أن أدلّ على اختلاف الروايات فيما تعرض له المؤلف من التاريخ ، لثلاثة أمور : أولها أن المؤلف نفسه يذكر فى أكثر الأحايين رواياتٍ مختلفةً فى المسألة الواحدة ، وثانيها أننى خشيت أن يطول الكتاب فتقعد بالناشر همته عن إتمامه ، فإن أعظم ما مُنى به العلماء والباحثون فى هذا العصر أن يكونَ ظهور جهودهم المضنية وقفا عند رغبة الوراقين ، وثالثها أن الكتاب فى ذاته من أمهات المراجع ، ومؤلفه من الذين عُنوا أكبر العناية بما كتب فيه ، وهو من مُحقِّقى المتأخرين ، وكل عبارة تخالف ما عنده يغلب على الظن أنه اطّلع عليها ثم عَدَل عنها .

و بعد ، فلعلى أن أكون قد أدّيت إلى العربية وقرائها الذين أحْبُوهم بما أملك من جَهْد جاهدٍ يداً لا أسألهم عليها غير صالح الدعاء ، ولعلى أن أكون بإخراج هذا الكتاب على هذا الوجه قد نشرت حُلة من حُلل الفخار والمجد التى حاكتها يدٌ صَنَاع من أيدى أسلافنا الأمجاد كانت قد طُوِيت فى مَدَارج الإهمال ، ولعلى أن أكون قد كتبت بهذا العمل صفحةً جديدة فى صفحات البِرِّ بآبائنا الذين نعتز بهم ونفاخر العالم بما أسْدَوا إليه من حسنات .

والحمد لله أولا وآخرا ، وصلاة الله وسلامه وتحياته المباركات الزّاكيات على سيدنا محمد وآله وصحبه .

كتبه المعتز بالله تعالى وحده

أبو أحمد

محمد محيي الدين عبد الحميد

بسم الله الرحمن الرحيم

يقول العبد الفقير، الذليل المُضْطَر الحقير، مَنْ هو من صالح الأعمال عَرِىّ: أحمدُ بن محمد الشهير بالمقَّرِىّ، المغربى المالكى الأشْعَرِىّ، أصلح الله تعالى حاله! وجعل فى مَرْضاته حِلّه وتَرْحاله! ومحا بغَيْث الطاعة والرضوان أمحاله! وأنْجَحَ ببلوغ آماله انتحاءه وانتحاله:

أحمدُ من عَرّف من حلى الأمصار وعلىّ الأعيان على تداول الأعصار وتطاوُلِ الأحيان، ما فيه ذكرى لأولى الأبصار وإرشاد إلى معرفة الديَّان، واعتبار بأخبار رَاعَ وصفُها أوراق[1]، وشرف مَنْ صرف المطامح والمطامع، إلى تفصيل ما أفاد لسانُ الدين من كلمٍ جوامع، وتحصيل ما أجاد من حكم بوالغَ سُحبُ بلاغتها هَوامع، واقتناء ذخائر المهتدين التى تشنَّفَتْ بدُرَرِها اللوامعِ الآذانُ والمسامع، من كل منحط عن رتبة البراعة أوراق[2]، حتى توّج الخطيبُ المجيد رؤسَ المنابر بفرائد الكلام، وحَلَّى الكاتب الأديب المجيد صدورَ المزابر من فوائد الأعلام، وكحل الحكيمُ الطبيبُ الأريبُ المفيدُ من إثمد المحابر بمَرَاود الأقلام، عيونَ أوْراق[3].

وأشهد أن لا إلٰهَ إلا الله وحده لا شريك له الذى ابتدأ الخلق من غير مثال وبَرَا[4]، وقَسَّم العباد إلى حاضر وبادٍ وظاهر وخامل وقاصر وكامل تشير إليه

---

(١) « أوراق » ههنا من كلمتين: أولاهما « أو » العاطفة، والثانية « راق » وهو ماضى يروق بمعنى أعجب يعجب، وهو معطوف على « راع »

(٢) « أوراق » ههنا من كلمتين أيضا: أولاهما « أو » وثانيتهما « راق » وهو اسم فاعل فعله رقى يرقى – من باب علم – بمعنى ارتفع، وهو معطوف على « منحط »

(٣) « أوراق » ههنا كلمة واحدة، وهى جمع ورقة

(٤) « برا » أصله « برأ » بالهمز بمعنى خلق، فقلب الهمزة ألفا لانتفاح ماقبلها

بالأنامل أيدى الـكُبَرَا ، وأبدى فى اختلاف ذواتهم وأعراضهم وتبايُن أدواتهم وأغراضهم وتغاير ألسنتهم وأمكنتهم وأزمنتهم وألوانهم وأكوانهم ومناصبهم ومَنَاسبهم عِبَرًا ، وجعل الدنيا لمن أتيح صغراً أو كبراً ، ولبس منهم مُسوحًا أوحِبَرًا ، وأخلد إلى الأرض أوصَعِدَ منبرا ، جسراً إلى الآخرة ومَعْبَرًا ، وحكم ـ وهو الفاعل المختارُ ـ على الجميع بالموت فكان لمبتدأهم خَبَرًا ، فياله من داء أعيا كلّ معالج أوراقٍ[(١)] .

فسبحانه من إله انفرد بوجوب القدم والْبَقَا ، واختص بفضله من شاء فارتقى ، وعَمَّ تعالى ذوى السعادة والشقا ، بالحدوث والفنا ، وأذاق من فراق الدنيا كل من فيها بلا ثُنْيَا[(٢)] ، فمن وُفِّق فنفى عن جَفْنِه وسَنا ، أو خُذل فجرّ فى مَيْدَان الاغترار رَسَنا ، وزُين له عياذاً بالله سوءُ عمله فرآه حسنا ، طَعَمَ شَعُوبَ المر الجَنَى ، فلم يغن منه عن ذوى الغِنَى والغَنَا ، وأهل السناء والسَّنا[(٣)] من استظهروا به من أرباب الصَّوارم والقَنَا ، وأصحاب النظم والنثر والجدال والفخر والمدح والثنا ، فأولئك ألقوا السلاح مُذعِنين ، مستبصرين موقنين ، إذ جاء الحق وزَهَقَ الباطل وولى الامتِرا[(٤)] وهؤلاء تركوا الاصطلاح مُعلنين ، عالمين أنهم لم يكونوا فى التمويه مُحْسنين ، وكيف لاوقد اضمَحَلَّ الغرور والاجْتِرَا ، وذهب والله الجورُ والافْتِرَا ، وبدّل مذق الإطراء بصدق الإطراق .

وأشكره جل وعلا على أن علم بالقلم مالم نعلم ، ونَبَّـه بآثاره الدالة على اقتداره إلى سلوك الطريق الأقوم ، الواضح المَعْلَم ، وأرشد من أشرق فكره وأضَا[(٥)] ،

---

(١) « أوراق » ههنا من كلمتين : إحداهما « أو » العاطفة ، والثانية « راق » وهو اسم فاعل فعله رقى المريض يرقيه ـ من باب ضرب ـ رقية

(٢) بلا ثنيا ـ بضم الثاء وسكون النون ـ أى بغير استثناء

(٣) السناء ـ بفتح السين مع المد ـ الشرف والرفعـة ، والسنا ـ بالفتح مع القصر ـ النور

(٤) الامتراء : الشك والارتياب ، وأصله المد فقصره ليتم له السجع

(٥) أضا : أصله أضاء ، ومعناه أنار ، وقد قصره أيضا مراعاة للسجع

إلى التفويض لأحكام القضا ، ومن ذا يردُّ ما أمضى أو ينقض ما أبرم ، والتسليمُ على كل حال أسْلَم ، وأمَرَ جلَّ اسمُه بالتدبر فى أنباء من مضى ، والنظر فى عواقب أحوال الذين زال أمرهم وانقضى ، من صنوف الأمم ، ووَبَّخَ من دَجَا قلبُه[١] بالإعراض عن ذلك وأظلم ، وشتان ما بين اللاهى والمتذكر ، والساهى والمتفكر ، والناجى والهالك المتحيِّر ، والداجى الحالك والمشْرِق النير ، ومايستوى الظِّلُّ والحَرُور ، والحُزْن والسرور ، والظلمات والنور ، ذو البهجة والإشراق .

وأصلى أزكى الصلاة والسلام ، هَدِيةً لحضرة سيد الأنام ، ولَبِنَة التمام ، مَنْ زُوِيت[٢] له من الأرضِ المغاربُ والمشارق ، وتم به نظام أنبياء الله ورسله العظام ، وأزاح نوره الضلالَ والظلام ، حتى أضاءت بوسمه المساجد وازدانت باسمه المهارق ، وألقى الموفق الموافق لدعوته بيد الاستسلام ، وذلك شأنُ ذوى العقول الراجحة والأحلام ، غير خائف من عَتْبٍ ولا مترقب لمَلاَم ، فأمن من الطوارئ والطوارق ، وتمت كلمة الإسلام الذى اتضح برهانه لذى بصر و بصيرة لا يحتاج إلى زيادة الإعلام ، وعلت سيوفُ توحيد الملك العلام ، من المعاند المفارِقِ المفارَق[٣] ، وخضبتها بحناء النجيع الرقراق : النبى الأمى الأمين ، الداعى جميعَ العالمين ، إلى سلوك منهاجٍ ماله مِنْ هاج[٤] ذى أضواء شوارق ، سيد الرسل الغرّ الميامين ملجأ الأمة جعلنا الله ممن نجا باللَّجَأ إليه آمين ، الذى أنزل عليه القرآن ، هُدًى للناس و بينات من الهدى والفرقان ، وانشق له الزبرقان[٥] ونبع الماء من بين أصابعه زيادةً فى الإيقان ، وسلمت عليه الأحجار ، وانقادت لأمره الأشجار ، متفيئة ظلاله الشريفة

---

(١) دجا قلبه : أظلم ، مأخوذ من الدجية ، وهى ظلمة الليل ، وجمع الدجية دجى — بضم الدال فيهما

(٢) زويت له : طويت ، يعنى تقاصرت أطرافها واقترب ما بين نهايتيها

(٣) المفارق الأولى — بضم الميم — اسم فاعل فعله فارق يفارق وهو وصف للمعاند ، والمفارق الثانى — بفتح الميم — جمع مفرق ، وهو الموضع الذى يفرق فيه الشعر من الرأس ، وهو مفعول علت

(٤) هاج : أى ذام قادح ، اسم فاعل فعله هجاه يهجوه هجوا وهجاء

(٥) الزبرقان : القمر

وخطت فى الأرض أسطرا مُبْدَعَة الإتقان ، إلى غير ذلك من معجزاته الخوارق ، فهو صاحب الدعوة الجامعة ، والبراهين اللامعة ، والأدلة التى سقت الشجرة الطيبة غيوثُهَا النافعة ، الصَّيِّبة الهامية الهامعة ، الصادقة البوارق . فأثمرت النجاة والفوز والفلاح وأورقت بالهدى أحسن إيراق ، أسنى رسولٍ بُعِث إلى الأرض وأعظمهم جَلَالَة(١) ، وأكثرهم تابعا فى الطول منها والعرض ولم لاَ وقد ظهر به الحق لمن أمَّه(٢) مسترشدا وجَلاله(٣) ؟وأسمى مَنْ جاء بتبيين السنة والفرض وأعمهم دَلَالَة ، منقذ البرايا فى الدنيا ويوم العرض الآخذ بحُجَزهم عن النار والضلالة ، الداعى إلى تقديم الخير وحسن القرض الحريص على هداية الخلق المبلِّغ لهم أحكام الحق من غير ضجر ولا ملالة ، ذو الفضل العظيم الذى لم يختلف فيه من أهل العقول اثنان ، والمجد الصميم(٤) الثابت الأصول الباسق(٥) الأفنان ، المنتقى من مَحْتِدِ معد بن عدنان ، المنتخَب من خير عُنْصر وأطهر سُلَالَة ، شفيعنا ومَلَاذنا وعصمتنا ومَعَاذنا و ثِمَالنا الذى نجحت به آمالنا وزكت أقوالنا وأعمالنا ، ووسيلتنا الكبرى ، وعمدتنا العظمى فى الأولى والأخرى ، وكنزنا الذى أعددناه لإزاحة الغموم ذُخْراً ، وغيثنا وغوثنا وسيدنا ونبينا ومولانا محمد الطيب المنابت والأعراق .

صلى الله وسلم عليه ، ووَجَّه وفودَ التعظيم إليه ، من مفرد فى جماله صار لجمع الأنبياء تماما ، وفذّ فى كماله تقدّم فى حضرة التقديس التى أسست على التشريف

---

(١) جلالة : مصدر جل يجل بمعنى عظم وسما قدره يسمو

(٢) أمه : قصده

(٣) « وجلاله » عدة كلمات : الواو العاطفة ، وجلا : فعل ماض بمعنى كشف وأوضح ، وله : جار ومجرور

(٤) المجد الصميم : الخالص من الشوائب والكدورات

(٥) الباسق : العالى المرتفع ، والأفنان : جمع فنن ــ بفتح الفاء والنون جميعا ــ وهو الغصن

أعظم تأسيس بالمرسلين إماماً ، وصَدْر تحلّى بجميل الأوصاف ، كالوفاء والعفاف ، والصدق والإنصاف ، فزكا فى أعماله ، وبَلَّغ الراجى منتهى آماله ، ولم يخلف وَعْدًا ولم يَخْفِر ذماماً ، وسيد كُسِىَ حُلَل العِصْمة ، من كل مخالفة وذنب ووَصْمة ، فلم يصرف لغير طاعة مولاه ، الذى أولاه من التفضيل ما أولاه ، اهتبالا واهتماما.

وعلى آله وعترته ، الفائزين بأثرته ، أنصار الدين ، والمهاجرين المهتدين ، وأشياعه وذريته ، الطالعين نجوما فى سماء شهرته ، وأتباعهم القائمين بحقوق نُصْرته ، أرباب العقل الرصين ، الفاتحين بسيوف دعوته أبواب المَعْقِل الحصين ، حتى بلغت أحكام ملته ، وأعلامُ بعثته ، مَنْ بالأندلس والصين ، فضلا عن الشأم والعراق .

ورضى الله تعالى عن علماء أمّته المصنفين فى جميع العلوم والفنون ، وعظماء سنته المُوفين للطلاب بالآراب المحققين لهم الظنون ، وحكماء شِرْعَته المتبصرين بحدوث من مرّتْ عليه الأيام والشهور وكرّت عليه الآناء والدهور والأعوام والسنون ، المتدبرين فى عواقب مَنْ كان بهذه البسيطة من السكان المتذكرين على قدر الإمكان بمن طَحَنته رَحا المنون ، من أمْلاَكِ العصور الخالية ومُلاَّك القصور العالية وذوى الأحوال التى هى بسلوك الاختلاف حَالِية ، من بصير وأعمى وفقير وذى نُعمى ومختال تَرَدَّى بكبريائه ، ومحتال على ما بأيدى الناس بسُمْعته وريائه ، وعاقل أحسن العمل ، وغافل افتتن بالأمل ، وكارع فى حياض الشريعة ، وراتع برياض الآداب المريعة ، وذى وَرَعٍ سَدّ عما رابه الذريعة ، وأخى طمع فى أن يدرك آرابه من الدنيا الوشيكة الزوال السريعة ، ومقتبس من نبراس الرواية ، وملتبس بأدناس الغواية ، وشاعر هام فى كل واد ، وقال ما لم يفعل فكان للغاوين من الروّاد[1] ، وجاهل عمر الخراب ، وخُدع بالسَّراب ، عن أعذب

(١) أخذ هذا من قوله تعالى : (والشعراء يتبعهم الغاوون ، ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون ، وأنهم يقولون ما لا يفعلون)

الشراب ، ومحقق علم أنه إذا جاء القَدَر عمى البصر ممن كان أحْذرَ من غُراب ، وموفق تيقن أن غير الله فانٍ وكل الذى فوق التراب تُرَاب (١) ، ومن متخلق متجرّد تصوّف ، ومتعلق متفرّد تشوّق إلى مافيه رضا الرب وتشوّف ، وناه ذكر بأيام الله ، ووعظ وخوّف ، ولاهٍ اغتر بالباطل ، فهو بالحق مماطل ، وطالما أخره وسوّف ، وأبعد الانتجاع ، ثم أوى من باطنه إلى بيت قَعيدتُهُ لَكاع (٢) نفس أمّارة بعد ما طوّف ، ومن مادح نظم الآلاء نظم اللآل ، وكادح طمس لألاء العز بظلمة ذل السؤال ، فجعل القصائد مصايد ، والرسائل وسائل ، والمقطعات مرقعات ، فآل أمره إلى ما آل ، ومن مخبر بما سمع ورأى ، حين اغترب عن مكانه ونأى ، أو أقام فى أوطانه فبلغ ماقدّر ووَأى ، ومن مُجازف لايفرق بين الغث والسمين والإمرار والإحلاء ، وعارف ثقةٍ أمين نَظَم دُرَّ الصدف الثمين فى أسلاك الكتابة والإملاء ، وعاشق خنساء فكره ذات الصِّدار (٣) من الشجون والشعار تبكى على صَخْر قلب المحبوب ، وتذكره كلما طلعت شمس (٤) أو كان للصَّبَا هبوب ، فتأتى بما يُطفى وقود الجوى المَشْبوب من بحار الأشعار ، وليلى شوقه العفيفة عن العار تَرْفُل فى ثوب من التصبر معار، وقيس توْقه (٥) من ثوب السلوعار ، قدتوله واشتاق خصوصاً عند انتشاق البَشَام والعَرَار (٦) وقلق لما أرق فلم يقرّ به قرار ، فاعتراه

---

(١) هذا من قول أبى الطيب المتنبى :

إذا صح منك الود فالكل هين وكل الذى فوق التراب تراب

(٢) أخذ هذا من بيت ينسب للحطيئة :

أطوف ما أطوف ثم آوى إلى بيت قعيدته لكاع

(٣) يلوح إلى الخنساء الشاعرة وقصتها فى لبس صدار جزعا علي أخيها صخر

(٤) مأخوذ من قول الخنساء :

يذكرنى طلوع الشمس صخرا وأذكره لكل مغيب شمس

(٥) يلوح هنا إلى ليلي العفيفة وعاشقها قيس

(٦) انتشاق : شم ، والبشام والعرار : نبتان من نبات البادية ذوا ريح طيبة

ما براه وألف البكاء بحكم الاضطرار، ولَبِسَ ثياب النحول والاصفرار، وأسرلما هزمت جيوش صبره وأزمعت الفرار، فتحير مما شجاه وسأل النجاة من أسر الفراق .

سبحان من قسم الحظو ظ فلا عتاب ولاَ مَلاَمَهْ
أعْمى وأعْشى ثم ذو بَصَر وزرقاء اليَمَامَهْ
ومُسَدَّد أو جائر أو حائر يشكو ظُلاَمَهْ
لولا استقامَةُ مَنْ هدا ه لما تبينَتِ العَلاَمَهْ
ومجاور الغَرَرِ المخيف لهُ البشارة بالسلامه
وأخو الحجا فى سائر الْأنفاس مُرْتَقِبٌ حِمَامَهْ
وكما مضى مَنْ قَبْله يمضى ولم يقض التزامه
والجاهل المغترُّ مَنْ لم يجعلِ التقوى اغْتِنَامَهْ
فليرفضِ العصيانَ مَنْ يخشى من الله انتقامَهْ
وليعتبر بسواه مَنْ لصلاحِهِ صَرَفَ اهتمامه
فالعيشُ فى الدنيا الدنيـة غيرُ مرجُوّ الإدامه
مَنْ أرضعته ثديَّهَا فى سرعة تبدى فِطَامَهْ
من عز جانبُهُ بها تنوى على الفوْر اهْتِضَامَهْ
وإذا نظرت فأين من مَنعَتْه أو مَنحَتْ مَرَامَهْ
ومَنِ الذى وَهَبَته وَصْلا ثمَّ لم يَخْشَ انصرامه
ومَنِ الذى مَدّتْ له حَبْلا فلم يَخَفِ انفِصَامَهْ
كم واحدٍ غرَّتْه إذْ سَرَّتْه مخفيَةَ الدَّمامه
قَعَدَتْ به من حيث لم يعلم فلم يملك قيامه
أين الذين قلوبُهُمْ كانت بها ذاتَ استهامه
أين الذين تَفيَّئُوا ظلَّ السيادة والزَّعَامَهْ

أين الملوك ذوو الريا سة والسِّياسة والصَّرامَهْ
وبنو أُمَيَّة حين جَمَّع عصرُهُمْ لهمُ فِئامَهْ
وتمكنوا ممن يحاول نَقْضَ ما شاؤا انْبرامَه
وتعشقوا لما بَدَا لهم مُحَيَّا الأرض شَامَهْ
وتأمّلوا وجه البسيطة فانْثَنَوْا يهوون شَامَهْ
حتى تقلَّصَ ظلهم وأراهُمُ الدهر اخترامه
أين الخلائفُ من بني الـعباس والـبر القسامه[1]
أين الرشيدُ وأهلُه وبَنُوه أصحاب الشَّهامه
ووزيره يحيى وجَعْفَرُ ابنه الراوي احْتِشَامَهْ
والفضل مُدْنِي من يقول لمن يلوم على الندى مَهْ
أم أين عنترة الشجاع وذو الجُدَا كَعْبُ بن مامه
والزاعمون بجهلهم أن القبور صَدًى وهَامَهْ
والمكثرون من المجون إذا شكا الفكر اغتمامه
أين الغريض ومَعْبَدٌ أو أشعبٌ وأبو دُلامَهْ
أين الألى هاموا بسُعْدَى أو بثينة أو أُمَامَهْ
وبكوا لفرط جواهُمُ والليل قد أرخى ظَلامَهْ
وتتبعوا آثار من عشقوا بنجد أو تِهَامَهْ
وتعللوا والشوق يغلب بالأراكة والبشامه
أضنى النوى قيسا فقاسى لاعِجًا أغرى غرامه
وغوى هوى غَيْلانَ مذ أبدى بميَّتِهِ هُيَامه
أين الأكاسِرُ والقيا صرة المُجَلُّون الغمامه

(١) البر ـ بضم الباء ـ جمع أبر ، وهو أفعل تفضيل من «بر يبر» بمعنى صدق والقسامة ـ بفتح القاف ـ الحسن والجمال ، وكأنه قال : هم أصدق الناس جمالا ، يعني لا تكلف فيه ولا تزوير .

أين الذى الهرمان من بنيانه الحاكى اعتزامه
أم أين غُمْدَانٌ وسيف والوفود به أَمَامَهْ
أين الخورنق والسَّدِير ومن شقى بهما أُوَامَهْ
ومدائن الإسكندر اللَّاتى لها أعلى دِعَامَهْ
أين الحصون ومن يصو ن بها من الأعدا حطامه
أين المراكب والموا كب والعصائب والعمامه
أين العساكر والدسا كر والنَّدامى فى المُدامه
وسقاتها المتلاعبو ن بلب من أعطوه جامه
من كل أهيف يزدرى بالغصن إن يَهْزُزْ قَوَامه
ذى غُرَّةٍ لألاؤها تمحو عن النادى ظَلامه
فالشمس فى أزراره والبدر فى يده قُلَامَهْ
يُصْمِى القلوبَ إذا رمى عن قوس حاجبه سِهامَهْ
ويروق حسنا إن رَنَا ويفوق آراما برامه
أنى لها ثغر حلا ذوقا لمن رام التثامه
أنى لها وجه يشبُّ بقلب مبصره ضِرَامَهْ
أستغفر الله للغوٍ لا يرى الشرع اعْتِيَامَهْ
بل أين أرباب العلو م أولو التصدُّر والإمامه
وذوو الوزارة والحجا بة والكتابة والعلامه
كأئمة سكنوا بأندلس فلم يشكوا سآمه
هى جنة الدنيا التى قد أذكرت دارَ المُقامه
لاسيما غرناطة الغرّاء رائقة الوَسامه
وهى التى دعيت دِمَشْق وحسبها هذا فخامه
لنزول أهليها بها إذ أظهر الكفر انهزامه

وأتت جيوش الشأم من باب نَفَى الفتحُ انبهامه
فسَلَوْا بها عن جِلّقٍ إذ أشبهتها فى الضخامه
وبَدَالهم وجه الْمُنَى وأراهم الثَّغْرُ ابتسامه
وتبوّءها حَضْرَةً تُبْرِى من المضنى سَقَامَهْ
برُوَائِهَا وبمائها وهوائها النافى الوخامه
ورياضها المهتزة الـأعطاف من شَدْوِ الحمامه
وبمَرْجِهَا النَّضْرِ الذى قد زين الله ارتسامه
وقصورها الزُّهر التى يأبى بها الحسن انقِسامه
ياليت شعرى أين مَنْ أمضى بها الملك احتكامه
وأتيح فى حمرائها عِزّابه زان اتِّسامه
أين الوزير ابن الخطيب بها فما أحلى كلامه
فلَكَمْ أبان العدل فى أرجائها وبها أقامه
ولَكَمْ أجار عِدًا وكَمْ أجرى نَدًى وَالَى انسجامه
راعت صروف الدهر دو لته وما راعت ذِمَامَهْ
حتى ثَوَى إثر التَّوَى فى حفرة نثرت نظامه
مَنْ زارها فى أرض فا س أذهبت شَجْوًا منامه
إذ نبهته لكل شمـل شتت الموت التئامه
هذا لسان الدين أسكته وأسكنه رجامه
ومحا عبارته فمن حَيَّاه لم يَرْدُدْ سلامه
فكأنه ما أمسك الـقلم المطاع ولا حسامه
وكأنه لم يعل متن مُطَهَّم بارَى النعامه
وكأنه لم يرقَ غا رِبَ الاعتزاز ولا سَنامه

وكأنه لم يجل وَجْـهاً حاز من بِشْرٍ تمامه
وكأنه ما جال فى أمر ولا نَهْيٍ وَسَامَهْ
وكأنه ما نال من ملك حُباه ولا احترامه
وكأنه لم يُلْقِ فى يده لتدبير زِمَامَهْ
مـذ فارق الدنيا وقوّض عن منازلها خيامه
أمسى بقبر مفرداً والترب قد جمعت عظامه
من بعد تثنية الوزا رة جاده صَوْبُ الغَمامه
لم يبق إلا ذكره كالزهر مُفْتَرَّ الكِمَامه
والعمر مثل الضيف أو كالطيف ليس له إقامه
والموت حَتْمٌ ثم بعـد الموت أهوال القيامه
والناس مجزيون عن أعمال مَيْلٍ واستقامه
فذوو السعادة يضحكو ن وغيرهم يبكى نَدَامَهْ
والله يفعل فيهمُ ما شاء ذلا أو كرامه
ويُشَفِّعُ المختار فيهم حين يبعثه مقامه
وعليه خير صلاته مع صحبه تتلو سلامه
والتابعين ومَنْ بدا بَرْقُ الرشاد له فشَامَهْ
ما فاز بالرِّضْوَان عَبْـدٌ كانت الحسنى ختامه

والله سبحانه المسؤل فى الفوز والنجاة كرما منه وحلما ، فبيده الخير لا إله إلا هو العلى الكبير العليم الخبير الذى أحاط بكل شىء علما ، فلا يَعْزُبُ عنه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء من مخلوقاته على الشمول والاستغراق .

أما بَعْدَ ـ حمد الله مالك الملك ، والصلاة على رسوله المنْجِى من الهلك ، والرضا عن آله وصحبه الذين تجلَّتْ بأنوارهم الظُلَم الحُلْك ، وعن العلماء الأعلام ، الخائضين بحار الكلام ، المستوين من البلاغة على الفلْك ـ فيقول العبد الحقير ،

المذنب الذى هو إلى رحمة ربه الغنى فقير، المقصر المتبرئ من الحَوْل والقوة، المتمسك بأذيال الخدمة للسُّنة والنبوّة، وذلك بفضل أمان وبراءة، الضعيفُ الفانى، الخطَّاء الجانى، مَنْ هو من لباس التقوى عَرِىّ، أحمد بن محمد بن أحمد الشهير بالمقّرِىّ، المغربى المالكى الأشعرى، التلمسانى المولِدِ والمنشأ والقراءة، نزيل فاس الباهرة ثم مصر القاهرة، أصلح الله أحواله الباطنة والظاهرة! وجعله من ذوى الأوصاف الزكية والخلال الطاهرة! وسَدَّد فى كل قصد أنحاءهُ وآراءه، ووفقه بمنه وكرمه للأعمال الصالحة، والطاعات الناجحة الراجحة، والمتاجر المغبوطة الرابحة، والمساعى الغادية بالخير الرائحة! ووَقَاه ما بين يده ووراءه! وكفاه مكر الكائد وافتراءه، وجِدَالَ الحاسد المستأسد ومِرَاءَه! وجعل فيما يرضيه سَوْمَه وشراءه! آمين: إنه لما قضى الملك الذى ليس لعبيده فى أحكامه تعقب أوردّ، ولا محيدَ عماشاءه سواء كَرِهَ ذلك المرء أورد، برحلتى من بلادى، ونُقْلَتى عن محلّ طارفى وتِلادى، بقُطْرِ المغرب الأقصى، الذى تمت محاسنه لولا أنّ سَماسِرَة الفتن سامت بضائع أمنه نَقْصًا، وطما به بحرُ الأهوال فاستعملت شعراء العَيْش فى كامل رَوْنقه من الزحاف إضماراً وقطعاً ووَقْصا.

المؤلف يتحدث عن موطنه ويتألم لفراقه

قُطْر كأنَّ نسيمَهُ نَفَحاتُ كافورٍ ومِسْكِ
وكأن زَهْرَ رياضِه دُرٌّ هَوَى مِنْ نظم سِلْكِ

وذلك أواخر رمضان من عام سبعة وعشرين بعد الألف، تاركا المنصب والأهل والوطن والإلف.

بَلَدٌ طاب لى به الأُنْسُ حيناً وصفا العَوْدُ فيه والإبداء
فسقَتْ عهدَه العِهادُ وَرَوَّتْ منهُ تلك النوادِىَ الأنداء

وما عسى أن أذكر فى إقليم، تعيَّنَ لحجةِ فضلِهِ التسليم.

أضْوَاؤه طبق المنى، وهَواؤه يشتاقه الوَلْهَان فى الأسحارِ
والطبْعُ معتدل فقُلْ ماشئته فى الظلِّ والأزهار والأنْهَارِ

محل فتح الكمائم ، ومسقط الرأس وقطع التمائم .

به كان الشبابُ اللَّدْنُ غضًّا وَدَهْرِى كُلُّه زمنَ الربيعِ

ففرّقَ بَيْنَنَا زمنٌ خؤن له شَغَفٌ بتفريق الجميعِ

لم أنس تلك النوَّاسم ، التى أيامها للعمر موَاسم ، وثغورها بالسرور بواسم ، فصرت أشير إليها وقد زُمّت للرحيل القُلُصُ الرواسم .

ولنَا بهاتيك الديار موَاسمٌ كانَتْ تُقَام لطيبها الأسوَاقُ

فأباننَا عنها الزمانُ بسرعة وغدَتْ تعللنا بها الأشوَاقُ

وأنشد قولَ غَيْلاَن(١) :

أمنزلتَىْ مَىٍّ سَلاَم عليكما هل الأزْمُنُ اللاَّئى مَضَيْن رواجع(٢)

وأتمثل فى تلك الحدائق التى حمائمها سواجع ، بقول مَنْ جفونُهُ من الهوى غيرهواجع

تَشْدُو بعِيدَانِ الرياض حمائم شَدْوَ القِيان عَزَفْنَ بالأعواد(٣)

مَادَ النسيمُ بقُضْبها فتمايَلَتْ مُهْتزَّةَ الأعطاف والأجياد

هٰذِى تودِّع تلك توديعَ التى قد آذنَتْ منها بوَشْكِ بعاد

واستعْبرَتْ لفراقِهاَ عَيْن النَّدَى فابْتلَّ مئزرُ عِطْفِهاَ الْميَّادِ

وأُحدّق النظر إلى رَوْض ، لإنسان العينِ من فراقه فى بحر الدموع سَبْح وخَوْض

رَوْضٌ به أشياء ليسَتْ فى سِوَاه تؤلَّفُ

فمنَ الهَزَارِ ترَنم ومِنَ الْقَضِيب تَقَطف

---

(١) غيلان : هو غيلان بن عقبة ، المعروف بذى الرمة ، الكثير التشبيب فى مية بنت مقاتل بن طلبة بن قيس بن عاصم المنقرى ، وقد ضربته الشعراء مثلا فى العشق والتشبيب ، حتى قال أبو تمام فى صفة الطلول :

ما ربع ميه معمورا يطيف به غيلان أبهى ربا من ربعها الخرب

(٢) وقع فى ب ، ز « أمنزلتى منى » محرفا ، وبيت ذى الرمة مشهور

(٣) تشدو : تغنى ، والقيان : جمع قينة ، وهى الأمة المغنية ، أو مطلقا ، وعزفن : ضربن

ومِنَ النسيم تلطف ومنَ الغدير تعطُّف

وألتفت كالمستريب ، والحيُّ إذ ذاك قريب ، وحديثُ العهْدليس بمنكرولا غريب

أهذا ولما تَمْضِ للبَيْنِ ساعة فكيف إذا مَرّتْ عليه شُهُورُ

والآثار لائحة ، والشمال غادية ورائحة .

أرَى آثارهم فأذوبُ شوْقاً وأسْكُبُ مِنْ تذكُّرهم دُمُوعِى

وأسأل من قَضَى بفراق حِبِّى يَمُنُّ علىَّ منهم بالرجوع[(١)]

والنفس مُتعلّلة ببعض الأنس ، والمشاهِدُ الحميدة لم تنس .

تلك العهود بشدّها مختومة عندى كما هى عقْدُها لم يُحْلَلِ

غير أن الرّحيل ، عن الربع المُحيل[(٢)] ، فُصِل به بين الشائق والمَشُوق وحِيلَ

وقفنا برَبْعِ الحِبِّ والحِبُّ راحل نحاول رُجْعَاه لنا ويُحَاول

وألْقَتْ دموعُ العين فيه مَسَائلا لها عن عبارات الغرام دلائل

وبالسَّفح منها كم سَقَيْت لِبَانَهَا فميَّلْتُه والسفح للبان مائل

إذا نَسْمَة الأحباب منها تنسَّمَتْ تطيبُ بها أسْحارنا والأصائل

تُثيرُ شجونى ساجعاتُ غصونها فمِنْها على الحالَيْن هاجَتْ بَلابلُ

مرابعُ ليلى فى مراتِعِ لذتى مطالعُ أقمارى بها والمنازل

فحياها الله من منازل ذات أقمار سائرة فيها ، ومنازِهَ لا يُحْصى الواصفُ محاسنها وأمداحَ أهلها ولا يستوفيها .

حَلُّوا عقودَ اصطبارى عندمارَحَلُوا وفى الخمائل حَلُّوا مثلَ أمطارِ[(٣)]

إن المنازل قد كانت منازِهَ إذ باتُوا بها وهْىَ أوطانى وأوطارى

---

(١) المحفوظ فى صدر هذا البيت «وأسأل من بفرقتهم بلانى» والحب ـ بكسر الحاء ـ الحبيب

(٢) الربع : المنزل ، والمحيل : المتغير ، أو الذى أتت عليه أحوال .

(٣) الخمائل : جمع خميلة ، وهى الموضع الكثير الشجر .

ورعى الله مَنْ بان[١] وشاق حتى الرَّند والبان[٢].

بانوا لعينىَ أقماراً تقلهمُ ... لُدْنُ الغصون فلمَّا آنسوا بانوا

عُهُودهم لستُ أنساها،وكيفَ وقد ... رَثَى لبينىَ عنها الرَّنْدُ والبَانُ

وفى مثل هذا الموطن تذوب القلوب الرقاق ، كما قال حائز قصبِ السَّبْقِ بالاستحقاق ، الأديبُ الأندلسى الشهير بابن الزَّقَاق .

وقفت على الربوع ولى حَنينٌ ... لساكنهنَّ ليس إلى الربوع

ولَوْ أنّى حَنَنْت إلى مَغانى ... أحِبَّائى حَنَنْتُ على ضلوعى

وكما قال بعض مَنْ له فى هذه الفِجَاجِ مسير :

دخولُكَ من باب الهوى إن أردْتَهُ ... يسيرٌ ، ولكنَّ الخروجَ عسيرُ

وأين مَنْ له صَفاة لا يطمع الدهر القوىّ فى نَحْتها ، وجنّات دنيوية لا تجرى أنهار الفراق من تحتها ؟

فَسَقَى رضيع النبت من ذاك الحمى ... بحَياً تدور على الرُّبا كاساتُه

سَفْح سَفَحْت عليه دَمْعى فى ثرًى ... كالمسك ضاع من الفتاة فتاتُه

ولم أزل بعد انفصالى عن الغرب بقصد الشرق ، واتصالى فى أثر ذلك الجمع بالفرق

أحِنّ إذا خلوتُ إلى زمان ... تَقَضَّى لى بأفنية الربوع

وأذكر طيبَ أيام تولَّتْ ... لنا فتفيض من أسفٍ دموعى

وأتوق وقد اتسع من البعد الخَرْقُ ، وخصوصاً إذا شَدَا صادحٌ أو أَوْمَض برق[٣] إلى ديار لا يعدوها اختيار .

---

(١) بان : فعل ماض معناه فارق وبعد

(٢) الرند ـ بفتح الراء وسكون النون وآخره دال مهملة ـ شجر طيب الرائحة من شجر البادية ، وقيل : هو العود ، وقيل : هو الآس . والبان : شجر سبط القوام ورقه لين كورق الصفصاف ، واحدته بانة ، والعرب تشبه به قدود الغانيات لطوله واستقامته

(٣) أومض يومض إيماضا : لمع يلمع لمعانا .

وأربُعِ أحبابٍ إذا ما ذكرتُهَا بكيتُ، وقد يُبكيك ما أنت ذاكِرُ
بِطَاحٌ وأَدْوَاحٌ يروقك حُسْنُهَا بكل خليج نمنمته الأزاهِرُ
فما هو إلاَّ فضة فى زبرجد تساقطَ فيه اللؤلؤ المُتَنَاثِرُ
بحيث الصبا والترب والماء والهوى عبير وكافور وراح وعاطر
وما جنة الدنيا سوى ما وصفته وما ضم منه الحسن نجدٌ وحاجِرُ
بلادى التى أهلى بها وأحبتى وروحى وقلبى والمنى والخواطر
تذكرنى أنجادُهَا ووهادها عهودًا مضت لى وهى خُضْرٌ نواضر
إذ العيشُ صافٍ والزمان مساعد فلا العيش مملول ولا الدهر جائر
بحيث ليالينا كَغَضٍّ شبابنا وأيامُنَا سلك ونحن جواهر
ليالىَ كانت للشبيبة دولَةٌ بها ملك اللذات ناهٍ وآمر
سلام على تلك العهود فإنها موارد أفراح تلتها مصادر

وأتذكر تلك الأيام ، التى مرت كالأحلام ، فأتمثل بقول بعض الأكابر الأعلام :

يا ديار السرور لا زال يَبْكى فيك إذ تَضْحَكُ الرياضُ غَمَامُ
رُبَّ عيشٍ صحبته فيك غَضّ وعُيُون الفراق عنا نيامُ
فى ليالٍ كأنهن أمانٍ فى زمانٍ كأنه أَحْلامُ
وكأن الأوقاتَ فيكِ كؤوس دائرات وأنسُهُنَّ مُدَامُ
زمن مُسْعِد وإلْفٌ وَصُول ومُنًى تَسْتَلِذّهَا الأوهام

وبقول الحائك الأمى ، عند ما يكثر شَجْوى وغمى :

لم أنس أياما مضت ولياليا سَلَفَتْ وعيشاً بالصَّريم تصرَّمَا
إذ نحن لانخشى الرقيبَ ولم نَخَفْ صَرْفَ الزمان ولا نطيع اللُّوَّما
والعيش غَضّ والحواسدُ نُوَّم عنا وعين البين قد كُحِلَتْ عَمى
فى روضة أبدت ثغورُ زهورها لما بكى فيها الغمامُ تبَسُّمَا

مَدَّ الربيع على الخمائل نَوْرَه فيها فأصبح كالخيام مخيما
تبدو الأقاحى مثلَ ثغر أشْنَبٍ أضحى المحبُّ به كئيباً مُغْرَمَا
وعيونُ نَرْجِسِها كأعين غادةٍ تَرْنُو فترمى باللَّواحظ أَسْهُمَا
وكذلك المنثورُ منثورٌ بها لما رأى وَرْدَ الخدود مُنَظَّمَا
والطير تَصْدَحُ فى فروع فنونها سَحَرًا فتوقظ بالْهَدِيل النُّوَّمَا

وأميل، إلى بلاد مُحَيَّاها جميل:

كساها الحيَاَ بُرْدَ الشباب فإنها بلاد بها عَقَّ الشبابُ تمائمى
ذكرتُ بها عهدَ الصِّبا فكأنما قَدَحْتُ بنار الشوق بَيْنَ الحيازم
ليالىَ لا ألوِى على رُشْدِ ناصحٍ عِنانى، ولا أثنيه عن غَىِّ لائم
أنالُ سُهَادى من عيونٍ نواعِسٍ وأجنى مرادى من غصون نواعم
وليل لنا بالسَّدِّ بين معاطف من النهر ينساب انسيابَ الأراقم
تَمُرُّ إلينا ثم عنا كأنها حواسد تمشى بيننا بالنمائم
وبتنا ولا واش نخاف كأنما حللنا مكان السر من صدر كاتم

وأهفو إلى قصور ذات بَهْجَة، وصُروح توضح معالمها للرائد نَهْجَه.

ورياض تختال منها غصون فى بُرُودٍ من زهرها وعُقُودِ
فكأن الأدواح فيها غَوانٍ تتبارى زَهْواً بحسن القُدود
وكأن الأطيار فيها قِيَانٌ تتغنَّى فى كل عود بعود(١)
وكأن الأزهار فى حَوْمَة الرو ض سيوفٌ تُسَلُّ تحت بُنُود(٢)

وأصبو إلى بِطَاح وأدواح، تروّح النفوس والأرواح.

سَقْياً لها من بطاح خَزٍّ ودَوْحِ زهر بها مُطِلِّ
إذ لا ترى غير وجه شمس أطَلَّ فيه عِذارُ ظِلِّ

وأنهار جارية، وأزهار نَوَاسمُهَا سارية، وأربُعٍ ومَلَاعب، تُزِيح عن مُبْصِرها المتاعب.

---

(١) العود الأول أراد به الغصن من الشجرة، والعود الثانى آلة من آلات الغناء
(٢) البنود: الأعلام، واحدها بند، بفتح فسكون، وأصله فارسى

تلك المنازل والملا عب لا أراها الله مَحْلاَ

أوطِنْتِهَا زمَنَ الصبا وجعلت فيها لى مَحَلاَّ

حيث التفتُّ رأيت ما ءً سائحا ورأيت ظلا

والنهر يفصل بين زهـــر الروض فى الشطين فصلا

كبساط وَشْيٍ جرّدت أيدى القُيُون عليه نَصْلاَ

و إلى منازل ، يستفزُّ حسنُها الرائقُ الجادَّ والهازل ، و يشفى منظرها عليلا ، و يكفى مَخْبَرُها للمستفهم دليلا .

وجنان أَلِفْتُهَا حين غنت حولها الوُرْقُ بكرةً وأصيلا

نهرها مسرعاجرى وتمشَّتْ فى رُباها الصَّبا قليلا قليلا

وأتمثل إن ذكرتُ حال وداعى ، بقول الشاعر الأديب الوَدَاعى :

الغرب خير وعند ساكنه أمانة أَوْجَبَتْ تقدّمه

فالشرق من نَيِّرَيْهِ عندهمُ يودِعُ ديناره ودرهمه

و بقول غيره ، إشارةً لفضل الغرب وخيره :

أشتاق للغرب وأصبو إلى معاهدٍ فيه وعَصْرِ الصِّبا

ياصاحِبَىْ نجْوَاىَ والليلُ قد أرخى جلابيب الدجى واخْتَبَا

لا تعجبا من ناظر ساهر بات يراعى أنجما غُيَّبَاً

القلب فى آثارها طائر لما رآها تقصد المغربا

وأهيم كلما حَلَلْتُ من غِيران أرضى [1] بمكان ، وقد صير السائق جد السير معمولا لما انفك كما جعله خبراً لكان ، بقول قاضى القضاة العالم الكبير الشمس ابن خَلِّكان:

أىُّ ليلٍ على المحب أطاله سائقُ الظعن يوم زمّ جماله

يزجر العيس طاويا يقطع المهـــمه عَسْفًا سهولَه ورماله

أيها السائق المجدّ ترفَّقْ بالمطايا فقد سئمن الرحاله

(١) الغيران : جمع غار ، وهو الكهف أو كالبيت فى الجبل ، وقرأ بعضهم هذه العبارة « من غير أن أرضى بمكان » والوجه الذى قرأناها عليه أحسن .

وأَنِخْهَا هنيئةً وأرحها إذ بَرَاها السُّرَى وفَرْطُ الكلاله
لا تُطِلْ سيرها العنيفَ فقد بَرَّحَ بالصب فى سُرَاها الإطاله
وارْثِ للنازح الذى إن رأى رَبْــعاً ثَوَى فيه نادبا أطْلاَلَهْ
يسأل الربع عن ظباء المصلَّى ما على الربع لو أجاب سؤاله
ومُحالٌ من المُحِيلِ جواب غير أن الوقوف فيه عُلاَلَهْ
هذه سُنَّةُ المحبين يبكو ن على كل منزل لا مَحاله
يا ديار الأحباب لا زالت الأعــين فى تُرْبِ ساحتيك مُذَاله
وتمشَّى النسيمُ وَهْوَ عليل فى مغانيك ساحبا أذياله
أين عيش مضى لنا فيك ؟ ما أســرع عنا ذهابَهُ وزَوَاله
حيث وجه الزمان طَلْقٌ نضير والتدانى غصونه مَيَّالَهْ
ولنا فيك طيبُ أوقاتِ أنسٍ ليتنا فى المنام نلقى مثاله

وأردِّد قولَ الذى سحر الألباب ، مناديا مَنْ له من الأحباب :

أحبابنا لو لقيتم فى إقامتكم من الصبابة ما لاقيتُ فى الظعن
لأصبح البحر من أنفاسكم يَبَسًا كالبر من أدمعى ينشق بالسفن

وقوله :

وما تغيرت عن ذاك الوداد ، ولا حَالَتْ بى الحالُ فى عهدى وميثاقى
دَرْسِى غرامى بكم دهرى أكرره وقد تَفَقَّهْتُ فى وجدى وأشواقى

وقول المجد بن شمس الخلافة ، معلما أنه لا يريد بَدَلَ معهده وخلافه :

يا زمان الهوى عليك السلامُ وعَلَيَّ السلوُّ عنك حرامُ
أىُّ عيش قطعته فيك لودا م وهل يُرْتجَى لظلٍّ دوام
كنتَ حُلْماً والعيشُ فيك خيالا وسريعاً ما تنقضى الأحلام
لهف نفسى على ليال تقضَّتْ سلبتنى برودَهَا الأيام
فطمتنى الأقدار عنها وليداً وشديدٌ على الوليد الفِطامُ

لا تلمنى على البكاء عليها مَنْ بكى شَجْوَه فليس يُلام

وقول أبى طاهر الخطيب الموصلى :

حَيِّ نجدًا عنِّى ومن حلَّ نجدَا أربُعاً هِجْنَ لى غراما ووَجْدَا

وأقْرِ عنى السلام آرام ذاك الشعب والأجْرَعَ الخصيب المفدّى

وابْكِ عنى حتى تُرَنِّحَ بالوجد أرَاكًا بهِ وباناً ورَنْدَا

فلكم وقفة أطلت على الضا ل بدمع أذاع سرى وأبدى

وعلى البان كم من البين أذريْتُ لآلى للدمع مَثْنَى ووحدا

آه والهفتى على طيب عيش كنتُ قطَّعته وصالا وودًا

حيث عُودُ الشباب غَضٌّ نضير ويد المكرمات بالجود تَنْدَى

والخليل الودود يُنْعِم إسعا فا وصَرْفُ الزمان يزداد بعدا

والليالى مساعدات على الوصل وعين الرقيب إذ ذاك رَمْدَا

كم بها من لُبانة لى وأوطا رٍ تقضَّتْ وجازتِ الجد جِدّا

فاستعاد الزمان ما كان أعطى خِلْسَةً لى ببخله واستردّا

وقول بعضهم :

سلام على تلك المعاهد ، إنها شريعةُ وِرْدِى أو مَهَبُّ شمالى

ليالىَ لم نحذر حُزُونَ قطيعة ولم نمش إلا فى سهول وِصال

فقد صرت أرضى من نواحى جنابها بِخُلَّبِ برقٍ أو بطيف خيال

وقول الجرجانى :

للمحبين من حِذَارِ الفراق عبراتٌ تجولُ بين المآقى

فإذا ما استقلت العِيسُ للبين وسارت حُدَاتها بالرفاق

استهلَّتْ على الخدود انحدارا كانحدار الُجمانِ فى الاتِّسَاقِ

كم محب يرى التجلد دِيناً فهو يُخْفِى من الهوى ما يلاقى

ازدهاه النوى فأعرب بالوجد لسانٌ عن دمعه المهراق

وانحدار الدموع فى موقف البين على الخد آيةُ العشاق
هوّنِ الخطب لستَ أوّل صَبٍّ فضحته الدموع يوم الفراق

وقول الخطيب الحصكفى الشافعى[١] :

سَارُوا وأكبادُنَا جَرْحَى وأعيننُا قَرْحَى وأنفسُنا سَكْرى من القلَق
تشكو بواطننا من بعدهم حُرَقاً لكن ظواهرنا تشكو من الغَرَقِ
كأنهم فوق أكوار المطىِّ وقد سارت مقطرة فى حالك الغسق
درارئ الزهر فى الأبراج زاهرة تسير فى الفلك الجارى على نسق
يا موحشى الدار مذبانوا كما أنست بقربهم لاخَلَتْ من صَيِّبٍ غَدَقِ
إن غبتُمُ لم تغيبوا عن ضمائرنا وإن حضرتُمْ حملناكم على الحَدَقِ

وما أحسن قول بعضهم فى هذا المعنى ، الذى كررنا ذكره وبه ألمعنا :

سلام على أهل الوداد وعهدهم إذ الأنس رَوْضٌ والسرور فنون
رحلنا فشرّقنا وراحوا فغربوا ففاضت لرَوْعاتِ الفراق عيون

وكم أنشدت وليالى النوى عاتمة ، قولَ الأندلسى ابن حاتمة :

أيامنَا بالحمى ما كان أحلاك كم بت أرعاه إجلالا وأرعاك
لا تنكرى وقفتى ذلا بمغناك يادار لولا أحبائى ولولاك
لما وقفت وقوف الهائم الباكى

فهل لهم عطفة من بعد ذُلِّهمُ تالله ما تسمح الدنيا بمثلهمُ
آها لقلبى على تبديد شملهمُ ما كان أحلاك يا أيام وصلهمُ
ويا ليالى الرضا ما كان أضواك

يا بدرَ تِمٍّ تناءت عنه أربُعُنَا ولم تزل تحتويه الدهرَ أضلعنا
ما للنوى بضروب البين يُوجِعُنَا إذا تذكرت دهراً كان يجمعنا
تفطَّرَتْ كبدى شوقا لمرآك

أحباب أنفسنا كم ذا النوى وكَمِ ويا معاهد نجْوانا بذى سَلَمِ

تالله ما شِئْتُ دمعاً للأسى بدم ولا لثمت تراب الأرض من كرم

إلا مراعاة خِلٍّ ظَلَّ يرعاكِ

عَلَّ التعلل يُدْنِي منهمُ وعَسَى فيعْمُرَ القربُ ما بالبين قد دَرَسَا

كم ذا أنادي بربعٍ بالنوى طمسا يا قلبُ صبراً فإن الصبر عاد أسى

ويا منازلَ سلمى أين سلْمَاكِ

وقول بعضٍ من اشتد به الهيام ، فخاطب جيرتَهُ مادحاً ليالي القرب وذامّاً تقلب الأيام :

أيامُ أنسيَ قد كانت بقربكم بِيضًا ، فحين نأيتم أصبحت سُودَا

ذممت عيشيَ مذ فارقتُ أرضكم من بعد ما كان مغبوطا ومحسودا

وقول صاحب مصارع العشاق ، وقد شاقه من الهوى ما شاق :

بانوا فأدمع مقلتي وجداً عليهم تستهلّ

وحَدَابهم حادي الفرا ق عن المنازل فاستقلوا

قل للذين ترحَّلُوا عن ناظِرِي والقلبَ حَلُّوا

ما ضرَّهُمْ لو أنهلوا من ماء وصلهم وعَلُّوا

وقوله حين زحزحته يد الفراق ، عن أوطان العراق :

قد قلت والعبَرَاتُ تَسْـفَحُها على الخدّ المآقي

حين انحدرتُ إلى الجزيـرة وانقطعتُ عن العراق

وتخبطَّتْ أيدي الرفا ق مَهَامِه البيـد الرقاق

يا بؤسَ مَنْ سلَّ الزما نُ عليه سيفاً للفراق

وقوله أيضاً :

يا منزل الحي بذات النَّقَا سَقَاكَ دمع مذ نأوا مَارَقَا

هل سَلْوة ؟ هيهات ! لاسلوة قد بَلَغَ السيلُ الزُبُى وارتقى

وأنت يا يومَ النَّوَى عاجلا أدال منك الله يومَ اللِّقا

وقولى موطئا للثالث ، وقد تغير لى فيمن تغير حارث(١) :

لم أنس مَعْهَدَنَا والشملُ مجتمعٌ والعيشُ غَضٌّ وروضُ الأنسِ معطار
فها أنا بعد بعدٍ عنه فى قلق وقد نَبَتْ بِىَ أرجاء وأقطار
تمضى الليالى وأشواقى مُجَدَّدَةٌ وما انقضَتْ لى من الأحباب أوطار

وكلما مررت بمرأى يروق ، لمعت لى من ناحية المغنى بالمنى بُروق ، فتذكرت قول بعضِ مَنْ له على غير من يهوى طروق :

ما نظرت عينى سواك منظراً مُسْتَحْسَناً إلا عرضْتَ دونه
وما تمنيت لقاء غائب إلا سألت الله أن تكونه

وربما رُمْتُ انتحائى مذهب السلوّ وانتحالى ، خلال أحوال إقامتى وارتحالى ، فلم ينتقل عن تلك الصفات حالى ، وأنى وجيدِى بقلائد البَتات حالى؟ .

والشوق أعظم أن يحيط بوَصْفِه قَلَم وأن يُطْوَى عليه كتابُ
والله ما أنا منصف إن كان لى عَيْش يطيبُ وجيرتى غُيّابُ

وكيف ولآماقِى صَبّ ، ولأتواقى زيادة إذا سَرَى نسيم أوهَبّ ؟.

شربت حُمَيَّا البين صِرْفاً ، وطالما جلوت مُحَيَّا الوصل وَهْو وَسيمُ
فميعاد دَمْعى أن تنوحَ حمامة وميقاتُ شوقى أن يهبَّ نَسيمُ

فإن لاح سَنَا بارق شاقنى ، أو ترنم شادٍ حدابى إلى الهيام وساقنى ، أو رَنَا ظبى فلاةٍ راعنى وراقنى .

وإنى ليُصْبينى سَنَا كل بارقٍ وكل حمام فى الأراك ينوح
وأرتاع من ظبى الفلاة إذا رنا وأرتاح للتذكار وهو سَنُوحُ
ولم يك ذاك الأمر من حيث ذاتُه ولكن لمعنًى فى الحبيب يَلوحُ

ولا أستطيع الإعراب عن أمرى العجيب ، لما بى من النوى المُذْهِل والجَوَى المدهش والوَجيب :

ولا تسألوا عمَّا أُجِنُّ فليس لى لسانٌ يؤدِّى ما الغرامُ يقول

(١) أخذ هذه الفاصلة من قول إبراهيم بن العباس الصولى :

تغير لى فيمن تغير حارث وكم من أخ قد غيرته الحوادث

يطارحنى البرقُ الأحاديثَ كلما أضاء كأن البرقَ منه رسول
وما بال خَفاقِ النسيم يُميلنى هل الريح راحٌ والشَّمال شَمُول

إذ دموع شُؤنى عند الذكرى لا تَرْقَا ، وجفونى ليس لها عن الأرق مَرْقَى ، وشجونى تنمو إذا صدَحَت بفننها وَرْقَا :

رُبَّ وَرْقاء فى الدياجى تُنَادِى إلْفهَا فى غصـونها الميادَهْ
فتثير الهوى بلحن عجيب يشهدُ السمعُ أنها عوّاده
كلما رجَّعَتْ توجَّعتُ حزناً فكأنا فى وَجْـدنا نتَبَادَهْ

فيالها من ذات طَوْق ، مثيرة لكامن شوق ، جالبة له من يمين وشمال وفوق :

ذكرتنِى الورقاء أيام أنس سالفاتٍ فبتّ أذْرِى الدموعَا
ووَصَلْت السهادَ شـوقاً لحبِّى وغراماً وقـد هجرت الهُجُوعَا
كيف يخلو قلبى من الذكر يوماً وعَلَى حُبِّهم حنيتُ الضلوعا
كلما أولِعَ العذول بعَتْبِى فى هواهُمْ يزداد قلبى وَلُوعَا

وربما أتخيل قول من قال إنها بالحزن بائحة ، وعلى فقد الإلف نائحة ، فأنشد قول خليل ، وهو بالحب مُدْنف وعليل :

ورُبَّ حمامـةٍ فى الدَّوْح باتت تُجيدُ النوحَ فَنًّا بعد فَنِّ
أقاسِمُها الهـوى مهما اجتمعنا فمنها النوحُ والعَبَراتُ مِنِّى

ولاغرو إن ظهر سر بائح ، فباكٍ مثلى من الشجو نائح :

فرَجَعْتُ بعد فراقِ أيام الهوى أصفُ الصَّبابةَ للمحبِّ المولَعِ
دامى الجفون إذا الحمامة غرّدت مِنْ فوق خُوطِ البانةِ المترعْرِعِ
أسقى الديارَ ــ وقد تباعَدَ أهْلُها عنها ــ عَزَالَى الدُّمُوعِ الهُمَّعِ
ونواعب الأطلال ليس يجيبنى ما بينهن سوى الصَّدَى بتوجُّعِ
وهواتف فوق الغصون يجيبنى منهن تغريدُ الحمام السُّجَّعِ
ناحت على عَذَبِ الفروع وإلفُهَا منها بمرأى فوقها وبمَسْمَعِ

ما فارقت إلفاً كما فارقته كلا ولا أجرَتْ سواكب أدمعى

على أوان عيونُ سعوده رَوان ، وزمان معمور بأمانى وأمان ، وآمال دَوان ، وتهانٍ ما بين بِكْرٍ وعَوان ، وفى عذر من طال ليلُه فاضطرب فيه لولوعه ، وسكن جَوَاه بجوانحه وضلوعه :

إن طال ليلى بعدهم فاطوله عذر ، وذاك لما أقاسى منهمُ

لم تَسْرِ فيه نجومُه لكنها وقفت لتسمع ما أحدّث عنهم

فأرقى ، الزائد فى حُرَقى ، أظهر المكنون وأبان ، ووَجْدى بمن نأى و بان ، لم يُجْدِ فيه تعلل بَرَنْدٍ و بان :

تنبهى يا عَذَبَاتِ الرَّنْدِ كم ذا الكرى ؟ هَبَّ نسيم نجد

فلسْتِ مثلى فى جَوًى أو أرقٍ وحُرْقة من فرقة أوصدّ

عوفيتِ مما حل بى من جيرة فى الغرب لم يَرْثُوا لفرط وَجْدى

أعلل القلب ببانٍ عنهمُ وهل ينوب غُصُنٌ عن قدّ

بانوا فلا مغنى السرور بعدهم مغنى ، ولا عهد الرضا بعهد

آها من البعد ومن لم يدره لم يَشْجُهُ تأوّهى للبعد

وفى شغل من أبكته الربوع والطلول ، وذهبت بُرْهَةٌ من زمانه بين الترحل والحلول ، فركب من الأخطار الصَّعْبَ والذَّلُول ، وحافظ على العهود ولم يسلك سبيل الغادر الملول :

سَقَاهَا الحَيَا من أربُعٍ وطُلُولِ حكت دَنَفِى من بعدهم ونُحُولى

ضمنْتُ لها أجفان عينٍ قريحة من الدَّمْع مِدْرَارِ الشؤن هَمُول

ومن الغريب ، الذى ينكره غير الأريب ، أن الحادى إنْ سرَّ القلبَ بكشف رَيْن ، فقد تسبب فى اجتماع أمرين متنافيين متنافرين :

ترنمَ حادٍ بالصَّرِيم فشاقنى إلى ذكر مَنْ باتَتْ ضلوعى تَضُمُّهُ

فَسَرَّ وساء النفسَ شجوًا فربما كلفْتُ به من حيث صِرت أذُمُّهُ

وارتجلت حين مللت من طول السُّرَى ، مضمنا ذكر ما أروم له تَيَسُّراً ، وقد أكثر الرفاق عند رؤية مالم يألفوه من الآفاق تلهفا وتحسراً :

قلت لَمَّا طال النوى عن بلادى ولأهلِ النوى جوًى وعويلُ :[١]
هَلْ أرى للفراق آخِرَ عهدٍ إنَّ عمر الفراق عمرٌ طويل

ثم قلت مضمناً :

لائمى فى ذكر أحباب نَأَوْا لا تلم من أضْعَفَ الشوقُ قُوَاهْ
إن يوما جامعاً شَمْلى بهم ذاك عِيدِى ، ليس لى عيدٌ سِوَاهْ

ثم قلت مضمنا أيضاً :

لك الله من صَبٍّ أضَرَّ به النَّوَى وليس له غَيْرَ اللقاء طبيبُ
وإنَّ صباحا نلتقى بمسائه صباحٌ إلى قلبى المُشُوقِ حبيبُ

ثم عدت إلى التصبر ، بعد إمعان النظر والتدبر .

وإنى لأدرى أن فى الصبر راحة ولكنّ إنفاقى على الصبر من عمرى
فلا تُطْفِ نار الشوق بالشوق طالباً سلوّا ، فإنَّ الجمر يُسْعَر بالجمر[٢]

ثم سلكت مَنْهَج التفويض والتسليم ، منشداً قولَ ابن قطرال المغربى فى مقام النصح والتعليم ، ووجهت القصد إلى سكان الضمير بذلك التكليم :

إنَّ أيام الرضا معدودة والرضا أجمل شىء بالعبيد
لا تَظُنُّوا عنكُمُ لى سلوة ما على شوقى إليكم من مزيد
راجعوا أنفسكم تستيقنوا أنكم فى الوقت أقصى ما أريد
إنَّ يوماً يجمع الله بكم فيه شَمْلى ذاك عندى يومُ عيد

وقول بعضِ مَنْ ندم على البعد عن المعاهد ، وأمّل العَوْدَ ـ والعودُ أحمد ـ إلى المشاهد ، وغفر للدهر ذنبه إن عاد ، وتلهف أن لم يعامله بغير الإبعاد :

---

(١) النوى : البعد والفراق ، والجوى : حرقة الباطن ، والعويل : البكاء .
(٢) يسعر : يوقد ويشعل .

لئن عاد جمع الشمل فى ذلك الحمى غَفَرْتُ لدهرى كل ذنب تقدّما
وإن لم يعد مَنَّيْتُ نفسى بعودة وماذا عسى تجدى الأمانى وقلّما
يحق لقلبى أن يذوب صبابةً وللعين أن تُجْرِى مدامعَهَا دَمَا
على زمن ماض بهم قد قطعته لبست به ثوب المسرة مُعْلَمَا[١]

وقول آخر يخاطب أحبابه ، ويذكر فوَاصِلَ بحر النوى الطويلِ وأسبابَهُ :

أعيذكُمُ من لَوْعتى وشُجُونى ونارِ جَوًى تذْكى بماء شؤنى[٢]
وبَرْحِ أسًى لم يُبْقِ فىَّ بقيةً سوى حرَكات تارةً وسكون
أرى القلبَ أضحى بعدطارقةالأسى أسِيرَ صباباتٍ رهينَ شجون
وكيف سبيلُ القرب منكم ودونكم رمالُ زَرُودٍ والأجارِعُ دونى ؟[٣]
سلوا مَضْجعى هل قرَّمن بعد بُعْدكم وهل عرفتْ طعم الرقاد جُفونِى
سَهِرْنا بنعمان ، ونمتُمْ ببابل ، فيا لَعُيُونٍ ما وفَتْ لعيون

وفى بعض الأحيان ، أتسلّى بقول بعض الأندلسيين الأعيان :

لا تكترِثْ بفراق أوطان الصِّبا فعَسَى تنالُ بغيرهن سُعُودَا
فالدرُّ يُنْظَم عند فقد بحاره بجميل أجيادِ الحِسانِ عُقُودَا

وقول غيره :

فعسى الليالى أن تمنّ بنَظْمِنا عقْدًا كما كُنَّا عليه وأكملا
فلربَّمَا نُثِرَ الجُمانُ تعمدا ليعاد أحْسَنَ فى النظام وأجملا[٤]

وأرغب لمن أطال ذيول الغربة أن يقلِّصَهَا ، وأطلب ممن أجال النفوس فى سيول الكربة أن يخلصها :

فنلتقى وعَوَادِى الدهر غافلَةٌ عَمَّا نروم وعقدُ البينِ محْلُولُ

(١) يقال « ثوب معلم » بضم الميم وفتح اللام ـ إذا جعلت به علامات من خطوط ونحوها .
(٢) الشؤن : مجارى الدمع من العين .
(٣) الأجارع : جمع أجرع ، وهو المكان فيه رمل وحصى دقيق .
(٤) الجمان ـ بضم الجيم ـ اللؤلؤ .

والدار آنسة ، والشمل مجتمِعٌ ، والطيرصادِحَة ، والروض مَطْلُولُ[١]

وأضرع إليه — سبحانه ! — فى تيسير العَوْد إلى أوطانى ، ومعهدى الذى مَطَايا العز أوطانى[٢] ، وأن يلحقنى بذلك الأفق الذى خيره مَوْفور ، وحَقُّ مَنْ فيه معروف لا منكر ولا مَكْفُور .

إذا ظَفِرْتُ من الدنيا بقربهمُ فكلُّ ذنب جناه الدهرُ مغفورُ

وكأنى بعاتب يقول : ما هذا التطويل ؟ فأقول له : جوابى قول ابن أبى الإصبع الذى عليه التعويل :

أ كْثَرْتَ عَذْلى كأنِّى كنت أولَ من بكى على مَسْكَنٍ أوحنّ للسَّكَنِ

لا تَلْحَ إنَّ منَ الإيمان عند ذوى الـ إِيمان منّا حَنِينَ النفس للوَطَنِ[٣]

على أننى أقول : اللهم يَسِّر لى مافيه الخيرة لى بالمشارق أو بالمغارب ! وجُدْلى من فضلك حيث حللت بجميع ما فيه رضاك من المآرب ، بجاه نبينا وشفيعنا المبعوث رحمة للأحمر والأسود والأعاجم والأعارب ! عليه أفضلُ صلاةٍ وأزكى سلام ، وعلى آله وأصحابه الأعلام ، والتابعين لهم بإحسان ما ذَرَّ شارق ، وتعاقَبَ طالع وغارب ! .

وصف المؤلف أهوال البحر

ثم جدّ بنا السير فى البر أياما ، ونأينا عن الأوطان التى أطنبنا فى الحديث حُبًّا لها وهُيَاما ، وكنا عن تفاعيل فضلها نياما ، إلى أن ركبنا البحر ، وحللنا منه بين السَّحْر والنَّحْر ، وشاهدنا من أهواله ، وتنافى أحواله ، مالا يعبر عنه ، ولا يُبْلَغ له كُنْه :

البحر صَعْبُ المرام جِدًّا لا جُعِلَتْ حاجتى إليه

أَلَيْسَ ماءً ونحن طِينٌ فما عسى صَبْرُنَا عليه

فكم استقبلنا أمواجه بوجوه بَوَاسر ، وطارت إلينا من شِرَاعه عِقْبَانٌ كواسرُ ، قد أزعجتها أكف الريح من وَكْرِها[٤] ، كما نبهت اللجج من سكرها ، فلم تبق

---

(١) الدار آنسة : أى فيها الأنس ، وضدها موحشة ، ومطلول : نزل عليه الطل ، وهو المطر الضعيف ، أو الندى (٢) « أوطانى » أصله أوطأنى بمعنى مهدها لى وذللها ، فقلب الهمزة ألفا (٣) لا تلح : لا تلم ولا تعذل

(٤) الوكر فى الأصل : عش الطائر .

شيئاً من قوّتها ومَكْرِها ، فسمعنا للجبال صفيراً ، وللرياح دَوِيًّا عظيما وزَفيرا ، وتيقناً أنا لا نجد من ذلك إلا فضلَ الله مُجيرًا وخفيرا ؛ و إذامسكم الضر فى البحر ضل من تدعون إلا إياه ، وأبسْنَا من الحياة ، لصوت تلك العواصف والمياه ، فلاحَياً الله ذلك الهول المزعج ولا بيّاه [١] ، والموج يصفّقُ لسماع أصوات الرياح فيطرب بل و يضطرب ، فكأنه من كأس الجنون يشرب أو شرب ، فيبتعد و يقترب ، وفرقه تلتطم وتصطفق ، وتختلف ولا تكاد تتفق ، فتخال الجوّ يأخذ بنوَاصيها ، وتجذبها أيديه من قواصيها [٢] ، حتى كاد سطح الأرض يكشف من خلالها ، وعِنانَ السحُب يخطف فى استقلالها ، وقد أشرفت النفوسُ على التلف من خَوْفِها واعتلالها ، وآذنت الأحوال بعد انتظامها باختلالها ، وساءت الظنون، وتراءتْ فى صورها الْمَنُون ، والشِّراع فى قراع مع جيوش الأمواج ، التى أمدّت منها الأفواج بالأفواج ، ونحن قعُود ، كدُودٍ على عود ، مابين فرادَى وأزواج ، وقدنَبَتْ بنا من القلق أمكنتنا ، وخرست من الْفرَقِ ألسنتنا [٣] ، وتوهَّمْنا أنه ليس فى الوجود ، أغوارولا نُجود ، إلاالسماء والماء ، وذلك السَّفين ، ومَنْ فى قبر جوفه دفين ، مع ترقب هجوم العدوّ ، فى الرواح والغدوّ ، لاجتيازه على عدّة من بلاد الحرب ، دمّر الله سبحانه من فيها وأذهبَ بفتحها عن المسلمين الكَرْب ! لا سيما مالطة الملعونة ، التى يتحقّقُ من خلص من معرّتها أنه أمدّ بتأييدٍ إلٰهيّ ومعونة ، فقداعترضت فى لَهَوَات البحر الشامى شجَا ، وقل من ركبه فأفلت من كيدها ونجا ، فزادنا ذلك الحذر ، الذى لم يُبْقِ ولم يَذَرْ ، على ما وصفناه من هوْل البحر قلقا ، وأجرينا إذ ذاك فى ميْدَان الإلقاء باليد إلى التهلكة طلقا ، وتشتتت أفكارنا فِرَقا ، وذبنا أسًى وندما وفرَقا ، إذالبحر وحده لا كَمِيّ يقارعه ، ولاقوى يصارعه ، ولاشكل يضارعه ، لا يؤمن على كل حال ، ولا يفرق بين عاطل وحَالٍ ، ولا بين أعزل وشاكى ، ومتباكٍ و باكى:

---

(١) ولا بياه : إتباع لقوله «لاحياه» يؤكد معناه،ولا يذكر مستقلا فى الكلام
(٢) القواصى : جمع قاصية . وهى البعيدة (٣) الفرق : الخوف والفزع

ثَلاثةٌ ليس لها أمانُ البحرُ والسُّلْطانُ والزَّمانُ

فكيف وقد انضمّ إليه خوفُ العدوّ الغادر الخائن والكافر الحائن (١) ، إلى أن قضى الله بالنجاة وكلّ ما أراد فهو الكائن ، وإن نَهَى عنه وأخطأ المائن، فرأينا البر وكانا قبل لم نَرَهْ ، وشفيت به أعيننا من المَرَه (٢) ، وحصل بعد الشدّة الفرج ، وشَمِمْنا من السلامة أطيب الأرَج (٣) ، فيا لها من نعمة كشفت عن وجهها النِّقاب ، يقل شكراً لها صومُ الأحقاب وعِتقُ الرقاب ، جَعَلَنَا الله بآياته معتبرين ، وعلى طاعته مصطبرين ! ولم نخل فى البر من مُعاناة خطوب ، ومداراة وجوه للمتاعب ذات تجهُّم وقطوب ، فكم جُبْنَا منه مَهَامه فِيحًا (٤) ، ومسحنا بالخُطَا منها أثيراً وصفيحاً ، وفلينا الفجاج ، وقرأنا من الطرق خطوطاً ذات استقامة واعوجاج ، وقلوبُ الرفقةِ من الفرقة فى اضطراب وارتجاج ، وربما عَمِيَتْ على المجتهد الأدِلَّة التى يحصل بها على المذهب الاحتجاج، فترى الأنفاس تعثر فى زفرة الأشواق ، والأجسام قد زرت عليها من التعب الأطواق ، هذا والليل بصَفْحَة البدر مُرْتاب ، وقد شدت رِحال وأقتاب ، وزُمَّتْ ركاب ورُفِعَتْ أحداج ، وفريت من الدَّعَة بمدية النصب أوْداج ، وتساوى فى السير نهار مشرق وليل مُقْمر أوداج ، وأديمُ التأويب وَالإسآد ، وَحمل الغربة قد أثقل وَآد ، ثم وَصَلنَا بعد خَوْض بحارٍ ، يدهش فيها الفكر وَيحَار ، وَجَوْب فيَافٍ مجاهلة يضل فيها القطا عن المناهل ، إلى مصر المحروسة فشفينا برؤيتها من الأوْجاع ، وَشاهدنا كثيراً من محاسنها التى تعجز عن وَصفها القوافى وَالأسجاع ، وَتمثلنا فى بدائعها التى لا نستوفيها ، بقول ابن ناهض فيها :

المؤلف يصف مصر ويتمدح بها

شاطئُ مِصْرَ جَنَّةٌ ما مثلُهَا فى بَلَدِ
لا سيما مذ زخرفت بنيلها المطَّرد
وَللرياح فَوْقَه سَوَابغ من زَرَد

(١) الحائن – بالحاء المهملة – الذى قرب حينه ، أي هلاكه .
(٢) المره – بفتح الميم والراء جميعاً – مصدر «مرهت عينه» إذا فسدت لترك الكحل
(٣) الأرج : الريح الطيبة
(٤) جبنا : قطعنا ، والمهامه : الصحارى ، والفيح : الواسعة ، واحدتها فيحاء .

مسرودة ما مسَّهَا داوُدُها بمِبْرَدِ[١]
سائلة وَهْوَ بها يُرْعَدُ عارى الجَسَدِ
وَالفلك كالأفلاك بيْنَ حادر وَمُصْعِدِ

وَ بقول آخر : أُنظر إلى النيل الَّذِى ظَهَرَتْ به آياتُ ربِّى
فكأنه فى فَيْضِهِ دَمْعِى وَفى الخفقَانِ قلبى

وَ بقول أبى المكارم [ابن][٢] الخطير المعروف بابن مَمَّاتى فى جزيرتها :

جزيرةَ مصرٍ ، لا عَدَتْكِ مَسَرَّةٌ وَلا زالتِ اللذاتُ فيكِ اتصالُهَا
فكم فيك من شمسٍ على غُصْن قامةٍ يميتُ وَيحيي هَجْرُها وَوِصالُهَا
مَغَانيكِ فوق النيل أضحَتْ هَوَادجاً ومختلفاتُ الموج فيكِ حِبالُهَا
ومن أعجب الأشياء أنك جَنَّةٌ تُمدّ على أهل الضلال ظلالُهَا

لعله أراد بأهل الضلال اليهود والنصارى المستوْلِين إذ ذاك على الدولة ، وتذكرت فى مصر قولَ القاضى الفاضل :

بالله قل للنيل عنى إنَّنى لم أشْفِ من ماء الفرُات غليلا
وسَلِ الفؤاد فإنه لىَ شاهد إن كان طَرْفى بالبكاء بخيلا
يا قلبُ كم خَلَّفْتَ ثَمَّ بُثَيْنَةً وأظُنُّ صبرَكَ أن يكون جميلاَ

وقول أحمد بن فضل الله العمرى :

لمصر فضل باهِرٌ بعيشها الرَّغْدِ النَّضِرْ
فى سَفْح روضٍ يلتقى ماء الحياة والخضر

وقول آخر :

كأنَّ النيلَ ذُو فَهْمٍ ولُبٍّ لمـا يبدو لعين النـاس مِنْهُ

---

(١) مسرودة : منسوجة ، وتنسب الدروع لداود نبي الله لأنه كان يصنعها .

(٢) كلمة « بن » ساقطة من ب ، ز ، ولا بد منها ، فإنه القاضي الأسعد أبو المكارم أسعد بن الخطير أبى سعيد مهذب بن مينا ، المعروف بابن مماتى ، المصرى ، الكاتب ، الشاعر .

فيأتى حينَ حاجتهم إليه ويَمْضِى حينَ يَسْتَغْنُون عنه

وقول آخر :

ولله مجرى النيل منه إذا الصَّبا أرَتْنا به من مرِّها عَسْكَرًا مَجْرَا[1]

بشَطٍّ يهز السَّمْهَرِيَّة ذُبَّلاً ومَوْج يهزُّ البيضَ هِنْدِيَّة بُتْرَا[2]

إذا مدَّحا كىُ الوردَ لوناً، وإن صفا حكى ماءه لَوْناً ولم يحكه مَرَّا

وقول آخر :

وَاهاً لهذا النيل ! أىُّ عجيبةٍ بكْرٍ بمثل حديثها لا يُسْمَعُ ؟

يَلْقَى الثرى فى الماء وهو مُسَلِّم حتى إذا ما مال عاد يُوَدِّع

مستقبل مثل الهلال فدَهْرَه أبدًا يزيدُ كما يزيد ويَرْجِعُ

وقول ابن النقيب :

الصبُّ من بعدهم مُفْرَدٌ ودَمْعُه النيل وتعليقُه

وخَدّه لما بكاهم دَمًا مقياسُهُ ، والدمعُ تخليقُهُ

وقول الصَّفَدى :

سَقْياً لمصر وما حَوَتْ من أُنْسِهَا وأناسها

ومحاسن فى مَقْسِهَا تَبْدُو وفى مقياسها[3]

ومَسَرَّة كاساتُهَا تُجْلَى على أكياسها

وسطور قرط خَطَّها الْبَارِى على قرطاسِها

ودُمَىً كنائِسِهَا ، ولا تنسى ظباء كِنَاسِهَا

ولطافة بجلالة تَبْدُو على جُلاَّسها

ونَوَاسِمٍ كُلُّ المُنَى للنفس فى أنفاسها

ومراكب لعبت بها الـ * أمواجُ فى وَسْوَاسِهَا

---

(١) عسكر مجر : جيش كثير العدد (٢) السمهرية : الرماح، نسبوها إلى سمهر – بزنة جعفر – وهو صانعها ، والهندية : السيوف ، والبتر : القواطع

(٣) المقس – بفتح فسكون – موضع على النيل كان يجلس فيه صاحب المكس

وقول ابن جابر الأندلسى :

ما زلت أسنِدُ من محاسن أرضها خبراً صحيحاً ليس بالمقطوع
كم مُرْسَلٍ من نيلِهَا ومُسَلْسَل ومُدَبج من هَضْبِهَا المرفوع(١)

وقول إبراهيم بن عبدون :

والنيلُ بين الجانبين كأنما صَدِئَتْ بصفحته صفيحة صَيْقَلِ
يأتيكَ من كدر الزواخر مَدّه بمُمَسَّكٍ من مائه ومُصَنْدَل
فكأن ضوء البدر فى تمويجه برقٌ تموّجَ فى سحاب مُسْبل
وكأن نورَ السُّرْج من جَنَبَاته زُهْرُ الكواكب تحت ليل أليل(٢)
مثلُ الرياض مفتقاً أنوارُهُ تبدو لعين مُشَبِّه ومُمثِّلِ

وقول ابن الصاحب :

فرح الأنامُ بنيلهم إذ صار أحمر كالشَّقِيق
وتَبَرَّكُوا بشروقِهِ فكأنه وادى العقيق

وقول آخر :

احمرّ للنيلِ خَدٌّ حتى غَدَا كالشقيق
وقد ترنَّمتُ فيه إذ صار وادى العقيق

المؤلف يحج ويزور قبر النبى، ويصف المشاهد المباركة

ثم شمرت عن ساعد العزم بعد الإقامة بمصر مدّة قليلة ، إلى المهمِّ الأعظم والمقصد الأكبر الذى هو سر المطالب الجليلة ، وهو رؤية الحرمين الشريفين ، والعَلَمين المنيفين ، زادهما الله تنويها ! وبلغ النفوسَ ببركة من شَرُفَا به مآرب لم تزل تنويها ! فسافرت فى البحر إلى الحجاز ، راجياً من الله سبحانه فى الأجر الانتجاز ، إلى أن بلغتُ جدة ، بعد مكابدة خطوب اتخذتُ لها من الصبر عُدة ،

(١) الصحيح ، والمقطوع ، والمرسل ، والمسلسل ، والمدبج ، والمرفوع : كل هذه الألفاظ قد استعملت فى علم مصطلح الحديث أسماء لأنواع من الحديث

(٢) ليل أليل : شديد الظلام

فحين حصل القرب ، واكتحلت العين بإثمد تلك التُّرَب ، ترنمتُ بقول من قال ، محرّضا على الوَخْد والإرقال[١] :

بَدَا لك الحق فاقْطَعْ ظهر بَيْدَاء ... واهْجُرْ مقالَةَ أحباب وأعْدَاءِ
واقصِدْ على عَزْمة أرضَ الحجاز تجِدْ ... بعدًا عن السخط فى نُزْلِ الأوِدَّاء
وقل إذا نلْتَ من أم القرى أرَباً ... وَهوَ الوُصُول بإِسرار وإبداء
يا مكة اللهِ قد مكنتِ لى حَرَماً ... مؤمّناً لست أشكو فيه من داء
فمذ رأى النازحُ المسكينُ مسكنه ... فى قطرك الرحب لم يُنْكَبْ بأرزاء[٢]
شَوْق الفؤاد إلى مغناك مُتَّصل ... شوق الرياض إلى طَلٍّ وأنْدَاءِ

ثم أنشدت ، عند ما بدت أعلام البيت ، قولَ بعض من غلب عليه الشوق والغرام ، وقد بلغ من أمانيه الموجبة بشائره وتهانيه المرام :

وافى الحجيجُ إلى البيت العتيق وقد ... سَجَا الدُّجى فرأوا نوراً به بَزَغَا
عَجُّوا عجيجاً وقالوا : الله أكبر ما ... للجوّ مؤتلِقاً بالنور قد صُبِغَا[٣]
قال الدليل : ألا هاتوا بشارتكم ... فمن نوى كَعْبةَ الرحمن قد بلغا
نادَوْا على العِيس بالأشواق وانتحبوا ... وحَنّ كل فؤادٍ نحوها وصَغَا[٤]
وكلٌّ من ذمّ فعلاً نال محمدَةً ... فى مكة ومَحا ما قَدْ جَنَى وبَغَى

ولما وقع بَصَرى على البيت الشريف كدتُ أغيب عن الوجود ، واستشعرت قول العارف بالله الشبلى لما وَفد إلى حضرة الجود :

قلت للقَلْب إذ تراءى لعينى ... رَسْمُ دارٍ لهم فهاج اشتياقى
هٰــذِهِ دارُهُمْ وَأنتَ مُحِبٌّ ... ما احتباسُ الدموعِ فى الآماق؟
وَالمغانِى للصَّبِّ فيها مَعَانِى ... فَهْىَ تُدْعَى مصارِعَ العُشَّاقِ

---

(١) الوخد والإرقال : ضربان من السير السريع
(٢) وقع فى ب ، ز « لم ينكب بأرداء » ولعله أنسب ، ليتم لزوم ما لايلزم
(٣) عجوا عجيجا : أراد رفعوا أصواتهم بالدعاء إلى الله
(٤) العيس : الإبل ، واحدها أعيس أو عيساء ، وصغا : مال

حُلَّ عقْدَ الدموعِ واحللْ رُبَاهَا وَاهْجُرِ الصبرَ وارْعَ حق الفِرَاقِ

ثم أكملت العُمْرة[١]، وَدعوت الله أن أكون ممن عمر بطاعة ربه عمره[٢]، وذلك أوائل القعدة من عام ثمانية وعشرين وألف من الهجرة السنية، وأقمت هنالك منتظراً وقتَ الحج الشريف، ومتفيّئاً ذلك الظلّ الوَريف، ومقتطفا ثمار القُرْب الجنية، إلى أن جاء الأوان، فأحرمت بالحج من غير تَوَان، وَحين حللت مما به أحرمت، نويت الإقامة هنالك وأبرمت، فحال من دون ذلك حائل، وكنت حَرِيًّا بأن أنشد قول القائل:

هذى أباطحُ مكة حولى وَمَا جمعت مَشَاعرها من الحُرُمَاتِ[٣]

أدعُو بها لبيْكَ تلبيةَ أُمرىءٍ يَرْجُو الخلاصَ بها من الأزمَاتِ

نلْتُ الْمُنَى بِمِنًى لأنى لم أخفْ بالخَيفِ من ذَنْب أحال سِمَاتِى

وعَرَفْتُ فى عَرَفَاتَ أنى ناشِقٌ للعَفْوِ عَرْفاً عاطِرَ النسَمَاتِ

وأن أتمثل فى المَطاف، إذ حفتنى الألطاف، بقول من رَبْعُه بالتقوى مَشِيد البغدادى الشهير بابن رشيد:

على رَبْعِهِمْ لله بيتٌ مُبَارَكٌ إليه قلوبُ الناس تَهْوِى وتَهْوَاه[٤]

يَطُوفُ به الجانى فيغفر ذَنْبه ويسقط عنه جُرْمه وخطاياه

وكم لذة أو فرحـــة لطَوَافه فلله ما أحلى الطوافَ وأهْنَاهُ

ثم قصدنا بعد قضاء تلك الأوطار، طيبة الشريفة التى لها الفضلُ على الأقطار، واستشعرت قول من أنشد وطَيْرُ عزمه عن أوكاره قد طار:

حمدت مَرَادى إذ بلغتُ مُرَادى بأمِّ القرى مُسْتَمْسكا بعمادى

ومذ رَوِيتْ من ماء زمزم غُلّتى فلَسْتُ بمحتاجٍ لماء ثِمَادِ

---

(١) العمرة ــ بضم فسكون ــ عبادة كالحج

(٢) عمره ــ بضم العين ــ حياته، والهاء فيه ضمير عائد إلى من

(٣) المشاعر: جمع مشعر، وأراد به هنا المكان من الأمكنة التى يؤدي فيها شيء من مناسك الحج أو العمرة

(٤) أخذه من قوله تعالى على لسان إبراهيم الخليل (فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم)

فلله سبحانه الحمد على نعمه التى جَلَّتْ ، ومننه التى نزلت بها النفوس مواطن التشريف وحلت .

من يَهْدِهِ الرحمنُ خير هـداية يَحْلُلْ بمكة كى يتاح المقصدا
و إذا قضى من حَجة الفرض انثنى يشفى برؤية طيبة دَاءَ الصَّدَى

وكان حظى فى هذه الحال تذكّر قول بعض الوَشَّاحين من الأندلسيين الذين كان لهم ارتحال إلى تلك المعاهد الطاهرة ، والمشاهد الزاهرة ، التى تشدّ إليها الرحال

يا من لعبدٍ له افتقارُ إلى أيادٍ له جِسَامْ
فضلك مُدْنٍ لخيرمُدْنٍ حلّ بها سيدُ الأنام
لم يَهْفُ قلبى لحب ليـلى ولا سعـاد ولا الرَّبَابْ
لاَقَىْ شُجُـونا ونَالَ وَيْلاَ مَنْ هام فى ذلك الجْنَابْ
بل مالَ منى الفؤادُ مَيْـلاَ لمن له الحبُّ لا يعـابْ
قلبى والله مستطارُ[1] مذحل فى بيته الحرام
ذى الحِجْر وَالركن خير ركن وَزمزم الخير وَالمقام
ذابتْ قلوبُ المطىِّ عِشْقَاَ وَرَكْبِهَا وَاستوى المرادْ
إلى حبيبِ القـلوب حقا الحى وَالميت وَالجمـاد
إلى الذى ليس فيه يشق مَنْ حُبُّه داخـل الفؤاد
شَـكَوْا وَقد طالت السفار هم وَمطـاياهُمُ السـقام
فهى قِسِىٌّ[2] من التثنى والقـوم من فوقها سهام
وَلستُ من سَكْرَتى مفيقاَ حتى أرى حجرةَ الرسولِ
فإن يُسَهِّل لى الطريقا فذاكَ أقصى مُنًى وَسُولِ[3]
متى ترى عَيْنِيَ العقيقا وَيفرحُ القلبُ بالوصولِ

(١) مستطار : طائر فى إثر المحبوب لايقر له قرار
(٢) قسى : جمع قوس ، شبه المطى بالقسى ، وشبه راكبها بالسهام
(٣) سول : أصله سؤل ـ بالهمز ـ فقلب الهمزة ألفاً لسكونها وانضمام ما قبلها

كم قلت وَالصبرُ مُستعارُ ... للركب إذ غادروا المنام
وَنسمة الشوق حرّكتنى ... وَزاد بى الوجد وَالغرام

قومُوا فقد طالَ ذا الجلوسُ ... وَبادِرُوا زورةَ الحبيبْ
تاقَتْ إلى طيبَةَ النفوسُ ... لا عيشَ من دونها يطيبْ
لا حبذا دونها الغُرُوسُ ... وَالماء وَالشادن الربيبْ(١)

وحبذا الرمل وَالقفار ... وَالْعُرْبُ فى تلكم الخيام
وَأمّ غيلان ظللتنى ... والأيك والأثل وَالثُّمَامْ(٢)

ياطيبة حُزْتِ كلَّ طيب ... بسيد فيك ذى حلولْ
نداء مستضعف غريب ... فى غرّ أمداحه يقولْ
وَهو من السامع المجيب ... لمدحه يسأل القبولْ

أنت الغِنَى لى فلا افتقار ... وَأنت عِزّى فلا أضام
مُسْتَمْسِك منك حسنُ ظنى ... بعُرْوَة مالها انفِصَامْ

بسيِّدِ العالمينَ أجمع ... بأحمدَ المجتَبَى الرسول
وَمن هو الشافع المشفع ... فى موقف المحشر المهول
إذ لا كلام هناك يسمع ... للغير وَالناس فى ذهول

إذِ السماء لها انفطار ... وَالشهب منثورة النظام
كذا الجبال انثنت كعِهْنِ ... سريعَةَ المرّ كالغمام

يا أوّل الرُّسْل فى الفضيله ... وإن تأخَّرْت فى الزَّمَنْ
شفاعةً نلتَ مَعْ وسيله ... فمن يُضاهى علاك مَنْ
علت بك الرتبة الجليله ... وطِبْتَ فى السِّر والعَلَنْ

---

(١) الشادن : الظبى الذى استوى وقوى وترعرع واستغنى عن أمه

(٢) الأيك : جمع أيكة ـ بفتح فسكون ـ وهى الشجر الملتف ، والأثل : شجر مخصوص ، والثمام ـ بضم الثاء ـ نبت ضعيف له خوص يسد به خصاص البيوت

فأنت من خيرهم خيار فمن يضاهيك فى المقام
والرسل نالت بك التمنّى وأنت بدر لهم تمام[١]

الوجْدُ قد قَرَّ فى فؤادى فما لِصَبْرٍ به قرار
ولا عِجبى صاعد اتقاد ودمع عينى له انهمار[٢]
وها أنا جئت من بلادى لطيبة أبتغى الجوار
فحبذا تلكم الديار والمصطفى مسكة الختام
عليه أزكى الصلاة منى وصحبه الغُرِّ والسَّلَام

وقول أبى جعفر الرعينى الغرناطى ، رحمه الله تعالى ! وهو من التشريع[٣] ، أحَدِ أنواع البديع :

يا راحلا يبغى زيارة طيبة نلت المنى بزيارة الأخْيَارِ
حَيِّ العقيق إذا وصلت وصِفْ لنا وادى مِنًى ياطيِّبَ الأخبارِ
و إذا وقفت لدى المعرَّفِ داعياً زال العنا وظفرت بالأوطارِ

ولما من الله تعالى علينا بالحلول فى المشاهد التى قام الدين بها وظهر ، والمعاهد التى بان الحقّ فيها واشتهر ، والمواطن التى هزم الله تعالى حزب الشيطان فيها وقهر ، ونصرت النبوّة وعضدت ، وقطعت غصون الكفر وحُصِدت ، ورصت قواعد التوحيد ونُضدت ، وقرّت العيون ، وقضيت الديون ، أنشد لسان الحال ، قول بعض مَنْ جيدُه بمحاسن طيبَةَ حال :

يا من به طيبَةٌ طابت حُلًى وعُلًى ومَنْ بتشريفه قد شُرِّفَ العَرَبُ
يا أحمد المصطفى قد جئتُ من بلَدٍ قاصٍ ولى خَلَدٌ قاس ولى أرَبُ
وقد دَهَتْنِى ذنوبٌ قلت إذ عَظُمَتْ لله منها وطَهَ المرتجَى الهرَبُ

(١) يضاهيك : يشابهك ويماثلك (٢) انهمر المطر : سال وهطل وتتابع

(٣) التشريع : أن يبنى الشاعر قصيدته علي أن يكون لكل بيت منها قافيتان ووزنان ، كما ترى فى هذه الأبيات ، ويسميه بعضهم « التوأم »

ونسينا بمشاهدة ذلك الجناب ما كنا فيه ، وسَبَقَ الدمعُ الذى لا يعارض الفرحَ ولا ينافيه .

أيها المغرم المشوق هنيئاً ما أنالوك من لذيذ التلاقى
قل لعينيك تَهْمِلَانِ سروراً طالما أسعداك يوم الفراق
واجمع الوجد والسرور ابتهاجا وجميعَ الأشجان والأشواق
وأمر العينَ أن تفيض انهمالا وتُوَالى بدمعها المُهْرَاق
هذه دارهم وأنت محب ما بقاء الدموع فى الآماق ؟

ومِلْنَا عن الأكوار[1] ، وثملنا من عَرْف تلك الأنجاد والأغوار ، وتملّينا من هاتيك الأنوار ، وتخلينا عن الأغيار ، وتحلينا بحُلَى الأخيار ، وكيف لا وطيبة مركز للزوّار

إذا لم تطب فى طيبة عند طيب به طيبة طابت فأين تطيب
وإن لم يُجِبْ فى أرضها ربُّنَا الدعا ففى أى أرض للدعاء يجيب
أيا ساكنى أكناف طيبة كلكم إلى القلب من أجل الحبيبِ حبيبُ

وما أحسن قول عالم الأندلس المالكى اللبيب ، عبد الملك السلمى المشهور بابن حبيب :

لله دَرُّ عصابة صاحبتها نحو المدينة تقطع الفَلَواتِ
ومهامه قد جُبْتُها ومفاوز ما زلت أذكرها بطول حياتى
حتى أتينا القبر قبر محمد خص الإله محمداً بصِلَاتِ
خير البرية والنبى المصطفى هادى الورى لطرائقٍ لنجاة
لما وقفت بقربه لسلامه جادت دموعى واكِفَ العَبَرات
ورأيت حُجْرته وموضعه الذى قد كان يدعو فيه فى الخلوات
مع روضة قد قال فيها : إنها مشتقة من روضة الجنات[2]

---

(١) الأكوار : جمع كور ، وهو الرحل الذى يوضع فوق الناقة للركوب عليه

(٢) يشير إلى ما يروى عن النبى صلى الله عليه وسلم « ما بين قبرى ومنبرى روضة من رياض الجنة »

وبمنزل الأنصار وسط قبابهم بيت الهداية كاشف الغمرات
وبطيبة طابوا ونالوا رحمة مغنى الكتاب ومحكم الآيات
وبقبر حمزة والصحابة حوله فاضت دموع العين مُنْهَمِرَاتِ
سَقْياً لتلك معاهداً شاهدتها وشهدتها بالخطو واللحظات
لازلت زوّاراً لقبر نبينا ومدينة زهراء بالبركات
صلى الإله على النبى المصطفى هادى البرية كاشف الكُرُباتِ
وعلى ضجيعيه السلام مردَّداً مالاح نور الحق فى الظلمات (١)

وقول كمال الدين ناظر قوص :

أنخ ، هذه والحمد لله يثربُ فبشراك قد نلت الذى كنت تطلبُ (٢)
فعفرْ بهذا الترب وجهك ، إنه أحق به من كل طِيبٍ وأطيبُ
وقبِّلْ ربوعا حولها قد تشرفت بمن جاورت، والشىء بالشىء يُحْبَبُ (٣)
وسكن فؤاداً لم يزل باشتياقه إليها على جمر الْغَضى يتقلب
وكفكف دموعاً طالماقد سَفَحْتَهَا وبرّد جوًى نيرانُهُ تتلهب

وقول الرُّعَيْنى الغرْناطى :

هذه روضة الرسول فدعنى أبذل الدمع فى الصعيد السعيد
لا تلمنى على انسكاب دموعى إنما صُنْتها لهذا الصعيد

ولما سلمت على سيد الأنام ، عليه من الله أفضل الصلاة وأزكى السلام ! ذُبْتُ حياء وخجلا ، لما أنا عليه من ارتكاب ما يقتضى وَجَلاَ ، غير أنى توسَّلْت بجاهه صلى الله عليه وسلم فى أن أكون ممن وَضَح له وجه الصفح وجَلا :

إليك أفرّ من زللى فرار الخائفِ الوجِلِ

---

(١) ضجيعيه : أراد بهما أبا بكر الصديق وعمر الفاروق
(٢) يثرب : الاسم القديم لمدينة الرسول صلى الله عليه وسلم
(٣) يحبب : هكذا جاء به من غير إدغام ، والعربى الصحيح فى مثل هذا أن يقال « يحب » بالإدغام

وكان مزار قبرك بالـ مدينةِ مُنْتَهَى أملِي
فوفَّى الله ما طمحت له نفسى بلا خلل(١)
فخذْ بيَدَىْ غريقٍ فى بحار القول والعمل
وَهَبْ لى منك عارِفَةً تعرّف ما تنكر لى(٢)
وَتهديني إلى رشدى وتمنعنى من الزلل
وتحملنى على سَنَنٍ يؤمّننى من الوجلِ(٣)
فأنت دليلُ من عميت عليه مسالك السُّبُلِ
وإنك شافع برّ وَمَوْئلنا من الْوَهَلِ
وإنك خير مبتعث وإنك خاتم الرسل
فيا أزكى الورى شرفا وشافيهم من العِلَلِ
ويا أندى الأنام يدا وأكرمَ ناصر ووَلِي
نداء مقصر وجل بثوب الفقر مشتمل
على جَدْوَاكَ معتمدى فأنقذنى من الدَّخَلِ
وألحقنى بجنات لدى درجاتها الأُوَلِ
بصدّيق وفاروق وعثمان الرضى وَعلى
فأنت مَلاذُ معتصمٍ وأنت عماد متكل
عليك صلاة ربك جـــل فى الغدوات والأُصُلِ

ومذ شممنا من أَرَجِ تلك الأرجاء الذاكية، واستضأنا بسُرُج تلك الأضواء الزاكية، ظهر من الشوق ما كان بَطَن، ولم يخطر ببالنا سَكَن ولا وَطَن، ويا سعادة من أقام بتلك البقاع الشريفة وقَطَن:

---

(١) طمحت: أصل معنـاه ارتفعت عينى بالنظر إليه واستشرفته، وأراد هنـا رغبت وطلبت

(٢) العارفة: العطية (٣) السنن ـ بفتح السين والنون جميعا ـ الطريق

مَرَّ النسيمُ بِرَبْعِهِم فتلذَّذَا حتى كأن النَّشْرَ صار له غِذَا(١)
فَصَحَا وصحّ وصاح لا أشكو أذى قل للصَّبَا ما ذا حملتِ من الشَّذَا
أمَسِسْتِ طيباً أم علاكِ عبيرُ

يا أيها الحادِى الذى من وَسْمِهِ قصدُ الحبيب وأن يُلِمَّ بِرَسْمِهِ
هــذى منازله فزمزم باسْمِهِ بأبى الذى لم تَذْوَ زهرَةُ جسمِه
لـكنه غض الجمال نضيرُ

لله شوق قد تجاوز حدّهُ أوفى على الصبر المشيد فهدّه
يا ناشِقَ الكافورِ لا تتعدّه طوبى لمشتاق يُعفِّر خدّه
فى روضة الهادى إليه يشيرُ

فهناك يبذل فى التوسل وسعه ويُصيخُ نحو خطيب طيبة سَمْعَهُ
ويُريق فوق حَصَى المُصَلَّى دمعه ويرى معالم من يحب ورَبْعَهُ
ومحمد للعالمين بشيرُ

صلى عليه الله خير صلاتهِ وحبا معاليه جليل صِلاَتِه(٢)
ماحنّ ذو الأشواق فى حالاته وأتى مغانيه على عِلاَّتِهِ
فأتيح حُسْنَ الختم وهو قريرُ

ووقفنا بباب طلب الآمال خاشعين، وتوسلنا إلى الله بذلك المقام العلى خاضعين وغَبَطْنا قوما سكنوا هنالك فكانوا لخدودهم متى شاؤا على تلك الأعتاب واضعين :

أكرم بعبد نحو طيبة منتدى متوسل مُسْتَشْفِعٍ مسترشِدِ
يَفْلِي الفلاة لها بعزم أيِّدِ وافى إلى قبرِ النبى محمدِ(٣)
ولربعه الأسمى يَرُوحُ و يغتدى

---

(١) النشر ــ بفتح النون وسكون الشين ــ الريح الطيبة

(٢) الصلات ــ بكسر الصاد ــ جمع صلة ، وهى العطية والمنحة

(٣) يفلى الفلاة : يتخلل الصحراء ويشق وسطها بالسير ، وعزم أيد ــ بفتح الهمزة وتشديد الياء مكسورة ــ قوى شديد

أزْجَاهُ صادق حبه المتمكّنِ وحداه سائق عزمه المتعين[١]
فحكى لدى شجوٍ حمامَ الأغصنِ هَزجًا يردد فيه صوت ملحّنِ
ويمد للإطراب صوتَ المنشد

ويقول جئت بعزمة نزاعة ونهضت والدنيا تمرّ كساعة
لمحلّ أحمد قائلا بإذاعة هذا النبى المرتجى لشفاعة
يوم القيامة بين ذاك المشهد

هذا الرؤوف بجاره وَنزيله هذا سراجُ اللهِ فى تنزيلهِ
هذا الذى لا ريب فى تفضيلهِ هذا حبيبُ الله وَابن خليلهِ
هذا ابن بانى البيت أوّل مسجدِ

هذا الذى اصطفَتِ النبوّة خِيمَهُ هذا الذى اعتام الهدى تقديمَه[٢]
هذا الذى نُسْقَى غدا تَسْنيمه هذا الذى جبريلُ كان خديمَه[٣]
فى حضرة التشريف أزكى مصعد

هذا الذى شهد الوجود بخصّهِ بمزية التفضيل من مختصه
وَأبانه من وَحْيه فى نصه هذا الذى ارتفع البراق بشخصه
فى ليلة الإسراء أشرف مشهد

هذا الذى غدت الطلول حديقة بجواره وَغدت تروق أنيقة
هذا المكمل خِلْقَةً وخليقة هذا الذى سمع النداء حقيقة
ودنا ولم يَكُ قبل ذاك بمُبْعَدِ

فهناك كم رُسْلٍ به تتوسل وَعلى حماه لدى المعاد يعوّل
يا أرحم الرحماء أنت الموئل ياخاتم الإرسال أنت الأول

---

(١) أزجاه : ساقه ، وكذلك «حداه» وصادق عزمه : من إضافة الصفة للموصوف
(٢) الخيم ــ بكسر الخاء ــ الخلق والطبيعة ، واعتام : اختار
(٣) التسنيم : ماء من مياه الجنة ، وفى القرآن الكريم (ومزاجه من تسنيم)

فترقَّ فى أعلى المكارم واصعد

الله رَفَّعَ فى سُراه منـاره وأبان فى السبع العلا أنواره[١]

فقفَتْ ملائكة السما آثاره وأراه جنته هنـاك وناره[٢]

فمُؤبد ومخلد لمخلد

كم ذاد من وَجَلٍ وجَلَّى ظلمة وامتنَّ بالرحمى ومَتَّنَ حرمة

لما دجا أفق الضَّلالة دهمة بعث الإله به ليرحم أمة

لولاه كانت بالضلالة ترتدى

حاز الشُّفُوفَ فكل خلق دونه فالغيث يَسْأل إذ يسيل يمينَهُ[٣]

والشمس تستهدى الشروقَ جبينَهُ والله فضله وأظهر دينَهُ

ووَفَى لنا فيه بصدق الموعد

نطق يُغَادى ذكره ويُرَاوحُ وبه ينافحُ مسكه وينافحُ

تُعْيِي اللسان محامد ومَمَادح طوبى لمن قد عاش وَهْوَ يكافح

عنه يناضل باللسان وباليد

هو صفوة العرب الألى أحسابهم أسيافُهم قرنت بها أسبابهم

فهمُ لُبَابُ المجد وهو لُبَابهم من آل بيت لم تزل أنسابهم

تنبى لهم عن طيب عنصُرِ مَوْلِدِ

شرف النبوّة قد رسا فى أهلها وسما على الزهر العلا بمحلها

ساق السوابق للفخار برُسْلِهَا نطق الكتاب كما علمت بفضلها

وقضى به نصُّ الحديثِ المسندِ

فوق السماك توطنت وتوطدت وتفردت بالمصطفى وتوحدت

---

(١) سراه ـ بضم السين ـ سيره ليلا

(٢) قفت : تبعت ، أراد أنهم جعلوه قدوة يقتدون به

(٣) الشفوف : جمع شف ـ بكسر الشين أو فتحها ـ وهو الفضل

فهى الخلاصة صُفِّيَتْ فتجردت   من معدن فيه الرسالة قد بَدَتْ

من عصر آدَمِنَا لعصر محمد

طالوا فلم يبقوا لمجد مَصْعَدَا   صالوا ففى أيمانهم حَتْفُ العِدَا(١)

سئلوا فهم لعُفَاتهم غيث الجْدا   أهل السقاية والرفادة والندى(٢)

والكعبة البيت الحرام المقصد

المطعمون وقد طوى ألم الطوى   الناهضون إذا الصريخ لهم نوى

العاطفون إذا الطريق بهم لوَى   أهل السدانة والحجابة واللِّوَى

أهل المقام وزمزم والمسجد

المصلحون إذا الجموع تخاذعت   المنجحون إذا المساعى دافعت(٣)

الدافعون إذا الأعادى قارعت   المؤْثِرُونَ إذا السنُونَ تتابعت

وفد الحجيج بنيل كل تفقد

لايقرب الخطبُ الملم منيعهم   لايطرق الكرب ُالمخيفُ قريعَهم

والله شرَّفَ بالنبى جميعهم   من نال رتبتهم وحاز صنيعهم

نال الشفوف وحاز معنى السؤدد

حلوا من الطود الأشَمِّ بمنعة   فى خير مُعْتَصَمٍ وأسمى رفعة

فهم بمنة أمنه فى هَجعَة   الله خصصهم بأشرف بقعة

محجوجة محفوفة بالأسعد

لما أتيت لرامة أصِلُ السُّرَى   من بعد قصدى مكة أم القرى

أنشدت جهرا فيه أنثر جوهرا   وإليكها يا خير من وطىء الثرى

عذراء تزرى بالعَذارَى الخرّد

---

(١) طالوا : عظمت أقدارهم ، والمصعد : مكان الصعود والارتفاع

(٢) العفاة : جمع عاف ، وهو الذى يتعرض للمعروف ويطلبه ، والجدا : العطاء

(٣) تخاذعت : أراد تدافعت وتقاتلت ، وأصل الخذع : تحزيز الشىء بالسكين

كل الحسان لحسنها قد أدهشا ما مثلها فى تِرْبِهَا شادٍ نَشَا[١]
سفرت بعزم ما أجدّ وأطيشا نشأت بطى القلب وارتوت الحشا
زهراء من يرها يُهِلّ ويَسْجُدِ

أمَّتْكَ تَشْئُو فى مَدَاهَا الألسنا وتُرِى إجادتها المجيدَ المحسنا[٢]
تغدو ولا تثنى العِنانَ عن الثَّنَا وأتتك تمرح كالقضيب إذا انثنى
مترنحا بين الغصون المُيَّدِ[٣]

قد أعملت فى المدح ثاقبَ ذهنها ترجو الحلول لدى قرارة أمنها
وعسى إذا غذيت بتربة عَدْنِهَا يجلو لك الإحسان بارع حسنها
والحسن يجلوها و إن لم تُنْشَدِ

مدحى لخير العالمين عقيدتى ومطيتى بل طيتى ونشيدتى
ونتيجتى وهدى اليقين مفيدتى ولئن مدحت محمدا بقصيدتى
فلقد مدحت قصيدتى بمحمد

يا خير خَلْقِ الله دعوةَ حائر يشكو إليك صُروفَ دهر جائر
والله يعلم فى هواك سرائرى وهو الذى أرجو لعفوِ جرائرى
متوسلا بجنابك المتأطِّدِ

لولا حقوقٌ عينت بمغارب لمكثت عندك كى تُتَاحَ مآربى
ويكون فى الزرقاء عذبُ مشاربى حتى أحَلِّيَ من ثراك ترائبى
وأنال دَفْناً فى بقيع الغَرْقَدِ

وعليك من رب حَبَاكَ صَلاَته وسلامه وهباته وصِلاَته
ما أمَّ بابك من هدته فَلاَتُه لعلاك حتى زحزحت عِلاَّتُه
فأتيح حسن الختم دون تَرَدُّدِ

---

(١) الترب ـ بكسر التاء وسكون الراء ـ اللدة المساوى فى السن ، وأصل نشا نشأ ـ بالهمز ـ فقلب همزته ألفا (٢) أمتك : قصدتك ، وتشئو : تسبق
(٣) ماد الغصن يميد : اهتز لطراءته ولدونته

ثم ودعته صلى الله عليه وسلم والقلبُ من فراقه سقيم ، ووقعت من البعد عن تلك المعاهد فى المقْعدِ المُقيم ، وأنا أرجو أن يكون شكل منطقى غير عقيم [١] ، وأن أحْشَرَ فى زُمْرة من سلك الصراط المستقيم :

يا شفيع العصاة أنت رجائى   كيف يخشى الرجاء عندك خَيْبَهْ

وإذا كنتَ حاضرا بفؤادى   غيبةُ الجسم عنك ليست بغيبه

ليس بالعيش فى البلاد انتفاع   أطيب العيش ما يكون بطَيْبَهْ

المؤلف يزور بيت المقدس

ثم عدت إلى مصر ، وقد زال عنى ببركته صلى الله عليه وسلم الإصْر ، وذلك فى محرم سنة ١٠٢٩ ، ثم قصدت زيارة بيت المقدس فى شهر ربيع من هذا العام ، وقد شملتنى بفضل الله جوائز الإنعام ، وتذكرت عند مشاهدة تلك المسالك الصعبة قولَ حافظ الحفاظ ابن حجر العسقلانى ــ رحمه الله تعالى ! ــ وهو مما زادنى فى هذه الزيارة رغبة :

إلى البيت المقدس جئت أرجو   جِنانَ الخلد نُزْلاً من كريم [٢]

قطعنا فى مسافته عِقَاباً   وما بعد العِقَابِ سوى النعيم [٣]

فلما دخلت المسجد الأقصى ، وأبصرت بدائعه التى لا تُسْتَقْصَى ، بَهَرَنى جماله الذى تجلى الله به عليه ، وسألت عن محل المعراج الشريف فأرشدت إليه ، وشاهدت محلا أمّ فيه صلى الله عليه وسلم الرسلَ الكرام الهداة ، وكان حقى أن أنشد هنالك ما قاله بعضُ الموفقين وهو مما ينبغى أن تزمزم به الحُدَاة :

إن كنت تسأل أين قَدْ   رُ محمدٍ بين الأنامْ

فأصِخْ إلى آياته   تَظْفَرْ بريِّكَ فى الأوامْ

أكْرِمْ بعبدٍ سلمت   تقديمَهُ الرسل الكرامْ

---

(١) هذا من تعبيرات علم المنطق ، والشكل عندهم : نوع من القياس ، ويقولون « شكل عقيم » أو « ضرب عقيم » وهم يريدون أنه لا ينتج باضطراد

(٢) أصل النزل ــ بضمتين ــ ما يعد للضيف ، وقد سكن الزاى فى البيت

(٣) العقاب الأول : جمع عقبة ، وهى المرقى الصعب فى الجبل ، والعقاب الثانى : الجزاء على فعل الشر ، وفيه تورية

فى حضرة للقدس وا فاهاَ بِعِــزٍّ واحترام
صُفُّوا وصَلَّوْا خلفه إن الجماعــة بالإمامْ
للشُّهْب نورٌ بين والفضلُ للقمَرَ التَّمَّام[1]
سِلكُ النبوّة باهر وبأحمدٍ خُتِمَ النظام
هــذا الــكتابُ دلالة تبقى إلى يوم القيام
شهِدَتْ له من بعــد عجــزٍ ألسنُ اللُّدّ الخصام[2]
خَيْرُ الْوَرَى وأجـل آ يات له خـير الكلام
فعَلَيْه من ربّ الورى أزكى صلاةٍ مَعْ سلام

وربما يقول من يقف على سَرْد هــذه الأمداح النبوية : إلى متى وهذا الميدان تكلّ فيه فرسان البديهة والرَّوِيَّة ؟ فأنشده فى الجواب ، قولَ بعض من أمّ نهج الصَّواب :

لأدِيمنَّ مديحَ المصطفى فِعْلَ مَنْ فى الله قوّى طَمَعَهُ
فعَسَى أنعم فى الدنيا بهِ وعَسَى يحشرنى الله معَهْ

وإذا كان القريضُ فى بعض الأحيان كذبا صُرَاحا[3]، والموفق مَنْ تركه والحالة هذه رغبة عنه وله أُطراحا ، فخيره ما كان حقا وهو مدح الله ورسوله ، وبذلك يَحْصُل للعبد منتهى سُولِهِ .

ليس كل القريض يقبله السمــعُ وتُصْغِى لذكره الأفهام
إن بعض القريض ما كان هُزْءًا ليس شيئا ، وبعضه أحكام
وأجلّ الكلام ما كان فى مد ح شفيع الورى عليه السلام
طَيِّب العَرْفِ دائم الذكر لا تأ تى الليالى عليــه والأيامُ

---

(١) الشهب : جمع شهاب ، وهو الشعلة من النـار ، وأصله بضم أوله وثانيه ، وقد سكن الثانى هنا

(٢) اللد ـ بضم اللام ـ جمع ألد ، وهو الشديد فى خصومته

(٣) القريض : الشعر ، والكذب الصراح ـ بضم الصاد ـ الخـالص الذى لا يحتمل الصدق ، وأخذ هذا من قولهم « أعذب الشعر أكذبه »

مثل زَهْر قد شُقَّ عنه كِمَامُ ... أو كمسك قد فُضَّ عنه خِتَامُ(١)
ليس تُحصى صفات أحمد بالعدِّ ... كما لم تُحِطْ به الأوهام
ولَوَ اُن البحار حبر وما فى الـ ... أرض من كل نابتٍ أقلام(٢)
فطويلُ المديح فيه قصيرٌ ... وحُسَامٌ ماضٍ لديه كَهَامُ
ولسان البليغ للعِىِّ يُنْمَى ... وكذا صَيِّب الفصيح جَهامُ
كيف يحصى مديح مولًى عليه ... الله أثنى وذِكْرُهُ مستدام
وله المعجزات والآىُ تبدو ... لا يغطِّى وجوهَهن لِثَامُ
فمن المعجزات أن سار ليلا ... وجميع الأنام فيه نيام
راكباً للبُرَاق حتى أتى القد ... س وفيه رُسْل الإله الكرام
فاستَوَوْا خلفه صفوفاً وقالوا ... صلِّ يا أحمد فأنت الإمام
فعليه من ربه صَلَوَات ... زاكيات مع صحبه وسلامُ

ثم رجعت إلى القاهرة ، وكرّرت منها الذهاب إلى البقاع الطاهرة ، فدخلت لهذا التاريخ الذى هو عام تسعة وثلاثين وألف مكةَ خمس مرات ، وحصلت لى بالمجاورة فيها المسرَّات ، وأمليت فيها على قصد التبرك دروساً عديدة ، والله يجعل أيام العمر بالعود إليها مَدِيدة ، ووفدت على طَيْبَة المعظمة مُيَمِّماً مناهجها السديدة ، سبع مرار ، وأطفأت بالعود إليها ما بالأكباد الحرار ، واستضأت بتلك الأنوار ، وألفت بحضرته صلى الله عليه وسلم بعضَ ما منّ الله به علىّ فى ذلك الجوار ، وأمليت الحديث النبوى بمَرْأًى منه عليه الصلاة والسلام ومَسْمع ، ونلت بذلك وغيره ولله المنة مالم يكن لى فيه مَطْمح ولا مطمع ، ثم أُبْتُ إلى مصر مفوِّضاً لله جميعَ الأمور ، ملازما خدمة العلم الشريف بالأزهر المعمور ، وكان عَوْدِى من الحجة

عود المؤلف إلى مصر وتدريسه بالأزهر

(١) الكمام – بكسر أوله – غطاء الزهر ، وجمعه كمائم

(٢) أخذ معنى هذا البيت من قوله سبحانه وتعالى : (ولو أن مافى الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر مانفدت كلمات الله)

الخامسة بصفر سنة سبع وثلاثين وألف للهجرة ، فتحركت همتى أوائل رجب هذه السنة للعَوْد للبيت المقدس ، وتجديد العهد بالمحل الذى هو على التقوى مؤسس ، فوصلت أواسط رجب ، وأقمت فيه نحو خمسة وعشرين يوماً بَدَا لى فيها بفضل الله وجه الرشد وما احتجب ، وألقيت عدة دروس بالأقصى والصخرة المنيفَة ، وزُرْتُ مقام الخليل ومن معه من الأنبياء ذوى المقامات الشريفة ، وكنت حقيقاً بأن أنشد قولَ ابن مَطروح ، فى ذلك المقام الذى فَضْلُه معروف وأمره مشروح :

خليلَ الله قد جئناكَ نرجو ... شفاعَتَكَ التى ليست تردُّ

أنِلْنَا دعوة واشفع تُشَفَّعْ ... إلى من لا يخيب لديه قصد

وقل يا ربِّ أضيافٌ ووَفْد ... لَهُمْ بمحَمَّد صِلة وعَهْد

أتَوا يستغفرونك من ذنوب ... عِظام لا تُعَدُّ ولا تحدّ

إذا وزنت بِيَذْبُلَ أو شَمَامٌ ... رجحن ودونها رَضْوَى وأحْدُ[1]

ولكن لا يضيقُ العَفْوُ عنهم ... وكيف يضيق وَهْوَ لهم مُعَدّ

وقد سألوا رضاكَ على لسانى ... إلٰهى ما أجيبُ وما أردّ

فيامولاهُمُ عَطْفاً عليهم ... فهُمْ جَمْع أتوكَ وأنت فَرْدُ

ثم استوعبت أكثر تلك المزارات المباركة كمَزَار موسى الكَلِيم ، على نبينا وعليهم وعلى سائر المرسلين والأنبياء أجمعين أفضَلُ الصلاة والتسليم ، ثم حَدَث لى منتصفَ شعبان ، عزمٌ على الرحلة إلى المدينة التى ظهر فضلها وبان ، دِمَشْق الشام ذات الحسن والبهاء والحياء والاحتشام ، والأدواح المتنوّعة ، والأرواح[2] المتضوّعة ، حيث المشاهد المكرّمة ، والمعاهد المحترمة ، والغُوطة الغَنَّاء والحديقة ، والمكارم التى يُبَارى فيها المرء شانئه وصديقه ، والأظلال الوَرِيفة والأفنان

المؤلف يعود لدمشق ويتمدحها

---

(١) يذبل ، وشمام ، ورضوى ، وأحد : كل هذه أسماء جبال

(٢) الأدواح : جمع دوح ـ بالفتح ـ وهو الشجر العظيم المتسع من أى نوع كان ، والأرواح : جمع ريح ، والمتضوعة: التى تهب بالأريج

الوريقة ، والزهر الذى تخاله مَبْسِما والندى ريقه ، والقُضبان المُلْدُ ، التى تشوق رائيها بجنة الخلد :

بحيث الروض وَضَّاحُ الثنايا أنيقُ الحسن مَصْقول الأديم

وهى المدينة المستولية على الطباع ، المعمورة البقاع ، بالفضل والرباع :

تزيد على مر الزمان طَـلاوَةً دمِشْقُ التى راقت بحُـلْوِالمشارب

لهـا فى أقاليم البـلاد مشارق مُنَزَّهة أقمـارُهَا عن مغارِبِ

ودخلتها أواخر شعبان المذكور ، وحمدت الرحلة إليها وجعلها الله من السعى المشكور:

وجدت بها ما يملأ العينَ قرةً ويُسْلى عن الأوطان كلَّ غريب

وشاهدت بعض مغانيها الحسنة ، ومبانيها المستحسنة .

نزلنا بها ننْوِى المقـامَ ثلاثةً فطابت لنا حتى أقمنا بها شهرا

ورأينا من محاسنها مالايستوفيه من تأَنَّقَ فى الخطاب ، وأطال فى الوصف وأطاب ، وإن ملأ من البلاغة الوِطاب[1] ، كما قلت :

محاسنُ الشام أجْـلى من أن تحاط بحدّ

لولا حمى الشرع قلنا ولم نقف عند حـدّ

كأنها معجـزات مقرونة بالتحـدّى

فالجامع الجامع للبدائع يبهر الفِكَر ، والغُوطَة المنوطة بالحسن تسحر الألباب لاسيما إذا حياها النسيم وابتكر :

أحِبُّ الحِمى من أجل مَنْ سكن الحِمى حَديثٌ حديثٌ فى الهَوى وقَديمُ[2]

فلله مرآها الجميل الجليل ، و بيوتُها التى لم تخرج عن عَروض الخليل ، ومخبرها الذى هو على فضلها وفضل أهلها أدلّ دليل ، ومنظرها الذى ينقلب البصر عن بهجته وهو كَليل[3] :

---

(١) الوطاب ـ بكسر الواو ـ الوعاء

(٢) حديث الأول أراد به الـكلام ، وحديث الثاني وصف بمعنى الجديد

(٣) كليل : ضعيف عاجز

والروض قد راق العيونَ بحُلَّة قد حاكها بسَحَابهِ آذارُ[١]
وعلى غصون الدَّوْح خضرُ غلائلٍ والزهر فى أكمامه أزرار

فكم لها من حسن ظاهر وكامن ، كما قلت موطئا للبيت الثامن :

أما دمشق فجنة لعبت بألباب الخلائق
هى بهجة الدنيا التى منها بديع الحسن فائق
لله منها الصالحيَّةُ فاخَرَتْ بذوى الحقائق[٢]
والغُوطَة الغناء حيّت بالورود وبالشقائق
والنهر صاف والنسيم اللَّدْنُ للأشواق سائق
والطير بالعيدان أبدت فى الغنا أحلى الطرائق[٣]
ولآلىء الأزهار حلت جيد غصن فهو رائق
ومَرَاوِدُ الأمطار قد كُحِلَتْ بها حَدَقُ الحدائق
لا زال مغناها مصو نا آمنا كل البوائق

وكما قلت مرتجلا أيضا مضمنا الرابع والخامس :

دمشق راقت رُوَاء وبهجة وغضاره
فيها نسيم عليل صح فوافت بشارهْ
وغُوطَة كعروسٍ تُزْهى بأعجب شَارَهْ
يا حسنها من رياض مثل النُّضار نضاره
كالزهر زهراً وعنها عَرْف العبير عِبارَهْ
والجامع الفرد منها أعلى الإله مَنارَه
وحاصل القول فيها لمن أراد اختصاره

---

(١) حاكها : خاطها ، وآذار : شهر من الشهور الرومية
(٢) الصالحية : مكان بدمشق
(٣) العيدان هنا : أغصان الشجر ، والغنا : أصله الغناء ، فقصره لإقامة الوزن

تذكيرها من رآها عَدْناً وحَسْبى إشاره[1]
دامت تفوق سواها إنالَةً وإناره

وكما ارتجلت فيها أيضا :

قال لى ما تقول فى الشام حَبْر كلما لاح بارقُ الحسن شامَه[2]
قلت ماذا أقول فى وصف قُطْر هو فى وَجْنة المحاسن شامه

وقلت أيضا :

قال لى صف دمشق مَوْلًى رئيسٌ جَمَّلَ الله خَلْقَه واحتشامه
قلت كَلَّ اللسان فى وصف قطر هو فى وجنة البسيطة شامه

وقلت أيضا :

وإذا وصفْتَ محاسن الدنيا فلا تبدأ بغير دمشق فيها أوّلا
بلد إذا أرسلت طَرْفك نحوه لم تلق إلا جنة أو جَدْولا
ذا وصفُ بعضِ صفاتها وهى التى يَعْيَا البليغ وإن أجاد وطوّلا

والغاية فى هذا الباب ، من الوصف لبعض محاسنها الفاتنة الألباب ، قولُ أبى الوَحْش سبعى ابن خلف الأسدى يصف أرضها المشرقة ، ورياضها المورقة ، ونسيمها العليل ، وزهرها الْبَليل :

سقى دمشقَ الشام غيث مُمْرعٌ من مستهلِّ ديمةٍ دَفّاقِهاَ[3]
مدينة ليس يُضَاهى حسنها فى سائر الدنيا ولا آفاقِهاَ
تود زوراء العراق أنها تُعْزَى إليها لا إلى عِراقها
فأرضها مثل السماء بهجة وزهرها كالزهر فى إشراقها
نسيم رَيّاً روضها مَتَى سَرَى فكّ أخا الهموم من وَثَاقِهاَ

---

(١) أصل معنى « عدن » الإقامة الدائمة ، وبه سميت الجنة

(٢) شامه : نظر إليه ، والشامة فى البيت بعده معناها العلامة والخال الذى يكون فى خدود الحسان

(٣) غيث ممرع : مخصب ، يريد أنه يكون بعده النماء ، والديمة : المطر الدائم

قد رَبَعَ الربيع فى ربوعها وسيقتِ الدنيا إلى أسواقها
لا تسأمُ العيون والأنوف من رؤيتها يوما ولا انتشاقها[(١)]

وقول شمس الدين الأسدى الطيبى :

إذا ذُكِرَتْ بقاعُ الأرض يوما فقل سَقْيًا لِجِلَّقَ ثم رَعْيَا[(٢)]
وقل فى وصفها لا فى سواها بها ما شئت من دين ودنيا

وكأن لسان الدين ذا الوزارتين بنَ الخطيب ، عَنَاها بقوله المصيب :

بلد تحفُّ به الرياض كأنه وجه جميل والرياض عِذارُهُ
وكأنما واديه مِعْصَم غادةٍ ومن الجُسُور المحكمات سِوارُهُ

وكنت قبل رحلتى إليها ، ووفادتى عليها ، كثيرا ما أسمع عن أهلها زاد الله فى ارتقائهم ، ما يشوّقنى إلى رؤيتها ولقائهم ، ويُنْشقنى على البعد أريجَ الأدب الفائق من تلقائهم ، حتى لقيت بمكة المعظمة ، أوحدَ كبرائها الذين فرائدهم بِلَبَّة الدهر منظمة ، عين الأعيان ، وصدر أرباب التفسير بها والبيَان . صاحب القلم الذى طبّقَ الكلى والمفاصل ، والفتاوى التى حكمها بين الحق والباطل فاصل . والتآليف التى وَصْفُهَا بالإجادة من باب تحصيل الحاصل ، وارث العلم عن غير كَلاَلَة ، ذو الحسب المُشرق بدْرُه فى سماء الجلالة ، صاحب المعارف التى زانت خِلاله ، وساحب أذيال العوارف التى أبانت عن فضله دَلاَلَة ، مفتى السلطان فى تلك الأوطان ، على مذهب الإمام النعمان ، مولانا الشيخ عبد الرحمن ، ابن شيخ الإسلام عماد الدين ، لا زال سالكا سبيل المهتدين ! فكان جمل الله به عصراً وأوانا ، لقضية هذا القياس عنوانا ، فلما حَلَلْتُ بدارهم ، ورأيت ما أذهلنى من سَبْقهم للفضل و بِدَارهم[(٣)] ، صدَقَ الخبر ، وتمثلت فيهم بقول بعض من غَبَرَ :

---

(١) الانتشاق : الشم ، والرؤية راجعة إلى العيون ، والانتشاق راجع إلى الأنوف

(٢) جلق : اسم من أسماء دمشق

(٣) البدار إلى الشىء ــ بكسر الباء ــ المبادرة إليه

أَلَمَّتْ بنا أوصافُهم فامتلا الفضا عَبِيرًا وأضْحَى نُورُهُ متألقا(١)
وقد كان هذا من سماع حديثهم بلاغًا فصحَّ النقلُ إذ حصل اللِّقَا(٢)

وقابلونى أسماهم الله بالاحتفال والاحتفاء، وعرفنى بديع برّهم فن الاكتفاء :

غمرتنى المكارم الغرّ منهم وتوالتْ علىَّ منها فنونُ
شَرْطُ إحسانهم تحققَ عندى ليْتَ شعرى الجزاء كيف يكون

وقابلونى بالقَبول مُغْضين عن جهلى :

وما زال بى إحسانُهُمْ وجَميلهُمْ و بِرّهُمُ حتى حسبتهمُ أهلى

بل الأولى أن أتمثل فيهم بما هو أبلغ من هذا المقول فى آل المهلَّب ، وهو قول بعض مَنْ نزل بقومٍ بَرْقُ قَصْدهم غير خُلَّب(٣) ، فى زمن به تقلَّب :

ولما نزلنا فى ظــلال بيُوتهم أمِنَّا ونلنا الخِصْبَ فى زمن الْمَحْلِ
ولو لم يَزِدْ إحسانُهم وجميلُهم على البر من أهلى حسبتهمُ أهْلِى

لاسيما المولى الذى أمداحه تحلِّى أجيادَ الطُّروس العاطلة ، وسَماحُه يخجل أنواء الغيوث الهاطلة ، صدرُ الأكابِرِ الأعاظم ، الحائزقَصبَ السَّبْق فى مَيْدان الإجادة بشهادة كل ناثر وناظم ، الصديقُ الذى بودِّه أغتبط ، والصَّدُوق الذى بأسباب عَهْده أرتبط ، الأوحــد الذى ضربتِ البراعةُ رِوَاقها بناديه ، والماجدُ الذى لم يزل بديعُ البلاغة من كَثَب يناديه ، السرىُّ الحائز من الخلال ما أبان تفضيله ، اللَّوْذعى الذى لم تزل أوصافُه تحكم له بالسؤدد وتقضى له ، والحق أبلج لا يحتاج إلى زيادة بَرَاهين ، الأجلّ المولى أحمد أفندى بن شاهين ، لا زالت العزة مُقيمة بِوَادِيه ، ولا برحَتْ حضرته جامعة لبواطن الفخر و بَوَاديه ، والسعد يراوح مقامه و يُغَاديه ، والمجد يترنَّم بذكره حادبه ، فكم له أسماه الله ولغيره من أعيان

(١) امتلا : أصله امتلأ ، بالهمز ، فقلبها ألفا ، والعبير : الريح الطيبة ، والمتألق : المضىء
(٢) هذا البيت من اصطلاحات علماء أصول الحديث ، والبلاغ عندهم : الرواية من غير لقاء
(٣) الخلب ــ بزنة سكر ــ البرق الذي يخلف ولا يكون وراءه مطر

دمشق لدىّ من أياد ، يعجز عن الإبانة عنها لو أراد وصفها قسّ إياد(١) ، ولو تعرضت لأسمائهم وحُلاهم ، أدام الله تعالى سؤددهم وعُلاهم ! لضاق عن ذلك هذا النِّطاق ، وكان من شبه التكليف بما لا يطاق ، فليت شعرى بأى أسلوب ، أؤدى بعض حقهم المطلوب ؟ أم بأى لسان ، أثنى على مزاياهم الحِسان ؟ وما عسى أن أقول فى قوم نَسَقُوا الفضائل وِلاء ، وتعاطوا أكواب المحامد مِلاء ؟ وسحبوا من المجد مَطارف ومُلاء(٢) ، وحازوا المكارم ، وبَذُّوا الموادد والمصارم ، سؤددا وعلاء ؟

فما رياضُ زَهَرِ الرَّبيع ... إذا بَدَتْ فى وَشْيِها البديع
ضاحكة عن شَنَبِ الأقاحِ ... عند سُفور طَلْعَة الصَّباح
غَنى بها مُطَوَّقُ الحمامِ ... وصافَحتْها راحَةُ الغمام
وباكَرَتْها نَسْمَةٌ من الصَّبا ... فأصْبَحَتْ كأنها عَهْدُ الصِّبا
نَضارة ورَوْنَقاً وبَهْجَهْ ... تُفْدَى بكل ناظر ومُهْجَهْ
أطْيبُ من ثنائهم عَبيرا ... بين الوَرَى فاسألْ به خَبيرا
دامت مَعَاليهم على طول الزمنْ ... يُرْوَى حديثُ الفضلِ عنها عَنْ حَسَنْ
وثابتٍ وقُرَّةٍ وسَعْدِ ... وأسْعِفُوا بنيل كل وَعْدِ

فهم الذين نوَّهوا بقدرى الخامل ، وظنوا مع نقصى أن بحر معرفتى وافر كامل ، حسبما اقتضاه طبعهم العالى ، فلو شَرَيْتُ بعُمْرى ساعةً ذهبت من عيشى معهم ما كان بالغالى ، فمتعين حقهم لا يترك ، وحُبُّهم لا يخالط بغيره ولا يشرك ، وإن أطلت الوصف فالغاية فى ذلك لا تدرك

يَزْدَادُ فى مَسْمَعى تَرْدَادُ ذكرهُمُ ... طيباً ويحسُنُ فى عينى مُكَرَّرُهُ

وإذا كان المديح الصادق لا يزيدهم رفعة قدر ، فهم كما قال الأعرابى الذى ضَلَّتْ

---

(١) أياد — بفتح الهمزة — جمع يد ، وأراد بها النعمة والفضل ، وإياد — بكسر الهمزة — قبيلة منها قس بن ساعدة خطيب العرب فى الجاهلية

(٢) المطارف: جمع مطرف — بزنة منبر أو معلم — وهو رداء فى غزله أعلام ، والملاء. جمع ملاءة — بضم الميم فيهما — وهو ثوب يلبس على الفخذين ، أو هى الريطة ذات لفقين

ناقته فى مدح البدر ، والبليغ وذو الحَصَر فى ذلك سِيَّان[١] ، والحق أبلج والباطل لَجْلَج وليس الخبر كالعِيَان[٢] :

هَبِ الرَّوْضَ لايثنى على الغيث نَشْرُهُ ... أتحسَبهُ تخفى مآثره الحُسْنَى

وقد تذكرت بلادى النائية ، بذلك المرأى الشامى الذى يَبْهَرُ رائيه ، فما شئت من أنهار ذات انسجام ، أتْرعَ فيها من جِرْيَال الأنس جام[٣] ، وأزهار متوّجة للأدواح ، مُرَوِّحة للنفوس بعاطر الأرواح ، وحدائق تغشى أنوارها الأحداق ، وعيانها للخبر عنها مِصْدَاق وأى مصداق :

فهىَ التى ضَحِكَ النهارُ صباحها ... وبَكَتْ عشيَّتَهَا عيونُ النرجِس

واخضَرَّ جانبُ نهرها فكأنه ... سَيف يُسل وغمدُه من سُندُسِ

وجنان ، أفنَانُها فى الحسن ذوات أفنان :

صافحَتْهَا الرياحُ فاعتنق السَّرْ ... وُ وَمَالَتْ طِوالُه للقِصَارِ[٤]

لائذٌ بعضُهُ ببعضٍ كقوم ... فى عتاب مُكرر واعتذارِ

وبِطَاح راق سنَاهَا ، وكَمُلَ حسنها وتناهى ، كما قلت مضمنا فى ذلك المنحى ، لقول بعض من نال فى البلاغة مُنًى ومِنَحًا :

دِمَشْقٌ لا يُقَاس بها سواها ... ويمتنع القياسُ مع النُّصُوصِ

حُلاها راقتِ الأبصارَ حسْناً ... على حكم العُمُوم أو الخُصُوصِ

بِسَاطُ زمردٍ نُثِرَتْ عليه ... من الياقوت ألوان الفُصُوص

ولله در القائل ، فى وصف تلك الفضائل :

إن تَكُنْ جنةُ الخلود بأرض ... فدِمَشْقٌ ، ولا يكون سِوَاها

أو تكن فى السماء فهْىَ عليها ... قد أمدّت هَوَاءها وهواها

---

(١) ذو الحصر ـ بفتح الحاء والصاد جميعا ـ العيى الذى لايستطيع الإبانة عن مراده

(٢) العيان ـ بكسر العين ـ معاينة الأمر ومشاهدته

(٣) أترع : ملىء ، والجريال : الخمر ، والجام . الكأس

(٤) السرو ـ بالفتح ـ جمع سروة ، وهى شجرة بهية الرواء ، لاثمر لها

بَلَدٌ طيِّبٌ وربٌّ غفور فاغْتَنِمْهَا عشيَّةً أو ضُحَاها

وعند رؤيتى لتلك الأقطار، الجليلة الأوصاف العظيمة الأخطار(١)، تفاءلْتُ بالعَوْد إلى أوطان لى بها أوطار(٢)، إذ التشابه بينهما قريب فى الأنهار والأزهار، ذات العَرْف المِعْطار(٣)، وزادت هذه بالتقديس الذى هَمَعَت عليهامنه الأمطار، وتمثلتُ بقول الأصفهانى، و إن غيرتُ يسيراً منه لما أسفرت وجوه التهانى :

لما وَرَدْتُ الصالحيَّـــــةَ حيثُ مُجتمَعُ الرِّفاقِ
وشمِمْتُ من أرض الشآ م نسيمَ أنفاس العِرَاق
أيقنْتُ لى ولمن أحـــبُّ بجَمْع شملٍ واتِّفاق
وضحكتُ من فَرَح اللقا ءِ كما بكيتُ من الفراق
لم يَبْقَ لى إلا تجـــشُّمُ أزمن السَّفر البواقى
حتى يطول حـــديثنا بصفات ما كنا نلاقى

وكنت قبل حلولى بالبقاع الشامية مُولَعا بالوطن لا سواه، فصار القلب بعد ذلك مُقَسَّما بهواه :

ولى بالِحمى أهلٌ و بالشعب جيرة وفى حاجرٍ خِلٌّ وفى المنحَنى صَحْبُ
تقسَّمَ ذا القلبُ المتـــيَّمُ بينهُمْ سألتكم بالله هل يُقسَمُ القلب(٤)

فيالك من صَبٍّ مُراع للذمام، منقاد لشوقه بزمام، يخيل له أنه سمع صَوْت قيان، بقول الأول :

إلى الله أشكو بالمدينة حاجَـــةً وبالشام أُخْرَى كيف يلتقيان

وفردٍ تعدّدت جموعه، ووشت بما أكنتْ ضلوعُه دموعُه، فأنشد وقد تحير، ما بدّل فيه من عظم مابه وغير :

(١) الأخطار : جمع خطر، وهو القدر
(٢) الأوطار : جمع وطر ـ بفتح الواو والطاء جميعا ـ وهو الحاجة والمأرب
(٣) العرف : ـ بالفتح ـ طيب الرائحة، والمعطار : الكثير العطر
(٤) القلب المتيم : الذى تيمه الحب، أي ذلله وعبده وقهره

كتمتُ شأنَ الهَوَى يوم النوى فوَشَى ... بسره من جُفونى أىُّ نَمَّام
كانت ليَالِيَّ بيضاً فى دنوّهِمُ ... فلا تسَلْ بعدهم عن حال أيامى
ضَنِيتُ وَجْدًا بِهِم والناسُ تحسب بى ... سُقْمًا فأبهمُ حالى عند لوّامى
وليس أصْلُ ضَنَى جسمى النحيل سِوَى ... فَرْطِ اشتياقى لأهل الغَرْب والشام

وحصل التحير، حيث لم يمكن الجمع ولا الخلوّ عند التخير، كما قال ابن دقيق العيد، فى مثل هذا الغرض البعيد:

إذا كنْتُ فى نَجْدٍ وطيبِ نَعيمه ... تذكَّرْتُ أهلى باللِّوى فمُحسَّرِ
وإن كُنْتُ فيهم زدتُ شوقاً ولوعَةً ... إلى ساكنى نجدٍ وعيلَ تَصَبُّرِى(١)
فقد طال ما بين الفريقَيْنِ مَوْقفى ... فمن لى بنَجْد بين أهلى ومَعْشَرِى

وبالجملة فالاعتراف بالحق فريضة، ومحاسنُ الشام وأهله طويلة عريضة، ورياضُه بالمفاخر والكمالات أريضة(٢)، وهو مقرّ الأولياء والأنبياء، ولا يجهل فضله إلا الأغمار الأغبياء(٣)، الذين قلوبهم مريضة:

أنَّى يرَى الشَّمْسَ خُفاشٌ يلاحِظُهَا ... والشمس تَبْهَرُ أبصار الخَفَافِيش؟

ولله در من قال فى مثل هذا من الأرضياء:

وَهَبْنى قلت هٰذَا الصبحُ ليل ... أيَعْمَى العالمون عن الضِّياء

وقال آخر فيمن عن الحق ينفر:

إذا لم يكن للمرء عَيْن بصيرة ... فلا غَرْوَ أن يرتاب والصُّبْحُ مُسْفِرُ

وحَسْب الفاضل اللبيب، أن يروى قول البدر بن حبيب:

عَرِّجْ إذا ما شِمْتَ برق الشآم ... وحَيِّ أهْلَ الحى وَاقْرَ السلام
وأُنزل بإقليم جزيل الحَيا ... بارك فيه اللهُ ربُّ الأنام

---

(١) عيل تصبرى: ضعف تكلفى الجلد والصبر على فراق الأحبة

(٢) تقول «روض أريض» و«رياض أريضة» و«أرض أريضة» إذا كانت زكية معجبة للعين

(٣) الأغمار: جمع غمر ـ بفتح الغين أو ضمها أو كسرها ـ وهو الجاهل الأبله الذى لا تجربة له ولا يدرك عواقب الأمور

العز والنصر لديه ، وَمَا لعُرْوَة الإسلام عنه انفِصَام(١)
من أولياء الله كم قد حوَى رُكناً بمرآه يطيب لُمقَام
وَهْو مقرٌّ الأنبياء الألى والأصْفياء الأتقياء الكرام
كم من شهيد فى حِمَاه وكم من عالم فَرْد وكم من إمام

ولذلك اعتنت الجهابذة(٢) بتخليد أخباره فى الدواوين ، وابتنت الأساتذة بيوتَ افتخاره المنيفة الأواوين ، وتناقلت أنباءه البديعة ألسن الراوين ، وهامت بأماكنه المَرِيعة هداة الشريعة فضلا عن الشعراء الغاوين ، ومع ذلك فهم فى التعبير عن عجائبه غير متساوين، أولا يرى أنهم يأتون من مَقُولهم ، على قدر رأيهم وعقولهم ، ولم يبلغ جمع منهم ما كانوا له ناوين :

على قدرك الصَّهباء توليك نشوةً بها سِيءُ أعداء وسُرَّ صحاب(٣)
ولو أنها تُعْطيك منها بقدرها لضاقت بك الأكوان وَهْى رِحَاب

المؤلف يتذاكر فى شأن الأندلس

وكنا فى خلال الإقامة بدمَشْقَ المحوطة ، وأثناء التأمل فى محاسن الجامع والمنازل والقصور والغُوطَة ، كثيراً ما ننظم فى سلك المذاكرة درر الأخبار الملقوطة ، ونتفيأ من ظلال التبيان مع أولئك الأعيان فى مجالِسَ مَغْبُوطة ، نتجاذب فيها أهداب الآداب ، ونشرب من سَلْسال الاسترسال وتتهادى لُبَاب الألباب ، ونمدّ بساط الانبساط ونسدل أطناب الإطناب ، ونَقْضى أوطار الأقطار ، ونستدعى أعلام الأعلام ، فينجرّ بنا الكلام والحديث شجون ، وبالتفنن يبلغ المستفيدون مايرجون ، إلى ذكر البلاد الأندلسية ، ووصف رياضها السندسية ، التى هى بالحسن مَنُوطة ، وقضاياها الموجَّهة التى لايستوفيها المنطق مع أنها ضرورية وممكنة ومشروطة ، والفِطَر السليمة ، والأفهام المستقيمة ، بتسليم براهينها قاضية لاسيما إن كانت بالإنصاف

---

(١) ليس لهذه العروة انفصام : أى أنها باقية على قوتها لا انقطاع لها

(٢) الجهابذة : جمع جهبذ ــ بزنة جعفر أوزبرج ــ وهو الناقد العارف بتمييز الجيد من الرديء ، وهو معرب « كهبذ » الفارسى ، والتاء التى فى الجمع مزيدة للدلالة على التعريب كالمرازبة والقياصرة والأكاسرة ونحوذلك (٣) الصهباء : الخمر

مربوطة ، فصِرْت أورد من بدائع بُلَغائها ما يجرى على لسانى ، من الفيض الرحمانى ، وأسْرُدُ من كلام وزيرها لسان الدين بن الخطيب السَّلْمَانى ، صب الله عليه شآبيب رحماه و بلغه من رضوانه الأمانى ! ما تُثِيره المناسبة وتقتضيه ، وتميل إليه الطباع السليمة وترتضيه ، من النظم الجَزْل ، فى الجدّ والهزل ، والإنشاء ، الذى يدهش به ذا كِرُهُ الألبابَ إن شاء ، وتصرفه فى فنونْ البلاغة حالى الولاية والعزل ، إذهو - أعنى لسان الدين - فارس النظم والنثر فى ذلك العصر ، والمنفرد بالسبق فى تلك الميادين بأداة الحصر ، وكيف لا ونظمه لم تستول على مثله أيدى الهَصْر ، ونثره تزرى صورته بالخريدة ودُمْيَة القصر .

فلما تكرر ذلك غَيْرَ مرة على أسماعهم ، لَهِجُوا به دون غيره حتى صار كأنه كلمة إجماعهم ، وعَلِق بقلوبهم وأضحى منتهى مطلوبهم ومُنْية آمالهم وأطماعهم ، وصاروا يقطفون بيد الرغبة فنونه ، و يعترفون ببراعته و يستحسنونه ، و يستنشقون من أزهاره كلَّ ذَاكٍ ، فطلب منى المولى أحمد الشاهينى إذ ذاك ، وهو الماجد المذكور ، ذو السعى المشكور ، أن أتَصَدَّى للتعريف بلسان الدين فى مُصَنَّف يُعْرب عن بعض أحواله وأنبائه ، و بدائعه وصنائعه ووقائعه مع ملوك عصره وعلمائه وأدبائه ، ومَفَاخره التى قُلِّد بها جِيدُ الزمان ولَبَّتُهُ [1] ، ومآثره التى أرِجَ بها مَسْرى الشّمال وهَبَّتُهُ ، و بعض ماله من النِّثَار والنظام ، والمؤلفات الكبار العظام ، الرائقة للأبصار ، الفائقة على كلام كثير من أهل الأمصار ، السائرة مسير القمر والشمس ، المعقودِ عليها بالخَناصر بل الخمس ، كى ما يكون ذلك لهذه الأغراض مشيعاً ، و يخلع على مطالعه بهذه البلاد المشرقية من أغراضِ البديعة ومنازعة وَشِيعاً [2] .

فأجبته أسْمى الله قدره الكبير ، وأدام عَرْفَ فضائله المُزْرى بالعنبر والعبير ،

---

(١) اللبة - بفتح اللام وتشديد الباء - أراد به هنا النحر والعنق

(٢) أصل الوشيع . علم يكون للثوب

بأن هذا الغرض غير سهل ، ولست علم الله له بأهْلٍ ، من جهات عديدة ، أوّلها قصورى عن تحمل تلك الأعباء الشديدة ، إذ لا يوفّى بهذا الغرض إلا الماهِرُ بطرق المعارف السديدة ، وثانيها عدمُ تيسُّرِ الكتب المستعان بها على هذا المرام لأنى خَلَّفتها بالمغرب ، وأكثرها فى المشرق كعَنْقاء مُغْرب[1] ، وثالثها شغل الخاطر بأشجان الغربة ، الجالبة للفكر غاية الكُرْبة ، وتقسُّم البال ، بين شغل عائق وبلبال ، وأنى يطيق ، سلوكَ هذا المضيق ، مَنِ اكتحلت جفونه بالسهاد ، ونَبَتْ جنوبه عن المِهاد ، وسدّد نحوه الأسفُ سَهمه ، وشغل باله ووهمه ، وبث فى قلبه تبريحا ، وعناء لم يجد منه إلا أن يَلْطُفَ الله تَسريحاً ، فما شام بارقَةَ أملٍ إلا فى النادر ، ولا وردَ منهل صفاء إلا وكدره مكر غادر ، وقد كثر الجفاء ، وبرح بلا شك الخفاء ، واستَوْخَمتِ الموارد والمصادر ، والقلب مكلوم ، وذو اللب غير مَلُوم ، إذا كان على تلفيق ما يليق غير قادر ، ولا مؤنس إلا شاكى دهر بلسان صريح ، أو باكى قاصمة ظَهْر بجَفْن قَريح ، أو مُناضل فى معترك العجز طريح ، أو فاضل دُفن من الخمول فى ضَريح ، إذ رمته سهام الأوهام الصوائب ، وعَضَّت منه إبهام الإبهام بنابها النوى والنوائب، فقلوبه من تقلبات أحواله ذوائب ، وكم شابت من أمثاله بصروف الدهر وأهواله ذوائب :

عَلَى أنها الأيام قد صِرْنَ كُلُّها   عجائبَ حتى ليس فيها عجَائِبُ

وأدمع أحجارها ، تسلط فجارها ، فكم من عدوّ منهم فى ثياب صديق ، وحَسُود لنظره إلى نعم الله على عباده تحديق ، لاتخدعه المُداراة ، ولاَ تَرْدَعُه المماراة ، يتتبع العَثَرات ، ويقنع بألم البثرات ، ويتبسم ، وقلبه من الغل ينقسم ، ويتودد ، ومكايدُه تتجدّد فتتعدّد :

(١) العنقاء : طائر معروف الاسم مجهول الحقيقة ، والعرب تقول «عنقاء مغرب» على الوصف ، أو على الإضافة ، و «العنقاء المغرب» على الوصف ، لكل شىء لاوجود له ، وإذا أخبروا عن هلاك أحد قالوا «حلقت به فى الجو عنقاء مغرب»

لا تَرُمْ من مماذِق الود خَيْرًا فبعيدٌ من السَّراب الشرابُ(١)
رَوْنق كالحَباب يَعْلو على الما ءولكن تحتَ الحَبَاب الحُبابُ(٢)
عَظُمَتْ فى النفاق ألسِنَة القوْ م وفى الألْسُنِ العِذاب العَذابُ

والصديق الصدوق فى هذا الزمن قليل ، وقد ألف بعض العلماء « شفاء الغليل ، فى ذم الصاحب والخليل » . وهو غير محمول على الإطلاق ، وإن قال به بعضُ من رَهْنُه من أبناء عصره ذو إغلاق :

أبناء دَهْرِكَ فالْقَهُمْ مثلَ العِدَا بسِلاحكا
لاتغـترر بتبسُّمٍ فالسَّيْف يقتل ضاحكا

وداء الحسد أعيا الأوّل والآخر ، وقد عظم الأمر فى هذا الأوانِ وكثر المزدرى والساخر ، مع أن أسواق الدفاتر كاسدة ، وأمزجة المحابر فاسدة :

والدهْرُ دهْرُ الجاهلـــين وأمْرُ أهل العلم فاتر
لاسُوقَ أكسَدُ فيه من سوق المحابر والدفاتر

فالمنسوب للعلم فى هذا الزمن زَمِن ، وهو بأن ينشد قول الأول قَمِن :

لأيِّ وَمِيض بارقة أشِيمُ وَرعْيُ الفضل عندهمُ هَشِيمُ

وليت شعرى علام يحسد من أبدل الأغترابُ شارته ، وأضعف الاضطراب إشارتَه وأنهل بالدموع أنواءه ، وقلل أضواءه ، وكثر علله وأدواءه ، وغير عند التأمل رُواءه ، وثنى عن المأمول عِنانه ، وأرهف بالخمول سِنانه ، حتى قدح الذكر حَنانه ، وملأ الفكر جاشه وجَنانه ، فهو فى ميدان النزوح مستبق ، ومن راحة التعب مصطبح ومغتبق :

له أنَّةُ المشتـاق فى كل ساعة تمرُّ وما للثاكلات من الحُزْنِ

(١) لاترم: لاتطلب ، ومماذق الود : الذى لايصدق فيه

(٢) الرونق : أرادبه البهاء وحسن المنظر ، والحباب ـ بفتح الحاء ـ نفاخات الماء التى تعلوها ، والعرب تشبهه بالدر ، ومنه قول الشاعر .

تخال الحباب المرتقى فوق نورها إلى سوق أعلاها جمانا مبذرا

والحباب ـ بضم الحاء ـ الحية

ومن مُرْسَلاَت الدمع واقعة الأسى ومن عاديات البين قارعة السن
تثير الذكرى منه كوامن الشجُون (١) ، وتدير عليه جامَ الهُيام ولو كان بين الصَّفَا والحَجُون :

وتحت ضُلوعِ المُستهام كآبة يَخافُ على الأحشاء منها التفطُّرا
ولو أن أحشاء تبُوحُ بما حَوَت لتمتلئنّ الأرضُ كُتْباً وأسْطُرا

وشتان ما بين الاقتراب والاغتراب ، والسكون فى الركون والنبوّ عنها والاضطراب ، فذاك تسهل غالباً فيه الأغراض والمآرب ، وهذا تتعفر فيه المقاصد وتتكدر المشارب :

وما أنا عن تَحْصِيل دُنْيَا بعاجز ولكن أرى تحصيلهَا بالدنيةِ
وإن طاوَعَتْنِى رقة الحال مَرَّة أبت فعلَها أخلاقُ نفسٍ أبيةِ

وكما قلت ، عند ما صرت إلى الاغتراب وألتُ :

تركت رسومَ عزى فى بلادى وصِرْتُ بمصر مَنْسِيَّ الرسوم
ورُضْتُ النفسَ بالتجريد زُهْدًا وقلت لها عن العَلْيَاءِ صُومِى
مخافة أن أُرَى بالحرص ممن يكونُ زمانُهُ أَحَدَ الخصوم

وكما قال بعض الأكابر ، من أهل الزمان الغابر :

لاعار إن عَطِلَتْ يَدَاىَ من الغنى كم سابقٍ فى الخيل غير مُحَجَّلِ (٢)
صان اللئيمُ ، وصُنت وجهى ، مالَه دونى ، فلم يبذل ولم أتبذَّل (٣)
أبكى لهمّ ضافنى متأوِّباً إن الدموع قِرَى الهموم النزَّلِ
لاتُنْكِرُوا شيباً أَلَمّ بمَفْرِقِى عجلاً كأن سَنَاهُ سَلَّة مُنْصُلِ
فلقد دُفِعْتُ إلى الهموم تنوبنى منها ثلاث شدائد جُمِّعن لى
أسف على ماضى الزمان ، وحَيْرَةٌ فى الحال منه ، ووَحْشَة المستقبل

(١) الكوامن : جمع كامن ، وهو المستتر ، والشجون . الأحزان ، واحدها شجن
(٢) التحجيل فى الفرس : البياض فى قوائمه ، وهذا مما يمتدحه العرب فى الخيل
(٣) « ماله » مفعول به لقوله « صان اللئيم »

ما إنْ وصَلْتُ إلى زمان آخر … إلا بكيت على الزَّمان الأوَّل
لله عهــد بالحمٰى لم أنْسَهُ … أيام أعْصِى فى الصبابة عُذَّلى

ويرحم الله ابن قلاقس الإسكندرى ، إذ قال فى معنى التمنى المصدرى :

لعلَّ زمانى بالعُذَيْب يعُود … فيقرُبَ قربٌ أو يصدَّ صُدُودُ
وأبصر كُثْبانا وهَزَّ رَوادف … عليهن أغصانٌ وهُنَّ قُدُودُ
وأقطف وَرْدَ الخدوهومُضرَّج … وأجنى أقاحَ الثغر وهو بَرُودُ[1]
وأدنى ذراعى للعِناَق ذريعة … فتنهى عن الإفراط فيه نهُودُ
ويَسْرى إلىَّ البَدْرُ وهو مُمَنَّعٌ … ويَغْدُو إلىَّ الظبى وهو شَرُودُ[2]
ونكرع فى شكوى الفراق كأننا … فَوَارط هِيمٌ راقهنّ وُرُودُ[3]
وأكبر مقدار الهوى عن كبيرة … وأحمى عَفافى دونه وأذودُ

وفرق ما بين الجوهر والعرض ، والصحة البينة والمرض ، والدر والحصا ، والحسام والعصا ، والرجوع إلى التفويض للأقدار ، فى أمور هــذه الدار ، الــكثيرة الأكدار ، هو المطلوب ، والمرجو من الله سبحانه جبر القلوب .

يا ربِّ نفِّسْ هُمومى … واكْشِفْ كُرُوبى جميعا
فقد رَجَوْتُ كريماً … وقد دَعَوْتُ سميعا

ولم يجعل لى المذكور ــ حفظه الله ! ــ فسحة ولا مندوحة ، بعد هذه الأعذار المحمودة فى الصدق الممدوحة ، ولسان حالى وقالى ، يثْبتان عجزى عن أداء هــذا الحق بشهادة من هو وادّ وقالى ، إذ مَنْ كان بصفة ، غير متمكنة مما تكون به متصفة ، واتَّسم بنعوت مختلفة ، وارتسم فى غــير ذوى الأحوال المؤتلفة ، كيف يحير فى التصنيف جوابا ، أو ينتحى من التأليف صوابا ، ومَنْ جَفْنه هامٍ هامل ،

(١) مضرج : أراد أنه محمر كأنما ضرج بالدم ، والبرود ــ بفتح الباء ، بزنة صبور ــ البارد (٢) شرود : كثير النفور

(٣) الفوارط : جمع فارط ، وهى من القطا ونحوها التى تتقدم نحو الماء للشرب ، والهيم : جمع هيماء وهى الشديدة العطش ، وفى القرآن الـكريم (فشاربون شرب الهيم)

وقصورُه عامّ شامل ، كيف يقبض بالأنامل ، على ماء البحر الوافر الكامل ؟ ومَنْ لبس من العى مُلاَه[١] ، لا يعبِّرُ عمن طَبَّق مفاصل الكلام وكُلاَه[٢] ، وقصرت ألسن البلغاء عن علاه ، وزانت صدور الدواوين حُلاه ، وجمع خلالاً حِسَانا ، وكان للدين لسانا ، وزاحمت مفاخره بالمناكب الكواكب ، وازدانت بمرآه النوادى والمواكب ، ونفحات الأزهار من آدابه ، ونَسَمَات الأسحار عطر أذياله وأهدابه ، والسِّحرمن كتابته ، والسَّحَر من كنايته ، ورَوْحُ النسيم من تعريضه ، والنثرة من نثره ، والشِّعْرَى من شعره وقريضه ، وحُلل المجد لباسه ، وأنوار العلم اقتباسه :

له ذِهْنٌ يَغوص ببَحْر علم فيأتى منه بالدُّرِّ النظيم
معَانيه الرياض ، لأجل هذا سَرتْ ألفاظُه مثل النسيم

ومباهيه النجوم ، ومضاهيه الغيْث السَّجوم ، إلى آباء يحسدهم القمر والشمس ، وإباء لو كان للمشرَفى لما تحيَّفه لَمْس[٣] ، وشرف لامُدَّعًى ولا مُنْتَحل ، وهمة لو نالها البدر لاستخذى له زُحَل ، وبراعة أرهَفَتْ سنانَ قلمه ، ويراعة سارت أمراؤها تحت علمه ، فكم فتح بفكرِه أقفالهَا ، ووَسَم بذهنه الثاقب أغْفَالهَا ، وسَبَكَ معانيها فى قالب قلبه إبريزا ، ورقم بيان لسانه برود إحسانه بلفظه البديع تطريزا ، فرفع فى ميدان الإجادة لواؤه ، وأتيح من أنهار البراعة العذبة إرواؤه ، ونال سبقا وتبريزا :

وما زَمنُ الشَّباب وأنْتَ تَجرى مع الأحباب فى لَهْوٍ وطيبِ
ووَصل من حبيب بعد هَجْرٍ بأحْلى من كلام ابن الخطيبِ

---

(١) ملاه : أصله « ملاءه » فقصره لإتمام السجع ، والملاء : جمع ملاءة ، وهى الثوب هنا

(٢) يقال « فلان يجيد الحز ، ويطبق المفصل » إذا كان خبيرا ضليعا عارفا مواضع الإصابة

(٣) المشرفى : السيف ، نسب إلى مشارف اليمن ، وتحيفه : نقصه وجار عليه

فقصائده أرخصت جواهِرَ البحور ، المنظومة فى قلائد اللَّبَّات والنحور ، من حسان العقائل الحور :

مَعَان وألفاظٌ تنظَّمُ منهما عقودُ لآل فى نُحُور الشمائل
وزهْرُ كَلَام ٍ كالحدائق نَسْجُه غَنينَا به عن حُسْن زَهْرِ الخَمائل

وكلماته غدت للإبداع إقليدا ، وجَمَعَتْ طريفاً من البلاغة وتليدا :

كسون عَبِيدًا ثياب العبيد وأضحى لبيدٌ لديها بَليدَا(١)

ومقطعاته ألذ فى الأسماع ، من مُطرب السماع ، وأبهى فى الأحداق والنواظر ، من الحدائق ذوات الأغصان المُلْد النَّوَاضر ، يعترف بفضلها من انتحل الإنصاف دينا ، وانتخل الأوصاف فاختار العدل منها خَدينا :

رَقِيقَات الْمقَاطع مُحْكمَات لَوَ أن الشعر يُلْبَسُ لارْتَدِينا

ورسائله كَنقْط العروس اللائحة فى البياض(٢) ، أو كَوَشْى الربيع أو قطع الرياض ، برزت أغصانها الحالية وتبرجت ، وتضوّعت أفنانها العالية وتأرّجَت ، وقد ألبسها القطر زَهْرا ، وفَجَّرَ خلالها نهرا ، فأخذت زخرفها وازينَتْ ، ولاحَتْ محاسِنها غير محتجبة وتبينت ، فبهرت من لها قابل ، أستغفر الله لا بل :

هِىَ الحديقةُ إلا أن صَيبَهَا صَوْبُ النُهى وَجَناهَا زهرة الْكَلِمِ

وقوافيه ، رِيشَتْ بهـا قَوَادِمُ الإتقان وخوَافيه ، بنانُ مُجَاريها يستدثر الحَصَر ، وباعُ مُبَاريها يستشعر القِصَر :

خطُّهَا رَوْضَة ، وألفاظها الأز هَارُ يَضْحَكْنَ ، والمعانى ثِمَارُ

تُبْدى لمبصرها وتُرِى ، ما قاله أبو عبادة البُحْتُرى :

وكلامٌ كأنه الزهَرُ النا ضِرُ فى رَوْنق الربيع الجَدِيد

---

(١) عبيد ـ بفتح العين ـ هو عبيد بن الأبرص ، ولبيد : هو لبيد بن ربيعة العامرى ، وهما شاعران من فحول شعراء الجاهلية ، ولكل واحد منهما قصيدة معدودة فى معلقات الشعر ونخبه

(٢) أخذ هذا من قول أبى عمرو فى ذى الرمة « شعر ذى الرمة نقط عروس ، يضمحل عن قليل ، وأبعار ظباء لها شم فى أول رائحة ثم يعود إلى البعر »

مُشْرِق فى جَوَانب السمع ما يُخْــلقه عَوْدُه على المستعيد(١)
ومَعَانٍ لو فصَّلَتْهَا القوافى هَجَّنَتْ ما لِجَرْول من نَشيدِ(٢)
حُزْنَ مستعملَ الكلام اختيارا وتجنبْنَ ظلمــة التعقيد

بل هى أجل مما وصف عند التحقيق ، و إمعان النظر الصحيح والتدقيق :

أيْنَ زَهْر الرياض وهْوَ إذا ما طال عَهْدا بالغَيْث عاد هَشِيماَ
مِنْ قوافٍ كأنها الأنجم الزُّهْــرُ سَنَاهَا زانَ الظلامَ البَهِيما

وناهيك بمن أطلعته العلوم على جلائلها ودقائقها ، وأرَتْه الفنونُ ما شاء من يانعات حدائقها ، وحَبَته الحكم الرياضية بأزاهرها وشقائقها ، وأرضعته الوزارة من ثديِّها ، وحلت به الإمارة صدر نَدِيِّها(٣) ، وجعلته المرجوعَ إليه فى تمييز جيد الأمور ورَدِيِّها ، فغَرَسَ فى أرض الرياسة من نخل السياسة وَوَدِيِّها(٤) ، وأعلى عَلَمَ العدل وأغمد سيف الأُنتقام ، ودفع تنّينَ الفتنة الذى فَغَرفاه للالتقام ، والعهدُ إذ ذاك قريب ، فى وطن الأندلس الغريب ، باختلال الحال ، وتوالى الإمحال ، والتجرِّى على قتل الملوك ، والتحرِّى لقَطْع الطرق ومنع السلوك ، حيث أهواء المارقين ذات افتراق ، وضلوع الصادِقِين فى قلق واحتراق ، وأيدى الإحَن باطشة ، وسيوفُ المحن إلى الدماء عاطشة ، وعَرْش الحماية مثلول ، وصارم الكفاية مَفلول ، ونِطاق الرعاية مطلول ، وجَيْبُ النصيحة مَمْلول ، والتَّنُّور السلطانى بنار اختلاف الكلمة ملتهب ، والعدوّ ينتهز الفرصة ويستلب الأنفس والأموال و ينتهب ، وليس له فى غير قطع شأفة المسلمين ابتغاء ، و إن عقَدَ المهادنة فى بعض الأحيان فهو يُسِرُّ حَسْوًا فى ارتغاء ، وكلابُ الباطل فى دماء أهل الحق والغة ، ولله سبحانه وتعالى فى خَلْقه إرادة نافذة وحكمة بالغة ، فرقع لسان الدين ثوب الأندلس ورَفَاه ،

(١) يخلقه : يجعله خلقا رثا باليا ، يريد أن تكراره لايضعفه وإنما يزيده بهجة
(٢) جرول : هو الحطيئة الشاعر المشهور
(٣) الندى كالنادى : مجتمع القوم للسمر ونحوه
(٤) الودى ـ بفتح الواو وكسر الدال ، وتشديد الياء ـ صغار الفسيل (النخل)

وأرْغَمَ ـ رحمه الله ! ـ الكفر الذى فغر فاه (١) ، وشَمَّر عن ساعد اجتهاده ، وحض باللسان وباليد على دفاعه وجهاده ، حتى لاحت للنصر بَوَارق ، وأمنت بالحزم الطوارئ والطوارق ، ثم ضرب الدهر ضَرَبَانَه ، وأحرق الحاسدُ بنار أحقاده أنْضَرَ بانة (٢) ، وأظهر ما فى قلبه على لسان الدين وأبانهُ ، وتقرّب الوشاة ، وهم ممن كان يخدمه ويَغْشاه ، إلى سلطانه الذى كان عِزّةَ أوطانه الذى كان يأمنه ولا يخشاه ، حتى فَسَد عليه ضميرُه ، وتكدّر ومَنْ يَسْمَعْ يَخَلْ نَميرُهُ (٣) ، فأحس بظاهر التغير ، وصار فى الباطن من أهل التحير ، وأجال قِدَاح آرائه ، والتفت إلى جهة العدوّ من ورائه ، ففرّ مشمراً عن ذَيْله فى لُمَّةٍ من خيله ، إلى أسد العرين ، سلطان بنى مَرِين ، وكان إذ ذاك بِتِلِمْسَان ، وهو من أهل العلم والعدل والإحسان ، فاهتز لمَقْدمه ، ولقيه بخاصته وخدمه ، وأكرم مَثْواه ، وجعله صاحب نَجْواه ، ثم أدرك السلطانَ الحِمَام ، وكسف بدره وقت التمام ، فرجَع لسان الدين إلى فاس ، واستنشق بها أطْيَبَ الأنفاس ، وكثرت بعد ذلك الأهوال ، وتغيرت بسببه بين رؤساء العُدْوة والأندلس الأحوال ، فما نجا من مكر العدا ولا سلم ، وآل أمره من الاغتيال وما نفَع الاحتيالُ إلى ما علم ، على يَدَىْ بعض أعدائه ، الذين كانوا يتربصون الدوائر لإردائه ، فأصبح كأمْسِ الذاهب ، وصارت أموالُه وضياعُه عُرْضَة للناهب ، وغَصّ بذلك من كان من أوِدَّائِه ، وأخذ الله ثاره ، من بعض من حرّك عليه المكر وأثاره ، وتسبب فى هلاكه ، حتى انتثرت جواهر أسلاكه ، ومات بدائه فالعيون إلى هذا الوقت على لسان الدين باكية ، ونفوسُ الأكابر وغيرهم مما فُعل به شاكية ، والألسنة والأقلام لمقاماته فى الإسلام حاكية .

---

(٢) فغرفاه : فتح فمه ، والسباع تفغر أفواهها حين الافتراس

(٢) أنضر : أزهى وأجمل ، والبانة : ضرب من الشجر تشبه به قدود الحسان فى الاستقامة

(٣) النمير ـ بفتح النون ـ الماء الصافى العذب

فَمَنْ كان بهذه السِّمَات وأكثر منها موصوفا ، لايَقْدر مثلى على تحبير التعبير عنه ويَخْشى أن تكون فكرته كخرقاء نقضت قُطْنا أوصوفا[١] .

ثم إنى لما تكرر على فى هذا الغرض الإلحاح ، ولم تقبل أعذارى التى زَنْدُها شَحَاح[٢] ، عزمتُ على الإجابة لما للمذكور عَلَىَّ من الحقوق ، وكيف أقابل برّه حفظه الله بالعقوق ؟ وهو الذى يَرْوِى من أحاديث الفضل الحسانَ والصحاح ، فوَعَدْته بالشروع فى المطاب عند الوصول إلى القاهرة المعزية ، وأزمعت السَّيْرَ عن دمشق المعروفة المَزِية ، وألبسنى السفرمنها من الخلع زِيَّه ، ورَحَلْنا عن تلك الأرجاء المتألقة ، والقلوبُ بها وبمن فيها متعلقة :

المؤلف يعزم إجابة الملتمس

حللنا ديارًا للغرام سَرَتْ بِهَا إلَيْنَا صبا نجدٍ بطيبِ نسيم

و بَانَ رَدَا الأشجان لما تجاذَبَتْ أكُفُّ المنى فيها رِدَاءَ نعيم

فما أنشبتنا العِيسُ أن قذَفَتْ بنا إلى فُرْقَةٍ والعهدُ غَيْرُ قديم

فإِن نَكُ ودَّعْنَا الديار وأهلَهَا فما عهدُ نجدٍ عندنا بذَمِيم

المؤلف يصف داريا

فخرج معنا أسماه الله مع جملة من الأعيان إلى دَارِيَّا ، المضاهية لدَارِينَ فى رَيَّاها وحبذارَيَّا ، فألفيناها :

رَيَّا من الأنداء طَيِّبة لها القَدْرُ الجليل

تُهْدِى لنا أرْجَاؤُهَا أرَجًا من الزَّهر البليل

وبِهَا الغُصُون تمايَلَتْ مَيْلَ الخليل على الخليل

ووصلنا عند الظَّهيرة ، وسَرَّحْنا العيونَ فى محاسنها الشهيرة :

مَنْزِل كالرَّبيع حلَّتْ عليه حالياتُ السَّحاب عِقْدَ النِّطَاق

يُمتِعُ العينَ من طرائقِ حُسْنٍ تتجافَى بها عن الإطراق

---

(١) أخذه من قولهم فى مثل « خرقاء نقضت صوفا » والخرقاء : المرأة التى لاتحسن العمل ، فإذا نقضت مانسج من الصوف فإنها لاتستطيع غزله ثانية ، فعملها ليس إلا إفسادا

(٢) الزند الشحاح ـ بفتح الشين ـ الذى لايورى نارا

وقلنا بها، لما نزلنا بجانبها:

وبِتْنَا والسرورُ لنــا نَدِيمٌ ... ومَاءُ عيونهِ الصَّافِى مُدَامُ
يُسَايره النســيمُ إذا تغنَّتْ ... حَمَائمه ويَسْقيه الغَمَـامُ

فيالك من ليلة أرْبَتْ فى طيب النفح(١)، على ليلة الشَّريف الرضىِّ بالسَّفْح:

ونحنُ فى رَوْضَةٍ مُفَوَّفة ... قد وُشِّيَتْ بالغمائم الوُكُفِ
نُغْنِى على زَهْــرِهَا فيوقِظُنَا ... وَهْنًا هديرُ الحمائم الهُتُفِ
ودَوْحُها من نداهُ فى وُشُحٍ ... ومن لآلِي الأزْهَار فى شُنُف
والغُصْنُ من فوقه حَمَامته ... كأنها هَمزَة على ألِفِ

وما أقرب قول الوزير ابن عمار، من وصف ذلك المضمار، الجامع للأقمار:

يا لَيْــلَةَ بِتْنَاَبها ... فى ظلِّ أكناف النَّعيم
من فَوْق أكمامِ الرِّيَا ... ضِ وتَحْتَ أذيال النَّسِيم

وناهيك بمَحَلٍّ قَرُبَ من دمشق الغرَّاء، فخلعت عليه حلل الحُبُور والسَّراء، وأمدَّته بضيائها، وأودعته برق حَيَاها وماء حيائها، فصار ناضرَ الدَّوْحات، عاطر الغدُوات والرَّوْحات، مُونِقَ الأنفاس والنفحات، مُشرق الأسِرَّة والصفحات، هذا والقلوبُ من الفراق فى قَلَق، ولسانُ الحال ينشد:

وبى عَلاَقَةُ وَجْدٍ ليس يَعْلَمُها ... إلا الَّذِى خَلَقَ الإنسان من عَلَق

ويحث على انتهاز فرصة اللقاء إذ هى غنيمة، ويذكّر بقول من قال وأكُفُّ الدهر موقظة ومُنيمة:

تَمَتَّعْ بالرُّقَاد على شِمَـال ... فسَوْفَ يطول نَوْمُكَ باليمين
ومَتِّعْ من يُحِبُّك باجتماع ... فأنتَ من الفراق على يقين

---

(١) أربت: زادت، والشريف الرضى العلوى له فى ليلة السفح شعر منتخب، منه قوله:

ياليلة السفح ألا عدت ثانية ... سقى زمانك هطال من الديم
ماض من العيش لو يفدي بذلت له ... كرائم المال من خيل ومن نعم

وانظر ديوانه (٧٢٢ بيروت) وانظر (معاهد التنصيص ٤ / ٢٠٧ بتحقيقنا)

المؤلف يصف موقف الوداع

ثم حضر بعد تلك الليلة موقف الوَدَاع ، والكلّ ما بين واجم وباكٍ وداع ، فتمثلت بقول مَنْ قَلْبه لفراق الأحباب فى انْصِدَاع :

وَدَّعْتهمْ ودُموعى على الخدود غِزَار[١]
فاستكثروا دَمْعَ عينى لَمَّا استقلُّوا وسَارُوا[٢]

وقول آخر :

يا وَحْشَةً من جيرة قَدْ نَأَوْا عُلُوُّ قَدْرِى فى الْهَوَى انْحَطَّا
حكَتْ دموعى البحرَ من بَعْدِهم لما رأتْ منزلَهُمْ شَطَّا[٣]

وحُقَّ لى أن أتمثل فى ذلك بقول الفزارى :

لا تَسَلْنى عَمَّا جناه الفراقُ حَمَّلَتْنِى يَدَاه مالا يُطَاق
أيْنَ صَبْرِى أم كيف أَمْلِكُ دَمْعِى والمَطَايَا بالظاعنينَ تُسَاقُ
قف معى نَنْدُبُ الطُّلُولَ فهذِى سُنَّة قبلُ سَنَّهَا العُشَّاقُ
وأعِدْلى ذكر الغُوَيْر فكم ما لَ بعِطْفِى نسيمُه الخَفَّاقُ
فى سبيل الغَرَام ما فعلَتْ بالعاشِقِينَ القُدودُ والأحْدَاقُ[٤]
يوم وَلتْ طلائعُ الصَّبْر منا ثم شنتْ غاراتِهَا الأشْوَاقُ

و بقول غيره :

كُنَّا جميعاً والدارُ تجمعُنَا مثلَ حروف لْلجَمْعِ مُلْتَصِقَهْ
واليومَ صار الوداعُ يجعلُنَا مثلَ حُرُوفِ الوداعِ مُفْتَرِقَهْ

وقول آخر :

عَيَّرُونى أنِّى سَفَحْتُ دُمُوعِى حين هَمَّ الحبيبُ بالتَّوْديع
لم يذوقوا طعم الفراق ولاما أحرقَتْ لوعَةُ الأسى من ضلوعى

---

(١) غزار : كثيرة (٢) استقلوا : نهضوا للمسير
(٣) شط : بعد ، وفى هذه الكلمة تورية يرشحها قوله من قبل «حكت دموعى البحر»
(٤) الأحداق : أراد بها العيون

كيف لا أسفحُ الدموعَ على رَبْـــع حَوَى خير ساكن وجُمُوعِ
هَبْكَ أنى كتمتُ حالي أتخفى زفرات المتيـــمِ المصدُوعِ
إنما يُعْرَفُ الغــرامُ بمَنْ لا حَ عليه الغرامُ بين الربوعِ

وقول من قال :

أقول له عندَ تَوْدِيعِـــهِ وكُلٌّ بعـــبرته مُبْلِس (١)
لئن قعَدَتْ عَنْكَ أجْسَادنا لقد سافرَتْ مَعَكَ الأنفُس

وقول الصابى :

ولمَّا حَضرْتُ لتَوْدِيعِـــهِ وطَرْفُ النَّوَى نحونا أشْوَس (٢)
عكسْتُ له بَيْت شعرٍ مَضَى يليقُ به الحالُ إذ يُعْكَس
لئن سافرَتْ عنك أجسادنا لَقد قعَدَتْ معك الأنفُس

وقول المهذب بن أسعد الموصلى :

دَعْنِي وما شاء التفرّق والأسَى واقْصِدْ بلوْمِكَ مَنْ يطيعك أو يعِي
لا قلبَ لى فأعى المَــلامَ فإننى أودَعْته بالأمس عِنْدَ مُودِّعِي
هَل يعلم المتحمِّلُونَ لنُجْعَةٍ أن المنازل أخصَبَتْ من أدْمُعِي
كم غادروا حَرَضاً وكم لوَدَاعِهِمْ بين الجوانح مِنْ غرامٍ مُودِّعِ (٣)
والسقم آية ما أجَنُّ من الجَوَى والدمْعُ بينـة على ما أدَّعِي

وقول الكمال التَّنُوخي :

كم ليلة قد بتها أرعَى السُّهَا جَزَعاً لفرْقَتِهِمْ بمُقْلة أرمَدِ
قَضَّيْتُهَا ما بين نومٍ نافرٍ وزفير مَهْجُور وقلبٍ مُكمَدِ
لم أنسَ أيام السُّرور وطيبَهَا بين السَّدير وبين بُرْقَةِ ثَهْمَدِ

---

(١) مبلس : متحير ، أوحزين ، أو يائس من الفرج

(٢) تقول « نظر إلى فلان بطرف أشوس » إذا كان يضيق عينـه ويضم أحد جفنيها على الآخر ، أو كان ينظر بمؤخر عينه تكبرا أو تغيظا

(٣) الحرض ـ بفتح الحاء والراء جميعا ـ المشرف على الهلاك ، ويقولون « نهك فلان مرضا فأصبح حرضا » وفى التنزيل : (حتى تكون حرضا أو تكون من الهالكين)

والرَّوْض قد أبْدَى بدائع نَوْره مِنْ أزرق ومُفضض ومُورَّدِ
والماء يَبْدُو كالصَّوارم ساريًا فيعيدُه مَرّ الصَّبَا كالمبرَدِ
والطير بين مُسجع ومُرَجِّعٍ ومُغَرِّد ومُعَدّد ومُرَدِّدِ

وقول القاضي بهاء الدين السنجاري :

أحبابنَا مالي على بُعد المَدَى جَلَد ومَنْ بعْدَ النَّوَى يتجلَّدُ
لله أوقاتُ الوصال ومَنْظَر نضِرٌ وغصْنُ الوَصل غض أملَدُ(١)
أنَّى يُطيق أخو الهوى كتمانَهُ والخدُّ بالدمع المصون مُخَدَّدُ
ما بَعْدَ مفترق الركاب تصبُّر عمن أحبُّ فهل إخليلٌ يسْعِدُ؟
يا سَعْدُ ساعِد بالبكاء أخاهوًى يوم الوداع بكى عليه الحسَّدُ

وقول ابن الأثير :

لم أنْسَ ليلةَ ودَّعوا صَبًّا وساروا بالحُمُول
والدمعُ من فرط الأسى يَجرِى فيعثر بالذيُول

وقول الأرَّجاني :

ولما وَقَفْنَا للوداع عشيةً وطَرْفِي وقلبي هامعٌ وخفُوق(٢)
بكيتُ فأضحكت الوُشاةَ شماتةً كأني سحَابٌ والوشاةُ بُروق

وقول ابن نُبَاتة السَّعدى :

ولما وقفْنَا للوداع عشيةً ولم يبق إلا شامتٌ وغيُورُ
وقَفْنَا فمن باكٍ يُكفكِفُ دَمْعَه وملتزمٍ قلباً يكاد يطيرُ(٣)

وقول بعضهم :

لما حَدَا الحَادِي بترَحالهم هَيَّج أشْوَاقِي وأشْجَانِي

---

(١) غصن أملد ، وأملود : غض طرى

(٢) ها مع : كثير الدمع ، وهو راجع إلى طرفى ، وخفوق : مضطرب ، وهو راجع إلى قلبي

(٣) يكفكف دمعه : يكفه ويمنعه ، وملتزم قلبا : ممسكه بيده

وراحَ يَثْنِي القلبَ عن غَيْرهم فهْوَ لهُمْ حادٍ ولى ثانِي[١]

وقول الصَّفَدى :

لما اعْتَنَقْنَا لوَدَاع النَّوى وكدْتُ من حر الجوى أُحْرَقُ

رأيتُ قلبى سـار قدّامَهُمْ وأدمُعِى تجرى ولا تلحَقُ

وقوله أيضا :

تذكَّرْتُ عيشًا مرَّ حُلوًا بقربكم فهل لليالينا الذواهبِ واهبُ ؟

وما انْصَرَفت آمالُ نفسى لغَيْركم ولا أنا عن هذى الرغائب غائبُ[٢]

سأصْبِر كَرْهًا فى الهوَى غيرَ طائع لعل زمانى بالحبائب آيِبُ

وقول ابن نُباتة المصرى :

فى كنَف الله وفى حِفْظِهِ مَسْراك والعَوْدُ بعزم صريح

لو جاز أن تسلك أجفاننا كُنَّا فرشنا كل جَفْن قريح

لكنها بالبُعْدِ مُعْتَـلَّة وأنتَ لا تَسْلك إلا الصحيح

وقول الحافظ أبى الحسن على بن الفضل :

عجبْت لنفسى بَعْدَهم ما بقاؤها ولم أحْظَ من لُقْيَاهُم بِمُرَادِى

لَعمرُكَ مافارَقْتُهم مُنْذ ودَّعوا ولكنما فارقت طيبَ رقادى

وقد مَنَعوا منى زيارة طَيْفهم وكيفَ يزورُ الطيفُ حِلْفَ سُهادِ؟

وأعجبُ مافى الأمر شوقى إليهمُ وهُمْ فى سَوادَىْ ناظرى وفؤادى

وقوله رحمه الله تعالى :

رعَى الله أيام المُقَام برَوْضَـة تروحُ علَيْنا بالسرور وتَغْتَدِى

كأن الشَّقيقَ الغَضَّ بين بِطَاحِهَا نجومُ عقيقٍ فى سماء زَبَرْجَدِ[٣]

وقول القاضى الرشيد الأسوانى :

---

(١) فى حاد وثان تورية ، والمراد بحاد: السائق، والمراد بثان : الذى يثنى القلب

(٢) الرغائب : جمع رغيبة . وهى الأمر يرغب فيه ويتنافس فى تحصيله

(٣) الشقيق : زهر أحمر ، ويسمونه « شقائق النعمان »

رَحَلوا فلا خَلَتِ المنازلُ منهمُ ... ونأوا فلا سَلَت الجوانحُ عنهم
وسَرَوْا وقد كتموا الغَداةَ مسيرَهُمْ ... وضياء نور الشمس مالا يكتَمُ
وتبدّلوا أرض العقيق عن الحمى ... رَوَّتْ جفونى أىَّ أرض يَمَّمُوا(١)
نزلوا العُذَيْب وإنما هو مهجتى ... رَحَلوا وفى قلب المتيم خيَّموا(٢)
ما ضرهم لو وَدَّعوا من أوْدَعُوا ... نارَ الغرام وسلّموا من أسلَموا(٣)
هُمْ فى الحشا إن أعرَقوا أو أيْمَنُوا ... أو أشأموا أو أنجَدُوا أو أتهَمُوا

وقول الشاعر أبى طاهر الأصفهانى ، المعروف بالوَثّانى :

أشاعُوا فقالوا وَقْفَة ووَدَاع ... وزُمَّتْ مَطَايَا للرحيل سِراعُ
فقلت وَدَاعٌ لا أطيق عِيَانه ... كفانى من البين المُشتِّ سَمَاعُ
ولم يَملِكِ الكتمانَ قلبٌ ملكته ... وعِندَ النَّوى سرُّ الكتوم مُذَاعُ

وقول أبى المجد قاضى مارِدِينَ :

رعَى الله رَبعا أنتم فيه أهْلُهُ ... وجاد عليه هاطلٌ وهَتُونُ
ولازال مُخْضَرَّ الجوانب مُتْرَعَ الحياض وفيه للنَّعيم فُنُونُ
لَئن قدّر الله اللقاء وأيْنعَت ... غصُونُ التدانى فالبعادُ يَهُونُ
وإن حكمتْ أيدى الفراق بعُسْرَة ... فكم قضيَتْ للمعْسِرِينَ ديونُ

وقول آخر :

غبتم فمالى فى التَّصَبُّر مَطْمَعٌ ... عَظُم الجْوَى واشتدّت الأشْوَاقُ
لا الدارُ بعدكم كما كانَتْ ولا ... ذاكَ البَهَاءُ بِهَا ولا الإشراقُ
أشتاقكم ، وكذا المحبُّ إذا نأى ... عنهُ أحبةُ قلبِهِ يشتاقُ

وقول أبى الحسن الهمذانى :

---

(١) يمموا : قصدوا وتوجهوا نحوها (٢) خيموا : أقاموا وسكنوا
(٣) ودعوا : من التوديع ، وأودعوا : من الوديعة ، يريد تركوا فى قلبه نار الهوى ، وسلموا : من السلامة ، وأسلموا : أى خذلوه ، وكأنما أسلموه لعدوه

وَيوم وَلّت الأظعانُ عنّا … وقوّض حاضر وأرَنَّ بادِى[1]
مَدَدت إلى الوَدَاع يداً وأخرى … حَبَسْتُ بها الحياة على فؤادى

وقول ابن الصائغ :

قد أودَعُوا القلبَ لما وَدَّعُوا حُرَقاً … فظلَّ فى الليل مثلَ النجم حَيْرَانا
رَاوَدْته يستعيرُ الصبرَ بعدهمُ … فقال : إنى استعرْتُ اليوم نِيرَانا

وقول الصدر بن الأدمى مكتفيا :

يَوْمُ توديعى لأحبابى غَداً … ذِكْرُ مىٍّ شاغِلِى عن كل شَىْ
فرنَتْ نحوِى وقَالت : يا تُرَى … أنتَ حى فى هوانا ؟ قلت : مَىْ[2]

وقول غيره :

ولى فؤاد مذ نأى شخصهم … ظل كئيباً مُدْنفاً موجَعاَ
ومُقلة مهما تذكرتهُمْ … تَذْرِفُ دَمْعاً أرْبعاً أربعا
وليس لى من حيلة كلما … تَجَتَ بىَ الأشواقُ إلا الدُّعا
أسألُ من ألَّفَ ما بَيْنَنَا … وقدّر الفُرْقَةَ أن يجمعا

وقول الرُّعَيْنِى الغرناطى :

محاسنُ ربعٍ قد محَاهنَّ ما جرى … من الدمع لما قيل قدرَحَلَ الركبُ
تناقضَ حالى مذشجَانى فراقهُمْ … فَمِنْ أضلعى نارٌ ومن أدمعى سَكْبُ

وفى معناه قوله أيضا[3] :

وقائلةٍ : ما هذه الدررُ التى … تساقِطها عَيناك سِمْطَيْنِ سمطين
فقلت لها : هذا الذى قد حَشَا به … أبُو مُضَرٍ أذْنِى تساقطَ من عينى

وقول الزمخشرى[4] :

---

(١) أرن : صوت وصاح

(٢) رنت : نظرت ، وقوله «قلت مى» أراد «قلت ميت» فاكتفى ببعض الكلمة

(٣) اشتهرت نسبة هذين البيتين إلى جار الله الزمخشرى يقولهما فى رثاء شيخه أبى مضر

(٤) واشتهرت نسبة هذين البيتين إلى القاضى الأرجانى

لم يُبْكنى إلا حديثُ فراقِهِمْ لَمَّا أسرَّ به إلى مُوَدِّعى
هو ذلك الدرُّ الذى أودعتم فى مسمعى أجريتُهُ من مَدْمَعى

وقول الزغارى :

قد بعْثُهُمْ قَلْبِىَ يوم بَيْنِهِمْ بنظرةِ التوديعِ وَهْوَ يحترقْ
ولم أجِدْ من بعدها لِرَدِّهِ وَجْهاً وكان الرد لو لم نفترقْ

وقول بعض الأندلسيين :

سارُوا فودَّعهم طرْفى وأودَعهُمْ قلبى فما بَعُدُوا عنى ولا قَرُبُوا
هُمُ الشموس ففى عَيْنى إذا طَلَعوا فى القادمين وفى قلبى إذا غَرَبُوا

وقلت أنا مضمنا بديهة :

لا كان يومُ فراقٍ ساق الشجونَ إلَيْنَا
فكم أذلَّ نفوساً يا مَنْ يعِز علينا(١)

وقلت أيضاً مضمناً :

سلا أحِبَّتَه مَنْ لم يَذُبْ كمدا يومَ الوداع وإن أجرى الدموع دَمَا
يا مَنْ يعز علينا أن نُفَارِقَهُم مِنْ بُعْدِكم هُدَّ ركنُ الصبر وانهدَما(١)
و إن نأى الجسمُ كَرْهًا عن منازلكم فالقلبُ ثاوٍ بها لم يصحَبِ القدما
وما نسينا عهودًا لِلْهَوَى كَرُمَتْ نَعَمْ قَرَعْنَا عليها سِنَّنَا ندَمَا
وأظلمت بالنَّوَى أرجاء مَقْصِدِنا وصار وِجْدَان إلفٍ غيركم عَدَمَا

وقلت أيضاً مضمناً :

لم أنْسَ بالشام أنساً شِمْتُ بارقَه جادت معاهدهُ أنواءُ نِيسَانِ(٢)
لَهْفِى لعَيْشٍ قضَيْنَا فى مشاهدها ما بَيْنَ حُسْنٍ من الدنيا وإحسان

---

(١) ضمن فى هذا البيت قول أبى الطيب المتنبى :

يا من يعز علينا أن نفارقهم وجداننا كل شىء بعدكم عدم

(٢) شمت : نظرت ، والبارق : البرق ، والأنواء : جمع نوء ، وهو المطر ، ونيسان : شهر من شهور الروم

وقلت كذلك :

يا جيرةً بانوا وأبقَوْا حسرةً تجرى دموعى بعدهم وَفْقَ القَضَا
كم قلت إذ ودَّعْتُهُمْ والأنس لا يُنْسَى وعَهْدُ وِدادِهم لن يُرْفَضَا
يا مَوْقِفَ التوديع إنَّ مدامعى فضت وفاضتْ فى ثرى ذاك الفضا

وكم تفاءلت بقول الأول ، مع علمى بأن على الله المعوّل :

إذا رأيت الْوَدَاع فاصْبِرْ ولا يَهُمَّنَّكَ البعَادُ
وانتظرِ العَوْدَ عن قريب فإن قَلْبَ الوَدَاع عادُوا

وضاقت بى الرِّحاب ، عند مفارقة أعيان الأحباب والصِّحاب ، وكاثرت دموعى من بينهم السحاب[1] ، وزَنْد التذكر يقدح الأسف فيهيج الانتحاب ، وقد تمثلنا إذ ذاك والجوانح من الجْوَى فى التهاب ، وذخائر الصبر ذات انتهاب ، بقول بعض من مزَّق البعدُ منه الإهاب :

ولما نزلنا منزلاً طَلَّه الندَى أنيقاً وبُسْتانا من النَّوْرِ حاليا
أجدّ لنا طيبُ المكان وحُسْنُه مُنًى فتمنينا فكنْتَ الأمانيا
وقد طُفْتُ فى شَرق البلاد وغَربها وسَيَّرْتُ خيلى بينها وركابِياَ
فلم أر منها مثلَ بغدادَ منزلاً ولم أر فيها مثلَ دِجْلَةَ واديا
ولا مثلَ أهليها أرقَّ شمائلاً وأعذب ألفاظاً وأحْلَى مَعَانيا

و بقول من تأسَّف على مغانى التدانى ، وهو أبو الحجاج الأندلسى الدانى :

أبى الله إلا أن أفارق منزلاً يطالِعُنى وَجْهُ المنى فيه سافِرَا[2]
كأنَّ على الأيام حين غَشِيتُهُ يميناً فلم أحْلُلْه إلا مُسَافِرا

وتخيلنا أن إقامتنا بدمشق وقاها الله كل صَرْف ، ما كانت إلا خَطْرة طيف مُلِم[3] أو لمحة طَرْف :

(١) كاثرتها : غالبتها فى الكثرة ليظهر أيهما أغزر ، والمراد بالسحاب الأمطار لأنها سببه

(٢) سافرا : غير محتجب بحجاب (٣) الطيف : الخيال ، وملم : زائر

وَقَفْنَا ساعـــةً ثم ارتحلنا وما يُغْنى المشوقَ وقوفُ ساعَهْ ؟

كأن الشملَ لم يكُ فى اجتماعٍ إذا ما شَتَّتَ البينُ اجتماعَهْ (١)

وطالما عللت النفس بالعَوْد إليها ثم إلى بقاعى ، منشداً قول الأديب الشهير بابن الْفِقَاعِي :

متى عاينَتْ عيناى أعلامَ حاجرٍ جعلتُ مَوَاطِي العيسِ فوق محاجرى (٢)

و إن لاح من أرض العَوَاصم بارق رجعتُ بأحشاء صَوَادٍ صوادِرِ (٣)

سقى الله هاتيك المواطِنَ والربا مَوَاطِرَ أجفانٍ هوامٍ هَوَامِرِ

وحيّا الحيَا من ساكنى الحيِّ أوجُهاً سَفَرْنَ بأنوار زَوَاهٍ زواهِرِ

بحيثُ زمانُ الوصلِ غَضّ ورَوْضه أرِيضٌ بأزهارٍ بَوَاهٍ بواهِرِ

وحَيْثُ جفون الحاسدِينَ غضيضةٌ رَمقْنَ بآماقٍ سَوَاهٍ سَوَاهِرِ (٤)

ثم حاولت خاطرى الكليل ، فيما يشفى بعض الغليل ، فقال على طريق التضمين ، وقد غلب عليه الشوق والتخمين :

بأبى من أوْدَعُوا مذ وَدَّعُوا قلبىَ الشَّوْقَ وَللعِيسِ ذَمِيلُ

جِيرة غرّ كِرام خِيرَة كل شىء منهم يبدو جميـلُ

وعلى الجمـلة مالى غيرُهم لو أرادوا أن يملُّوا أو يميلُوا

ثم قلت وقد سدد التنائى إلىَّ نَبْله ، موطئا للبيت الثالث كما فى الأبيات قبله :

يا دمَشْقا حيَّاكَ غيثٌ غزيرُ ووقاكَ الإله مما يَضِيرُ

حُسْنك الفَرْد والبدائع جَمّ متناهٍ فيه فعزَّ النظيرُ

أين أيامنا بظلك والشَّمْـلُ جميعٌ ، والعيشُ غَضٌّ نَضِيرُ

ثم أكثرت الالتفات عن اليمين وعن الشمال ، وقد شبهت البَيْداء والشوق ببدل

---

(١) شتت : فرق ، والبين : الافتراق

(٢) مواطى : أصله مواطىء جمع موطىء وهو المكان الذى تطؤه بأرجلها ، والعيس : الإبل ، واحدها أعيس أو عيساء

(٣) صواد : جمع صادية ، وهى العطشى

(٤) غضيضة : قد احتملت ما تكرهه وهو لقاؤنا ، ورمقن : نظرن

الكل والاشتمال ، وتنسمت من نواحى تلك الأرجاء أريجَ الشَّمال[١] ، وضمنت فى المعنى قول بعض من ثنى الحب عِطْفه وأمال :

تنسَّمْتُ أرواحاً سَرَتْ من ديار من ... بِهِمْ كان جمعُ الشَّمْل لمحةَ حالِمِ
وجاوَبْتُ من يلْحَى على ذاك جاهلاً ... بقول لبيب بالعواقب عالم
وما أنْشَقُ الأرواح إلا لأنها ... تمرُّ على تلك الرُّبا والمعالِمِ

وما أحسن قول الآخر :

سَرَتْ من نَواحى الشام لى نَسْمةُ الصبا ... وقد أصبحت حَسْرى من السيرظَالِعَهْ[٢]
ومن عَرَق مَبْلُولة الجَيْبِ بالنَّدَى ... ومن تعبٍ أنفاسُهَا مُتَتَابِعَهْ

وقلت أنا :

حَمِدتُ وحقّ الله للشام رحلةً ... أتاحت لعينَىَّ اجتلاءَ مُحَيَّاه[٣]
وبَعدَ التنائى صرْتُ أرتاح للصَّبَا ... لأنَّ الصَّبا تسْرِى بعاطِرِ رَيَّاه[٤]
فلله عهدٌ قد أتاح بِجِلَّقٍ ... سروراً فحيَّاه الإله وحيَّاه

واستحضرت عند جد السير ، قولَ صفوانَ بن إدريس الْمُرْسِىِّ ذكره الله تعالى بالخير :

أين أيامُنَا اللواتى تَقَضَّتْ ... إذ زَجَرنا للوصْلِ أيمَنَ طَيْرِ

ثم قول غيره ممن حَنَّ وأنّ ، وقلِق قلبُه وما اطمأنّ :

أحِنُّ إلى مشاهِدِ أنس إلفى ... وعَهْدى من زيارته قريبُ
وكنت أظن قربَ العهد يُطْفِى ... لهيبَ الشوق فازداد اللهيبُ

وربما تجلدت مغالطا ، متعللا بقول من كان لإلفه مخالطا :

حَضَرْتَ فكنت فى بَصَرى مقيما ... وغِبْتَ فكُنتَ فى وَسَطِ الفؤاد

---

(١) الأرجاء : النواحى ، واحدها رجا ، والأريج : الريح العبق بالطيب

(٢) حسرى : متعبة ، وظالعة : من الظلع ، وهو شبه العرج

(٣) أتاحت : هيأت وقدرت ، ومحياه : طلعته

(٤) الريا : الريح الطيبة

وما شَطَّتْ بنا دارٌ ولٰكِنْ نُقِلْتَ من السَّواد إلى السَّوادِ

وقول غيره :

وكن كما شئت من قُرْبٍ ومن بُعُدٍ فالقَلْبُ يرعاكَ إن لم يَرْعَكَ البصرُ

وبقول الوَدَاعى :

يا عاذلى فى وَحْدَتِى بعدهُمْ وأنّ رَبْعِى ما به مِنْ جَليس
وكيف يشكو وَحْدة مَنْ له دَمْعٌ حميم وأنين أنيس (١)

ثم رَدّدْتُ هذه الطريقة ، بقول بعض من لم يُبْلِعْه السلُوُّ رِيقَهُ (٢) :

لا رَعَى الله عَزمَة ضمنت لى سَلْوة القلب والتصَبُّر عَنْهُمْ
ما وَفَتْ غير ساعة ثم عادت مثلَ قلبى تقولُ لابدّ منهم

ويقول ابن آجروم ، فى مثل هذا الغرض الْمَرُوم :

يا غائبا كان أنسى رَهْنَ طلعته كيف اصطبارى وقد كابدت بينهما
دعواى أنك فى قلبى يُعَارضها شوقى إليك ، فكيف الجمع بينهما ؟

عودة المؤلف إلى مصر وتشوقه لدمشق

ثم جدّ بى السير إلى مصر واستمر ، فتذكرت قول الصفدى وقد اشتدّ بالرمل الحر :

أقول وَحَرُّ الرمل قد زاد وَقْدُهُ ومالى إلى شَمِّ النسيم سَبيلُ
أظن نسيمَ الجوّ قد ماتَ وانْقَضَى فَعَهْدِى به فى الشام وهو عَلِيلُ

وقول ابن الخياط :

قَصَدْتُ مصراً من رُبا جِلَّقٍ بِهمَّةٍ تَجْرى بتَجْرِيبى
فلم أر الطرة حتى جَرَتْ دموعُ عينى بالْمُرَيْزِيبِ

وحين وصلت مصر لم أنس عهدَ الشام المرعى ، وأنشدت قولَ الشهاب الحنبلى الزرعى :

---

(١) دمع حميم : أراد أنه حار لأنه صادر عن لوعة القلب وحرارة الباطن ، وورى به عن الحميم بمعنى الصديق

(٢) أخذ هذا من قولهم « أبلعنى ريقى » بمعنى تأن على وتمهل

أحِبَّتَنَا والله مذ غبتُ عنكمُ سُهادى سَمِيرِى والمدامعُ مِدْرَارُ(١)
ووالله ما اخْتَرْتُ الفراقَ، وإنه برَغْمِى، ولى فى ذلك الأمر أعْذَارُ
إذا شام بَرْقَ الشام طَرْفى تتابعَتْ سحائبُ جَفْنِى والفؤاد به نارُ
ألا ليت شعرى هل يَعُودَنَّ شملنا جميعاً وتحوينا رُبُوعٌ وأقطار ؟

وقول ابن عُنَين :

دمَشْقُ بنا شوقٌ إليك مُبَرِّحٌ وإن لج واشٍ أو ألحَّ عَذُولُ
بلاد بها الْحَصْباء دُرٌّ ، وتُرْبُهَا عَبِيرٌ ، وأنفاسُ الرياح شمولُ
تَسَلْسَلَ منها ماؤها وَهْوَ مطلق وصَحَّ نسيمُ الروض وَهْوَ عَليلُ

وقول آخر :

نَفْسِى الفِداء لأنس كنت أعْهَدُهُ وطيبِ عيشٍ تقَضَّى كُلُّه كَرَمُ
وجيرةٍ كان لى إلف بوَصْلِهِمُ والأنس أفضل ما بالْوَصْل يُغْتَنَمُ
بالشام خَلَّفْتُهم ثم انْصَرَفت إلى سِوَاهُم فاعْتَرَانِى بَعْدَهُم ألَمُ
كانوا نعيمَ فؤادى والحياة له والآن كلٌّ وجودٍ بعدهم عَدَمُ

فإن أنشد لسان الحال، فيما اقتضاه معنى البعد عنها والارتحال :

يا غائباً قد كنت أحْسَبُ قلبه بِسِوَى دمَشْقَ وأهلِها لا يَعْلَقُ
إن كان صَدّكَ نيلُ مصرٍ عنهمُ لا غرْوَ فهو لنا العدُوّ الأزرقُ

أتيت فى جوَابه، بقول بعض من برَّح الجوَى به :

لله دهرٌ جَمَعْنَا شمْلَ لذتهِ بالشام أعْذَبَ من أمْنٍ على فرَقِ(٢)
مرَّتْ لياليه والأيامُ فى خُلَسٍ كأنَّما سَلَبتْه كفُّ مسترِقِ(٣)
ما كان أحسنها لولا تنقّلها من النعيم إلى ذاكِ من الحُرَقِ

---

(١) مدرار : أراد كثيرة الهطول (٢) الفرق ــ بفتح الفاء والراء جميعاً ــ الخوف
(٣) خلس : جمع خلسة ــ بضم الخاء فيهما ــ وهى الفرصة ، ويقولون « هذه خلسة فانتهزها »

رق العذول لحالى بعدها وَرَثَى لى فى الجَوَى والنوى والشجْوِ والأرق (١)

و بالجملة فتلك الأيام من مواسم العمر محسوبة ، والسعود إلى طوالعها منسوبة :

وكانت فى دِمَشْقَ لنا ليـالٍ سَرَقْناهنّ من رَيْب الزمان
جعلناهن تاريخَ الليالى وعُنْوَانَ المسرة والأمانى

وهى مغانى التهانى التى مانسيناها(٢)، وأمانى زمانى التى نعمت بطورسيناها ، عليها وعلى وطنى مقصورة ، والقلبُ فى المعنى مقيم بهما و إن كان فى غيرهما بالصورة ، والأشواق إليهما قضاياها مُوَجَّهة و إن كانت غيرَ محصورة :

ولله عهد قد تقضّى و إن يَعُدْ فإنى عن الأيام أعفُو وأصفحُ
بقلبىَ من ذكراه ما لَيْس ينقضى ومن بُرَحاء الشوق ماليس يَبْرَحُ
إذا مَسَحَتْ كفى الدموعَ تسترا بَدَتْ زفرة بين الجوانح تقدَحُ
فإن جمعت شَمْلِي الليالى بقرْبِهِمْ تجمَّعَ غيلانٌ ومَىٌّ وصَيْدَحُ
على أنها الأيام جدٌّ مُزَاحُها ورُبّ مجدٍّ فى الأذى وهو يمزح

وكثيراً ما يلهج اللسان بقول من قال :

وماتَفْضُل الأوقاتُ أُخْرَى لذاتها ولكنَّ أوقات الحسان حِسَانُ

و يردد قول من شوقه متجدد :

سقى مَعْهَدَ الأحباب ناقعُ صَيِّبٍ من المزن عن مَغْناه ليس يَرِيمُ (٣)
وإن لم أكن من ساكنيه فإنه يَحُلُّ به خِلٌّ علىَّ كريمُ

وينشد من يلوم ، قول من فى حَشَاه وَلَه وفى قلبه كُلوم :

قد أصبح آخر الهوى أوّله فالعاذل فى هواك مالى وله
بالله عليك خل ما أوله وأرحم دَنِفًا لَدَى حشاه وله

(١) الجوى : حرقة الباطن، والنوى : البعد، والشجو: الحزن، والأرق: السهر
(٢) المغانى : جمع مغنى ، وهو المنزل ، وأصله اسم مكان من قولهم « غنى فلان بالمكان يغنى » من باب علم — إذا أقام به
(٣) ناقع : من قولهم « نقع الشراب العطش » إذا أذهبه ، ويريم : يبرح

وقد امتدّ بنا الكلام ، وربما يجعله اللاحى[١] ذَريعة لزيادة الملام ، فلنرجع إلى ما كنا بصَدَده من إجابة المولى الشاهينى ، أمده الله سبحانه بمدده ! فأقول ، مستمدًّا من واهب العقول :

شروع المؤلف فى التصنيف بمصر

إنى شرعت بعد الاستقرار بمصر فى المطلوب ، وكتبْتُ منه نُبذة[٢] تستحسنها من المحبين الأسماع والقلوب ، وسلكت فى ترتيبه أحسن أسلوب ، وعرضت فى سُوقه كلَّ نفيس غريب من الغرب إلى الشرق مجلوب ، تستحسن الأبصار ما عليه احتوى ، وتعرف الأفكار أنه غير مُجْتَوَى[٣] ، ثم وقف بى مركب العزم عن التمام واسْتَوَى ، فأخرته تأخير الغريم ، لدين الكريم ، وصدّتنى أعراض ، عن تكميل ما يشتمل عليه من أغراض ، وأضرَبْتُ برهة عَمَّاله من مَنْحَى ، لاختلاف أحوال الدهر نفعا ودفعاً ومنعاً ومنحاً ، ومرقَتْ عن هَدَف الإصابة نِبَال ، وطرقت فى سُدَف ليالى الكتابة أمور لم تكن تخطر ببال ، فجاءتنى من المولى المذكور آنفا ، رسالة دَلّتْ على أنه لم يكن عن انتجاز الوعد متجانفاً ، فعُدْت لقضاء الوَطَر مستقبلا وللجملة مستأنفاً ، وحدا بى خطابه الجسيم للإتمام ، وساقنى وراقنى كتابه الكريم لتلك الأيام ، وشاقنى وذكرنى تلك الليالى التى لم أنسَهَا ، وحركنى لتلك المعاهد التى لم أزل أذكر أُنْسَها ، والإلف لا يصبر عن إلفه إلا كما يطرف بالعين ، وقد صبرنا عنهم مدّة ما هكذا شأن المحبين ، فياله من كتاب كريم ، أعرب عن وُدّ صميم ، وذكّر بعهدٍ غير ذَميم ، ووُد طيب العَرْف والشَّميم ، يَخْجل ابنُ المعتز لبلاغته وابنُ المعز تميم :

المؤلف يصف كتابا جاءه من الشاهينى

ولم ترَ عَيْنَاىَ مِنْ قبله كتابًا حَوَى بعضَ ماقد حَوَى
كأن المباسِمَ ميماتُهُ ولاماته الصُّدْغ لما الْتَوَى

---

(١) اللاحى : اسم الفاعل فعله « لحا فلان فلانا يلحاه » إذا عذله ولامه

(٢) النبذة ـ بفتح النون أوضمها ـ تطلق على الناحية ، وعلى القطعة من الشىء والمراد هنا المعنى الثانى

(٣) مجتوى : اسم مفعول فعله « اجتوى فلان الشىء » إذا كرهه

وأعْيُنُه كعيون الحِسانِ تُغازِلُنا عند ذكر الْهوَى
كتابٌ ذكَرْنَا بألفاظه عهودًا زكَتْ بالحمى واللِّوَى

فكأنه الروض المطَّرِد الأنهار ، والدّوْح المدبّج الأزهار :

رأيْنَا به رَوْضاً تدبّجُ وَشْيُهُ إذا جاد من تلك الأيادى غمائم
به ألِفَاتٌ كالغصون وقد علاَ عليها من الهَمْزِ المطلّ حمائم

وقد سقيت بأنهار البراعة السّلْسالة ، حدائق حلّت بها غانية تلك الرسالة ، لتشفى صَبّها بالزيارة ، وتشرف بدنوّها دياره :

زارت الصَّبَّ فى ليالٍ من البُعْد فَلَمَّا دنت رأى الصبح يَلْمَحْ
قَلَّدَتْ بالعِقْيَانِ جِيدَ بَيَانٍ ليسَ فيه للفتْح من بَعْدُ مَطْمَحْ(١)

فشفت النفس من آلامها ، وأحْيَت ميت الهوى مذ حيتْ بعذب كلامها :

كلامٌ كالجواهر حين يَبْدُو وكالنّد المعَنْبَر إذ يَفُوح
له فى ظاهر الألفاظ جسم ولكنّ المعانى فيه رُوحُ

فصيرت لى ذلك الكتاب سميراً ، ووردت من السرور مَشْرَعا نَميراً(٢) ، وتمثلت بقول بعض من أخلص فى الود ضميراً :

يا مفردًا أهدى إلىَّ كتابهُ جملاً يحار الذهن فى أثنائها
كالدرّ أشرق فى سُموط عقوده والزهر والأنوار غبَّ سمائها
فأفادنى جَذلا وبالى كاسدٌ وأجار نفسى من جوَى بُرَحائها
وحسبت أيام الشَّباب رجَعْنَ لى فلبسْتُ حَلْى جمالها وبهائها
لا يعدم الإخوان منك محاسنا كلٌّ المفاخر قطرة من مائها

فأ كرم به من كتاب جاء من السَّرِىّ العلى ، والماجد الأخ الولى :

---

(١) للفتح بن خاقان كتاب اسمه « قلائد العقيان » وكتاب آخر اسمه « مطمح الأنفس » فقد لمح إليهما الشاعر فى هذا البيت

(٢) المشرع — مكان ورود الماء ، والنمير — بفتح النون — الماء الزاكى الطيب

فضضْتُ ختـــامه فتبينت لى ... مَعَانيه عن الخـــبر الجلىّ
وكان ألذّ فى عينى وأنْدَى ... على كَبِدِى من الزهر الجنىّ
وضُمِّنَ صدره مالم تضمَّنْ ... صدورُ الغانيات من الحـــلىّ

وأعرب عن اعتماد متماد ، ووداد مزداد ، وأطاب حين أطال ، وأدَّى دَيْنَ الفصاحة دون مِطال[١] ، واشتمل من فُصول العبارة على أحسن من الحدق المراض ، وأتى من أصول البراعة ببراهين ابن شاهين التى لا خُلْفَ فيها ولا اعتراض ، وروينا من غيث أنامله الْهتُون ، ورَوَيْنا عنه مسند أحمد حَسَنَ الأسانيد والمتون ، وحثّنَا على العَوْد والرجوع ، وكان أجدى من المـاء الزلال لذى ظمأ والمشتهى من الطعام لذى سَغَب وجوع :

وأشهَى فى القلوب من الأمانى ... وأحلى فى العيون من الهُجُوعِ[٢]

وجلا بنوره ظلام استيحاشى ، وحشر إلى أشتاتَ المسرات دون أن يحاشى[٣] ، ووجدنى فى مكابدة شغوب ، وأشغال أشربت القلبَ الكسل واللغوب ، وحيرت الخواطر ، وصيرت سُحُبَ الأقلام غير مَوَاطر ، فزحزح عنى الغموم وسلانى ، وأولانى ـ شكر الله صنيعه ! ـ من المسرات ما أولانى :

حديثُه أو حديثٌ عنه يُطْرِبنى ... هذا إذا غاب أو هٰذَا إذا حَضَرَا
كلاهُمَا حَسَن عنـدى أسَرّ به ... لـكنّ أحلاهما ما وافق النَّظَرَا

وقال آخر :

لست مُسْتَأنِساً بشىء إذا غبـــتُ سوى ذكرك الذى لايَغِيبُ
أنْتَ دون الجلَّاسِ عندِى و إن كنـــتَ بعيدًا فالأنس منك قريبُ

وَضَمّنْتُ فيه لما ورد مع جملة كتب من تلك الناحية ، وأنوارُ أهلها ذوى الفضائل الشهيرة أظهرُ من شمس الظهيرة فى السماء الصاحية .

---

(١) المطال ـ بكسر الميم ـ التسويف ولى المدين الدائن فى سداد دينه
(٢) الهجوع ـ بضم الهاء ـ النوم والرقاد (٣) يحاشى : أى يستثنى

قلت لما أتتْ من الشام كُتْبٌ من أجلاَّءَ نورُهُمْ يتألّقْ[١]
مَرْحبًا مَرْحبًا وأهــلا وسهلا بعُيونٍ رأت محاسِنَ جِلَّقْ

وقلت أيضا :

قلت لما وافت من الشام كُتْبٌ والليــالى تُتيحُ قربًا و بُعْدَا
مرحَبًا مرحبا وأهــلا وسهلا بعيونٍ رأت محاسن سُعْدَى

فقر من كتاب الشاهينى للمؤلف

وكان من فصول هذا الـكتاب الوارد من المولى الشاهينى الذى اقتنص بفضله كل شارد ما نصه « ومما استخلص قلبى من يدَىْ ترَحِى ، وجدَّد سُرورى ونبه فرحى ، حديثُ الـكتاب وما حديث الـكتاب ، حديث نسخ بحلاوته مَرارة العتاب ، وأنسانى حرارة المصَاب ، فى الأنسَال والأعقاب ، وقضى به من حق لسان الدين ، دينه الذى تبرع به غَريم مَلِىء من البلاغة وهو غير مدين ، حتى كأنى يا سيدى بهذه البشرى ، أحرزت سوارَىْ كسرى ، وكان فى مسمعى كل حرف إليها منسوب ، قميصُ يوسف فى أجفان يعقوب ، وحتى كدت أهجر أهــلى و بيتى ، وأُسْرِجُ لاستقبال هذه البشرى أشهَبى وكُمَيْتِى ، وحتى إننى حاربت نومى وقومى ، وعزمت على أن أرحل ناقتى فى وقتى و يومى ، و إن ذلك التغليس والتهجير[٢] فى جنب ما بشرت به لحقير ، و إن موقعها لدى هذا العبد الحقير لخطير ، وقد كنت سألت شيخى حين ورد دمشق الشام ، واشتمَّ منها العَرار والبَشَام[٣] ، وشرّفنى فعرفنى ، وشاهدنى فعاهدنى ، على أن يجرى ما دار بيننا لدى المجاورة ، من المسامرة والمحاورة ، فى ديباجة ذلك الـكتاب ، الذى فتن العقول خبره وسحر الألباب ، وما قَصَدْتُ إلا أن يجرى أُسمى على قلمه ، و يرقم رسمى فى مطاوى تحريره ورقمه ، ويكون ذكرى مختلطا بذكره ، كما أن سِرّى مرتبطٌ فى المحبة

(١) أجلاء : جمع جليل ، وهو العظيم القدر ، ويتألق : يشتد ضوؤه

(٢) أصل التغليس : السير فى وقت الغلس ، وهو وقت الظلام ، وأصل التهجير السير فى وقت الهاجرة ، وهو وقت اشتداد الحر

(٣) العرار ، والبشام — بفتح أول كل واحد منهما — شجران لهما رائحة عطرة

بسره ، فرأيت شيخى لم يتصدّ فى أثناء هذه البشرى ، لما يُفْهمنى بالذكرى ، لأنتظر النجاح فى الأخرى ، ولم يساعدنى على ذلك الملتمس ، وحَبَس عنانَ القلم فاحتبس ، فانكسرت سَوْرة سرورى بفتورى ، وتبين لنفسى عن بلوغ ذلك الأمل تخلفى وقصورى » انتهى .

ثم قال بعد كلام طويل لم نذكره لعدم تعلقه بهذا الغرض ، ما صورته :

« وحسبت أن سيدى وحاشاه ، نسى مَنْ ليس ينساه ، وظننت به الظنون ، لأمور تكون أو لا تكون ، وهل يكره سيدى وشيخى أن يهدى الدنيا فى طبق ؟ ثم الأخرى على ذلك النسق ، ولا شك أن خَطَّه هو الروضة الغنّا(١) ، لا بَلْ جنة المأوى ، فطوبى لنفسى إن جنت ثمرته طوبى ، ولَعَمْرُ شيخى إنى بذلك لجدير ، وإنى كنت أملك به الخَوَرْنَق والسَّدير(٢) » انتهى ما يتعلق بالغرض من ذلك الرقيم ، الذى شكل منطقه غير عقيم ، سلك الله تعالى بى وبمن وجهه الصراط المستقيم !

وأتى فى المكتوب بأنواع من البلاغة ، مما تركت ذكره هنا لعدم تعلقه بهذا الأمر الخاص الذى ييسر لكارع الأدب مَسَاغه ، وختمه بقصيدة نفيسة من نظمه يستنجز فيها ذلك الوعد ، وأشهد أنه قد حاز فيها قصَبَ السبق والمجد ، وما قلت إلا بالذى علمَتْ سَعْد ، وهذه صورتها :

قصيدة من الشاهينى يمدح فيها المؤلف ويستنجزه

يا سيدا أفْدِيه بالأكْثَرِ ... من أصْغَرِ العالم والأكبَرِ
ويا وحيدًا قَلّ قولى له ... عُطَارد أنتَ مع المشْتَرِى
ويا مجيدًا ليس عندى له ... إلا مقالُ المادحِ المُكْثِرِ
أقسمتُ بالبيت العتيق الذى ... حجَّتْ إليه الناسُ والمَشْعَرِ
ما للعلا والعلم إلا أبو الـ ... ـعباس شيخى أحمدُ المقّرى
ذاك الذى آثرنى منه بالـ ... ـعلم الذى للغير لم يؤثر

(١) الغنا : أصله الغناء ، فحذف الهمزة وقصره لإتمام السجع ، ومعناه الحديقة التى تغنى الأطيار على أغصانها

(٢) الخورنق ـ بزنة سفرجل ـ قصر كان بظهر الحيرة بنى للنعمان بن امرىء القيس ، والسدير ـ بفتح السين ـ يقال : هو نهر ، ويقال : هو قصر كان قريبا من الخورنق

وخَصَّنِي منه بأشياء لم يفزْ بها غيْرى ولم يعثر
فرُحْتُ عبداً ذا وفاءٍ لَهُ معترفا بالرق لا أمْترِى(١)
فيا أبا العباس يا مَنْ غدا أعظمَ فى نفسىَ من مَعْشَرِى
ومَنْ إذَا ما غاب عن ناظرى كان سَمِيرَ القلب للمحضر
هات أفِدْنِى سيدى عن علا الـمَوْلَى لسانِ الدين ذاكَ السَّرى
ذاكَ الوحيدِ الفذ فى عَصْرِهِ بل أوحَدِ الأدهُرِ والأعصُر
ذاكَ الذى أخبرنى سيدى عنه مزَايا بعدُ لم تُحْصَرِ
ذاكَ الذى العَيُّوقُ لا يَعْتَلِى إلى مَعَاليه ولا يَجْتَرِى(٢)
ما قد وَعَدْتَ العبد فى جَمْعه من خَبَرٍ عن فضله مُسْفِرِ
بخطِّكَ الوضاحِ وَهوَ الذى مَخْبَره يُرْبى على الْمَنْظَرِ(٣)
والشىء لا يُرْجَى إذا ما غَدَا مَنْظَره يُرْبِى على المخبر
نقش على طِرْسٍ بياضٍ كما لاحَتْ عيون الرشإِ الأحْوَرِ
وأسطر قد سلسلت مثلَ ما لاح عِذار الشادنِ الأخْفر
ونزهة الأنفس مَعْنًى غدا ما بينهَا ينسابُ كالكوثر
عذبٌ رقيق مثل ظَبْى غدَا يلوحُ طاوى الكشح أوجُؤْذُرِ
آثار أقلامك وَهىَ التى أغنتْ عَنِ الأبيض والأسمر
يَرَاعُكَ الجامعُ راوٍ غَدَا يَرْوِى اللُّغى عن لفظك الجَوْهَرِى
ينثر مِسْكاً تارة ناظماً وينظم الجوهَرَ بالْعَنْبَرَ
هذا ابنُ شاهين الْفَتَى أحمد عن ذكرك المأنوس لم يَفْتُرِ
فاجعل له ذكرا كريماً به يَزْدَانُ مغبوطاً إلى المحشر

---

(١) لا أمتري : لا أشك

(٢) العيوق : نجم ، ولا يجترى: أصله لا يجترئ فسهل الهمزة بقلبها ياء لانكسار ما قبلها

(٣) يربى : يزيد ، والمخبر : الاختبار لمعرفة الباطن

واذكر بيوتاتى وكلَّ الذى كتبته نحوك فى دفترى
أنت جَدِيرٌ بمديحى فكن ذاكرِ عبدٍ بالوفا أجدر
وهاكهَا سيَّارة أعْنَقتْ على جوادٍ كان للبحترى[1]
طِرْفٍ كريم سابِقٍ صافن مُطهَّم ذى أدب أوْفرَ[2]
ورِثْتُه منه ولكنما من شاعرٍ وافى إلى أشْعَرَ
ما لِلفتَى الطائى شوْط امرىء يَصْطَادُ نسرَ الجو بالمَنْسِرِ
وأُسْلِمْ لعبدٍ لا يرَى سيدا سوى الذى فى ثوبك الأطهر
فى كرم العنصر فرداً غدا طبعُك فاشكر كَرَمَ العُنْصُر
ما حَنَّ مشتاق أخو صَبْوة إلى خليل فى الهوَى مفكرِ[3]

فلما وصلنى هذا الخطاب ، الذى ملأ من الفصاحة الوِطاب ، وحَلِيَ فى عينى وقلبى وطَاب ، تحركت دواعى الوجد ، لذلك المجد ، الذى ولعت به ولوع ابن الدمينة بصَبَا نجد ، وأثار من الهيام والأوار ، ما يزيد على ما حصل للفرزدَق لما فارق النوار ، وتضاعف الشوق إلى تلك الأنجاد والأغوار ، مُنْشِداً قول الأول « لعل أبى المغوار » وتذكرت والذكرى شجُون وأطوار، تلك الأضواء والأنوار ، المشرقة بقطر أزهر بالمحاسن ، وجرى نهره غير آسن ، فلم يذم فيه الجوار :

وإن اصطبارى عن مَعاهد جلَّقٍ غريبٌ فما أجفى الفراقَ وأجفانى
سقى الله أرضاً لو ظفرتُ بتربها كحلتُ بهامن شدة الشوق أجفانى

وحصل التصميم ، على التكميل للتأليف والتتميم ، رَعْياً لهذا الولى الحميم ، أفاض الله تعالى عليه غيثَ البر العميم ، وأبقى ظل عزه ممدودا ، وحُلِيَّ سؤدده مودودا ، وأناله من الخيرات ما ليس محصورا ولا معدودا ، وجمعنى و إياه ، وأطلع لى بشر

(١) أعنقت : سارت السير العنق ، وهو ضرب من السير السريع

(٢) الطرف ــ بكسر الطاء ــ الكريم من الخيل ، ويقال « فرس صافن » إذا قام على ثلاث قوائم وحافر الرابعة

(٣) الذى فى ثوبك : أراد به نفس المخاطب ، ومثله قولهم « المجد بين ثوب فلان »

مُحَياه ، وأنشقنى عَرْف اجتماعه ورَيَّاه ! ! وكيف لا أستديم أَمَدَ بُقْياه ، وأعتقد البشائر فى لقياه ، وأسقى غروس الود بسُقْياه ، وهو الصدر الذى أصفى لى الوداد ، والركن الذى لى بثبوته اعتماد واعتداد :

فَعَلَيْه من مُصْفِى هواه تحيّـةٌ كالمِسْكِ لما فُضَّ عنـه ختام
تَتْرَى بساحته السنية ما دعت فوق الغصـون هديلَهُن حمامُ

ودامت فضائله ظاهرة كالشمس ، محروسة بالسبع المثانى معوذة بالخمس :

ولا أُنفكّ ما يَرْجُوه أقرب من غدٍ ولا زال ما يَخْشَاه أبعدَ من أمس

و بقى من العناية فى حرم أمين ، آمين .

ولما حصل لى كمال الاغتباط ، بما دل على صحة حال الارتباط ، نُشِر بساط الانبساط ، وحدثت لى قوة النشاط ، وانقشعت عنى سحائب الكسل والنجابت ، وناديتُ فكرتى فلبَّتْ مع ضعفها وأجابت ، فاقتدحْتُ من القريحة زَنْدًا كان شَحَاحا ، وجمعت من مُقَيدَاتى حسانا وصحاحا ، وكنت كتبت شَطْره ، وملأت بما تيسر هامِشَهُ وسَطْره ، ورقَمْتُ من أنباء لسان الدين بن الخطيب حُللا لا تُخْلِق[(١)] جدّتَهَا الأعصرُ ، وسلكت من التعريف به رحمه الله مهامهَ تكل فيها واسعات الخطا وتقصر[(٢)] ، فَحَدث لى بعد ذلك عزم على زيادة ذكر الأندلس جملة ومن كان يُعَضِّد به الإسلام وينصر ، و بعض مفاخرها الباسقة ومآثر أهلها المتناسقة لأن كل ذلك لا يستوفيه القلم ولا يحصر ، وجئت من النظم والنثر بنبذة توضح للطالب سبله ، وتظهر علمه ونبله ، وتُتْرِعُ كأس محاسِنِه من راح المذاكرة وإناؤه ، حتى يرى حُسْنَ هذا التأليفِ أبناء هذا التصنيف وأدباؤه ، وكنت فى المغرب وظلالُ الشباب ضافية ، وسماء الأفكار من قَزَعِ الأكدار صافية[(٣)] ، معتنيا بالفحص عن

---

(١) أصل معنى رقمت : خططت ، تقول « رقمت الثوب » إذا جعلت له خطوطا ، ولا تخلق : لا تبلى

(٢) المهامه : جمع مهمه ، وهى الصحراء الواسعة الأطراف ، التى يخاف سالكها وكأنما سميت بذلك لأن السائر فيها يقول لمن معه : مه ، مه ، يريد اكفف اكفف

(٣) القزع ـ بفتح القاف والزاى ـ قطع من السحاب متفرقة

أنباء أبناء الأندلس[١] ، وأخبار أهلها التى تنشرح لها الصدور والأنفس ، وما لهم من السبق فى ميدان العلوم ، والتقدّم فى جهاد العدو الظَّلوم ، ومحاسن بلادهم ، ومواطن جدالهم وجلادهم[٢] ، حتى اقتنيت منها ذخائر يرغب فيها الأفاضل الأخاير ، وانتقيت جواهر فرائدُهَا للعقول بوَاهر ، واقتطفت أزاهر أنجُمهَا فى أفق المحاضرة زواهر ، وحَصَّلت فوائد بواطن وظواهر ، طالما كانت أعين الألبَّاء لنيلها سواهر ، وجمعت من ذلك كلِماً عالية ، لوخاطب بها الداعى صُمَّ الجلامد لانْبَجَسَ حجرها[٣] ، وحكما غالية ، لوعامل بها الأيام ربح متجرها ، وأسجاعا تهتزلها الأعطاف ، ومواعظ يعمل بمقتضاها من حَفَّت به الألطاف ، وقوافى موقورة القوَادم والخَوافى[٤] ، يثنى عليها مَنْ سلم من الغبَاوة والصمم ، ويعترف ببراعتها من لايعتريه اللّمم ، وطالما أعرض الجاهل الغمْر بوجهه عن مثلها وأشاح ، وأنصت لها الحَبْرُ إنصات السوّار لجرْس الحلى ونغَم الوشاح ، وفرح إن ظفر بشىء منها فرحَ الصائد بالقنيص ، والسارى العارى ذى البطن الخميص ، بالزاد والقميص ، وتركتُ الجميع بالمغرب ، ولم أستصحب معى منه ما يبين عن المقصود ويُعْرب ، إلا نزْراً يسيرا علق بحفظى ، وحَلَّيت بجواهره جيدَ لفظى ، و بعض أوراق سعد فى جواب السؤال بها حظى ، ولو حضرنى الآن ماخلفته ، مما جمعت فى ذلك الغرض وألّفته ، لقرَّت به عيون وسُرَّت ألباب ، إذ هو والله الغاية فى هذا الباب ، ولـكن المرء ابنُ وقته وساعته ، وكل ينفق على قدر وُسْعه واستطاعته ، وعذر مثلى باد ، للمنصفين من العباد ، إن قصرت فيما تبصرت ، أو تخلفت فى الذى تكلفت ، أو أضعت تحرير ما وضعت ، والتقمتُ ثدىَ التقصير ورَضَعْتُ ، أو أطعتُ دَاعىَ التّوانى فتأخرت عمن سبق وانقطعت ، إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت ، ومَنْ كانتْ بضاعته مزْجَاة ، فهو من الإنصاف بِمَنْجَاة ، إذا أتى

---

(١) الأنباء : جمع نبأ ، وهو الخبر مطلقا ، أو خاص بما كان ذا شأن

(٢) الجلاد : بكسر الجيم ـ مجالدتهم العدو

(٣) لانبجس : أى خرج منه الماء

(٤) القوادم : ريشات فى مقدم جناح الطائر ، واحدها قادمة ، والخوافى : تقابلها

بالمقدور ، وتبرأ من الدعوى فى الورود والصدور ، وعينُ الرضا عن كل عيب كَليلة[١] ، والسلامة من الملامة متعذرة أوقليلة ، وقدقال إمامُنامالكٌ صاحبُ المناقب الجليلة « كل كلام يؤخذ منه و يرد إلا كلام صاحب هـذا القبر » صلى الله عليه وسلم أزكى صلاة وأتم سلام وشَفَى بجاهه من الآلام قلوبَنَا العليلة ، وجَعَلنا ممن كان اتباعُ سنته رائدَه ودليله ! آمين .

والحمـد لله الذى يَسَّر لى هذا القدر ، مع ضيق الصدر ، وقلة بضاعتى ، وكثرة إضاعتى ، فإن حَمْده جل جلاله تتضوّع به المطالب طيبا ، وتقضى ببركته المآرب فيَرقَى صاحبها على منـبر القبول خطيبـا ، وتعذب به المشارب فتُنْبِتُ فى أرض القرطاس ، من زاكى الغراس ، ما يروق منظرا نضيرا ويورق غُصْنا رطيبا ، وقد أتيت من المقال ، بمـا يُقِرُّ إن شاء الله تعالى عينَ وامق ويُرْغِم أنفَ قال[٢] ، وإن كنتُ ممن هو فى ثوب العى رافل ، وعن نسبته للقصور غير غافل ، وممن جعل النفس هَدَفا ، وصير مكان الدرِّ صَدَفا ، إذ لسانُ الدين بن الخطيب إمام هـذه الفنون ، المحقِّق لذوى الآمال الظنون ، المستخرج من بحار البلاغة درها المكنون ، وله اليـدُ الطولى فى العلوم على اختلاف أجناسها ، والألفاظ الرائقة التى تزيح وحْشَةَ الأنفس بإيناسها :

تقدير المؤلف للسان الدين ابن الخطيب

ناهيك من فَرْدٍ أغرّ ممدَّحٍ ... رَحْب الذَّرَا حرّ الكلام مُحسَّدِ[٣]

بَهَرَ الأنام رياسـة وسياسة ... وجلالة فى المنتمَى والمحتِـدِ

وأتى بكلٍّ بديعـة فى نوعها ... لم تُخْـتَرَعْ وغريبـةٍ لم تُعْهَدِ

ما شئتَ من شعرٍ أرقَّ من الصَّبا ... وكتابة أزهى من الزهر النَّدِى

وبديعِ قرطاس توشح مَتْنُه ... بِمُنَمْنَمٍ من رَقْمِه ومنجَّدِ

(١) أخذ هذا من بيت يسنب إلى عبد الله بن معاوية ، وهو قوله :

وعين الرضا عن كل عيب كليلة ... كما أن عيب السخط تبدى المساويا

(٢) الوامق : المحب ، والقالى : الكاره المبغض

(٣) الذرا ـ بفتح الذال ـ فناء الدار ونواحيها ، وقولهم « فلان واسع الذرا » أو « رحب الذرا » كناية عن كونه مضيافا

بَهِـج كأنَّ الحسن حـل أديمَهُ فـكساه رَيْعَان الشباب الأغْيَدِ
كالبُرْدِ فى توشيعه ، والسِّلك فى ترْصيعه ، والوَشْىِ نُمِّق باليدِ [(١)]
وكأنما سال العِذَارُ عليــه أو خَطَّتْهُ أيدى الغانيات بإثمدِ [(٢)]
يختالُ بين مُوصَّلٍ ومُفصَّـل ومُطَرّز ومُنظَّم ومُنَضَّـدِ
قد قيدَ الأبصارَ والأفكار من ألفاظِهِ بمثقفٍ ومُقيَّـدِ
ما فيه مَغْرز إصْبَعٍ إلا وفيــه نتيجَـة لمفرّعٍ ومُوَلّدِ
ولـكُلِّ جزءٍ حكمة أو مُلْحة أو بدْعَة لمرسَّـل ومُقصَّدِ
أو ليس مثلى قاصراً عن وَصْفه والحقُّ نور واضحٌ للمهتدِى

وكما قلت وقد عجزت عن أداء الواجب وحاولت المَسنُون ، وفضل الله سبحانه على من يشاء من عباده ليس بممنوع ولا ممنون [(٣)] :

لَيْتَ شِعْرِى أىُّ العبارات تُوفِى واجِبَ ابْنِ الخطيب مما أَرُومُ
وأنا عاجز عن البَعْضِ منها لقُصُورى وما العَـيِىُّ مَلومُ
وَهْوَ يُدْعَى لسانَ دين وناهيـك افتخارًا به تَتِمُّ الرُّسُـومُ
فبأىِّ الْحُلَى أحَـلِّى عُلاَ من نالَ فَضْلاً روَتْهُ عُرْبٌ ورُومُ
وعَلَى الفَرْض ما الَّذِى أنتحى منــهُ لَدَى الْوَصْفِ أن يخص العُمُومُ [(٤)]
أَلِحِفْظٍ قد ارْتوَى من مَعِين لصَوابٍ عليــه كلٌّ يحُومُ
أم لفَهْمٍ يستخرج الدرّ غَوْصاً من بحارٍ يَخْشَى بها من يعُومُ
أم لفكر مؤلفٍ فى فنُونٍ عن دهاء به تُداوى الكُلُومُ
أم لنظمٍ كأنه جوْهر السِّلْـك غَلاَ قَدْرُهُ على من يَسُومُ

(١) تقول « وشعت الثوب توشيعا » إذ أعلمته وجعلت فيه خطوطا أونحوها ، ونمق : حسن وزين

(٢) العذار ــ بكسر العين ــ الشعر الذى يحاذى الأذن فى الوجه ، وهو مما أكثر الشعراء من التغزل فيه ، والإثمد : الكحل

(٣) ممنون : مقطوع (٤) أنتحى : أقصد

تتباهى به الصُّـــدور حُلِيًّا وتروقُ العيونَ منــه نجومُ

أم لنثرٍ وافى بسِحْرِ بيانٍ فَهْوَ كالرُّوح والمعـانى جُسومُ

وأظلتهُ للبــديع سَماء تتلألا فى جانِبَيْهَا العُـلُومُ(١)

فاستزادَتْ منه النفوسُ رَشـادًا واستزانَتْ منه النُّهى والحُلُومُ

أم لحظٍ مُنَمْنَمٍ فاقَ حُسْنـًـا مثلَ وَشْيٍ تلوحُ منـه الرقومُ

أو كزَهْر فى بَهْجَــة ورُوَاء وأرِيج به تُزاحُ الغمــومُ

والغصون،الأقلامُ والطِّرْسُ رَوْض ناضِرٌ ، والمِدَادُ غَيْثٌ سَجُومُ

تلك سِتّ أعْجَزْنَ وَصْفِى فإنى بسِوَاها مما يجـلّ أقُومُ

ولم يكن جمعى علم الله هذا التأليف لِرفْد أستهديه ، أو عَرَض نائل أستجديه ، بل لحق وُدٍ أؤديه ، ودَيْن وعد أقدِّمه وأبديه ، ووقوف عند حد لا يجوز تعديه، وتلبية داعٍ أحييه وأفديه(٢) .

إنَّ مَن يرجــو نوالاً ونَدًى من بنى الدنيا لذو حَظ غَبين(٣)

فلقَدْ كان على غــير الهُدَى مَنْ يُسَوّيهم بربٍّ العالمين

ويُرَجِّى منهمُ الرزقَ فهــل خالق الـكل فقـيرٌ أو ضَنين(٤)

أنُخلِّى قَصْـــد ربٍّ مالك ونُرَى للخلق جَهْـلا قاصدين

ما لنا من مَخْلص نأتى به غير جاه المصطفى الهادى الأمين

سَيِّدِ الخلق العمـادِ المرتجَى للمِلمَّات شَفيــع المذنبين(٥)

فعليه صَـلَوات تنتحى حضْرَةً حلَّ بها فى كل حين

والرضا من بَعْدُ عن أربعــةٍ هم بحقٍ أمراء المؤمنين

---

(١) تتلالا : أصله تتلألأ ، ومعناه تضىء

(٢) هكذا فى ب ، ووقع فى ز « أجيبه وأفديه »

(٣) الندى : الجود ، والحظ الغبين : الناقص

(٤) الضنين : البخيل (٥) الملمات : الشدائد والنوزل ، واحدتها ملمة

فيمينا إن من يهواهمُ ليكوننّ مِنَ أُصحابِ اليمين
وَسْط جنــات تحييه بها آنساتٌ قاصراتُ الطرفِ عِينْ[١]
بقَوارير لُجــين شُرْبُه وأباريقَ وكأسٍ من مَعِينْ[٢]
والذي شرفهم يَمْنَحنــا حُبَّهُم والــكون معهم أجمعين

فدونك أيها الناظر فى هذا الـكتاب ، المتجافى عن مَذهب النقد والعتاب ، كلماتٍ سوانح اختُلِسَتْ مع اشتعال الجوانح ، وتضاد الأمور الموانع والموانح ، وألفاظا بَوَارح اقتنصت بين أشغال الجوارح ، وطُرَفا أسمْتُ الطَّرْف فى مَرْعاها وكانت هَمَلا غيرسَوَارح[٣] ، وتحَفاً يحصل بها لناظره الإمتاع، ولايعدّها من سَقَط المتاع المبتاع، ويلهج بها المرتاح ، ويستأنس المستوحش المرتاع[٤] .

ثبت بموضوعات الـكتاب وترتيبه

و بعد أن ختمت تمامَ هذا التصنيف ، وأمعنت النظر فيما يحصل به التَّقْريطُ لسامعه والتشنيف[٥] ، قسمته قسمين ، وكل منهما مستقل بالمطلوب فيصح أن يسميا باسمين :

القسم الأول- فيمايتعلق بالأندلس من الأخبارالمترعة الأكواب، والأنباءالمنتحية صَوْبَ الصواب ، الرافلة من الإفادة فى سوابغ الأثواب ، وفيه بحسب القصد والاقتصار، وتحرِّى التوسُّط فى بعض المواضع دون الاختصار ، ثمانية من الأبواب :

الباب الأول ـ فى وصف جزيرة الأندلس وحسن هوائها ، واعتدال مِزَاجها ووُفور خيرها وكمالها واستوائها ، واشتمالها على كثير من المنافع والمحاسن واحتوائها، وكرم نباتها الذى سقته سماء البركات من جنباتها بنافع أنوائها ، وذكر بعض مآثرها المجلوة الصُّوَر ، وتعداد كثير مما لها من البلدان والـكُوَر ، المستمدّة من أضوائها .

---

(١) الآنسات : جمع آنسة ، وهى الطيبة النفس ، وأصلها من الأنس ، وهو ضد الوحشة ، والطرف : العين ، وقاصرات الطرف : يراد به أنهن لا ينظرن لغير من يكن له ، والعين : جمع عيناء ، وهى الواسعة العين .

(٢) أخذ هذا من عدة آيات منهاقوله تعالى: (يطاف عليهم بكأس من معين) .

(٣) هملا : متروكة بغير راع (٤) المرتاع : الخائف .

(٥) أصل التقريط : إلباس القرط ، والتشنيف: إلباس الشنف، وهماحليان للأذن .

الباب الثانى ـ فى إلقاء بلد الأندلس للمسلمين بالقِياد ، وفتحها على يد مُوسَى ابن نُصَير ومولاه طارق بن زياد ، وصَيْرورتها ميدانا لسَبْق الجياد ، ومحطّ رحال الارتياء والارتياد[١] ، ومايتبع ذلك من خبَرحصل بازديانه زياد ، ونبإ وصل إليه أُعتيامُه[٢] وتقرر بمثله اعتياد .

الباب الثالث ـ فى سَرْد بعض ما كان للدين بالأندلس من العز السامى العماد ، والقهر للعدوّ فى الرواح والغدوّ والتحرك للهدوّ البالغ غاية الآماد ، و إعمال أهلها للجهاد بالجدّ والاجتهاد ، فى الجبال والوهاد ، بالأسنة المشْرَعَة[٣] والسيوف المستَلة من الأغماد .

الباب الرابع ـ فى ذكر قُرْطُبة التى كانت الخلافة بمصرها للأعداء قاهرة ، وجامِعِهَا الأمَوىِّ ذى البدائع الباهية الباهرة ، والإلماع بحَضْرَتى الملك الزهراء الناصرية والعامرية الزاهرة ، ووصف جملة من منتزهات تلك الأقطار ومصانعها[٤] ذات المحاسن الباطنة والظاهرة ، وما يجرّ إليه شجونُ الحديثِ من أمور تقضى بحسن إيرادها القرائحُ الوقادة والأفكار الماهرة .

الباب الخامس ـ فى التعريف ببعض من رَحَل من الأندلسيين إلى بلاد المشرق الذاكية العَرَار والبَشَام ، ومَدْح جماعة من أولئك الأعلام ، ذوى الألباب الراجحة والأحلام ، لشامه وجَنّة الأرض دِمَشْق الشام ، وما اقتضته المناسبة من كلام أعيانها وأرباب بيانها ذوى السؤدد والاحتشام ، ومُخَاطباتهم للمؤلف

---

(١) الارتياء : مصدر ارتأى يرتئى ، ومعناه كمعنى رأى يرى ، والارتياد : أصله أن يتقدم واحد من الرفقة ليبحث لهم عن مواطن الكلأ .

(٢) الاعتيام : مصدر اعتام يعتام ، ومعناه اختار يختار .

(٣) الأسنة : جمع سنان ،وهومن آلات الحرب ، والمشرعة : المرفوعه الموجهة إلى صدر الأعداء .

(٤) المصانع : جمع مصنع ، وهو كالحوض يجمع فيه المطر ، والمصانع أيضا : القرى والقصور والحصون .

الفقير حين حَلّها عام سبعة وثلاثين وألف وشاهد بَرْقَ فضلها المبين وشام .

الباب السادس – فى ذكر بعض الوافدين على الأندلس من أهل المَشْرق، المهتدين فى قصدهم إليها بنور الهداية المضىء المُشرِق ، والأكابر الذين حَلُّوا منها بحلولهم فيها الجيدَ والمَفْرِق[١]، وافتخروا برُؤية قُطْرِها المونقِ على المُشْئِم والمُعْرِق[٢].

الباب السابع – فى نبذة مما منَّ الله تعالى به على أهل الأندلس من توقُّدِ الأذهان ، و بَذْلهم فى اكتساب المعارف والمعالى ماعز أوهان ، وحَوْزهم فى ميدان البراعة من قَصَب السَّبْقِ خَصْلَ الرهان[٣]، وجملة من أجوبتهم الدالة على لوذعيتهم، وأوصافهم المؤذنة بألمعيتهم،وغير ذلك من أحوالهم التى لها على فَضْلهم أوضح بُرْهان

الباب الثامن – فى ذكر تغلب العدوّ الكافر على الجزيرة بعد صَرْفه وجوه الكيد إليها ، وتضريبه بين ملوكها ورؤسائها بمكره واستعماله فى أمرها حِيَلَ فكره حتى استولى – دمّره الله ! – عليها ، ومحا منها التوحيدَ واسْمَه ، وكتب على مشاهدها ومعاهدها وَسْمَه ، وقرر مذهب التثليث والرأى الخبيث لديها ، واستغاثة مَنْ بها بالنظم والنثر ، أهلَ ذلك العصر ، من سائر الأقطار ، حين تعذرت بحصارها ، مع قلة حُماتها وأنصارها ، المآربُ والأوطار ، وجاءها الأعداء من خلفها ومن بين يديها ، أعاد الله تعالى إليها كلمة الإسلام ، وأقام فيها شريعة سيد الأنام! عليه أفضل الصلاة والسلام ،ورفع يد الكفر عنها وعما حوَاليها! آمين

ولم أُخْلِ باباً فى هذا القسم من كلام للسان الدين بن الخطيب و إن قل ، مع أن القسم الثانى بذلك كما ستقف عليه قد استقلّ ، وهذا آخر ما تعلق بالقسم الأول ، وعلى الله سبحانه المتَّكَل والمعوَّل .

---

(١) الجيد – بكسر الجيم – العنق ، والمفرق : الموضع الذى يفرق فيه الشعر من وسط الرأس (٢) المشئم : الذى دخل الشأم ، والمعرق : الذى دخل العراق

(٣) كان من عادتهم إذا استبقوا أن يغرزوا فى آخر الحلبة قصبة يأخذها من يجيء أولا ، وإذا أرادوا التعبير عن رجل بأنه سبق من جاراه قالوا : أحرز فلان قصب السبق ، من ذلك

القسم الثانى ـ فى التعريف بلسان الدين بن الخطيب ، وذكر أنبائه التى يَرُوق سماعها ويتأرج نَفَحها ويَطيب ، وما يُنَاسِبُها من أحوال العلماء الأفراد ، والأعلام الذين اقتضى ذكرهم شجونُ الكلام والاستطراد ، وفيه أيضاً من الأبواب ثمانية ، موصلة إلى جناتِ أدب قُطُوفُها دانية ، وكل غصن منها رطيب :

الباب الأول ـ فى ذكر أولية لسان الدين وذكر أسلافه ، الذين وَرِثَ عنهم المجدَ وارتضع دَرَّ أخلافه[١] ، ومايناسب ذلك مما لا يذهب المنصفُ إلى خلافه .

الباب الثانى ـ فى نشأته وترقيه ووزارته وسعادته ، ومُساعدة الدهر له ثم قَلْبه له ظهرَ المِجَنِّ على عادته[٢] ، فى مُصافاته ، ومنافاته ، وارتباكه ، فى شباكه ، وما لقى من إِحَن الحاسد ، ذى المذهب الفاسد ، ومِحَن الكائد المستأسد وآفاته ، وذكر قصوره وأمواله ، وغير ذلك من أحواله ، فى تقلباته عند ما قابله الزمان بأهواله ، فى بَدْئه وإعادته إلى وفاته .

الباب الثالث ـ فى ذكر مشايخه الجِلَّة ، هُدَاة الناس ونجوم المِلَّة ، وما يتصل بذلك من الأخبار الشافية للعلة ، والمواعظ المنجية من الأهواء المُضِلة ، والمناسبات الواضحة البراهين والأدِلَّة .

الباب الرابع ـ فى مخاطبات الملوك والأكابر الموجَّهة إلى حضرته العلية ، وثناء غير واحد من أهل عصره عليه ، وصَرْف القاصدين وجوهَ التأميل إليه ، واجتلائهم أنوار رياسته الجلية[٣] .

الباب الخامس ـ فى إيراد جملة من نَثْره الذى عَبِق أريجُ البلاغة من نَفَحاته ، ونظمه الذى تألَّق نور البراعة من لمحاته وصفحاته ، وما يتصل بذلك

---

(١) الدر ـ بفتح الدال ـ اللبن ، والأخلاف : جمع خلف ـ بكسر فسكون ـ وهو حلمة ضرع الناقة .

(٢) يقولون «قلب فلان لفلان ظهر المجن» يريدون أنه أظهر له العداوة والبغضاء

(٣) وقع فى نسخة « واجتلائهم أنوار رياسته الجليلة» ولا يتفق مع نوع السجع الذى جرى المؤلف عليه .

من بعض أزجاله ومُوَشّحاته ، ومناسبات رائقة من فنون الأدب ومُصْطلحاته .

الباب السادس ـ فى مُصَنفاته فى الفنون ، ومؤلَّفَاته المحقِّقة للواقف عليها الآمالَ والظنون ، وما كمل منها أو اخترمَتْه دون إتمامه المَنُون(١) .

الباب السابع ـ فى ذكر بعض تلامذته الآخذين عنه ، المستدلِّين به على المنهاج، المتلقين أنواع العلوم منه ، والمقتبسين أنوار الفهوم من سراجه الوهاج .

الباب الثامن ـ فى ذكر أولاده الرافلين فى حُلَل الجلالة ، المقتفين أوصافَه الحميدة وخِلاَلَه ، الوارثين العلم والحلم والرياسة والمجد عن غير كَلاَلَة(٢) ، ووصيته لهم الجامعة لآداب الدين والدنيا ، المشتملة على النصائح الكافية ، والحكم الشافية ، من كل مَرَضٍ بلاثُنْيَا ، المنقذة من أنواع الضلالة ، وما يتبع ذلك من المناسبات القوية ، والأمداح النبوية ، التى لها على حسن الختام أظهر دَلالة .

وقد كنت أولا سميته بـ« عَرْف الطِّيب ، فى التعريف بالوزير ابن الخطيب » ثم وسمته حين ألحقت أخبار الأندلس به بـ« نفح الطيب ، من غصن الأندلس الرطيب ، وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب » .

وله بالشام تعلق من وجوه عديدة ، هادية لمتأمله إلى الطرق السديدة :

أوّلها : أن الداعى لتأليفه أهل الشام ، أبقى الله مآثرهم ! وجعلها على مر الزمان مَدِيدة !

ثانيها : أن الفاتحين للأندلس هم أهل الشام ذوو النَّجْدة والشَّوْكة الحديدة(٣) .

---

(١) المنون : الموت ، واخترمه الموت : سبق إليه .

(٢) الـكلالة ـ بفتح الكاف واللام ـ قرابة الإنسان غير أصوله وفروعه، ويقولون « ورث فلان المجد عن غير كلالة » يريدون أنه ليس دعيا فيه لأنه انحدر إليه مع الدم من أسلافه .

(٣) الشوكة : القوة ، والحديدة : مأخوذ من الحدة ، وأراد أنها نافذة إلى ما تريد لا يعوقها شىء .

ثالثها : أن غالب أهل الأندلس من عَرَب الشام الذين اتخذوا بالأندلس وطَنَاً مستأنفاً وحَضْرة جديدة .

ورابعها : أن غَرْنَاطة نزل بها أهل دمشق ، وسَمَّوْها باسمها لشبهها بها فى القصر والنهر، والدَّوْح والزَّهْر، والغُوطة الفيحاء، وهذه مناسبة قوية الْعُرَا شديدة

هذا ، و إنى أسأل ممن وقف عليه ، أن ينظر بعين الإغضاء إليه ، كما أطلب ممن كان السبب فى تصنيفه ، والداعى إلى تأليفه وتَرْصيفه ، استنادًا لركن الثقة ، واعتماداً على الود والمِقَة[١] ، أن يصفح عما فيه من قصور و يَسْمح ، ويُلاحظه بعين الرضا الكَليلة ويَلْمح[٢] ، إذ ركبْتُ شُكل منطقه والأشجان غالبة ، وقضية الغربة ، موجبة للكربة ، ولبعض الآمال سالبة ، وهو — و إن لم يُوفِ بكل الغرض — فلا يخلو من فائدة ، وقد يُسْتَدل على الجوهر بالعرض ، فإن أديت المفترض وذاك المَرَام الذى أرتضيه ، ويُوجب الود و يقتضيه ، و إلا فحسبى أن بذلتُ به جهدى وأنفقت من وُجْدى[٣] على قدر ماعندى ، وقد توهَّمت أنى لم أسبق إلى مثله فى بابه ، إذ لم أقف له على نظير أتعلق بأسبابه ، ورَجَوْت أن يكون هَدِيّة مستملحة مستعذبة وطُرْفة مقبولة مستغربة[٣] .

هَدِيّتِي تقصرُ عن هِمّتِي وهمتِي أكْثَرُ من مالى
وخالصُ الود ومحض الإخا أكثرُ ما يُهْدِيه أمثالى

وأوردت فيه من نظم و إنشاء ، ما يكفى المقتصرَ عليه إن شاء ، ومن أخبار ملوك ورؤساء ، وطبقات مَنْ أحسن أو أساء ، مافيه اعتبار للمتأمل ، وادِّكار[٤] للراحل

---

(١) المقة : الحب ، أو أشده ، تقول : ومق فلان فلانا يمقه مقة — من باب وصف يصف صفة — تريد أنه أحبه حبا شديداً .

(٢) الوجد — بضم الواو وسكون الجيم — الغنى والسعة ، وفى التنزيل : (أسكنوهن من حيث سكنتم من وجدكم)

(٣) الطرفة — بالضم — الشيء الطريف (٤) ادكار — بتشديد الدال — تذكر

المتحمِّل، وزينة للذاكر المتجمل، وتنكيت على أهل البَطَر، وتبكيت لمن خرج من دنياه ولم يقض من الطاعة الوَطَر.

أرى أولاد آدم أبْطَرَتْهُمْ حظوظُهم من الدنيا الدَّنِيَّهْ
فَلِمْ بَطِرُوا وأوَّلُهم مَنِىٌّ إذا نُسبوا وآخرهم مَنِيَّهْ

وفيه إيقاظ لمثلى من سِنَة الغفلة[1]، وحث على عدم الاغترار بالمهلة، وتنبيه للابس بُرْد الشباب القشيب، أنه لا بدّ من حادث الموت قبلَ أو بعدَ المشيب.

لله درُّ الشيبِ من واعظٍ وناصحٍ منهاجُهُ واضِحُ
كلُّ أمْرِئٍ يعجبُه شأنه وحادث الدهر له فاضِحُ

فكَمْ باكٍ على عصْر الشباب، وشاكٍ لفراق عَهْد الصِّبَا والأحباب، أنساه طارقُ الزمان سُلَيمى والرَّباب.

مَضَى عصْرُ الشباب كلَمْحِ بَرْقٍ وعَصْرُ الشيب بالأكدار شِيبَا[2]
وما أعددتُ قبل الموتِ زادًا ليوم يجعل الولدانَ شيبا

وما أحسن قول بعض الأعلام:

مختارات في ذم الدنيا

مَضَى ما مَضَى من حُلْو عيشٍ ومُرِّهِ كأنْ لم يكُنْ إلا كأضغاث أحلامِ

وقول من أرشد سفيها:

إنما هذه الحيــاةُ متاعٌ فالجهولُ الجهولُ من يَصْطفيها
ما مَضَى فات والمؤمَّلُ غَيْبٌ ولك الساعة التى أنت فِيهَا

وفى معناه لغيره:

دُنْيَاكَ شيآن فانظُــرْ ما ذانِكَ الشّيْــآنِ
ما فات منها فحُــلْمٌ وما بقى فأماني

(١) السنة ــ بكسر السين ــ النوم، أو أوله

(٢) أخذ معنى هذا البيت من قوله تعالى: (فكيف تتقون إن كفرتم يوما يجعل الولدان شيبا)

وما أحكم قولَ ابن حِطان ، مع وقوعه من البِدْعَة فى أشطان (١) :

يأسفُ المـرء على ما فاتَهُ من لُبانات إذا لم يَقْضِهَا (٢)
وتَرَاه ضاحكاً مُستَبْشِرا بالتى أمْضَى كأن لم يُمْضِهَا
إنها عندى كأحلام الـكَرَى لَقَرِيبٌ بعْضُهَا من بَعْضِهَا

ولغيره :

والله لو كانتِ الدنيا بأجمعها تَبْقَى علينا و يأتى رِزْقُهَا رَغَدَا
ما كانَ من حَقّ حُرٍّ أن يذلّ لها فـكيفَ وَهْىَ متاعٌ يَضْمحلّ غَدَا

ولآخر :

لا حَظَّ فى الدنيا لمُسْتَبْصِر يَلْمَحُها بالفِكْرة الباصِرَهْ
إن كَدّرت مَشْرَبَهُ مَلَّها و إنْ صَفَتْ كَدّرت الآخره (٣)

ويعجبنى قولُ الوزير ابن المغربى :

إنى أبثك من حَـديــثى والحديثُ له شُجُونْ (٤)
فارَقْتُ موضِعَ مَرْقَدِى ليلا ففارَقَنى السكونْ
قُلْ لى فأول ليـلةٍ للقبر كيف تُرَى أكون

وقول مامية :

تأمل فى الوُجُود بعَيْن فِكْرٍ تَرَ الدنيَا الدنية كالخَيالِ
ومَنْ فيها جَميعًا سوف يَفْنَى ويَبْقَى وجْهُ ربك ذوالجَلالِ

---

(١) الأشطان : جمع شطن ــ بفتح الشين والطاء جميعا ــ وهو الحبل مطلقا ، أو خاص بالطويل الذى يستقى به من بئر، ويقولون « كأن فلانا شيطان فى أشطان »

(٢) اللبانات : جمع لبانة ، بضم اللام ، وهى الحاجة .

(٣) التكدير: أن تلقى فى الماء ما يعكره ، وضده الصفاء ، يريد أن صفاء الدنيا بلذائذها يكدر على الإنسان آخرته .

(٤) أخذ هذا من قولهم فى المثل « الحديث ذو شجون » يريدون أنه ينتقل فيه من فن إلى فن .

وقول بعض العارفين :

اسْتَعِدِّى يا نفسُ للموت واسْعَىْ لنجاة فالحازم الْمُسْتَعِدُّ
قَدْ تبينتِ أنه لَيْسَ للحى خُلُودٌ وما منَ الموتِ بُدُّ
إنما أنت مُسْتعيرةٌ ما سَوْف تَرُدِّينَ والعَوَارِى ترد
أنت تَسهِينَ والحوادثُ لا تسهُو وتَلْهِينَ والمَنايا تَجِدُّ
أىُّ ملك فى الأرض أو أىُّ حظ لامرىءٍ حظُّهُ من الأرض لَحْدُ[1]
لا ترجِّى البقاء فى مَعْدِنِ المو تِ ودارٍ حتوفُها لك وِرْدُ
كيف يرجو امرؤ لَذَاذة أيا مٍ عليه الأنفاس فيها تعدُّ

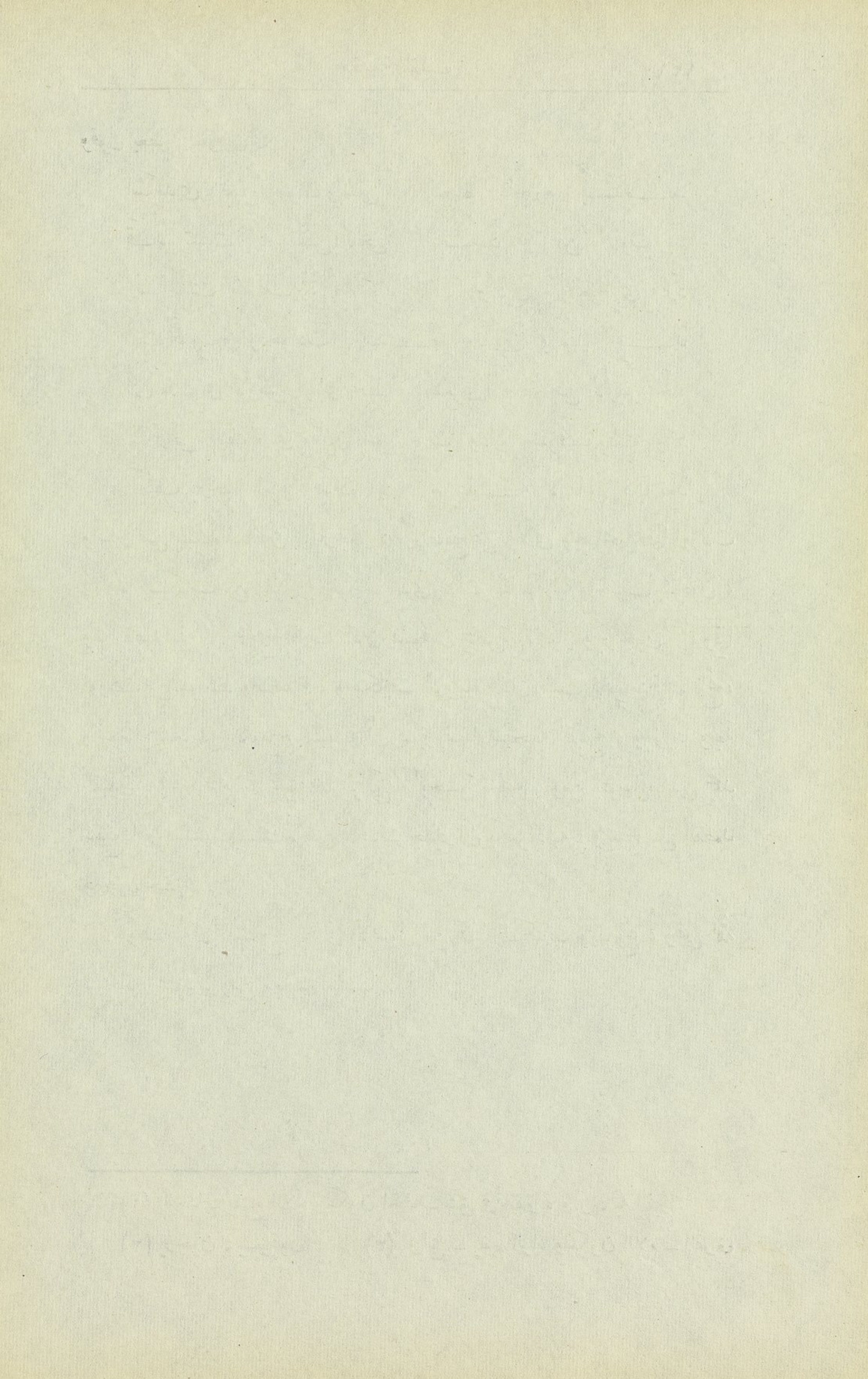
وأسأل من مُبْلِغ السائلين ما يرجون : أن يصفح عن زَلَّاتى ويسامحنى فيما أوردت فى هذا الكتاب من الهزل والمجون ، الذى جرَّت المناسبة إليه والحديثُ شجون ، وما القَصْد منه إلا ترويح قلوب الذين يسوقون عِيسَ الأسْمارِ ويُزْجُون[2] ، وفيما أوردت من المواعظ والنصائح ، وحكايات الأولياء الذين طيبُ زهرِ مناقبهم فائح ، والتوسُّل بمحاسن الأمداح النبوية أن يستر بفضله سبحانه القبائح ، ويُرِينا وجهَ القبول بلا اكتتام ، ويمنحنا الزُّلْفَى[3] وحسنَ الختام ، ومن يتوسل بالنبى محمد شفيع البرايا السيد السند الأسنى ، فذاك جدير أن يكفر ذنبه ، ويمنح نيل القصد والختم بالحسنى .

وهذا أوانُ الشروع ، فى الأصول من هذا الكتاب والفروع ، وعلى الله سبحانه أعتمد ، ومن مَعُونته أستمدّ .

---

(١) اللحد ـ بفتح اللام وسكون الحاء ـ شق فى القبر ، وأراد به القبر .

(٢) يزجون : يسوقون (٣) الزلفى ـ بضم الزاء وسكون اللام ـ القربى



القسم الاول

فيما يتعلق بالأندلس من الأخبار المترَعة الأكواب ،
والأنباء المنتحية صَوْبَ الصواب ، الرافلة من الإفادة
فى سوَابغ الأثواب ، وفيه ــ بحسب القَصْد
والاختصار ، وتحرِّى التوسط فى بعض
المواضع دون الاختصار ــ
ثمانيةٌ من الأبواب

البـاب الاول

فى وصف جزيرة الأندلس وحسن هوائها ، واعتدال مزاجها ووفور خيراتها واستوائها ، واشتمالها على كثير من المحاسن واحتوائها ، وكرم بُقْعتها التى سقَتهاسماء البركات بنافع أنوائها[١] ، وذكر بعض مآثرها المجلوّة الصُّوَر ، وتعداد كثير مما لها من البلدان والـكُوَر ، المستمدة من أضوائها ، فأقول :

أقوال العلماء فى مزايا الأندلس

محاسن الأندلس لاتُسْتَوْفَى بعبارة ، ومجارى فَضْلها لايشق غُباره ، وأنى تجارَى وهى الحائزة قَصَبَ السَّبق ، فى أقطار الغرب والشرق ؟.

قال ابن سعيد : إنمـا سميت بالأندلس بن طوبال بن يافث بن نوح ، لأنه نزلها ، كما أن أخاه سَبْتَ بن يافث نزل العُدْوة المقابلة لها ، و إليه تنسب سَبْته[٢] .

قال : وأهل الأندلس يحافظون على قوَام اللسان العربى ، لأنهم إمّا عرب أو متعربون ، انتهى .

وقال ابن غالب : إنه أندلس بن يافث ، والله تعالى أعلم.

وقال الوزير لسان الدين بن الخطيب ـ رحمه الله تعالى ! ـ فى بعض كلام له أجرى فيـه ذكر البلاد الأندلسية ، أعادها الله تعالى للإسلام ! ببركة المصطفى عليه من الله أفضـل الصلاة وأزكى السلام ، ما نصه : خَصَّ الله تعالى بلاد الأندلس من الرَّيْع وغَدَق السُّقْيا[٣] ، ولذاذة الأقوات ، وفَرَاهة الحيوان[٤] ، ودرور الفواكه ، وكثرة المياه ، وتبحر العُمْران ، وجودة اللباس ، وشرف الآنية ، وكثرة السلاح ، وصحة الهواء ، وابيضاض ألوان الإنسان ، ونُبْل الأذهان ،

(١) الأنواء : جمع نوء ، وأراد به المطر ، وإضافة النافع إلى الأنواء من إضافة الصفة للموصوف .

(٢) سبتة ـ بفتح السين وسكون الباء ـ بلدة مشهورة على بر البربر تقابل الأندلس

(٣) الغدق ـ بفتح الغين والدال جميعا ـ الماء الـكثير .

(٤) فراهة الحيوان : نشاطه وخفته .

وفنون الصنائع، وشهامة الطباع ، ونفوذ الإدراك[١] ، و إحكام التمدّن والاعتمار[٢] ، بما حُرِمَهُ الـكثيرُ من الأقطار مما سواها ، انتهى .

قال أبو عامر السلمى ، فى كتابه المسمى بدرر القلائد وغرر الفوائد : الأندلس من الإقليم الشامى ، وهو خير الأقاليم ، وأعدلها هواء وترابا ، وأعذبها ماء ، وأطيبها هواء وحيوانا ونباتا ، وهو أوسط الأقاليم ، وخير الأمور أوساطها ، انتهى .

قال أبو عبيد البكرى : الأندلس شامية فى طيبها وهوائها ، يمانية فى اعتدالها واستوائها ، هندية فى عِطْرِها وذكائها ، أهوازية فى عظم جِبَايتها ، صينية فى جواهر معادنها ، عَدَنية فى منافع سواحلها ، فيها آثار عظيمة لليونانيين أهل الحكمة وحاملى الفلسفة ، وكان من ملوكهم الذين أثّروا الآثار بالأندلس هرقلس ، وله الأثر فى الصنم بجزيرة قادس وصنم جليقية ، والأثر فى مدينة طرّكونة[٣] الذى لا نظير له .

مساحة بلاد الأندلس

قال المسعودى : بلاد الأندلس تكون مسيرةُ عمائرها ومدنها نحو شهرين ، ولهم من المدن الموصوفة نحو من أربعين مدينة ، انتهى باختصار .

ونحوه لابن اليسع إذ قال : طولها من أَرْبُونة إلى أَشْبُونة وهو قَطْع ستين يوما للفارس المجدّ ، وانتقد بأمرين : أحدهما : أنه يقتضى أن أَرْبُونة داخلة فى جزيرة الأندلس ، والصحيح أنها خارجة عنها ، والثانى أن قوله : « ستين يوما للفارس المجدّ » إعياء و إفراط ، وقد قال جماعة : إنها شهر ونصف .

قال ابن سعيد : وهذا يقرب إذا لم يكن للفارس المجدّ ، والصحيح ما نص عليه الشريف من أنها مسيرة شهر ، وكذا قال الحجارى ، وقد سألت المسافرين المحققين عن ذلك فعملوا حسابا بالمراحل الجيدة أفضى إلى نحو شهر بنيف قليل .

---

(١) الإدراك : أراد به الفهم ، ونفوذه : حدته وسرعة معرفته للمدركات

(٢) الاعتمار : أراد به التعمير .

(٣) طركونة — بفتح الطاء وتشديد الراء مفتوحة — بلدة بالأندلس متصلة بأعمال طرطوشة ، وهى مدينة قديمة على شاطىء البحر ، وبأعمال لبلة موضع آخر يقال له طركونة

قال الحجارى فى موضع من كتابه : إن طول الأندلس من الحاجز إلى أَشْبُونة ألف ميل ونيف ، اه .

وبالجملة فالمراد التقريب من غير مشاحة ، كما قاله ابن سعيد، وأطال فى ذلك ، ثم قال بعد كلام : ومسافة الحاجز الذى بين بحر الزُّقاق والبحر المحيط أربعون ميلا ، وهذا عرض الأندلس عند رأسها من جهة الشرق ، ولقلته سميت جزيرة وإلا فليست بجزيرة على الحقيقة لاتصال هذا القدر بالأرض الكبيرة ، وعرضُ جزيرة الأندلس فى مُوَسَّطها عند طُلَيْطِلَةَ ستة عشر يوما ، واتفقوا على أن جزيرة الأندلس مثلثة الشكل ، واختلفوا فى الركن الذى فى الشرق والجنوب فى حيز أَرْبُونَةَ ، فمن قال إنه فى أربونة وإن هذه المدينة تقابلها مدينة بَرْديل التى فى الركن الشرقى الشمالى أحمدُ بن محمد الرازى وابنُ حَيَّان ، وفى كلام غيرهما أنه فى جهة أربونة ، وحقق الأمر الشريف ، وهو أعرف بتلك الجهة لتردده فى الأسفار برا وبحرا إليها وتفرّغه لهذا الفن .

قال ابن سعيد : وسألت جماعة من علماء هذا الشأن فأخبرونى أن الصحيح ماذهب إليه الشريف، وأن أربونة وبَرْشِلُونة[1] غير داخلتين فى أرض الأندلس ، وأن الركن الموفى على بحر الزقاق بالمشرق بين بَرْشِلُونة وطرّكونة فى موضع يعرف بوادى زَنْلَقْطُو ، وهنالك الحاجز الذى يفصل بين الأندلس والأرض الكبيرة ذات الألسن الكثيرة ، وفى هذا المكان جبل البرت الفاصل فى الحاجز المذكور وفيه الأبواب التى فتحها ملك اليونانيين بالحديد والنار والخل ، ولم يكن للأندلس من الأرض الكبيرة قبل ذلك طريق فى البر ، وذكر الشريف أن هذه الأبواب

(١) قال ياقوت : «أربونة ـ بفتح أوله ويضم ، ثم السكون ، وضم الباء الموحدة ـ بلد في طرف الثغر من أرض الأندلس ، وبينها وبين قرطبة ـ على ماذكره ابن الفقيه ـ ألف ميل » اه . ولم يذكر برشلونة ، وذكرها صاحب الروض المعطار فقال « برشلونة : مدينة للروم ، بينها وبين طركونة خمسون ميلا ، وبرشلونة على البحر ومرساها لا تدخله المراكب إلا عن معرفة » اه باختصار.

يقع فى مقابلتها فى بحر الزقاق البحرُ الذى بين جزيرتى مَيُورْقَةَ وَمنُورْقَةَ[١] ، وقد أخبر بذلك جمهور المسافرين لتلك الناحية ، ومسافة هذا الجبل الحاجز بين الركن الجنوبى والركن الشمالى أربعون ميلا .

قال : وشمال الركن المذكور عند مدينة بَرْدِيلَ ، وهى من مدن الإفرنجة مطلة على البحر المحيط فى شمال الأندلس ، قال : ويتقهقر البر بعد تميز هذا الركن إلى الشمال فى بلاد الفرنجة ، ولهم به جزائر كثيرة ، ودوكرا من الركن الشمالى عند شنت ياقوه من ساحل الجلالقة فى شمال الأندلس ، حيث تبتدىء جزيرة برطانية الكبيرة فيتصوّر هنالك بحر داخل بين أرضين ، من الناس من يجعله بحرا منفردا خارجا من البحر المحيط لطوله إلى الركن المتقدم الذكر عندمدينة بَرْديل .

وذكر الشريف أن عند شنت ياقوه فى هذا الركن المذكور على جبل بمجمع البحرين صنما مطلا مشبها بصنم قادس

والركن الثالث بمقربة من جبل الأغن حيث صنم قادس ، والجبل المذكور يدخل من غربه مع جنوبه بحر الزقاق من البحر المحيط مارّا مع ساحل الأندلس الجنوبى إلى جبل البرت المذكور ، انتهى والكلام فى مثل هذا طويل الذيل .

قال الشيخ أحمد بن محمد بن موسى الرازى : بلد الأندلس هو آخر الإقليم الرابع إلى المغرب ، وهو عند الحكماء بلد كريم البقعة ، طيب التربة ، خِصْبُ الجناب ، مُنْبجس الأنهار الغزار والعيون العِذَاب ، قليل الهوام ذوات السموم ، معتدل الهواء والجوّ والنسيم ، ربيعه وخريفه ومَشْتاه ومصيفه على قدر من الاعتدال ، وسِطَة من

---

(١) قال ياقوت : « ميورقة ــ بالفتح ثم الضم وسكون الواو والراء يلتقى فيه ساكنان ، وقاف ــ جزيرة فى شرقى الأندلس بالقرب منها جزيرة يقال لها منورقة ــ بالنون ــ كانت قاعدة مجاهد العامرى » اه ولم يزد فى ترجمة « منورقة » شيئا عن أنها قريب من ميورقة ، وقال في الروض « هي جزيرة تقابل برشلونة بينهما مجرى وبينهما وبين سرذانية أربعة مجار ، وهى إحدى جزيرتى ميورقة ، وهما منرقة هذه ويابسة » اه باختصار

Majorca

الحال ، لا يتولد فى أحدها فصل يتولد منه فيما يتلوه انتقاص ، تتصل فواكهه أكثر الأزمنة وتدوم متلاحقة غير مفقودة ، أمّا الساحل منه ونواحيه فيبادر بباكوره ، وأما الثغر وجهاته والجبال المخصوصة ببرد الهواء فيتأخر بالكثير من ثمره ، فمادة الخيرات بالبلد متمادية فى كل الأحيان ، وفواكهه على الجملة غير معدومة فى كل أوان . وله خواصّ فى كرم النبات توافق فى بعضها أرضَ الهند المخصوصة بكرم النبات وجواهره : منها أن المحلب ـ وهو المقدّم فى الأفاويه[1] والمفضل فى أنواع الأشنان ـ لا ينبت بشىء من الأرض إلا بالهند والأندلس .

وللأندلس المدن الحصينة ، والمعاقل المنيعة ، والقلاع الحريزة، والمصانع الجليلة، ولها البر والبحر ، والسهل والوَعْر ، وشكلها مثلث ، وهى معتمدة على ثلاثة أركان : الأول : هو الموضع الذى فيه صنم قادس المشهور بالأندلس ، ومنه مخرج البحر المتوسط الشامى الآخذ بقبلى الأندلس ، والركن الثانى هو بشرقى الأندلس بين مدينة بَرْبُونَةَ ومدينة بَرْدِيلَ مما بأيدى الفرنجة اليوم بإزاء جزيرتى مَيُورقة ومَنُورقة بمجاورة من البحرين البحر المحيط والبحر المتوسط ، وبينهما البر الذى يعرف بالأبواب ، وهو المدخل إلى بلاد الأندلس من الأرض الكبيرة على بلد إفرنجة، ومسافته بين البحرين مسيرة يومين ، ومدينة بَرْبُونة تقابل البحر المحيط ، والركن الثالث منها هو ما بين الجوف والغرب من حيز جِلِّيقية ، حيث الجبل الموفى على البحر ، وفيها الصنم العالى المشبه بصنم قادس ، وهو الطالع على بلد برطانية .

قال : الأندلس أندلسان فى اختلاف هبوب أرياحها ومواقع أمطارها وجريان أنهارها : أندلس غربى ، وَأندلس شرقى ، فالغربى منهما ماجرت أودِيته إلى البحر

---

(١) الأفاويه : جمع الأفواه الذى هو جمع فوه ـ بالضم ـ وهى التوابل ، ونوافج الطيب ، وقال الجوهرى : « الأفواه : ما يعالج به الطيب ، كما أن التوابل ما تعالج به الأطعمة » وتقول « عند فلان أفواه الطيب » و « أفاويه الطيب » وتقول « قد أصاب المال من أفواه البقل » تريد من أخلاطه وأنواعه ، وقال الشاعر :

* ومن كل أفواه البقول بها بقل *

المحيط الغربى، وتمطر بالرياح الغربية ، ومبتدأ هذا الحوز من ناحية المشرق مع المفازة الخارجة مع الجوف إلى بلد شَنْتَمَرِيَّة طالعاً إلى حَوْز إغريطة المجاورة لطليطلة مائلا إلى الغرب ومُجاوراً للبحر المتوسط الموازى لِقَرْطَاجَنَّةِ الخلفاء[1] التى من بلد لُورَقَة ، والحوز الشرقى المعروف بالأندلس الأقصى، وتجرى أوديته إلى الشرق، وأمطاره بالريح الشرقية ، وهو من حدّ جبل البشكنش ، هابطا مع وادى إبرة إلى بلد شنت مرية ، ومن جوف هذا البحر وغربه المحيط ، وفى القبلة منه البحرُ الغربى الذى منه يجرى البحر المتوسط الخارج إلى بلد الشام ، وهو البحر المسمى ببحر تيران ، ومعناه الذى يشق دائرة الأرض ، ويسمى البحر الكبير ، انتهى .

قال أبو بكرٍ عبدُالله بن عبدالحكم المعروف بابن النظام : بلد الأندلس عند علماء أهله أندلسان : فالأندلس الشرقى منه ما صَبَّت أوديته إلى البحر الرومى المتوسط المتصاعد من أسفل أرض الأندلس إلى المشرق ، وذلك ما بين مدينة تُدْمِيرَ إلى سَرَقسطة ، والأندلس الغربى ما صَبَّت أوديته إلى البحر الكبير المعروف بالمحيط أسفل من ذلك الحدّ إلى ساحل المغرب ، فالشرقى منهما يُمْطَرُ بالريح الشرقية ، ويصلح عليها، والغرب يُمْطَرُ بالريح الغربية وبها صلاحه ، وجبالُه هابطة إلى الغرب جَبَلاً بعد جبل ، وإنما قسمته الأوائل جزءين لاختلافهما فى حال أمطارها ، وذلك أنه مهما استحكمت الريحُ الغربية كثر مطر الأندلس الغربى وقَحِطَ الأندلس الشرقى ، ومتى استحكمت الريح الشرقية كثر مطر الأندلس الشرقى وقَحِطَ الغربى، وأودية هذا القسم تجرى من الشرق إلى الغرب بين هذه الجبال ، وجبال الأندلس الغربى تمتدّ إلى الشرق جبلا بعد جبل تقطع من الجوف إلى القبلة ، والأودية

---

(١) في ب ، ز « قرطاجنة الحلفا » محرفا عما أثبتناه مستندين إلى أن صاحب الروض المعطار سماها « قرطاجنة الحلفاء » ولم يذكرها بدون الإضافة ، وقال عنها « قرطاجنة الحلفاء بالأندلس أيضا من كورة تدمير ، وهى فرضة مدينة مرسية ، وهى مدينة قديمة أزلية ، لها ميناء ترسو فيها المراكب الكبار والصغار » اهـ باختصار

التى تخرج من تلك الجبال يقطع بعضها إلى القبلة و بعضها إلى الشرق ، وتنصب كلها إلى البحر المحيط بالأندلس القاطع إلى الشام ، وهو البحر الرومى ، وما كان من بلاد جوفى الأندلس من بلاد جِلِّيقِيَّة وما يليها فإن أوديته تنصب إلى البحر الكبير المحيط بناحية الجوف .

وصفة الأندلس شكل مركن [(١)] على مثال الشكل المثلث : ركنها الواحد فيما بين الجنوب والمغرب حيث اجتماع البحرين عند صنم قادس ، وركنها الثانى فى بلد جِلِّيقِيَّة حيث الصنم المشبه صنم قادس مقابل جزيرة برطانية ، وركنها الثالث بين مدينة بَرْبونة ومدينة بَرْديل من بلد الفرنجة بحيث يقرب البَحْرُ المحيط من البحر الشامى المتوسط ، فيكادان يجتمعان فى ذلك الموضع ، فيصير بلد الأندلس جزيرة بينهما فى الحقيقة ، لولا أنه يبقى بينهما برزخ برية صحراء وعمارة مسافة مسيرة يوم للراكب ، منه المدخلُ إلى الأرض الكبيرة التى يقال لها الأبواب ، ومن قِبَله يتصل بلد الأندلس بتلك البلاد المعروفة بالأرض الكبيرة ذات الألسن المختلفة

أول من سكن الأندلس

قال : وأول مَنْ سكن بالأندلس على قديم الأيام فيما نقله الأخباريون من بعد عهد الطوفان على مايذكره علماء عجمها قوم يعرفون بالأندلش — معجمة الشين — بهم سمى المكان ، فعرب فيما بعد بالسين غير المعجمة ، كانوا الذين عَمَروها وتناسلوا فيها وتداولوا ملكها دهراً ، على دين التمجس والإهمال والإفساد فى الأرض ، ثم أخذهم الله بذنوبهم ، فحبس المطر عنهم ، ووالى القَحْطَ عليهم ، وأعطش بلادهم حتى نضبت مياهها ، وغارت عيونها ، و يبست أنهارها ، و بادت أشجارها ، فهلك أكثرهم ، وفَرَّ مَنْ قدر على الفرار منهم ، فأقفرت الأندلس منهم ، و بقيت خالية فيما يزعمون مائة سنة و بضع عشرة سنة ، وذلك من حدّ بلد الفرنجة إلى حدّ بحر الغرب الأخضر ، وكان عدّة ماعمرتها هذه الأمة البائدة مائة عام و بضع عشرة سنة

---

(١) شكل مركن : أراد أنه ذو أركان

ثم ابتعث الله لعمارتها الأفارقة[١]، فدخل إليها بعد إقفارها تلك المدّة الطويلة قومٌ منهم أجْلاهُم ملك إفريقية تخففا منهم لإمحالٍ توالى على أهل مملكته، وتردد عليهم حتى كاد يفنيهم، فحمل منهم خلقاً فى السفن مع قائد من قبله يدعى أبْطِرِيقس فأرْسَوْا بريف الأندلس الغربى، واحتلوا بجزيرة قادس، فأصابوا الأندلس قد أمطرت وأخصبت، فجرت أنهارها، وانفجرت عيونها، وحييت أشجارها، فنزلوا الأندلس مغتبطين، وسكنوها معتمرين[٢]، وتوالدوا فيها فكثروا واستوسعوا فى عمارة الأرض ما بين الساحل الذى أرْسَوْا فيه بغربيها إلى بلد الإفرنجة من شرقيها، ونصبوا من أنفسهم ملوكا عليهم ضبطوا أمرهم وتوالوا على إقامة دولتهم، وهم ـ مع ذلك ـ على ديانة من قبلهم من الجاهلية، وكانت دار مملكتهم طالقة الخراب اليوم من أرض إشبيلية اخترعها ملوكهم وسكنوها، فاتسق ملكهم بالأندلس مائة وسبعة وخمسين عاما إلى أن أهلكهم الله تعالى، ونسخهم بعَجَم رومة، بعد أن ملك من هؤلاء الأفارقة[١] فى مدّتهم تلك أحد عشر ملكا، ثم صار ملك الأندلس بعدهم إلى عجم رومة وملكهم إشبان بن طيطش، وباسمه سميت الأندلس إشبانية، وذكر بعضهم أن اسمه أصبهان فأحيل بلسان العجم، وقيل: بل كان مولده بأصبهان فغلب اسمها عليه، وهو الذى بنى إشبيلية، وكان إشبانية اسماً خالصاً لبلد إشبيلية الذى كان ينزله إشبان هذا، ثم غلب الاسم بعده على الأندلس كله، فالعجم الآن يسمونه إشبانية لآثار إشبان هذا فيه، وكان أحد الملوك الذين ملكوا أقطار الدنيا فيما زعموا، وكان غَزَا الأفارقة عند ماسلطه الله عليهم فى جموعه، ففض عساكرهم، وأثخن فيهم[١]،

---

(١) الأفارقة : جمع إفريقى ، وهو المنسوب إلى إفريقية ، وهى ما تسمى اليوم بتونس

(٢) معتمرين : يريد أنهم على نية عمارتها

(٣) أثخن فيهم : أراد أكثر فيهم من القتل

ونزل عليهم بقاعدتهم طالقة وقد تحصنوا فيها منه ، فابتنى عليهم مدينة إشبيلية اليوم ، واتصل حصره وقتاله لهم حتى فتحها الله عليه ، وغلبهم ، واستوت له مملكة الأندلس بأسْرها ، ودَانَ له مَنْ فيها[١] ، فهدم مدينة طالقة ، ونقل رخامها وآلاتها إلى مدينة إشبيلية ، فاستتم بناءها ، واتخذها دار مملكته ، واستغلظ سلطانه في الأرض[٢] ، وكثرت جموعه ، فعلا وعظم عتوّه ، ثم غزا إيليا — وهى القدس الشريف — من إشبيلية بعد سنتين من ملكه ، خرج إليها فى السفن فغنمها وهدمها ، وقتل فيها من اليهود مائة ألف ، واسترق مائة ألف ، ونقل رخام إيليا وآلاتها إلى الأندلس ، وقهر الأعداء ، واشتدّ سلطانه ، انتهى .

غرائب ما أصيب بالاندلس عند الفتح

وذكر بعض المؤرخين أن الغرائب التى أصيبت فى مغانم الأندلس أيام فتحها كمائدة سليمان عليه الصلاة والسلام التى ألفاها طارق بن زياد بكنيسة طليطلة وقليلة الدر التى ألفاها موسى بن نُصَير بكنيسة ماردة وغيرهما من طرائف الذخائر إنما كانت مما صار لصاحب الأندلس من غنيمة بيت المقدس ، إذ حضر فتحها مع بُخْتنصر ، وكان اسم ذلك الملك بِرْيَان ، وفى سهمه وقع ذلك ومثله مما كانت الجن تأتى به نبى الله سليمان ، على نبينا وعليه وعلى جميع الأنبياء الصلاة والسلام ! انتهى .

وقال غير واحد من المؤرخين : كان أهل المغرب الأقصى يُضَرُّون بأهل الأندلس[٣] ، لاتصال الأرض ، ويَلْقَوْنَ منهم الجَهْد الجهيد فى كل وقت ، إلى أن اجتاز بهم الإسكندر ، فشكوا حالهم إليه ، فأحضر المهندسين ، وحضر إلى الزقاق ، فأمر المهندسين بوزن سطح الماء من المحيط والبحر الشامى ، فوجدوا المحيط يعلو البحر الشامى بشىء يسير ، فأمر برفع البلاد التى على ساحل البحر الشامى ، ونقلها

---

(١) دان له من فيها : خضعوا لأمره وحكمه

(٢) استغلظ سلطانه : قوى نفوذه واشتد

(٣) يضرون بأهل الأندلس : يأتيهم الضر من قبلهم

من الحضيض إلى الأعلى ، ثم أمر بحَفْر ما بين طَنْجة و بلاد الأندلس من الأرض ، فحفرت حتى ظهرت الجبال السفلية ، و بنى عليها رصيفا بالحجر والجيار بناء محكما وجعل طوله اثنى عشر ميلا ، وهى المسافة التى كانت بين البحرين ، و بنى رصيفاً آخر يقابله من ناحية طَنْجة ، وجعل بين الرصيفين سَعَة ستة أميال ، فلما كمل الرصيفان حفر من جهة البحر الأعظم ، وأطلق فَمَ الماء بين الرصيفين ، فدخل فى البحر الشامى ، ثم فاض ماؤه ، فأغرق مُدُنا كثيرة ، وأهلك أمما عظيمة كانت على الشطين ، وطفا الماء على الرصيفين إحدى عشرة قامة ، فأما الرصيف الذى يلى بلاد الأندلس فإنه يظهر فى بعض الأوقات إذا نقص الماء ظهوراً بينا مستقيما على خط واحد ، وأهل الجزيرتين يسمونه القنطرة ، وأما الرصيف الذى من جهة العُدْوة فإن الماء حمله فى صدره ، واحتفر ما خلفه من الأرض اثنى عشر ميلا ، وعلى طرفه من جهة المغرب قصر الجواز وسَبْتة وطَنْجة ، وعلى طرفه من الناحية الأخرى جبل طارق بن زياد وجزيرة طريف وغيرهما والجزيرة الخضراء ، و بين سَبْتة والجزيرة الخضراء عرض البحر ، انتهى ملخصا . وقد تكرّر بعضه مع ما جلبناه ، والعذر بين لارتباط الكلام بعضه ببعض .

وقال ابن سعيد : ذكر الشريف أنْ لاحظ لأرض الأندلس فى الإقليم الثالث ، قال : ويمر بجزيرة الأندلس الإقليم الرابع على ساحلها الجنوبى وما قاربه من قُرْطُبة و إشبيلية ومُرْسِية و بَلَنْسِية ، ثم يمر على جزيرة صِقِلية وعلى ما فى سَمْتها من الجزائر ، والشمس مدبرة له .

والإقليم الخامس يمر على طُلَيْطلة وسَرَقُسْطة وما فى سَمْتهما إلى بلاد أَرْغُون التى فى جنوبيها بَرْشِلُونة ، ثم يمر على رومية و بلادها ، ويشق بحر البنادقة ، ثم يمر على القسطنطينية ، ومدبرته الزُّهرة .

والسادس يمر على ساحل الأندلس الشمالى الذى على البحر المحيط وما قاربه و بعض البلاد الداخلة فى قَشْتَالة و بُرْتُقال وما فى سَمْتها ، وعلى بلاد بُرْجَان

والصقالبة والروس، ومدبره عُطارد .

ويمر الإقليم السابع فى البحر المحيط الذى فى شمالىّ الأندلس إلى جزيرة انقلطرة وغيرها من الجزائر ومافى سَمْتها من بلاد الصقالبة و بُرْجَان . قال البيهقى : وفيه تقع جزيرة تولى وجزيرتا أجبال والنساء و بعض بلاد الروس الداخلة فى الشمال والبلغار ، ومدبره القمر ، انتهى .

وقال بعض العلماء : إن النصارى حُرموا جنة الآخرة فأعطاهم الله جنة الدنيا بستانا متصلا من البحر المحيط بالأندلس إلى خليج القسطنطينية ، وعندهم عموم شاه بلوط والبندق والجوز والفستق وغير ذلك مما يكون أكثر وأمكن فى الأقاليم الباردة ، والتمر عندهم معدوم ، وكذا الموز وقصب السكر ، وربما يكون شىء من ذلك فى الساحل ، لأن هواء البحر يدفئ ، انتهى .

إشبان والخضر عليه السلام

قال ابن حيان فى المقتبس : ذكر رواة العجم أن الخَضِر عليه السلام وقف على إشبان المذكور وهو يَحْرث الأرض بفُدُن له أيام حراثته[1] ، فقال له : يا إشبان ، إنك لذوشان ، وسوف يُحْظيك زمان[2] ، و يعليك سلطان ، فإذا أنت غلبت على إيليا فارفقْ بذرية الأنبياء ، فقال له إشبان : أساخر بى[3] رحمك الله ؟! أنى يكون هذا منى وأنا ضعيف ممتَهن حقير فقير ليس مثلى ينال السلطان ؟ فقال له : قد قدّر ذلك فيك من قدّر فى عصاك اليابسة ما تراه ، فنظر إشبان إلى عصاه ، فإذا بها قد أورقتْ[4] ، فريعَ لما رأى من الآية[5] ، وذهب الخضر عنه ، وقد وقع الكلام

---

(١) الفدن ـ بضم الفاء والدال ـ جمع فدان ، بزنة سحاب وسحب ، ويقال « فدّان » بتشديد الدال ، وجمعه فدادين ، والفدان : آلة يربط فيها ثوران تحرث بها الأرض ، وقيل : الفدان هو الثوران يقرنان للحرث ، ولا يقال للواحد منهما فدان

(٢) يحظيك : يكسبك الحظ والبخت (٣) فى الروض « أساخر أنت »

(٤) أورقت : أراد اخضرت فى يده وصارت ذات ورق

(٥) ريع : خاف ، والآية : العلامة

بخَلَده [١]، ووفرت في نفسه الثقة بكونه ، فترك الامتهان من وقته ، وداخَلَ الناس ، وصحب أهل البأس منهم ، وسَمَابه جَدُّه [٢] فارتقى فى طاب السلطان حتى أدرك منه عظيما ، وكان منه ما كان ، ثم أتى عليه ما أتى على القرون قبله ، وكان ملكه كله عشرين سنة ، وتمادى ملك الإشبانيين بعده إلى أن مَلَكَ منهم الأندلس خمسة وخمسون ملكا .

تغلب عجم رومة على الأندلس

ثم دخل على هؤلاء الإشبانيين من عَجَم رومة أمة يدعون البشتولقات [٣] ، وملكهم طلويش بن بيطة ، وذلك زمن بَعْث المسيح عيسى بن مريم عليه السلام! أتوا الأندلس من قبل رومة ، وكانوا يملكون إفرنجة معها ، و يبعثون عمالهم إليها فاتخذوا دار مملكتهم بالأندلس مدينة مَارِدَةَ ، واستولوا على مملكة الأندلس ، واتصل ملكهم بها مدَّة إلى أن ملك منهم سبعة وعشرون ملكا .

القوط

ثم دخل على هؤلاء البشتولقاتِ [١] أمّة القُوط مع ملك لهم ، فغلبوا على الأندلس ، واقتطعوها من يومئذ من صاحب رومة ، وتفردوا بسلطانهم ، واتخذوا مدينة طُلَيطلة دار مملكتهم ، وأقروا بها سرير ملكهم ، فبقى بأشبيلية عَلَم الإشبانيين ورياسة أوليتهم .

النصرانية بالأندلس

وقد كان عيسى المسيحُ عليه السلام ، بعث الحَوَاريين فى الأرض يَدْعون الخلق إلى ديانته ، فاختلف الناس عليهم ، وقتلوا بعضهم ، واستجاب لهم كثير منهم ، وكان من أسرعهم إجابة لمن جاءه من هؤلاء الحواريين خشندش [٤] ملك القُوط ، فتنصر ، ودعا قومه إلى النصرانية ، وكان من صميم أعاظمهم وخير من تنصر من

---

(١) خلده ـ بفتح الخاء واللام ـ باله ، ونفسه

(٢) الجد ـ بفتح الجيم ـ الحظ والبخت

(٣) هكذا فى أصول هذا الكتاب فى كل المواضع ، وفى الرض « الشبونقات »

(٤) سماه فى الروض « دخشوش » وذكر أنه أول من تنصر من القوط

ملوكهم ، وأجمعوا على أنه لم يكن فيهم أعدل منه حكما ، ولا أرشد رأيا ، ولا أحسن سيرة ، ولا أجود تدبيرا ، فكان الذى أصَّل النصرانية فى مملكته ، ومضى أهلُها على سنته إلى اليوم ، وحكموا بها ، والإنجيلات فى[1] المصاحف الأربعة التى يختلفون فيها من انتساخه وجَمْعه وتثقيفه ، فتناسقت ملوك القُوط بالأندلس بعده إلى أن غلبتهم العربُ عليها ، وأظهر الله تعالى دين الإسلام على جميع الأديان.

فوقع فى تواريخ العجم القديمة أن عدّة ملوك هؤلاء القُوط بالأندلس من عهد أتاناوينوس الذى ملك فى السنة الخامسة من مملكة فلبش القيصرى لمضى أربعمائة وسبع من تاريخ الصفر المشهور عند العجم إلى عهد لُذْرِيقَ آخرهم[2] الذى ملك فى السنة التاسعة والأربعين وسبعمائة من تاريخ الصفر ، وهو الذى دخلت عليه العرب فأزالت دولة القوط ، ستة وثلاثون ملكا ، وأن مدّة أيام ملكهم بالأندلس ثلثمائة واثنتان وأربعون سنة ، انتهى .

وقال جماعة : إن القوط غير البشتولقات ، وإن البشتولقات من عجم رومة ، وإنهم جعلوا دار ملكهم ماردة ، واتصل ملكهم إلى أن ملك منهم سبعة وعشرون ملكا ، ثم دخل عليهم القوط ، واتخذوا طُلَيْطُلة دار مملكة ، ثم ذكر تنصر مَلِكهم خشندش مثل ما تقدّم ، ثم ذكر أن عدّة ملوك القوط ستة وثلاثون ملكا .

وذكر الرازى أن القوط من ولد يأجوج بن يافث بن نوح ، وقيل غير ذلك ، انتهى .

وذكر الرازى فى موضع آخر نحو ما تقدم وزيادة ، ونصه : أن الأندلس

---

(١) فى الروض «والإنجيلات أو المصاحف الأربعة من انتساخه وجمعه وتثقيفه»

(٢) قال فى الروض : « ولذريق لم يكن من أبناء الملوك ولا بصحيح النسب فى القوط ، وإنما نال الملك من طريق الغصب والتسور» اهـ

فى آخر الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة التى تقدم ذكرها التى هى رُبْع معمور الدنيا فهى موسطة من البلدان، كريمة البقعة ، بطبع الخلقة ، طيبة التربة ، مُخْصبة القاعة[١]، منبجسة العيون الثِّرار[٢]، منفجرة الأنهار الغِزار ، قليلة الهوام ذواتِ السموم ، معتدلة الهواء أكْثَرَ الأزمان لايزيد قَيْظها زيادة منكرة تضر بالأبدان وكذا سائر فصولها فى أعم سنيها تأتى على قدر من الاعتدال ، وتوسُّط من الحال ، وفواكهها تتصل طول الزمان ، فلا تكاد تعدم ، لأن الساحل ونواحيه يبادر بباكورهِ ، كما أن الثغر وجهاته والجبال التى يخصُّها برد الهواء وكثافة الجوّ تستأخر بمافيها من ذلك ، حتى يكاد طرفا فاكهتها يلتقيان ، فمادة الخيرات فيها متصلة كلَّ أوان ، ومن بحرها بجهة الغرب يخرج العنبر الجيد المقدّم على أجناسه فى الطيب والصبر على النار ، وبها شجر المحلب المعدود فى الأفاويه المقدم فى أنواع الأشنان كثير واسع ، وقد زعموا أنه لا يكون إلا بالهند وبها فقط ، ولها خواص نباتية يكثر تعدادها ، انتهى .

وقد ذكر غيره تفصيل بعض ذلك فقال : يوجد فى ناحية دَلاَية من إقليم البشرة عود الأَلَنْجُوج[٣]، لا يفوقه العود الهندى ذكاءً وعطرَ رائحةٍ ، وقد سيق منه إلى خَيْران الصقلبى صاحب المَرِية ، وأن أصل مَنْبِته كان بين أحجار هنالك ، وبأكْشُونية جبلٌ كثيراً ما يتضوّع ، ريحُه ريح العود الذكى إذا أرسلت فيه النار ، وببحر شَذُونة يوجد العنبر الطيب الغربى ، وفى جبل مُنْت لِيُون المحلب ، ويوجد بالأندلس القُسْط الطيب[٤]، والسنبل الطيب ، والجَنْطَيانة تحمل من الأندلس إلى جميع الآفاق ، وهو عُقار رفيع ، والمر الطيب بقلعة أيوب ، وأطيبُ كهرباء الأرض

---

(١) القاعة : أراد به السهل من أرضها

(٢) الثرار : جمع ثرة ، وهى العين الغزيرة الماء

(٣) الألنجوج : عود يتبخر به ، ويقال فيه: يلنجوج، وألنجج ، ويلنجج

(٤) القسط ـ بالضم ـ عود هندى وعربى يتداوى به

ذكر بعض حاصلات الأندلس ومعادنها

بشذونة ، درهم منها يَعْدِل دراهم من المجلوبة ، وأطيب القرمز قرمز الأندلس ، وأكثر ما يكون بنواحي إشبيلية ولَبْلَة وشذونة وبَلَنْسية ، ومن الأندلس يحمل إلى الآفاق ، وبناحيـة لورقة من عمـل تُدْمِير يكون حجر اللازَوَرْد الجيد ، وقد يوجد فى غيرها ، وعلى مقربة من حضرة لُورَقَة من عمل قُرْطُبة معدن البلور ، وقد يوجَدُ بجبل شحيران وهو شرقى بيرة ، وحجر النجادى يوجد بناحية مدينة الأشبونة فى جبل هنالك يتلألأ فيه ليلا كالسراج ، والياقوت الأحمر يوجد بناحية حصن منت ميور من كورة مَالَقَة إلا أنه دقيق جدًّا لا يصلح للاستعمال لصغره ، ويوجد حجر يشبه الياقوت الأحمر بناحيـة بَجَّانة فى خندق يعرف بقرية ناشرة أشكالا مختلفة كأنه مصبوغ ، حَسَن اللون ، صَبُور على النار ، وحجر المغناطيس الجاذب للحديد يوجد فى كورة تُدْمير ، وحجر الشادنة بجبال قرطبـة كثير ، ويستعمل ذلك فى التذاهيب ، وحجر اليهودى فى ناحيـة حصن البونت ، وهو أنفع شىء للحَصَاة ، وحجر المرقشينا الذهبية فى جبال أُبَّدَة لا نظير لها فى الدنيا ، ومن الأندلس تحمل إلى جميع الآفاق لفضلها ، والمغنيسيا بالأندلس كثير ، وكذلك حجر الطَّلْق ، ويوجد حجر اللؤلؤ بمدينة بَرْشِلُونَة إلا أنه جامد اللون ، ويوجد المرجان بساحل بَيْرة من عمل المَرِية ، مالقط منه فى أقل من شهر نحو ثمانين ربعا ، ومعدن الذهب بنهر لاردة يُجمع منـه كثير ، ويجمع أيضا فى ساحل الأشبونة ، ومعادن الفضة فى الأندلس كثيرة فى كورة تُدْمير وجبال بَجَّة ببَجَّانة ، وبإقليم كرتش من عمل قرطبة معدن فضة جليل ، وبأشكونية معدن القصدير الذى لا مثيل له يشبه الفضة ، وله معادن بناحية إفرنجة وليون ، ومعدن الزئبق فى جبل البرانس ، ومن هنالك يتجهز به إلى الآفاق ، ومعادن الـكبريت الأحمر والأصفر بالأندلس كثيرة ، ومعدن التوتيا الطيبة بساحل البيرة بقرية تسمى بَطِرْنَة ، وهى أزكى توتيا وأقواها فى صبغ النحاس ، وبجبال قرطبـة توتيا ، وليست كالبطرنية ، ومعدن الـكحل المشبه بالأصفهانى بناحية مدينة طُرْطُوشة يحمل منهـا إلى جميع البلاد ، ومعادن الشبوب

والحديد والنحاس بالأندلس أكثر من أن تحصى ، وما ذكرت هنا وإن تكرّر بعضه مع ما سبق أو يأتى فهو لجمع النظائر، وما لم نذكره أكثر، والله تعالى أعلم .

من خواص طليطلة

ومن خواص طليطلة : أن حنطتها لا تتغير ولا تسوّس على طول السنين، يتوارثها الخلف عن السلف ، وزعفران طليطلة هو الذى يعم البلاد ويتجهز به الرفاق إلى الآفاق ، وكذلك الصبغ السماوى ، انتهى .

المسعودى يذكر بعض حاصلات الأندلس ومعادنها

وقال المسعودى فى « مروج الذهب » بعد كلام ما نصه : والعنبر كثير ببحر الأندلس ، يجهز إلى مصر وغيرها ، ويحمل إلى قرطبة من ساحل لها يقال له شنترين وشذونة ، تبلغ الأوقية منه بالأندلس ثلاثة مثاقيل ذهبا ، والأوقية بالبغدادى وتباع بمصر أوقيته بعشرين دينارا ، وهو عنبر جيد ، ويمكن أن يكون هذا العنبر الواقع إلى بحر الروم ضربته الأمواج من بحر الأندلس إلى هذا البحر لاتصال الماء ، وبالأندلس معدن عظيم للفضة ، ومعدن للزئبق ليس بالجيد يجهز إلى سائر بلاد الإسلام والكفر ، وكذلك يحمل من بلاد الأندلس الزعفران وعروق الزنجبيل ، وأصول الطيب خمسة أصناف : المسك ، والكافور ، والعود ، والعنبر، والزعفران، وكلها تحمل من أرض الهند وما اتصل بها إلا الزعفران والعنبر، انتهى، وهو وإن تكرّر مع ما ذكرته عن غيره فلا يخلو من فائدة ، والله تعالى أعلم .

وذكر البعض أن فى بلاد الأندلس جميع المعادن الكائنات عن النيرات السبعة وهى : الرصاص من زحل ، والقصدير الأبيض من المشترى ، والحديد من قسم المريخ ، والذهب من قسم الشمس ، والنحاس من الزهرة ، والزئبق من عُطَارِد ، والفضة من القمر .

وصف أهل الأندلس

وذكر الكاتب إبراهيم بن القاسم القَرَوى المعروف بالرقيق بَلَدَ الأندلس ، فقال : أهله أصحاب جهاد متصل يحاربون من أهل الشرك المحيطين بهم أمّة يدعون الجلالقة يُتَاخمون حَوْزهم ما بين غرب إلى شرق ، قوم لهم شدّة ولهم جمال وحسن وجوه ، فأكثر رقيقهم الموصوفين بالجمال والفَرَاهة منهم ليس بينهم و بينهم

دَرْب ، فالحرب متصلة بينهم ، ما لم تقع هدنة ، و يحاربون بالأفق الشرقى أمّة يقال لهم الفرنجة هم أشد عليهم من جميع من يحاربونه من عدوّهم ، إذ كانوا خلقا عظيما فى بلاد كثيرة واسعة جليلة متصلة العمارة آهلة تدعى الأرض الكبيرة ، هم أكثر عددا من الجليقيين وأشدّ بأساً وأحدّ شوكة وأعظم أمدادا ، وهذه الأمة يحاربون أمّة الصقالبة المتصلين بأرضهم لمخالفتهم إياهم فى الديانة فيَسْبُونَهم و يبيعون رقيقهم بأرض الأندلس ، فلهم هنالك كثرة ، وتَخْصِيهم للفرنجة يهودُ ذمّتهم الذين بأرضهم ، وفى ثغر المسلمين المتصل بهم ، فيحمل خِصْيانهم من هنالك إلى سائر البلاد ، وقد تعلم الخِصاء قومٌ من المسلمين هناك ، فصاروا يخصون و يستحلون المُثْلَة.

قال ابن سعيد : ومخرج بحر الروم المتصاعد إلى الشام هو بساحل الأندلس الغربى بمكان يقال له الخضراء مابين طَنْجَة من أرض المغرب و بين الأندلس فيكون مقدار عرضه هناك كما زعموا ثمانية عشر ميلا ، وهذا عرض جزيرة طريف إلى قصر مصمودة بالقرب من سَبْتة ، وهناك كانت القنطرة التى يزعم الناس أن الإسكندر بناها ليعبُرَ عليها من بر الأندلس إلى بر العُدْوة ، و يعرف هذا الموضع بالزقاق ، وهو صعب المَجَاز لأنه مجمع البحرين لاتزال الأمواج تتطاول فيه والماء يدور ، وطول هذا الزقاق الذى عرضه ثمانية عشر ميلا مضاعف ذلك إلى ميناء سَبْتة ، ومن هناك يأخذ البحر فى الاتساع إلى ثمانمائة ميل وأزيد ، ومُنْتَهاهُ مدينة صور من الشام ، وفيه عدد عظيم من الجزائر.

قال بعضهم : إنها ثمان وعشرون جزيرة منها صقلية ومالطة وغيرهما، انتهى و بعضه بالمعنى .

وقال بعضهم : عند وصفه ضيق بحر الزقاق قرب سَبْتة ، ماصورته : ثم يتّسع كلما امتد حتى يسير إلى ما لاذرع له ولا نهاية .

خراج الأندلس فى أيام بنى أمية

وقال بعضهم : وكان مبلغ خراج الأندلس الذى كان يؤدى إلى ملوك بنى أمية قديما ثلثمائة ألف دينار دراهم أندلسية كل سنة قوانين ، وعلى كل مدينة من

مدائنهم مال معلوم ، فكانوا يُعْطُون جندهم ورجالهم الثلث من ذلك مائة ألف دينار ، وينفقون فى أمورهم ونوائبهم ومؤن أهليهم مائة ألف دينار ، ويدّخرون لحادث أيامهم مائة ألف دينار ، انتهى .

وذكر غيره أن الجباية كانت بالأندلس أيام عبد الرحمن الأوسط ألفَ ألفِ دينارٍ فى السنة ، وكانت قبل ذلك لا تزيد على ستمائة ألف ، حكاه ابن سعيد ، وقال : إن الأندلس مسيرة شهر مدن وعمائر .

وقال قاضى القضاة ابن خَلْدون الحضرمى فى تاريخه الكبير ، ما صورته : كان هذا القطر الأندلسى من العُدْوة الشمالية من عُدْوتى البحر الرومى وبالجانب الغربى منها يسمى عند العجم الأندلوش ، وتسكنه أمم من إفرنجة المغرب أشدهم وأكثرهم الجلالقة ، وكان القُوطُ قد تملكوه وغلبوا على أهله لمئين من السنين قبل الإسلام ، بعد حروب كانت لهم مع اللطينيين حاصروا فيها رومة ثم عقدوا معهم السلم على أن ينصرف القوط إلى الأندلس ، فصاروا إليها ومَلَكوها ، ولما أخذ الروم واللطينيون بملة النصرانية حملوا مَنْ وراءهم بالمغرب من أمم الفرنجة والقُوطِ عليها فدانوا بها ، وكان ملوك القوط ينزلون طُلَيْطلة ، وكانت دار ملكهم ، وربما تنقلوا ما بينها وبين قرطبة وإشبيلية ومارِدَة ، وأقاموا كذلك نحواً من أربعمائة سنة إلى أن جاء الله بالإسلام والفتحِ ، وكان ملكهم لذلك العهد يسمى لُذَرِيقَ ، وهو سِمَة لملوكهم ، كما أن جرجير سِمَة لملوك صقلية ، انتهى .

غرناطة ووصفها

ومن أشهر بلاد الأندلس غَرْنَاطة ، وقيل : إن الصواب إغرناطة ــ بالهمز ــ ومعناه بلغتهم الرمانة ، وكفاها شرَفا ولادةُ لسان الدين بها .

وقال الشقندى : أما غَرْناطة فإنها دمشق بلاد الأندلس، ومَسْرح الأبصار، ومطمح الأنفس ، ولم تخلُ من أشراف أماثل ، وعلماء أكابر، وشعراء أفاضل ، ولو لم يكن لها إلا ماخَصَّها الله تعالى به من المَرج الطويل العريض ونهر شِنيلٍ لكفاها .

وفى بعض كلام لسان الدين ما صورته : وما لمصر تفخر بنيلها وألفٌ منه فى شنِيلها ؟ يعنى أن الشين عند أهل المغرب عددها ألف ، فقولنا شنيل إذا اعتبرنا عدد شينه كان ألف نيل ، وفيها قيل :

غَرْنَاطَـــة مالها نظـــيرٌ ما مصرُ ؟ ما الشام ؟ ما العراقْ ؟
ما هى إلا العروس تُجْـــلَى وتلك من جُمْـــلَة الصَّـداقْ

وتسمى كورة إلبيرة التى منها غَرْناطة دمشق ، لأن جند دمشق نزلوها عند الفتح ، وقيل : إنما سُميت بذلك لشبهها بدمشق فى غَزَارة الأنهار ، وكثرة الأشجار ، حكاه صاحب مناهج الفكر ، قال : ولما استولى الفرنج على معظم بلاد الأندلس انتقل أهلها إليها فصارت المصر المقصود ، والمعقل الذى تَنْضَوى إليه العساكر والجنود ، ويَشُقُّها نهر عليه قناطر يُجَاز عليها ، وفى قبليها جبل شَلِير ، وهو جبل لا يفارقه الثلج صيفا ولا شتاء ، وفيه سائر النبات الهندى ، لكن ليس فيه خصائصه ، انتهى .

لوشة من أعمال غرناطة

ومن أعمال غرناطة قطر لَوْشَة ، وبها معدن للفضة جيد ، ومنها أعنى لوشة أصل لسان الدين بن الخطيب ، وهذا القطر ضخم ينضاف إليه من الحصون والقرى كثير ، وقاعدته لَوْشَة ، بينها و بين غرناطة مرحلة ، وهى ذات أنهار وأشجار ، وهى على نهر غَرْناطة الشهير بشِنِيل .

باغة

ومن أعمال غرناطة الكبار عمل باغة ، والعامة يقولون بيغة ، وإذا نسبوا إليه قالوا بيغى ، وقاعدته باغة طيبة الزرع ، كثيرة الثمار ، غزيرة المياه ، ويجود فيها الزعفران .

وادى آش

ومن أعمال غرناطة وادى آش ، و يقال : وادى الأشات . وهى مدينة جَليلة قد أحدقت بها البساتين والأنهار ، وقد خص الله أهلها بالأدب وحب الشعر ، وفيها يقول أبو الحسن بن نِزار :

وَادِى الأشاتِ يَهيجُ وَجْدى كلَّما أذكرتُ ما أفضتْ بك النعماء
لله ظلّكَ والهجيرُ مُسَلَّط قد بَرَّدَتْ لفحاتهِ الأنداء

والشمسُ ترغب أن تفوزَ بلحظة منه فتطرف طرفهَا الأفياءُ
والنهرُ يَبْسِم بالحَبَاب كأنه سِلْخٌ نَضَتْهُ حَيَّة رَقْشَاء
فلذاك تحذره الغصُون فميلهَا أبدًا على جَنبانه إيماء

ومن أعمال وادى آش حصن جِليَانة ، وهو كبير يُضاهى المدن ، و به التفاح الجليانى الذى خص الله به ذلك الموضع ، يَجمع عظم الحجم وكرم الجوهر وحلاوة الطعم وذكاء الرائحة والنقاء ، و بين الحصن المذكور ووادى آش اثنا عشر ميلا .

من غرائب الأندلس

ومن غرائب الأندلس أن به شجرتين من شجر القسطل ، وهما عظيمتان جدّاً إحداهما بسَنَدوادى آش والأخرى بِبَشَرة غَرْناطة ، فى جوف كل واحدة منهما حائك ينسج الثياب ، وهذا أمر مشهور قاله أبو عبد الله بن جُزَىّ وغيره .

وكانت إلبيرة هى المدينة قبل غَرْنَاطة ، فلما بنى الصِّنْهاجى مدينة غَرْنَاطة وقصبتها وأسوارها انتقل الناس إليها ، ثم زاد فى عمارتها ابنه بَادِيُس بعده .

وذكر غير واحد أن فى كورة سَرَقُسْطَة الملح الأندرانى الأبيض الصافى الأملس الخالص ، وليس فى الأندلس موضع فيه مثل هذا الملح .

قال : وسَرَقُسْطَة بناها قيصر ملك رومة الذى تؤرخ من مدته مدة الصفر قبل مولد المسيح على نبينا وعليه وعلى سائر الأنبياء الصلاة والسلام ، وتفسير اسمها قصر السيد ، لأنه اختار ذلك المكان بالأندلس .

وقيل : إن موسى بن نُصَير شرب من ماء نهر جِلَّق بسرقسطة فاستعذبه ، وحكم أنه لم يشرب بالأندلس أعذبَ منه ، وسأل عن اسمه ، فقيل: جِلق ، ونظر إلى ما عليه من البساتين فشبَّهها بغُوطَة جِلَّق الشام ، وقيل: إنها من بناء الإسكندر، والله أعلم.

و بمدينة بَرْجَة[1] — وهى من أعمال المَرِية — معدن الرصاص ، وهى على واد

(١) قال ياقوت : « برجة : مدينة بالأندلس من أعمال البيرة ، ينسب إليها أبو الحسن على بن محمد بن عبد الله الجذامى المقرى ، قال أبو الوليد يوسف بن عبد العزيز الأندى : هو منسوب إلى برجة بلدة من أعمال المرية ، سمع من شيخنا أبى على وقرأ القرآن على أصحاب أبى عمرو عثمان بن سعيد الداني المقرى ، وتوفى بالمرية سنة ٥٠٦ » اه .

مبهج يعرف بوادى عذراء ، وهو محدق بالأزهار والأشجار ، وتسمى برجة بهجة لبهجة منظرها ، وفيها يقول أبو الفضل بن شَرَف القَيْرَوانى رحمه الله تعالى :

رياضٌ تعشَّقَهَا سندس توشَّتْ معا طفُهَا بالزَّهَرْ
مدامِعُهَا فوق خدّىْ رُبًا لها نَظْرَةٌ فتَنَتْ مَنْ نَظَرْ
وكُلُّ مكان بها جَنّة وكُلُّ طريق إليها سَقَرْ

وفيها أيضاً قوله :

حُطَّ الرحالَ ببرجَهْ وارْتَدْ لنفسك بَهْجَهْ
فى قَلْعة كسلاحٍ ودَوْحَة مثل لُجَّهْ
فَحِصْنُهَا لك أمْنٌ ورَوْضُهَا لك فُرْجَهْ
كل البلاد سواها كعُمْرَةٍ وهى حَجَّهْ

و بمالقة التينُ الذى يضرب المثل بحسنه ، ويجلب حتى للهند والصين ، وقيل : إنه ليس فى الدنيا مثله ، وفيه يقول أبو الحجاج يوسف ابن الشيخ البلَوى المالقى حسبما أنشده غير واحد منهم ابن سعيد :

مالقة حُيِّيتَ يا تينَهَا الفُلْكُ من أجلك ياتينها
نَهَى طبيبى عنه فى عِلّتى ما لِطَبيبى عن حَيَاتِى نَهى

وذيل عليه الإمام الخطيبُ أبو محمد عبد الوهاب المنشى بقوله :

وحِمْصُ لا تَنْسَ لها تينَهَا واذكر مع التين زَيَاتِينَهَا

وفى بعض النسخ :

لا تنْسَ لِأُشْبيليّةٍ تينَهَا واذكر مع التين زَيَاتينها

وهو نحو الأول ، لأن حمص هى إشبيلية ، لنزول أهل حمص من المشرق بها ، حسبما سنذكره .

ونسب ابن جُزَى فى ترتيبه لرحلة ابن بَطُّوطة البيتين الأولين للخطيب أبى محمد عبدالوهاب المالقى ، والتذييل لقاضى الجماعة أبى عبدالله بن عبد الملك، فالله أعلم .

مدينة مالقة ووصفها

وقال ابن بطوطة : وبمالقه يصنع الفخَّار المذهب العجيب ، ويُجْلَب منها إلى أقاصى البلاد ، ومسجدها كبير الساحة ، كثير البَرَكة شهيرها ، وصحْنه لا نظير له فى الحسن ، وفيه أشجار النارنج البديعة ، انتهى .

وقال قبله : إن مالَقَةَ[1] إحدى قواعد الأندلس ، وبلادها الحسان ، جامعة بين مرافق البر والبحر ، كثيرة الخيرات والفواكه ، رأيت العنب يباع فى أسواقها بحساب ثمانية أرطال بدرهم صغير ، ورُمَّانها المرسى الياقوتى لا نظير له فى الدنيا ، وأما التين واللوز فيجلبان منها ومن أحوازها إلى بلاد المشرق والمغرب ، انتهى .

وبكورة أشبونة المتصلة بشَنْتَرِين معدن التبر ، وفيها عسل يجعل فى كيس كتان فلا يكون له رطوبة كأنه سكر ، ويوجد فى ريفها العنبر الذى لا يشبهه إلا الشِّحْرِى .

مدينة قرطبة ووصفها ومشاهدها

ومن أشهر مدن الأندلس مدينة قرطبة[2] ـ أعادها الله تعالى للإسلام! ـ وبها الجامع المشهور ، والقنطرة المعروفة بالجسر .

وقد ذكر ابن حيان أنه بنى على أمر عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه ،

---

(١) مالقة ـ بفتح اللام والقاف ـ مدينة عامرة من مدن الأندلس ، سورها على شاطىء البحر بين الجزيرة الخضراء والمرية ، وقل الحميدى : هى على ساحل بحر المجاز المعروف بالزقاق ، والقولان متقاربان ، وأصل وضعها قديم ، ثم عمرت بعد ، وكثر قصد المراكب والتجار إليها فتضاعفت عمارتها حتى صارت أرشذونة وغيرها من بلدان هذه الكورة كالبادية لها .

(٢) قرطبة ـ بضم القاف وسكون الراء وضم الطاء وفتح الباء مخففة ـ مدينة عظيمة وسط بلاد الأندلس ، وكانت سريرا لملكها وقصبتها ، وبها كانت ملوك بنى أمية ومعدن الفضلاء ومنبع النبلاء من ذلك الصقع ، وبينها وبين البحر خمسة أيام ، وهى حصينة بسور من حجارة ، ولها بابان مشروعان فى نفس السور إلى طريق الوادى من الرصافة ، والرصافة مساكن أعالى البلد متصلة بأسافله من ريفها وأبنيتها مشتبكة محيطه من شرقيها وغربيها وشماليها وجنوبيها .

ونصه : وقام فيها بأمره على النهر الأعظم بدار مملكتها قرطبة الجسر الأكبر الذى ما يُعْرف فى الدنيا مثله ، انتهى .

وفيها يقول بعض علماء الأندلس :

بأربعٍ فاقتِ الأمصارَ قُرْطُبَةٌ ... منهن قنطرة الوادى ، وجامعُهَا

هاتان ثنتان ، والزهراء ثالثة ، ... والعلم أعظم شيء ، وَهْو رابعُهَا

وقال الحجارى فى «المسهب» : كانت قرطبة فى الدولة المروانية قبة الإسلام ، ومجتمع أعلام الأنام ، بها استقرّ سرير الخلافة المروانية ، وفيها تمحضت خلاصة القبائل المعدّية واليمانية ، وإليها كانت الرِّحْلة فى الرواية إذ كانت مركز الكرماء ، ومعدن العلماء ، وهى من الأندلس بمنزلة الرأس من الجسد ، ونهرها من أحسن لأنهار ، مكتنفٌ بديباج المروج مطرز بالأزهار ، تَصْدَح فى جَنَبَاته الأطيار ، وتنعر النواعير ويَبْسم النُّوّار ، وقرطاها الزاهرة والزهراء ، حاضِرَتَا الملك وأفقاه النعماء والسراء ، وإن كان قد أخنى عليها الزمان ، وغير بهجة أوجهها الحسان ، فتلك اعادَتُه وسَلِ الخَوَرْنَق والسديرَ وغُمْدَان ، وقد أعذر بإنذاره إذ لم يزل ينادى بصُرُوفه لا أمان لا أمان ، وقد قال الشاعر :

وما زلت أسمَعُ أنَّ الملو ... كَ تَبْنِي على قدر أخْطَارها

وقال السلطان يعقوب المنصور ابن السلطان يوسف ابن السلطان عبد المؤمن ابن على لأحد رؤساء أجنادها : ما تقول فى قرطبة ؟ فخاطبه على ما يقتضيه كلامُ عامّة الأندلس بقوله : جوفُها شِمام ، وغربيها قُمَام ، وقبلتها مُدام ، والجنة هى والسلام يعنى بالشمام جبال الورد ، ويعنى بالقمام ما يؤكل إشارة إلى محرث الكِنْبَانِيَّة[1] ، ويعنى بالمدام النهر .

---

(١) كنبانية ـ بفتح الكاف ، وسكون النون ، بعدها باء موحدة ، وبعد الألف نون مكسورة ، فياء مثناة مخففة ـ ناحية بالأندلس قرب قرطبة ، ينسب إليها محمد بن قاسم بن محمد الأموى الجاحظى الكنبانى .

ولما قال والده السلطان يوسف بن عبد المؤمن لأبي عمران موسى بن سعيد العنسي : ما عندك في قرطبة ؟ قال له : ما كان لي أن أتكلم حتى أسمع مذهب أمير المؤمنين فيها ، فقال السلطان : إن ملوك بني أمية حين اتخذوها حضرةَ مملكتهم لعلَى بصيرة ، الديار المنفسحة الكبيرة ، والشوارع المتسعة ، والمباني الضخمة المشيدة ، والنهر الجاري ، والهواء المعتدل ، والخارج الناضر ، والمحرث العظيم ، والشعراء الكافية ، والتوسط بين شرق الأندلس وغربها ، قال : فقلت : ما أبقى لي أمير المؤمنين ما أقول .

قال ابن سعيد : ولأهلها رياسة ووقار، لا تزال سِمَة العلم والملك متوارثة فيهم، إلا أن عامتها أكثر الناس فضُولا ، وأشدّهم تشغيبا ، ويضرب بهم المثل ما بين أهل الأندلس في القيام على الملوك ، والتشنيع على الولاة ، وقلة الرضا بأمورهم ، حتى إن السيد أبايحيي أخا السلطان يعقوب المنصور قيل له لما انفصل عن ولايتها : كيف وجدت أهل قرطبة ؟ فقال : مثل الجمل ، إن خففت عنه الحمل صاح ، وإن أثقلته صاح ، ما ندري أين رضاهم فنقصده ، ولا أين سخطهم فنجتنبه ، وما سلط الله عليهم حَجَّاج الفتنة حتى كان عامتها شراً من عامة العراق ، وإن العزل عنها لما قاسيته من أهلها عندي ولاية ، وإني إن كُلِّفتُ العَوْد إليها لقائل : لا يلدغُ المؤمن من جحر مرتين ، انتهى .

مفاضلة بين قرطبة وإشبيلية

وقال أبو الفضل التيفاشي : جرت مناظرة بين يدي ملك المغرب المنصور يعقوبَ بين الفقيه أبي الوليد بن رُشْد والرئيس أبي بكر بن زُهْر ، فقال ابن رشد لابن زهر في تفضيل قرطبة : ما أدري ما تقول ، غير أنه إذا مات عالم بإشبيلية فأريد بيعُ كتبه حملت إلى قرطبة حتى تباع فيها ، وإن مات مطرب بقرطبة فأريد بيع آلاته حملت إلى أشبيلية ، قال : وقرطبة أكثر بلاد الله كتباً ، انتهى .

وحكى الإمام ابن بَشْكُوَال عن الشيخ أبي بكر بن سعادة أنه دخل مدينة طُلَيطلة مع أخيه على الشيخ الأستاذ أبي بكر المخزومي، قال: فسألنا: من أين ؟ فقلنا :

من قرطبة ، فقال : متى عهدكما بها ؟ فقلنا : الآن وصلنا منها ، فقال : أُقربا إلى أشم نسيم قرطبة ، فقربنا منه ، فشم رأسي وقبله ، وقال لي : اكتب .

أقرطُبةُ الغَرّاء هل لىَ أوْبَة إليك ؟ وهل يَدْنُو لنا ذلك العَهْدُ[1]

سقى الجانبَ الغربيَّ منكِ غمامة وقَعْقَعَ فى ساحات دَوْحاتِكِ الرَّعْدُ[2]

لياليكِ أسحارٌ، وأرضك رَوْضَة، وتُرْبُكِ فى استنشاقها عَنْبَرٌ وَرْدُ[3]

وكتب الرئيس الكاتب أبو بكر بن القبطرنية للعالم أبى الحسين بن سراج بقوله :

يا سَيِّدِى وأبى هَوًى وجَلالَة ورَسُولَ وُدِّى إن طابت رسولا

عرِّجْ بقرطبةٍ إذا بُلّغْتَهَا بأبى الحسين ونادِهِ تمويلا

واذا سَعِدْتَ بنظرة من وَجْهِهِ أهْدِ السلامَ لكفه تَقْبيلا

واذكر له شوقى وشكرى مجملاً ولَوِ استطعتُ شرحتُهُ تفصيلا

بتحيةٍ تهدى إليه كأنما جَرَّتْ على زهر الرياض ذُيُولاَ

وفى باب اليهود بقرطبة يقول أبو عامر بن شُهَيد[4] :

لقد أطْلَعُوا عند باب اليهو دبدرًا أبىٰ الحسنُ أن يُكْسَفَا

تراه اليهودُ على بابها أميرًا فتحسبه يُوسُفَا

واستقبحوا قولهم « باب اليهود » فقالوا « باب الهدى » وسنذكر قرطبة والزهراء والزاهرة ومسجدها فى الباب المنفرد بها إن شاء الله تعالى ، وكذلك القنطرة .

---

(١) الأوبة ـ بفتح الهمزة وسكون الواو ـ الرجوع ، تقول : آب فلان يؤوب أوبا وأوبة ومآبا ، تريد رجع يرجع رجوعا .

(٢) قعقع : صوت ، والدوحات : جمع دوحة ـ بفتح فسكون ـ وهى الشجرة العظيمة ذات الظل .

(٣) عنبر ورد : أى ذو رائحة عطرية وعرف طيب .

(٤) أبو عامر : اسمه أحمد ، ولد فى سنة ٣٨٢ وتوفى فى سنة ٤٢٦ من الهجرة

مدينة إشبيلية ووصفها ومشاهدها

ومن أعظم مدن الأندلس إشبيلية[١] ـ قال الشقندى : من محاسنها اعتدال الهواء ، وحسن المبانى ، ونهرها الأعظم الذى يصعد المدّ فيه اثنين وسبعين ميلا ثم يحسر ، وفيه يقول ابن سَفَرٍ :

شَقَّ النسيمُ عليه جَيْبَ قميصِهِ فانسابَ من شَطَّيْه يطلب ثَارَهُ
فتضاحَكَتْ وُرْق الحَمام بدَوْحِها هُزُأً فضمَّ من الحياء إزارَهُ

وقيل لأحد من رأى مصر والشام : أيهما رأيت أحسن ؟ أهذان أم إشبيلية ؟ فقال بعد تفضيل إشبيلية : شرَفُها غابة بلا أسَد ، ونهرها نيل بلا تمساح ، انتهى

ويقال : ان الذى بنى إشبيلية اسمه توليس ، وإنه أول من سمى قيصر ، وإنه لما دخل الأندلس أعجب بساحاتها وطيب أرضها وجبلها المعروف بالشَّرَف ، فردم على النهر الأعظم مكاناً ، وأقام فيه المدينة ، وأحدق عليها بأسوار من صخر صَلْد ، وبنى فى وسط المدينة قصبتين بديعتى الشأن تعرفان بالأخوين ، وجعلها أم قواعد الأندلس ، واشتق لها اسما من رومية ، ومن اسمه ، فسماها رومية توليس ، انتهى .

وقد تقدّم شىء من هذا .

وكان الأولون من ملوك الأعاجم يتداولون بسُكناهم أربعة بلاد من بلاد الأندلس : إشبيلية ، وقُرْطُبة ، وقَرْمُونة ، وطُلَيْطلة ، ويقسمون أزمانهم على الكَيْنُونة بها[٢] .

---

(١) إشبيلية ـ بكسر الهمزة ، وسكون الشين ، بعدها باء مكسورة فياء فلام مكسورة فياء مفتوحة مخففة ـ قال ياقوت : « مدينة كبيرة عظيمة ، وليس بالأندلس أعظم منها ، وتسمى حمص أيضا ، وبها قاعدة ملك الأندلس وسريره ، وبها كان بنو عباد ، ولمقامهم بها خربت قرطبة ، وعملها متصل بعمل لبلة ، وهى غربى قرطبة بينهما ثلاثون فرسخا » اه .

(٢) الكينونة بها : أراد المقام والوجود فى هذه البلدان .

وأما شَرَفُ إشبيلية[١] فهو شريف البقعة ، كريم التربة ، دائم الخضرة ، فرسخ فى فرسخ طولا وعرضاً ، لا تكاد تُشْمِس فيه بقعة لالتفاف زيتونه .

واعلم أن إشبيلية لها كُوَر جليلة ، ومدن كثيرة ، وحصون شريفة ، وهى من الكور المجندة ، نزلها جند حمص ولواؤهم فى الميمنة بعد لواء جند دمشق ، وانتهت جبَاية إشبيلية أيام الحكَم بن هشام إلى خمسة وثلاثين ألفَ دينارٍ ومائة دينار .

وفى إقليم طالقة من أقاليم إشبيلية وجدت صورة جارية من مرمر معها صبى ، وكأن حية تريده ، لم يسمع فى الأخبار ولا رُئِىَ فى الآثار صورة أبدع منها ، جعلت فى بعض الحمامات وتعشقها جماعة من العوام .

وفى كورة ماردة حصنُ شنت أفرج فى غاية الارتفاع ، لا يعلوه طائر البتة لا نسر ولا غيره .

ومن عجائب الأندلس البلاط الأوسط من مسجد جامع أُقليش ، فإن طول كل جائزة منه مائة شبر وأحد عشر شبراً ، وهى مربعة منحوتة مستوية الأطراف

وقال بعض من وصف إشبيلية : إنها مدينة عامرة على ضفة النهر الكبير المعروف بنهر قرطبة ، وعليه جسر مربوط بالسفن ، وبها أسواق قائمة ، وتجارات رابحة ، وأهلها ذوو أموال عظيمة ، وأكثر مَتاجرهم الزيت ، وهو يشتمل على كثير من إقليم الشَّرَف ، وإقليمُ الشرف على تل عال من تراب أحمر مسافته أربعون ميلا فى مثلها ، يمشى به السائر فى ظل الزيتون والتين ، ولها ــ فيما ذكر

---

(١) أصل الشرف ــ بفتح الشين والراء جميعا ــ المكان العالى ، وقد سمعوا أما كن بقينها شرفا ، من ذلك الشرف اسم لقلعة حصينة قرب زبيد من بلاد اليمن ، ومن ذلك الشرف اسم لمكان من سواد إشبيلية ، وهو المقصود هنا ، وقال سعد الخير : « الشرف بلد بحذاء إشبيلية يحتوى على قرى كثيرة عليه أشجار الزيتون ، وإذا أراد أهل الأندلس الافتخار قالوا : الشرف تاجها ، لكثرة خيره » اه .

بعضُ الناس ــ قُرًى كثيرة ، وكل قرية عامرة بالأسواق والديار الحسنة والحمامات وغيرها من المرافق .

وقال صاحب منهاج الفكر ، عند ذكر إشبيلية : وهــذه المدينة من أحسن مدن الدنيا ، و بأهلها يضرب المثل فى الخَلَاعة[1] ، وانتهاز فرصة الزمان الساعة بعد الساعة ، ويعينهم على ذلك واديها الفرج ، وناديها البهج ، وهذا الوادى يأتيها من قرطبة ، ويجزر فى كل يوم ، ولها جبل الشَّرَف ، وهو تراب أحمر طوله من الشمال إلى الجنوب أربعون ميلا ، وعرضه من المشرق إلى المغرب أثنا عشر ميلا ، يشتمل على مائتين وعشرين قرية ، قد التحفت بأشجار الزيتون واشتملت ، انتهى .

خصائص كورة باجة

ولـكورة باجة من الـكور الغربية التى كانت من أعمال إشبيلية أيام بنى عباد خاصيةٌ فى دباغة الأديم وصناعة الـكتان ، وفيها معدن فضة ، وبها ولد المعتمد بن عباد ، وهى متصلة بكورة ماردة .

جبل طارق

ولجبل طارق حوز قصب السبق بنسبته إلى طارق مولى موسى بن نُصَير ، إذ كان أوّل ما حل به مع المسلمين من بلاد الأندلس عند الفتح ، ولذا شُهِر بجبل الفتح ، وهو مقابل الجزيرة الخضراء ، وقد تجون البحر هنالك مستديرا حتى صار مكان هذا الجبل كالناظر للجزيرة الخضراء ، وفيه يقول مطرّف شاعر غرناطة :

وأقوَدَ قد ألقىٰ على البحر مَتْنَه ... فأصبحَ عن قُودِ الجبال بمَعْزِلِ[2]

يُعَرِّض نحو الأفق وَجْهًا كأنما ... تراقِبُ عَيْناه كواكب منزل

و إذا أقبل عليه المسافرون من جهة سَبْتَةَ فى البحر بان كأنه سرج ، قال أبو الحسن على بن موسى بن سعيد : أقبلت عليه مرة مع والدى فنظرنا إليه على تلك الصفة ، فقال والدى : أجز :

---

(١) الخلاعة : اللهو والمجون والاستخفاف والتهتك ، وألا تبالى فيما تصنع .

(٢) الأقود : أراد به الجبل الطويل ، والقود ــ بضم القاف ــ جمع أقود ، وبمعزل : بمكان ناء بعيد .

انظر إلى جَبَـــل الْفَتْــــح راكبـــاً مَتْنَ لُجَجِ(١)

فقلت :

وقد تَفَتَّحَ مثـــل الأفنـــان فى شكل سَرْج

وأما جزيرة طريف فليست بجزيرة ، و إنما سميت بذلك الجزيرةُ التى أمامها فى البحر مثل الجزيرة الخضراء ، وطريف المنسوبة إليـه بَرْبَرى من موالى موسى بن نُصَير ، ويقال : إن موسى بعثه قبل طارق فى أربعمائة رجل ، فنزل بهذه الجزيرة فى رمضان سنة إحدى وتسعين ، و بعده دخل طارق ، والله أعلم .

كورة طليطلة ووصفها ومشاهدها

ومن أعظم كور الأندلس كورة طُلَيْطلة ، وهى من متوسط الأندلس ، وكانت دار مملـكة بنى ذى النُّون من ملوك الطوائف ، وكان ابتـداء ملـكهم صدرَ المائة الخامسة ، وسماها قيصر بلسانه بزليطلة ، وتأويل ذلك : أنت فارح ، فعربتها العرب وقالت : طليطلة ، وكانوا يسمونها وجهاتها فى دولة بنى أمية بالثغر الأدنى ، ويسمون سَرَقُسْطة وجهاتها بالثغر الأعلى ، وتسمى طليطلة مدينة الأملاك لأنها فيما يقال ملـكها اثنان وسبعون إنسانا ، ودخلها سليمان بن داود عليهما السلام وعيسى بن مريم ، وذو القرنين ، وفيهـا وجد طارق مائدة سليمان ، وكانت من ذخائر إشبان ملك الروم الذى بنى إشبيلية ، أخذهـا من بيت المقدس كما مر وقوّمت هذه المائدة عند الوليد بن عبد الملك بمائة ألف دينار ، وقيل : إنها كانت من زمرد أخضر ، و يقال : إنها الآن برومة ، والله أعلم بذلك .

ووجد طارق بطليطلة ذخائر عظيمة ، منها مائة وسبعون تاجا من الدر والياقوت والأحجار النفيسة ، و إيوان ممتلىء من أوانى الذهب والفضة ، وهو كبير ، حتى قيل : إن الخيل تلعب فيه فرسانها برماحهم لوسعه ، وقد قيل : إن أوانى المائدة من الذهب

(١) المتن : الظهر ، واللجج ـ بضم اللام ـ جمع لجة ، وهى معظم ماء البحر .
(٢) الأفنان : جمع فنن ـ بفتح الفاء والنون ـ وهو الغصن .

وصحافها من اليَشَم والجَزْع[١] ، وذكروا فيها غير هذا مما لا يكاد يصدّقه الناظر فيه .

وبطليطلة بساتين محدقة ، وأنهار مخترقة ، ورياض وجنان ، وفواكه حسان ، مختلفة الطعوم والألوان ، ولها من جميع جهاتها أقاليم رفيعة ، ورساتيق مريعة ، وضياع بديعة ، وقِلاع منيعة ، وبالجملة فمحاسنها كثيرة ، ولعلنا نُلِمُّ ببعض منتزهاتها فيما يأتى من هذا الكتاب إن شاء الله تعالى .

وطليطلة قاعدة ملك القوطيين ، وهى مُطِلّة على نهر تاجُه[٢] ، وعليه كانت القنطرة التى يعجز الواصفون عن وصفها ، وكانت على قَوْس واحد تكنفه فرجتان من كل جانب وطولُ القنطرة ثلثمائة باع ، وعرضها ثمانون باعا ، وخربت أيام الأمير محمد لما عصى عليه أهلها فغزاهم ، واحتال فى هدمها ، وفى ذلك يقول الحكيم عباس بن فرناس :

أضحَتْ طُلَيْطُلة مُعَطّلة ... من أهلها فى قبضة الصقر
تركت بلا أهلٍ تؤهِّلها ... مَهْجورة الأكناف كالقبر
ما كان يُبْقِى الله قنطرةً ... نصبت لحمل كتائب الكفر

وسيأتى بعض أخبار طليطلة .

مدينة المرية ووصفها ومشاهدها

ومن مشهور مدن الأندلس الْمَرِية ، وهى على ساحل البحر ، ولها القلعة المنيعة المعروفة بقلعة خيران ، بناها عبد الرحمن الناصر ، وعظمت فى دولة المنصور بن أبى عامر ، وولى عليها مولاه خَيْرَان ، فنسبت القلعة إليه ، وبها من صنعة الديباج ما تفوق به على سائر البلاد ، وفيها دار الصناعة ، وتشتمل كُورَتُهَا على معدن الحديد والرخام ، ومن أبوابها باب العقاب عليه صورة عقاب من حجر قديم عجيب المنظر .

---

(١) اليشم – بالتحريك – حجر يشبه الزبرجد ، والجزع – بالفتح – خرز يمان فيه بياض وسواد تشبه به العيون .

(٢) وقع فى ب ، ز « نهر باجة » محرفا ، وتصويبه عن الروض ، قال : « تاجه نهر عظيم يشق طليطلة قصبة الأندلس فى الزمان الأقدم ، يخرج من بلاد الجلالقة ، ويصب فى البحر الرومى ، وهو نهر موصوف من أنهار العالم ، وعليه – على بعد من طليطلة – قنطرة عظيمة بنتها ملوك سالفة ، وهى من البنيان الموصوف » اه .

وقال بعضهم : كان بالْمَرِيَّة لنسج طُرُز الحرير ثمانمائة نَوْل ، وللحُلَل النفيسة والديباج الفاخر ألف نَوْل ، وللأسقلاطون كذلك ، وللثياب الجرجانية كذلك ، وللأصفهانية مثل ذلك ، وللعنابى والمعاجر المدهشة والستور المكللة ، ويُصْنَع بها من صنوف آلات الحديد والنحاس والزجاج ما لا يوصف ، وفاكهة المرية يقصر عنها الوصف حسنا ، وساحلُها أفضلُ السواحل ، وبها قصور الملوك القديمة الغريبة العجيبة ، وقد ألف فيها أبو جعفر بن خاتمة تاريخا حافلا سماه بـ«مزية المرية ، على غيرها من البلاد الأندلسية» فى مجلد ضخم تركته من جملة كتبى بالمغرب ، والله سبحانه المسؤل فى جمع الشمل ، فله الأمر من بعد ومن قَبْل .

ووادى المرية طوله أربعون ميلا فى مثلها كلها بساتين بهجة ، وجنات نضرة ، وأنهار مطردة ، وطيور مغردة .

قال بعضهم : ولم يكن فى بلاد الأندلس أكثر مالا من أهل المرية ، ولا أعظم متاجر وذخائر ، وكان بها من الحمامات والفنادق نحو الألف وهى بين الجبلين بينهما خندق معمور ، وعلى الجبل الواحد قصبتها المشهورة بالحصانة ، وعلى الآخر رَبَضُها (١) ، والسور محيط بالمدينة والربض ، وغربيها رَبَضٌ لها آخر يسمى ربض الحوض ذو فنادق وحمامات وخنادق وصناعات ، وقد استدار بها من كل جهة حصون مرتفعة ، وأحجار أولية ، وكأنما غربلت أرضها من التراب ، ولها مدن وضياع عامرة متصلة الأنهار ، انتهى .

مدينة شنترة

وقال ابن اليسع ، عند ذكره مدينة شنترة : إن من خَوَاصِّها أن القمح والشعير يزرعان فيها ويحصدان عند مضى أربعين يوما من زراعته ، وإن التفاح فيها دور كل واحدة ثلاثة أشبار وأكثر ، قال لى أبو عبد الله الباكورى ، وكان ثقة :

---

(١) قال فى الروض : «وعليها سور حصين منيع بناه أمير المؤمنين عبد الرحمن ، وعلى ربضها المعروف بالمصلى سور تراب بناه خيران العامرى ، وكان قد وصل إلى هذا الربض ماء العين التى هناك ، وأجراه فى ساقية ، ثم وصله محمد بن صمادح إلى ساقية عند جامعها داخل المدينة ، واستطرد منه » اهـ .

أبصرت عند المعتمد بن عباد رجلا من أهل شنترة أهدى إليه أربعا من التفاح ما يُقِلُّ الحاملُ على رأسه غيرها ، دور كل واحدة خمسة أشبار ، وذكر الرجل بحضرة ابن عباد أن المعتاد عندهم أقل من هذا ، فإذا أرادوا أن يجيء بهذا العظم وهذا القدر قطعوا أصلها وأبقوا منه عشرا أو أقل وجعلوا تحتها دعامات من الخشب ، انتهى .

وبحصن شَنَشَ على مرحلة من المرية التوت الكثير ، وفيها الحرير والقرمز، ويعرف واديها بوادى طبرنش .

وبغربى مالَقَة عملُ سهيلٍ ، وهو عمل عظيم كثير الضياع ، وفيه جبل سهيل لايرى نجم سهيل بالأندلس إلا منه .

مدينة تدمير

ومن كور الأندلس الشرقية تُدْمِير ، وتسمى مصر أيضا لكثرة شبهها بها ، لأن لها أرضا يسيح عليها نهر فى وقت مخصوص من السنة ، ثم يَنْضُب عنها ، فتزرع كما تزرع أرض مصر ، وصارت القصبة بعد تدمير مُرْسِيَة ، وتسمى البستان ، لكثرة جناتها المحيطة بها ، ولها نهر يصب فى قبليها .

تقسيم للأندلس ومدنها

واعلم أن جزيرة الأندلس ـ أعادها الله للإسلام ! ـ مشتملة على موسطة وشرق ، وغرب .

فالموسطة فيها من القواعد الممصرة التى كل مدينة منها مملكة مستقلة لها أعمال ضخام وأقطار متسعة : قرطبة ، وطليطلة ، وجَيَّان ، وغَرْناطة ، والْمَرِية ، ومَالَقَة : فمن أعمال قرطبة إستجَةُ وبِلْكُونة وقَبْرة ورُنْدة وغافق والمدور وأسطبة وبَيَّانة والبَسَّانة والقَصير[1] وغيرها ، ومن أعمال طليطلة وادى الحجارة وقلعة رباح

---

(١) لم يذكر صاحب الروض القصير ولا أسطبة ولا بسانة أصلا ، ولا بلكونة ولا المدور استقلالا ، ولعل أسطبة ههنا محرف عن « إستجة » فقد ذكرها فى الروض وقال « بين القبلة والغرب من قرطبة بينهما مرحلة كاملة » اهـ .

وطلمنكة وغيرها ، ومن أعمال جَيَّان أُبَّدَة و بَيَّاسة وقَسْطَلَّة وغيرها ، ومن أعمال غرناطة وادى آش والمنكب ولَوْشة وغيرها ، ومن أعمال المرية أنْدَرَش[1] وغيرها ، ومن أعمال مَالقَة بلَّش[2] والحامة وغيرهما ، و ببلَّش من الفواكه ما بمالقة ، و بالحامة العين الحارة على ضفة واديها .

وأما شرق الأندلس ففيه من القواعد : مُرْسية ، و بَلَنْسية ، ودانية ، والسهلة ، والثغر الأعلى : فمن أعمال مُرْسية أوريولة والقنت ولورقة وغير ذلك ، ومن أعمال بلنسية شاطبة التى يضرب بحسنها المثل و يعمل بها الورق الذى لا نظير له وجزيرة شَقْر وغير ذلك ، وأما دانية فهى شهيرة ولها أعمال ، وأما السهلة فإنها متوسطة بين بلنسية وسَرَقُسطة ولذا عدّها بعضهم من كور الثغر الأعلى ولها مدن وحصون ، ومن أعمال الثغر الأعلى : سرقسطة وهى أم ذلك الثغر ، وكورة لاردة ، وقلعة رباح ، وتسمى بالبيضاء ، وكورة تُطِيلة ، ومدينتها طرسونة ، وكورة وَشْقة ، ومدينتها تمريط ، وكورة مدينة سالم ، وكورة قلعة أيوب ، ومدينتها بَلْيَانة ، وكورة برطانيه ، وكورة باروشة .

وأما غرب الأندلس ففيه : إشبيلية ، وماردة ، وأشبونة ، وشِلْب : فمن أعمال إشبيلية شَرِيش والخضراء ولَبْلَة وغيرها ، ومن أعمال ماردة بَطَلْيَوْس و بابرة وغيرهما ، ومن أعمال أشبونة شَنْتَرين وغيرها ، ومن أعمال شِلْبَ شنت رية وغيرها.

الجزائر البحرية بالأندلس

وأما الجزر البحرية بالأندلس فمنها جزيرة قادس ، وهى من أعمال إشبيلية، وقال ابن سعيد : إنها من كورة شَرِيش ، ولا منافاة لأن شريشا من أعمال إشبيلية

(١) أندرش – بفتح الهمزة وسكون النون وفتح الدال والراء – مدينة من أنزه البلدان ، وفيها يقول أبو الحجاج بن عتبة الإشبيلي الطبيب :

لله أندرش ، لقد حازت على ... حسن تتيه به علي البلدان
النهر منساب سرت خلجانه ... فى الروض بين أزاهر الكتان
فكأنما انسابت هناك أراقم ... قد عدن راجعة عن الشعبان

(٢) لم يذكر صاحب الروض ولا البكرى بلش ، وذكره ياقوت ولم يوضحه

كامر، قال: وبيد صنم قادس مفتاح، ولما ثار بقادس ابن أخت القائد أبي عبد الله بن مَيْمون - وهو على بن عيسى قائد البحر بها - ظن أن تحت الصنم مالا فهدَمهُ فلم يجد شيئا، انتهى، وهى - أعنى جزيرة قادس - فى البحر المحيط وفى المحيطِ الجزائرالخالدات السبع، وهى غربى مدينة سَلاَتلوح للناظر فى اليوم الصاحى الخالى الجوّ من الأبخرة الغليظة، وفيها سبعة أصنام على أمثال الآدميين، تشير أن لاعبور ولامسلك وراءها، وفيه بجهة الشمال جزائر السعادات، وفيها من المدن والقُرَى ما لايحصى، ومنها يخرج قوم يقال لهم المجوس على دين النصارى: أولها جزيرة برطانية، وهى بوسط البحر المحيط بأقصى شمال الأندلس، ولاجبال فيها، ولا عيون، وإنما يشربون من ماء المطر، ويزرعون عليه.

جزيرة شلطيش

قال ابن سعيد: وفيه جزيرة شَلْطيش[1]، وهى آهلة وفيها مدينة، وبحرها كثير السمك، ومنها يحمل مُمَلَّحا إلى إشبيلية، وهى من كورة لَبْـلَة مضافة إلى عمل أونَبَة، انتهى.

قرطاجنة

وقال بعضهم، لما أجرى ذكر قَرْطَاجنة من بلاد الأندلس: إن الزرع فى بعض أقطارها يكتفى بمَطْرة واحدة، وبها أقواس من الحجارة المقربصة، وفيها من التصاوير والتماثيل وأشكال الناس وصور الحيوانات ما يحير البصر والبصيرة، ومن أعجب بنائها الدواميس، وهى أربعة وعشرون على صف واحد من حجارة مقربصة، طولُ كل داموس مائةٌ وثلاثون خطوة فى عرض ستين خطوة، وارتفاع كل واحد أكثر من مائتى ذراع، بين كل داموسين أنقاب محكمة تتصل فيها المياه من بعضها إلى بعض فى العلوّ الشاهق بهندسة عجيبة وإحكام بديع، انتهى.

---

(١) فى الروض «شلطيش: بالأندلس بقرب مدينة لبلة، وهى جزيرة، لاسور لها ولا حظيرة، إنما هى بنيان متصل بعضه ببعض، وبها دار صناعة الحديد الذى يعجز عن صنعه أهل البلاد لجفائه، وهي صنعة المراسى التى ترسو بها السفن، وقد تغلب عليها المجوس مرات، ويحيط بجزيرة شلطيش البحر من كل ناحية» اهـ.

قلت : أظن هذا غلطا ؛ فإن قَرْطَاجنة التى بهذه الصفة قرطاجنة إفريقية ، لاقرطاجنة الأندلس ، والله أعلم .

وقال صاحب مناهج الفكر ، عندما ذكر قَرْطَاجنة : وهى على البحر الرومى مدينة قديمة بقى منها آثار لها تخص طوله ستة أيام وعرضه يومان معمور بالقرى ، انتهى .

وذكر قبل ذلك فى لُورَقَة أن بناحيتها يوجد حجر اللازَوَرْد ، وفى البحر الشامى الخارج من المحيط جزيرتى مَيُورقة ومَنُورقة ، وبينهما خمسون ميلا ، وجزيرة مَيُورقة مسافة يوم ، بها مدينة حسنة ، وتدخلها ساقية جارية على الدوام ، وفيها يقول ابن اللَّبَّانة :

بَلَد أعَارَتْهُ الحمامَةُ طَوْقَهَا ... وكَسَاهُ حُلَّة ريشه الطاوُس (١)

فكأنَّمَا الأنهار فيه مُدَامة ... وكأن ساحاتِ الديار كؤُس (٢)

وقال يخاطب ملكها ذلك الوقت :

وعَمَرْتَ بالإحسان أرض مَيُورْقَةٍ ... وَبَنَيْتَ مالم يبنه الإسْكَنْدَرُ

وجزيرة يابسة .

واستقصاء ما يتعلق بهذا الفصل يطول ، ولو تُتُبِّع لكان تأليفا مستقلا ، وما أحسن قول ابن خَفَاجَة :

إن للجنة بالأنْدَلُسِ ... مُجْتَلَى حُسْنٍ ورَيَّا نفسِ

فسَنَا صُبْحتها من شَنَب ... ودُجَى ليلتها من لَعَسِ

وإذا ما هَبَّتِ الريحُ صَبًا ... صِحْتُ واشَوْقى إلى الأندلس

---

(١) تسمي الحمامة « المطوقة » لما يحيط برقبتها من الريش . وقد سموا هذا الريش طوقاً .

(٢) سبق إلى هذا المعنى وأجاد عبد الله بن المعتز العباسى حيث يقول :

روضة من قرقف أنهارها ... وغناء الورق فيها فى ارتفاع

لا تلم أغصانها إن رقصت ... فهى ما بين شراب وسماع

وقال بعضهم فى طُلَيطلة :

زادت طُلَيْطلة على ماحَدَّثوا   بَلَدٌ عليه نَضْرَةٌ ونَعِيمُ
الله زيَّنه فوشَّحَ خَصْرَه   نَهرُ المجرّة والغصونُ نجومُ

خطاب يتضمن مناظرة بين بلاد الأندلس

ولا حرج أن أوردنا هنا ما خاطب به أديبُ الأندلس أبو بحر صفوان بن إدريس الأميرَ عبد الرحمن ابن السلطان يوسف بن عبد المؤمن بن على ، فإنه مناسب ، ونصه : مولاى ، أمتع الله ببقائك الزمانَ وأبناءه ، كما ضم على حبك أحناءهم وأحناءه[1] ، وأوصل لك ماشئت من المنّ والأمان ، كما نظم قلائد فخرك على لَبَّة الدهر نَظْمَ الجُمان[2] ، فإنك الملك الهمام ، والقمر التمام ، أيامك غُرَر وحُجُول ، وفِرِنْدُ بهائها فى صَفَحات الدهر يجُول ، ألبست الرعية بُرودَ التأمين ، فتنافست فيك من نفيسٍ ثمين ، وتلقت دَعَوات خُلْدك لها باليمين ، فكم للناس ، من أمن بك و إيناس ، وللأيام ، من لَوْعة فيك وهُيَام ، وللأقطار ، من لُبانات لديك وأوطار ، وللبلاد ، من قراع على تملكك لها وجلاد ، يتمنون شَخْصك الكريم على الله و يقترحون ، و يغتبقون فى رياض ذكرك العاطر بمدام حبك و يصطبحون ، كل حِزْب بما لديهم فَرِحُون ، محبةً من الله ألقاها لك حتى على الجماد ، ونَصْرًا مؤزَّرا تنطق به ألسنة السيوف على أفواه الأغماد ، ومن أسَرَّ سريرة ألبسه الله رداءها ، ومَنْ طوى حسن نية ختم الله له بالجميل إعادتها و إبداءها ، ومَنْ قدّم صالحا فلابدّ أن يوازيه ، ومَنْ يفعل الخير لايعدم جَوَازيه[3] ، ولما تخاصمت فيك من الأندلس الأمصار ، وطال بها الوقوفُ على حبك والاقتصار ، كلها يُفْصِح قولا ، ويقول : أنا أحقّ وأولىٰ ، و يُصِيخ إلى إجابة دعوته و يُصْغِى ، و يتلو إذا

(١) الأحناء : الصدور ، واحدها حنو .

(٢) اللبة ــ بفتح اللام وتشديد الباء ــ النحر ، واللجين ــ بضم اللام ــ الفضة

(٣) جوازيه : جمع جازية ، وهى المكافأة على الشىء ، وقد أخذ هذا من قول الشاعر :

من يفعل الخير لا يعدم جوازيه   لا يذهب العرف بين الله والناس

بُشِّر بك ذلك ما كنا نبغي، تَنَمَّرَتْ حمص ُغيظاً[١]، وكادت تفيظ فيظاً ، وقالت : ماهم يزيدون وينقصون ، ويطمعون ويحرصون ، إن يتبعون إلا الظنّ وإن هم إلا يَخْرُصون ، ألهم السَّهْم الأسدّ ، والساعد الأشدّ ، والنهر الذى يتعاقب عليه الجزر والمدّ ، أنا مصر الأندلس والنيل نهرى ، وسماكى التأنُّس والنجوم زهرى ، إن تجاريتم فى ذلك الشرف ، فحسبى أن أفيض فى ذلك الشرف[٢] ، وإن تبجحتم بأشرف اللبوس ، فأى إزار اشتمالتموه كشنتبوس ، لى ما شئت من أبنية رِحاب ، وروضٍ يستغنى بنضْرَته عن السَّحاب ، قد ملأت زهراتى وِهادا ونِجادا ، وتوشَّحَ سيف نهرى بحدائقى نِجادا ، فأنا أولاكم بسيدنا الهمام وأحقّ ، الآن حَصْحَصَ الحق[٣] .

فنظرتها قرطبة شَزْرًا ، وقالت : لقد كَثَّرْتِ نَزْرًا[٤] ، وبَذَرْتِ فى الصخر الأصم بزرا ، كلامُ العِدَى ضربٌ من الهذيان[٥] ، وأنى للإيضاح والبيان ، متى استحال المستقبَحُ مستحسناً ، ومن أودع أجفان المهجور وَسَنا ، أفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَناً ، ياعجباً للمراكز تقدّم على الأسنة ، وللأثفار تفضَّل على الأعنة ، إن ادعيتم سبقا ، فَمَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى ، لى البيت المطهر الشريف ، والاسم الذى ضَرب عليه رِوَاقَهُ التعريفُ ، فى بقيعى محل الرجال الأفاضل ، فليرغم أنف المناضل ، وفى جامعى مشاهد ليلة القدر ، فحسبى من نَبَاهة القدر ، فما لأحدٍ أن يستأثر على بهذا السيد الأعلى ، ولا أرضى له أن يوطىءَ غيرَ ترابى نعلا ، فأقِرُّوا لى

---

(١) هكذا فى ب ، ز ، والمشهور فى مثل هذا أن يقال « تميزت غيظا » ومنه ماورد فى الكتاب الكريم فى صفة جهنم : (تكاد تميز من الغيظ كلما ألقى فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير) ومعنى « تميز من الغيظ » تتمزق بسبب غيظها

(٢) الشرف الأول : رفعة القدر وعلو المنزلة ، والشرف الثانى : مكان قد سبق ذكره (ص ١٥٠ من هذا الجزء)

(٣) حصحص الحق : ظهر ووضح (٤) أى صيرت القليل كثيرا

(٥) هذا من قول المتنبي من قصيدة يمدح فيها كافورا الإخشيدى :

ولله سر فى علاك ، وإنما كلام العدى ضرب من الهذيان

بالأبوّة ، وانقادوا لى على حكم البنوّة ، ولا تكونوا كالتى نقضت غزلها من بعد قوّة ، وكُفُّوا عن تباريكم[١] ، ذلكم خيرٌ لكم عند باريكم .

فقالت غرناطة : لى المعقل[٢] الذى يمتنع ساكنه من النجوم ، ولا تجرى إلا تحته جيادُ الغيث السَّجوم ، فلا يلحقنى من مُعاند ضررٌ ولا حيف ، ولا يهتدى إلى خيالٌ طارق ولا طيف ، فاستسلموا قولا وفعلا ، فقد أفلح اليومَ مَن استعلى ، لى بِطاح تقلدت من جداولها أسلاكا ، وأطلعت كواكب زهرها فعادت أفلاكا ، ومياه تسيل على أعطافى كأدمع العشاق ، وبرد نسيم يردد ماء المستجير بالانتشاق ، فحُسْنى لا يطمع فيه ولا يحتال ، فدعونى فكل ذات ذيل تختال ، فأنا أولى بهذا السيد الأعدل ، وما لى به من عِوَض ولا بدل ، ولم لا يعطف على عنان مجده ويَثْنِى ، وإن أنشد يوما فإياى يَعْنى :

بلاد بِهَا عقَّ الشبابُ تمائمى وأولُ أرضٍ مَسَّ جلدى تُرَابُهَا

فمالكم تعتزُون لفخرى وتنتمون[٣] ، وتتأخرون فى ميدانى وتتقدمون ، تبرؤا إلى مما تزعمون ، ذلكم خيرٌ لكم إن كنتم تعلمون .

فقالت مالقة : أتتركونى بينكم هَمَلا ، ولم تعطونى فى سيدنا أملا ، ولِمَ ولى البحر العجاج ، والسبلُ الفِجاج ، والجنات الأثيرة ، والفواكه الكثيرة ، لدى من البَهْجَة ماتستغنى به الحمامُ عن الهَدِيل ، ولا تجنحُ الأنفس الرقاق الحواشى إلى تعويض عنه ولا تبديل ، فمالى لا أعطى فى ناديكم كلاما ، ولا أنشر فى جيش فخاركم أعلاما ؟

فكأن الأمصار نظرتها ازدراء ، فلم ترلحديثها فى ميدان الذكر إجراء ، لأنها مَوْطِن لا يحلى منه بطائل ، ونظن البلاد تأوّلَتْ فيها قول القائل :

إذا نَطَقَ السفيهُ فلا تُجِبْهُ فخيرٌ من إجابته السُّكُوتُ

---

(١) تباريكم : مباراة بعضكم بعضا ، والمباراة : أن تعارض غيرك وتفعل مثل فعله ليظهر الغلب لأحدكما .

(٢) المعقل : أراد الحصن (٣) اعتزي : انتسب ، وكذلك انتمى

فقالت مُرْسِية : أمامى تتعاطوْنَ الفخْرَ ، وبحضرة الدر تُنَفِّقون الصخر[١] ؟ إن عُدَّت المفاخر ، فلى منها الأول والآخر ، أين أوشالُكم من بَحْرِى[٢] ، وخَرَزكم من لؤلؤ نَحْرى ، وجَعْجَعتُكم من نَفَثَات سِحْرِى[٣] ؟ فلى الروض النَّضير ، والمرأى الذى ماله من نظير ، ورتقاتى التى سار مَثَلُها فى الآفاق ، وتبرقع وَجْهُ جمالها بغرَّة الإصفاق ، فمن دَوْحات ، كم لها من بكور ورَوْحات ، ومن أرجاء ، إليها تمد أيدى الرجاء ، فأبنائى فيه فى الجنة الدنيوية مُودعون ، يتنعمون فيما يأخذون ويَدَعُون[٤] ، ولهم فيها ماتشتهى أنفسهم ولهم فيها مايدَّعُون ، فانقادوا لأمرى ، وحاذروا اصطلاء جمرى ، وخلُّوابينى وبين سيدنا أبى زيد ، وإلاضربتكم ضرب زيد[٥] ، فأنا أولاكم بهذا الملك المستأثر بالتعظيم ، وما يُلَقَّاها إلا ذو حَظٍّ عظيم .

فقالت بَلَنْسِيَة : فيمَ الجدال والقِراع ؟ وعَلامَ الاستهام والاقتراع ؟ وإلامَ التعريض والتصريح ؟ وتحت الرَّغْوة اللبنُ الصريح ، أنا أحوزه من دونكم ، فأخمدوا نارَىْ تحرككم وهدونكم ، فلى المحاسن الشامخة الأعلام ، والجنات التى تُلْقِى إليها الآفاقُ يدَ الاستسلام ، وبرُصافتى وجِسْرى أعارض مدينة السلام ، فأجمعوا على الانقياد لى والسلام ، وإلاَّ فَعَضُّوا بنانا ، واقرَعُوا أسنانا ، فأنا حيث لاتدركون وأنى ، ومولانا لايُهْلِكُنا بما فعل السفهاء منا .

---

(١) تنفقون الصخر : تروجونه وتحاولون أن يصير نافقا رائجا .

(٢) الأوشال : جمع وشل ــ بفتح الواو والشين جميعا ــ وهوالقليل من الماء

(٣) أصل الجعجعة صوت الرحى ، ويرادبها الكلام الذى لاطائل تحته ، والنفثات : جمع نفثة ، وهى كلام يتلوه الساحر على خيط ويتفل معه بريقه ، وكلما قضى شيئا من الكلام عقد عقدة ، وفى القرآن الكريم : (ومن شر النفاثات في العقد) وتطلق النفثات على الكلام البليغ الذى يأخذ بالألباب

(٤) يدعون : يتركون ، والمشهور أن ماضى هذا الفعل مهجور فى الاستعمال

(٥) أراد زيدا الذى يذكره النحاة فى أمثلتهم ويجعلونه دائما ضاربا ، ويجعلون معه عمرا مضروبا ، فتراهم يقولون « ضرب زيد عمرا » وما أشبه ذلك

فعند ذلك ارتمت جَمْرةُ تُدْميرَ بالشَّرار ، واشتدّت أسهُمها لنحور الشِّرار ، وقالت : عِشْ رَجَبا ، تَرَ عَجَبا ، أبعد العصيان والعقوق ، تتهيَّأْنَ لِرُتَبِ ذوى الحقوق ؟ هذه سماء الفخر فمن ضَمَّنَكِ(١) أن تعرجى ، ليس بعُشِّك فادرجى ، لك الوَصَب والخَبَلُ(٢) ، الآن وقد عَصَيْتِ قبل ، أيتها الصانعة الفاعلة ، من أدراك أن تضربى وما أنت فاعلة(٣) ؟ ما الذى يُجْديك الروضُ والزَّهْرُ ؟ أم ما يفيدك الجدول والنهر ؟ وهل يُصْلح العطار ما أفسد الدَّهْر(٤) ؟ هل أنت إلا مَحَطُّ رحل النفاق ، ومنزلٌ مالسُوق الخِصب فيه من نَفَاق ؟ ذَرَاكِ لا يكتحل الطرفُ فيه بهجوع ، وقِرَاكِ لا يُسْمن ولا يغنى من جوع ، فإلام تبرز الإماء فى منصة العقائل ؟ ولكن ذكرى قول القائل(٥) :

بَلَنْسِيَةٌ بِينِى عن القلب سَلْوَةً ... فإنك رَوْضٌ لا أحِنُّ لِزَهْرِكِ

---

(١) وقع فى ب ، ز « ضمك » بغير نون

(٢) الوصب : التعب ، والعذاب الشديد ، والخبل : الجنون ، والفساد .

(٣) « الفاعلة » الأول يريد به الفاجرة ، ويقولون « فلان فاعل تارك » يريدون أنه كثير الذنوب ، و « فاعلة » الثانى من اصطلاح النحاة ، ومعناه الذى أحدث الفعل

(٤) هذا مثل أجراه المولدون ، يضرب لمن شوهه الكبر وغير محاسنه وأظهر فى وجهه التجاعيد ونحوها ، وهو يحاول أن يعيد لوجهه نضارته بالأصباغ وألوان التحاسين ، وفي ذلك يقول الشاعر :

عجوز تمنت أن تكون فتية ... وقد لحب الجنبان واحدودب الظهر
تروح إلى العطار تبغى صلاحها ... وهل يصلح العطار ما أفسد الدهر

(٥) سيذكرهما المؤلف فى (ص ١٦٧) وينسبهما إلى أبى عبد الله بن عياش ، ونسبهما ياقوت لابن حريق

وكَيْفَ يحبُّ المرءُ دارًا تقسَّمت على صارمَىْ جُوعٍ وفتنةِ مُشْرِكِ[1]

بَيْدَ أنى أسأل الله تعالى أن يُوقِدَ من توفيقك ماخمد ، ويُسِيل من تسديدك ماجَمَد ، ولا يُطِيل عليك فى الجهالة الأمد ، وإياه سُبْحانه نسأل أن يردّ سيدنا ومولانا إلى أفضل عوائده ، ويَجْعَلَ مصائب أعدائه من فوائده ، ويمكن حُسَامه من رقاب المشغّبين ، ويُبقيه وجيهاً فى الدنيا والآخرة ومن المقربين ، ويَصِل له تأييداً وتأبيداً ، ويُمهّدَ له الأيام حتى تكون الأحرار لعبيد عبيده عبيدا ، ويمد على الدنيا بساط سَعْده ، ويَهَبَهُ مُلْكاً لاينبغى لأحد من بعده :

آمين آمين لا أرْضَى بواحِدَةٍ حَتَّى أُضيفَ إليهَا ألف آمينا

ثم السلام الذى يتأنق عَبَقاً ونَشْرا ، ويتألق رَوْنقاً وَبِشْرا ، على حضرتهم العلية ، ومطالع أنوارهم السنية الجلية ، ورحمة الله تعالى وبركاته ، انتهى .

ابن بطوطة يصف غرناطة

ولما ألم الرحَّالة ابنُ بَطوطة فى رحلته بدخوله بلاد الأندلس ـ أعادها الله تعالى للإسلام! ـ قال : فوصَلْتُ إلى بلاد الأندلس ـ حرسها الله تعالى ! ـ حيث الأجر موفور للساكن ، والثواب مذخور للمقيم والظاعن ، إلى أن قال عند ذكره غَرناطة مانصه : قاعدة بلاد الأندلس ، وعروس مدنها ، وخارجُها لانظير له فى الدنيا ، وهو مسيرة أربعين ميلا ، يخترقه نهرشِنِيل المشهور، وسواه من الأنهار الكثيرة ، والبساتين الجليلة ، والجنات والرياضات والقصور ، والكُرُوم مُحْدِقة بها من كل جهة ، ومن عجيب مواضعها عينُ الدمع ، وهو جبل فيه الرياضات والبساتين ، لامثل له بسواها ، انتهى .

الشقندى يصف غرناطة

وقال الشقندى : غَرْناطة دمشقُ بلاد الأندلس ، ومَسْرَح الأبصار ، ومَطْمح الأنفس ، ولم تخل من أشرافٍ أماثِلَ ، وعلماء أكابر ، وشعراء أفاضل ، ولو لم يكن بها إلاماخصها الله تعالى به من كونها قد نَبَغَ فيها النساء الشواعر كنزهُون

(١) فى ياقوت « على ضاربى جوع »

القلعية(١) والرَّكُونية وغيرها ، وناهيك بهما فى الظَّرْف والأدب ، انتهى .

ولبعضهم يتشوّق إلى غَرْناطة فيما ذكره بعض المؤرخين ، والصواب أن الأبيات قيلت فى قُرْطُبة كما مرّ(٢) ، والله أعلم .

أغَرْناطَةُ الغرّاءَ هل لىَ أوْبَة ... إليك ؟ وهل يَدْنُو لنا ذلك العهدُ ؟

سَقَى الجانبَ الغربىَّ منك غَمَامَة ... وقَعقع فى ساحات رَوْضتك الرَّعْدُ ؟

لياليك أسحار ، وأرضك جنة ، ... وتُرْبُكِ فى استنشاقها عَنْبَرٌ وَرْدُ

وقال ابن مالك الرُّعَيْنى :

رَعَى اللهُ بالحمراءِ عَيشاً قَطعْتُهُ ... ذهبت به للأنس، والليلُ قد ذهَبْ

ترى الأرض منها فِضَّةً فإذا اكْتَسَتْ ... بشَمْسِ الضُّحَى عادت سبيكتُها ذهَبْ

وهو القائل :

لا تَظنُّوا أنَّ شَوْقى خَمَدا ... بعدَكُمْ أو أن دمْعِى جَمَدا

كيفَ أسلو عن أناسٍ مثْلُهُمْ ... قلَّ أنْ تُبْصِر عينى أحَدَا

وغرناطة من أحسن بلاد الأندلس ، وتسمى بدمشق الأندلس ، لأنها أشبه

---

(١) القلعية : المنسوبة إلى القلعة ــ بفتح القاف وسكون اللام ــ وفى الأندلس إقليم يسمى القلعة ، وهو من كورة قبرة ، قال ياقوت « وأنا أظن الرصاص القلعى إليها ينسب ، لأنه من الأندلس يجلب ، فيكون منسوبا إليها أو إلى غيرها مما يسمى بالقلعة هناك » اه . وفي الأندلس مدينة تسمى « قلعة أيوب » وهى مدينة عظيمة جليلة القدر بالأندلس بالثغر ، وكذا ينسب إليها فيقال « ثغرى » وهى من أعمال سرقسطة، بقعتها كثيرة الأشجار والأنهار والمزارع، ولها عدة حصون، وبالقرب منها مدينة لبلة .

(٢) سبقت هذه الأبيات فى (ص ١٤٨) من هذا الجزء .

شىء بها ، ويَشُقُّها نهر حدرة[١] ، ويُطِلُّ عليها الجبل المسمى بشُلَير الذى لا يَزُول الثلج عنه شتاءً وصيفاً ، ويجمد عليه حتى يصير كالحجر الصَّلْد ، وفى أعلاه الأزاهر الكثيرة ، وأجناس الأفاويه الرفيعة ، ونزل بها أهلُ دمشق لَمَّا جاءوا إلى الأندلس لأجل الشبه المذكور ، وقرى غَرْناطة ـ فيما ذكر بعض المتأخرين ـ مائتان وسبعون قرية .

ابن جزى يصف غرناطة

وقال ابن جُزَىّ مرتب رحلة ابن بطوطة ، بعد ذكر كلامه ، ما نصه : قال ابن جزى : لولا خشية أن أُنْسَبَ إلى العصبية لأطلت القول فى وصف غَرْناطة ، فقد وجدت مكانه ، ولكنَّ ما اشتهر كاشتهارها لا معنى لإطالة القول فيه ، ولله در شيخنا أبى بكر ابن محمد بن شيرين السبتى نزيل غَرْناطة حيث يقول :

رَعَى الله من غَرْناطة مُتَبَوَّأً ... يَسُرُّ حزيناً أو يُجِير طَرِيدَا[٢]

تبرَّمَ منها صاحِبِى عندَ ما رَأى ... مَسارِحَها بالثلج عُدْنَ جَليدَا

هىَ الثَّغْر صان الله مَنْ أهلَتْ به ... وما خَيْرُ ثغرٍ لا يكون بَرُودَا؟!

وقال ابن سعيد عندما أجرى ذكر قرية نارجة ـ وهى قرية كبيرة تضاهى المدن ، قد أحدقت بها البساتين ، ولها نهر يفتن الناظرين ، وهى من أعمال مالَقَة ـ : إنه اجتاز مرة عليها مع والده أبى عمران موسى ، وكان ذلك زمانَ صباغة الحرير

---

(١) ضبط اسم هذا النهر فى الروض ضبط قلم بفتح الحاء وتشديد الدال مفتوحة وقال في وصف غرناطة : « إغرناطة : مدينة بالأندلس ، بينها وبين وادى آش أربعون ميلا ، وهى من مدن إلبيرة ، وهى محدثة من أيام الثوار بالأندلس ، وإنما كانت المدينة المقصودة إلبيرة ، فخلت وانتقل أهلها منها إلى غرناطة ، ومدنها وحصن أسوارها ، وبنى قصبتها حبوس الصنهاجى ، ثم خلفه ابنه باديس بن حبوس ، فكملت في أيامه ، وعمرت إلى الآن ، ويشقها نهر حدره ، وبينها وبين إلبيرة ستة أميال ، وتعرف بإغرناطة اليهود ، لأن نازليها كانوا يهود ـ إلخ » .

(٢) المتبوأ : مكان النزول والإقامة ، وفى القرآن الكريم : (أن تبوآ لقومكما بمصر بيوتا) .

عندهم ، وقد ضربوا فى بطن الوادى بين مقطعاته خيما ، و بعضهم يغنى ويطرب، وسألوا : بم يعرف ذلك الموضع ؟ فقالوا : الطراز ، فقال والدى : اسم طابق مسماه ، ولفظ وافق معناه .

وقَدْ وَجَدْتَ مَكان الْقوْل ذَاسَعَةٍ فإن وَجَدْت لسَانًا قائلاً فَقُل

ثم قال أجز : بنارِجَةٍ حيث الطرازُ المنمنمُ[(١)]

فقلت : أقِمْ فَوْقَ نهرٍ ثغرُه يَتَبَسَّمُ

فقال : وَسَمْعُك نحو الهاتفاتِ فإنها[(٢)]

فقلت : لما أبصرت من بَهْجَة تترَنَّمُ

فقال : أيا جنة الفردوس لست بآدم

فقلت : فلا يكُ حَظِّى من جَنَاكَ التندُّمُ

فقال : يعزُّ علَيْنَا أن نزورك مثل ما

فقلت : يزور خيَال من سُلَيْمَى مُسَلِّمُ

فقال : فلو أننى أعْطَى الخيارَ لما عدَتْ[(٣)]

فقلت : محلَّك لى عَيْنٌ بمَرْآكِ تَنْعَمُ

فقال : بحيْثُ الصَّبَا والطَّل مِنْ نفثَاتها

فقلت : وَقتْ لسْع رَوْض فيهِ للنهر أرْقَمُ[(٤)]

فقال : فوا أسَفِى إن لم تكن لى عَوْدَة

---

(١) أراد هنا من الطراز بساط الطبيعة الذى نشرته على أرضها من الزروع والرياحين ، وأراد بالمنمنم الموشى بالزهر ونحوه

(٢) الهاتفات : جمع هاتفة ، وأراد بها الحمائم التى تغرد وترجع

(٣) عدت : جاوزت ، يريد لما فارقتك ولبقيت فى ذراك أنعم بك

(٤) الأرقم : الحية ، شبه تجعد ماء النهر بظهر الحية الرقطاء ، وهو تشبيه كثير الورود فى كلامهم

فقلت : فكُنْ مالكًا إنى عليك مُتَمِّمُ[1]

فقال : فأحْسَبُ هذا آخِرَ العهدِ بيننا

فقلت : وقَدْ يلحظُ الرَّحْمٰنُ شوقى فيَرْحَمُ

فقال : سَلامٌ سلام لا يَزالُ مُرَدَّدًا

فقلت : عليك ولازالت بك السُّحْبُ تَسْجُمُ

ابن سعيد يصف بلنسية

وقال ابن سعيد : إن كورةَ بَلَنْسية من شرق الأندلس ينبت بها الزعفران ، وتعرف بمدينة التراب ، وبها كمثرى تسمى الأرزة فى قدر حبة العنب ، قد جَمَعَ مع حلاوة الطعم ذكاء الرائحة ، إذا دخل دارًا عُرِف بريحه ، ويقال : إن ضوء بَلَنْسية يزيد على ضوء سائر بلاد الأندلس ، وبها مَنارة ومسارح ، ومن أبدعها وأشهرها الرُّصَافة ومُنْية ابن أبى عامر .

وقال الشرف أبو جعفر بن مسعدة الغرْناطى من أبيات فيها :

هِىَ الفِرْدَوْسُ فى الدنيا جَمالاً لساكِنِهَا وكارِهها البَعُوضُ

وقال بعضهم فيها :

ضاقَتْ بَلَنْسِية بى وذَادَ عَنِّى غموضى
رَقْصُ البراغيثِ فيها عَلَى غِنَاءِ الْبَعُوضِ

وفيها لابن الزَّقَاق البَلَنْسِى .

بَلَنْسِية ـ إذا فَكَّرْتَ فيها وفى آياتها ـ أسْنَى البلادِ
وَأعْظَم شاهِدِى منها عَلَيْهَا وأنَّ جَمالها لِلعَيْنِ بادِى
كَسَاهَا رَبُّها دِيباجَ حُسْنٍ لَهَا عَلَمَانِ من بَحْرٍ وَوَادِى

وقال ابن سعيد أيضاً : أنشدنى والدى قال : أنشدنى مَرْوَان بن عبد الله

(١) أشار إلى متمم بن نويرة ، الذى ظل يبكى أخاه مالك بن نويرة الذى قتله خالد ابن الوليد

ابن عبد العزيز ملك بلنسية لنفسه بمراكش قوله[١] :

كأن بَلَنْسِيَةً كاعبٌ ومَلْبَسُهَا سُنْدُس أَخْضَرُ[٢]

إذا جِئْتَهَا سترَتْ نفسهَا بأ كمامِهَا فهْىَ لاَ تَظْهَرُ

وأما قول أبى عبد الله بن عياش « بلنسية بينى ـ البيتين » وقد سبقا[٣] فقال ابن سعيد : إن ذلك حيث صارت ثغراً يُصَابحها العدوّ و يماسيها ، انتهى

وقال أبو الحسن بن حريق يجاوب ابن عياش :

بَلَنْسِيَةٌ قَرَارَةُ كلِّ حُسْنٍ حَدِيث صَحَّ فى شرقٍ وغَرْبِ

فإن قالوا مَحَل غَلاء سِعْرٍ ومَسْقط دِيمَتَىْ طَعْنٍ وَضَرْبِ

فَقُلْ هى جَنَّـةٌ حُفَّتْ رُبَاها بمَكْروهَيْنِ من جُوعٍ وحَرْبِ[٤]

وقال الرُّصافى فى رُصافتها :

وَلاَ كالرُّصافة مِنْ مَنْزِل سَقَتْه السحائبُ صَوْبَ الوَلِىِّ[٥]

أَحِنُّ إليها وَمَنْ لِى بها وَأَيْنَ السرىُّ مِنَ المَوْصِلِىِّ[٦]

وقال ابن سعيد : و برُصافة بَلَنْسِيَةَ مناظر و بساتين ومياه ، ولا نعلم فى الأندلس مايسمى بهذا الاسم إلا هذه ورُصافة قُرْطبة ، انتهى .

ومن أعمال بَلَنْسِيَةَ قرية المنصف التى منها الفقيه الزاهد أبو عبد الله المنصفى

---

(١) هذان البيتان ينسبان إلى أبي العباس أحمد بن الزقاق فى وصف بلنسية ، وممن نسبهما إليه ياقوت الحموى فى معجم البلدان

(٢) فى ياقوت «وملبسها السندس الأخضر» والكاعب: الفتاة التى برز نهداها

(٣) انظرهما فى (ص ١٦٣ من هذا الجزء)

(٤) أخذ معنى هذا البيت من حديث يروى عن النبى صلوات الله وسلامه عليه ، وهو « حفت الجنة بالمكاره ، وحفت النار بالشهوات »

(٥) الولى ـ بفتح الواو وكسر اللام وتشديد الياء ـ هو المطر يأتى بعد مطر

(٦) السرى : اسم أبى الحسن السرى بن أحمد بن السرى ، الكندى ، الرفاء ، أحد شعراء سيف الدولة

وقبره كان بسَبْتة يزار ، رحمه الله تعالى ! ومن نظمه :

قالَتْ لِيَ النفسُ أتاكَ الردَى وأنْتَ فى بحر الخطَايَا مُقِيمْ
فمَاادَّخَرْتَ الزاد ، قلت : اقْصِرِى هَلْ يُحْمَلُ الزادُ لدار الكَرِيم

ومن عمل بَلَنْسِيَة قرية بطرنة ، وهى التى كانت فيها الوقعة المشهورة للنصارى على المسلمين ، وفيها يقول أبو إسحاق بن يَعْلَى الطرسونى :

لَبِسُوا الحديد إلى الْوَغَى وَلَبِسْتُمُ حُلَلَ الحرير عَلَيكُمُ أَلْوَانَا
ما كان أَقْبَحَهُمْ وأحْسَنَكم بها لو لم يَكُنْ ببطَرْنةٍ ما كانَا

ومن عمل بَلَنْسِيَة متيطة التى نسب إليها جماعة من العلماء والأدباء .

ومن عمل بَلَنْسِيَة مدينة أُنْدَة التى فى جَبَلها معدنُ الحديد ، وأما رُنْدَة ـ بالراء ـ فهى فى متوسط الأندلس ، ولها حصن يعرف بأندة أيضاً .

وفى إشبيلية ـ أعادها الله ! ـ من المتفرَّجات والمتنزهات كثير ، ومن ذلك مدينة طَرْيانة ، فإنها من مدن إشبيلية ومتنزهاتها ، وكذلك تَيْطَل ، فقد ذكر ابن سعيد جزيرة تَيْطَل فى المتفرجات .

وقال أبو عمران موسى بن سعيد فى جوابه لأبى يحيى صاحب سَبْتة لما استوزره مستنصر بنى عبد المؤمن ، وكتب إلى المذكور يرغبه فى النقلة عن الأندلس إلى مَرَّاكشَ ، ما نصُّ محلِّ الحاجة منه : وأما ماذكر سيدى من التخيير بين ترك الأندلس و بين الوصول إلى حضرة مراكش ، فكفى الفهمَ العالى من الإشارة قولُ القائل :

والعِزُّ محمودٌ وَمُلْتمس وألَذُّه ما كان فى الْوَطَن

فإذا نلت بك السماء فى تلك الحضرة ، فعلى مَنْ أسود فيها ؟ ومن ذا أضاهى بها ؟

لارَقَتْ بى هِمَّةٌ إن لم أكن فيك قد أَمّلْتُ كل الأمل

و بعد هذا ، فكيف أفارق الأندلس وقد علم سيدى أنها جنة الدنيا بما حَبَاها

الله به من اعتدال الهواء ، وعذوبة الماء ، وكثافة الأفياء[١] ، وأن الإنسان لا يبرح فيها بين قرة عين وقَرار نفس :

هىَ الأرضُ لاوِرْدٌ لديها مُـكَدَّرٌ ولا ظَلَّ مقصور ولا رَوْض مجدب

أُفق صقيل ، و بساط مُدَبج ، وماء سائح ، وطائر مترنم بليل ، وكيف يعدل الأديب عن أرض على هذه الصفة ، فياسَمَوْأَل الوفاء[٢] ، ويا حاتم السماح[٣] ، ويا جَذِيمة الصفاء[٤] ، كَمِّلْ لمن أَمَّلَكَ النعمة بتركه فى موطنه ، غير مكدر لخاطره بالتحرك من معدنه ، متلفتاً إلى قول القائل :

وَسَوَّلَتْ لِي نَفْسِي أَنْ أُفارِقَهَا والماء فى المُزْنِ أصفى منه فى الغُدُرِ[٥]

فإن أغناه اهتمام مؤمّله عن ارتياد المَرَاد ، و بلغه دون أن يشد قتَباً ولا أن يُنْضِى عِيساً غاية المُرَاد ، أنشد ناجِحَ المرغوب ، بالغ المطلوب :

ولَيْسَ الذى يَتَبَّعُ الوَبْلَ رائداً كَمَنْ جاءه فى داره رائدُ الوَبْلِ

ورب قائل إذا سمع هذا التبسط على الأمانى « ماله تشطط ، وعدل عن سبيل التأدب وتبسط » ولا جواب عندى إلا قولُ القائل :

فَهذِهِ خُطَّة مازلْتُ أرقبُها فاليومَ أبْسُط آمالِي وَأَحْتَكِمُ

ومالى لا أنشد ماقاله المتنبى فى سيف الدولة :

---

(١) الأفياء : جمع فيء ، وهو الظل

(٢) السموأل : هو ابن عادياء اليهودى ، مضرب المثل فى الوفاء والحفاظ

(٣) حاتم : أراد به أباسفانة حاتما الطائى ، مضرب المثل فى الجود والكرم

(٤) جذيمة : أراد به جذيمة الأبرش أحد ملوك العرب ، وكان قد اتخذ له نديمين يشار بانه ويسامرانه ، وضرب باجتماعهما المثل ، وذكرتهما الشعراء في أشعارها ، فمن ذلك قول متمم بن نويرة فى بعض مراثيه لأخيه مالك :

وكنا كندمانى جذيمة حقبة من الدهر حتى قيل لن نتقطعا
فلما تفرقنا كأنى ومالكا لطول اجتماع لم نبت ليلة معا

(٥) المزن : السحاب ، والغدر : جمع غدير ، وهو القطعة من الماء يغادرها السيل

وَمَنْ كُنْتَ بَحْرًا له يا علىّ لم يَقْبَلِ الدُّرَّ إلاَّ كِبَارَا

انتهى المقصود منه .

الحجارى يصف شريش

وقال الحجارى : إن مدينة شَرِيشَ بنت إشبيلية ، وواديها ابن واديها ، ما أشبه سعدى بسعيد ، وهى مدينة جليلة ضخمة الأسواق ، لأهلها همم ، وظرف فى اللباس ، و إظهار الرفاهية ، وتخلق بالآداب ، ولا تكاد ترى بها إلا عاشقاً أو معشوقاً ، ولها من الفواكه مايعم و يفضل ، ومما اختصت به إحسان الصنعة فى المجبنات ، وطيبُ جبنها يعين على ذلك ، و يقول أهل الأندلس : من دخل شريش ولم يأكل بها المجبنات فهو محروم ، انتهى .

والمجبنات : نوع من القطائف يضاف إليه الجبن فى عجينها ، وتقلى بالزيت الطيب .

وصف شلب

وفى شِلْبَ[١] يقول الفاضل الكاتب أبو عمرو بن مالك بن سَبْدَمير :

أَشَجَاكَ النسيمُ حين يَهُبُّ أم سَنَى البرقِ إذيَخُبُّ و يَخْبُو
أم هَتوفٌ على الأراكة تَشْدُو أم هَتونٌ من الغَمامة سَكْبُ
كلٌّ هٰذاكَ للصَّبابة داعٍ أىُّ صبّ دموعُه لا تصُبُّ
أنا لَوْلاَ النسيمُ والْبَرْقُ والْوُرْ قُ وصَوْبُ الغمام ما كنتُ أصْبُو
ذ كرتْنِي شِلباً وهيهات مِنِّى بَعْدَما استحكم التَّبَاعُدُ شِلْبُ

وتسمى أعمال شلب كورة أشكونية[٢] ، وهى متصلة بكورة أشبونة ، وهى - أعنى أشكونية[٢] - قاعدة جليلة ، لها مدن ومعاقل ، ودار ملكها قاعدة شِلْب ، و بينها

---

(١) شلب - بكسر الشين وسكون اللام - قال في الروض : « من بلاد الأندلس ، وهى قاعدة كورة أكشونية ، وهى مدينة بقبلى مدينة باجة ، ولها بسائط فسيحة ، وبطائح عريضة ، ولها جبل عظيم منيف ، كثير المسارح والمياه ، وأكثر ما ينبت فيه شجر التفاح العجيب ، يتضوع منه روائح العود » اه .

(٢) الذى فى الروض « أكشونية » بضم النون وبعدها باء موحدة ، بضبط القلم ، وذكر ياقوت « أكشونية » بياء مثناة خفيفة بعدنون مكسورة ، وذكر « أشكونية » فى بلاد الروم غزاها سيف الدولة بن حمدان من حلب .

و بين قرطبة سبعة أيام ، ولما صارت لبنى عبد المؤمن ملوك مراكش أضافوها إلى كورة إشبيلية ، وتفتخر شِلْب بكون ذى الوزارتين ابن عمار منها، سامحه الله !

ومنها القائد أبو مروان عبد الملك بن بَدْران ، وربما قيل « ابن بدرون » الأديب المشهور ، شارح قصيدة بن عَبْدُون التى أولها :

الدَّهْرُ يَفْجَعُ بعد العين بالأثر ... فما البكاء على الأشْبَاح والصُّوَرِ

وهذا الشرح شهير بهذه البلاد المشرقية ، ومن نظم ابن بدرون المذكور قوله :

العِشْقُ لذّتُهُ التَّعْنيقُ والقُبَل ... كما مُنَغِّصُه التثريبُ والعَذَلُ

ياليْتَ شِعْرِىَ هل يُقْضَىٰ وصالُكم ... لولا الْمُنَى لم يكن ذا العمرُ يَتَّصِلُ

ومنها نحوىُّ زمانه وعلامته أبو محمد عبد الله بن السِّيد البَطَلْيَوْسى ، فإن شلبا بَيْضته ، ومنها كانت حركته ونهضته ، كما فى الذخيرة ، وهو القائل :

إذا سألونى عَنْ حالتى ... وحاوَلْتُ عُذْرًا فلم يمكنِ

أقولُ : بخير ، ولكنَّهُ ... كلامٌ يَدُورُ على الألْسُنِ

وَرَبك يعلم مافى الصُّدور ... ويَعْلم خائنة الأعْيُنِ

وقال الوزير أبو عمرو بن الغَلَّاس يمدح بَطَلْيَوْسَ بقوله :

بطليوسُ لا أنساكِ مااتَّصَل البعدُ ... فلله غَوْرٌ فى جَنَابك أو نَجْدُ[1]

ولله دَوْحاتٌ تحفكِ يُنَّعاً ... تَفَجَّرَ واديها كما شُقِّقَ الْبُرْدُ[2]

و بنو الغَلاس من أعيان حضرة بَطَلْيوس ، وأبو عمرو المذكور أشهرهم ، وهو من رجال الذخيرة والمسهب ، رحمه الله تعالى ! .

وفى شاطبة يقول بعضهم :

نِعْمَ مُلقى الرَّحْلِ شَاطِبَة ... لِفَتًى طالت به الرِّحَلُ

---

(١) الغور ـ بفتح الغين وسكون الواو ـ ما انخفض من الأرض ، والنجد ما ارتفع منها.

(٢) الدوحات : جمع دوحة ، وهى الشجرة العالية المظلة ، وينع : جمع يانعة ، وأراد المورقة الناضرة ، وشقق : قطع ، والبرد ـ بالضم ـ الثوب .

بَلْدَةٌ أوقاتها سَحَرٌ وَصَبًا فى ذيْلِه بَلَلُ
ونَسِيمٌ عَرْفُه أَرِجٌ ورياضٌ غصنها ثَمِلُ[١]
وَوُجُوهٌ كلها غُرَرٌ وكلام كلّه مُثُلُ

وفى بَرْجَة يقول بعضهم :

إذا جئت برجةَ مُسْتَوْفِزًا فَخُذْ فى المُقَام وخَلِّ السَّفَرْ[٢]
فكلُّ مكانٍ بها جنّةٌ وكلُّ طريقٍ إليها سَقَرْ

واعلم أنه لولم يكن للأندلس من الفضل سوى كونها ملاعب الجياد للجهاد لكان كافياً ، ويرحم الله لسان الدين بن الخطيب حيث كتب على لسان سلطانه إلى بعض العلماء العاملين مافيه إشارة إلى بعض ذلك ، مانصه : من أمير المسلمين فلان ، إلى الشيخ كذا ابن الشيخ كذا ، وَصَلَ الله له سعادةً تجْذِبُهُ ، وعناية إليه تقربه ، وقبولاً منه يدعوه إلى خير ماعند الله ويندبه ! سلام كريم عليكم ورحمة الله وبركاته ، أما بعدَ حمدِ الله المرشد المثيب ، السميع المجيب ، معوِّد اللطف الخفى والصنع العجيب ، المتكفِّل بإنجاز وعد النصر العزيز والفتح القريب ، والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد رسوله ذى القدر الرفيع والعز المنيع والجناب الرحيب ، الذى به نرجو ظهور عَبَدة الله على عَبَدة الصليب ، ونستظهر منه[٣] على العدو بالحبيب ، ونَعُدّه عدّتنا لليوم العَصِيب[٤] ، والرضا عن آله وصحبه الذين فازوا من مُشَاهدته بأوفى النصيب ، ورَمَوْا إلى هَدَف مرضاته[٥] بالسَّهْم المُصِيب ، فإنا كتبناه إليكم ـ كتَبَ الله تعالى لكم عملا صالحا يختمُ الجهادُ صحائفَ بره ، وتتمحّض لأن تكون كلمة الله

كتاب من لسان الدين ابن الخطيب

---

(١) غصنها ثمل : أراد أنه يهتز ويتمايل كما يتمايل السكران
(٢) مستوفزا : متحفزا للرحيل .
(٣) نستظهر : نستعين ونتقوي به .
(٤) اليوم العصيب : الشديد الكثير المخاوف .
(٥) أصل الهدف : ما يجعله الرماة غرضا لهم يرمونه .

هى العليا جوامعُ أمره ! وجعلكم ممن تهنى فى الأرض التى فيها أبواب الجنة مدة عمره! ـ من حمراء غَرْناطة ـ حرسها الله تعالى! ـ ولطفُ الله هامى السحاب، وصنعه رائق الجناب ، والله يَصِلُ لناولكم ماعوّده من صلة لطفه عندانبتاتِ الأسباب[١]، و إلى هذا أيها المولى الذى هو بركة المغرب المشار إليه بالبنان ، وواحده فى رفعة الشان ، المؤثر ماعندالله على الزخرف الفتّان ، المتقلل من المتاع الفان ، المستشرف[٢] إلى مقام العرفان ، من درج الإسلام والإيمان والإحسان ، فإننا لِمَا نؤثره من بركم الذى نعده من الأمر الأكيد ، ونضمره من ودكم الذى نحله محل الكنز العتيد ، ونلتمسه من دعائكم التماس العدة والعديد ، لانزال نسأل عن أحوالكم التى ترقّتْ فى أطوار السعادة ، ووصلت جناب الحق بهَجْر العادة ، وألقت إلى يد التسليم لله والتوكل عليه بالمَقَادة ، فنسر بما هيأ الله تعالى لكم من القبول ، و بلغكم من المأمول ، وألهمكم من الكَلَف[٣] بالقرب إليه والوُصُول ، والفوز بما لديه والحصول ، وعندما رد الله تعالى علينا ملكنا الرد الجميل ، وأنالَنَا فضله الجزيل ، وكان لعثارنا المُقِيل ، خاطبناكم بذلك لمكانكم من ودادنا ، ومحلكم من حسن اعتقادنا ، ووَجّهْنا إلى وجهة دعائكم وَجْهَ اعتدادنا ، والله ينفعنا بجميل الظن فى دينكم المتين ، وفَضْلكم المبين ، ويجمع الشَّمْل بكم فى الجهاد عن الدين ، وتعرفنا الآن بمن له بأنبائكم اعتناء ، وعلى جلالكم حمدوثناء ، ولجَنَاب ودكم اعتزاء وانتماء ، بتجاول[٤] عزمكم بين حج مبرور ترغبون من أجره فى ازدياد ، وتجددون العهد منه بأليف اعتياد ، و بين رباط فى سبيل الله وجهاد ، وتوثير مهاد بين رُبًا أثيرة عند الله وَوِهاد ، يُحْشَرُ يوم القيامة شهداؤها مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين ، فَرِحِينَ بما آتاهُمُ اللهُ من فَضْلِهِ ، والله أصدقُ القائلين الصادقين ، حيث لاغارة لغير عدوّ الإسلام تتقى ، إلا لابتغاء مالدى الله تُرْتَقَى ، حيث رحمة الله قد فتحت أبوابها ،

(١) انبتات الأسبات : انقطاعها (٢) المستشرف : المتطلع .

(٣) الكلف : شدة الحب ، والولوع .

(٤) تجاول عزمكم : تردده وتكراره وإدارته بين هذه الأمور .

وحُورُ الجِنان قد زينت أترابها ، دار العُرب الذين قَرَعُوا باب الفتح ، وفازوا بجزيل المَنْح ، وخلدوا الآثار ، وأرْغَمُوا الكفار ، وأقالوا العِثار ، وأخذوا الثار ، وأمنوا من لَفْح جهنم بما علا على وُجُوههم من ذلك الغبار ، فكتبنا إليكم هذا نقوّى بصيرتكم على جهة الجهاد من العَزْمَيْنِ ، ونهبُّ بكم إلى إحدى الحُسْنَيين ، والصبحُ غير خاف على ذى عَيْنَين ، والفضلُ ظاهر لإحدى المنزلتين ، فإنكم إن حَجَجْتم أعدتم فرضاً أديتموه ، وفضلا ارتَدَيْتُمُوه ، فائدتُهُ عليكم مقصورة ، وقضيته فيكم محصورة ، وإذا أقمتم الجهاد جلبتم إلى حسناتكم عملا غريباً ، واستأنفْتُم سعياً من الله قريباً ، وتعدَّت المنفعة إلى ألوف من النفوس ، المستشعِرة لباس البُوس ، ولو كان الجهاد بحيث يخفى عليكم فضلُه لأطْنَبْنَا ، وأعِنَّة[1] الاستدلال أرسلنا ، هذا لو قدمتم على هذا الوطن وفضلكم غُفْل من الاشتهار ، ومَنْ به لا يوجب لكم ترفيع المقدار ، فكيف وفَضْلكم أشهر من مُحَيا النهار ؟ ولقاؤكم أشهى الآمال وآثر الأوطار ، فإن قوِىَ عزمُكم والله يقوّيه ، ويعيننا من بركم على ماننويه ، فالبلادُ بلادكم ، ومافيها طَارِيفكم وتِلاَدُكم ، وكهولها إخوانكم ، وأحْدَاثها أولادُكم ، ونرجو أن تجدوا لذكركم الله فى رُبَاها حلاوة زائدة ، ولا تعدموا من رَوْح الله فيها فائدة ، وتتكيف نفسكم فيها تكيفاتٍ تقصر عنها خلوات السلوك ، إلى ملك الملوك ، حتى تغتبطوا بفضل الله الذى يوليكم ، وتَرَوْا أثر رحمته فيكم ، وتخلفوا فخرهذا الانقطاع إلى الله فى قبيلكم وبنيكم ، وتَخْتِمُوا العمرَ الطيبَ بالجهاد الذى يُعليكم ، ومن الله تعالى يُدنيكم ، فنبيكم العربى صلوات الله عليه وسلامه نبى الرحمة والملاحم ، ومُعْمِل الصوارم[2] ، وبجهاد الفرنج ختم عمل جهاده والأعمالُ بالخواتم ، هذا على بعد بلادهم

---

(١) الأعنة : جمع عنان ، وهو فى الأصل ما تقاد به الدابة ، وقالوا « أرخى فلان العنان لدابته » يريدون تركها تسير حيث شاءت ، ثم قالوا « ترك فلان لنفسه العنان » يريدون أنه أهمل قيادها وتركها ترتع فيما تشتهى من اللذائذ ، ويقولون « ترك فلان عنان القول » أو « أرسل فلان عنان القول » يريدون أنه لم يقف فيه عند حد ، وأنه أطال وأطنب وبالغ .

(٢) الصوارم : السيوف القواطع .

من بلاده ، وأنتم أحقّ الناسِ باقتفاء جهاده ، والاستباق إلى آماده ، هذا ماعندنا حثثنا كم عليه ، وندبناكم إليه ، وأنتم فى إيثارهذا الجوار ، ومُقارضةماعندنا بقدومكم على بلادنا من الاستبشار ، بحسب مايخلق عنكم من بيده مَقَادة الاختيار ، وتصريف الليل والنهار ، وتقليب القلوب و إجالة الأفكار ، و إذا تعارضت الحظوظ فما عند الله خير للأبرار ، والدارالآخرة دار القرار ، وخيرُ الأعمالِ عملٌ أوصل إلى الجنة وباعَدَ من النار ، ولتعلموا أن نفوس أهل الكشف والاطلاع ، بهذه الأرجاء والأصقاع ، قد اتفقَتْ أخبارُهَا ، واتحدت أسرارها ، على البشارة بفَتْح قَرُبَ أوانه ، وأظلّ زمانُه ، فنرجوالله أن تكونوا ممن يحضرمَدْعَاه[1] ، و يكرم فيه مَسْعاه ، و يسلف[2] فيه العمل الذى يشكره الله و يرعاه ، والسلام الكريم يخصكم ورحمة الله و بركاته ، انتهى .

ولما دخل الأندلسَ أميرُ المسلمين على بن أمير المسلمين يوسف بن تاشفين اللَّمْتُونى[3] ملك المغرب والأندلس ، وأمعن النظرفيها ، وتأمل وصفهاوحالها ، قال : إنهاتُشْبه عقابا مَخَالِبُهُ طُلَيْطلة ، وصَدْره قلعة رَبَاح ، ورأسه جيَّان ، ومنقاره غَرْناطة ، وجناحه الأيمن باسط إلى المغرب ، وجناحه الأيسر باسط إلى المشرق ، فى خبر طويل لم يحضرنى الآن ، إذ تركته مع كتبي بالمغرب ، جمعنى الله بها على أحسن الأحوال ! .

أبو بكر المخزومى الهجاء

ومع كون أهل الأندلس سُبَّاقَ حَلْبة الجهاد ، مُهْطعين[4] إلى داعيه من الجبال والوهاد ، فكان لهم فى التّرَف والنعيم والمجون ومداراة الشعراء خوف الهجاء محل وَثير المهاد[5] ، وسيأتى فى الباب السابع من هذا القسم من ذلك وغيره مايشفى و يكفى ، ولكن سنح لى أن أذكر هنا حكاية أبى بكر المخزومى الهَجَّاء المشهور الذى قال فيه لسان الدين بن الخطيب فى الإحاطة : إنه كان أعمى شديد الشر ، معروفا بالهجاء ،

(١) مدعاه : اسم مكان من الدعاء ، يريد أن تحضروا المكان الذى يدعى فيه إليه .
(٢) يسلف : يقدم (٣) اللمتونى : نسبة إلى لمتونة ، وهى قبيلة من قبائل البربر
(٤) مهطعين : مسرعين (٥) وثير المهاد : لين سهل وطىء .

مسلطا على الأعراض ، سريعَ الجواب ، ذكى الذهن ، فطناً للمعاريض ، سابقاً في ميـدان الهجاء ، فإذا مدح ضعف شعره ، والحكاية هى ما حكاه أبو الحسن ابن سعيد فى الطالع السعيد ، إذ قال حكاية عن أبيـه فيما أظن : قدم المذكورُ - يعنى المخزومى - على غَرْنَاطة أيامَ ولاية أبى بكر بن سـعيد ، ونزل قريباً منى ، وكنت أسمع به بنارصاعقة يُرسلها الله على مَنْ يشاء من عباده ، ثم رأيت أن أبدأه بالتأنيس والإحسان ، فاستدعيته بهذه الأبيات :

يا ثانيـــاً للمَعَرِّى ... فى حُسْنِ نَظْمٍ وَنَثْرِ
وَفَرْطِ ظَرْفٍ وَنُبل ... وَغَوْصِ فَهْم وفِـكْرِ
صِلْ ثم وَاصِلْ حَفِيًّا ... بِكلِّ بِرٍّ وَشُكْرِ [1]
وَلَيْسَ إلاَّ حَـدِيثٌ ... كَمَا زَهَا عقـدُ دُرِّ
وَشَادِنٌ يَتَغَنَّى ... على رِبَاب وَزَمْرِ
وما يُسَامح فيـه الـ ... ـغَفُورُ مِنْ كَأْسِ خَمْرِ
وَبَيْنَنَا عَهْدُ حِلْفٍ ... لِيَاسِرٍ حلف كفرِ
نعم فجدّده عَهْـدًا ... بِطِيبِ شُكْرٍ وَيُسْرِ
والكأسُ مثلُ رضاعٍ ... وَمَنْ كَمِثْلِكَ يَدْرِى

ووجه له الوزير أبو بكر بن سعيد عبداً صغيراً قاده ، فلما استقر به المجلس ، وأفعمته روائح النَّد والعود والأزهار ، وهزت عِطْفه الأوتار ، قال :

دارُ السَّعِيدِىّ ذى أم دارُ رِضْوَانِ ... مَاتَشْتَهِى النفسُ فيهاحاضِرٌ دَانِي [2]
سَقَتْ أباريقها للنـدّ سحبُ نَدًى ... تُحْدَى بِرَعْـدٍ لأوتار وَعِيدَانِ [3]
وَالْبَرْقُ من كلِّ دَنٍّ ساكبٌ مَطَرًا ... يُحْيِى به مَيْتُ أفكارٍ وَأَشْجَانِ [4]

---

(١) يقال « فلان حفى بكذا » يراد أنه مبالغ فيه جد طالب له ، والمعنى : واصل من يبالغ فى برك وإلطافك (٢) دار رضوان : هى الجنة ، ودانى : قريب
(٣) تحدى : تساق ، والأوتار والعيدان : من آلات الموسيقى
(٤) دن - بفتح الدال - خابية الخمر

هٰــــذَا النَّعِيمُ الذى كُنَّا نُحَدَّثُهُ ولا سَبيلَ له إلا بآذانِ

فقال له أبو بكر بن سعيد : و إلى الآن لا سبيل له إلا بآذان[١] ، فقال : حتى يبعث الله ولد زنى كلما أنشدت هذه الأبيات قال : إنها لأعمى ، فقال : أما أنا فلا أنطق بحرف ، فقال : مَنْ صمت نجَا ، وكانت نَزْهُون بنت القِلاَعى حاضرة فقالت : وَتَرَاكَ يا أستاذ قديمَ النعمة بمجمر ندّ وغناء وشراب ، فَتَعْجَبَ من تأتِّيه وتشبهه بنعيم الجنة ، وتقول : ما كان يعلم إلا بالسماع ، ولا يبلغ إليه بالعيان ، ولكن مَنْ يجىء من حصن المدور ، وينشأ بين تيوس و بقر ، من أين له معرفة بمجالس النعيم ؟ فلما استوفَتْ كلامَهَا تنحنح الأعمى ، فقالت له : ذبحة ، فقال : من هذه الفاضلة ؟ فقالت : عجوز مقام أمك ، فقال : كذبتِ ، ماهذا صوت عجوز ، إنما هذه نغمة قَحْبَة محترقة تشم روائح ههنا على فراسخ ، فقال له أبو بكر : يا أستاذ ، هذه نزهون بنت القِلاَعى الشاعرة الأديبة ، فقال : سمعت بها ، لا أسمعها الله خيراً ! ولا أراها إلا أيراً ! فقالت له : ياشيخ سوء تناقضت ، وأى خير للمرأة مثل ماذكرت ، ففكر ساعة ثم قال :

عَلَى وَجْهِ نَزْهُونٍ مِنَ الحسنِ مَسْحَة وإن كان قَدْ أَمْسَى من الضوء عارِيَا

قواصِـــدُ نزهونٍ توارِكُ غيرِها وَمَنْ قَصَـدَ البَحْرَ استقلَّ السَّوَاقيَا[٢]

فأعملت فكرها ثم قالت :

قُلْ للوَضِـيع مَقَالاً يُتْلَى إلى حين يُحْشَرْ

من المـدور أُنْشِـئتَ وَالخرا منهُ أعْطَرْ

حَيْثُ البَدَاوَة أَمسَتْ فى مَشْـيِهاتَتَبَخْتَرْ

(١) هذا تعريض بأن المخاطب أعمى

(٢) أصل هذا البيت قول أبى الطيب المتنبي يمدح كافورا الإخشيدى :

قواصد كافور توارك غـيره ومن قصد البحر استقل السواقيا

والبيت الذى قبله هو بيت ينسب لذى الرمة يقوله فى صاحبته مى ، وهو :

على وجه مى مسحة من ملاحة وتحت الثياب العار لو كان باديا

لذاكَ أمْسَيْتَ صَبًّا بِكلِّ شيء مُدَوَّرْ
خُلِقْتَ أعْمَى ولٰكِنْ تَهِيمُ فى كل أعْوَرْ
جازَيْتُ شِعْرًا بِشِعْرٍ فقل لعمرى مَنَ أشْعَرْ
إن كنتُ فى الخلق أنْثَى فإنّ شِعْرِى مُذَكَّرْ

فقال لها اسمعى :

ألاَ قُلْ لنزْهُونَةٍ مالَهَا تجُرُّ من التِّيه أذْيالَهَا
ولو أبْصَرَتْ فَيْشَةً شمَّرَتْ ـ كما عَوَّدَتْنِى ـ سِرْبالَهَا

فحلف أبو بكر بن سعيد أن لا يزيد أحدهما على الآخر فى هجو كلمةً ، فقال المخزومى : أكون هجَّاء الأندلس وأكفُّ عنها دون شىء ؟ فقال : أنا أشترى منك عرضها فاطلب ، فقال : بالعبد الذى أرسلته فقادنى إلى منزلك ، فإنه لين اليد رقيق المشى ، فقال أبو بكر : لولا كونه صغيراً كنت أبلغك به مرادك ، وأهبه لك ، ففهم قصده وقال : أصبر عليه حتى يكبر ، ولو كان كبيراً ما آثرتنى به على نفسك ، فضحك أبو بكر ، وقال : إن لم تهجُ نظماً هجوت نثراً ، فقال : أيها الوزير لا تبديل لخلق الله ، وانفصل المخزومى بالعبد بعد ما أصلح الوزير بينه و بين نزهون ، انتهى .

وفى كتاب « الدر المنضد ، فى وفيات أعيان أمة محمد » تأليف الإمام صارم الدين إبراهيم بن دُقْماق ، قال أبو القاسم بن خلف : كان ـ يعنى المخزومى المذكور ـ حيا بعد الأربعين وخمسمائة ، انتهى .

عبد الوهاب ابن الحسين الحاجب

ونقلت من كتاب « قطب السرور » لابن الرقيق المغربى ، ماملخصه : وممن أدركته وعاشرته عبد الوهاب بن حسين بن جعفر الحاجب ، وذكرته هنا لأنه ملحق بالأمراء المتقدمين غير خارج منهم ولا مقصر عنهم ، بل كان واحد عصره فى الغناء الرائق ، والأدب الرائع ، والشعر الرقيق ، واللفظ الأنيق ، ورقة الطبع ، وإصابة النادر ، والتشبيه المصيب ، والبديهة التى لا يُلْحَق فيها ، مع شرف النفس ، وعلوّ الهمة ، وكان قد قطع عمره ، وأفْنَى دهره ، فى اللهو واللعب ، والفكاهة والطرب ، وكان أعلم الناس بضرب العود ، واختلاف طرائقه ، وصنعة اللحون ،

وكثيراً مايقول المعانى اللطيفة فى الأبيات الحسنة ، ويَصُوغ عليها الألحان المطربة البديعة المعجبة ، اختراعًا منـه وحِذْقًا ، وكانت له فى ذلك قريحة وطبع ، وكان إذا لم يَزُرْه أحد من إخوانه أحضر مائدته وشرابه عَشَرَة من أهل بيته ، منهم ولده وعبد الله بن أخيه و بعض غلمانه ، وكلهم يُغَنِّى فيجيد ، فلايزالون يغنون بين يديه حتى يطرب ، فيدعو بالعُود و يغنى لنفسه ولهم ، وكان بشارة الزامر الذى يزمر عليه من حُذَّاق زَمَرة المشرق ، وكان بعيدَ الهمة سَمْحًا بماجد ، تُغِل عليـه ضياعُه كلَّ عام أموالا جليلة ، فلا تحُول السنةُ حتى ينفدَ جميعُ ذلك و يستسلف غيره ، فكان لايطرأ من المشرق مُغنٍّ إلا سأل من يقصد بهذا الشان ، فيدل عليه ، فمن وصـله منهم استقبله بصنوف البر والإكرام ، وكساه وخلطه بنفسه ولم يَدَعْه إلى أحد من الناس ، فلايزال معه فى صَبُوح وغَبُوق[(١)] ، وهومُجدِّد له كل يوم كرامة ، حتى يأخذ جميع مامعه من صوْتٍ مُطرِب أو حكاية نادرة .

وجلس يوما وقد زاره رجلان من إخوانه ، وحضرأقرباؤه ، فَطَعِمُوا وشربوا وأخذوافى الغناء ، فارتَجَّ المجلس[(٢)] ، إذ دخل عليه بعض غِلْمَانه فقال: بالباب رجل غريب عليه ثياب السفر ، ذكرأنه ضيف ، فأمر بإدخاله ، فإذا رجل أسمرسِنَاط[(٣)] ، رث الهيئة ، فسلم عليه ، قال : أين بلد الرجل ؟ قال : البصرة ، فرحَّب به ، وأمره بالجلوس ، فجلس مع الغلمان فى صُفَّة[(٤)] ، وأتى بطعام فأكل وسقى أقداحا ، ودار الغناء فى المجلس ، حتى انتهى إلى آخرهم ، فلما سكتوا اندفع يغنى بصوت نَدِيٍّ وطبع حَسَن :

أَلاَ يادَارُ ما الهَجْرُ لِسُكانِكِ مِنْ شَانِي
سُقِيتِ الغيثَ من دارٍ وإن هَيَّجْتِ أشجانِي

---

(١) الصبوح – بفتح الصاد – الشرب فى وقت الغداة . والغبوق – بفتح الغين – الشرب فى وقت العشي (٢) ارتج المجلس : اضطرب وتحرك حركة عظيمة

(٣) سناط – بكسر السين ليس فى لحيته شعر (٤) الصفة : المكان المظلل

ولو شئتُ لما اسْتَسْقَيْتُ غيثاً غـيرَ أجفانِي

بنَفْسِي حَـلَّ أَهْلُوكِ وإن بانُوا بِسُـلْوانِي

وَمَا الدَّهْرُ بمأمونٍ على تشتيتِ خِـلاَّنِي

فطرب عبدالوهاب وصاح ، وتبين الحذق فى إشارته ، والطيبَ فى طبعه ، وقال : ياغلام ، خـذ بيده إلى الحمام ، وعجل على به ، فأدخل الحمام ، ونظف ، ثم دعا عبد الوهاب بخلعة من ثيابه فألقيت عليه ، ورفعه فأجلسه عن يساره ، وأقبل عليه و بسطه ، فغنى له :

قومِي امزجى التبر باللُّجَيْنِ واحْتَمِلِي الرطل بالْيَدَيْنِ (١)

واغتنمِي غفـلَةَ اللَّيَالِي فرُبَّمَا أيقظَتْ لِحَـيْنِ

فقدْ لعَمْرِى أقر مِنَّا هِلاَلُ شَـوَّال كلَّ عَيْنِ

ذاتُ الخَلاَخِيلِ أَبْصَرَتْهُ كنِصْفِ خَلْخَالِهَا اللّجَيْنِ

فطرب وشرب ، واستزاده ، فغناه .

مَنْ لِي عَلَى رَغْمِ الحَسُودِ بِقَهْوَةٍ بكر رَبِيبَةِ حانةٍ عَـذْرَاء

مَوْج من الذهَب المُذَاب تَضُمُّهُ كأسٌ كَقِشْرِ الدرة البَيْضَاء

والنجمُ فى أُفُقِ السماء كأَنَّهُ عَيْن تخالسُ غفْـلَةَ الرقباء

فشرب عبد الوهاب ثم قال : زدنى ، فغناه :

وَأَنْتَ الذى أَشْرَقْتَ عَيْنِي بمائِهَا وَعَلَّمْتَهَا بالهَجْرِ أن تَهْجُرَ الغُمْضَا (٢)

وأغْرَقْتَهَا بالدمعِ حـتى جُفُونُهَا لِيُنْكِرُ مِنْ فَقْدِ الكَرَى بَعْضُها بَعْضَا

فمر يوم من أحسن الأيام وأطيبها ، ووصله وأحسن إليه ، ولم يزل عنده مُقرَّبا مكرماً ، وكان خليعاً ما جنا مشتهراً بالنبيذ ، فخلاَّه وما أحبَّ ، ثم وصف له

---

(١) التبر في الأصل الذهب ، وأراد به الخمر لأن لونها لون الذهب ، واللجين في الأصل الفضة ، وأراد به الماء الصافى ، يقصد امزجى الخمر بالماء .

(٢) أشرقت عينى بمائها : يريد أبكيتنى بكاء كثيراً حتى ملأت عيني بالدمع ، والغمض : النوم .

الأندلس وطيبها ، وكثرة خمورها ، فمضى إليها ومات بها ، وعلى نحو هذه الحال كان يفعل بكل طارئ يطرأ من المشرق،ولو ذكرتهم لطال بهم الكتاب،انتهى

وغرضى من إيراد هذه الحكاية هنا كونه وصف للمشرقىّ الأندلس وطيبها، وذلك أمر لا يشك فيه ولا يرتاب ، والله المسئول فى حسن المتاب .

ورأيت فى بعض كتب تاريخ الأندلس فى ترجمة السلطان بَادِيس الصِّنْهَاجىّ صاحِب غَرْنَاطة ، ما نصه : وهو الذى أكمل ترتيب قصبة مالَقَةَ ، وكان أفرس الناس ، وأنبلهم ، ذا مروءة ونجدة ، وقصره بغَرْنَاطة ليس ببلاد الإسلام والكفر مثله ، فيما قيل ، انتهى .

وهذا القصر هو الذى عناه لسان الدين بن الخطيب فى قصيدته السينية المذكورة فى الباب الخامس من القسم الثانى من هذا الكتاب فلتراجع ثمة .

بعض عجائب سرقسطة وأنها لاتدخلها عقرب ولاحية

وذكر غير واحد من المحدثين والمؤرخين أن مدينة سَرَقُسْطَة لايدخلها الثعبان من قبل نفسه، وإذا أدخله أحد لم يتحرك ، ونظيرُ هذا المعنى فى بعض الحيوانات بالنسبة إلى بعض البلاد كثير ، وذلك برصد أو طِلَّسْم ، وقد استطرد بعضُ علماء أصول الدين ذلك عند ما تكلموا على السحر حسبما قرر فى محله ، والله أعلم

هكذا رأيت فى كلام بعض علماء المشارقة ، والذى رأيته لبعض مؤرخى المغرب فى سَرَقسطة أنها لا تدخلها عقرب ولا حية إلا ماتت من ساعتها ، ويؤتى بالحيَّات والعقارب إليها حَيَّة فبنفس ما تدخل إلى جوف البلد تموت ، قال : ولا يتسوَّس فيها شىء من الطعام[١]، ولا يعفن، ويوجد فيها القمح من مائة سنة ، والعنب المعلق من ستة أعوام ، والتين والخوخ وحب الملوك والتفاح والإجَّاص[٢] اليابسة من أربعة أعوام ، والفولُ والحمص من عشرين سنة ، ولايسوّس فيها[١]

---

(١) لايتسوس : لايقع فيه السوس ، تقول: ساس الطعام ، وأساس، وسوس ، وتسوس،واستاس ، كل ذلك بمعنى واحد .

(٢) الإجاص : هو الكمثرى ، وأهل الشام يسمون الكمثرى إجاصا وإنجاصا

خشب ولا ثوب كان صوفا أوحريراً أو كتّاناً ، وليس فى بلاد الأندلس أكثر فاكهة منها ، ولا أطيب طعما ، ولا أكبر جرما ، والبساتينُ مُحْدِقة بها من كل ناحية ثمانية أميال ، ولها أعمال كثيرة مدن وحصون وقرى مسافة أربعين ميلا ، وهى تضاهى مدنَ العراق فى كثرة الأشجار والأنهار، وبالجملة فأمرها عظيم ، وقد أسلفنا ذكرها .

يصنع بقرطبة وسرقسطة وبر السمور

واعلم أن بأرض الأندلس من الخِصْب والنُّضْرة وعجائب الصنائع وغرائب الدنيا مالا يوجد مجموعُه غالباً فى غيرها ، فمن ذلك ما ذكره الحجارى فى المسهب : أن السَّمُّور الذى يعمل من وَبَره الفراء الرفيعة يُوجَد فى البحر المحيط بالأندلس من جهة جزيرة برطانية ، ويُجلب إلى سَرَقُسْطة ويصنع بها ، ولما ذكر ابنُ غالب وَبَرَ السَّمُّور الذى يصنع بقرطبة قال : هذا السمور المذكور هنا لم أتحقق ما هو ، ولا ما عنى به ، إن كان هو نباتا عندهم أو وبر الدابة المعروفة ، فإن كانت الدابة المعروفة فهى دابة تكون فى البحر[1] ، وتخرج إلى البر ، وعندها قوّة مَيْزٍ ، وقال حامد بن سمحون الطبيب صاحب كتاب الأدوية المفردة : هو حيوانٌ يكون فى بحر الروم ، ولايحتاج منه إلا إلى خُصَاه ، فيخرج الحيوان من البحر فى البر ، فيؤخذ وتقطع خُصَاه ، ويطلق ، فربما عرض للقنّاصين مرة أخرى ، فإذا أحس بهم وخشى أن لا يفوتهم استلقى على ظهره وفَرَجَ بين فخذيه ليرى موضع خُصْيِيه خالياً ، فإذا رآه القناصون كذلك تركوه ، قال ابن غالب : ويسمى هذا الحيوان أيضاً الجندبادستر، والدواء الذى يُصْنَع من خُصْيِيه من الأدوية الرفيعة ، ومنافعه كثيرة ، وخاصيته فى العلل الباردة ، وهو حارّ يابس فى الدرجة الرابعة ،

الحيوان المسمى بالقنلية

والقَنْلِية حيوان أدق من الأرنب وأطيب فى الطعم وأحسن وبراً ، وكثيرا

(١) السمور: حيوان يشبه السنور ، وفيه شبه من النمس ، وله جراءة ، وجلده لين خفيف ، ومنه تتخذ الفراء الثمينة ، وقد لبس فراء السمور بعض أفاضل العلماء قال مجاهد : رأيت على الشعبي قباء سمور .

ما يلبس فراؤها ، ويستعملها أهل الأندلس من المسلمين والنصارى ، ولا توجد فى برّ البربر إلا ما جُلب منها إلى سَبْتة فنشأ فى جوانبها ، قال ابن سعيد : وقد جُلبت فى هذه المدّة إلى تونس حضرةِ أفريقية .

بعض وحش الأندلس

ويكون بالأندلس من الغزال والأيل[1] وحمار الوحش وبَقَره وغير ذلك مما لا يوجد فى غيرها كثيراً ، وأما الأسد فلا يوجد فيها البتة ، ولا الفيل والزرافة وغير ذلك مما يكون فى أقاليم الحرارة ، ولها سَبُع يعرف باللب أكبر بقليل من الذئب فى نهاية من القِحَة[2] ، وقد يفترس الرجلَ إذا كان جائعاً .

وبغالُ الأندلس فارهة[3] ، وخيلُها ضخمة الأجسام ، حصون للقتال لحملها الدروع وثقال السلاح والعدوِ فى خيل البرّ الجنوبىّ .

حيوان الاندلس وطيرها

ولها من الطيور الجوارح وغيرها ما يكثر ذكره ويطول ، وكذلك حيوان البحر ودوابّ بحرها المحيط فى نهاية من الطول والعرض

قال ابن سعيد : عاينتُ من ذلك العجب ، والمسافرون فى البحر يخافون منها لئلا تقلب المراكب ، فيقطعون الكلام ، ولها نَفْخٌ بالماء من فيها يقوم فى الجو ذا ارتفاع مفرط .

الأفاويه

وقال ابن سعيد : قال المسعودى فى « مروج الذهب » : فى الأندلس من أنواع الأفاويه[4] خمسة وعشرون صنفا : منها السنبل ، والقرنفل ، والصندل ، والقرفة ، وقصب الذريرة ، وغير ذلك .

وذكر ابن غالب أن المسعودى قال : أصول الطيب خمسة أصناف : المسك ، والكافور ، والعود ، والعنبر ، والزعفران ، وكلها من أرض الهند ، إلا الزعفران والعنبر ، فإنهما موجودان فى أرض الأندلس ، ويوجد العنبر فى أرض الشِّحْر ،

---

(١) الأيل : الوعل الذكر .

(٢) القحة : أراد بها الجراءة والإقدام على الناس .

(٣) فارهة : أراد سريعة السير نشيطة

(٤) ارجع إلى الهامشة رقم ١ فى ص ١٢٨ من هذا الجزء .

أصل العنبر

قال ابن سعيد : وقد تكلموا فى أصل العنبر ، فذكر بعضهم أنه عيون تنبع فى قعر البحر يصير منها ماتبلعه الدواب وتقذفه . قال الحجارى : ومنهم من قال : إنه نبات فى قعر البحر .

وقد تقدم قول الرازى أن المحاب ـ وهو المقدم فى الأفاويه ، والمفضل فى أنواع الأشنان ـ لا يوجد فى شىء من الأرض إلا بالهند والأندلس .

قال ابن سعيد : وفى الأندلس مواضع ذكروا أن النار إذا أطلقت فيها فاحَتْ روائح العود وما أشبهه ، وفى جبل شُلَّيْرٍ أفاويه هندية .

الثمار والفواكه بالأندلس

قال : وأما الثمار وأصناف الفواكه فالأندلس أسعدُ بلاد الله بكثرتها ، ويوجد فى سواحلها قصب السكر والموز ، ويوجدان فى الأقاليم الباردة ، ولا يعدم منها إلا التمر ، ولها من أنواع الفواكه ما يعدم فى غيرها أو يقل ، كالتين القوطىّ والتين السفرىّ بإشبيلية .

قال ابن سعيد : وهذان صنفان لم ترعينى ولم أذق لهما منذ خرجت من الأندلس مايفضلهما ، وكذلك التين المالَقِىّ والزبيب المُنَكَّبىّ (١) والزبيب العسلىّ والرمان السفرى والخوخ والجوز واللوز ، وغير ذلك مما يطول ذكره .

بعض معادن الأندلس

وقد ذكر ابن سعيد أيضاً أن الأرض الشمالية المغربية فيها المعادن السبعة ، وأنها فى الأندلس التى هى بعض تلك الأرض ، وأعظم معدن للذهب بالأندلس فى جهة شَنْت يَاقُور قاعدة الجلالقة على البحر المحيط ، وفى جهة قُرْطُبة الفضة والزئبق ، والنحاسُ فى شمال الأندلس كثير ، والصُّفْر (٢) الذى يكاد يُشْبه الذهب ، وغير ذلك من المعادن المتفرقة فى أماكنها .

والعينُ التى يخرج منها الزاج (٣) فى لَبْلَة مشهورة ، وهو كثير مفضل فى البلاد

(١) المنكبى : المنسوب إلى المنكب ، وهو بلد من أعمال إلبيرة بينه وبين غرناطة أربعون ميلا

(٢) الصفر ـ بزنة القفل ـ النحاس الجيد .

(٣) الزاج : صبغ من الأصباغ ، أصله فارسى معرب ، وفارسيته زاك .

منسوب لجبل طليطلة جبل الطَّفْل الذى يجهز إلى البلاد ، ويفضل على كل طَفْل بالمشرق والمغرب .

الرخام بالأندلس ومقاطعه

وبالأندلس عدة مَقاطع[١] للرخام ، وذكر الرازى أن بجبل قُرْطُبَة مقاطع الرخام الأبيض الناصع اللون والخمرى ، وفى ناشِرَةَ مقطع عجيب للعُمُد ، وبباغَةَ من مملكة غَرْنَاطة مقاطع للرخام كثيرة غريبة مُوَشاة فى حمرة وصفرة ، وغير ذلك من المقاطع التى بالأندلس من الرخام الحالك والمجزَّع

وحَصَى المرِيَّةِ يحمل إلى البلاد فإنه كالدر فى رَوْنقه ، وله ألوان عجيبة ، ومن عادتهم أن يَضَعوه فى كيزان الماء

وفى الأندلس من الأمنان[٢] التى تنزل من السماء القرمز الذى ينزل على شجرة البَلُّوط فيجمعه الناسُ زمَنَ الشعرى ويصبغون به ، فيخرج منه اللون الأحمر الذى لا تفوقه حمرة .

بعض مصنوعات الأندلس

قال ابن سعيد : وإلى مصنوعات الأندلس ينتهى التفضيل ، والمتعصبين لها فى ذلك كلام كثير ، فقد اختصت المرِيَّةُ ومالَقَةُ ومُرْسية بالموشى المذهب يتعجب من حسن صنعته أهلُ المشرق إذا رأوا منه شيئاً ، وفى تَنْتَالَةَ من عمل مُرْسِية تعمل البُسُط التى يُغَالَى فى ثمنها بالمشرق ، ويصنع فى غرناطة وبَسْطة من ثياب اللباس المحررة الصنفُ الذى يعرف بالملبد المختم ذو الألوان العجيبة ، ويصنع فى مُرْسِية من الأسِرَّة المرصعة والحصر الفَتَّانة الصنعة وآلات الصُّفْر والحديد من السكاكين والأمقاص[٣] المذهَّبة وغير ذلك من آلات العروس والجندىّ ما يَبْهر العقل ، ومنها تجهز هذه الأصناف إلى بلاد إفريقية وغيرها ، ويصنع بها وبالمرِيَّة ومالقة الزجاجُ الغريب العجيب وفخار مزجج مذهب ، ويصنع بالأندلس نوع من المفضض المعروف فى المشرق بالفُسَيْفِساء ونوع يبسط به قاعات ديارهم يعرف

(١) مقاطع : جمع مقطع ، وهو اسم مكان من القطع ، يريد الأماكن التي يقتطع منها الرخام (٢) الأمنان : جمع من ، وهو الطل ينزل من السماء على شجر أو حجر ، ثم يحلو وينعقد ويجف جفاف الصمغ .

(٣) الأمقاص : جمع مقص ، وهو اسم آلة من القص ، والقياس فى جمعه مقاص

بالزُّلَيْجي يشبه المفضض ، وهو ذو ألوان عجيبة يقيمونه مقام الرخام الملوّن الذى يصرفه أهل المشرق فى زخرفة بيوتهم كالشاذَرْوَانِ ، وما يجرى مجراه .

آلات الحرب التى تصنع بالأندلس

وأما آلات الحرب من التِّراس والرِّماح والسُّروج والألجم والدروع والمَغافر فأكثر همم أهل الأندلس ــ فيما حكى ابنُ سعيد ــ كانت مصروفة إلى هذا الشأن، ويصنع فيها فى بلاد الكفر ما يبهر العقول ، قال : والسيوف البرذليات مشهورة بالجودة ، وبرذيل[1]: آخر بلاد الأندلس من جهة الشمال والمشرق ، والفولاذ الذى بإشبيلية إليه النهاية ، وفى إشبيلية من دقائق الصنائع ما يطول ذكره .

جلب الماء من البحر الملح

وقد أفرد ابن غالب فى « فرحة الأنفس ، للآثار الأولية التى بالأندلس » من كتابه مكاناً ، فقال : منها ما كان من جَلْبهم الماء من البحر الملح إلى الأرحىّ التى بِطرّكُونَة على وزن لطيف وتدبير محكم حتى طحنت به ، وذلك من أعجب ما صنع ، ومن ذلك ما صنعه الأول أيضاً من جَلْب الماء من البحر المحيط إلى جزيرة قادس من العين التى فى إقليم الأصنام ، جلَبوه فى جوف البحر فى الصخر المجوّف ذكراً فى أنثى وشقُّوا به الجبال ، فإذا وصلوا به إلى المواضع المنخفضة بنَوْا له قناطر على حَنَايا ، فإذا جاوزها واتصل بالأرض المعتدلة رجَعُوا إلى البنيان المذكور ، فإذا صادف سبخة بنى له رصيف وأجرى عليه ، هكذا إلى أن انتهى به إلى البحر ، ثم دخل به فى البحر ، وأخرج فى جزيرة قادس ، والبنيان الذى عليه الماء فى البحر ظاهر بين ، قال ابن سعيد : إلى وقتنا هذا

رصيف مشهور بالأندلس

ومنها الرصيف المشهور بالأندلس ، قال فى بعض أخبار رومية : إنه لما ولى بوليش المعروف بجاشر ، وابتدأ بتذريع الأرض وتكسيرها ، كان ابتداؤه بذلك من مدينة رومية إلى المشرق منها و إلى المغرب و إلى الشمال و إلى الجنوب ، ثم بدأ بفرشِ

(١) قال فى الروض « برذيل : فى بلاد جليقية ، وإقليم برذيل من أشرف أقاليم تلك الناحية ، وهو كثير الكروم والفاكهة والحبوب ، وهى مدينة كبيرة مبنية بالكلس والرمل ، وهى على نهر عجاج يسمى جرونة ، وربما عطبت مراكب المجوس فيه عند الأهوال لاتساعه وانحرافه ، وأهل برذيل فى أخلاقهم ولباسهم على أخلاق الجليقيين ... وفى سواحل هذه المدينة يوجد العنبر » اهـ .

المبطلة ، وأقبل بها على وسط دائرة الأرض إلى أن بلغ بها أرض الأندلس وركزها شرقى قرطبة ببابها المتطامن المعروف بباب عبد الجبار ، ثم ابتدأها من باب القَنْطرة قبلى قرْطبة إلى شَقَنْدَة إلى إسْتِجَة إلى قرمونة إلى البحر ، وأقام على كل ميل سارية قد نقش عليها اسمه من مدينة رومية ، وذكر أنه أراد تسقيفها فى بعض الأماكن راحة للخاطرين من وَهَج الصيف وهول الشتاء ، ثم توقع أن يكون ذلك فساداً فى الأرض وتغييراً للطرق عند انتشار اللصوص وأهل الشرّ فيها فى المواضع المنقطعة النائية عن العُمْران ، فتركها على ماهى عليه ، وذكر فى هذه الآثار صنم قادس الذى ليس له نظير إلا الصنم الذى بطرف جِلِّيقية ، وذكر قنطرة طَلَيْطلة ، وقنطرة السيف وقنطرة ماردة ، وملعب مَرْبَيْطَر .

ابن سعيد يذكر بعض عجائب الأندلس

قال ابن سعيد : وفى الأندلس عجائب ، منها الشجرة التى لولا كثرة ذكر العامة لها بالأندلس ماذكرتها ، فإن خبرها عندهم شائع متواتر ، وقد رأيت من يَشْهد بخبرها ورؤيتها ، وهم جم غفير ، وهى شجرة زيتون تصنع الورق والنَّوْر والثمر من يوم واحد معلوم عندهم من أيام السنة الشمسية .

ومن العجائب السارِيةُ التى بغرب الأندلس ، يزعم الجمهور أن أهل ذلك المكان إذا أحبوا المَطَر أقاموها فيمطر الله جهتهم .

ومنها صنم قادس ، طول ما كان قائما كان يمنع الريح أن تهبّ فى البحر المحيط فلا تستطيع المراكب الكبار على الجرى فيه ، فلما هدم فى أول دولة بنى عبد المؤمن صارت السفن تجرى فيه .

وبكورة قَبْرَة(١) مَغارة ذكرها الرازى وحكى أنه يقال : إنها باب من أبواب الريح لايدرك لها قعر .

---

(١) قبرة : مدينة بالأندلس ، بينها وبين قرطبة ثلاثون ميلا ، ذات مياه سائحة من عيون شتى ، فيها العين التى عليها ، والنهر الذى هناك مخرجه من ناحية جبل شيبة عليه أرحاء كثيرة ، وهذا الجبل شامخ ينبت ضروب النواوير وأصناف الأزاهر ، وأجناس الأفاويه والعقاقير

وذكر الرازى أن فى جهة قلعة ورد جبلاً فيه شق فى صخرة داخلَ كهفٍ فيه فأسُ حديدٍ متعلق من الشق الذى فى الصخرة ، تراه العيون وتلمسه اليد ، ومَنْ رام إخراجه لم يطق ذلك ، وإذا رفعته اليد ارتفع وغاب فى شق الصخرة ثم يعود لى حالته .

وأما ماأورده بن بَشْكُوال من الأحاديث والآثار فى شأن فضل الأندلس والمغرب فقد ذكرها ابن سعيد فى كتابه الْمُغْرب ، ولم أذكرها أنا ، والله أعلم بحقيقة أمرها ، وكذلك ماذكره ابن بَشْكُوال من أن فتح القسطنطينية إنما يكون من قبل الأندلس ، قال : وذكره سيف عن عثمان بن عفان رضى الله تعالى عنه ـ والله أعلم بصحة ذلك ـ ولعل المراد بالقسطنطينية رومية ، والله أعلم .

قال سيف : وذلك أن عثمان ندَبَ جيشاً من القيروان إلى الأندلس ، وكتب لهم : أما بعد ، فإن فتح القسطنطينية إنما يكون من قبل الأندلس ، فإنكم إن فتحتموها كنتم الشركاء فى الأجر ، والسلام ، انتهى .

قلت : عهدة هذه الأمور على ناقلها ، وأنا برىء من عهدتها ، وإن ذكرها ابن بَشْكُوال وصاحب الْمُغْرب وغير واحد فإنها عندى لاأصل لها ، وأىّ وقت بعَثَ عثمان إلى الأندلس ؟ مع أن فتحها بالاتفاق إنما كان زمانَ الوليد ، وإنما ذكرت هذا للتنبيه عليه ، لاغير ، والله أعلم .

وصف آخر لابن سعيد

قال ابن سعيد : وميزان وصف الأندلس أنها جزيرة قد أحدقت بها البحار ، فأكثرت فيها الخِصْب والعمارة من كل جهة ، فمتى سافَرْتَ من مدينة إلى مدينة لاتكاد تنقطع من العمارة مابين قرى ومياه ومزارع ، والصحارى فيها معدومة ، ومما اختصَّت به أن قُراها فى نهاية من الجمال لتصنع أهلها فى أوضاعها وتبييضها ، لئلا تنبو العيون عنها ، فهى كما قال الوزير بن الحمارة فيها :

لاحَتْ قُرَاها بين خُضْرَة أيْكِها كالدُّرِّ بين زَبَرْجَدٍ مكنون(١)

ولقد تعجبت لما دخلت الديار المصرية من أوضاع قُراها التى تكدّر العين بسَوادها ، ويضيق الصدر بضيق أوضاعها ، وفى الأندلس جهات تقرب فيها المدينة العظيمة المُمصَّرة من مثلها ، والمثال فى ذلك أنك إذا توجهت من إشبيلية فعَلَى مسيرة يوم وبعضِ آخر مدينة شَرِيشَ ، وهى فى نهاية من الحضارة والنَّضارة ، ثم يليها الجزيرة الخضراء كذلك ، ثم مالَقَةُ ، وهذا كثير فى الأندلس ، ولهذا كثرت مدنها وأكثرها مسوّر من أجل الاستعداد للعدو ، فحصل لها بذلك التشييد والتزيين ، وفى حصونها مايبقى فى محاربة العدو ماينيف على عشرين سنة لامتناع معاقلها ، ودُرْبَة أهلها(٢) على الحرب ، واعتيادهم لمجاورة العدوّ بالطعن والضرب ، وكثرة ما تنخزن الغلة فى مطاميرها(٣) ، فمنها مايطول صبره عليها نحوا من مائة سنة ، قال ابن سعيد : ولذلك أدامها الله تعالى من وقت الفتح إلى الآن ، وإن كان العدوّ قد نقَصَها من أطرافها ، وشارك فى أوساطها ففى البقية منعة عظيمة ، فأرض بقى فيها مثل إشبيلية وغَرْناطة ومالَقَةَ والمرِيَّة وما ينضاف إلى هذه الحواضر العظيمة المُمصَّرة الرجاء فيها قوىّ بحول الله وقوته ، انتهى .

قلت : قد خاب ذلك الرجاء ، وصارت تلك الأرجاء للكفر مَعْرجًا ، ونسأل الله تعالى الذى جعل للهم فرجا ، وللضيق مخرجا ، أن يعيد إليها كلمة الإسلام حتى يَسْتَنْشِق أهله منه فيها أرَجًا ! آمين .

ومن غرائب الأندلس : البيلتان اللتان بُطَلَيْطلة ، صَنَعهما عبدُ الرحمن لما

---

(١) لاحت: ظهرت ، والأيك : الشجر الملتف الكثير ، واحده أيكة ، ومكنون : مستتر

(٢) الدربة ـ بضم الدال وسكون الراء ـ المران على الشىء والتعود لفعله .

(٣) المطامير : جمع مطمار ، وهى حفيرة تحت الأرض تخبأ فيها الحبوب ، أوهو وعاء عظيم تختزن فيه الحبوب .

سمع بخبر الطِّلَّسْم الذى بمدينة أرِينَ من أرض الهند ، وقد ذكره المسعودى ، وأنه يدور بأصبعه من طلوع الفجر إلى غروب الشمس ، فصنع هو هاتين البيلتين خارج طليطلة فى بيت مجوّف فى جوف النهر الأعظم فى الموضع المعروف بباب الدباغين ، ومن عجبهما أنهما يمتلئان و ينحسران مع زيادة القمر ونقصانه ، وذلك أن أوّل انهلال الهلال(١) يخرج فيهما يسيرُ ماء ، فإذا أصبح كان فيهما سبعهما من المـاء ، فإذا كان آخر النهار كمل فيهما نصف سبع ، ولا يزال كذلك بين اليوم والليلة نصف سبع حتى يكمل من الشهر سبعة أيام وسبع ليال ، فيكون فيهما نصفهما ، ولا تزال كذلك الزيادة نصف سبع فى اليوم والليلة حتى يكمل امتلاؤهما بكمال القمر ، فإذا كان فى ليلة خمسة عشر وأخذ القمر فى النقصان نَقَصَتا بنقصان القمر كل يوم وليلة نصف سبع ، فإذا كان تسعة وعشرون من الشهر لا يبقى فيهما شىء من المـاء ، و إذا تكلف أحدٌ حين ينقصان أن يملأهما وجَلَب لهما المـاء ابتلعا ذلك من حينهما حتى لا يبقى فيهما إلا ما كان فيهما فى تلك الساعة ، وكذا لو تكلَّف عند امتلائهما إفراغهما ولم يبق منهما شيئاً ثم رفع يده عنهما خرج فيهما من المـاء ما يملؤهما فى الحين ، وهما أعجب من طِلّسْم الهند ، لأن ذلك فى نقطة الاعتدال حيث لا يزيد الليل على النهار ، وأما هاتان فليستا فى مكان الاعتدال ، ولم تزالا فى بيت واحد حتى ملك النصارى — دمَّرهم الله ! — طُلَيْطلة ، فأراد الفُنْشُ أن يعلم حركاتهما ، فأمر أن تقلع الواحدة منهما لينظر من أين يأتى إليها الماء ، وكيف الحركة فيهما، فقلعت ، فبطلت حركتهما ، وذلك سنة ٥٢٨ . وقيل : إن سبب فسادهما حُنَين اليهودى الذى جَلَب حَمام الأندلس كلها إلى طليطلة فى يوم واحد ، وذلك سـنة ٥٢٧ ، وهو الذى أعلم الفُنْشَ أن ولده سيدخل قرطبة

---

(١) يريد أول بدوه وظهوره

ويملكها ، فأراد أن يكشف حركة البيلتين فقال له : أيها الملك ، أنا أقلعهما وأردُّها أحسن مما كانتا ، وذلك أنى أجعلهما تمتلئان بالنهار وتَحْسِران فى الليل(١)، فلما قلعت لم يقدر على ردها ، وقيل : إنه قلع واحدة ليسرق منها الصنعة فبطلت، ولم تزل الأخرى تعطى حركتها ، والله أعلم بحقيقة الحال .

وصف إشبيلية وعجائبها

وقال بعضهم فى إشبيلية : إنها قاعدة بلاد الأندلس وحاضرتها ،ومدينة الأدب واللهو والطرب ، وهى على ضفة النهر الكبير ، عظيمة الشأن ، طيبة المكان ، لها البر المديد ، والبحر الساكن ، والوادى العظيم ، وهى قريبة من البحر المحيط، إلى أن قال : ولو لم يكن لها من الشَّرف إلا موضع الشَّرَف(٢) المقابل لها المطلّ عليها المشهور بالزيتون الكثير الممتد فراسخ فى فراسخ لكفى ، وبها منارة فى جامعها بنَاَها يعقوبُ المنصور ، ليس فى بلاد الإسلام أعظم بناء منها ، وعَسَلُ الشرف يبقى حينا لا يترمل ولا يتبدّل، وكذلك الزيت والتين .

وقال ابن مفلح : إن إشبيلية عَروسُ بلاد الأندلس ، لأن تاجها الشرف ، وفى عنقها سمط النهر الأعظم ، وليس فى الأرض أتم حسنا من هذا النهر، يُضَاهى دجلة والفرات والنيل ،تسير القوارب فيه للنزهة والسير والصيد تحت ظلال الثمار، وتغريد الأطيار ، أربعةً وعشرين ميلا ، ويتعاطى الناسُ السَّرْحَ من جانبيه عشرة فراسخ فى عمارة متصلة ومنارات مرتفعة وأبراج مشيدة ، وفيه من أنواع السمك مالا يحصى ، وبالجملة فهى قد حازت البر والبحر ، والزرع والضَّرْع(٣)، وكثرة الثمار من كل جنس ،وقصب السكر ، ويجمع منها القرمز الذى هو أجلّ من اللَّكِّ(٤) الهندى ، وزيتونُها يخزن تحت الأرض أكثر من ثلاثين سنة ، ثم يُعْتصر فيخرج منه أكثر مما يخرج منه وهو طرى ، انتهى ملخصاً .

---

(١) تحسران : أراد أن ماءهما يذهب وينضب

(٢) الشرف : اسم مكان بعينه ، (وانظر ص١٥٠وص١٦٠ من هذا الجزء)

(٣) أصل الضرع للماشية كالثدي للمرأة ، وأراد به هنا الماشية نفسها

(٤) اللك : ضرب من الصبغ ، أحمر ، تصبغ به الجلود وغيرها

وصف ابن اليسع للأندلس

ولما ذكر ابن اليسع الأندلس قال : لايتزوّد فيها أحد مّا حيث سلك ، لكثرة أنهارها وعيونها ، وربما لقى المسافر فيها فى اليوم الواحد أربعَ مدائن ، ومن المعاقل والقُرَى مالا يحصى ، وهى بِطَاح خُضْر ، وقصور بيض .

وصف ابن سعيد

قال ابن سعيد : وأنا أقول كلامًا فيه كفاية : منذ خرجت من جزيرة الأندلس وطُفْت فى بر العُدْوة ، ورأيت مدنها العظيمة كمراكش وفاس وسلا وَسَبْتة ، ثم طُفْتُ فى إفريقية وماجاورها من المغرب الأوسط فرأيت بِجَايَةَ وتونس ، ثم دخلت الديار المصرية فرأيت الإسكندرية والقاهرة والفُسْطاط ، ثم دخلت الشام فرأيت دِمشق وحَلَبا ومابينهما لم أرمايُشْبِهُ رَوْنقَ الأندلس فى مياهها وأشجارها إلا مدينة فاس بالمغرب الأقصى ، ومدينة دمشق بالشام ، وفى حَماة مَسْحة أندلسية ، ولم أر مايشبهها فى حسن المبانى والتشييد والتصنيع ، إلا ماشيد بمراكش فى دولة بنى عبد المؤمن ، وبعض أماكن فى تونس ، وإن كان الغالب على تونس البناء بالحجارة كالإسكندرية ، ولكن الإسكندرية أفسحُ شوارعَ وأبسط وأبدع ، ومبانى حلب داخلة فيما يستحسن ، لأنها من حجارة صلبة ، وفى وضعها وترتيبها إتقان ، انتهى .

ومن أحسن ماجاء من النظم فى الأندلس قولُ ابن سفر المَرِينى ، والإحسانُ له عادة :

فى أرض أندلسٍ تُلْتَــذ نَعْماء ... ولا يفارِقُ فيها القلبَ سَرَّاء

وليس فى غيرها بالعيش مُنْتَفَعٌ ... ولا تقومُ بحق الأنس صَهباء (١)

وأين يُعْدَلُ عن أرض تَحُضُّ بها ... على المُدَامة أمــواهٌ وأفياء (٢)

وكيف لايبهج الأبصارَ رؤيَتُها ... وكلُّ روضٍ بها فى الوَشْيِ صَنعاء (٣)

أنهارُهَا فضة ، والمسكُ تُرْبَتُهَا ... والخز رَوْضتها ، والدر حَصْباء (٤)

---

(١) منتفع : مصدر بمعنى الانتفاع ، والصهباء : اسم من أسماء الخمر

(٢) تحض : تدفع وتحرض ، والأفياء : جمع فىء ، وهو الظل

(٣) صنعاء : بلدة باليمن ، اشتهرت بصنع الحرير

(٤) الخز : نوع من الحرير ، أو الحرير مع الصوف ، والحصباء : الحصى

وللهــواء بها لطف يرقّ به ... مَنْ لايرقّ ، وتبدُومنــه أهْوَاء
ليس النسيمُ الذى يَهْفو بها سَحَرا ... ولا انتثارُ لآلى الطَّل أنداء[١]
وإنما أرَجُ النــدّ استَثَارَ بها ... فى ماء وَرْدٍ فطابت منــه أرْجاء
وأين يَبْلُغُ منها ما أُصَــنِّفُهُ ... وكيف يَحْوِى الذى حازته إحْصَاء
قدمُيِّزت من جهات الأرض حين بدت ... فريدَة وتولَّى مَيْزَهَا الماء[٢]
دَارَتْ عليها نِطاقًا أبحُرٌ خفقتْ ... وَجْدًا بها إذ تبدّتْ وَهْىَ حَسْناء[٣]
لِذَاكَ يَبْسِمُ فيها الزَهْرُ من طَرَب ... والطيرُ يَشْدُو وللأغصان إصْغَاء[٤]
فيها خَلَعْتُ عِذارى ما بها عِوَض ... فَهْىَ الرِّياضُ، وكلُّ الأرضِ صَحْراء

ولله در ابن خَفَاجة حيث يقول :

إنَّ للجنــة بالأندلُسِ ... مُجْتَلَى مَرْأى وَرَيَّا نَفَسِ
فَسَنَى صُبْحَتِها من شَنَبٍ ... ودُجَى ظلمتها من لَعَسِ
فإذا ماهبَّتِ الريحُ صَبًا ... صِحْتُ وَاشَوْقِى إلى الأندلُسِ

وقد تقدمت هذه الأبيات[٥] .

قال ابن سعيد : قال ابن خفاجة هذه الأبيات وهو بالمغرب الأقصى فى برّ العُدْوَة ، ومنزله فى شرق الأندلس بجزيرة شَقْر[٦] .

---

(١) يهفو : أراد يتحرك فتتحرك بحركته الأغصان

(٢) ميزها : تمييزها عما عداها من البلدان ، تقول : مازه يميزه ميزا

(٣) أصل النطاق : شقة تلبسها النساء فتشد إحداهن بها وسطها ، « ونطاقا » فى البيت يجوز أن يكون حالا على التأويل بدائرة ونحوه ، وهو الأحسن ، ويجوز أن يكون تمييزا لجموده .

(٤) يشدو : يغرد ويغنى . (٥) ارجع إلى ص ١٥٨ من هذا الجزء

(٦) ضبطها ياقوت بفتح الشين وسكون القاف ، بالنص بالعبارة ، وهى جزيرة فى شرقى الأندلس كانت من أنزه مواطن الدنيا

وقال ابن سعيد فى المغرب مانصه : قواعد من كتاب « الشهب الثاقبة ، فى الإنصاف بين المشارقة والمغاربة » أولُ ما نقدم الكلام على قاعدة السلطنة بالأندلس ، فنقول : إنها مع مابأيدى عُبَّاد الصَّليب منها أعظم سَلْطنة كثرت ممالكها ، وتشعبت فى وجوه الاستظهار للسلطان إعانتها ، ونَدَعُ كلامنا فى هذا الشأن ، وننقل ماقاله ابن حَوْقل النصيبى فى كتابه لما دخلها فى مدة خلافة بنى مَرْوَان بها فى المائة الرابعة ، وذلك أنه لما وصفها قال : وأما جزيرة الأندلس فجزيرة كبيرة ، طولها دون الشهر فى عرض نيف وعشرين مرحلة ، تغلب عليها المياه الجارية والشجر والثمر ، والرخص والسعة فى الأحوال من الرقيق الفاخر والخصب الظاهر ، إلى أسباب التملك الفاشية فيها ، ولما هى به من أسباب رَغَد العيش وسَعَته وكثرته ، يملك ذلك منهم مَهِينُهم (١) وأرباب صنائعهم لقلة مُؤْنتهم وصلاح معاشهم وبلادِهم ، ثم أخذ فى عظم سلطَانها ووصف وُفور جباياته وعظم مَرَافقه ، وقال فى أثناء ذلك : ومما يُدَلُّ بالقليل منه على كثيره أن سكة دار ضَرْبه (٢) على الدراهم والدنانير دَخْلُها فى كل سنة مائتا ألف دينار ، وصَرْفُ الدينار سبعة عشر درهما ، هذا إلى صدقات البلد وجباياته وخراجاته وأعشاره وضماناته والأموال المرسومة على المراكب الواردة والصادرة وغير ذلك

وذكر ابن بَشْكُوال أن جباية الأندلس بلغت فى مدّة عبد الرحمن الناصر خمسة آلاف ألف دينار وأربعمائة ألف وثمانين ألفاً من السوق ، والمستخلص سبعمائة ألف وخمسة وستون ألف دينار

ثم قال ابن حَوْقل : ومن أعجب مافى هذه الجزيرة بقاؤها على مَنْ هى فى يده مع

---

(١) مهين : حقير ، وفى القرآن الكريم : (أم أنا خير من هذا الذى هو مهين) وفيه أيضا : (ولا تطع كل حلاف مهين) وهو فعيل من المهانة ، وجمعه مهناء

(٢) السكة ــ بكسر السين وتشديد الكاف ــ فى الأصل حديدة منقوشة ، بها تضرب النقود ، ودار الضرب : الدار التى تضرب فيها النقود

صغر أحلام أهلها ، وضَعَة نفوسهم ، ونقص عقولهم ، و بعدهم من البأس والشجاعة والفروسية والبسالة ، ولقاء الرجال ، ومِرَاسِ الأنجاد والأبطال ، مع علم أمير المؤمنين بمحلّها فى نفسها ومقدار جباياتها ومواقع نعمها ولذاتها

قال على بن سعيد مكمل هذا الكتاب : لم أر بدّا من إثبات هذا الفصل و إن كان على أهل بلدى فيه من الظلم والتعصب مالايخفى ، ولسانُ الحال فى الرد أنطق من لسان البلاغة ، وليت شعرى إذ سلب أهل هذه الجزيرة العقولَ والآراء والهمم والشجاعة فمن الذين دبروها بآرائهم وعقولهم مع مُرَاصدة أعدائها المجاورين لها من خمسمائة سنة ونيف؟ومَن الذين حَمَوْها بيَسَالتهم من الأمم المتصلة بهم فى داخلها وخارجها نحو ثلاثة أشهر على كلمة واحدة فى نصرة الصليب ؟ و إنى لأعجب منه إذ كان فى زمان قد دَلَفَتْ[1] فيه عباد الصليب إلى الشام والجزيرة وعاثوا كل العيْثِ[2] فى بلاد الإسلام ، حيث الجمهور والقبة العظمى ، حتى إنهم دخلوا مدينة حلب ، وما أدراك ؟ وفعلوا فيها ما فعلوا ، و بلاد الإسلام متصلة بها من كل جهة ، إلى غير ذلك مما هو مسطور فى كتب التواريخ ، ومن أعظم ذلك وأشدّه أنهم كانوا يتغلبون على الحِصْن من حصون الإسلام التى يتمكنون بها من بسائط بلادهم ، فيَسْبُون ويأسِرُون ، فلا تجتمع همم الملوك المجاورة على حَسْم الداء[3] فى ذلك ، وقد يستعين به بعضُهم على بعض ، فيتمكن من ذلك الداء لا يُطَبُّ[4] ، وقد كانت جزيرة الأندلس فى ذلك الزمان بالضد من البلاد التى ترك وراء ظهره ، وذلك موجود فى تاريخ ابن حَيَّان وغيره ، و إنما كانت الفتنة بعد ذلك ، الأعلامُ بينة ، والطريق واضح

فلنرجع إلى ما نحن بسبيله : كانت سلطنة الأندلس فى صدر الفتح على ما تقدم من اختلاف الولاة عليها من سلاطين إفريقية ، واختلافُ الولاة داع

---

(١) دلفت : مشت مشيا فيه هينة وتؤدة (٢) عاثوا : أفسدوا

(٣) حسم الداء : قطع مادة الفساد (٤) لايطب : لايعالج

لمعة من تاريخ الحكم فى الأندلس منذ الفتح

إلى الاضطراب ، وعدم تأثُّل الأحوال[١] وتربية الضخامة فى الدولة ، ولما صارت الأندلس لبنى أمية وتوارثوا ممالكها وانقاد إليهم كل أبىّ فيها وأطاعهم كل عَصِىّ عظمت الدولة بالأندلس ، وكبرت الهمم وترتبت الأحوال ، وترتبت القواعد[٢] ، وكانوا صَدْرًا من دولتهم يخطبون لأنفسهم بأبناء الخلائف ، ثم خطبوا لأنفسهم بالخلافة ، وملكوا من برّ العُدْوة وما ضخمت به دولتهم ، وكانت قواعدهم إظهار الهيبة ، وتمكن الناموس من قلوب العالم ، ومراعاة أحوال الشرع فى كل الأمور ، وتعظيم العلماء ، والعمل بأقوالهم ، وإحضارهم فى مجالسهم، واستشارتهم، ولهم حكايات فى تاريخ ابن حيان : منها ما هو مذكور من توجُّه الحُكْم على خليفتهم أو على ابنه أو أحدِ حاشيته المختصين ، وأنهم كانوا فى نهاية من الانقياد إلى الحق لهم أو عليهم ، وبذلك انضبط لهم أمر الجزيرة ، ولما خرقوا هذا الناموس كان أول ما تهتك أمرهم ، ثم اضمحل ، وكانت ألقابُ الأول منهم الأمراء أبناء الخلائف ، ثم الخلفاء أمراء المؤمنين ، إلى أن وقعت الفتنة بحسدِ بعضهم لبعض ، وابتغاء الخلافة من غير وجهها الذى رتبت عليه ، فاستبدّت ملوك الممالك الأندلسية ببلادها ، وسموا بملوك الطوائف ، وكان فيهم مَنْ خَطَب للخلفاء المَرْوَانيين وإن لم يبق لهم خلافة ، ومنهم من خطب للخلفاء العباسيين المجمَعِ على إمامتهم ، وصار ملوك الطوائف يتباهَوْنَ فى أحوال الملك ، حتى فى الألقاب فآل أمرهم إلى أن تلقبوا بنُعُوت الخلفاء ، وترفَّعوا إلى طبقات السلطنة العظمى ، وذلك بما فى جزيرتهم من أسباب الترفهِ والضخامة التى تتوزع على ملوك شتى فتكفيهم ، وتنهض بهم للمباهاة ، ولأجل توثبهم على النعوت العباسية

---

(١) عدم تأثل الأحوال : أراد عدم استقرارها وثباتها

(٢) « ترتبت » الأول معناه انتظمت وصار وضع كل شيء فى موضعه ، ومعنى « ترتبت » الثاني استقرت وتمكنت وثبتت

قال ابن رشيق القيروانى[١] :

مما يزهِّدُنى فى أرض أندلُسٍ تلقيبُ معتضِدٍ فيها ومُعْتَمِدِ[٢]

ألقابُ مملكةٍ فى غير مَوْضعها كالهرِّ يَحْكى انتفاخاً صَوْلةَ الأسد

وكان عبَّاد بن محمد بن عبَّاد قد تلقب بالمعتضد ، واقتفى سيرة المعتضد العباسى أمير المؤمنين ، وتلقَّب ابنهُ محمد بن عباد بالمعتمد ، وكانت لبنى عباد مملكة إشبيلية ثم انضاف إليها غيرها .

وكان خلفاء بنى أمية يظهرون للناس فى الأحيان على أبهة الخلافة ، وقانونٌ لهم فى ذلك معروف ، إلى أن كانت الفتنة ، فازدرت العيونُ ذلك الناموس ، واستخفَّت به .

وقد كان بنو حَمُّود من ولد إدريس العَلَوى الذين توثَّبُوا على الخلافة فى أثناء الدولة المروانية بالأندلس يتعاظمون، و يأخذون أنفسهم بما يأخذها خلفاء بنى العباس ، وكانوا إذا حضرهم منشد لمدح أو من يحتاج إلى الكلام بين أيديهم يتكلم من وراء حجاب ، والحاجبُ واقف عند الستر يجاوب بما يقول له الخليفة ، ولما حضر ابن مَقَانا الأشبونى[٣] أمام حاجب إدريس بن يحيى الحمودى الذى خطب له بالخلافة فى مالَقَة ، وأنشده قصيدته المشهورة النونية التى منها قوله :

---

(١) ذكر قاضى القضاة ابن خلكان هذين البيتين فى ترجمة أبى بكر بن عمار (الترجمة رقم ٦٤١ فى الجزء الرابع ص ٥٢ بتحقيقنا) ونسبهما إليه وذكر أنهما من الأسباب التى حملت المعتمد بن عباد على قتل ابن عمار

(٢) روى ابن خلكان هذا البيت :

مما يقبح عندى ذكر أندلس سماع معتضد فيها ومعتمد

(١) اسمه عبد الرحمن ، وكنيته أبو زيد ، وهو أديب أندلسى أشبونى ، وهو منسوب إلى أشبونة – بضم الهمزة وسكون الشين – وهى مدينة متصلة بشنترين قريبة من البحر المحيط يوجد على ساحلها العنبر الفائق ، ويقال فيها « لشبونة » أيضا .

وكأنَّ الشمسَ لما أشرقَتْ فانثنَتْ عنها عيونُ الناظرينْ
وَجْهُ إدريس بن يَحْيىٰ بن علىّ بن حَمُّود أميرِ المؤمنين

وبلغ فيها إلى قوله :

انظُرُونا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ إنه من نور ربِّ العالمين

رفع الخليفة الستر بنفسه ، وقال : انظر كيف شئت ، وانبسط مع الشاعر ، وأحسن إليه .

ولما جاء ملوك الطوائف صاروا يتبسَّطون للخاصة وكثيرٍ من العامة ، ويظهرون مداراة الجند وعوام البلاد ، وكان أكثرهم يحاضر العلماء والأدباء ، ويحب أن يشهر عنه ذلك عند مباديه فى الرياسة .

ومذ وقعت الفتنة بالأندلس اعتاد أهل الممالك المتفرقة الاستبداد عن إمام الجماعة ، وصار فى كل جهة مملكة مستقلة يتوارث أعيانُها الرياسة كما يتوارث ملوكها الملك ، ومَرَنوا على ذلك[1] ، فصعب ضبطهم إلى نظام واحد ، وتمكن العدو منهم بالتفرق وعداوة بعضهم لبعض بقبيح المنافسة والطمع ، إلى أن انقادوا إلى عبد المؤمن وبنيه ، وتلك القواعد فى رءوسهم كامنة ، والثوّار فى المعاقل تثور ، وتروم الكَرَّة[2] ، إلى أن ثار ابن هود ، وتلقب بالمتوكل ، ووجد القلوب منحرفة عن دولة بر العُدْوة ، مهيأة للاستبداد ، فملكها بأيسر محاولة ، مع الجهل المفرط وضعف الرأى ، وكان مع العامة كأنه صاحب شَعْوَذة ، يمشى فى الأسواق ويضحك فى وجوههم ويبادرهم بالسؤال ، وجاء للناس منه ما لم يعتادوه من سلطان ، فأعجب ذلك سفهاء الناس وعامتهم العمياء ، وكان كما قيل :

أمورٌ يَضْحَكُ السفهاء منها وَيَبْكى من عَوَاقبها الحليم

فآل ذلك إلى تَلَف القواعد العظيمة ، وتملك الأمصار الجليلة ، وخروجها من يد الإسلام .

---

(١) مرنوا على ذلك : تعودوه وصار لهم به إلف وعادة

(٢) الكرة ــ بفتح الكاف وتشديد الراء ــ الرجوع إلى ما كانوا عليه

والضابط فيما يقال فى شأن أهل الأندلس فى السلطان أنهم إذا وجدوا فارساً يبرع الفرسان(١) أو جواداً يبرع الأجواد تهافتوا فى نصْرته(٢)، ونصبوه ملكاً من غير تدبير فى عاقبة الأمر إلامَ يؤول، وبعد أن يكون الملك فى مملكة قد تُوُورثت وتدوولت، ويكون فى تلك المملكة قائد من قوادها قد شهرت عنه وقائع فى العدو وظهر منه كرم نفسٍ للأجناد ومراعاة، قدّموه ملكا فى حصن من الحصون، ورفضوا عِيالهم وأولادهم إن كان لهم ذلك بكرسىّ الملك، ولم يزالوا فى جهاد وإتلافِ أنفس حتى يظفر صاحبهم بطَلِبَتِهِ، وأهلُ المشرق أصوبُ رأيا منهم فى مراعاة نظام الملك، والمحافظة على نِصابه، لئلا يدخل الخلل الذى يقضى باختلال القواعد وفساد التربية وحلّ الأوضاع.

ونحن نمثل فى ذلك بما شاهدناه: لما كانت هذه الفتنة الأخيرة بالأندلس تمخَّضَتْ عن رجل من حصن يقال له أَرْجُونَة(٣)، ويعرف الرجل بابن الأحمر، كان يكثر مُغاورة العدو من حصنه، وظهرت له مَخايل وشواهد على الشجاعة، إلى أن طار اسمه فى الأندلس، وآل ذلك إلى أن قدّمه أهلُ حصنه على أنفسهم، ثم نهض فملك قرطبة العظمى، وملك إشْبِيلِيَة، وقتل ملكها الباجىّ، وملك جَيَّان أحصنَ بلد بالأندلس وأجله قدراً فى الامتناع، وملك غَرْناطة ومَالَقَة، وسَمَّوه بأمير المسلمين، فهو الآن المشار إليه بالأندلس والمعتمد عليه.

قاعدة الوزارة بالأندلس

وأمّا قاعدة الوزارة بالأندلس فإنها كانت فى مدة بنى أمية مشتركة فى جماعة يُعَيِّنهم صاحبُ الدولة للإعانة والمشاورة، ويخصهم بالمجالسة، ويختار منهم شخصاً لمكان النائب المعروف بالوزير فيسميه بالحاجب، وكانت هذه المراتب لضَبْطها

---

(١) يبرع الفرسان: يفوقهم ويتغلب عليهم بفروسيته

(٢) تهافتوا فى نصرته: تتابعوا وقذفوا بأنفسهم فى هذا الوجه

(٣) قال فى الروض «أرجونة مدينة، أو قلعة بالأندلس، إليها ينسب محمد بن يوسف بن الأحمر الأرجونى، من متأخرى سلاطين الأندلس» ا ه

عندهم كالمتوارَثَةِ فى البيوت المعلومة لذلك ، إلى أن كانت ملوكُ الطوائف ، فكان الملكُ منهم ـ لعظم اسم الحاجب فى الدولة المَرْوانية ، وأنه كان نائباً عن خليفتهم ـ يسمى بالحاجب ، و يرى أن هذه السمة[1] أعظم ما تنوفس فيه وظفر به ، وهى موجودة فى أمداح شعرائهم وتواريخهم ، وصار اسم الوزارة عاما لكل من يُجَالس الملوك و يختص بهم ، وصار الوزير الذى ينوب عن الملك يعرف بذى الوزارتين ، وأكثر ما يكون فاضلا فى علم الأدب ، وقد لا يكون كذلك ، بل عالما بأمور الملك خاصة .

قاعدة الكتابة بالأندلس

وأما الكتابة فهى على ضربين: أعلاهما : كاتب الرسائل ، وله حظ فى القلوب والعيون عند أهل الأندلس ، وأشرف أسمائه الكاتب ، و بهذه السِّمة[1] يخصه من يعظمه فى رسالة ، وأهلُ الأندلس كثيرو الانتقاد على صاحب هذه السِّمة[1] ، لا يكادون يغفلون عن عثراته لحظة ، فإن كان ناقصاً عن درجات الكمال لم ينفعه جاهُه ولا مكانه من سلطانه من تسلط الألسن فى المحافل والطَّعْن عليه وعلى صاحبه . والكاتبُ الآخر كاتب الزمام، هكذا يعرفون كاتب الجهبذة[2]، ولا يكون بالأندلس و برّ العُدْوة لا نصرانياً ولا يهوديا البتة ، إذ هذا الشغل نبيه[3] يحتاج إلى صاحبه عظماء الناس ووجوهُهم

صاحب الخراج بالأندلس

وصاحبُ الأشغال الخراجية فى الأندلس أعظمُ من الوزير ، وأكثر أتباعا وأصحاباً وأجْدَى منفعةً ، فإليه تميلُ الأعناق ، ونحوه تمد الأكف ، والأعمال مضبوطة بالشهود والنظار ، ومع هذا إن تأثلَتْ حالته واغتر بكثرة البناء والاكتساب

---

(١) السمة ـ بكسر السين ـ العلامة والصفة ، والفعل وسم يسم مثل وصف يصف ، وسما وسمة كوصف وصفة

(٢) الجهبذ ـ بزنة جعفر أو زبرج ـ الناقد العارف بتمييز الجيد من الردى ، وجمعه جهابذة ، وهو معرب عن الفارسية ، وفارسيته كهبذ ، ويجمع الجهبذ على جهابذة ، والجهبذة : مصدر ذلك (٣) نبيه : رفيع القدر عالى الشأن

نُـكِب وصُودر ، وهذا راجع إلى تقلب الأحوال وكيفية السلطان .

خطة القضاء بالأندلس

وأما خُطَّة القضاء بالأندلس فهى أعظم الخطط عند الخاصة والعامة ، لتعلقها بأمور الدين ، وكون السلطان لو توجَّه عليه حكم حَضَر بين يدى القاضى ، هذا وصفُها فى زمان بنى أمية ، ومن سلك مسلكهم ، ولا سبيلَ أن يتَّسم بهذه السِّمة إلا مَنْ هو والٍ للحكم الشرعى فى مدينة جليلة ، وإن كانت صغيرة فلا يُطْلَق على حاكمها إلا المسدَّد ، خاصة ، وقاضى القضاة يقال له : قاضى القضاة ، وقاضى الجماعة .

خطة الشرطة بالأندلس

وأما خطة الشُّرْطة بالأندلس فإنها مضبوطة إلى الآن ، معروفة بهذه السِّمة ، ويعرف صاحبها فى ألسن العامة بصاحب المدينة وصاحب الليل ، وإذا كان عظيم القدر عند السلطان كان له القتْل لمن وجب عليه دون استئذان السلطان ، وذلك قليل ، ولا يكون إلا فى حضرة السلطان الأعظم ، وهو الذى يحدّ على الزنا وشرب الخمر ، وكثير من الأمور الشرعية راجع إليه ، قد صارت تلك عادة تقرر عليها رضا القاضى ، وكانت خطة القاضى أوقر وأتقى عندهم من ذلك .

خطة الحسبة بالأندلس

وأما خطة الاحتساب فإنها عندهم موضوعة فى أهل العلم والفِطَنِ ، وكأن صاحبها قاض ، والعادة فيه أن يمشى بنفسه راكباً على الأسواق ، وأعوانُه معه ، وميزانُه الذى يزن به الخبز فى يد أحد الأعوان ، لأن الخبز عندهم معلوم الأوزان للربع من الدرهم رغيف على وزن معلوم ، وكذلك للثمن ، وفى ذلك من المصلحة أن يرسل المبتاع الصبىّ الصغير أو الجارية الرعْناء فيستويان فيما يأتيانه به من السوق مع الحاذق فى معرفة الأوزان ، وكذلك اللحم تكون عليه ورقة بسعره ، ولا يجسر الجزار أن يبيع بأكثر أو دون ماحَدَّ له المحتسب فى الورقة ، ولا يكاد تخفى خيانته ، فإن المحتسب يدسّ عليه صبياً أو جارية يبتاع أحدهما منه ، ثم يختبر الوزنَ المحتسبُ ، فإن وجد نقصاً قاس على ذلك حالَه مع الناس ، فلا تسأل عما يلقى ، وإن كثر

ذلك منه ولم يَتُبْ بعد الضرب والتجريس[١] فى الأسواق نُفى من البلد ، ولهم فى أوضاع الاحتساب قوانين يتداولونها و يتدارسونها كما تتدارس أحكام الفقه ، لأنها عندهم تدخل فى جميع المبتاعات وتتفرع إلى ما يطول ذكره .

العسس والطواف بالليل بالأندلس

وأما خطة الطواف بالليل وما يقابل من المَغْرب أصحاب أرباع فى المشرق فإنهم يعرفون فى الأندلس بالدرّابين ، لأن بلاد الأندلس لها دُروب بأغلاق[٢] تغلق بعد العَتَمة ، ولكل زُقاق بائتٌ فيه له سراج معلق وكلب يسهر وسلاح معدّ ، وذلك لشطارة عامّتها وكثرة شرّهم ، و إعيائهم فى أمور التلصص ، إلى أن يظهروا على المبانى المشيدة ، و يفتحوا الأغلاق[٢] الصعبة ، و يقتلوا صاحب الدار خوف أن يقرّ عليهم أو يطالبهم بعد ذلك ، ولا تكاد فى الأندلس تخلو من سماع « دار فلان دخلت البارحة » و « فلان ذبحه اللصوص على فراشه » وهذا يرجع التكثير منه والتقليل إلى شدّة الوالى ولينه ، ومع إفراطه فى الشدّة وكون سيفه يقطر دما فإن ذلك لا يعدم ، وقد آل الحالُ عندهم إلى أن قتلوا على عنقودٍ سرقه شخص من كَرْم وما أشبه ذلك ، ولم ينته اللصوص .

تدين أهل الأندلس

وأما قواعد أهل الأندلس فى دياناتهم فإنها تختلف بحسب الأوقات والنظر إلى السلاطين ، ولكن الأغلب عندهم إقامة الحدود ، و إنكار التهاون بتعطيلها ، وقيام العامة فى ذلك و إنكاره إن تهاون فيه أصحاب السلطان ، وقد يلج السلطانُ فى شىء من ذلك ولا ينكره ، فيدخلون عليه قصره المشيد ولا يعبؤن بخيله ورَجْله[٣] حتى

---

(١) الأصل فى هذه المادة الجرس المعلوم ، وهو أداة من أدوات الإعلان والتشهير ، ثم قالوا « جرس فلان فلانا » إذا فضحه وشهر به وأعلن على الملأ مساويه وندد عليه بها ، وكأنما وضع فى رقبته جرسا فشهره

(٣) الأغلاق : جمع غلق ـ بفتح الغين واللام جميعا ـ وهو القفل ونحوه

(١) يريد من الخيل الفرسان لأنهم يركبونها ، ويريد بالرجل الرجالة التى يسيرون على أقدامهم ، وفى القرآن الكريم : (وأجلب عليهم بخيلك ورجلك) والمراد أنهم لايبالون بقوته وما يمنع به نفسه من الجند

يخرجوه من بلدهم ، وهذا كثير فى أخبارهم ،وأما الرجم بالحجر للقضاة والولاة للأعمال إذا لم يَعْدِلوا فكل يوم .

التسول وامتناعه بالأندلس

وأما طريقة الفقراء على مذهب أهل الشرق فى الدورة التى تُكْسِلُ عن الكد وتخرج الوجوه للطلب فى الأسواق فمستقبحة عندهم إلى النهاية ، وإذا رأوا شخصا صحيحاً قادراً على الخدمة يطلب سَبُّوه وأهانوه ، فضلا عن أن يتصدقوا عليه ، فلا تجد بالأندلس سائلا إلا أن يكون صاحب عذر .

رغبة أهل الأندلس فى العلم

وأما حالُ أهل الأندلس فى فنون العلوم فتحقيقُ الإنصاف فى شأنهم فى هذا الباب أنهم أحرصُ الناس على التميز ، فالجاهل الذى لم يوفِّقْه الله للعلم يجهد أن يتميز بصنعة ، ويربأ بنفسه أن يُرَى فارغا عالَةً على الناس ، لأن هذا عندهم فى نهاية القبح ، والعالم عندهم معظَّم من الخاصة والعامة ، يشار إليه ، ويحال عليه ، ويَنْبُهُ قدره وذكره عند الناس ، ويُكْرَم فى جِوار أو ابتياع حاجة ، وما أشبه ذلك ومع هذا فليس لأهل الأندلس مَدَارس تعينهم على طلب العلم ، بل يقرءون جميع العلوم فى المساجد بأجرة ، فهم يقرءون لأن يعلموا لا لأن يأخذوا جاريا[1] ، فالعالم منهم بارع لأنه يطلب ذلك العلم بباعث من نفسه يحمله على أن يترك الشغل الذى يستفيد منه ، وينفق من عنده حتى يعلم ، وكل العلوم لها عندهم حظ واعتناء ، إلا الفلسفة والتنجيم ، فإن لهما حظا عظيما عند خواصهم ، ولا يتظاهر بها خوف العامة ، فإنه كلما قيل « فلان يقرأ الفلسفة » أو « يشتغل بالتنجيم » أطلقت عليه اسم زنديق ، وقَيَّدَتْ عليه أنفاسه ، فإن زلّ فى شبهة رَجَمُوه بالحجارة أو حرقوه قبل أن يصل أمره للسلطان ، أو يقتله السلطان تقربًا لقلوب العامة ، وكثيراً مايأمر ملوكهم بإحراق كتب هذا الشأن إذا وجدت ، وبذلك تقرب المنصور بن أبى عامر لقلوبهم أول نهوضه وإن كان غير خال من الاشتغال بذلك فى الباطن

---

(١) المراد بالجارى ههنا المرتب الذى يأخذه ، ويسمى وظيفة أيضا ، وأما تسمية أهل عصرنا العمل وظيفة فهو من باب تسمية الشىء باسم سببه ، لأن العمل سبب الوظيفة التى هى الراتب

على ماذكره الحجارى والله أعلم ؛ وقراءة القرآن بالسبع ورواية الحديث عندهم رفيعة ، وللفقه رونق ووجاهة ، ولا مذهب لهم إلا مذهب مالك ، وخواصهم يحفظون من سائر المذاهب مايباحثون به بمحاضر ملوكهم ذوى الهمم فى العلوم ، وسِمَةُ الفقيه عندهم جليلة ، حتى إن المسلمين كانوا يسمون الأمير العظيم منهم الذى يريدون تنويهه بالفقيه ، وهى الآن بالمغرب بمنزلة القاضى بالمشرق ، وقد يقولون للكاتب والنحوى واللغوى فقيه لأنها عندهم أرفع السمات .

وعلم الأصول عندهم متوسط الحال ، والنحوعندهم فى نهاية من علوّ الطبقة ، حتى إنهم فى هذا العصر فيه كأصحاب عصر الخليل وسيبويه ، لايَزْداد مع هَرَم الزمان إلاجِدَّةً ، وهم كثيرو البحث فيه وحفظ مذاهبه كمذاهب الفقه ، وكل عالم فى أى علم لا يكون متمكناً من علم النحو ـ بحيث لاتخفى عليه الدقائق ـ فليس عندهم بمستحق للتمييز ، ولا سالم من الازدراء ، مع أن كلام أهل الأندلس الشائع فى الخواص والعوام كثير الانحراف عما تقتضيه أوضاع العربية ، حتى لوأن شخصا من العرب سمع كلام الشلوبينى [(١)] أبى على المشار إليه بعلم النحو فى عصرنا الذى غرّبت تصانيفه وشرّقت وهو يُقْرِئ درسه لضحك بملء فيه من شدة التحريف الذى فى لسانه ، والخاصّ منهم إذا تكلم بالإعراب وأخذ يجْرِى على قوانين النحو استثقلوه واستبردوه ، ولكن ذلك مراعًى عندهم فى القراآت والمخاطبات بالرسائل ، وعلمُ الأدب المنثور [(٢)] من حفظ التاريخ والنظم والنثر ومستظرفات الحكايات أنبلُ علم عندهم ، وبه يتقرب مِنْ مجالس ملوكهم وأعلامهم ، وَمَنْ لايكون فيه أدب

---

(١) هو عمر بن محمد بن عبد الله الأزدى ، الأندلسى ، الإشبيلى ، النحوى ، المعروف بالشلوبينى ، كان إماما في علم النحو ، مستحضرا له غاية الاستحضار ، وله ترجمة فى وفيات الأعيان لابن خلكان (الترجمة رقم ٤٧٠ فى الجزء الثالث ص ١٢٣ بتحقيقنا)

(٢) كذا ، والعبارة لا تخلو من ركة

من علمائهم فهو غُفْلٌ [١] مستثقل .

والشعر عندهم له حظ عظيم ، وللشعراء من ملوكهم وجاهة ، ولهم عليهم حظ ووظائف [٢] ، والمجيدون منهم يُنْشِدون فى مجالس عظماء ملوكهم المختلفة ، ويوقَّع لهم بالصِّلات على أقدارهم ، إلا أن يختل الوقت ويغلب الجهل فى حين مّا ، ولكن هذا الغالبُ ، وإذا كان الشخص بالأندلس نحويا أو شاعراً فإنه يَعْظُم فى نفسه لامحالة ويسخف ويظهر العُجْبَ ، عادةٌ قد جُبِلوا عليها .

زى أهل الأندلس

وأما زى أهل الأندلس فالغالب عليهم ترك العمائم ، لاسيما فى شرق الأندلس ، فإن أهل غربها لاتكاد ترى فيهم قاضياً ولا فقيهاً مشاراً إليه إلا وهو بعمامة ، وقد تسامحوا بشرقها فى ذلك ، ولقد رأيت عزيز بن خطاب [٣] أكبر عالم بمُرْسِية حضرة السلطان فى ذلك الأوان ، وإليه الإشارة ، وقد خطب له بالملك فى تلك الجهة ، وهو حاسرُ الرأس ، وَشَيْبُه قد غلب على سواد شعره ، وأما الأجناد وسائر الناس فقليل منهم من تَرَاه بعمة فى شرق منها أو فى غرب ، وابنُ هود الذى ملك الأندلس فى عصرنا رأيته فى جميع أحواله ببلاد الأندلس وهو دون عمامة ، وكذلك ابن الأحمر الذى معظم الأندلس الآن فى يده ، وكثيراً مايتزيَّا سلاطينُهم وأجنادهم بزى النصارى المجاورين لهم ، فسلاحهم كسلاحهم ، وأقبيتهم من الإشكرلاط وغيره كأقبيتهم ، وكذلك أعلامهم وسُروجهم .

ومحار بتهم بالتِّراس والرِّماح الطويلة للطعن ، ولايعرفون الدبابيس ، ولا قِسِيَّ

---

(١) أصل الغفل من الكلام مثلا ـ بضم الغين وسكون الفاء ـ الذي أهمل تقييده وضبطه . والغفل من الرجال : من ليس له حسب ولا تجربه . والمراد هنا أن الناس يهملونه ولا يجعلون له قيمة ولا يعاملونه معاملة النابهين وذوى الأقدار

(٢) إقرأ الهامشة رقم ١ فى ص ٢٠٥

(٣) نسبه إلى جد أبيه ، وهو عزيز بن عبد الملك بن محمد بن خطاب ، كان رئيس مرسية وقتل فى سنة ٦٣٦ من الهجرة

العرب ، بل يعدون قِسِيَّ الإفرنج للمحاصرات فى البلاد ، أو تكون للرجالة عند المصافقة للحرب[1]، وكثيراً ماتصبرالخيل عليهم أوتمهلهم لأن يؤثروها ، ولا تجد فى خواص الأندلس وأكثر عوامهم مَنْ يمشى دون طَيْلَسان ، إلاأنه لايضعه على رأسه منهم إلا الأشياخ المعظمون، وغفائرالصوف[2] كثيراًمايلبسونها حُمْراً وخضرا والصفر مخصوصة باليهود ، ولا سبيل ليهودى أن يتعمم البتة ، والذؤابة لايرخيها إلا العالم، ولايصرفونها بين الأكتاف ، وإنما يُسْدِلونها من تحت الأذن اليسرى ، وهذه الأوضاع التى بالمشرق فى العمائم لايعرفها أهل الأندلس ، وإن رأوا فى رأس مشرقى داخلٍ إلى بلادهم شكلا منها أظهروا التعجب والاستظراف ، ولا يأخذون أنفسهم بتعليمها ؛ لأنهم لم يعتادوا ولم يستحسنوا غير أوضاعهم ، وكذلك فى تفصيل الثياب .

وأهل الأندلس أشدُّ خلق الله اعتناء بنظافة مايلبسون وما يفرشون ، وغير ذلك مما يتعلق بهم ، وفيهم مَنْ لايكون عنده إلا مايقوته يومَهُ ، فيطويه صائما ويبتاع صابوناًيغسل به ثيابه ، ولا يظهر فيها ساعةً على حالة تنبو العين عنها .

احتياط أهل الأندلس وتدبيرهم

وهم أهل احتياط وتدبير فى المعاش وحفظ لما فى أيديهم خوف ذل السؤال ، فلذلك قد ينسبون للبخل ، ولهم مروآت على عادة بلادهم ، لو فطن لها حاتم لفضّل دقائقها على عظائمه ، ولقد اجتزت مع والدى على قَرْية من قُراها ، وقد نال منا البرد والمطر أشدَّ النيل ، فأوَيْنا إليها ، وكنا على حال ترقُّبٍ من السلطان وخلوّ من

---

(١) المصافقة : هكذا وقع فى أصول الكتاب كلها ، والواجب عربية فى مثل هذا إدغام أحد المثلين فى الآخر فيقال « المصافة » بفاء مشددة — والمصافة : اصطفاف الجنود ووقوفهم صفوفا

(٢) الغفائر : جمع غفيرة ، أو غفارة ، وهو لباس يغطى العنق والقفا ، وتطلق الغفارة على لباس على قدر الرأس يلبس تحت القلنسوة ويتدلى منه شىء على القفا

الرفاهية ، فنزلنا فى بيت شيخ من أهلها ، من غير معرفة متقدمة ، فقال لنا : إن كان عندكم ما أشترى لكم فحما تسخنون به فإنى أمضى فى حوائجكم ، وأجعل عيالى يقومون بشأنكم ، فأعطيناه ما اشترى به فحما ، فأضرم ناراً ، فجاء ابنٌ له صغير ليصطلى ، فضربه ، فقال له والدى : لم ضربته ؟ فقال : يتعلم استغنام أموال الناس والضَّجَرَ للبرد من الصغر ، ثم لما جاء النوم قال لابنه : أعطِ هذا الشابّ كساءك الغليظة يزيدها على ثيابه ، فدفع كساءه إلىّ ، ثم لما قمنا عند الصباح وجدتُ الصبى منتبهاً ويدُه فى الكساء ، فقلت ذلك لوالدى ، فقال : هذه مروآت أهل الأندلس ، وهذا احتياطهم ، أعطاك الكساء وفضَّلك على نفسه ، ثم أفكر فى أنك غريب لايعرف هل أنت ثقة أو لص ، فلم يطب له منام حتى يأخذ كساءه خوفامن انفصالك بها وهو نائم ، وعلى هذا الشىء الحقير فقس الشىء الجليل ، انتهى كلام ابن سعيد فى «المغرب» باختصار يسير .

وصف كتاب « المغرب » لابن سعيد

ولله دره ! فإنه أبدع فى هذا الكتاب ماشاء ، وقسمه إلى أقسام : منها كتاب « وشى الطِّرس ، فى حلى جزيرة الأندلس » وهو ينقسم إلىَ أربعة كتب : الكتاب الأول كتاب « حلى العرس ، فى حلى غرب الأندلس » الكتاب الثانى « كتاب الشفاه اللُّعْس [1] ، فى حلى موسطة الأندلس » الكتاب الثالث كتاب « الأنس فى حلى شرق الأندلس » الكتاب الرابع كتاب « لحظات المريب ، فى ذكر ماحماه من الأندلس عُبّاد الصليب » والقسم الثانى كتاب « الألحان المساية ، فى حلى جزيرة صقلية » وهو أيضا ذو أنواع ، والقسم الثالث كتاب « الغاية الأخيرة ، فى حلى الأرض الكبيرة » وهو أيضا ذو أقسام ، وصور ــ رحمه الله تعالى ! ــ أجزاء الأندلس فى كتاب « وَشْى الطِّرس » [2] وقال أيضاً : إن كلا من شرق

---

(١) اللعس ــ بضم فسكون ــ جمع لعساء ، وهو الوصف من اللعس ــ بفتح اللام والعين جميعا ــ واللعس : سمرة فى الشفة ، وهى مما يتمدح به .

(٢) الوشى : التزيين ، والطرس ــ بكسر فسكون ــ الصحيفة

الأندلس وغربها ووسطها يقرب فى قدر المساحة بعضُه من بعض ، وليس فيها جزء يجاوز طوله عشرة أيام ، ليصدق التثليث فى القسمة ، وهــذا دون مابقى بأيدى النصارى ، وقدم ــ رحمه الله ! ــ كتاب « حَلى العرس ، فى حِلَى غرب الأندلس » لــكون قُرْطُبة قطبِ الخلافة المروانية و إشبيلية التى مافى الأندلس أجملُ منها فيه ، وقسمه إلى سبعة كتب ، كل كتاب منها يحتوى على مملــكة منحازة عن الأخرى : الــكتاب الأول كتاب « الحلة المذهبة ، فى حلى مملكة قرطبة » ، الــكتاب الثانى كتاب « الذهبية الأصيلية ، فى حلى المملكة الإشبيلية » الــكتاب الثالث كتاب « خدع الْمُمَالقة ، فى حلى مملكة مالَقَة » ، الــكتاب الرابع كتاب « الفردَوْس ، فى حلى مملكة بَطَلْيَوْس» ، الــكتاب الخامس كتاب « الخِلب[1] ، فى حلى مملكة شِلْب» ، الــكتاب السادس كتاب « الديباجة ، فى حلى مملكة بَاجَة » ، الــكتاب السابع كتاب «الرياض الْمَصُونة ، فى حلى مملكة أشْبُونة » وقد ذكر ــ رحمه الله تعالى ــ! فى كل قسم مايليق به ، وصور أجزاءه على ماينبغى ، فالله يجازيه خيراً ! والكلام فى الأندلس طويل عريض .

وصف بعض المؤرخين للأندلس

وقال بعض المؤرخين : طول الأندلس ثلاثون يوما ، وعرضها تسـعة أيام ، ويشقها أربعون نهراً كباراً ، وبها من العيون والحمامات والمعادن مالا يحصى ، وبها ثمانون مدينة من القواعد الــكبار ، وأزيد من ثلثمائة من المتوسطة ، وفيها من الحُصُون والقُرَى والبروج مالا يحصى كثرة ، حتى قيل : إن عدد القُرَى التى على نهر إشبيلية اثنا عشر ألف قرية ، وليس فى معمور الأرض صُقْع يجد المسافر فيــه ثلاث مدن وأربعاً من يومه إلا بالأندلس ، ومن بَرَكتها أن المسافر لايسافر فيها فرسخين دون ماء أصــلا ، وحيثما سار من الأقطار يجد الحوانيت فى الفلوات

(١) الخلب ــ بكسر الخاء وسكون اللام ــ فى الأصل : اسم لحجاب القلب ، أو للحجاب الحاجز بين القلب والــكبد ، وقالوا : « فلان خلب نساء » يريدون أنه يحب اللهو بهن والحديث معهن ، وأنه يخلبهن ويستولى علي ألبابهن

والصحارى والأودية ورؤس الجبال لبيع الخبز والفواكه والجبن واللحم والحوت وغير ذلك من ضروب الأطعمة .

وذكر صاحب الجغرافيا أن جزيرة الأندلس مسيرة أربعين يوما طولا فى ثمانية عشر يوما عرضا ، وهو مخالف لما سبق .

وقال ابن سيده : أخـذت الأندلسُ فى عرض الإقليمين الخامس والسادس من البحر الشامى فى الجنوب إلى البحر المحيط فى الشمال ، وبها من الجبال سبعة وثمانون جبلا ، انتهى .

ولبعضهم :

لله أندلس وما جَمَعَتْ بهـا ... من كل ما ضمنت لها الأهواء
فكأنما تلك الديار كواكب ... وكأنما تلك البقاعُ سماء
وبكلِّ قُطر جَدْوَلٌ فى جنـة ... ولعت بهـا الأفياء والأنداء[1]

وقال غيره :

فى أرض أندلس تلتـذُّ نَعْماء ... ولا يُفَارِق فيهـا القلبَ سَرّاء
وليس فى غيرها بالعيش مُنْتَفَع ... وَلا تقومُ بحق الأنس صَهْبَاء
وَأَيْنَ يُعْدَلُ عن أرض يَحُضُّ بها ... على الشهادة أزواج وأبناء
وَأَيْنَ يعدل عن أرض تَحُثُّ بها ... على المُدامة أمـواه وأفياء
وكيف لا تُبْهِجُ الأبصارَ رؤيتُها ... وكل أرض بها فى الوَشْىِ صَنْعَاء
أنهارها فضة ، والمسك تُرْبَتُهَا ... والخزّ رَوْضتها ، والدرُّ حَصْباء
وللهواء بهـا لطف يرقّ به ... من لا يرقّ ، وتَبْدُو منـه أهْوَاء
ليس النسيم الذى يَهْفُو بها سَحَرا ... ولا انتشار لآلى الطلِّ أنداء
وإنما أَرَجُ النـدّ اسْتُثار بها ... فى ماء وَرْدٍ فطابت منـه أَرْجاء

(١) الجدول : النهر الصغير ، والأفياء : الظلال ، واحدها فىء ، والأنداء : جمع ندى ، وهو الماء الذى ينزل من السماء قليلا قليلا فى آخر الليل ، فأما الذى ينزل فى أول الليل فيسمونه « السدى » بوزن الندى ، وفى نسخة « ولعت به »

وأين يبلغ منها ما أُصَنِّفُه وكيف يَحْوِى الذى حازته إحْصاءُ
قد مُيزتْ من جهات الأرض ثم بدَتْ فريدةً ، وتولَّى مَيْزَها الماء
دارت عليها نطاقًا أبحرٌ خَفَقَتْ وَجْدًا بها إذ تبدّتْ وَهْى حسناء
لذاكَ يبسِمُ فيها الزهرُ من طَرَبٍ والطيرُ يَشْدُو ، وللأغصان إصغاء
فيها خلعتُ عِذَارى مابها عوض فهى الرياض، وكل الأرض صَحْراء

وقد تقدمت هذه القصيدة[1] .

وقال آخر :

حبذا أندلس من بلد لم تزل تَنْتِجُ لى كلَّ سُرُور
طائر شادٍ ، وظلٌّ وارف ومياهٌ سائحات وقُصُور[2]

وقال آخر :

ياحسن أندلس وما جُمِعَتْ لنا فيها من الأوطار والأوطان
تلك الجزيرة لست أنسى حسنها بتعاقُب الأحيان والأزمان
نَسَجَ الربيعُ نباتَها من سُنْدُس مَوْشِيَّة ببدائع الألوان
وغدا النسيمُ بها عليلاً هائما برُبُوعها وتلاطَمَ البحرانِ
ياحُسْنَها والطلّ ينثر فوقها دررًا خلالَ الوَرْد والرَّيْحانِ
وسواعِدُ الأنهار قد مدَّت إلى نُدَمائها بشقائق النّعمانِ
وتجاوبَتْ فيها شَوادى طَيْرِها والتفَّتِ الأغصانُ بالأغصانِ
ما زُرْتُهَا إلا وحَيَّانى بها حَدَق البَهارِ وأنملُ السُّوسانِ[3]
من بعدها ما أعجبتنى بلدة مَعَ ماحللت به من البلدانِ

---

(١) ارجع إلى (ص ١٩٤ من هذا الجزء)

(٢) شاد : اسم فاعل من « شدا يشدو » إذا غنى ، والظل الوارف : المتسع الطويل الممتد ، وفى بعض النسخ « ومياه سابحات »

(٣) البهار : العرار ، أو النرجس البرى ، والسوسان : هو السوسن ، وهو نبت يشبه أذناب الطواويس فى كثرة ألوانه .

وحكى بعضهم أن بالجامع من مدينة أَقْلِيشَ بلاطاً فيه جوائز منشورة مربعة مستوية الأطراف ، طول الجائزة منها مائة شبر وأحد عشر شبراً .

وفى الأندلس جبل مَنْ شربَ من مائه كثر عليه الاحتلام ، من غير إرادة ولا تفكر ، وفيها غير ذلك مما يطول ذكره ، والله أعلم .

ولْنُمْسِكْ العِنانَ فى هذا الباب ، فإن بحر الأندلس طويل مديد[1] ، وربما كررنا الكلام لارتباط بعضه ببعض، أولنقل صاحبه المروى عنه ، أولاختلاف مّا ، أو غير ذلك من غرض سَديد .

---

(١) هذا من اصطلاح علماء العروض (وهو علم وزن الشعر) والطويل والمديد : اسمان لبحرين من بحور الشعر ، والمؤلف يستعمل مثل هذا فى كلامه كثيرا .

الباب الثانى

فى إلقاء الأندلس للمسلمين بالقِيَاد[(١)]، وفتحها على يد موسى بن نُصَير ومولاه طارق بن زياد، وصيرورتها ميداناً لِسَبق الجياد، ومحطَّ رَحْل الارتياء والارتياد، وما يتبع ذلك من خبر حصل بازديانه ازدياد، ونبإ وصل إليه اعتيام[(٢)] وتقرر بمثله اعتياد.

اعلم أنه لما قضى الله سبحانه بتحقيق قول رسول الله صلى الله عليه وسلم « زُوِيَتْ لِى مشارق الأرض ومغاربها، وسيبلغ ملك أمتى مازوى لى منها » وقع الخلافُ بين لُذَرِيق ملكِ القُوط و بين ملك سَبْتة الذى على مجاز الزُّقاق، فكان مايذكر من فتح الأندلس على يد طارق وطَرِيف ومولاهما الأمير موسى بن نُصَير رحم الله الجميع!.

أول من دخل الأندلس من المسلمين

وذكر الحِجَارى وابنُ حَيَّان وغيرُهما أن أوَّل مَنْ دخل جزيرة الأندلس من المسلمين برسم الجهاد طريفٌ البربرىُّ مولى موسى بن نُصَير الذى ينسب إليه جزيرةُ طَريف التى على المجاز، غزاها بمَعُونة صاحب سَبْتة يُلْيَانَ النصرانى، لحقده على لُذَرِيق صاحب الأندلس، وكان فى مائة فارس وأربعمائة راجل[(٣)]، جاز البحر فى أربعة مراكب، فى شهر رمضان سنة إحدى وتسعين، وانصرف بغنيمة جليلة، فعقد موسى بن نُصَير صاحبُ المغرب لمولاه طارق بن زياد على الأندلس، ووجهه مع يُلْيَان صاحب سَبْتة، انتهى.

وسيأتى فى أمر طريف وغيره ما يخالف هذا السياق، وهى أقوال.

أسباب فتح الأندلس

وقال ابن حيان: إن أول أسباب فتح الأندلس كان أن ولَّى الوليدُ بن عبدالملك موسى بنَ نُصَير مولى عمه عبد العزيز على إفريقية وما خَلْفَهَا سنة ثمان وثمانين

---

(١) القياد: مصدر « قاد الدابة يقودها » وقد يطلق علي ما تقاد به الدابه من لجام ونحوه، ويقولون « ألقى فلان قياده » و « ألقى مقادته » يريدون أنه استسلم وخضع وذل وانقاد (٢) الاعتيام: الاصطفاء والاختيار

(٣) الفارس: راكب الفرس، والراجل: الذى يمشى على رجليه

فخرج فى نفر قليل من المُطَّوِّعة[١] ، فلما ورد مصر أخرج معه من جُنْدِهَا بَعْثاً ، وفعل ذلك فى إفريقية ، وجعل على مقدمته مولاه طارقا ، فلم يزل يقاتل البربر و يفتح مَدَائنهم ، حتى بلغ مدينة طَنْجَة ، وهى قصبة بلادهم وأم مدائنهم ، فحصرها حتى فتحها ، وأسلم أهلُها ، ولم تكن فتحت قبله ، وقيل : بل فتحت ثم استغلقت .

وذكر ابن حيان أيضاً استصعاب سَبْتة على موسى بتدبير صاحبها الداهية الشجاع يُلْيَان النصرانى ، وأنه فى أثناء ذلك وقع بينه و بين لُذَرِيق صاحب الأندلس ، ثم سرد مايأتى ذكره .

وقال لسان الدين بن الخطيب رحمه الله : وحديثُ الفتح ، وما مَنَّ الله به على الإسلام من المنح ، وأخبار ما أفاء الله من الخير ، على موسى بن نُصَير ، وكتب من جهاد ، لطارق بن زياد ، مملول قُصَّاص[٢] وأوراق ، وحديث أفول و إشراق ، و إرعاد و إبراق ، وعَظْم امتشاش[٣] ، وآلة معلقة فى دكان قَشَّاش[٤] ، انتهى .

وقال فى المغرب : طارق بن زياد من إفريقية .

وقال ابن بَشْكُوال : إنه طارق بن عمرو ، فتح جزيرة الأندلس ودوّخها ، و إليه ينسب جبل طارق الذى يعرفه العامة بجبل الفتح ، فى قبلة الجزيرة الخضراء ، ورحل مع سيده بعد فتح الأندلس إلى الشام وانقطع خبره ، انتهى .

وقال أيضا : إن طارقا كان حسن الكلام ينظم ما يجوز كَتْبه ، وأما المعارف السلطانية فيكفيه ولاية سلطنة الأندلس وما فتح فيها من البلاد إلى أن وصل سيده موسى بن نصير .

ومن تاريخ ابن بَشْكُوَال : احتلّ طارق بالجبل المنسوب إليه يوم الإثنين لخمس خلون من رجب سنة اثنتين وتسعين فى اثنى عشر ألفاً غير اثنى عشر رجلا

---

(١) المطوعة ــ بتشديد الطاء مفتوحة وتشديد الواو مكسورة ــ أصله المتطوعة فقلبت التاء طاء ثم أدغمت الطاء فى الطاء ، وهى الجماعة التى تتطوع للجهاد

(٢) يريد أنه كثر ذكر القصاص والمؤلفين له ، وتردد وتكرر حتى مل

(٣) امتش العظم امتشاشا : استخرج ما فيه من المخ

(٤) القشاش : الذى يجمع محقرات الأشياء

من البربر ، ولم يكن فيهم من العرب إلا شىء يسير ، وإنه لما ركب البحر رأى وهو نائم النبىَّ صلى الله عليه وسلم ، وحوله المهاجرون والأنصار قد تقلدوا السيوف وتنكبوا القِسِىِّ ، فيقول له رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا طارق، تقدم لشأنك ، ونظر إليه وإلى أصحابه قد دخلوا الأندلس قُدّامه، فهبَّ من نومه مستبشراً ، وبَشَّر أصحابه ، وثابَتْ نفسُه ببشراه ، ولم يشك فى الظفر ، فخرج من الجبل ، واقتحم بسيط البلد شَانًّا للغارة[1] ، وأصاب عجوزاً من أهل الجزيرة فقالت له فى بعض قولها : إنه كان لها زوج عالم بالحدثان ، فكان يحدثهم عن أمير يدخل إلى بلدهم هذا فيغلب عليه ، ويصف من نعته أنه ضَخْم الهامة[2] ، فأنت كذلك ، ومنها أن فى كتفه الأيسر شامة عليها شَعْر ، فإن كانت فيك فأنت هو ، فكشف ثوبه فإذا بالشامة فى كتفه على ما ذكرت ، فاستبشر بذلك ومَنْ معه .

رواية ابن حيان فى ابتداء الفتح

ومن تاريخ ابن حيان : لما حَرَّض يُلْيَانُ النصرانى صاحبُ سَبْتة للأمر الذى وقع بينه وبين صاحب الأندلس موسى بن نُصَيْر على غزو الأندلس جهز لها مولاه طارقا المذكور فى سبعة آلاف من المسلمين ، جُلُّهم البربر ، فى أربع سفن، وحط بجبل طارق المنسوب إليه يوم السبت فى شعبان سنة اثنتين وتسعين ، ولم تزل المراكب تعود حتى توافى جميعُ أصحابه عنده بالجبل ، قال : ووقع على لُذَريق صاحب الأندلس الخبرُ ، وأن يُلْيان السبب فيه ، وكان يومئذ غازيا فى جهة البَشْكَنس ، فبادر فى جمعه وهم نحو مائة ألف ذوى عُدّة وعَدَد ، وكتب طارق إلى موسى بأنه قد زحف عليه لُذَريق بما لا طاقة له به ، وكان عمل من السفن عِدّة ، فجهز له فيها خمسة آلاف من المسلمين ، فكملوا بمن تقدّم اثنى عشر ألفاً ، ومعهم يليانُ صاحبُ سَبْته فى حَشْده يدلّهم على العَوْرات ، ويتجسس لهم الأخبار ، وأقبل نحوهم لُذَرِيق ومعه خيار العجم وأملاكها وفرسانها ، وقلوبهم عليه ، فتلاقوا فيما بينهم ، وقالوا : إن هذا الخبيث غلب على سلطاننا ، وليس من

(١) الغارة : الاسم من الإغارة على العدو ، مثل الجابة من الإجابة والطاعة من الإطاعة ، وتقول « شن فلان الغارة » تريد أنه فرق هجومه على العدو

(٢) ضخم الهامة : كبير الرأس عظيمها

بيت الملك ، وإنما كان من أتباعنا ، ولسنا نعدم من سيرته خَبالا واضطراباً ، وهؤلاء القوم الذين طَرَقوا لا حاجة لهم فى إيطان بلدنا ، وإنما مرادهم أن يملؤا أيديهم من الغنائم ويخرجوا عنا ، فهلم فلننهزم بابن الخبيثة إذا نحن لقينا القوم ، فلعلهم يكفوننا أمره ، فإذا هم انصرفوا عنا أقعدنا فى ملكنا مَنْ يستحقه ، فأجمعوا على ذلك ، انتهى .

رواية ابن خلدون فى الفتح

وقال ابن خلدون ـ بعد ذكره أن القوطيين كان لهم ملك الأندلس ، وأن مَلِكهم لعهد الفتح يسمى لُذَرِيقَ ـ ما نصه : وكانت لهم خَطْوة وراء البحر فى هذه العُدْوة الجنوبية خَطَوْها من فُرْضة المجاز بطَنْجة ، ومن زقاق البحر إلى بلاد البربر ، واستعبدوهم ، وكان ملك البربر بذلك القطر الذى هو اليوم جبال غمارة يسمى يُلْيَان، فكان يَدِينُ بطاعتهم و بملتهم ، وموسى بن نُصَير أمير المغرب إذ ذاك عامل على إفريقية من قبل الوليد بن عبد الملك ، ومنزلُه بالقَيْروان ، وكان قد أغزى لذلك العهد عساكر المسلمين بلاد المغرب الأقصى ، ودَوَّخ أقطاره[1] ، وأثخن فى جبال[2] طَنْجة هذه حتى وصل خليج الزُّقاق ، واستنزل يُلْيَان لطاعة الإسلام ، وخلف مولاه طارق بن زياد الليثى والياً بطَنْجة ، وكان يُلْيان ينقم على لذريقَ ملكِ القوط لعهده بالأندلس فعلةً فعلها زعموا بابنته الناشئة فى داره على عادتهم فى بنات بطارقتهم ، فغضب لذلك ، وأجاز إلى لذريق ، وأخذ ابنته منه ، ثم لحق بطارق فكشف للعرب عورةَ القوط ودلَّهم على عورة فيهم أمكنت طارقا فيها الفرصةُ فانتهزها لوقته ، وأجاز البحر[3] سنة اثنتين وتسعين من الهجرة بإذن أميره موسى بن نُصَير فى نحو ثلثمائة من العرب ، واحتشد معهم من البربر زهاء عشرة آلاف ، فصيرهما عسكرين : أحدهما على نفسه ونزل به جَبل الفتح ، فسمى جبل طارق به ، والآخر على طريف بن مالك النخعى ، ونزل بمكان مدينة طريف ،

(١) دوخ أقطاره : كناية عن أنه قهر جميع نواحيه واستولى على أهلها

(٢) أثخن فيهم : أكثر من القتل

(٣) أجاز البحر ، ومثله اجتازه ، انتقل من شط إلى شط

فسمى به ، وأداروا الأسوار على أنفسهم للتحصن ، و بلغ الخبرُ إلى أُذَرِيقَ فنهض إليهم يجر أمم الأعاجم وأهل ملة النصرانية فى زُهَاء أر بعين ألفاً ، وزحفوا إليه ، فالتقوا بفَحْص شَرِيشَ ، فهزمه الله ونفلهم أموال أهل الكفر ورقابهم [١] ، وكتب طارق إلى موسى بن نُصَير بالفتح و بالغنائم ، فحركته الغيرة ، وكتب إلى طارق يتوعّده إن توغّل بغير إذنه ، و يأمره أن لا يتجاوز مكانه حتى يلحق به ، واستخلف على القَيْرَوَان ولده عبدَ الله ، وخرج ومعه حبيب بن منده [٢] الفهرى ، ونهض من القيروان سنة ثلاث وتسعين من الهجرة فى عسكر ضخم من وجوه العرب الموالى وعُرَفاء البربر ، ووافى خليج الزُّقاق ما بين طَنْجة والجزيرة الخضراء ، فأجاز إلى الأندلس ، وتلقّاه طارق فانقاد واتبع ، وأتمّ موسى الفتحَ ، وتوغّل فى الأندلس إلى بَرْشِلُونة فى جهة الشرق وأر بونة فى الجوف ، وصنم قادس فى الغرب ، ودوّخ أقطارها ، وجمع غنائمها ، وأجمع أن يأتى المشرق من ناحية القسطنطينية ، و يتجاوز إلى الشام دُروبه ودُروب الأندلس ، و يخوض إليه ما بينهما من أمم الأعاجم النصرانية ، مجاهداً فيهم ، مستلحما لهم ، إلى أن يلحق بدار الخلافة ، ونمى الخبر إلى الوليد فاشتدّ قَلَقُه بمكان المسلمين من دار الحرب ، ورأى أن ماهم به موسى غَرَرٌ بالمسلمين ، فبعث إليه بالتوبيخ والانصراف ، وأسرّ إلى سفيره أن يرجع بالمسلمين إن لم يرجع ، وكتب له بذلك عهده ، ففتّ ذلك فى عَزْم موسى ، وقَفَل عن الأندلس بعد أن أنزل الرابطة والحامية بثغورها ، وأنزل ابنه عبدَ العزيز لسدّها وجهاد عدوها ، وأنزله بقرطبة فاتخذها دار إمارة ، واحتلّ موسى بالقيروان سنة خمس وتسعين ، وارتحل إلى المشرق سنة ست بعدها بما كان معه من الغنائم والذخائر والأموال على العَجَل والظَّهْر ، يقال : إن من جملتها ثلاثين ألفَ رأسٍ من السبى ، وولى على إفريقية ابنَه عبدَ الله ، وقدم على سليمان بن عبد الملك

(١) نفلهم : صيرها لهم نفلا ، والنفل ــ بفتح النون والفاء جميعا ــ الغنيمة ، وله فى للشريعة الإسلامية معنى أخص من ذلك

(٢) كذا ، ولعله يريد حبيب بن مرة بن عقبة بن نافع ، أحد الوجوه من أصحاب موسى بن نصير

فسخِطَه ونَـكَبه[١] ، وثارت عساكر الأندلس بابنه عبدالعزيز بإغراء سليمان فقتلوه لسنتين من ولايته ، وكان خيراً فاضلا ، وافتتح فى ولايته مدائن كثيرة ، وولى من بعده أيوبُ ابنُ حبيب اللخمى ، وهو ابن أخت موسى بن نُصَير ، فولى عليها ستة أشهر ، ثم تتابعت وُلاَةُ العرب على الأندلس : تارة من قبل الخليفة ، وتارة من قبل عامله بالقَيْرَوان ، وأثخنوا فى أمم الـكفر ، وافتتحوا بَرْشَلُونة من جهة المشرق ، وحصون قَشْتَالة و بسائطها من جهة الجوف ، وانقرضت أمم القُوطِ ، وأوَى الجلالقةُ ومَنْ بقى من أمم العجم إلى جبال قَشْتالة وأَرْبُونة وأفواه الدُّروب فتحصنوا بها ، وأجازت عساكر المسلمين ماوراء بَرْشلونة من دروب الجزيرة حتى احْتَلُّوا البسائط وراءها[٢] ، وتوغَّلوا فى بلاد الفرنجة ، وعصفت ريح الإسلام بأمم الـكفر من كل جهـة ، وربمـا كان بين جنود الأندلس من العرب اختلافٌ وتنَازع أوجَدَ للعدو بعضَ الـكرَّة ، فرجع الإفرنجُ[٣] ما كانوا غلبوهم عليه من بلاد بَرْشلونة لعهد ثمـانين سنة من لدن فتحها ، واستمر الأمر على ذلك .

بعض أمراء الأندلس

وكان محمد بن يزيد عامل إفريقية لسليمان بن عبـد الملك ــ لمـا بلغه مَهْلِكُ عبد العزيز بن موسى بن نُصَير ــ بعث إلى الأندلس الحرَّ بن عبدالرحمن بن عثمان الثقفى ، فقدم الأندلس ، وعَزَلَ أيوبَ بن حبيب ، وولى سنتين وثمـانية أشهر .

ثم بعث عمر بن عبـد العزيز على الأندلس السَّمْحَ بن مالك الخَوْلانى على رأس المائة من الهجرة ، وأمرهُ أن يَخْمُسَ أرضَ الأندلس[٤] ، فَخَمَسَهَا و بنى قنطرة قرطبة ، واستشهد غازيا بأرض الفرنجة سـنة ثنتين ومائة ، فقدّم أهل الأندلس عليهم عبد الرحمن بن عبدالله الغافقى إلى أن قدم عَنْبَسَةُ بن سُحَيم الـكلبى من قبل يزيد بن أبى مسلم عامل إفريقية ، فقدمها فى صفر سنة ثلاث ومائة ، فاستقام أمر

---

(١) سخطه : غضب عليه ومقته وكرهه . ونـكبه : أوقع به

(٢) البسائط : الاراضى المنبسطة الفسيحة

(٣) رجع الفرنج : استردوا لأنفسهم ، بسبب الاختلاف والتنازع بين العرب

(٤) يخمسها : يأخذ خمس ريعها ، بعد أن يقسمها على الفاتحين من المسلمين

الأندلس ، وغزا الفرنجة ، وتوغَّل فى بلادهم ، واستشهد سنة سبع ومائة لأربع سنين وأربعة أشهر .

بقية ولاة الأندلس

ثم تتابعت وُلاةُ الأندلس من قبل أمراء إفريقية ، فكان أولهم يحيى بن سلمة الكلبى ، أنفذه بِشْرُ بن صَفْوَان الكلبى والى إفريقية ، لما استدعى منه أهل الأندلس والياً بعد مقتل عَنْبَسَة ، فقدمها آخر سنة سبع ، وأقام فى ولايتها سنتين ونصفاً ، ولم يغز ، وقدم إليها عثمان بن أبى نِسْعَةَ اللخمى والياً من قبل عبيدة بن عبد الرحمن السُّلَمى صاحب إفريقية ، وعزله لخمسة أشهر بحذيفة بن الأحوص القيسى فوافاها سنة عشر ، وعُزل قريباً يقال: لسنة من ولايته ، واختلف : هل تقدّمه عثمان أو هو تقدّم عثمان ؟ ثم ولى بعده الهيثم بن عُبيد الكلابى من قبل عُبَيدة بن عبد الرحمن أيضاً ، قدم فى المحرم سنة إحدى عشرة ، وغزا أرض مَقوشة فافتتحها وتوفى سنة ثلاث عشرة ومائة لسنتين من ولايته ، وقدم بعده محمد بن عبد الله الأشجعى ، فولى شهرين ، ثم قدم عبد الرحمن بن عبد الله الغافقى من قبل عبيد الله ابن الحبحاب صاحب إفريقية ، فدخلها سنة ثلاث عشرة ، وغزا الإفرنجة ، وكانت له فيهم وقائع ، وأصيب عسكره فى رمضان سنة أربع عشرة ، فى موضع يعرف ببلاط الشهداء ، وبه عرفت الغزوة ، وكانت ولايته سنة وثمانية أشهر ، ثم ولى عبدُ الملك بن قَطَن الفِهْرى ، وقدم فى رمضان سنة أربع عشرة فولى سنتين — وقال الواقدى : أربع سنين — وكان ظلوما جائراً فى حكومته ، وغزا أرض البَشْكَنْس سنة خمس عشرة ومائة ، فأوقع بهم وغنم ، ثم عزل فى رمضان سنة ست عشرة ، وولى عُقْبَةُ بن الحجاج السَّلُولى من قبل عُبَيْد الله بن الحبحاب ، فأقام خمس سنين محمودَ السيرة مجاهداً مظفراً ، حتى بلغ سكنى المسلمين أرْبُونَة ، وصار رِبَاطُهم على نهر رُدُونة ، ثم وثب عليه[1] عبد الملك بن قَطَن الفهرى سَنَةَ إحدى وعشرين ، فخلعه وقتله ، ويقال: أخرجه من الأندلس وولى مكانه إلى أن دخل بَلجُ بن بشر بأهل الشام سنة أربع وعشرين ، فغلب عليه ، وولى الأندلس سنة أو نحوها .

(١) وثب عليه : أراد ثار عليه

وقال الرازى : ثار أهل الأندلس بأميرهم عُقْبة فى صفر سنة ثلاث وعشرين فى خلافة هشام بن عبد الملك ، وولوا عليهم عبد الملك بن قَطَن ولايته الثانية ، فكانت ولاية عقبة ستة أعوام وأربعة أشهر ، وتوفى بقَرْمُونة (١) فى صفر سنة ثلاث وعشرين ، واستقام الأمر لعبد الملك ، ثم دخل بَلْجُ بن بشر القُشَيْرِى بجند الشام ناجياً من وَقْعة كلثوم بن عياض مع البربر بمَلْوِية ، فثار على عبدالملك ، وقتله وهو ابن سبعين سنة ، واستوثق له الأمر بعد مقتل عبد الملك ، وانحاز الفِهريون إلى جانب ، فامتنعوا عليه ، وكاشفوه ، واجتمع إليهم مَنْ أنكر فعلته بابن قَطَن ، وقام بأمرهم قطن وأمية ابنا عبد الملك بن قَطَن ، والتقوا فكانت الدائرة على الفِهْريين وهلك بَلْجٌ من الجراح التى نالته فى حربهم ، وذلك سنة أربع وعشرين لسنة أو نحوها من إمارته ، ثم ولى ثعلبة بن سلامة الجُذَامى ، وغلب على إمارة الأندلس بعد مَهْلك بلج ، وانحاز عنه الفهريون فلم يطيعوه ، وولى سنتين أظهر فيهما العدل ودانت له الأندلس عشرة أشهر ، إلى أن مالت به العصبية فى يمانيته ، ففسد أمره ، وهاجت الفتنة ، وقدم أبو الخَطَّار حُسَام بن ضِرار الكلبى من قبل حنظلة بن صفوان عامل إفريقية ، ركب إليها البحر من تونس سنة خمس وعشرين ، فدانَ له أهل الأندلس وأقبل إليه ثعلبة وابن أبى نِسْعَة وابنا عبد الملك ، فلقيهم وأحسن إليهم ، واستقام أمره ، وكان شجاعا كريما ذا رأى وحزم ، وكَثُرَ أهل الشام عنده ، ولم تحملهم قرطبة ، ففرقهم فى البلاد ، وأنزل أهل دمشق إلبيرة لشبهها بها ، وسماها دمشق ، وأنزل أهل حمص إشبيلية ، وسماها حمص ، وأهْلَ قنسرين جَيَّان ، وسماها قنسرين ،

(١) قال فى الروض : « قرمونة : بلد بالأندلس فى الشرق ، وبينها وبين إستجة خمسة وأربعون ميلا ، وهى مدينة كبيرة قديمة ، وهى باللسان اللطينى « كارب موية » ومعناه صديقى ، وهى فى سفح جبل عليها سور حجارة من بناء الاول ، وجنباتها حصينة ممتنعة على المحاربين إلا من جهة الغرب ، وارتفاع سورها هناك أربعون حجرا ، وبالذراع ثلاث وأربعون ذراعا ، وفى هذا السور الغربى برج يعرف بالبرج الأجم ، عليه تنصب العرادات للقتال » اهـ

وأهل الأرْدُنِّ رية ومالقة ، وسماها الأرْدُنَّ ، وأهلَ فلسطين شَذُونة ــ وهى شَرِيشُ ــ وسماها فلسطين ، وأهلَ مصر تُدْمِيرَ ، وسماها مصر ، وقفَل ثعلبةُ إلى المشرق ، ولحق بمَرْوَان بن محمد ، وحضر حروبه ، وكان أبو الخطار أعرابيا عصبيا أفرط عند ولايته فى التعصب لقومه من اليمانية ، وتحامل على المضرية ، وأسخط قَيْسا ، وأمر فى بعض الأيام بالصُّميل بن حاتم كبير القَيْسِية ــ وكان من طوالع بلج ، وهو الصميل بن حاتم بن شَمِرِ بن ذى الجوشن ، ورأسَ على المضرية ــ فأقيم من مجلسه ، وتقنع ، فقال له بعض الحجاب وهو خارج من القصر : أقم عمامتك يا أبا الجوشن ، فقال : إن كان لى قوم فسيقيمونها ، فسار الصميل ابن حاتم أميرهم يومئذ وزعيمهم ، وألّبَ عليه قومَه[١] ، واستعان بالمنحرفين عنه من اليمانية ، فخلع أبو الخطار سنة ثمان وعشرين لأربع سنين وتسعة أشهر من ولايته ، وقدم مكانه ثوَابة بن سلامة الجُذَامى ، وهاجت الحرب المشهورة ، وخاطبوا بذلك عبدَ الرحمن بن حبيب صاحب إفريقية ، فكتب إلى ثوابة بعهده على الأندلس مُنْسَلَخَ رجب سنة تسع وعشرين ، فضبط الأندلس ، وقام بأمره الصُّميل ، واجتمع عليه الفريقان ، وهلك لسنة من ولايته،ووقع الخلاف بإفريقية والتاثأمر[٢] بنىأمية بالمشرق، وشغلوا عنقاصية الثغور[٣] بكثرة الخوارج، وعظم أمر المسوِّدة[٤] فبقى أهل الأندلس فَوْضَى ، ونصبوا للأحكام خاصة عبدَ الرحمن ابن كثير ، ثم اتفقجندُ الأندلسعلى اقتسام الإمارة بين المضرية واليمانية و إدالتها بين الجندين سنةً لكل دولة ، وقدّم المضريةُ على أنفسهم يوسفبن عبد الرحمن الفِهْرِى سنة تسع وعشرين ، واستتم سنةَ ولايتِهِ بقرطبة دار الإمارة ، ثم وافته اليمانية لميعاد دالتهم واثقين بمكان عهدهم وتراضيهم واتفاقهم ، فبيَّتهم يوسفُ بمكان نزولهم من شَقَنْدَةَ فى قرى قُرْطُبة بممالأة من الصُّميل بن حاتم والقيسية

---

(١) ألب عليه قومه : جمعهم وحزبهم ثم حرضهم ودفعهم إلى معاداته

(٢) التاث أمرهم : مرج واختلط وفسد واضطرب

(٣) قاصية الثغور : الأماكن البعيدة المجاورة للأعداء والتى تجىء المخافة منها

(٤) كانت أعلام العباسيين عند الدعوة إليهم سودا ، فسمى دعاتهم المسودة

وسائر المضرية ، فاستلحموهم[١] ، وثار أبو الخطار فقاتله الصُّميل وهزمه وقتله سنة تسع وعشرين ، واستبدّ يوسف بما وراء البحر من عُدْوَة الأندلس ، وغلب اليمنية على أمرهم ، فاستكانوا لِغَلَبِهِ ، وتربَّصُوا الدوائر[٢] إلى أن جاء عبدُ الرحمن الداخل، وكان يوسف ولَّى الصميل سَرَقُسْطة ، فلما ظهر أمر المسوِّدة بالمشرق ثار الْحُبابُ الزهريّ بالأندلس داعيا لهم، وحاصر الصميلَ بسَرَقُسْطة ، واستمد يوسف[٣] ، فلم يمده رجاءَ هلاكه لما كان يغص به ، وأمدته القيسية ، فأفرج عنه الحباب ، وفارق الصميل سَرَقُسْطة فملكها الحباب ، وولى يوسف الصميل على طليطلة إلى أن كان من عبد الرحمن الداخل ما كان ، انتهى كلام ولى الدين ابن خلدون ببعض اختصار .

وقال بعضُ المؤرخين : إن عبد الله بن مَرْوَان أخا عبد الملك كان والياً على مصر وإفريقية ، فبعث إليه ابنُ أخيه الوليدُ الخليفةُ يأمره بإرسال موسى بن نُصَير إلى إفريقية ، وذلك سنة سبع وثمانين للهجرة ، فامتثل أمره فى ذلك .

رواية الحميدى

وقال الحميدىّ فى « جذوة المقتبس » : إن موسى بن نُصَير ولى إفريقية والمغرب سنة سبع وسبعين فقدمها ومعه جماعة من الجند ، فبلغه أن بأطراف البلاد مَنْ هو خارج عن الطاعة ، فوجه ولده عبد الله ، فأتاه بمائة ألف رأس من السبايا ، ثم ولده مروان إلى جهة أخرى ، فأتاه بمائة ألف رأس ، وقال الليث بن سَعْد : بلغ الخمس ستين ألف رأس ، وقال الصَّفَدى : لم يسمع فى الإسلام بمثل سَبَايا موسى ابن نُصَير ، ووجد أكثر مدن إفريقية خالية لاختلاف أيدى البربر عليها ، وكانت البلاد فى قَحْط شديد ، فأمر الناس بالصوم والصلاة وإصلاح ذات البَيْن ، وخرج بهم إلى الصحراء ومعه سائر الحيوانات ، وفرق بينها وبين أولادها ، فوقع البكاء والصُّراخ والضجيج ، وأقام على ذلك إلى مُنْتَصَف النهار ، ثم صلى وخطب الناسَ ولم يذكر الوليدَ بن عبد الملك ، فقيل له : ألا تدعو لأمير المؤمنين ؟ فقال : هذا مقام

(١) استلحموهم : أنكوا فيهم وأرهقوهم غلبة فى القتال
(٢) تربصوا بهم الدوائر : انتظروها وتوقعوها
(٣) استمد يوسف : طلب منه المدد والمعونه

لا يدعى فيه لغير الله تعالى، فسُقوا حتى رَوُوا ثم خرج مُوسَى غازيا، وتتبع البربر، وقتل فيهم قتلا ذَرِيعًا، وسبى سَبْياً عظيما، وسار حتى انتهى إلى السُّوس الأدنى لا يُدَافعه أحد، فلما رأى بقيةُ البربر ما نزل بهم استأمنوا، وبَذَلُوا له الطاعة فقبل منهم، وولَّى عليهم والياً، واستعمل على طَنْجة وأعمالها مولاه طارقَ ابن زياد البربرى، ويقال: إنه من الصَّدِف [1]، وترك عنده تسعة عشر ألفاً من البربر بالأسلحة والعُدَّة الكاملة، وكانوا قد أسلموا وحسن إسلامهم، وترك موسى عندهم خَلْقاً يسيراً من العرب ليُعَلِّموا البربر القرآن وفرائض الإسلام، ورجع إلى إفريقية، ولم يبق بالبلاد مَنْ يُنَازِعه من البربر ولا من الروم، ولما استقرّت له القواعد كتب إلى طارق وهو بطَنْجة يأمره بغَزْو بلاد الأندلس، فغزاها فى اثنى عشر ألفاً من البربر خلا اثنى عشر رجلا، وصعد على الجبل المنسوب إليه يوم الإثنين خامس رجب سنة اثنتين وتسعين، وذكر عن طارق أنه كان نائما فى المركب وقت التعدية، فرأى النبى صلى الله عليه وسلم، وأمره بالرفق بالمسلمين والوفاء بالعهد، هكذا ذكر ابن بَشْكُوال، وقيل: إن موسى ندم على تأخره، وعلم أن طارقا إن فتح شيئاً نُسب الفتح إليه دونه، فأخذ فى جمع العساكر، وولى على القيروان ابنه عبدَ الله، وتبع طارقا فلم يدركه إلا بعد الفتح، وقال بعض العلماء: إن موسى بن نُصير كان عاقلا شجاعا كريماً تقيًّا لله تعالى، ولم يهزم له قَط جيشٌ، وكان والده نُصَير على جُيُوش معاوية، ومنزلته لديه مَكينة، ولما

(١) قال ابن خلكان «الصدف بكسر الدال وذكر السهيلي أنه بكسر الدال وفتحها واختلفوا فى اسم الصدف: فقيل: هو مالك بن سهيل بن عمرو بن قيس، هكذا قاله القضاعى فى كتاب الخطط، وزاد السمعانى في كتاب الأنساب على هذا النسب فقال: الصدف بن سهيل بن عمرو بن قيس بن معاوية بن جشم، وقال الدارقطنى: اسم الصدف سهل بن دعمى بن زياد بن حضرموت، وقال الحازمى فى كتاب العجالة: هو عمرو بن مالك، والله أعلم. ثم ذكر سبب تسميته بالصدف، ثم قال: قال أرباب علم النسب: أكثر الصدف بمصر وبلاد المغرب» اهـ باختصار كثير.

خرج معاويةُ لصفين لم يخرج معه ، فقال له : ما منعك من الخروج معى ولى عندك يد لم تكافئنى عليها؟ فقال : لم يمكنى أن أشكرك بكفرى مَنْ هو أولى بشكرى منك ، فقال : من هو ؟ فقال : الله عزوجل ، فأطرق مَليًّا ثم قال : أستغفر الله ، ورضى عنه .

رجع إلى حديث طارق ـ قال بعض المؤرخين : كان لُذَرِيق ملك الأندلس استخلف عليها شخصاً يقال له تُدْمِير ، وإليه تنسب تُدْمِير بالأندلس ، فلما نزل طارق من الجبل كتب تُدْمير إلى لُذَريق : إنه قد نزل بأرضنا قومٌ لا ندرى أمِنَ السماء هم أم من الأرض، فلما بلغ لُذَرِيقَ ذلك ـ وكان قصد بعض الجهات البعيدة لغَزْوله فى بعض أعدائه ـ ورجع عن مقصده فى سبعين ألفَ فارسٍ ، ومعه العَجَل تحمل الأموال والمتاع ، وهو على سريره بين دابتين ، وعليه مِظَلة مكللة بالدرّ والياقوت والزبرجد .

خطبة طارق قبل الحرب

فلما بلغ طارقا دنوُّه قام فى أصحابه ، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ، ثم حَثّ المسلمين على الجهاد ، ورغَّبهم ثم قال : أيها الناس ، أين المفر ؟ البحر من ورائكم ، والعدوُّ أمامكم ، وليس لكم والله إلا الصدقُ والصبر ، واعلموا أنكم فى هذه الجزيرة أضْيَعُ من الأيتام ، فى مأدُبَة اللئام ، وقد استقبلكم عدوّكم بجيشه وأسلحته ، وأقواتهُ موفورة ، وأنتم لا وَزَرَ[1] لكم إلا سيوفكم ، ولا أقوات لكم إلا ما تستخلصونه من أيدى عدوّكم ، وإن امتدّت بكم الأيام على افتقاركم ولم تنجزوا لكم أمراً ذهبت ريحكم[2] ، وتعوّضت القلوب من رُعْبها منكم الجراءةَ عليكم ، فادفعوا عن أنفسكم خذلان هذه العاقبة من أمركم بمُناجزة[3] هذا الطاغية ، فقد ألقت به إليكم مدينتُه الحصينة ، وإن انتهاز الفُرْصَة فيه لممكن إن سمحتم لأنفسكم بالموت ، وإنى لم أحذركم أمراً أنا عنه بنَجْوة ، ولاحملتكم على خُطة أرخصُ متاعٍ

(١) الوزر ـ بفتح الواو والزاى ـ الملجأ تلجأ إليه ، والمعتصم تعتصم به .

(٢) ذهبت ريحكم : كناية عن ضياع شوكتهم وضعف منتهم ، وفى القرآن الكريم (ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم) .

(٣) مناجزته : مقاتلته ومدافعته ، والإسراع فى ذلك .

فيها النفوسُ [إلا وأنا] أبدأ بنفسى ، واعلموا أنكم إن صبرتم على الأشق قليلا ، استمعتم بالأرْفه الألذ طويلا ، فلا ترغبوا بأنفسكم عن نفسى ، فما حظكم فيه بأوفى من حظى ، وقد بلغكم ما أنشأتْ هذه الجزيرةُ من الحُورِ الحسان ، من بنات اليونان ، الرافلات فى الدرّ والمرْجان ، والحُلَل المنسوجة بالعِقْيان [1] ، المقصورات فى قصور الملوك ذوى التيجان ، وقد انتخبكم الوليدُ بن عبد الملك أميرُ المؤمنين من الأبطال عُزْبَانا [2] ، ورضيكم لملوك هذه الجزيرة أصهاراً وأختانا ، ثقةً منه بارتياحكم للطِّعان ، واستماحكم بمُجَالدة الأبطال والفرْسان ، ليكون حظه منكم ثوابَ الله على إعلاء كلمته ، و إظهار دينه بهذه الجزيرة ، وليكون مَغْنَمها خالصة لكم من دونه ومن دون المؤمنين سواكم ، والله تعالى وليُّ إنجادكم [3] على ما يكون لكم ذكراً فى الدارين ، واعلموا أنى أوّل مجيب إلى ما دعوتكم إليه ، وأنى عند مُلْتقَى الجمعين حاملٌ بنفسى على طاغية القوم لُذَرِيق فقاتِلُه إن شاء الله تعالى ، فاحملوا معى ، فإن هلكت بعده فقد كفيتكم أمره ، ولم يُعْوِزكم [4] بطلٌ عاقل تسندون أموركم إليه ، وإن هلكتُ قبلَ وصولى إليه فاخلفونى فى عزيمتى هذه ، واحملوا بأنفسكم عليه ، واكتفوا الهم من فتح هذه الجزيرة بقتله ، فإنهم بعده يُخْذلون .

فلما فرغ من تحريض أصحابه على الصبر فى قتال لُذَرِيقَ وأصحابه وما وعدهم من الخير الجزيل انبسَطَتْ نفوسُهم ، وتحققت آمالهم ، وهَبَّت رياحُ النصر عليهم ، وقالوا له : قد قطعنا الآمال مما يخالِفُ ما عزمتَ عليه ، فاحضر إليه فإننا معك و بين يديك ، فركب وأصحابهُ فباتوا ليلتهم فى حَرَس إلى الصبح ، فلما أصبح الفريقان تكتَّبوا [5] وعَبَّوْا جيوشهم ، وحمل لُذَرِيقُ وهو على سريره ؛ وقد حمل على رأسه رواقُ ديباج يظلِّله ، وهو مُقبل فى غابة من البنود والأعلام ، و بين يديه المقاتلة والسلاح ، وأقبل طارق فى أصحابه عليهم الزَّرَدُ [6] من فوق رؤسهم

(١) العقيان : الذهب . (٢) يروى « عزبانا » وهو جمع عزب ، ومعناه الذى لا زوج له ، وذلك يناسب قوله بعد ذلك « أصهاراً وأختانا » .

(٣) إنجادكم : معونتكم وإسعافكم (٤) أعوزه : أحوجه ، يريد أنه لن يضيق عليكم اختيار بطل عاقل لكثرة ذلك بينكم (٥) تكتبوا : تجمعوا (٦) الزرد : الدروع

العمائم البيض ، وبأيهم القِسِىّ العربية ، وقد تقلَّدوا السيوف ، واعتقلوا الرماح ، فلما نظر إليهم لُذَرِيق حلف وقال : إن هذه الصور هى التى رأيناها ببيت الحكمة ببلدنا ، فداخَلَه منهم الرُّعْبُ ، فلما رأى طارق لُذَرِيقَ قال : هذا طاغية القوم ، فحمل وحمل أصحابه معه ، فتفرقت المقاتلة من بين يدى لُذَرِيق ، فخلص إليه طارق فضربه بالسيف على رأسه ، فقتله على سريره ، فلما رأى أصحابُه مصرعَ صاحبهم[1] اقتحم الجيشان ، وكان النصر للمسلمين ، ولم تقف هزيمة العدو على موضع ، بل كانوا يسلمون بلداً بلداً ومَعْقِلاً معقلا[2] .

ولما سمع موسى بن نُصَير بما حصل من النصرة لطارق عَبَر الجزيرة بمن معه ، ولحق بمولاه طارق ، فقال له : يا طارق ، إنه لن يجازيَك الوليدُ بن عبد الملك على بلائك بأكثر من أن يمنحك الأندلس ، فاستبِحْهُ هنيئاً مريئاً ، فقال له طارق : أيها الأمير ، والله لا أرجع عن قَصْدى هذا ، مالم أنته إلى البحر المحيط أخوض فيه بفرسى ، يعنى البحر الشمالى الذى تحت بنات نعش ، ولم يزل طارق يفتح وموسى معه إلى أن بلغ إلى جِلِّيقِيَّةَ وهى ساحل البحر المحيط ، انتهى .

وقال الحافظ الحميدى فى كتابه « جذوة المقتبس » : إن موسى بن نُصَير نَقَمَ على مولاه طارقٍ إذ غزا بغير إذنه ، وَهَمَّ بقتله ، ثم ورد عليه كتاب الوليد بإطلاقه ، فأطلقه وخرج معه إلى الشام ، انتهى .

خبر بيت الحكمة الذى كان بالأندلس

وقولُ لذريق « إن هذه الصور هى التى رأيناها فى بيت الحكمة إلخ » أشار به إلى بيت حكمة اليونان ، وكان من خبره ـ فيما حكى بعض علماء التاريخ ـ أن اليونان ، وهم الطائفة المشهورة بالحكم ، كانوا يسكنون بلاد الشرق قبل عهد الإسكندر ، فلما ظهرت الفرسُ ، واستولت على البلاد ، وزاحمت اليونان على ما كان بأيديهم من الممالك ، انتقَلَ اليونان إلى جزيرة الأندلس ، لكونها طرفاً فى آخر العمارة ، ولم يكن لها ذكر إذ ذاك ، ولا مَلَكَهَا أحدٌ من الملوك المعتبرة

(١) مصرع : المكان الذى يصرع فيه ، أو نفس الصرع ، يريد لما رأوا مقتله .

(٢) المعقل : الحصن المنيع الذى يمنع من فيه من عدوهم .

ولم تك عامرة ، وكان أوّلَ من عَمَّرَ فيها واختطَّها أندلسُ بن يافث بن نوح عليه السلام ، فسميت باسمه ، ولما عمرت الأرض بعد الطوفان كانت الصورة المعمورة منها عندهم على شكل طائر رأسُه المشرق ، والجنوب والشمال رجلاه ، وما بينهما بطنه ، والمغربُ ذَنَبُه ، وكانوا يزدَرُونَ المغربَ لنسبته إلى أخسِّ أجزاء الطير ، وكانت اليونان لاترى فنَاءَ الأمم إلا بالحروب لما فيها من الأضرار والاشتغال عن العلوم التى كان الاشتغال بها عندهم من أهم الأمور ، فلذلك انحازوا من بين يدى الفرس إلى الأندلس ، فلما صاروا إليها أقبلوا على عمارتها ، فشقّوا الأنهار ، و بَنَوْا المعاقل ، وغرسُوا الجِنان والكروم ، وشَيَّدوا الأمصار ، وملؤها حرثاً ونَسْلا و بنيانا ، فعظمت وطابت ، حتى قال قائلهم لما رأى بَهْجتها : إن الطائر الذى صُوِّرت هذه العمارة على شكله وكان المغرب ذنبه كان طاوساً معظمُ جماله فى ذنبه .

وحكى أن الرشيد هرونَ — رحمه الله ! — لما حضر بين يديه بعضُ أهل المغرب قال الرشيد : يقال : إن الدنيا بمثابة طائر ذنبه المغرب ، فقال الرجل : صدقوا يا أمير المؤمنين ، و إنه طاوس ، فضحك أمير المؤمنين الرشيد ، وتعَجَّب من سُرْعة جواب الرجل وانتصاره لقطره .

رجع — قال : فاغتبط اليونان بالأندلس أتمَّ اغتباط ، واتخذوا دار الحكمة والملك بها طُلَيْطلة لأنها أوسط البلاد ، وكان أهمّ الأمور عندهم تحصينها عمن يتصل به خبرها من الأمم ، فنظروا فإذا هو أنه لايحسدهم على رَغَد العيش إلا أرباب الشَّظَف والشقاء والتعب ، وهم يومئذ طائفتان : العرب ، والبربر ، فخافوهم على جزيرتهم العامرة ، فعزموا على أن يتخذوا لهذين الجنسين من الناس طِلَّسْماً ، فرصدوا لذلك أرصاداً ، ولما كان البربر بالقرب منهم وليس سوى تعدية البحر ويَرِدُ عليهم منهم طوائف منحرفة الطباع ، خارجة عن الأوضاع ، ازدادوا منهم نفوراً ، وأكثر تحذرهم من نسب أو مجاورة ، حتى ثبت ذلك فى طبائعهم ، وصار بعضه مركباً فى غرائزهم ، فلما علم البربر عَدَاوَة أهل الأندلس وبُغْضَهم لهم أبغضوهم وحسدوهم ، فلم تجد أندلسيا إلا مبغضاً بربريا ، وبالعكس ، إلا أن البربر أحوجُ

إلى أهل الأندلس ، لوجود بعض الأشياء عندهم وفَقْدها ببلاد البربر .

وكان بنوَاحى غرب الأندلس ملك يونانى بجزيرة يقال لها « قادس » وكانت له ابنة فى غاية الجمال ، فتسامع بها ملوكُ الأندلس ، وكانت الأندلس كثيرة الملوك ، لكل بلدة أو بلدتين ملك ، فخطبوها ، وخشى أبوها إن زوجها من واحد أسخط الباقين ، فتحير ، وأحضر ابنته ، وكانت الحكمة مركبة فى طباع القوم ذكورِهم وإناثهم ، ولذا قيل : إن الحكمة نزلت من السماء على ثلاثة أعضاء من أهل الأرض : أدمغة اليونان ، وأيدى أهل الصين ، وألسنة العرب ؛ فقال لها : يا بُنَية ، إنى أصبحت على حَيْرة فى أمرك ممن يخطبك من الملوك ، وما أرضيت واحداً إلا أسخطت الباقين ، فقالت له : اجْعَلِ الأمرَ إلىَّ تخلُصْ ، فقال : وما تقترحين ؟ فقالت : أن يكون ملكا حكيما ، فقال : نعم ما اخترتهِ لنفسك ، فكتب فى أجوبة الملوك الخُطَّاب ، أنها اختارت من الأزواج الملك الحكيم ، فلما وقفوا على الجواب سكت من لم يكن حكيما ، وكان فى الملوك الخاطبين حكيمان ، فكتب كل واحد منهما : أنا الملك الحكيم ، فلما وقف على كتابيهما قال لها : يابنية ، بقى الأمر على إشكال ، وهذان ملكان حكيمان ، أيُّهمَا أرضيتِ أسخطت الآخر ، فقالت : سأقترح على كل واحد منهما أمراً يأتى به ، فأيهما سبق إلى الفراغ مما التمستُ كنت زوجته ، قال : وما الذى تقترحين عليهما ؟ قالت : إنا ساكنون بهذه الجزيرة ، ومحتاجون إلى رُحِيٍّ[1] تدور بها ، وإنى مقترحة على أحدهما إدارتها بالماء العَذب الجارى إليها من ذلك البر ، ومقترحة على الآخر أن يتخذ لى طِلَّسْماً نحصِّن به جزيرة الأندلس من البربر ، فاستظرف أبوها ذلك ، وكتب إلى الملكين بما قالت ابنته ، فأجاباه إلى ذلك ، وتقاسماه على ما اختارا ، وشرع كل واحد منهما فى عمل ما أسند إليه من ذلك

فأما صاحب الرُّحِيّ فإنه عمد إلى أشكال اتخذها من الحجارة نَضَد[2] بعضها

---

(١) الرحى : أحد جموع واحدها رحى ، بوزن فتى ، ومن جموعها الأرحى والأرحاء ، والرحى : الطاحون . (٢) نضد ـ بفتح الضاد مخففة من باب نصر ، وبتشديدها ـ أى جعل بعضها فوق بعض متراصفا متناسقا .

إلى بعض فى البحر المالح الذى بين جزيرة الأندلس والبر الكبير فى الموضع المعروف بزُقاق سَبْتة ، وسد الفُرَج[١] التى بين الحجارة بما اقتضت حكمته ، وأوصل تلك الحجارة من البر إلى الجزيرة ، وآثارهُ باقيةٌ إلى اليوم فى الزُّقاق الذى بين سَبْتة والجزيرة الخضراء ، وأكثر أهل الأندلس يزعمون أن هذا أثر قَنْطرة كان الإسكندر قد عملها ليعبُرَ عليها الناسُ من سَبْتة إلى الجزيرة ، والله أعلم أى القولين أصح ، غير أن الشائع إلى الآن عند الناس هو الثانى ، فلما تم تنضيدُ الحجارة للملك الحكيم جَلَبَ الماءَ العذب من جبل عالٍ فى البر الكبير وسلّطه من ساقية محكمة و بنى بجزيرة الأندلس رَحًى على هذه الساقية .

وأما صاحب الطِّلَّسْم فإنه أبطأ عمله بسبب انتظار الرصَد الموافق لعمله ، غير أنه عمل أمره ، وأحكمه ، وابتنى بنيانا مربعاً من حجر أبيض على ساحل البحر فى رملٍ عالجٍ[٢] حفر أساسه إلى أن جعله تحت الأرض بمقدار ارتفاعه فوق الأرض ليثبت ، فلما انتهى البناء المربّع إلى حيث اختار صَوَّر من النحاس الأحمر والحديد المصفّى المخلوطين بأحكم الخلط صورةَ رجلٍ بربرى ، وله لحية ، وفى رأسه ذؤابة من شعر جَعْد قائمة فى رأسه لجعودتها ، وهو متأبط بصورة كساء قد جَمَع طَرَفيه على يده اليسرى بألطف تصوير وأحكمه ، فى رجله نَعْل ، وهو قائم من رأس البناء على مستهدف[٣] بمقدار رجليه فقط ، وهو شاهق فى الهواء ، طولُه نَيِّفَ عن ستين أو سبعين ذراعا ، وهو محدودب الأعلى ، إلى أن ينتهى ما سَعَته قدرُ ذراع ، وقد مدّ يده اليمنى بمفتاح قُفْل قابضٍ عليه مشيراً إلى البحر كأنه يقول : لاعبور ، وكان من تأثير هذا الطِّلَّسْم فى البحر الذى تُجاهه أنه لم يرقط ساكنا ولا كانت تجرى فيه قط سفينة بربر إلا سقط المفتاح من يده ، وكان الملكان اللذان عملا الرَّحِىّ والطلسم يتسابقان إلى فراغ العمل ، إذ بالسَّبْق يستحق زواج المرأة ، وكان

(١) الفرج : جمع فرجة ــ بضم الفاء ــ وهي الفضاء بين الحجرين ، هنا
(٢) رمل عالج : كثير متراكم مجتمع بعضه إلى بعض .
(٣) مستهدف : أراد به المكان العالى المشرف .

صاحب الرَّحِىّ فرغ أولا لكنه أخفى أمره عن صاحب الطِّلَّسْم لئلا يترك عمله فيبطل الطلسم ، لتحظى المرأة بالرحىِّ والطلسم ، فلما علم باليوم الذى يَفْرُغ صاحبُ الطلسم فى آخره أجرى الماء فى الجزيرة من أوله وأدار الرَّحِىَّ ، واشتهر ذلك ، فاتصل الخبرُ بصاحب الطلسم وهو فى أعلى القبة يَصْقُل وجهه ، وكان الطِّلَّسْم مذهباً ، فلما تحقق أنه مسبوق ضعفت نفسه فسقط من أعلى البناء ميتاً ، وحصل صاحب الرحىّ على المرأة والرحى والطِّلَّسْم ، وكان مَنْ تقدم من ملوك اليونان يخشى على الأندلس من البربر للسبب الذى قدمنا ذكره ، فاتفقوا وجعلوا الطِّلَّسْمَات فى أوقات اختاروا أرصادها ، وأودعوا تلك الطِّلَّسْمَاتِ تابوتا من الرخام ، وتركوه ، فى بيت بطُلَيْطلة ، وركبوا على ذلك الباب قفلا تأكيداً لحفظ ذلك البيت ، فاستمر أمرهم على ذلك

ولما حان وقتُ انقراض دَوْلة من كان بالأندلس ودخول العرب والبربر إليها ، وذلك بعد مضى ستة وعشرين ملكا من ملوكهم من تاريخ عمل الطلسمات بطُلَيْطلة ، وكان لُذَرِيقُ المذكور آنفاً هو تمام السابع والعشرين من ملوكهم ، فلما اقتعد أريكة[1] الملك قال لوزرائه وخواص دولته وأهل الرأى منهم : قد وقع فى نفسى من أمر هذا البيت الذى عليه ستة وعشرون قفلا شىء ، وأريد أن أفتحه لأنظر ما فيه ، لأنه لم يُعْمل عبثًا ، فقالوا : أيها الملك ، صدقْتَ ، إنه لم يصنع عبثاً ، ولم يقفل سُدًى ، والرأى والمصلحة أن تلقى أنت أيضاً عليه قفلا أُسْوَةً بمن[2] تقدمك من الملوك ، وكان آباؤك وأجدادك لم يُهْمِلوا هذا فلا تهمله ، وسِرْ سَيْرَهم ، فقال لهم : إن نفسى تُنازعنى إلى فَتْحه ، ولا بد لى منه ، فقالوا له : إن كنت تظن أن فيه مالا فقدِّره ونحن نجمع لك من أموالنا نظيره ، ولا تُحْدِث علينا بفتحه حادثا لا نعرف عاقبته ، فأصَرَّ على ذلك ، وكان رجلا مَهِيباً ، فلم يقدروا على مراجعته ، وأمر بفَتْح الأقفال ، وكان على كل قُفْل مفتاحه معلقاً ،

---

(١) الأريكة : السرير المنجد المزين يكون فى قبة أو بيت ، وجمعه أرائك .

(٢) الأسوة ـ بضم الهمزة وسكون السين ـ القدوة ، وفى القرآن الكريم لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة) .

فلما فتح الباب لم يَرَ فى البيت شيئاً إلا مائدة عظيمة من ذهب وفضة مُكَلَّلة بالجواهر ، وعليها مكتوب : هذه مائدة سليمان بن داود عليهما الصلاة والسلام ، ورأى فى البيت ذلك التابوت ، وعليه قفْل ، ومفتاحه مُعَلَّق ، ففتحه ، فلم يجد فيه سوى رَقٍّ[1] ، وفى جوانب التابوت صور فرسان مصورة بأصباغ محكمة التصوير على أشكال العرب ، وعليهم الفِرَاء ، وهم مُعَمَّمُون على ذوائب جُعْدٍ[2] ، ومن تحتهم الخيل العربية ، وهم متقلدون السيوفَ المحلاة ، معتقلون الرماح ، فأمر بنشر ذلك الرَّقّ ، فإذا فيه : متى فتح هذا البيت وهذا التابوت المقفلان بالحكمة دخَلَ القومُ الذين صُوَرُهم فى التابوت إلى جزيرة الأندلس ، وذَهَب ملك مَنْ فيها من أيديهم ، و بطلت حكمتهم ، فلما سمع لُذَرِيقُ مافى الرَّقّ ندم على ما فعل ، وتحقق انقراضَ دَوْلَتهم ، فلم يلبث إلا قليلا حتى سمع أن جيشاً وصل من المشرق جَهَّزه ملك العرب ليفتح بلاد الأندلس ، انتهى .

فهذا هو بيت الحكمة الذى أشار إليه لُذَرِيق ، والله أعلم بحقيقة الأمر فى ذلك كله .

على أن فى هذا السياق مخالفةً لما سنذكره عن بعض ثقات مؤرخى الأندلس وغيرهم فى شأن المائدة وغيرها ، وما ذكر فى هذه القصة من جَلْب الماء من بر العُدْوة إلخ فيه بُعْد عندى ، لأن بلاد الأندلس أكثر بلاد الله مياها وأنهاراً ، فأنَّى تحتاج إلى جَلْب الماء إليها من العُدْوة الأخرى ؟ إلا أن يقال : إن المرأة أرادت تعجيزَ الرجل بذلك ، أو اختبار حكمته حتى يفعل هذا الأمر الغريب ، وعِلْم الله من وراء ذلك كله ، وفوق كل ذى علم عليم ، ومنتهى العلم إلى الله الحكيم .

وقال ابن حيان فى «المقتبس» : ذكروا أن لُذَرِيقَ لم يكن من أبناء الملوك ، ولا بصحيح النسب فى القوط ، وأنه إنما نال الملك من طريق الغصب والتسوّر

---

(١) الرق ــ بفتح الراء ــ جلد رقيق يكتب فيه ، وفى القرآن الكريم (وكتاب مسطور ، فى رق منشور)

(٢) الذوائب : جمع ذؤابة ، وهى هنا ضفيرة الشعر المرسلة ، والجعد : جمع جعداء ، وهي التى فيها تقبض والتواء .

كيف تملك لذريق

عندما مات غَيْطَشة الملكُ الذى كان قبله ، وكان أثيراً لديه ، مكيناً ، فاستصغر أولاده لمكانه ، واستمال طائفة من الرجال مَالُوا معه ، فانتزع الملك من أولاد غَيْطَشَة واستبقاهم ، فكانوا هم الذين دَبَّروا عليه - فيما ذكر - عندما لقى رجال العرب المقتحمين عليه بالأندلس من تلقاء بحر الزُّقاق وعليهم طارق بن زياد مولى موسى بن نُصَير طاعةً منهم فى أن يودى[1] ويخلص إليهم ملكُ أبيهم ، فالتقوا بموضع يدعى وادى لَكَّة[2] من أرض الجزيرة الخضراء من ساحل الأندلس القبلى مكان عُبُورهم ، وذلك لسبع خلون من شهر ربيع الأول سنة اثنتين وتسعين من الهجرة ، فانهزم القوط أعظمَ هزيمة ، وقتل ملكهم لُذَريق ، وغلبت العرب على الأندلس ، فصارت أقصى فتوحهم من أرض المغرب ، ومصداقَ موعد نبيهم صلى الله عليه وسلم الكفيل بفتح ما بين المشرق والمغرب عليهم بوَحْى الله تعالى إليه أنجزه لهم بفتح الأندلس ، ولله القوّة .

عدة أمراء الأندلس ومدتهم

قال : وقام بأمر العرب بالأندلس منذ فتحت الأمراء المرسَلُونَ منهم عليها من قبل أئمة المسلمين بالمشرق طوَالَ دولة بنى أمية ، رضى الله تعالى عنهم ! إلى أن طرأ إليها فَلُّهم عند غلبة بنى العبَّاس عليهم ، ودخل عبدُ الرحمن بن معاوية ابن هشام بن عبد الملك بن مروان فملكها وأعاد إليها الدولة الأموية التى أورثها عَقِبَهُ حِقْبة ، فكانت عدّة هؤلاء الأمراء من لدن أوّلهم طارق بن زياد إلى آخرهم يوسفَ بن عبد الرحمن الفِهْرِى عشرين عاملا ، وعدّة سنيهم بالشمسى خمس وأربعون سنة ، وبالقمرى سبع وأربعون سنة غير أشهر ، انتهى .

وقال فى موضع آخر ، نقلا عن الرازى : وافتتحت الأندلس فى أيام الوليد ابن عبد الملك ، فكان فتحها من أعظم الفتوح الذاهبة بالصيت فى ظهور الملة الحنيفية ، وكان عمر بن عبد العزيز - رضوان الله عليه - متهمِّماً بها ، معتنياً بشأنها ،

---

(١) تقول « أودى فلان يودى » ومعناه هلك يهلك .

(٢) لكة : مدينة بالأندلس ، من كورة شذونة ، قديمة ، من بنيان قيصر كتبيان ، وعلى نهر لكة هذه التقى لذريق فى جموعه من العجم وطارق بن زياد فيمن معه من المسلمين يوم الأحد لليلتين بقيتا من شهر رمضان سنة اثنتين وتسعين قاله صاحب الروض , وما ذكره من التاريخ يخالف ما عن ابن حيان هنا .

وقد حوّلها عن نظر والى إفريقية وجرّد إليها عاملا من قبله اختاره لها ، دلالةً على مَعْنِيته بها ، ووقعت المقاسمُ فيها عن أمره و بفضل رأيه ، انتهى .

تلخيص خبر افتتاح الأندلس

وفى الكتاب الخزائنى وغيره سياقة فتح الأندلس على أتم الوجوه ، فلنذكر ملخصه ، قالوا : استعمل أميرُ المؤمنين الوليدُ بن عبد الملك - رحمه الله تعالى ! - موسى بن نُصَير مولى عمِّه عبد العزيز بن مروان ، ويقال : بل هو بَكْرى ، وذلك أن أباه نُصَيْرًا أصلُه من عُلُوج[1] أصابهم خالدُ بن الوليد - رضى الله عنه ! - فى عين التمْر ، فادعوا أنهم رُهُن ، وأنهم من بكر بن وائل ، فصار نُصَير وصيفاً لعبد العزيز بن مروان ، فأعتقه ، فمن هذا يختلف فيه ، وقيل : إنه لَخْمِىٌّ ، وعقدله على إفريقية وما خَلْفها فى سنة ثمان وثمانين ، فخرج إلى ذلك الوَجْه فى نفر قليل من المطَّوّعة ، فلما ورد مصر أخرج معه من جُنْدها بعثاً ، وأتى إفريقية عملَه ، فأخرج من أهلها معه ذوى القوّة والجلد ، وصيَّر على مقدّمته طارق بن زياد ، فلم يزل يقاتل البربر و يَفُضُّ جموعهم ، و يفتح بلادهم ومدائنهم ، حتى بلغ طَنْجَة ، وهى قصبة ملك البربر وأمُّ مدائنهم ، فحصرها حتى افتتحها ، وقيل : إنها لم تكن افتتحت قبله ، وقيل : افتتحت ثم ارتجعت ، فأسلم أهلها ، وخطها قيروانا للمسلمين ، ثم ساروا إلى مدائنَ على شطِّ البحر فيها عمالٌ لصاحب الأندلس قد غلبوا عليها وعلى ماحولها ، ورأس تلك المدائن سَبْتة ، وعليها علج[1] يسمى يُلْيَان ، قاتله موسى فألفاه فى نَجْدَة وقوّة وعدّة فلم يُطِقْه ، فرجع إلى مدينة طَنْجة فأقام بمن معه ، وأخذ فى الغارات على ما حَوْلهم والتضييق عليهم ، والسفنُ تختلف إليهم بالمِيرَة والأمداد من الأندلس من قبل ملكها غَيْطَشة ، فهم يَذُبُّون عن حريمهم ذَبًّا شديداً ، ويحمون بلادهم حماية تامة ، إلى أن هَلَك غيطشة ملك الأندلس ، وترك أولادًا لم يرضهم أهلها للملك ، فاضطرب حبلُ أهل الأندلس ، ثم تراضوا بعلج[1]

---

(١) العلوج : جمع علج - بكسر العين وسكون اللام - وهو فى الأصل الحمار الوحشى إذا كان سميناً ، ثم قالوا لكل قوى ضخم علج ، ثم أطلقوه على الرجل من كفار العجم .

من كبارهم يقال له لُذَريق مجرِّب شجاع بطل ، ليس من بيت أهل الملك ، إلا أنه من قُوَّادهم وفُرْسانهم ، فولَّوه أمرهم ، وكانت طُلَيْطلة دار الملك بالأندلس حينئذ ، وكان بها بيت مغلق متحامَى الفتح على الأيام ، عليه عِدَّة من الأقفال يلزمه قوم من ثقات القوط ، قد وُكِّلوا به لئلا يُفتح ، وقد عهد الأول فى ذلك إلى الآخر ، فكلما قعد منهم ملك أتاه أولئك الموكَّلون بالبيت فأخذوا منه قُفْلاً وصيروه على ذلك الباب من غير أن يزيلوا قفل مَنْ تقدّمه ، فلما قعد لُذَرِيقُ هذا ، وكان متهمِّماً يقظا ذا فكر ، أتاه الحراسُ يسألونه أن يُقْفل على الباب ، فقال لهم : لا أفعل أو أعْلَمَ ما فيه ، ولابد لى من فتحه ، فقالوا له : أيها الملك ، إنه لم يفعل هذا أحد ممن قبلك ، وتناهَوْا عن فتحه ، فلم يلتفت إليهم ، ومشى إلى البيت ، فأعظمت ذلك العجمُ وضَرِع[١] إليه أكابُرهم فى الكف ، فلم يفعل ، وظن أنه بيت مال ، ففضَّ الأقفال عنه ، ودخل ، فأصابه فارغا لا شىء فيه ، إلا تابوتا عليه قُفْل ، فأمر بفتحه يحسب أن مضمونه يقْنعه نفاسةً ، فألفاه أيضا فارغا ليس فيه إلا شُقَّة[٢] مدرجة قد صُوِّرت فيها صور العرب عليهم العمائم وتحتهم الخيولُ العِرَاب متقلِّدى السيوف متنكبى القِسِىِّ رافعى الرايات على الرماح ، وفى أعلاها أسطر مكتوبة بالعجمية ، فقرئت فإذا فيها : إذا كسرت الأقفال عن هذا البيت وفتح هذا التابوت فظهر ما فيه من هذه الصور فإن هذه الأمة المُصَوَّرة فى هذه الشُّقة تدخل الأندلس ، فتغلب عليها وتملكها ، فوَجَم لُذَرِيق[٣] وندم على ما فعل ، وعظم غمه وغم العجم بذلك ، وأمر برد الأقفال وإقرار الحرس على حالهم ، وأخذ فى تدبير الملك ، وذُهِل عما أنذر به

وكان من سِيَرِ أكابر العجم بالأندلس وقوّادهم أن يبعثوا أولادهم الذين يريدون منفعتهم والتنويه بهم إلى بلاد الملك الأكبر بطُلَيْطلة ليصيروا فى خدمته ، ويتأدبوا

---

(١) ضرع ، من بابى قطع وعلم : ذل وفزع ، وأراد هنا أنهم لجأوا إليه فى خضوع وذلة وخوف . (٢) الشقة ـ بضم الشين وتشديد القاف ـ القطعة المستطيلة ، والمدرجة : المطوية
(٣) وجم : تحير وسكت على غيظ .

سبب موجدة يليان على لذريق

بأدبه ، و ينالوا من كرامته، حتى إذا بلغوا أنكح بعضهم بعضاً استئلافاً لآبائهم ، وحمل صَدُقاتهم[١] ، وتولّى تجهيزَ إناثهم إلى أزواجهن ، فاتفق أن فعل ذلك يُليَان عامل لُذَرِيق على سَبْتة ، وكانت يومئذ فى يد صاحب الأندلس ، وأهلها على النصرانية ، ركب الطريقة بابنة له بارعة الجمال تكرم عليه ، فلما صارت عند لُذَرِيق وقعت عينُه عليها ، فأعجبته ، وأحبها حباً شديداً ، ولم يملك نفسه حتى استكرهها وافتضّها ، فاحتالت حتى أعلمت أباها بذلك سرّاً ، بمكاتبة خفية ، فأحفظه شأنها جداً[٢] ، واشتدّت حميته ، وقال : ودينِ المسيح لأزيلنّ ملكه وسلطانه ، ولأحفرنّ تحت قدميه ، فكان امتعاضُه من فاحشة ابنته هو السببَ فى فتح الأندلس بالذى سبق من قَدَر الله تعالى

ثم إن يليان ركبَ بحرَ الزُّقاق من سَبْتة فى أصعب الأوقات فى صِنّبْر قلب الشتاء ، فصار بالأندلس ، وأقبل إلى طُلَيْطلة نحو الملك لُذَرِيق ، فأنكر عليه مجيئه فى مثل ذلك الوقت ، وسأله عما لديه ، وما جاء فيه ، ولم جاء فى مثل وقته ؟ فذكر خيراً ، واعتلّ بذكر زوجته ، وشدّة شوقها إلى رؤية بنتها التى عنده ، وتمنيها لقاءها قبل الموت ، وإلحاحها عليه فى إحضارها ، وأنه أحبَّ إسعافها ، ورجا بلوغها أمنيتها منه ، وسأل الملك إخراجها إليه ، وتعجيلَ إطلاقه للمبادرة بها ، ففعل ، وأجاز الجارية ، وتوثّقَ منها بالكتمان عليه ، وأفضل على أبيها ، فانقلب عنه ، وذكروا أنه لما وَدّعه قال له لذريق : إذا قدمت علينا فاستفره لنا من الشَّذَانِقَاتِ[٣] التى لم تَزَلْ تُطْرفنا بها فإنها آثر جوارحنا لدينا ، فقال له : أيها الملك ، وحقِّ المسيح لئن بقيتُ لأدخِلَنَّ عليك شَذَانقاتٍ ما دخل عليك مثلها قط ، عرّض له بالذى أضمره من السعى فى إدخال رجال العرب عليه ، وهو لا يَفْطِن ، فلم يتنهنه[٤] يليان عندما استقر بسَبْتة عملِه أن تهيأ للمسير نحو موسى بن نُصَير الأمير ،

(١) صدقاتهم : مهورهم ، وحملها : يريد أنه تحملها عنهم وأعطاها من ماله .

(٢) أحفظه : ملأ قلبه حفيظة ، والحفيظة ــ بفتح الحاء ــ الحقد والغيظ والضغينة

(٣) الشذانقات : الصقور ، والواحد شيذق او شوذانق أو شيذقان ، وأصل هذه الكلمة فارسى ، ولم يجىء الجمع على مايجىء فى مثل مفرده .

(٤) لم يتنهنه : لم يتلبث ، ولم يتريث ، ولم ينتظر .

فمضى نحوه بإفريقية، وكلمهُ فى غزو الأندلس ،ووصف له حُسْنها وفضلها ،وماجمعت من أشتات المنافع ، وأنواع المرافق ، وطيب المزارع ، وكثرة الثمار ، وثَرَارة المياه وعذوبتها ، وهَوَّن عليه مع ذلك حالَ رجالها ، ووصفهم بضعف البأس وقلة الغَنَاء ، فشوّق موسى إلى ما هناك ، وأخذ بالحزم فيما دعاه إليه يُلْيان، فعاقده على الانحراف إلى المسلمين ، واستظهر عليه بأن سامه مُكاشَفَة أهل مِلَّته من الأندلس المشركين والاستخراج إليهم بالدخول إليها وشَنِّ الغارة فيها ، ففعل يُلْيان ذلك ، وجمع جمعا من أهل عمله ، فدخل بهم فى مركبين وحَلَّ بساحل الجزيرة الخضراء ، فأغار وقتل وسبى وغنم ، وأقام بها أياما ، ثم رجع بمن معه سالمين ، وشاع الخبر عند المسلمين ، فأنِسُوا ليُلْيَان واطمأنوا إليه ، وكان ذلك عقبَ سنة تسعين ، فكتب موسى بن نُصَير إلى أمير المؤمنين الوليدِ بن عبد الملك يخبره بالذى دعاه إليه يُلْيان من أمر الأندلس ،ويستأذنه فى اقتحامها ، فكتب إليه الوليد : أن خُضْها بالسرايا حتى ترى وتختبر شأنها ، ولا تُغَرِّر بالمسلمين فى بحر شديد الأهوال ، فراجعه أنه ليس ببَحْر زَخَّار ، وإنما هو خليج منه يبين للناظر ما خلفه ، فكتب إليه : وإن كان فلابدّ من اختباره بالسرايا قبل اقتحامه ،فبعث موسى عند ذلك رجُلا من مواليه من البرابرة اسمه طَرِيف يكنى أبا زُرْعة فى أربعمائة رجل معهم مائة فرس سار بهم فى أربع مراكب ، فنزل بجزيرة تُقَابل جزيرة الأندلس المعروفة بالخضراء التى هى اليوم مَعْبر سفائنهم ودارُ صناعتهم ، ويقال لها اليوم «جزيرة طريف» لنزوله بها ، وأقام بها أياما حتى التأم إليه أصحابه ، ثم مضى حتى أغار على الجزيرة فأصاب سَبْيًا لم ير موسى ولا أصحابُه مثله حُسْنا ، ومالا جسيما ، وأمتعة ، وذلك فى شهر رمضان سنة إحدى وتسعين ، فلما رأى الناسُ ذلك تسرَّعوا إلى الدخول ، وقيل : دخل طريف فى ألف رجل ، فأصاب غنائم وسَبْيا ، ودخل بعده أبو زُرْعة شيخ من البرابرة ، وليس بطريف ، فى ألف رجل منهم أيضا فأصابوا

أهلَ الجزيرة قد تفرّقوا عنها ، فضرَّموا عامتها بالنار ، وحرّقُوا كنيسة بها كانت عندهم معظمة ، وأصابوا سَبْيا يسيراً ، وقتلوا وانصرفوا سالمين .

وقال الرازى : هو أبو زرعة طريف بن مالك[1] المعافِرِى ، الاسم طبق الكنية ،
قالوا : ثم عاود يليان القدومَ على موسى بن نُصَير محركاً فى الاقتحام على أهل الأندلس ، وَخَبّره بما كان منه ومن طريف وأبى زُرْعة ، وما نالوه من أهلها ، وباشروه من طيبها ، فحمد الله على ذلك ، واستجدَّ عزْمًا فى إقحام المسلمين فيها ، فدعا مولًى له كان على مُقدَّمته يسمَّى طارقَ بن زياد بن عبد الله فارسيًّا هَمَذَانيا ، وقيل : إنه ليس بمولى لموسى ، وإنما هو رجل من صَدِف ، وقيل : مولى لهم ، وقد كان بعض عقبه بالأندلس ينكرون ولاء موسى إنكاراً شديداً ، وقيل : إنه بربرى من نفْزَة[2] ، فعقدله موسى ، وبعثه فى سبعة آلاف من المسلمين جُلُّهُم البربر والموالى ، وليس فيهم عرب إلا القليل ، وَوَجّه معه يُلْيان ، فهيأ له يُلْيان المراكب ، فركب فى أربع سفن لاصناعة له غيرها ، وحَطَّ بجبل طارق المنسوب إليه يوم سبت فى شعبان سنة اثنتين وتِسْعِين ، فى شهر أغسطس ، ثم صرف المراكب إلى مَنْ خلفه من أصحابه ، فركب من بقى من الناس ، ولم تزل السفائن تختلف إليهم حتى توافى جميعهم عنده بالجبل ، وقيل : حلّ طارق بجبله يوم الاثنين لخمس خلون من رجب من السنة فى اثنى عشر ألفاً غير ستة عشر رجلا من البرابرة ، ولم يكن فيهم من العرب إلا يسير ، أجازهم يُلْيان إلى ساحل الأندلس فى مراكب التجار من حيث لم يعلم بهم ، أوّلا أوّلا ، وركب أميرهم طارق آخرهم

قيل: وأصاب طارق عجوزاً من أهل الجزيرة ، فقالت له فى بعض قولها : إنه كان لها زوج عالم بالحدثان فكان يحدثهم عن أمير يدخل إلى بلدهم هذا ، ويغلب عليه ، ويصف من نعته أنه ضخم الهامة ، فأنت كذلك ، ومنها أن فى كتفه الأيسر شامة عليها شَعَر ، فإن

---

(١) المعافرى : نسبة إلى معافر ، وهو أبو حى من أحياء اليمن .
(٢) نفزة : قبيلة مشهورة من قبائل البربر .

كانت بك هذه العلامة فأنت هو ، فكشف طارق ثوبه فإذا بالشامة فى كتفه على ماذكرته العجوز ، فاستبشر بذلك هو ومَنْ معه .

وذكر عن طارق أنه كان نائماً فى المركب فرأى النبى صلى الله عليه وسلم والخلفاء الأربعة أصحابه عليه الصلاة والسلام يمشون على الماء حتى مرّوا به ، فبشَّره النبى صلى الله عليه وسلم بالفتح ، وأمره بالرفق بالمسلمين ، والوفاء بالعهد ، وقيل : إنه لما ركب البحرَ غلبته عينه فكان يرى النبى صلى الله عليه وسلم وحوله المهاجرون والأنصار قد تقلدوا السيوف وتنكبوا القِسِىّ ، فيقول له رسول الله صلى الله عليه وسلم : ياطارق ، تقدم لشأنك ، ونظر إليه و إلى أصحابه قد دخلوا الأندلس قُدَّامه ، فهَبَّ من نومه مستبشراً ، و بشر أصحابه ، وثابت إليه نفسُه ثقةً بِبُشْراه ، فقوِيَتْ نفسُه ، ولم يشك فى الظفر ، فخرج من البلد ، واقتحم بسيط البلاد شاناً للغارة .

قالوا : ووقع على لُذَريق الملكِ خبرُ اقتحام العرب ساحلَ الأندلس ، وتوالى غاراتهم على بلاد الجزيرة ، وأن يُلْيان السبب فيها ، وكان يومئذ غائباً بأرض بَنْبَلُونَةَ[1] فى غزَاة له إلى البَشْكَنْسِ لأمر كان استصعب عليه بناحيتهم ، فعظم عليه ، وفهم الأمر الذى منه أتى ، وأقبل مبادراً الفَتْقَ فى جموعه ، حتى احتل بمدينة قُرْطُبة من المتوسطة ، ونزل القصرَ المدعوّ بها ببلاط لُذَريق المنسوب إليه ، وليس لأنه بناه أو اخترعه ، وهو بناء مَنْ تقدمه من الملوك اتخذوه لمنزلهم فى قرطبة إذا أتوها ، إلا أن العرب لما غلبوا لُذَريق وهذا القصر من مَوَاطنه نسبوه إليه ، إذ لم يعرفوا مَنْ بناه . ويزعم العجم أن الذى بناه ملك منهم كان ساكناً بحصن المدور أسفلَ قرطبة ، وخرج يوما يتصيد حتى انتهى إلى مكان قُرْطبة ، وهى يومئذ خراب ، وكان فى موضع قصرها غَيْضَة عُلَّيقٍ ملتفة أشِبَة ، فأرسل الملك بازيا له يكرم عليه

(١) بنبلونة : مدينة بالأندلس بينها و بين سرقسطة مائة وخمسة وعشرون ميلا ، وهى بين جبال شامخة وشعاب غامضة ، قليلة الخيرات ، أهلها فقراء جاعة لصوص ، وأكثرهم متكلمون بالبشقية لايفهمون ، وخيلهم أصلب الدواب حافراً لبلادهم ، ويسكنون على البحر المحيط فى الجوف ، قاله فى الروض ، وضبطت بضبط القلم بفتح الباءين بينهما نون ساكنة .

على حَجَلة عنّت له من ناحية الـكُدْيَة[١] المنسوبة بعد إلى أبي عُبيدة ، فَتَخَبَّتْ[٢] في ذلك العُلَّيق ، ولج البازي في الانقضاض عليها ، فركض الملك خلفه حتى وقف على مكانه ليخرجه ، فأمر بقطعها لاستنقاذ بازيه ضَنًّا منه به ، فقُطعت ، وبدا له تحتها أساسُ قصر عظيم راقه رَصُّه ، وقد كان ذا همة ، فأمر بالـكشف عنـه ، وتقصى حدوده طولا وعرضا ، وتتبع أسه وأصله ، فوجده مبنيا من وجه الماء بصُمِّ الحجارة فوق زَرَجُونٍ وضع بينها وبين الماء بأحكم صناعة ، فقال : هذا أثر ملك كريم ، وأنا أولى من جَدَّده ، فأمر بإعادته إلى هيأته ، واتخاذه منزلا من منازل راحاته ، فكان إذا طاف بعمله أو مضى في مُتَصَيَّدِه نزل فيه ، وصار السبب في بناء قرطبة إلى جنبه ، ونزل الناسُ فيها ، وتوارث الملوك قصرها من بعد ، ونزله لذَريق في زحفه إلى العرب أياما ، والحشود من أعماله تتوافى إليـه ، ثم مضى نحو كورة شذونة يبغي لقاءهم في حشوده الـكثيرة .

وقيل : إن آخر ملوك الأندلس الذين تَلَتهم العربُ غيطشة ، وإنه هلك عن أولاد ثلاثة صغار لم يصلحوا للملك ، فضبطت أُمُّهُمْ عليهم ملك والدهم بطُلَيْطلة ، وانحرف لُذَريق قائد الخيل لوالدهم فيمن تبعه عنهم ، فصار بقُرْطُبة ، فلما اقتحم طارق الأندلسَ نفر إليه لُذَريق واستنفر إليه أجناد أهل الأندلس ، وكتب إلى أولاد غَيْطَشَة ـ وقد ترعرعوا ، وركبوا الخيـل ، واتخذوا الرجال ـ يدعوهم إلى الاجتماع معه على حرب العرب ، ويحذرهم من القعود عنه ، ويحضهم على أن يكونوا على عدوهم يدًا واحدة ، فلم يجدوا بدا ، وحَشَدوا ، وقدموا عليه بقُرْطُبة ، فنزلوا أكناف قرية شَقَنْدَة بعُـدْوَة نهرها قبالَة القصر ، ولم يطمئنوا إلى الدخول على لذرِيق أخذاً بالحزم ، إلى أن استتبَّ جهاز لذريق وخرج ، فانضموا إليه ، ومَضَوْا

---

(١) الحجلة ـ بفتح الحاء والجيم جميعاً ـ طائر بمقدار الحمامة أحمر المنقار والرجلين وعنت : عرضت وظهرت ، والـكدية ـ بالضم ـ الأرض المرتفعة الغليظة الصلبة .

(٢) تخبت : أصله تخبأت ، فسهل الهمزة بقلبها ألفاً ، ثم حذف الألف لما التقت ساكنة مع تاء التأنيث ، وأراد أنها اختفت في شجر العليق .

معه وهم مُرْصِدون لمكروهه ، والأصح - والله أعلم - ماسبق أن مُلكَ القوط اجتمع لِلُذَرِيق، واختلف فى اسمه : فقيل رُذَرِيق - بالراء أوله - وقيل باللام لُذَرِيق وهو الأشهر ، وقيل : إن أصله من أصبهان ويسمى الأشبان ، والله أعلم .

قالوا : وعسكر لذريق فى نحو مائة ألف ذوى عَدَد وعُدَّة ، فكتب طارق إلى موسى يستمده ويعرفه أنه فتح الجزيرة الخضراء فُرْضَةَ الأندلس ، ومَلَكَ المجاز إليها ، واستولى على أعمالها إلى البحيرة ، وأن لُذَرِيق زحف إليه بما لا قِبَلَ له به ، إلا أن يشاء الله ، وكان موسى منذ وجَّه طارقاً لوجهه ، قد أخذ فى عمل السفن حتى صار عنده منها عِدَّة كثيرة ، فحمل إلى طارق فيها خمسة آلاف من المسلمين مَدَداً كملت بهم عدة مَنْ معه اثنى عشر ألفاً أقوياء على المغانم ، حِرَاصاً على اللقاء ، ومعهم يُلْيَان المستأمن إليهم[1] فى رجاله وأهل عمله يَدُلّهم على العَوْرات ، ويتجسس الأخبار ، وأقبل نحوهم لُذَرِيق فى جموع العجم وملوكها وفرسانها ، فتلاقَوْا فيما بينهم وقال بعضهم لبعض : إن هذا ابنَ الخبيثة قد غلب على سلطاننا ، وليس من أهله ، وإنما كان من أتباعنا ، فلسنا نعدم من سيرته خَبَالا فى أمرنا ، وهؤلاء القوم الطارقون لاحاجة لهم فى استيطان بلدنا[2] ، وإنما مُرَادهم أن يملؤا أيديهُم من الغنائم ، ثم يخرجوا عنا ، فهلم فلننهزم بابن الخبيثة إذا نحن لقينا القوم لعلهم يكفوننا إياه ، فإذا انصرفوا عنا أقعدنا فى ملكنا من يستحقه ، فأجمعوا على ذلك ، والقضاء يُبْرِم ما ارتَأوْه[3] .

وكان لُذَرِيق ولّى ميمنته أحد ابنى غَيْطشة ، وميسرته الآخر ، فكانا رأسى الذين أداروا عليه الهزيمة ، وأداهما إلى ذلك طمعُ رجوع ملك والدهما إليهما .

وقيل : لما تقابل الجيشان أجمع أولادُ غَيْطَشَةَ على الغدر بلُذَرِيق ، وأرسلوا إلى طارق يُعْلمونه أن لُذَرِيق كان تابعا وخادما لأبيهم فغلبهم على سلطانه بعد مَهْلكه

(١) المستأمن : أى الذى أعطاه المسلمون أماناً على نفسه وماله وأهله ورجاله ، وأمن هو إلى ذلك .

(٢) استيطان بلدنا : توطنه والإقامة فيه .

(٣) يبرم : مضارع « أبرم الأمر » إذا أحكمه ووثقه .

وأنهم غير تاركي حقهم لديه ، ويسألونه الأمان على أن يميلوا إليه عند اللقاء فيمن يتبعهم ، وأن يسلِّم إليهم إذا ظفر ضياعَ والدهم بالأندلس كلها ، وكانت ثلاثة آلاف ضَيْعة نفائس مختارة ، وهى التى سميت بعد ذلك صَفَايا الملوك ، فأجابهم إلى ذلك ، وعاقدَهم عليه ، فالتقى الفريقان من الغَدِ ، فانحاز الأولاد إلى طارق ، فكان ذلك أقوى أسباب الفتح،وكان الالتقاء على وادى لَكَّة من كورة شَذونة ، فهزم الله الطاغيةَ لُذَرِيق وجموعَه ، ونصر المسلمين نصراً لا كفاء له ،ورمى لذريق نفسه فى وادى لَكَّةَ وقد أثقلته الجراح ، فلم يُعْلَم له خبرولم يوجد .

وقيل : نزل طارق بالمسلمين قريباً من عسكر لُذَريق منسلَخَ شهر رمضان سنة ٩٢ ، فوجد لذريق عِلْجًا من أصحابه قد عَرَف نَجْدَته ووثق بباسه ليشرف على عسكر طارق فيحزِرَ عددهم [١] ويعاين هيآتهم ومراكبهم، فأقبل ذلك العلج حتى طلع على العسكر، ثم شدّ [٢] فى وجوه مَنِ استشرفه [٣] من المسلمين ، فوثبوا إليه ، فولىّ منصرفا راكضًا ، وفاتهم بسَبْق فرسه ، فقال العلج للذريق : أتتك الصور التى كشف لك عنها التابوت ، فخذ على نفسك ، فقد جاءك منهم مَنْ لا يريد إلا الموت أو إصابةَ ما تحت قدميك ، قد حرَقوا مراكبهم إياساً لأنفسهم من التعلُّق بها ، وصفوا فى السهل مُوَطِّنين أنفُسَهم على الثبات، إذ ليس لهم فى أرضنا مكان مهرب ، فرَعَبَ [٤] وتضاعف جزعه ، والتقى العسكران بالبحيرة ، واقتتلوا قتالا شديدًا ، إلى أن انهزمَتْ ميمنة لذريق وميسرته ، انهزم بهما أبناء غَيْطَشة ، وثبت القلبُ بعدهما قليلاوفيه لُذَريق ، فعَذَّر أهلُه [٥] بشىء من قتال ، ثم انهزموا ، ولذريقُ أمامهم ، فاستمرّت هزيمتهم ، وأذرع المسلمون [٦] القتل فيهم ، وخفى أثر

(١) يحزر عددهم : يقدره على وجه الحزر والتخمين. (٢) شد : حمل .

(٣) استشرفه : نظر إليه ، وأصل الاستشراف أن تبسط كفك فوق حاجبيك كأنك تستظل من الشمس . (٤) رعب : خاف ، وتقول : رعب فلان ، ورعب فلان فلاناً ، أيضاً ، يأتى لازماً ، ويأتى متعديا .

(٥) عذر القوم : قصروا وهم يظهرون أنهم جادون،وكأنهم أقاموا لأنفسهم العذر

(٦) أذرعوا : أفرطوا .

لذريق فلا يدْرَى أمره ، إلا أن المسلمين وجدوا فرَسه الأشهبَ الذى فقد وهو راكبه ، وعليه سَرْج له من ذهب مُكَلَّل بالياقوت والزبرجد ، ووجدوا أحد خفيه وكان من ذهب مكلل بالدر والياقوت والزبرجد ، وقد ساخ الفرسُ فى طين وحَمْأة[1] ، وغرق العلج ، فثبت أحد خفيه فى الطين فأخذ ، وخفى الآخر ، وغاب شخص العِلْج ولم يوجد حيا ولا ميتًا ، والله أعلم بشأنه .

رواية الرازى فى شأن الفتح

وقال الرازى : كانت الملاقاةُ يوم الأحد لليلتين بقيتَا من شهر رمضان ، فاتصلت الحربُ بينهم إلى يوم الأحد لخمس خَلَوْن من شوّال بعد تتمة ثمانية أيام ، ثم هزم الله المشركين ، فقُتِل منهم خلق عظيم ، أقامت عظامُهم بعد ذلك بدَهْر طويل ملبسة بتلك الأرض ، قالوا : وحاز المسلمون من عسكرهم ما يجلُّ قَدْرُه ، فكانوا يعرفون كبار العجم وملوكهم بخواتم الذهب يجدونها فى أصابعهم ويعرفون مَنْ دونهم بخواتم الفضة ، ويميزون عبيدهم بخواتم النحاس ، فجمع طارق الفَىْء وخَمَّسَه ، ثم اقتسمه أهله على تسعة آلاف من المسلمين سوى العبيد والأتباع ، وتسامع الناسُ من أهل برّ العُدْوَة بالفتح على طارق بالأندلس وسَعَة المغانم فيها ، فأقبلوا نحوه من كل وَجْه ، وخَرَقُوا البحر على كل ما قدروا عليه من مركب وقُشْر[2] ، فلحقوا بطارق ، وارتفع أهلُ الأندلس عند ذلك إلى الحصون والقلاع ، وتهارَبُوا من السهل ، ولحقوا بالجبال ، ثم أقبل طارقٌ حتى نزل بأهل مدينة شَذُونة ، فامتنعوا عليه ، فشدَّ الحصر عليهم حتى نَهَكَهم[3] وأضرّهم ، فتهيأ له فتحها عَنْوة ، فحاز منها غنائم ، ثم مضى منها إلى مُدَوّر ، ثم عطف على قَرْمُونة فمر بعينه المنسوبة إليه ، ثم مال على إشبيلِيَةَ فصالحه أهلُها على الجزية ، ثم نازل أهل إسْتِجَة وهم فى قوّة ومعهم فَلّ عسكر لُذَريق ، فقاتلوا قتالا شديداً حتى كثر القتل والجراح بالمسلمين ، ثم إن الله تعالى أظهر المسلمين عليهم ، فانكسروا ،

---

(١) الحمأة — بفتح الحاء وسكون الميم — الطين الأسود المنتن .

(٢) القشر فى الأصل السمكة قدر شبر ، ويراد بها هنا الزورق الصغير .

(٣) نهكهم : أضعفهم .

ولم يلْقَ المسلمون فيما بعد ذلك حربًا مثلها ، وأقاموا على الامتناع إلى أن ظفر طارق بالعِلْج صاحبها ، وكان مغتراً سيىء التدبير ، فخرج إلى النهر لبعض حاجاته وحده ، فصادف طارقا هناك قد أتى لمثل ذلك ، وطارق لا يعرفه ، فوثب عليه طارق فى الماء ، فأخذه وجاء به إلى العسكر ، فلما كاشفه اعترف له بأنه أمير المدينة ، فصالحه طارق على ما أحَبَّ ، وضرب عليه الجِزْية ، وخلّى سبيله ، فوفى بما عاهد عليه ، وقذف الله الرُّعْبَ فى قلوب الكفرة لما رأوا طارقاً يُوغِل فى البلاد[1] ، وكانوا يحسَبونه راغباً فى المغنم عاملا على القُفُول[2] ، فسُقِط فى أيديهم[3] ، وتطايروا عن السهول إلى المعاقل ، وصعد ذَوُو القوّة منهم إلى دار مملكتهم طُلَيْطلة ، قيل : وكان من إرهاب طارق لنصارى الأندلس وحيله أن تقدّم إلى أصحابه فى تفصيل لحوم القتلى بحضرة أسْرَاهم وطبخها فى القدور ، يُرُونَهم أنهم يأكلونها ، فجعل من انطلق من الأسرى يحدّثون مَنْ وراءهم بذلك فتمتلىء منه قلوبهم رُعْباً ويَجْفِلُون فراراً ، قالوا : وقال يُلْيَان لطارق : قد فَضَضْتَ جيوش القوم ، ورعبوا ، فاصمد لبيضتهم[4] ، وهؤلاء أدلاء من أصحابى مَهَرَة ، ففرّقْ جيوشَك معهم فى جهات البلاد ، واعمد أنت إلى طُلَيْطلة حيث مُعْظَمهم ، فاشغل القوم عن النظر فى أمرهم والاجتماع إلى أولى رأيهم ، ففرّق طارق جيوشَه معهم من إسْتِجَة ، فبعث مغيثاً الرومىّ مولى الوليد بن عبد الملك إلى قُرْطُبة ، وكانت من أعظم مدائنهم ، فى سبعمائة فارس ، لأن المسلمين ركبوا جميعاً خيلَ العجم ، ولم يبق فيهم راجلٌ ، وفَضَلت عنهم الخيلُ ، وبعث جيشاً آخر إلى مالَقَة ، وآخر إلى غَرْنَاطة مدينة إلبيرة ، وسار هو فى معظم الناس إلى كورة جَيَّان يريد طُلَيْطلة ، وقد قيل : إن الذى سار لقُرْطبة طارق بنفسه ، لا مغيث ، قالوا : فكمنوا بعُدْوة نهر شَقَنْدَة فى غَيْضَة أَرْزشامخة ، وأرسلت الأدلاء فأمسكوا راعىَ غنمٍ فسُئل عن قرطبة فقال : رحل عنها عظماء أهلها إلى طُلَيْطلة ، وبقى فيها أميرها فى أربعمائة فارس

---

(١) يوغل فى البلاد : يبالغ فى دخولها (٢) القفول : الرجوع .
(٣) سقط فى أيديهم : ندموا (٤) اصمد لبيضتهم : اقصد إلى رئيسهم

من حُمَاتهم مع ضعفاء أهلها ، وسُئل عن سورها فأخبر أنه حَصين عالٍ فوق أرضها إلا أنه فيه ثُغْرة[(١)] ووصَفها لهم ، فلما أجَنَّهم الليل[(٢)] أقبلوا نحو المدينة ووطأ الله لهم أسبابَ الفتح[(٣)] بأن أرسل السماء برذاذٍ أخفى دقدقة حوافر الخيل ، وأقبل المسلمون رويداً حتى عبروا نهر قرطُبة ليلا ، وقد أغفل حَرَسُ المدينة احتراسَ السور ، فلم يظهروا عليه ضيقاً بالذى نالهم من المطر والبرد ، فترجَّل القومُ حتى عبروا النهر ، وليس بين النهر والسور إلا مقدار ثلاثين ذراعا أو أقل ، وراموا التعلق بالسور فلم يجدوا متعلقاً ، ورجعوا إلى الراعى فى دلالتهم على الثغرة التى ذكرها ، فأراهم إياها ، فإذا بها غير متسهلة التسنُّم ، إلا أنه كانت فى أسفلها شجرة تين مكنت أفنانها[(٤)] من التعلق بها ، فصعد رجل من أشِدّاء المسلمين فى أعلاها ، ونزع مغيث عمامته فناوله طرفَها ، وأعان بعضُ الناس بعضاً حتى كثروا على السور ، وركب مغيث ووقف من خارج ، وأمر أصحابه المرتقين للسور بالهجوم على الحرس ، ففعلوا ، وقتلوا نفراً منهم ، وكسروا أقفال الباب ، وفتحوه ، فدخل مغيث ومَنْ معه وملكوا المدينة عَنْوة ، فصعد إلى البلاط منزلِ الملك ومعه أدلاؤه ، وقد بلغ الملك دخولهم المدينة ، فبادر بالفرار عن البلاد فى أصحابه ، وهم زهاء أربعمائة ، وخرج إلى كنيسة بغربىّ المدينة ، وتحصن بها ، وكان الماء يأتيها تحت الأرض من عين فى سَفح جبل ، ودافعوا عن أنفسهم ، وملك مغيث المدينةَ وما حولها ، وقال مَنْ ذهب إلى أن طارقاً لم يحضر فتح قرطبة وأن فاتحها مغيث : إنه كتب إلى طارق بالفتح ، وأقام على محاصرة العِلج بالكنيسة ثلاثة أشهر ، حتى ضاق من ذلك وطال عليه ، فتقدّم إلى أسود من عبيده اسمه رَبَاح ، وكان ذا بأس ونَجْدة ، بالكُمون فى جنانٍ إلى جانب الكنيسة ملتفة الأشجار ، لعله أن يظفر له بعلج يقف به على خبر القوم ، ففعل ، ودعاه ضعف عقله إلى أن صعد فى بعض تلك الأشجار ، وذلك أيام الثمر ، ليجنى ما يأكله ، فبصر به أهل الكنيسة ، وشدّوا عليه ، فأخذوه فملكوه ، وهم فى ذلك هائبون له منكرون لخلقه ، إذ لم يكونوا عاينوا أسود قبله ، فاجتمعوا عليه ، وكثر

(١) ثغرة : مكان يمكن الدخول منه (٢) أجنهم الليل : سترهم بظلامه
(٣) وطأ لهم أسباب الفتح : مهدها لهم وسهلها (٤) أفنانها : أغصانها .

لَغَطهم وتعجبهم من خلقه ، وحسبوا أنه مصبوغ أو مطلىّ ببعض الأشياء التى تُسَوِّد ، فجردوه وسط جماعتهم ، وأدنوه إلى القَنَاة التى منها كان يأتيهم الماء ، وأخذوا فى غَسْله وتدليكه بالحِبال الحُرْش [١] ، حتى أدموه وأعْنَتُوه [٢] ، فاستغاثهم ، وأشار إلى أن الذى به خِلْقة من بارئهم عز وجل ، ففهموا إشارته ، وكفوا عنه وعن غسله واشتد فزعهم منه ، ومكث فى إسارهم سبعةَ أيام لايتركون التجمُّع عليه والنظر إليه إلى أن يسر له الخلاص ليلا ، ففرّ وأتى الأمير مغيثاً فخبره بشأنه وعرّفه بالذى اطلع عليه من شأنهم ، وموضع الماء الذى ينتابونه ، ومن أى ناحية يأتيهم ، فأمر أهل المعرفة بطلب تلك القناة فى الجهة التى أشار إليها الأسود حتى أصابوها ، فقطعوها عن جَرْيتها إلى الكنيسة ، وسدوا منافذها ، فأيقنوا بالهلاك حينئذ ، فدعاهم مغيث إلى الإسلام أو الجزية ، فأبوا عليه ، فأوقد النار عليهم حتى أحرقهم فسميت كنيسة الحرقى ، والنصارى تعظمها لصبر من كان فيها على دينهم من شدة البلاء ، غير أن العِلْج أميرهم رغب بنفسه عن بليتهم عند إيقان الهلاك ، ففرعنهم وحده ، وقد استغفلهم ورام اللحاق بِطُلَيْطلة ، فبلغ خبره إلى مغيث ، فبادر الركض خلفه وحده ، فلحقه بقرب قرية تَطْليرة هاربا وحده ، وتحته فرسٌ أصفر ذريع الخطو ، وحرك مغيث خلفه ، فالتفت العِلج وَدُهِش لما رأى مغيثاً قد رَهِقه [٣] ، وزاد فى حَثِّ فرسه فقصر به ، فسقط عن الفرس واندق عنقه ، فقعد على ترسه مستأسراً [٤] قد هاضته السقطة [٥] ، فقبض عليه مغيث ، وسلبه سلاحه ، وحبسه عنده ليقدم به على أمير المؤمنين الوليد ، ولم يؤسر من ملوك الأندلس غيره ، لأن بعضهم استأمن و بعضهم هرب إلى جِلِيقِّيَّةَ ، وفى رواية أن مغيثاً استنزل أهل الكنيسة بعد أسره لملكهم ، فضرب أعناقهم جميعاً ، فمن أجل ذلك عُرفت بكنيسة الأسرى

---

(١) الحرش : جمع أحرش، وهو هنا الخشن (٢) أعنتوه : أصابوه بالعنت والمشقة.
(٣) رهقه : كاد يدركه ويلحق به . (٤) مستأسراً : منقاداً مستسلماً .
(٥) هاضته : كسرت عظامه .

وأن مغيثاً جمع يهود قُرْطُبة فضمهم إلى مدينتها استنامةً إليهم ، دون النصارى ، للعداوة بينهم ، وأنه اختار القصر لنفسه ، والمدينة لأصحابه .

وأما مَنْ وُجِّه إلى مالَقَة ففتحوها ، ولجأ عُلُوجها إلى جبال هنالك ممتنعة ، ثم لحق ذلك الجيشُ بالجيش المتوجِّه إلى إلبيرة ، فحاصروا مدينتها غَرْناطة ، فافتتحوها عَنْوَة ، وضموا اليهود إلى قصبة غَرْناطة ، وصار ذلك لهم سُنَّة فى كل بلد يفتحونه أن يضموا يهوده إلى القصبة مع قطعة من المسلمين لحفظها ، ويمضى معظم الناس لغيرها ، و إذا لم يجدوا يهوداً وفَّرُوا عدد المسلمين المخلَّفين لحفظ مافتح ، ثم صنعوا عند فتح كورة رَيَّة التى منها مالَقَةُ مثل ذلك .

ومضى الجيش إلى تُدْمِير ، وتدمير : اسم العلج صاحبها ، سميت به ، واسم قصبتها أُريولة ، ولها شأن فى المَنَعة ، وكان ملكها علجا داهية ، وقاتلهم مضحيا ، ثم استمرت عليه الهزيمة فى فَحْصِها ، فبلغ السيفُ فى أهلها مَبْلَغاً عظيما أفنى أكثرهم ولجأ العلج إلى أُريولة فى يسير من أصحابه لايُغْنُونَ شيئاً ، فأمر النساء بنشر الشعور وحمل القَصَب والظهور على السور فى زىّ القتال متشبهات بالرجال ، وتصدر قُدَّامهن فى بقية أصحابه يُغَالط المسلمين فى قوته على الدفاع عن نفسه ، فكره المسلمون مِرَاسه[1] لكثرة مَنْ عاينوه على السور ، وعرضوا عليه الصلح ، فأظهر الميل إليه ، ونكر زيه ، فنزل إليهم بأمان على أنه رسول ، فصالحهم على أهل بلده ، ثم على نفسه ، وتوثق منهم ، فلما تم له من ذلك ما أراد عرفهم بنفسه ، واعتذر إليهم بالإبقاء على قومه ، وأخذهم بالوفاء بعَهْدِه ، وأدخلهم المدينة ، فلم يجدوا فيها إلا العيال والذرِّية ، فندموا على الذى أعْطَوْه من الأمان ، واسترجحوه[2] فيما احتال به ، ومضوا على الوفاء له ، وكان الوفاء عادتهم ، فسلمت كورة تُدْميرمن مَعَرَّة المسلمين[3] بتدبير

---

(١) مراسه ــ بكسر الميم ــ معالجة شأنه بالقتال ومعاناة ذلك .

(٢) استرجحوه : عدوه راجح العقل حسن التدبير .

(٣) معرة المسلمين : إيذائهم لهم، وفى القرآن الكريم (فتصيبكم منهم معرة بغير علم)

تُدْمير ، وصارت كلها صلحا ليس فيها عَنْوة ، وكتبوا إلى أميرهم طارق بالفتح ، وخلفوا بقصبة البلد رجالا منهم ، ومضى معظمهم إلى أميرهم لفتح طُلَيْطلة .

رواية ابن حيان فى فتح طليطلة

قال ابن حيان : وانتهى طارق إلى طُلَيْطلة دارِ مملكه القُوط ، فألفاها خالية قد فرَّ عنها أهلُها ولجؤا إلى مدينة بها خلف الجبـل ، فضم اليهود إلى طُلَيْطلة ، وخلف بها رجالا من أصحابه ، ومضى خلف مَنْ فر من أهل طُلَيطلة فسلك وادى الحجارة ، ثم استقبل الجبل فقطعه من فج سمى به بعد ، فبلغ مدينة المائدة خلف الجبل ، وهى المنسوبة لسليمان بن داود عليهما الصلاة والسلام ، وهى خضراء من زَبَرْجَد ، حافاتهامنها وأرجلها ، وكان لها ثلثمائة وخمسة وستون رجلا ، فأحرزها عنده ، ثم مضى إلى المدينة التى تحصنوا بها خلف الجبل ، فأصاب بها حليا ومالا ، ورجع ولم يتجاوزها إلى طُلَيطلة سنة ثلاث وتسعين ، وقيـل : إنه لم يرجع ، بل اقتحم أرض جِلِّيقية واخترقها حتى انتهى إلى مدينة اسْتُرقة ، فدوخ الجهة ، وانصرف إلى طُلَيطلة ، والله أعلم ، وقيل : إن طارقا دخل الأندلس بغير أمر مولاه موسى ابن نُصَير ، فالله أعلم . قال بعضهم : وكانت إقامته فى الفتوح وتدويخ البلاد إلى أن وصل سيده موسى بن نُصَير سنة ، وكان ماسيذكر .

وأنشد فى المسهب وابنُ اليسع فى المغرب لطارق من قصيدة قالها فى الفتح :

رَكبنا سَفيناً بالمجاز مُقَيَّرَا ... عسى أن يكونَ اللهُ مِنَّا قد اشْتَرَى (١)

نفوساً وأموالاً وأهلاً بِجَنَّةٍ ... إذا ما اشْتَهَيْنَا الشيء فيها تَيَسَّرَا

ولَسْنَا نُبَالِي كيف سالَتْ نفوسُنَا ... إذا نحن أدركنا الذى كان أَجْدَرَا (٢)

قال ابن سعيد : وهذه الأبيات مما يكتب لمراعاة قائلها ومكانته ، لالعلو طبقتها ، انتهى .

---

(١) أخذ معانى هذا البيت والذى بعده من قوله تعالى (إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون) .

(٢) النفوس ههنا الدماء ، وهي التى تسيل

شأن أولاد غيطشة

وأما أولاد غَيْطَشة فإنهم لما صاروا إلى طارق بالأمان ، وكانوا سببَ الفتح حسبما تقدم ، قالوا لطارق : أنت أمير نفسك أم فوقك أمير؟ فقال : بل على رأسى أمير ، وفوق ذلك الأمير أمير عظيم ، فاستأذنوه فى اللّحاق بموسى بن نُصَير بإفريقية ليؤكد سببهم به ، وسألوه الكتاب إليه بشأنهم معه ، وما أعطاهم من عهده ، ففعل ، وساروا نحو موسى فتَلَقَّوْه فى انحداره إلى الأندلس بالقرب من بلاد البربر وعرَّفوه بشأنهم ، ووقف على ماخاطبه به طارق فى ذِمَّتهم وسابقتهم ، فأنفذهم إلى أمير المؤمنين الوليد بالشام بدمشق ، وكتب إليه بما عرفه به طارق من جميل أثرهم ، فلما وصلوا إلى الوليد أكرمهم وأنفذ لهم عهدَ طارق فى ضِيَاع والدهم ، وعقد لكل واحد منهم سجلا ، وجعل لهم أن لايقوموا لداخلٍ عليهم ، فقدموا الأندلس ، وحازوا ضِيَاع والدهم أجمع ، واقتسموها على موافقة منهم ، فصار منها لكبيرهم ألمند ألف ضيعة فى غرب الأندلس ، فسكن من أجلها إشبيلية مقترباً منها ، وصار لأرطباش ألف ضيعة ، وهو تلوه فى السن ، وضياعه فى مُوَسَّطة الأندلس ، فسكن من أجلها قُرْطُبة ، وصار لثالثهم وَقْلَة ألفُ ضيعةٍ فى شرقىّ الأندلس وجهة الثغر ، فسكن من أجلها مدينة طُلَيْطلة ، فكانوا على هذه الحال صَدْرَ الدولة العربية ، إلى أن هلك ألمند كبيرهم ، وخلف ابنته سارة المعروفة بالقُوطِية وابنين صغيرين ، فبسط يده أرطباشُ على ضياعهم ، وضمها إلى ضياعه ، وذلك فى خلافة أمير المؤمنين هشام بن عبد الملك ، فأنشأت سارة بنت ألمند مركباً بإشبيلية حصينا كامل العدة ، وركبت فيه مع أخويها الصغيرين تريد الشام حتى نزلت بعَسْقَلان من ساحلها ثم قصدت باب الخليفة هشام بداره دمشق ، فأنهتْ خبرها ، وشكت ظُلَامتها من عمها وتعدِّيه عليها ، واحتجت بالعهد المنعقد لأبيها وإخوته على الخليفة الوليد بن عبد الملك ، فأوصلها هشام إلى نفسه ، وأعجبه صورتها وحزمها ، وكتب إلى حَنْظَلة ابن صَفْوان عامله بإفريقية بإنصافها من عمها أرطباش وإمضائها وأخويها على سُنة

الميراث فيما كان فى يد والدها مما قاسم فيه إخوته ، فأنفذ لها الكتاب بذلك إلى عامله بالأندلس أبى الخطار ابن عمه ، فتم لها ذلك ، وأنكحها الخليفة هشام من عيسى بن مُزَاحم[1] ، فابتنى بها بالشام ، ثم قدم بها إلى الأندلس ، وقام لها فى دفاع عمها أرطباش عن ضياعها ، فنال بها نعمة عظيمة ، وَوُلِدَ له منها ولداه إبراهيم و إسحاق فأدركا الشرف المؤثَّل[2] والرياسة بإشبيلية ، وشهرا ونسلهما بالنسبة إلى أمهما سارة القوطية ، وكانت أيام وفادتها على الخليفة هشام رأت عنده حفيده عبدالرحمن بن معاوية الداخل بعدُ إلى الأندلس ، وعرفها ، فتوسلت إليه لما مَلَكَ الأندلس ووفدت إليه ، فاعترف بذِمَامها[3] وأكرمها ، وأذن لها فى الدخول إلى قصره متى جاءت إلى قُرْطبة فيجدد تكرمتها ولا يحجب عياله منها ، وتوفى زوجها عيسى فى السنة التى ملك فيها عبدُ الرحمن الأندلس ، فزوَّجَهَا عبد الرحمن من عمير بن سعيد .

بعض أخبار القوطية سارة بنت ألمند ، وعمها

وكان لها ولأبيها ألمند وعمها أرطباش فى صدر الدولة العربية بالأندلس أخبارٌ ملوكية : فمنها ماحكاه الفقيه محمد بن عمر بن لبابة المالكى أنه قصد أرطباش يوما إلى منزله عشرة من رؤساء رجال الشاميين فيهم الصُّميل وابن الطُّفَيل وأبو عَبْدة وغيرهم ، فأجلسهم على الكراسى ، و بالغ فى تكريمهم ، ودخل على أثرهم ميمون العابد جد بنى حَزْم ، وكان فى عداد الشاميين ، إلا أنه كان شديد الانقباض عنهم لزهده وَوَرَعه ، فلما بَصُر به أرطباش قام إليه دونهم إعظاما ، ورقاه إلى كرسيه الذى كان يجلس عليه ، وكان مُلَبّسًا صفائح الذهب ، وجذبه ليجلسه مكانه ، فامتنع عليه ميمون ، وقعد على الأرض ، فقعد أرطباش معه عليها ، وأقبل عليه قبلهم ، فقال له : ياسيدى ، ما الذى جاء بك إلى مثلى ؟ فقال له : ماتسمعه ، إنا قدمنا إلى هذا البلد غُزَاة نحسب أن مقامنا فيه لايطُول ، فلم نستعد للمقام ولا كَثَّرنا من العدة

---

(١) أنكحها منه : زوجها إياه ، وابتنى بها : دخل بها
(٢) الشرف المؤثل : العظيم الثابت
(٣) الذمام ــ بكسر الذال ــ الحرمة والعهد

ثم حدثت بعدنا على موالينا وفى أجنادنا ماقد أيِسْنا معه من الرجوع إلى أوطاننا ، وقد وَسّع الله عليك ، فأحب أن تدفع إلى ضياعا من ضياعك أعتمرها بيدى ، وأؤدى إليك الحق منها ، وآخذ الفضل لى طيباً أتعيش منه ، فقال : لا أرضى لك بالمساهمة ، بل أَهَبُ لك هبة مسوّغة ، ثم دعا بوكيل له فقال له : سلم إليه الْمِجشَر الذى لنا على وادى شُوش بمالنا فيه من العبيد والدواب والبقر وغير ذلك ، وادفع إليه الضيعة التى بجَيَّان ، فتسلم ميمون الضيعتين وورثهما ولده ، وإليهم نسبت قلعة حزم ، فشكره ميمون وأثنى عليه ، وقام عنه ، وقد أنف الصميل من قيامه إليه ، فأقبل على أرطباش وقال له : كنت أظنك أرجح وَزْناً ، أدخُلُ عليك وأنا سيدُ العرب بالأندلس فى أصحابى هؤلاء ، وهم سادة الموالى ، فلا تزيدنا من الكرامة على الإقعاد على أعوادك هذه ، ويدخل هذا الصّعلوك فتصير من إكرامه إلى حيث صرت ؟ فقال له : يا أبا جوشن ، إن أهل دينك يخبروننا أن أدبهم لم يُرْهِفْك[1] ولو كان لم تنكر علىّ مافعلته ، إنكم أكرمكم الله إنما تكرمُونَ لدنياكم وسلطانكم ، وهذا إنما أكرمته لله تعالى ؛ فقد روينا عن المسيح عليه السلام أنه قال : من أكرمه الله تعالى من عباده بالطاعة له وجبت كرامته على خلقه ، فكأنما ألقمه حجراً ، وكان الصميل أميا ، فلذلك عرض به ، فقال له القوم : دعنا من هذا ، وانظر فيما قصدناه له ، فحاجتنا حاجة الرجل الذى قصدك فأكرمته ، فانظر فى شأننا ، فقال له : أنتم ملوك الناس ، وليس يرضيكم إلا الكثير ، وهاأنا أهب لكم مائة ضيعة تقتسمونها عشراً عشراً ، وكتب لهم بها ، وأمر وكلاءه بتسليمها إليهم ، فكان القوم يرونها من أطيب أملاكهم ، انتهى .

حسد موسى لطارق على الفتح

قال ابن حيان وغيره : ولما بلغ موسى بن نُصَير ماصنعه طارق بن زياد وما أتيح له من الفتوح حَسَده ، وتهيأ للمسير إلى الأندلس فعسكر وأقبل نحوها ومعه جماعة

(١) أصل هذه المادة قولهم «أرهف فلان سيفه» إذا حدده ورققه ليصير نافذا فى ضريبته ، والمراد هنا أن أدب الدين لم يرقق من طباعه ولم يلطف سجاياه ، وقالوا « فلان مرهف الحس » ونحو ذلك

الناس وأعلامهم ، وقيل : إنهم كانوا ثمانية عشر ألفاً ، وقيل : أكثر ، فكان دخوله إلى الأندلس فى شهر رمضان سنة ثلاث وتسعين ، وتنكب الجبل [١] الذى حله طارق ، ودخل على الموضع المنسوب إليه المعروف الآن بجبل موسى ، فلما احتل الجزيرة الخضراء قال : ما كنت لأسلك طريق طارق ، ولا أقفو أثره [٢] ، فقال له العلوج الأدلاء أصحاب يُلْيَان : نحن نسلكك طريقاً هو أشرف من طريقه ، وندلك على مدائن هى أعظم خطراً وأعظم خَطْباً وأوسع غُنْماً من مدائنه ، لم تُفْتَحْ بعد ، يفتحها الله عليك إن شاء الله تعالى ، فملئ سروراً ، وكان شفوف [٣] طارق قد غمه ، فساروا به فى جانب ساحل شَذُونة ، فافتتحها عَنْوة ، وألقوا بأيديهم إليه ، ثم سار إلى مدينة قَرْمُونة ، وليس بالأندلس أحصَنُ منها ، ولا أبعد على من يَرُومها بحصار أو قتال ، فدخلها بحيلة توجهت بأصحاب يُلْيَان ، دخلوا إليهم كأنهم فُلَّال وطرقهم موسى بخيله ليلا ففتحوا لهم الباب ، وأوقعوا بالأحراس ، فملكت المدينة ، ومضى موسى إلى إشبيلية جارتها فحاصرها ، وهى أعظم مدائن الأندلس شأناً ، وأعجبها بنياناً ، وأكثرها آثاراً ، وكانت دَارَ الملك قبل القوطيين ، فلما غلب القوطيون على ملك الأندلس حولوا السلطان إلى طُلَيْطلة ، و بقى رؤساء الدين فيها أعنى إشبيلية ، فامتنعت أشهرا على موسى ، ثم فتحها الله عليه ، فهرب العلوج عنه إلى مدينة باجَةَ ، فضم موسى يهودَها إلى القصبة ، وخَلَّف بها رجالا ، ومضى من إشبيلية إلى لَقَنْتَ [٤] إلى مدينة ماردة ، وكانت أيضاً دار مملكة لبعض ملوك الأندلس فى سالف الدهر ، وهى ذات عز ومنعة ، وفيها آثار وقصور ومصانع وكنائس جليلة القدر فائقة الوصف ، فحاصرها أيضاً ، وكان فى أهلها مَنَعة شديدة و بأس عظيم ، فنالوا من المسلمين دفعات ، وآذوهم ، وعمل موسى دَبَّابة دب المسلمون تحتها إلى برج من أبراج سورها جعلوا ينقبونه ، فلما قلعوا الصخر أفْضَوْا بعده إلى العمل المدعو

---

(١) تنكب الجبل - إلخ : أى مال عنه وعدل إلى غيره (٢) أقفو أثره : أتبعه

(٣) شفوف : جمع شف ، وأصله الربح والفضل والزيادة ، وأراد هنا نجاحه وظفره

(٤) لقنت - بفتح اللام والقاف وسكون النون - حصنان من أعمال ماردة ، قاله ياقوت

بلسان العجم ألاشه ماشه ، فنبَتْ عنه مَعَاوِلهم [١] وعدتهم ، وثار بهم العدو على غفلة ، فاستشهد بأيديهم قوم من المسلمين تحت تلك الدبابة ، فسمى ذلك الموضع برج الشهداء ، ثم دعا القوم إلى السلم ، فترسل إليه فى تقريره قوم من أماثلهم أعطاهم الأمان واحتال فى توهيمهم فى نفسه ، فدخلوا عليه أول يوم ، فإذا هو أبيض الرأس واللحية كأنصَلَ [٢] خضابه ، فلم يتفق لهم معه أمر ، وعاودوه قبل الفطر بيوم ، فإذا هو قد قنأ لحيته بالحناء فجاءت كضِرام عَرْفج [٣] ، فعجبوا من ذلك ، وعاودوه يوم الفطر ، فإذا هو قد سوَّد لحيته ، فازداد تعجبهم منه ، وكانوا لا يعرفون الخضاب ولا استعماله ، فقالوا لقومهم : إنا نقاتل أنبياء يتخلقون كيف شاؤا ، و يتصورون فى كل صورة أحبُّوا ؛ كان ملكهم شيخاً فقد صار شابا ، والرأى أن نقاربه ونعطيه مايسأله ، فمالنا به طاقة ، فأذْعَنُوا عند ذلك ، وأكملوا صلحهم مع موسى على أن أموال القتلى يوم الكمين وأموال الهاربين إلى جِلِّيقِيَّة وأموال الكنائس وحليها للمسلمين ، ثم فتحوا له المدينة يوم الفطر سنة أربع وتسعين فملكها ، ثم إن عجم إشبيليَة انتقضوا على المسلمين ، واجتمعوا من مدينتى باجَة وَلَبْلَة إليهم ، فأوقعوا بالمسلمين ، وقتلوا منهم نحو ثمانين رجلا ، وأتى فَلُّهم الأمير موسى وهو بمارِدَة فلما أن فتحها وجَّه ابنه عبد العزيز بن موسى فى جيش إليهم ففتح إشبيلية وقتل أهلها ، ونهض إلى لَبْلَة ففتحها ، واستقامت الأمور فيما هنالك ، وعلا الإسلام ، وأقام عبد العزيز بإشبيلية ، وتوجه الأمير موسى من مارِدَة فى عقب شوال من العام المؤرخ يريد طُلَيْطلة ، و بلغ طارقا خبرُه ، فاستقبله فى وجوه الناس ، فلقيه فى موضع من كورة طَلَبِيرة ، وقيل : إن موسى تقدم من مارِدَة فدخل جِلِّيقية من فج نُسب إليه ، فخرقها حتى وافى طارقَ بن زياد صاحب مقدمته بمدينة اسْتُرَقَة ، فغض منه علانية ، وأظهر مابنفسه عليه من حقد ، والله أعلم ؛ وقيل : لما وقعت

---

(١) نبت عنه : أراد أنها لم تعمل فيه ولم تنل منه ، والمعاول : جمع معول ، آلة للهدم

(٢) الخضاب ــ بكسر الخاء ــ مايصبغ به الشعر ، ونصل : ذهب أثره فظهر الشيب

(٣) قنأ لحيته : صبغها ، والضرام : النار ، والعرفج ــ بزنة جعفر ــ شجر سريع الالتهاب

عينهُ عليه نزل إليه إعظاما له ، فقنَّعه موسى بالسَّوْط ، ووبَّخه على استبداده عليه ومخالفته لرأيه ، وساروا إلى طُلَيْطلة ، فطالبه موسى بأداء ما عنده من مال الفيء وذخائر الملوك ، واستعجله بالمائدة ، فأتاه بها وقد خلع من أرجلها رجلا وخبأه عنده ، فسأله موسى عنه ، فقال : لا علم لى به ، وهكذا أصبتها ، فأمر موسى فجعل لها رجل من ذهب جاء بعيدَ الشبه من أرجلها يظهر عليه التعمُّل ، ولم يقدر على أحسن منه ، فأخلّ بها .

وقال ابن الفرضى : موسى بن نصير صاحبُ فتح الأندلس لَخْمِيٌّ يكنى أبا عبد الرحمن ، يروى عن تميم الدارىّ ، وروى عنه يزيد بن مسروق اليحصبى ،

وقيل : غزا موسى بن نُصَير فى المحرّم سنة ثلاث وتسعين ، فأتى طَنْجة ، ثم عبر على الأندلس ، فأداخَهَا ، لا يأتى على مدينة إلا فتحها ونزل أهلُها على حكمه ، وسار إلى قُرْطُبة ، ثم قفل على الأندلس سنة أربع وتسعين ، فأتى إفريقية ، وسار عنها سنة خمس وتسعين إلى الشام يؤمّ الوليد بن عبد الملك يجر الدنيا بما احتمله من غنائم الأندلس من الأموال والأمتعة يحملها على العَجَل والظَّهْر ، ومعه ثلاثون ألف رأس من السبى ، فلم يلبث أن هلك الوليدُ بن عبد الملك وولى سليمان ، فنكب موسى نكباً أداه إلى المَتْرَبة ، فهلك فى نكبته تلك بوادى القُرَى[1] سنة سبع وتسعين .

مائدة سليمان

قال ابن حيان : وهذه المائدة المنوّه باسمها المنسوبة إلى سليمان النبىّ عليه الصلاة والسلام لم تكن له فيما يزعم رواة العجم ، وإنما أصلها أن العجم فى أيام ملكهم كان أهل الحِسْبَة منهم إذا مات أحدُهم أوصى بمال للكنائس ، فإذا اجتمع عندهم ذلك المال صاغوا منه الآلات الضخمة من الموائد والكراسى وأشباهها من الذهب والفضة ، تحمل الشَّمامسة والقُسُوس فوقها مصاحف الأناجيل

---

(١) وادى القرى : واد فى طريق المدينة من الشام ، بين تيماء وخيبر ، وفيه يقول جميل بن معمر العذرى صاحب بثينة :

ألا ليت شعرى هل أبيتن ليلة بوادى القرى ؟ إنى إذا لسعيد

إذا أبرزت فى أيام المناسك ، ويضعونها على المذابح فى الأعياد للمباهاة بزينتها ، فكانت تلك المائدة بطُلَيْطلة مما صيغ فى هذه السبيل ، وتأنقت الأملاك فى تفخيمها ، يزيد الآخر منهم على الأول ، حتى برزت على جميع ما اتخذ من تلك الآلات ، وطار الذكر مَطاره عنها ، وكانت مَصُوغة من خالص الذهب ، مُرَصَّعة بفاخر الدر والياقوت والزمرد ، لم تر الأعين مثلها ، وبولغ فى تفخيمها من أجل دار المملكة ، وأنه لاينبغى أن تكون بموضع آلةُ جمالٍ أو متاعُ مباهاةٍ إلا دون ما يكون فيها ، وكانت توضع على مذبح كنيسة طُلَيْطلة ،فأصابها المسلمون هنالك ، وطار النبأ الفخم عنها ، وقد كان طارق ظن بموسى أميره مثل الذى فعله من غَيْرته على ما تهيأ له ومطالبته له بتسليم مافى يده إليه ، فاستظهر بانتزاع رِجْلٍ من أرْجُل هذه المائدة خبأه عنده ، فكان من فَلَجه[1] به على موسى عدوه عند الخليفة إذ تنازعا عنده بعد الأثر فى جهادهما ما هو مشهور ، انتهى .

وقال بعض المؤرخين : إن المائدة كانت مصنوعة من الذهب والفضة ، وكان عليها طَوْق لؤلؤ وطوق ياقوت وطوق زمرد ، وكلها مكللة بالجواهر ، انتهى .

وما ذكره ابن حبان من أن الذى نكب موسى بن نُصَير هو سليمان بن عبد الملك صواب ، وأمّا ما حكاه ابن خلّكان من أن المنكب[2] له الوليد فليس بصحيح ، والله أعلم .

عود إلى رواية ابن حيان فى الفتح

رجع إلى كلام ابن حيان ـ قالوا : ثم إن موسى اصطلح مع طارق ، وأظهر الرضا عنه ، وأقره على مقدمته على رسمه ، وأمره بالتقدم أمامه فى أصحابه ، وسار موسى خلفه فى جيوشه ، فارتقى إلى الثغر الأعلى ، وافتتح سَرَقُسْطة وأعمالها ، وأوغل فى البلاد ، وطارق أمامه لا يمران بموضع إلا فتح عليهما ، وغنَّمهما الله تعالى ما فيه ، وقد ألقى الله الرعب فى قلوب الكفرة فلم يعارضهما أحد إلا بطلب صلح ،

(١) الفلج : الظفر والنصر والغلبة والفوز

(٢) كذا ، وصواب العبارة ـ فيما نعلم ـ أن يقول «أن الناكب له» لأن الذى ورد فى معاجم اللغة أنه يقال «نكبه ينكبه» من باب نصر ، ولم نجد «أنكبه» فى شىء من المراجع

وموسى يجىء على أثر طارق فى ذلك كله ، ويكمل ابتداءه ، ويوثّق للناس ماعاهدوه عليه ، فلما صفا القطر كله وطأمن نفوس مَنْ أقام على سلمه ، ووطأ لأقدام المسلمين فى الحلول به ، أقام لتمييز ذلك وقتاً ، وأمضى المسلمين إلى إفرنجة ففتحوا وغنموا وسلموا وعلوا وأوغلوا ، حتى انتهوا إلى وادى رُدُونة ، فكان أقصى أثر العرب ومنتهى موطئهم من أرض العجم ، وقد دوّخت بعوث طارق وسَرَاياه بلد إفرنجة فملكت مدينتى بَرْشِلُونة وأربونة[1] وصخرة إينيون وحصن لودون على وادى رُدُونة ، فبعدوا عن الساحل الذى منه دخلوا جداً ، وذكر أن مسافة ما بين قُرْطُبة وأربونة[1] من بلاد إفرنجة ثلثمائة فرسخ وخمسة وثلاثون فرسخاً ، وقيل : ثلثمائة فرسخ وخمسون فرسخاً ، ولما أوغل المسلمون إلى أربونة[1] ارتاع لهم قارله ملكُ الإفرنجة بالأرض الكبيرة ، وانزعج لانبساطهم ، فحشد لهم ، وخرج عليهم فى جمع عظيم ، فلما انتهى إلى حصن لودون وعلمت العرب بكثرة جموعه زالت عن وجهه ، وأقبل حتى انتهى إلى صخرة إينيون ، فلم يجد بها أحداً ، وقد عسكر المسلمون قُدّامه فيما بين الأجبل المجاورة لمدينة أربونة[1] ، وهم بحال غِرَّة لا عُيُون لهم ولا طلائع فما شعروا حتى أحاطبهم عدو الله قارله ، فاقتطعهم عن اللجأ إلى مدينة أربونة[1] ، وواضعهم الحرب ، فقاتلوا قتالا شديداً استشهد فيه جماعة منهم ، وحَمَل جمهورُهم على صفوفه حتى اخترقوها ، ودخلوا المدينة ، ولاذوا بحصانتها ، فنازلهم بها أياما أصيب له فيها رجال ، وتعذر عليه المقام ، وخامره ذعر وخوف مدد للمسلمين ، فزال عنهم راحلا إلى بلده ، وقد نصب فى وجوه المسلمين حصونا على وادى رُدُونة شكها بالرجال فصيرها ثغراً بين بلده والمسلمين ، وذلك بالأرض الكبيرة خلف الأندلس.

---

(١) قال فى الروض : « أربونة : مدينة هى آخر ما كان بأيدى المسلمين من مدن الأندلس وثغورها مما يلي بلاد الإفرنجة ، وقد خرجت من أيدى المسلمين سنة ٣٣٠ مع غيرها مما كان بأيدى المسلمين من المدن والحصون » اهـ وقال ياقوت : « أربونة — بفتح أوله ويضم ، ثم السكون ، وضم الباء الموحدة ، وسكون الواو ، ونون وهاء — بلد فى طرف الثغر من أرض الأندلس ، بينها وبين قرطبة على ما ذكر ابن الفقيه ألف ميل » اهـ

انتصارات موسى بن نصير

وقال الحِجَارِى فى المسهب : إن موسى بن نُصَير نصره الله نصراً ما عليه مزيد، وأجْفَلَتْ[1] ملوك النصارى بين يديه ، حتى خرج على باب الأندلس الذى فى الجبل الحاجز بينها و بين الأرض الكبيرة ،فاجتمعت الإفرنج إلى ملكها الأعظم قارِلَةَ ، وهذه سِمَة لملكهم[2]، فقالت له:ما هذا الخزى الباقى فى الأعقاب ؟ كنا نسمع بالعرب ونخافهم من جهة مطلع الشمس ، حتى أتوا من مغربها ، واستولوا على بلاد الأندلس وعظيم ما فيها من العُدّة والعَدَد بجمعهم القليل ، وقلة عُدّتهم ، وكونهم لا دُرُوع لهم ، فقال لهم ما معناه : الرأى عندى أن لا تعترضوهم فى خَرْجتهم هذه ، فإنهم كالسيل يحمل مَن يُصادره ، وهم فى إقبال أمرهم ، ولهم نيات تغنى عن كثرة العدد ، وقلوب تغنى عن حَصَانة الدروع ، ولكن أمهلوهم حتى تمتلئ أيديهم من الغنائم ، و يتخذوا المساكن ، و يتنافسوا فى الرياسة ، و يستعين بعضهم ببعض ، فحينئذ تتمكنون منهم بأيسر أمر ، قال : فكان والله كذلك بالفتنة التى طرأت بين الشاميين والبلديين والبربر والعرب والمُضَرِية واليمانية ، وصار بعضُ المسلمين يستعين على بعض بمن يجاورهم من الأعداء ، انتهى .

فتوح عبد الاعلى ابن موسى

وقيل : إن موسى بن نُصَير أخرج ابنه عبد الأعلى إلى تُدْمِيرَ ففتحها ، و إلى غَرْناطة ومالَقَةَ وكورة رَيَّة ففتح الكل ، وقيل : إنه لما حاصر مالَقَةَ ــ وكان ملكها ضعيفَ الرأى قليلَ التحفظ ــ كان يخرج إلى جِنان له بجانب المدينة طلباً للراحة من غُمّة الحصار[3] من غير نَصْبِ عَيْن وتقديم طليعة ، وعرف عبد الأعلى بأمره ، فأكمن له فى جَنَبات الجنة التى كان ينتابها قوما من وجوه فرسانه ذوى رأى وحزم ، أرصدوا له ليلا فظفروا به ، وملكوه ، فأخذ المسلمون البلد عَنْوة ، وملؤا أيديهم غنيمة .

---

(١) أجفلت : أسرعت فى الهزيمة

(٢) السمة : العلامة ، وأراد أن هـذا الاسم يطلق على كل من ملكهم

(٣) غمة الحصار ــ بضم الغين ــ ضيقه وشدته ، والعين : الجاسوس ، والطليعة : العسكر المتقدمون

عودة موسى ابن نصير إلى المشرق

وقيل : كانت نفس موسى بن نُصَير فى ذلك كله تنزعج إلى دخول دار الكفر جِلّيقية ، فبينما هو يعمل فى ذلك و يعدّ له إذ أتاه مغيثٌ الروميُّ رسولُ الوليد بن عبد الملك ومولاه يأمره بالخروج عن الأندلس والإضراب عن الوغول فيها[١] ، و يأخذه بالقفول إليه[٢] ، فساءه ذلك ، وقطع به عن إرادته : إذ لم يكن فى الأندلس بلد لم تدخله العرب إلى وقته ذلك غير جليقية ، فكان شديدَ الحرص على اقتحامها ، فلاطف موسى مغيثاً رسولَ الخليفة ، وسأله إنظاره[٣] إلى أن يُنْفِذ عزمه فى الدخول إليها والمسير معه فى البلاد أياما ، ويكون شريكه فى الأجر والغنيمة ، ففعل ، ومشى معه حتى بلغ المفازة ، فافتتح حصن بارو وحصن لُكّ ، فأقام هناك ، و بث السرايا حتى بلغوا صخرة بِلاَىَ على البحر الأخضر ، فلم تبق كنيسة إلا هدمت ، ولا ناقوس إلا كسر ، وطاعت الأعاجم فلاذوا بالسلم و بذل الجزية ، وسكنت العرب المفاوز ، وكان العرب والبربر كلما مر قوم منهم بموضع استحسنوه حَطوا به ونزلوه قاطنين ، فاتسع نطاق الإسلام بأرض الأندلس ، وخُذل الشرك ، و بينما موسى كذلك فى اشتداد الظهور وقوّة الأمل إذ قدم عليه رسولٌ آخر من الخليفة يكنى أبا نصر أردف به الوليدُ مغيثاً لما استبطأ موسى فى القفول ، وكتب إليه يوبخه ، و يأمره بالخروج ، وألزم رسوله إزعاجه ، فانقلع حينئذ من مدينة لُكّ بجليقية ، وخرج على الفج المعروف بفج موسى ، ووافاه طارق فى الطريق منصرفا من الثغر الأعلى ، فأقفله مع نفسه ومَضَيا جميعاً ومعهما من الناس من اختار القفول ، وأقام من آثر السكنى فى مواضعهم التى كانوا قد اختطوها واستوطنوها ، وقَفَل معهم الرسولان مغيث وأبو نصر حتى احتلوا بإشبيلية[٤] ، فاستخلف موسى ابنه عبد العزيز على إمارة الأندلس ، وأقرّه بمدينة إشبيلية لاتصالها بالبحر نظراً لقربه من مكاره المجاز ، وركب موسى البحر إلى المشرق بذى الحجة سنة خمس وتسعين وطارق معه ، وكان مُقام طارق بالأندلس قبل دخول موسى

---

(١) الوغول: أراد التوغل فى البلاد ودخولها (٢) القفول : العودة والرجوع
(٣) إنظاره : تأخيره وإمهاله (٤) احتلوا بإشبيلية : توطنوها وأقاموا بها

سنة و بعد دخوله سنتين وأربعة أشهر ، وحمل موسى الغنائم والسَّبى ، وهو ثلاثون ألف رأس والمائدة مُنَوَّها بها ومعها من الذخائر والجواهر ونفيس الأمتعة ما لا يُقْدَر قدره ، وهو مع ذلك متلهف على الجهاد الذى فاته ، أسِفٌ على ما لحقه من الإزعاج ، وكان يؤمل أن يخترق ما بقى عليه من بلاد إفرنجة ، ويقتحم الأرض الكبيرة حتى يتصل بالناس إلى الشام مؤملا أن يتخذ مُخْتَرَقَه (١) بتلك الأرض طريقاً مَهْيَعاً (٢) يسلكه أهلُ الأندلس فى مسيرهم ومجيئهم من المشرق و إليه على البر لا يركبون بحراً ، وقيل : إنه أوغل فى أرض الفرنجة حتى انتهى إلى مفازة كبيرة وأرض سهلة ذات آثار ، فأصاب فيها صنما عظيما قائماً كالسارية مكتوباً فيه بالنقر كتابة غريبة قُرِئت ، فإذا هى : يابنى إسماعيل ، انتهيتم فارجعوا ، فهاله ذلك ، وقال : ما كتب هذا إلا لمعنى كبير ، فشاوَرَ أصحابه فى الإعراض عنه وجَوَازِه إلى ما وراءه ، فاختلفوا عليه ، فأخذ برأى جمهورهم وانصرف بالناس ، وقد أشرفوا على قطع البلاد وتَقَصِّى الغاية .

وحكى الرازى : أن موسى خرج من إفريقية إلى الأندلس فى رجب سنة ثلاث وتسعين ، واستخلف على إفريقية أسَنَّ ولده عبدَالله بنَ موسى ، وكان موسى فى عشرة آلاف ، قال : وكان عبدُ الملك بن مروان هو الذى أغزى موسى المغرب فى خلافته ، فَفُتِح له فى أهله البرابرة فتوح كبار ، حتى لقد بعث إلى عبد الملك فى الخمس بعشرين ألف (٣) سَبِيَّةٍ ، ثم أردفها بعشرين ألفاً أخرى ، كل ذلك من البربر ، فعجب عبد الملك يومئذ من كثرة ذلك .

من دخل الأندلس من الصحابة ومن التابعين

وزعم ابن حبيب : أنه دخل الأندلس رجل واحد من أصاغر الصحابة ، وهو المنيذر ، قال : ودخلها من التابعين ثلاثة : موسى الأمير ، وعلى بن رَباح اللخمى ، وَحَيْوَة بن رجاء التميمى ، وقيل : إن ثالثهم إنما هو حَنَشُ بن عبد الله الصنعانى صنعاء الشام ، و إنهم قفلوا عنها بقفول موسى ، وأهلُ سَرَقُسْطة يزعمون أن حنشاً

(١) مخترقه : أى المكان الذى يخترقه ، أى يسلكه ويجتاز البلاد منه

(٢) المهيع : الواضح البين ، وهو أيضا الواسع المنبسط

(٣) السبية : فعيلة بمعنى مفعولة من السبى ، وأراد النساء التى غلبوا عليها

مات عندهم ولم يَقْفُلْ للمشرق، وقبره لديهم مشهور يتبركون به ولا يختلفون فيه[١]، فالله أعلم .

وقيل : إن التابعين أربعة بأبي عبد الرحمن الحُبُلِيِّ[٢] الأنصارى ، واسمه عبد الله ابن يزيد ، والله أعلم ، وخَمَّسهم بعضهم بحِبَّان بن أبي جَبَلة[٣] مولى بنى عبد الدار وكان فى ديوان مصر ، فبعث به عمر بن عبد العزيز إلى إفريقية فى جماعة من الفقهاء ليفقِّهوا أهلها ، وكان روى عن عمرو بن العاص وابن عباس وابن عمر ، وحدث عنه عبد الرحمن بن زياد بن أنعم وغيره ، وغزا مع موسى حين افتتح الأندلس ، وانتهى معه إلى حصن من حصون العدو يقال له قَرْقَشُونة ، وقيل : بل قَفَلَ إلى إفريقية فتوفى بها بعد العشرين ومائة .

وقال بعضهم : إن بين قَرْقَشُونة هذه و بين بَرْشَلونة مسافة خمسة وعشرين يوما ، وفيها الكنيسة المعظمة عند الفرنج المسماة شنت مرية ، وقد حكى ابن حيان أن فيها سبع سَوَارٍ من فضة خالصة لم يَرَ الراءون مثلها لا يحيط الإنسان بذِرَاعيه على واحدة منها مع طول مُفْرِط .

حنش الصنعانى

وحنش الصنعانى المذكور تابعى جليل ، كان مع على رضى الله عنه بالكوفة ، وقدم مصر بعد قَتْله ، فصار عدادُه فى المصريين ، وكان فيمن قام مع ابن الزبير على عبد الملك بن مروان فعفا عنه ، وكفى الأندلس شرفا دخولُه لها .

على بن رباح البصرى

وعلى بن رَبَاح بصرى تابعى ، يكنى أبا عبد الله ، وهو لخمى ، ولد عام اليَرْمُوك سنة خمس عشرة ، قال ابن مَعِين : أهل مصر يقولونه بفتح العين ، وأهل العراق يقولونه بضمها ، وروى الليثُ عن ابنه موسى بن على ، وكانت لعلىّ بن رَبَاح عند

---

(١) قال فى الروض : « ودخلها من التابعين حنش بن عبد الله الصنعانى ، وهو الذى أسس جامع سرقسطة ، وكان مع على رضى الله عنه بالكوفة ، فلما قتل على انتقل إلى مصر ، وقبره بسرقسطة معروف »

(٢) وقع فى الأصول « الجيلى » محرفا ، قال الخزرجى « عبد الله بن يزيد المعافرى ، الحبلى ـ بضم المهملة ـ والموحدة ، أبو عبد الرحمن ، المصرى ، عن أبى ذر وأبى أيوب وأبي سعيد ، وعنه حميد بن هانىء وزهرة بن معبد ، وعقبة بن مسلم وثقه ابن معين ، توفى بافريقية سنة مائة »

(٣) انظر ص ٢٦٩ الآتية

عبد العزيز بن مَرْوَان مكانة ، وهو الذى زف ابنته أم البنين لزوجها الوليد ، ثم عتب عليه عبد العزيز فأغزاه إفريقية .

المنيذر الصحابى

وأما المنيذر الصحابى فلم ينسبه ابن حبيب ، وذكره ابن عبد البر فى الصحابة وقال : إنه المنيذر الإفريقى ، وروى عنه أبو عبد الرحمن الُحُبلى ، قال : حدثنا المنيذر الإفريقى ، وكان سكن إفريقية ، وكان صحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أنه سمعه صلى الله عليه وسلم يقول : « من قال : رضيت بالله ربًّا ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبيا ، فأنا الزعيم له ، فلآخُذَنَّ بيده ، فلأُدخِلَنَّهُ الجنة » ورواه عنه ابن عبد البر بسنده إليه ، وسيأتى إن شاء الله تعالى فى حق المنيذر مزيدُ بيانٍ .

عود إلى عودة موسى إلى الشام

ولما قَفَلَ موسى بن نُصَير إلى المشرق وأصحابه سأل مغيثاً أن يسلم إليه العِلْجَ صاحبَ قُرْطُبة الذى كان فى إساره ، فامتنع عليه ، وقال : لا يؤديه للخليفة سواى ، وكان يُدِلُّ بولائه من الوليد ، فهجم عليه موسى فانتزعه منه ، فقيل له : إن سرت به حيا معك ادعاه مغيث ، والعلج لا ينكر قوله ، ولكن اضرب عنقه ، ففعل ، فاضطغنها عليه مغيث ، وصار ألْباً[1] مع طارق الساعى عليه ، واستخلف موسى على طَنْجَة وما يليها من المغرب ابنه الآخَرَ عبدَ الملك ، وقد كان — كما مر — استخلف بإفريقية أكبرَ أولاده عبدالله ، فصار جميعُ الأندلس والمغرب بيد أولاده ، وابنُه عبد الله الذى خلفه بإفريقية هو الفاتح لجزيرة مَيُورقة ، وسار موسى فورد الشام ، واختلف الناس : هل كان وروده قبل موت الوليد أو بعده ؟ فمن يقول بالثانى قال : قدم على سليمان حين استُخْلِف ، وكان منحرفا عليه ، فسبق إليه طارق ومغيث بالشكية منه ، ورَمَيَاه بالخيانة ، وأخبراه بما صنع بهما من خبر المائدة والعِلج صاحب قرطبة ، وقالا له : إنه قد غَلَّ جوهراً عظيم القدر أصابه ولم تحو الملوك من بعدِ فتح فارس مثلَه ، فلما وافى سليمان وجده ضغيناً عليه ، فأغلظ له ، واستقبله بالتأنيب والتوبيخ ، فاعتذر له ببعض العذر ، وسأله عن المائدة ، فأحضَرَها ،

---

(١) ألباعليه : أى أنه قد اجتمع مع طارق على بغضه وكراهيته والتألب عليه ، قال الشاعر :

الناس ألب علينا فيك ليس لنا — إلا السيوف وأطراف القنا — وزر

فقال له : زعم طارق أنه الذى أصابها دونك ، قال : لا ، وما رآها قط إلا عندى ، فقال طارق : فليسأله أمير المؤمنين عن الرِّجْل التى تنقصها ، فسأله ، فقال : هكذا أصبتها ، وعوضتها رِجْلاً صنعتها لها ، فحول طارق يده إلى قبائه فأخرج الرِّجْل ، فعلم سليمان صدقه وكَذِبَ موسى ، فحقق جميعَ مارمى به عنده ، وعزله عن جميع أعماله ، وأقصاه ، وحبسه ، وأمر بتقصِّى حسابه[1] ، فأغرمه غرماعظيما كشفه فيه ، حتى اضطر إلى أن سأل العربَ مَعُونَتَه ، فيقال : إن لخماً حملت عنه فى أعطيتها تسعين ألفاً ذهباً ، وقيل : حمله سليمان غرم مائتى ألف ، فأدى مائة ألف ، وعجز ، فاستجار بيزيد بن المهلب أسيرِ سليمانَ ، فاستوهبه من سليمان ، فوهبه إياه ، إلا أنه عزل ابنه عبد الله عن إفريقية .

وقال الرازى : إن الذى أزعج موسى عن الأندلس أبو نصر رسول الوليد فقبض على عنانه وثناه قافلا ، وقفل معه من أحبَّ المشرق ، وكان أكثر الناس قَطَنوا ببلاد الأندلس لطيبها ، فأقاموا فيها .

سليمان بن عبد الملك ينكل بموسى ابن نصير

وذهب جماعة من أهل التاريخ إلى أن موسى إنما قدم على الوليد ، وأن سليمان ولى العهد لما سمع بقرب موسى بن نُصَير من دِمَشْق ـ وكان الوليد مريضاً ـ كتب ـ أى سليمانُ ـ إلى موسى يأمره بالتربص[2] ، رجاء أن يموت الوليد قبلَ قدوم موسى فيقدم موسى على سليمان فى أول خلافته بتلك الغنائم الكثيرة التى ما رُئى ولا سُمِع مثلها ، فيعظم بذلك مقام سليمان عند الناس ، فأبى موسى من ذلك ، ومنعه دِينُه منه ، وجَدَّ فى السير[3] حتى قدم والوليدُ حى ، فسلم له الأخماس والمغانم والتحف والذخائر ، فلم يمكث الوليد إلا يسيراً بعد قدوم موسى ، وتوفى ، واستخلف سليمان ، فحقَدَ عليه ، وأهانه ، وأمر بإقامته فى الشمس حتى كاد يهلك ، وأغرمه أموالا عظيمة ، ودسّ إلى أهل الأندلس بقَتْل ابنه الذى استخلفه على الأندلس ،

---

(١) تقصى حسابه : أى تتبعه وشدة البحث عنه لتعرف حقيقته

(٢) التربص : الانتظار (٣) جد فى السير : أسرع

مقتل عبد العزيز بن موسى

وهو عبد العزيز بن موسى ، وكان تولى الأندلس بعد قفول أبيه عنها باستخلافه إياه كما سبق ، فضبط سلطانها ، وضم نشَرَها[١] ، وسدَّ ثغورها ، وافتتح فى ولايته مدائن كثيرة مما كان قد بقى على أبيه موسى منها ، وكان من خير الولاة ، إلا أن مدته لم تطل لوثوب الجند به وقتلهم إياه عقب سنة خمس وتسعين فى خلافة سليمان المُوقِع بأبيه موسى لأشياء نَقَمُوها عليه : منها زعموا تزوُّجه لزوجة لذريق المكناة أم عاصم وكانت قد صالحت على نفسها وأموالها وقت الفتح ، وباءت بالجزية[٢] ، وأقامت على دينها فى ظل نعمتها إلى أن نكحها الأمير عبد العزيز ، فحظِيَتْ عنده ، ويقال : إنه سكن بها فى كنيسة بإشبيلية ، وإنها قالت له : لم لا يسجد لك أهل مملكتك كما كان يسجد للذريق ـ زوجِها الأولِ ـ أهلُ مملكته ؟ فقال لها : إن هذا حرام فى ديننا ، فلم تقنع منه بذلك ، وفهم لكثرة شغفه بها أن عدم ذلك مما يُزْرى[٣] بقدره عندها ، فاتخذ باباً صغيراً قُبالَة مجلسه يدخل عليه الناس منه ، فينحنون ، وأفهمها أن ذلك الفعلَ منهم تحية له ، فرضيت بذلك ، فنُمِى الخبر إلى الجند ، مع ما انضم إلى ذلك من دسيسة سليمان لهم فى قتله ، فقتلوه ، سامحه الله تعالى !.

وذكر بعض المؤرخين أنهم وَجَدُوا فى الحجر بعد ما تقدّم من الكتابة التى هى « ارجعوا يا بنى إسماعيل إلخ » ما معناه : وإن سألتم لم ترجعون فاعلموا أنكم ترجعون ليضرب بعضكم رقاب بعض ، انتهى .

قال ابن حيان : وليحيى بن حَكَمَ الشاعر المعروف بالغزَال فى فتح الأندلس ، أرجوزة حسنة مطولة ذكر فيها السبب فى غزوها نظماً ، وتفصيل الوقائع بين المسلمين وأهلها ، وعداد الأمراء عليها وأسماءهم ، فأجاد وتقصَّى ، وهى بأيدى الناس موجودة انتهى .

وقد عرفت بما سبق تفصيل ما أجمله ابنُ خلدون ، والرواياتُ فى فتح الأندلس

(١) نشرها : أراد ما تفرق من أمرها واضطرب

(٢) باءت بالجزية : اعترفت بها وخضعت لأدائها

(٣) يزرى بقدره : يضعه ويحط منه ويعيبه

مختلفة ، وقد ذكرنا نحن بحسب ما اقتضاه الوقت ما فيه كفاية ، وأشرنا إلى بعض الاختلاف فى ذلك ، ولو بسطنا العبارة فى الفتح لكان وحده فى مجلد أو أكثر .

وعُلم مما ألمعْنا به من كلام ابن خلدون السابق ذكر الولاة للأندلس من لَدُن الفتح ، وهم من قبل بنى مروان بالمشرق المنفردين بإمامة المسلمين أجمعين قبل تفرقهم، إلى أن انقرضت دولتهم العظيمة التى هى ألف شهر ، فاقتطعَ الأندلسَ عن بنى العباس الدائلين[1] على بنى مروان الناسخين لهم فَلُّ المروانيين[2] عبدُ الرحمن بن معاوية بن هشام ابن عبد الملك بن مروان ، واقتعدها دار مملكه مستقلة لنفسه ولأعقابه[3] ، وجمع بها شملَ بنى أمية ومواليهم ، وأورثها بنيه حِقْبَةً من[4] الدهر ، بعد أن قاسى فى ذلك خُطوبا ، واجتمع عليه ثم على ذريته من بعده أهل الأندلس أجمعون رضاً بهم دون بنى العباس ، بعد أن حاول بنو العباس ملكها بأن وَلَّوْا بعضَ رؤساء العرب، وأمروهم بالقيام على عبد الرحمن والدعاء للعباسيين القاطعين جُرْثومة[5] دولة بنى مروان، فلم يتيسر ذلك ، وظفر عبد الرحمن بمن نصب له الحرب فى ذلك ، وقتل منهم آلافا ، وذلك فى مدة المنصور كما سيأتى إن شاء الله تعالى عند ذكر عبد الرحمن الداخل فى موضع آخر ، وسنذكر قريباً ولاة الأندلس من حين الفتح إلى إمارة الداخل ، و إن سبق فى كلام ابن خلدون .

وقال بعضهم : كانت ولادة موسى بن نُصَير فى خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه سنة تسع عشرةَ من الهجرة النبوية ، على صاحبها أفضل الصلاة وأجل السلام ، وعلى آله وصحبه أجمعين! انتهى.

عود إلى قصة التنكيل بموسى

وقال الحجارى فى « المسهب » : يحكى أن موسى بن نصير ألقى بنفسه على يزيد بن المهلب لمكانه من أمير المؤمنين سليمان بن عبد الملك ، وطلب منه أن يكلمه فى أن يخفف عنه ؛ فقال له يزيد : أريد أن أسألك فأصغِ إلىّ ؛ قال : سل عما

---

(١) الدائلين عليهم : الذين كانت لهم الدولة والغلبة عليهم

(٢) أصل الفل : الجماعة المنهزمة (٣) الأعقاب : الذرية ، واحدهم عقب ، بزنة كتف

(٤) حقبة من الدهر : مدة منه (٥) جرثومة الشيء ـ بضم فسكون ـ أصله

بذَالك ، فقال له : لم أزل أسمع عنك أنك من أعقل الناس ، وأعرفهم بمكايد الحروب ومُدَاراة الدنيا ، فقل لى : كيف حصلت فى يد هذا الرجل بعدما ملكت الأندلس ، وألقيت بينك و بين هؤلاء القوم البحر الزخار[١] ، وتيقنت بُعْدَ المرام واستصعابه ، واستخلصت بلاداً أنت اخترَعْتَها ، واستملكت رجالا لا يعرفون غير خيرك وشرك ، وحصل فى يدك من الذخائر والأموال والمَعَاقل والرجال مالو أظهرت به الامتناع ما ألقيت عنقك فى يد من لا يرحمك ، ثم إنك علمت أن سليمان ولىّ عهد ، وأنه المولّى بعد أخيه ، وقد أشرف على الهلاك لامحالة[٢] ، و بعد ذلك خالفته ، وألقيت بيدك إلى التهلكة ، وأحقدت مالكك ومملوكك ، قال : يعنى سليمان وطارقا ، وما رضا هذا الرجل عنك إلا بعيد ، ولكن لا آلو جهداً[٣] ، فقال موسى : يا ابن الكرام ، ليس هذا وقت تعديد ، أما سمعت «إذا جاء الحَيْن[٤] ، غطى على العين» فقال : ماقصدت بما قلت لك تعديداً ولا تبكيتاً ، و إنما قصدت تلقيح العقل ، وتنبيه الرأى ، وأن أرى ماعندك ؛ فقال موسى : أما رأيت الهدهد يرى الماء تحت الأرض عن بُعْد ، و يقع فى الفخ وهو بمرأى عينه ، ثم كلم فيه سليمان ، فكان من جوابه «إنه قد اشتمل رأسه بما تمكن له من الظهور ، وانقياد الجمهور ، والتحكم فى الأموال والأبشار ، على مالا يمحوه إلا السيف ، ولكن قد وهبت لك دمه ، وأنا بعد ذلك غير رافع عنه العذاب حتى يرد ماغَلَّ[٥] من مال الله » قال : وآلت حاله إلى أن كان يُطَاف به ليسأل من أحياء العرب مايفتكّ به نفسَه ، وفى تلك الحال مات ، وهو من أفقر الناس وأذلهم ، بوادى القُرَى سائلا من كان نازلا به.

وقال أحد غلمانه ممن وفى له فى حال الفقر والخمول : لقد رأيتُنَا نطوف مع الأمير موسى بن نصير على أحياء العرب ، فواحد يحيينا ، وآخر يحتجب عنا ،

---

(١) البحر الزخار : الطامى الممتلىء الجياش بالأمواج

(٢) أشرف على الهلاك : أراد أنه قارب الموت لسوء حاله

(٣) لا آلو جهدا : لا أقصر فيما لدي من الجهد والوسع أن أبذله فى إرضائه عنك

(٤) الحين ـ بفتح فسكون ـ الهلاك والموت (٥) غل : اختان وأخفى

ولربما دفع إلينا على جهة الرحمة الدرهمَ والدرهمين ، فيفرح بذلك الأمير ليدفعه إلى الموكلين به ، فيخففون عنه من العذاب ، ولقد رأيتنا أيام الفتوح العظام بالأندلس نأخذ السلوبَ من قصور النصارى ، فنفصل منها ما يكون من الذهب وغير ذلك ونرمى به ، ولا نأخذ إلا الدرّ الفاخر ، فسبحان الذى بيده العز والذل والغنى والفقر .

قال: وكان له مولى قد وفى له وصبر عليه إلى أن ضاق ذَرْعُه[1] بامتداد الحال ، فعزم على أن يُسْلمه[2] وهو بوادى القُرَى فى أسوأ حال ، وَشَعَر بذلك موسى ، فخضع للمولى المذكور ، وقال له : يافلان ، أتسلمنى فى هذه الحالة ؟ فقال له المولى ، من شدة ما كان فيه من الضجر : قد أسلمك خالقك ومالكك الذى هو أرحم الراحمين ، فدمَعَتْ عيناه ، وجعل يرفعهما إلى السماء خاضعاً مهينماً[3] بشفتيه ، فما سفرت تلك الليلة إلا عن قبض روحه ، رحمة الله عليه ! فقد كان له من الأثر مايوجب أن يترحم عليه ، وَإنَّ فِعْلَ سليمان به و بولده وكونه طرح رأس ابنه عبد العزيز الذى تركه نائباً عنه بالأندلس وقد جيء به من أقصى المغرب بين يديه من وَصَماته[4] التى تعدّ عليه طول الدهر ، لاجرم أن الله تعالى لم يمتعه بعده بملكه وشبابه .

شيء من صفات موسى ابن نصير

وذكر ابن حيان أن موسى كان عربيا فصيحاً ، وقد سبق من مُراجعة يزيد ابن المهلب مايدل على بلاغته ، ويكفى منها ماذكره ابن حيان أنه كتب إلى الوليد ابن عبد الملك فيما هاله من فتوح الأندلس وغنائمها « إنها ليست الفتوح ، ولكنها الحشر » .

وقال الحجارى : إن منازعةً جرت بينه و بين عبد الله بن يزيد بن أسيد بمَحْضر عبد الملك بن مروان ألجأته إلى أن قال شعراً منه :

جاريت غيرَ سَؤُمٍ فى مُطَاوَلة لونازع الحقلَ لم ينزع إلى حَصَرِ

(١) ضاق ذرعه : كناية عن أنه لم يقدر على الاصطبار على ما بلغوه من سوء الحال.

(٢) يسلمه : يخذله ويكف عن معونته

(٣) مهينما : متكلما بصوت خفى لايسمع إلا نفسه

(٤) « من وصماته » خبر إن فى قوله « وإن فعل سليمان » والوصمات : العيوب واحدها وصمة ، بفتح الواو وسكون الصاد فى المفرد

وتقدم ماذكره غير واحد كابن حيان أن موسى مولى عبد العزيز بن مروان ، وكذا ذكره الحجارى ، تجهز مع أم البنين بنت عبد العزيز حين ابتنى بها الوليد ابن عبد الملك ، فكانت تُنْمِي مكانته[1] عند الوليد إلى أن بلغ ما بلغ ، وأشهر من كان فى صحبة موسى بن نُصَير من مواليه طارق المشهور بالفتوح العظيمة ، وطريف ، وقد جرى ذكرهما فى كتابنا هذا بما اقتضاه الاختصار .

وقال ابن سعيد ، بعد ذكره الخلاف فى أن موسى هل هو لخمى صريح أو بالولاء ، أو بربرى ، أو مولى لعبد العزيز بن مروان ، ما صورته : وكان فى عَقِبه نَبَاهة فى السلطنة ، ولى ابنه عبد العزيز سلطنة الأندلس ، وعبد الملك سلطنة المغرب الأقصى ، وعبد الله سلطنة إفريقية ، وذكر الحجارى أن أصله من وادى القرى بالحجاز ، وأنه خدم بنى مروان بدمشق ، وتنبه شأنه ، فصرّفوه فى ممالكهم إلى أن ولى إفريقية وما وراءها من المغرب فى زمن الوليد بن عبد الملك ، فدَوَّخَ أقاصى المغرب[2] ، ودخل الأندلس من جبل موسى المنسوب إليه المجاور لِسَبْتَة ، ودوّخ بلاد الأندلس ، ثم أوفده الوليد إلى الشام ، فوافق مرضه ، ثم موته وخلافة أخيه سليمان فعذبه واستصفى أمواله[3] ، وآل أمره إلى أن وجّه إلى قومه بوادى القرى لعلهم يعطفون عليه ويؤدون عنه ، فمات بها ، وقد نص ابن بَشْكُوَال على أنه مات بوادى القُرَى .

أما معارفه السلطانية فيكفيه ولاية ما خَلْفَ مصر إلى البحر المحيط بين برى البربر والأندلس .

وأما الأدبية فقد جاءت عنه بلاغة فى النثر والنظم تُدْخله ـ مع نَزَارتها[4] ـ فى أصحاب در الكلام ، وذكر ابن بَشْكُوال أنه من التابعين الذين رووا الحديث ،

(١) تنمى مكانته : تزيدها وترفع من قدره

(٢) دوخ : قهر واستذل ، وأقاصى المغرب : أبعد مكان فيها ، والواحد أقصى

(٣) استصفى أمواله : صادرها وأخذها كلها (٤) نزارتها : قلتها

وأن روايته عن تميم الداريّ، وذكرُه في كتب الأئمة من المصنفين أنبهُ[1] وأوعب من أن يخصص بذكره واحد منهم ، وهو غرة التواريخ الأندلسية ، وذكره إلى الآن جديد في ألسن الخاصة والعامة من أهلها .

ومن مُسْهِب الحجاري : كان قد جمع ـ رحمه الله ! ـ من خــلال الخير ما أعانه الله سبحانه به على مابني له من المجد المشيَّدِ ، والذكر الشهير المخلد ، الذي لايُبْليه الليـلُ والنهار ، ولا يُعفِّي جديدَه بلى الأعصار ، إلا أنه كان يغلب عليه مالا يكاد رئيسٌ يسلم منـه ، وهو الحقد والحسد ، والمنافسة لاتخلو من ذلك ، وأنشد بعض الرؤساء :

* وليس رئيسُ القوم مَنْ يحمِلُ الحقدا *

فقلبه الرئيس وقال « من يترك الحقد » ثم قال : إن السيد إذا ترك إضمار الخير والشر والمجازاة عليهما اجْتُرِئ عليـه ، ونسب للضعف والغفلة ، وهل رأيت صَفْقَة أخسر من غفلة رئيس أحقده غيره فنسى ذلك أو تناساه ، وعـدوه لايغفل عنـــه ، وحاسده لاينفعه عنده إلا الراحة منه ، وهو في واد آخر عنـه ، ولله درُّ القائل[2] :

وَوَضْعُ النَّدَى في مَوْضع السيف بالعُلا مضِرٌ ، كوَضْعِ السيف في موضع الندى

ولـكن الأصوب أن يكون الرأى ميزاناً : لايزن الوافي لناقصٍ ، ولا يزن الناقص لوافٍ ، ويدبر أمره على مايقتضيه الزمان ، ويقدر فيه حسن العاقبة .

ونص ابن بَشْـكُوال على أن موسى بن نُصَير مات بوادي القُرَى سنة سبع وتسعين ، وغزا الأندلس سنة إحـــدى وتسعين ، ودخلها سنة ثلاث وتسعين ، وقَفَل عنها إلى الوليد بن عبد الملك بالغنائم سنة أربع وتسعين ، وذكر أن ولايته

---

(١) نبه ذكر فلان : ارتفع وذاع عند الناس ، وأنبه : أفعـل تفضيل من ذلك

(٢) القائل هو أبو الطيب المتنبي ، وقبل هذا البيت قـوله :

إذا أنت أكرمت الـكريم ملـكته وإن أنت أكرمت اللئيم تمـردا

على الأندلس بالمباشرة – مذ دخلها إلى حين خروجه – منها سنة واحدة ، ومكث فيها مولاه طارق سنة ، انتهى .

وقد تقدم شيء من ذلك .

وذكر ابن بَشْكُوَال أيضاً أن ابن حبيب قال عن ربيعة : غلَّ الناسُ كلُّهم يوم فتح الأندلس ، إلا أربعة نفر فقط كانوا من التابعين : حنش الصنعانى ، وأبو عبد الرحمن الحُبُلِىُّ ، وابن شِمَاسة ، وعياض بن عقبة ، انتهى .

ذكر جماعة من التابعين قد دخلوا الأندلس

قال ابن سعيد : وممن دخل الأندلس من غير هؤلاء الأربعة من التابعين على بن رَبَاح اللخمى ، وموسى بن نُصَير فاتح الأندلس ، وحِبَّان بن أبى جبلة القرشى مولاهم ، وعبد الرحمن بن عبد الله الغافقى صاحب الأندلس المذكور فى سلاطينها ، ومحمد بن أوس بن ثابت الأنصارى ، وزيد بن قاصد السكسكى ، والمغيرة بن أبى بردة الكنانى ، وعبدالله بن المغيرة الكنانى ، وَحَيْوة بن رجاء التميمى ، وعبدالجبار ابن أبى سلمة بن عبد الرحمن بن عَوْف ، ومنصور بن خزامة ، وعلى بن عثمان بن خطاب .

وذكر ابن حبيب أن عدة من دخل الأندلس من التابعين سوى من لا يعرف نحو عشرين رجلا ، وفى كتاب ابن بَشْكُوَال أنه دخل الأندلس من التابعين ثمانية وعشرون رجلا ، وهم أسَّسُوا قبلة المسجد الجامع بقُرْطُبة ، وسمى الحجارى فى المُسْهِب هؤلاء المتقدمين .

وذكر ابن سعيد أنه لم يتحقق المواضع التى تختص بهؤلاء التابعين من بلاد الأندلس ، مع جزمه بأنهم دخلوا الأندلس وسكنوا بها ، وسيأتى ذكر التابعين الداخلين الأندلس بما هو أشمل من هذا ، وقد تقدم غُلولُ من عَدَا التابعين من الغنائم .

---

(١) وقع فى أصول الكتاب «جيان بن أبى جبلة» والصواب أنه كما أثبتناه بالحاء المهملة مكسورة بعدها باء موحدة مشددة ، قال الخزرجى « حبان بن أبى جبلة ، القرشى ، مولاهم ، المصرى ، عن عمرو بن العاص وابنه عبدالله بن عمرو ، وعنه عبيدالله ابن زحر وموسى بن على ، توفى بافريقية سنة اثنتين وعشرين ومائة » اه ، وانظر ص ٢٦٠ السابقة

غنائم الأندلس

وقال الليث بن سَعْد ، بعد ذكره أن طارقا أصاب بالأندلس مغانم كثيرة من الذهب والفضة : إن كانت الطِّنْفِسَة[١] لَتُوجد منسوجة بقضبان الذهب ، وتنظم السلسلة من الذهب باللؤلؤ والياقوت والزبرجد ، وكان البربر ربما وجدوها فلا يستطيعون حملها حتى يأتوا بالفأس فيضربون به وسطها فيأخذ أحدهم نصفها والآخر النصف الآخر لنفسه ، ويسير معهم جماعة والناسُ مشتغلون بغير ذلك .

وعن يحيى بن سعيد : لما افتتحت الأندلس أصاب الناسُ فيها غنائم ، فغلوا منها غلولا كثيراً حملوه فى المراكب وركبوا البحر ، فسمعوا منادياً يقول : اللهم غرق بهم ، وتقلدوا المصاحف ، فما نشبوا[٢] أن أصابتهم ريح عاصف ، وضربت المراكب بعضها بعضاً حتى تكسرت ، وغرق بهم ، وأهل مصر ينكرون ذلك ، ويقولون : أهل الأندلس ليس هم الذين غرقوا ، وإنما هم أهل سردانية[٣] ، فالله أعلم بحقيقة الحال .

ورأيت فى بعض كتب التاريخ أنه وُجد فى طُلَيْطلة حين فتحت من الذخائر والأموال مالا يحصى ، فمن ذلك مائة وسبعون تاجا من الذهب الأحمر مرصعة بالدر وأصناف الحجارة الثمينة ، ووجد فيها ألف سيف ملوكى ، ووجد فيها من الدر والياقوت أكيال ، ومن أوانى الذهب والفضة مالا يحيط به وصف ، ومائدة سليمان ، وكانت ــ فيما يذكر ــ من زمردة خضراء ، وزعم بعض العجم أنها لم تكن لسليمان ، وإنما أصلها أن العجم أيام ملكهم كان أهلُ الحسنة فى دينهم إذا مات أحد منهم أوصى بمال للكنائس ، فإذا اجتمع عندهم مال له قَدْرٌ صاغوا منه الآلة من الموائد العجيبة ، والكراسىّ من الذهب والفضة ، تحمل الشمامسةُ والقسوسُ فوقها الأناجيل فى أيام المناسك ، ويضعونها فى الأعياد للمباهاة ، فكانت تلك المائدة بطُلَيْطلة مما صُنع فى هذا السبيل ، وتأنق الملوك فى تحسينها ، يزيد الآخر

رأي فى مائدة سليمان

---

(١) الطنفسة ــ بكسر الطاء والفاء بينهما نون ساكنة ــ البساط

(٢) مانشبوا : لم ينتظروا ولم يتلبثوا

(٣) سردانية : جزيرة من جزائر البحر قبالة المغرب ، دخلها المسلمون عام اثنين وتسعين

منهم فيها على الأول ، حتى برزت على جميع ما اتُّخذ من تلك الآلات ، وطار الذكر بها كلَّ مَطَار ، وكانت مَصُوغة من الذهب الخالص مُرَصَّعَة بفاخر الدر والياقوت والزبرجد ، وقيل : إنها من زبرجدة خضراء حافاتُهَا وأرجلُها منها ، وكان لها ثلثمائة وخمس وستون رجلا ، وكانت توضع فى كنيسة طُلَيْطلة ، فأصابها طارق ، انتهى.

وقد ذكرنا فيما مرّ عن ابن حيان مافيه نظير هذا ، وذكرنا فيما مضى من أمر المائدة وغيرها مافيه بعض تخالف ، وما ذلك إلا لأنا ننقل كلام المؤرخين ، وإن خالف بعضهم بعضاً ، ومرادنا تكثير الفائدة ، وبالجملة فالمائدة جليلة المقدار ، وإن حصل الخلاف فى صفتها وجنسها وعدد أرجلها ، وهى من أجل ماغنم بالأندلس ، على كثرة ما حصل فيها من الغنائم المتنوعة الأجناس التى ذكْرُها إلى الآن شائع بين الناس .

بيان العرب الذين نزحوا إلى الأندلس وقبائلهم ومواطنهم

فاعلم أنه لما استقر قدم أهل الإسلام بالأندلس وتتامَّ فتحها صرف أهلُ الشام وغيرهم من العرب هممهم إلى الحلول بها ، فنزل بها من جراثيم [1] العرب وساداتهم جماعة أورثوها أعقابَهُم إلى أن كان من أمرهم ما كان ، فأما العدنانيون فمنهم خِنْدِف [2] ومنهم قريش ، وأما بنو هاشم من قريش فقال ابن غالب فى فرحة الأنفس : بالأندلس منهم جماعة كلهم من ولد إدريس بن عبد الله بن الحسن ابن الحسين بن على بن أبى طالب ، ومن هؤلاء بنو حَمُّود ملوك الأندلس بعد انتثار سلك بنى أمية ، وأما بنو أمية فمنهم خلفاء الأندلس ، قال ابن سعيد : ويُعْرفون هنالك إلى الآن بالقرشيين ، وإنما عَمَّوْا نسبهم [3] إلى أمية فى الآخر لما انحرف الناس عنهم ، وذكروا أفعالهم فى الحسين رضى الله عنه ، وأما بنو زُهْرة فمنهم بإشبيلية أعيان متميزون ، وأما المخزوميون فمنهم أبو بكر المخزومى الأعمى

---

(١) الجراثيم : جمع جرثومة ، وهى الأصل

(٢) خندف ـ بكسر الخاء والدال بينهما نون ساكنة ـ هو لقب امرأة الياس بن مضر ، واسمها ليلى بنت حلوان بن إلحاف بن قضاعة ، لقبت بذلك لأنها قالت لزوجها وأولادها « ما زلت أخندف فى أثركم » فى قصة ، تريد مازلت أسير

(٣) عموا نسبهم : أرادوا أخفوه وستروه بأن ارتفعوا إلى جد أعلى من أمية وهو قريش

الشاعر المشهور من أهل حصن المدوَّر ، ومنهم الوزير الفاضل فى النظم والنثر أبو بكر بن زَيْدون ووالده الذى هو أعظم منه أبو الوليد بن زيدون وزير معتضد بنى عباد .

وقال ابن غالب : وفى الأندلس مَن يُنسب إلى جُمَح ، وإلى بنى عبد الدار، وكثير من قريش المعروفون بالفِهْريين من بنى مُحَارب بن فِهْر ، وهم من قريش الظواهر ، ومنهم عبد الملك بن قَطَن سلطانُ الأندلس ، ومن ولده بنو القاسم الأمراء الفضلاء ، و بنو الجَدِّ الأعيان العلماء ، ومن بنى محارب بن فهر يوسف ابن عبد الرحمن الفهرى سلطان الأندلس الذى غلبه عليها عبدُ الرحمن الأموى الداخل ، وجدّ يوسف عقبة بن نافع الفهرى صاحب الفتوح بإفريقية ، قال ابن حزم : ولهم بالأندلس عَدَد وثروة ، وأما المنتسبون إلى عموم كنانة فكثير ، وجلّهم فى طُلَيْطلة وأعمالها ، ولهم ينسب الوَقَّشِيُّون(١) الكنانيون الأعيان الفضلاء الذين منهم القاضى أبو الوليد والوزير أبو جعفر ، ومنهم أبو الحسين بن جُبَير العالم صاحب الرحلة ، وقد ذكرناه فى محله ، وأما هُذَيل بن مدركة بن إلياس بن مُضر فذكر ابنُ غالب أن منزلهم بجهة أَرْيُولة من كورة تُدْمير، وأما تميم بن مر بن أدبن طابخة بن إلياس بن مضر فذكر ابنُ غالب أيضاً أنهم خلق كثير بالأندلس ،ومنهم أبو الطاهر صاحب المقامات اللزومية ، وأما ضبة بن أدبن طابخة فذكر أنهم قليلون بالأندلس ، فهؤلاء خندف من العدنانية .

وأما قيس عَيْلَان بن إلياس بن مضر من العدنانية ففى الأندلس كثير منهم ينتسبون إلى العموم ، ومنهم من ينتسب إلى سُلَيم بن منصور بن عِكرمة بن خَصَفة ابن قيس ، كعبد الملك بن حَبيب السُّلمى الفقيه صاحب الإمام مالك رضى الله عنه ،

(١) الوقشيون : نسبه إلى وقش — بفتح الواو وتشديد القاف مفتوحة ، وآخره شين معجمة — وهي مدينة من أعمال طليطلة ، قال ياقوت : « منها أبو الوليد هشام بن أحمد بن هشام ، الكنانى ، الحافظ ، المعروف بالوقشي ، الفقيه الجليل ، عالم الزمن ، إمام عالم فى كل فن » اهـ ، فهو كنانى النسب وقشى الوطن

وكالقاضى أبى حَفص بن عمر قاضى قُرْطُبَة ، ومن قيس مَنْ ينتسب إلى هَوَازن ابن منصور بن عِكْرمة ، قال ابن غالب : وهم بإشبيلية خلق كثير ، ومنهم من ينتسب إلى بكر بن هَوَازن ، قال ابن غالب : ولهم منزل بجَوْفى بلنسية على ثلاثة أميال منها ، و بإشبيلية وغيرها منهم خلق كثير ، ومنهم بنو حَزْم ، وهم بيت غير البيت الذى منه أبو محمد بن حزم الحافظ الظاهرى ، وهو فارسى الأصل ، ومنهم من ينتسب إلى سعد بن بكر بن هوازن ، وذكر ابن غالب أن منهم بغَرْناطة كثيراً ، كبنى جُودِىٍّ ، وقد رأس بعضُ بنى جودى ، ومنهم من ينتسب إلى سَلُول امرأةٍ نُسِب إليها بنوها ، وأبوهم مرة بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن ، ومنهم من ينتسب إلى كلاب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن ، ومنهم من ينتسب إلى نُمَير بن عامر بن صعصعة ، قال ابن غالب : وهم بغَرْناطة كثير ، ومنهم من ينتسب إلى قُشَير بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة ، ومنهم بلج ابن بشر صاحب الأندلس وآله ، و بنو رَشِيق ، ومنهم من ينتسب إلى فَزَارة ابن ذُبْيان بن بَغيض بن رَيْث بن غَطَفان بن سعد بن قيس عَيْلان ، ومنهم من ينتسب إلى أشْجَع بن رَيْث بن غطفان ، ومن هؤلاء محمد بن عبد الله الأشجعى سلطان الأندلس ، وفى ثقيف اختلاف : فمنهم من قال : إنها قيسية ، وإن ثقيفاً هو قَسِىُّ[1] بن منبه بن بكر بن هوازن ، ومنهم بالأندلس جماعة ، وإليهم ينتسب الُحرُّ بن عبد الرحمن الثقفى صاحب الأندلس ، وقيل : إنها من بقايا ثمود ، انتهى قيس بن عيلان وجميع مضر .

وأما ربيعة بن نزار فمنهم من ينتسب إلى أسد بن ربيعة بن نزار ، قال فى فرحة الأنفس : إن إقليم هؤلاء مشهور باسمهم بجَوْفى مدينة وادى آش ، انتهى ، والأشهر بالنسبة إلى أسد أبداً بنو أسد بن خُزَيمة بن مدركة بن إلياس

(١) وقع فى ا ، ب « وإن ثقيفا هو قيس بن منبه » وهو تحريف ، ولقب ثقيف قسيا لانه مر علي أبى رغال فقتله ، فقيل: لقد قسا قلب ثقيف قسيا ، وفيه يقول راجزهم:

* نحن قسى وقسا أبونا *

ابن مضر ، ومنهم من ينتسب إلى مُحَارب بن عمرو بن وديعة بن لُكَيز بن أَفْصَى ابن دُعمى بن جَدِيلة بن أسد بن ربيعة ، قال ابن غالب فى فرحة الأنفس : ومنهم بنو عطية أعيان غَرْناطة ، ومنهم من ينتسب إلى النَّمِر بن قاسط بن هِنب بن أَفْصَى بن دُعْمى بن جَديلة بن أسد ، كبنى عبد البر الذين منهم الحافظ أبو عُمر بن عبد البر ، ومنهم من ينتسب إلى تَغْلب بن وائل بن قاسط بن هِنْب ، كبنى حَمْديس أعيان قُرْطُبة ، ومنهم من ينتسب إلى بكر بن وائل ، كالبكريين أصحاب أونبة(١) وشَلْطيش الذين منهم أبو عُبَيد البَكْرى صاحب التصانيف انتهت ربيعة .

وأما إياد بن نِزَار ، وقد يقال : إنه ابن معد ، والصحيح الأول ، فينتسب إليهم بنو زُهْر المشهورون بإشبيلية وغيرهم ، انتهت العدنانية ، وهم الصريح من ولد إسماعيل عليه السلام .

واختلف فى القحطانية : هل هم من ولد إسماعيل أو من ولد هود ، على ما هو معروف ، وظاهر صنيع البخارى الأول ، والأكثر على خلافه ، والقحطانية هم المعروفون باليمانية ، وكثيراً ما يقع بينهم وبين المُضَرية وسائر العَدْنانية الحروب بالأندلس ، كما كان يقع بالمشرق ، وهم الأكثر بالأندلس ، والملكُ فيهم أرسخ ، إلا ما كان من خلفاء بنى أمية ، فإن القرشية قدّمتهم على الفرقتين ، واسم الخلافة لهم بالمشرق ، وكان عرب الأندلس يتميزون بالعمائر والقبائل والبطون والأفخاذ ، إلى أن قطع ذلك المنصور بن أبى عامر الداهية الذى ملك سلطنة الأندلس ، وقصد بذلك تشتيتهم وقَطْع التحامهم وتعصّبهم فى الاعتزاء ، وقدّم القوّاد على الأجناد ، فيكون فى جند القائد الواحد فِرَقٌ من كل قبيل ، فانحسمت مادة الفتن والاعتزاء بالأندلس ، إلاَّ ما جاءت على غير هذه الجهة .

---

(١) أونبة ــ بفتح الهمزة والنون والباء ، والواو ساكنة ــ من مدن جبل العيون بالأندلس ، وهى مدينة برية بحرية ، بينها وبين البحر ميل ، وبينها وبين لبلة ستة فراسخ ، قاله فى الروض ، وفى أصول الكتاب «أوتنة» ولا يوجد هذا الاسم بهذا الضبط فى أعلام الأماكن بالأندلس ، ويؤيد ما صرنا إليه ذكر شلطيش معها وهى جزيرة بالأندلس بقرب مدينة لبلة

قال ابن حزم : جماع أنساب اليمن من جَرْم بن كَهلان وحِمير بن يَشْجب ابن يَعْرب بن قَحْطان بن عابر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح ، وقيل : قحطانُ ابنُ الهَمَيْسَع بن تَيْمان بن نابت بن إسماعيل ، وقيل : قحطان ابنُ هود ابن عبد الله بن رَبَاح بن جارف بن عاد بن عَوْص بن إرم بن سام ، والخلاف فى ذلك مشهور ، فمنهم كهلان بن سبأ بن يَشْجُب بن يَعْرُب بن قحطان ، ومنهم الأزْدُ بن الغوْث بن نَبْت بن مالك بن زيد بن كهلان ، وإليهم ينتسب محمد ابن هانئ الشاعر المشهور الإلبيرى ، وهو من بنى المهلَّب ، ومن الأزد من ينتسب إلى غَسَّان ، وهم بنو مازن بن الأزد ، وغسان : ماء شَرِبُوا منه ، وذكر ابن غالب أن منهم بنى القُلَيْعى[1] من أعيان غَرْناطة ، وكثير منهم بصالحةَ قريةٍ على طريق مالَقَةَ ، ومن الأزد من ينتسب إلى الأنصار على العموم ، وهم الجم الغفير بالأندلس .

قال ابن سعيد : والعجب أنك تَعْدَم هذا النسب بالمدينة وتجد منه بالأندلس فى أكثر بلدانها ما يشذ عن العدد كثرة ، ولقد أخبرنى من سأل عن هذا النسب بالمدينة فلم يجد إلا شيخاً من الخزرج وعجوزاً من الأوس .

قال ابن غالب : وكان جزء الأنصار بناحية طُلَيْطلة ، وهم أكثر القبائل بالأندلس فى شرقها ومغربها ، انتهى .

ومن الخزرج بالأندلس أبو بكر عُبادة بن عبد الله بن ماء السماء من ولد سَعْد ابن عُبادة صاحبِ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو المشهور بالموشّحات ، وإلى قَيْس بن سعد بن عُبادة ينتسب بنو الأحمر سلاطينُ غَرْناطة الذين كان لسانُ الدين بن الخطيب أحدَ وزرائهم ، وعليهم انقرض ملك الأندلس من المسلمين ، واستولى العدوّ على الجزيرة جميعاً كما يذكر .

---

(١) فى ز « القسيعى » وهو تحريف ما أثبتناه عن ب . والقليعى : المنسوب إلى القليعة — بضم القاف ، بزنة المصغر — وهى قرية من قري المغرب حصينة ، واقعة فى سفح جبل ، وبها آبار ونخيل ، وبنو القليعي : جماعة كان لهم من نباهة الشأن وعلو الذكر فى العلم والمعرفة ما حمل أهل غرناطة علي تقديرهم والإذعان لفضلهم .

ومن أهل الأندلس من ينتسب إلى الأوس أخى الخزرج ، ومنهم من ينتسب إلى غافق بن عَكٍّ بن عُدْثان بن أزان بن الأزد ، وقد يقال : عك بن عدنان ـ بالنون ـ فيكون أخا معدّ بن عدنان، وليس بصحيح [1] ، قال ابن غالب: من غافق أبو عبد الله بن أبى الخِصَال الكاتبُ ، وأكثر جهات شَقُورة ينتسبون إلى غافق، ومن كهلان من ينتسب إلى هَمْدان ، وهو أوْسِلة بن مالك بن زيد بن أوسلة ابن الخيار بن مالك بن زيد بن كهلان ، ومنزل هَمْدان مشهور على ستة أميال من غَرْنَاطة ، ومنهم أصحاب غَرْنَاطة بنو أضحى ، ومن كهلان من ينتسب إلى مَذْحِج ، ومذحج : اسمُ أكَمَة حمراء باليمن ، وقيل : اسم أم مالك وطيء ابن أدد بن زيد بن كهلان ، قال ابن غالب: بنو سِرَاج الأعيان من أهل قُرْطُبة ينتسبون إلى مذحج ، ومنزل طيء بقبلى مُرْسِية ، ومنهم من ينتسب إلى مُرَاد ابن مالك بن أدد ، وحصنُ مراد بين إشبيلِيَة وقُرْطُبة مشهور ، قال ابن غالب : وأعرف بمراد منهم خلقاً كثيراً ، ومنهم من ينتسب إلى عَنْس بن مالك بن أدد ، ومنهم بنو سعيد مصنفو كتاب « المغرب » وقلعة بنى سعيد مشهورة فى مملكة غَرْناطة ، ومن مَذْحِج من ينتسب إلى زُبَيْد، قال ابن غالب : وهو مُنَبِّه بن سعد العَشِيرة بن مالك بن أدد ، ومن كهلان من ينتسب إلى مُرَّة بن أدد بن زيد بن كهلان ، قال ابن غالب : منهم بنو المنتصر العلماء من أهل غَرْنَاطة ، ومنهم من ينتسب إلى عامِلَة ، وهى امرأة من قُضَاعة ولدت للحارث بن عدى بن الحارث ابن مرة بن أدد ، فنسب ولدها منه إليها ، قال ابن غالب : منهم بنو سِمَاك القُضَاة من أهل غَرْنَاطة ، وقوم زعموا أن عاملة هو ابن سبأ ابن يَشْجُب بن يَعْرُب بن قحطان، وقيل : هم من قُضاعة ، ومن كَهْلان خَوْلَان بن عمرو بن الحارث بن مرة ، وقَلعة

---

(١) قوله « وليس بصحيح » حكم بترجيح أحد رأيين للعلماء من غير بيان وجه ذلك الترجيح ، فإن علماء الأنساب مختلفون فى عك أهو أخو معد بن عدنان فيكون من بنى إسماعيل ، أم هو من ولد قحطان ، وممن ذكر الأول صاحب الصحاح والليث وابن قتيبة وابن سلام ، ويؤيدون ذلك بقول العباس بن مرداس السلمى :

وعك بن عدنان الذين تلعبوا بغسان حتى طردوا كل مطرد

خولان مشهورة بين الجزيرة الخضراء وإشبيليَة ، ومنهم بنو عبد السلام أعيان غَرْنَاطة ، ومنهم من ينتسب إلى المَعَافر بن مالك بن الحارث بن مرة ، ومنهم المنصور بن أبي عامر صاحب الأندلس ، ومنهم من ينتسب إلى لَخْمِ بن عدى بن الحارث بن مرة ، منهم بنو عَبَّاد أصحاب إشبيلية وغيرها ، وهم من ولد النعمان ابن المنذر صاحب الحِيرة ، ومنهم بنو الباجى أعيان إشبيلية ، و بنو وافد الأعيان ، ومنهم من ينتسب إلى جُذام مثل ثَوَابة بن سَلَامة صاحب الأندلس ، و بنى هُودٍ ملوك شرقىِّ الأندلس ، ومنهم المتوكل بن هُود الذى صحت له سلطنة الأندلس بعد الموحِّدين ، ومنهم بنو مَرْدَنيش أصحاب شرقى الأندلس ، قال ابن غالب : وكان لجُذَام جزء من قلعة رَبَاح[1] ، واسم جُذام عامر ، واسم لخم مالك ، وهما ابنا عدىّ ، ومن كهلان مَنْ ينتسب إلى كِنْدَة ، وهو ثَوْر بن عُفَير بن عدى [بن الحارث] ابن مرة بن أدد ، ومنهم يوسف بن هرون الرمادى الشاعر ، ومنهم من ينتسب إلى تُجِيبَ وهى امرأة أشْرَس بن السَّكُون بن أشرس بن كندة ، ومن كهلان من ينتسب إلى خَثْعَم بن أنمار بن أراش بن عمرو بن الغَوْث بن نَبْت بن مالك بن زيد بن كهلان ، ومنهم عثمان بن أبي نِسْعَةَ سلطانُ الأندلس ، وقد قيل : أنمار بن نزار بن معدّ بن عدنان ، انتهت كهلان .

وأمّا حمير بن سبأ بن يَشْجُب بن يَعْرُب بن قَحْطان فمنهم من ينتسب إلى ذى رُعَين ، قال ابن غالب : وذو رُعَين هم ولد عمرو بن حِمْيَر فى بعض الأقوال ، وقيل : هو من ولد سَهْل بن عمرو بن قيس بن معاوية بن جُشَم بن عبد شمس ابن وائل بن الغَوْث بن قَطَن بن عَرِيب بن زُهير بن أيمن بن الهَمَيْسع بن حمير ، قال : ومنهم أبو عبد الله الحَنَّاط الأعمى الشاعر ، قال الحازمى فى كتاب النسب : واسم ذى رُعَين عَرِيم بن زيد بن سهل ، ووصل النسب ، ومنهم من ينتسب

(١) قلعة رباح : من عمل جيان ، بين قرطبة وطليطلة ، وهى مدينة حسنة ، ولها حصون حصينة على نهر ، وهى مدينة محدثة فى أيام بنى أمية ، وإنما عمرت قلعة رباح بخراب أوريط ، وبقرب قلعة رباح حامض إذا مخض فى سقاء حلا . قاله صاحب الروض

إلى ذى أصْبَح ، قال ابن حزم : هو ذو أصبح بن مالك بن زيد من ولد سبأ الأصغر بن زيد بن سهل بن عمرو بن قيس ، ووصل النسب ، وذكر الحازمى أن ذا أصبح من كَهْلان ، وأخبر أن منهم مالك بن أنس الإمام ، والمشهور أنهم من حمير ، والأصْبَحيون من أعيان قُرْطُبة ، ومنهم من ينتسب إلى يَحْصُب ، قال ابن حزم : إنه أخو ذى أصْبَح وهم كثير بقلعة بنى سعيد ، وقد تعرف من أجلهم فى التواريخ الأندلسية بقلعة يَحْصُب ، ومنهم من ينتسب إلى هَوَازن بن عَوْف بن عبد شمس بن وائل بن الغَوْث ، قال ابن غالب : ومنزلهم بشرقىّ إشْبيلية ، والهوازنيون من أعيان إشبيلية ، ومنهم من ينتسب إلى قُضَاعة بن مالك ابن حمير ، وقد قيل : إنه قضاعة بن معدّ بن عدنان ، وليس بمرضى ، ومن قُضَاعة من ينتسب إلى مَهْرَة كالوزير أبى بكر بن عمار الذى وَثَب على ملك مُرْسية ، وهو مَهْرَة بن حَيْدَان بن عمرو بن أُلحاف بن قضاعة ، ومنهم من ينتسب إلى خُشَين بن تَنُوخ ، قال ابن غالب : وهو ابن مالك بن فَهْم بن نمر بن وَبَرَة ابن تغلب ، قال الحازمى : تَنُوخ هو مالك بن فِهْر بن فهم بن تَيْم الله بن أسد بن وَبَرَة ، ومنهم من ينتسب إلى بَلِىٍّ بن عمرو بن أُلحاف بن قُضَاعة، ومنهم البَلَوِيُّون الإشبيلية ، ومنهم من ينتسب إلى جُهَينة بن أسْوَد بن أسْلَم بن عمرو بن أُلحاف بن قُضَاعة ، قال ابن غالب : و بقُرْطُبة منهم جماعة ، ومنهم من ينتسب إلى كَلْب ابن وَبَرَة بن تغلب بن حُلوان كبنى أبى عبدة الذين منهم بنو جَهْوَر ملوك قرطبة ووزراؤها ، ومنهم من ينتسب إلى عُذْرة بن سعد هُذَيم بن زيد بن أسود بن عمرو ابن أُلحاف بن قضاعة ، ومنهم أعيان الجزيرة الخضراء[1] بنو عُذْرة .

---

(١) الجزيرة الخضراء : يقال لها « جزيرة أم حكيم » وأم حكيم : جارية طارق ابن زياد مولى موسى بن نصير ، كان طارق قد حملها معه ، ثم خلفها فى هذه الجزيرة فنسبت الجزيرة إليها ، وبين الجزيرة الخضراء وبين مدينة قلشانة أربعة وستون ميلا. وهى على ربوة مشرفة على البحر ، وسورها متصل به .

ومن أهل الأندلس مَنْ ينتسب إلى حَضْرَمَوْت ، منهم الحضرميون بمُرْسية وغَرْناطة و إشبيلية و بَطَلْيَوْسَ وَقُرْطُبة ؛ قال ابن غالب : وهم كثير بالأندلس ، وفيه خلاف ، قيل : إن حضرموت هو ابن قحطان ، وقيل : هو حضرموت بن قيس بن معاوية بن جُشَم بن عبد شمس بن وائل بن الغَوْث بن جَيْدان - بالجيم - ابن قطن بن العَرِيب بن الغَرْز بن نَبْت بن أيمن بن الهميسع بن حمير، كذا نَسَقَ النسبَ الحازمىُّ .

ومن أهل الأندلس من ينتسب إلى سَلاَمان ، ومنهم الوزير لسان الدين بن الخطيب حسبما ذكر فى محله .

سرد أمراء الأندلس من الفتح إلى أن دخلها الأمويون

وقد رأيت أن أسرد هنا أسماء ملوك الأندلس من لدن الفتح إلى آخر ملوك بنى أمية ، و إن تقدم و يأتى ذكر جملة منهم بما هو أتم مما هنا ؛ فنقول : طارق ابن زياد مولى موسى بن نُصَير ، ثم الأمير موسى بن نصير ، وكلاهما لم يتخذ سريراً للسلطنة ، ثم عبد العزيز بن موسى بن نُصَير ، وسريره إشبيلية ، ثم أيوب بن حبيب اللخمى ، وسريره قُرْطُبة ، وكل من يأتى بعده فسريره قرطبة والزهراء والزاهرة بجانبيها إلى أن انقضت دولة بنى مروان على ماينبه عليه ، ثم الحر بن عبد الرحمن الثقفى ، ثم السَّمْح بن مالك الخَوْلانى ، ثم عبد الرحمن بن عبد الله الغافقى ، ثم عَنْبَسَةُ بن سُحَيم الكلبى ، ثم عُذْرة بن عبد الله الفِهْرى ، ثم يحيى بن سلمة الكلبى ، ثم عثمان بن أبى نِسْعَةَ الخَثْعَمِى ، ثم حذيفة بن الأحوص القيسى ، ثم الهيثم بن عُبيد الكلابى ، ثم محمد بن عبد الله الأشجعى ، ثم عبد الملك بن قَطَن الفِهْرى ، ثم بلج بن بشر بن عياض القُشَيْرى [1] ، ثم ثعلبة بن سلامة العاملى ، ثم أبو الخطار

(١) الظاهر أن كلمة « بن عياض » هنا من زيادات النساخ ، فقد تقدم فى ص ٢٢١ من هذا الجزء عن الرازى « ثم دخل بلج بن بشر القشيرى بجند الشام ناجيا من وقعة كلثوم بن عياض مع البربر بملوية - إلخ » ما تجده هناك ، ولعل أصل العبارة هنا « ثم بلج بن بشر القشيرى الفار من كلثوم بن عياض القشيرى »

[حُسَامُ] بن ضرار الكلبي ، ثم ثوَابة بن سلامة الجُذَامي، ثم يوسف بن عبد الرحمن الفِهْرِي ، وههنا انتهى الولاة الذين ملكوا الأندلس من غير مُوَارثة ، أفراداً ، عددهم عشرون فيما ذكر ابن سعيد ، ولم يتعدّوا في السِّمة لفظ الأمير[١] .

مدة حكم هؤلاء الولاة

قال ابن حيان : مدتهم منذ تاريخ الفتح من لُذَريق سلطان الأندلس النصراني - وهو يوم الأحد لخمس خلون من شوال سنة اثنتين وتسعين - إلى يوم الهزيمة على يوسف بن عبدالرحمن الفِهْرِي ، وتغلب عبدالرحمن بن معاوية المرواني على سريرِ الملك قرطُبَةَ - وهو يوم الأضحى لعشر خلون من ذى الحجة سنة ثمان وثلاثين ومائة - ست وأربعون سنة وخمسة أيام[٢] ، انتهى .

ملوك بني أمية بالأندلس

ثم كانت دولة بني أمية ، أولهم عبدُالرحمن بن معاوية بن هشام بن عبدالملك ، ثم ابنه هشام الرضى ، ثم ابنه الحكم بن هشام ، ثم ابنه عبد الرحمن الأوسط ، ثم ابنه محمد بن عبد الرحمن ، ثم ابنه المنذر بن محمد ، ثم أخوه عبد الله بن محمد ، ثم ابن ابنه عبدالرحمن الناصر بن محمد بن عبد الله ، ثم ابنه الحكم المستنصر ، وكرسيهما الزهراء ، ثم هشام بن الحكم ، وفي أيامه بنى حاجبُه المنصور بن أبي عامر الزاهرة ، ثم المهدى محمد بن هشام بن عبد الجبار بن الناصر ، وهو أول خلفاء الفتنة ، وهدمت في أيامه الزهراء والزاهرة ، وعاد السرير إلى قُرْطُبة ، ثم المستعين سليمان بن الحكم ابن سليمان بن الناصر .

أمراء بني حمود

ثم تخللت دولة بني حَمُّود العلويين ، وأولهم الناصر علي بن حَمُّود العَلَوى الإدريسي ، ثم أخوه المأمون القاسم بن حمود .

دولة بني أمية الثانية

ثم كانت دولة بني أمية الثانية ، وأولها المستظهر عبد الرحمن بن هشام بن عبد الجبار بن الناصر ، ثم المستكفي محمد بن عبد الرحمن بن عبد الله ، ثم المعتمد

---

(١) السمة - بكسر السين - في الأصل العلامة ، وأراد هنا اللقب الذى كان يلقب به كل واحد من هؤلاء الولاة ، كما يقال : سمة ملوك الترك الخاقان ، وسمة ملوك الروم القيصر ، وسمة ملوك الفرس كسرى ، وهكذا (٢) كذا ، والاحصاء ينقص شهرا

هشام بن محمد بن عبد الملك بن الناصر ، وهو آخر خلفاء الجماعة بالأندلس ، وحين خلع أسقط ملوك الأندلس الدعوة للخلافة المروانية .

ملوك الطوائف ومايليهم

واستبدت ملوك الطوائف كابن جهور فى قرطُبة ، وابن عباد بإشبيلية ، وغيرهما، ولم يعد نظام الأندلس إلى شخص واحد ، إلى أن ملكها يوسف بن تاشفين الملثم من بر العُدْوَة ، وفتك فى ملوك الطوائف ، و بعد ذلك ماخلصت له ولا لولده على ابن يوسف ، لأن بنى هود نازعوه فى شرقها بالثغر ، إلى أن جاءت دولة عبدالمؤمن و بنيه ، فماصفت لعبد المؤمن بمحمد بن مَرْدَنِيش الذى كان ينازعه فى شرق الأندلس، ثم صفت ليوسف بن عبد الرحمن بموت ابن مَرْدَنيش ، ثم لمن بعده من بنيه ، وحضرتهم مرّاكش ، وكانت ولاتهم تتردد على الأندلس وممالكها ، ولم يولوا على جميعها شخصاً واحداً لعظم ممالكها ، إلى أن انقرضت منها دولتهم بالمتوكل محمد بن هود من بنى هود ملوك سَرَقُسْطَة وجهاتها ، فملك معظم الأندلس بحيث يطلق عليه اسم السلطان ، ولم ينازعه فيها إلا زياد بن مَرْدَنِيش فى بَلَنْسِيَة من شرق الأندلس، وابن هلالة فى طبيرة[1] من غرب الأندلس ، ثم كثرت عليه الخوارج قريب مَوْته ، ولما قتله وزيره ابن الرُّميمى بالمرِيَّة زاد الأمر إلى أن ملك بنو الأحمر، وكان غرب أهل الأندلس فى المائة السابعة يخطبون لصاحب إفريقية السلطان أبى زكرياء يحيى بن أبى محمد عبد الواحد بن أبى حَفْص ، ثم تقلّصت تلك الظلال ، ودخل الجزيرة الانحلال ، إلى أن استولى عليها حزب الضلال ، والله وارث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين .

وقد ذكرت فى هذا الكتاب جملة من أخبار ملوك الأندلس مما يصلح

(١) قال فى الروض « لا أدرى أطبيرة هى طلبيرة بزيادة لام أو غيرها ؟ » وذكرها ياقوت مستقلة فقال « طبيرة ــ بالفتح ثم الكسر ثم ياء مثناة من تحت وراء ــ بلدة بالأندلس نسب إليها قوم من الأئمة منهم صديقنا أبو محمد عبد العزيز بن هلالة الأندلسى الطبيرى . رحل إلى خراسان وسمع من مشايخنا وغيرهم ثم عاد إلى بغداد وانحدر إلى البصرة فمات بها فى رمضان سنة ٦١٧ » اهـ

للمذاكرة ، وربما سَرَّحت طرف القلم فى بعضهم .

وبنو جَهْوَر المشار إليهم قريباً كانوا وُزَرَاءَ الأمويين ، ثم إنه لما انتثر سلك الخلافة استبدَّ بقُرْطُبة الوزير أبو الحزم بن جَهْوَرٍ من غير أن يتعدى اسم الوزارة .

الوزير أبو الحزم ابن جهور

قال فى « المطمح » : الوزيرُ الأجل جَهْوَر بن محمد بن جهور ، أهل بيت وزارة ، اشتهروا كاشتهار ابن هُبَيرة[1] فى فَزَارة ، وأبو الحزم أمجدهم فى المكرمات ، وأنجدهم فى الملمَّات ، ركب مُتُون الفنون فرَاضَها ، ووقع فى بحور المحن فخاضها ، منبسط غير منكمش ، لاطائشُ اللسان ولارَعِش ، وقد كان وَزَرَ فى الدولة العامرية فشَرُفت بجلاله ، واعترفت باستقلاله ، فلما انقرضت ، وعاقَتِ الفتنُ واعترضت ، تحيز[2] عن التدبير مُدّتها ، وخلَّى لخلافهِ أعباء الخلافة وشدّتها ، وجعل يُقْبل مع أولئك الوزراء ويُدْبر ، ويُديرالأمر معهم ويُدَبِّر ، غير مظهر للانفراد ، ولامتصرف فى ميدان ذلك الطِّراد ، إلى أن بلغت الفتنة مَدَاها ، وسوّغت ماشاءت رَدَاها ، وذهب مَنْ كان يَخِدُ[3] فى الرياسة ويَخبُّ ، ويسعى فى الفتنة ويَدِبّ ، ولما ارتفع الوَبال ، وأدبر ذلك الإقبال ، راسَلَ أهل التقوى مستمدا بهم ، ومعتمداً على بعضهم تحيلا منه وتمويها ، وتداهياً على أهل الخلافة وذَوِيها ، وعرض عليهم تقديم المعتمد هشام ، وأومض منه لأهل قُرْطُبة برق خُلَّب يُشَام ، بعد سرعة التياثها ، وتعجيل انتكاثها ، فأنابوا إلى الإجابة ، وأجابوا إلى استرعائه الوزارة والحجابة ، وتوجهوا مع ذلك الإمام ، وألموا بقرطبة أحسن إلمام ، فدخلوها بعد فتن كثيرة ، واضطرابات مستثيرة ، والبلد مُقفِر ، والجلد مسفر ، فلم يبق غير يسير حتى حيد واضطرب أمره فخلع ، واختطف من الملك وانتزع ، وانقرضت الدولة الأموية ، وارتفعت الدولة العلوية ، واستولى على قُرْطُبة عنـد ذلك أبو الحَزْم ، ودبر أمرها بالجد والعَزْم ،

---

(١) ابن هبيرة : يزيد بن عمر بن هبيرة ، أحد بنى فزارة ، كان واليا على العراقين أيام دولة بنى أمية (٢) تحيز ، ههنا : تنحى وابتعد

(٣) يخد : مضارع وخد ، ومعناه سار ، وفى الأصول « يجد » وأثبتنا ما فى مطمح الأنفس المنقول عنه ، ولأنه أكثر تلاؤما مع « يخب » بعده

وَضَبَطَهَا ضبطا أمّنَ خائفها ، ورفع طارق تلك الفتنة وطائفهَا ، وخلا له الجوفطار ، وقضى اللُّبَانات والأوطار ، فعادت له قُرْطُبة إلى أكمل حالتها ، وانجلى به نورُ جَلالتها ، ولم تزل به مُشْرقة ، وغصونُ الآمال فيها مُورِقة ، إلى أن توفى سنة ٣٤٥ فانتقل الأمر إلى ابنه أبى الوليد ، واشتمل منه على طارف وتليد ، وكان لأبى الحزم أدب ووقار وحلم ، سارت به الأمثال ، وعدم فيها المِثال ، وقد أثبت من شعره ماهو لائق ، وفى سماء الحسن رائق ، وذلك قولُه فى تفضيل الورد :

الوردُ أحسنُ مارأت عينى وأز ... كى ماسَقى ماءُ السحاب الجائدُ[1]
خَضعَتْ نَوَاوِيرُ الرِّياضِ لحسنه ... فتذللت تنقاد وَهىَ شَوَارِدُ[2]
وإذا تَبَدّى الوَرْدُ فى أغصانه ... يَزْهُو فذامَيْت وهذا حاسِدُ[3]
وإذا أتى وَفْدُ الرّبيع مُبَشِّرًا ... بطلوع وفدته فنعم الوافِدُ
ليس المبشِّرُ كالمبشَّرِ باسمه ... خبرٌ عليه من النبوَّة شاهِدُ
وإذا تعرّى الورد من أوراقه ... بقيَتْ عوارِفُه فهُنَّ خوالد

انتهى المقصود منه .

وكأنه عارض بهذه الأبيات فى تفضيل الورد قول ابن الرومى فى تفضيل النرجس عليه من قصيدة :

للنرجس الفضلُ المبينُ وإنْ أبَى ... آبٍ وحاد عن الحقيقة حائِدُ

وهى مشهورة .

وردّ على ابن الرومى بعضُهم بقوله :

يامن يُشَبِّهُ نَرْجِساً بنواظر ... دُعْج تَنَبَّهْ إن فهمك فاسِدُ

إلخ ، وهى أيضاً مشهورة .

(١) أزكى : أشد نما ، وأكثر ترعرعا . والجائد : اسم الفاعل من جاد المطر يجود إذاهما وغزر (٢) النواوير : جمع نوارة ، وهى الزهرة مطلقا ، أو البيضاء خاصة . والشوارد : جمع شاردة ، وأراد المتفرقة (٣) وقع فى ب ، ز «وإذاتبدى الغصن فى أغصانه» ولا معنى له ، وقد أثبتنا ما فى المطمح» .

رجع إلى ما كنا فيه – وكانت لأهل الأندلس بين زمان الفتح ومابعده وقائع في الكفار شَفَت الصدور من أمراضها ، ووفت النفوس بأغراضها ، واستولت على ما كان لملة الكفر من جواهرها وأعراضها ، ثم وقع الاختلاف ، بعد ذلك الائتلاف ، فعصَفَتْ ريحُ العدوّ والحروب سِجَال ، وأعْيَا العِلاجُ حكماء الرجال ، فصار أهل الأندلس يتذكرون موسى بن نُصَير وطارق ، ومَنْ بعدهما من ملوك الأندلس الذين رَاعَتِ العدوَّ الكافر منهم طوارق (١) .

كتاب من أبي المطرف ابن عميرة لأبي جعفر ابن أمية

وما أحسن ما أعرب الإمام الكاتبُ القاضي أبوالمطرف بن عميرة ، عما يشمل هذا المعنى وغيره ، في كتابٍ بعَثَ به إلى الشيخ أبي جعفر بن أمية ، حين حَلّ الرزء ببَلَنْسِية ، وهو :

ألا أيها القلبُ المصرِّحُ بالوَجْدِ ... أمالكَ مِنْ بادى الصَّبابة من بُدّ

وهل من سُلُوّ يرتجى لمتيَّمٍ ... له لَوْعَةالصادِىورَوْعَة ذى الصَّدّ (٢)

يَحِنُّ إلى نجدٍ ، وهيهات ! حَرَّمت ... صروفُ الليالى أن يعودَ إلى نَجْدِ

فياجَبَلَ الريَّان لارىً بَعْدَ ما ... عَدَتْ غِيَرُ الأيام عن ذلك الوِرْدِ

ويا أهلَ وُدِّى والحوادثُ تقتضى ... خُلُوِّىَ عن أهلٍ يُضَاف إلى الودِّ

ألا متعة يومًا بعاريةِ المُنَى ... فإنا نراها كل حين إلى الردِّ

أمِنْ بعد رُزْءٍ فى بَلَنْسِيَةٍ ثوى ... بأحنائنا كالنَّار مُضْمَرة الوَقْدِ

يُرَجِّى أُناسٌ جُنَّةً من مصائب ... تطاعنُ فيهم بالمثَقَّفةِ المُلْدِ (٣)

ألاليت شِعْرِى هل لها من مَطالع ... مَعادٌ إلى ما كان فيها من السَّعْدِ

وَهَلْ أذنَبَ الأبناء ذَنْبَ أبيهمُ ... فصاروا إلى الإخْرَاج من جنةالخُلْدِ

مرحباً بالسِّحاءة (٤) ، وما أعارت أفقى من الإضاءة ، وَرَدَتْ تسحَرُ النهى، وتسحب

(١) راعت : أخافت وأفزعت ، والطوارق : جمع طارقة ، وهى الحادثة الفاجئة

(٢) اللوعة – بفتح اللام وسكون الواو – حرقة القلب ، والصادى : العطشان والروعة : الخوف والفزع (٣) الجنة – بضم الجيم – الوقاية ، والمثقفة : الرماح ، والملد – بضم الميم وسكون اللام – جمع أملد ، وهوالناعم المهتز

(٤) أراد بالسحاءة القرطاس المكتوب فيه .

ذيلا على السُّها ، وتهزُّ من المسرة أعْطَافا ، وتردُّ من نجوم المجرة نطافا ، عامت من الظلمة فى مَوْجها ، ثم غلبت الشهبَ على أوْجها ، فقلبُ العقرب يَجِبُ ، وسُهَيل بداره يحتجب ، والطرف غَضيض ، وجَناح الطائر مَهِيض ، وصاحب الأخبية يقرض ، والذابح عن ذبيحته يُعْرِض ، ورامح السماكين تَخُونه السلاح ، وواقِعُ النسرين يودُّ لو أنه يُخْفيه الصباح ، بلاغة تفتِنُ كل لبيب ، وتَرْعَى روض كل أديب ، وتغض على رَغْم العدوّ من حبيب ، إن من البيان لسحراً ، ويا أيها الجواد وَجَدْناك بَحْراً ، أدَرَيْتَ ، أى بُرًى بريت ، وبأى قمر اهتديت ، ليلة سريت ، افتتحت بأبياتك الحسان ، ونظمتها نظم الجُمَان ، فعوذْتُ سَبْعَتَهَا بالسبع[١] ، وعرفتُ منها بَرَاعة ذلك الطبع ، ثم نثرت على القرطاس شذور النثور ، بل من جواهر النحور ، ما استوقف النظار ، وبَهْرَجَ اللجين والنُّضار[٢] ، ورأيتك استمددت ولك الباع الأمدّ ، وأعرت محاسنك والعارية ترد ، وجئت باللألاءة تروق أربعتها ، وتخرس بها قعقعة الأشعار وَجَعْجَعَتها ، فأدت من حسنها مايسر ، واجتمع لمن روى القطعتين مانظم فيها وهو الدر ، وأجريت خبر الحادثة التى مَحَقَتْ بدر التمام ، وذهبت بنضارة الأيام ، فيامن حضر يوم البطشة ، وعُزِّى فى أنسه بعد تلك الوحشة أحقا أنه دُكَّتِ الأرض ، ونزف المعين والبَرْض[٣] ، وصَوَّح روض المنى ، وصَرَّح الخطب وما كنى ، أَبِنْ لى كيف فقدت رَجاحة الأحلام ، وعقدت مَنَاحة الإسلام وجاء اليوم العَسِر ، وأوقدت نار الحزن فلا تزال تستعر ، حلم مانرى ؟ بل ما رَأَى ذا حالم ، طوفان يقال عنده لاعاصم ، مَن ينْصِفنا من الزمان الظالم ؟ الله بما يلقى الفؤاد عالم ، بالله أى نحو تنحو ، ومَسْطور تُثْبِتُ وتمحو ، وقد حذف الأصلى والزائد ، وذهبَتِ الصِّلة والعائد ، وباب التعجب طال ، وحالُ البائس لاتخشى الانتقال

(١) أراد بسبعتها سبعة الأبيات التى صدرت بها الرسالة ، وأراد بالسبع السبع المثانى

(٢) بهرج : زيف ، واللجين : الفضة ، والنضار : الذهب

(٣) نزف : قل أوغار ، والمعين : الماء الجارى ، والبرض ـ بالفتح ـ الماء القليل

وذهبت علامة الرفع ، وفُقدت سلامة الجمع ، والمعتلّ أعدى الصحيح ، والمثلّثُ أردى الفصيح (١) ، وامتنعت العجمة من الصَّرْف ، وأمنت زيادتُها من الحذف ، ومالت قواعدُ الملة ، وصرنا إلى جمع القلة ، وللشرك صيال وتخمُّط (٢) ، ولقرنه فى شركه تخبط ، وقد عاد الدين إلى غُرْبته (٣) ، وشرِق الإسلام بكربته ، كأن لم يسمع بنصر ابن نُصَير ، وطَرْق طارق بكل خير ، ونَهشات حنش وكيف أعيت الرُّقى ، وأذالت بليل السَّليم يومَ الملتقى ، ولم تخبر عن المروانية وصوائفها ، وفتى مَعافر وتعفيره للأوثان وطوائفها ، لله ذلك السلف ! لقد طال الأسى عليهم والأسف ، وبقى الحَكَم العدل ، والربُّ الذى قولُه الفَصْل ، وبيده الفضل ، ربنا أمرتَ فعصينا ، ونهيتَ فما انتهينا وما كان ذلك جزاء إحسانك إلينا ، أنت العليم بما أعلنّا وما أخفينا ، والمحيط بما لم نأتِ وما أتينا ، لو أننا فيك أحببنا وَقَلَينا ، لم تُرِنا من الفُرْقة ما رأينا ، ولم تُسلِّط عدوك وعدونا علينا ، لكن أنت أرحم من أن تؤاخذنا بما جنينا ، وأكرم من أن لا تهب حقوقك إلينا .

وأشرتَ أيها الأخ الكريم إلى استراحة إلىّ ، وتنسم بما لدىّ ، لتبرد كما زعمت حَرَّ نفس ، وتقدح زناد قَبَس ، وهيهات صَلِد الزند ، وَذَوَى العَرار والرَّند ، وأقشع الشؤبوب ، ورَكد ما كان يظن به الهُبُوب ، فالقلم دَفينٌ لا يحشر ، وميت لا ينشر ، والطبع قد نكص القهقرَى ، وقلّ منزله أن يُدْعَى له النَّقَرَى (٤) ، فها هو لا يملك مَيتاً ، ولا يجد لقامه تثبيتاً ، وأنت — أبقاك الله عزّ وجل ! — بمقتبل الآداب ، طائر هَيْعة الشباب ، وأين سنّ السمو من سن الانحطاط ، ووقت الكسل من وقت النشاط ، وقد راجعتك لا داخلا فى حَلْبتك ، بل قاضياً حق رَغْبتك ، والله

(١) أراد بالمثلث الإفرنج ، وعبر عنهم بذلك لأنهم نصارى يقولون بالتثليث . وأردى : أهلك . وأراد بالفصيح العرب

(٢) التخمط : التكبر والاستعلاء والغلبة

(٣) يشير إلى قول الرسول صلوات الله عليه « بدأ الإسلام غريبا وسيعود غريبا كما بدأ »

(٤) النقرى — بفتحات — الدعوة الخاصة ، ويقال للدعوة العامة « الجفلى » بفتحات أيضا

تعالى يجعلك بوسيلة العلم مترقياً ، و بجُنَّة الطاعة متوقياً ، ولهناء الأنفس مستقبلا ومتلقياً ! بمنه ، والسلام ، انتهى .

كتاب من أبى المطرف إلى سلطان إفريقية

وكتب رحمه الله إلى سلطان إفريقية الوارث مُلْك بنى عبد المؤمن بتلك النواحى ، المستولى على البلدان والضواحى ، وقد كان لأهل الأندلس أمَلٌ فى أخذه بثارهم ، وضم انتشارهم ، ماصورته :

شاقَهُ غِبَّ الخيال الوارِدِ	بارقٌ هاجَ غرامَ الهاجِدِ[1]
صِدْقُ وَعْدٍ للتلاقى ثم مَا	طَرَقا إلا بخُلْفِ الواعِدِ
وكلا الزَّوْرَيْنِ من طَيْف ومن	وافدٍ تحت الدياجى واردِ
لم يكُنْ بعد السُّرى مُسْتَمْتَع	فيه للرَّأى ولا للرائِدِ
وشديد بثُّ قلبٍ هائمٍ	يشتكيه عند رَبعٍ هامِدِ
بالأمير المُرْتَضَى عز الهُدَى	وثنى عِطْفَ المِلىّ الواجِدِ
و به أصْحب ما كان يُرَى	حاملا أَنْفَ الأبِىِّ الشارِدِ
إنما الفخرُ لمولانا أبى	زكرِيَّاء بن عبد الواحِدِ
ملك لَوْلا حُلاه الغرُّ لم	يَجْر بالحمد لسانُ الحامدِ
وَلَوَانَّ العَذْبَ أبْدَى رغبة	عنهُ لم يَشْفِ غليلَ الواردِ
فضلُه مثل سَنَى الشمسِ ، وهَلْ	لسَنَى الشمس يُرَى مِنْ جاحِدِ
قهرَ البَغْىَ بجِدٍّ صادع	ماتعدَّاه وَجَدّ صاعِدِ
إنما آلُ أبى حَفْصٍ هُدًى	للوَرَى من غائب أو شاهِدِ
قَعَدُوا فوق النجوم الزُّهْرِ عن	هِمَمٍ نَبَّهْنَ عزمَ القاعِدِ
وعن الإسلام ذادُوا عند ما	فَلَّ طولُ العهدِ غرْبَ الذائد
أىُّ فخرٍ عُمَرِىّ الْمُنْتَمَى	ورثوه ماجدًا عن ماجد

---

(١) شاقة : أثار شوقه ، والهاجد : النائم

ما الفُتُوح الغُرُّ إلاّ لهُمُ بين ماضٍ بادىء أو عائدِ
فى مُحيًّا لاحقٍ من سابق وعلى المولود سِيما الوالِدِ
وليَحْيى راجحُ الحِلم الذى تَرَكَ الطَّوْد بعطفى مائدِ
عِقْدُ أحسابِهِمُ تمّ به مثلُ ماتمّ حسابُ العاقد
أيها الجامعُ ماقد أحْرَزُوا جَمْعَ مَنْ هِمَّته فى الزائدِ
هــذه الأمة قد أوسعْتَها نظراً يكلأُ ليلَ الراقدِ[(١)]
لم تزَلْ منك بخيرٍ طارفٍ ريشُه تالٍ قُدامى تالدِ[(٢)]
ولهُمْ منك ليوم حاضرٍ وغَدٍ رأىُ البصير الناقد
أرشــدَ الله لِأُولى نظر بالوَرَى رأىَ الإمام الراشد
وتولاَّه بتوفيق الأُلىٰ سَعِدُوا من عاقد أو عاهد
وله فى الله أوفى كافِلٍ بالذى يبقى وأ كفَى عاضِدِ

نَصَر الله تعالى مولانا وأيده ، وشدَّ ملكه وشيده ! وأبقى للفضل أيامه ، وللفصل أحكامه ! وأظفر بأعناق الأشقياء حُسامُه ! ووفر من اتساق النعم والآلاء حظوظه وأقسامه ! والحمد لله ثم الحمد لله على أن جعل به حَرَم الأمة آمنا ، ووَهَج الفتنة ساكناً ، وأبواب الصلة والمعروف لا تعرِفُ إلا واصلا أو آذنا ، وتلافَى فلّ الإسلام منه بفيْآته التى منها ينتظرون الكر ، وبها يُوعَدون الفتح الأعز والنصر الأغر ! فهم بين جِدَةٍ قبضوها ، وعِدَةٍ رضوها ، وارتقاب للفتح أكبر هممهم منه دَرْكُ الثار ، وانتصاف لأهل الجنة من أهل النار ، فأما الأوطان فقد أسْلَتْهم عنها جهة تُنبِتُ العز فيما تنبته ، وتنفى من الضيم ما تلك تثبته ، وما ذكر الساخط ، على المحل

(١) يكلأ : يحرس ويحفظ ويرعى
(٢) الطارف ــ ومثله الطريف ــ الحديث ، والتالد ــ ومثله التليد ــ القديم الذى ترثه عن الآباء والاجداد ، وريشه : قوته ومنعته ، وتال : تابع ، يريد أن الأمة لاتزال تجد منه الخير الحديث الذى تلى قوته خيرا قديما كان لآله من قبل

الساقط ، منازلَ عادت على مبانيها أطلالا ، ومغانيها أمْحالا ، وللعبد حالٌ يستقبل بها من النظر الكريم - أدامه الله تعالى! - ما أعين الآمال إليه صُور[١] ، ورجاء الجميع عليه مقصور ، انتهى .

من خطاب آخر لأبى المطرف

والغاية فى هذا الباب ما كتب به - رحمه الله! - من جملة كتاب لبعض ذوى الألباب ، ونصُّ محل الحاجة منه : نخص الجهةَ البعيدة الصِّيت والاسم ، الشهيرة العمل والعلم ، دُرّة تاجنا ، وضَوْء سراجنا ، ونكتة احتجاجنا ، أبقاها الله تعالى فى أعيننا مَناراً ، ولأندلسنا فخاراً ، على أنه و إن بقيت المَفَاخر، فقد أودى المُفَاخر، و إن أضاء الطالع ، فقد دَرَجَت المَطَالع[٢] ، وغلب عليها عُدَاة زوَوْا عنها وجوهَنَا، وأروا فيها مكروهنا ، حتى إنى أتيت بشعر فيه استسقاء للديار ، على عادة الأشعار ، فقلت :

زِدْنَا على النائينَ عن أوطانهم ... و إنِ اشتركْنَا فى الصَّبابة والجْوَى
إنا وجَدْنَا هُمْ قد استَسْقَوْا لها ... من بعدِ أن شَطَّت بهم عَنها النَّوى
و يَصُدّنا عن ذاك فى أوطاننا ... مَعَ حُبِّها الشِّركُ الذى فيها ثوى
حَسْناء طاعتُها استقامَتْ بعدنا ... لعدوِّنا ، أفيستقيم لها الهوى ؟

قلت : وما رأيت ولا سمعت مثل هذه الأبيات فى معناها ، العالية فى مبناها ، فإن فيها الإشارة إلى استيلاء النصارى - دمرهم الله ! - على تلك الديار ، وثبوت قدَمهم فيها على طِبْق ماحصل لهم فيه اختيار ، مع إدماج حبه لها الذى لايشك فيه ولا يرتاب ، واشتمالها على المحاسن التى هى بغية الرائد ونُجْعة المنتاب ، ولكل أجل كتاب ، و إذا نفذ سهم المقدور فلا عتاب .

---

(١) صور - بضم الصاد - جمع صوراء ، وهو وصف المؤنث من الصور، وتقول «صورصورا» بزنة فرح فرحا - إذامال واشتاق ، وأخذهذا المعنى من قول الشاعر

الله يعلم أنا فى تلفتنا ... يوم الفراق إلى أحبابنا صور
وأننى حيثما يثنى الهوى بصرى ... من حيثما سلكوا أدنو فانظور

(٢) تقول « درج القوم » تريد أنهم انقرضوا

ومما يستولى على الخواطر، ويروى رياض الأفكار بسحُب بلاغته المَواطر، قولُه ـ رحمه الله تعالى ! ـ يخاطب أبا الحسن الرُّعَينى سنة (٦٣٤) :

يا صاحبى والدهرُ ـ لولا كَرّة منـهُ على حفظ الذِّمام ـ ذَميمُ
أمُنَازِعى أنت الحديثَ ؟ فإنه ما فيه لا لَغْوٌ ولا تأثيـــمُ
ومروّض مرعى مُنَاى فنَبْته من طول إخلاف الغُيُوم هَشيمُ
طال اعتبارِى بالزمانِ ، وإنما داء الزمان كما علمتَ قديمُ
مَجْفُوّ حظ لا ينادَى ثم لا ينفك عنـه الحذفُ والترخيمُ
وأرى إمالتَه تدومُ وقَصْرَه فعلامَ يُلغَى المدّ والتفخيـمُ
وعلام أدعُو والجوابُ كأنما فيـه بنصٍّ قد أتى التحريمُ
لم ألق إلا مُقْعِدًا غـير الأسى فَلَدَىّ منه مُقْعِدٌ ومُقيـمُ
وشرابىَ الهـمّ المعتّق خالصاً فمَتَى يُساعـدنى عليه نديمُ
غارات أيامٍ علىَّ جـوارح قعديُّها فى طبعـه التحكيمُ(١)
ولَوَاعجٌ يحتاجُ صالى حَـرِّها أمراً به قد خُصَّ إبراهيمُ
ولقد أقول لصاحب هو بالذى أدركتُ من علم الزمان عليمُ
لا يأسَ من رَوْح الإلٰه وإن قَسَتْ يومًا قلوبُ الخلق فهو رحيـمُ

من رسالة أخرى لابى المطرف

ويهزنى ، ويستفزنى ، ما كتبه ـ رحمه الله تعالى! ـ من رسالة : كتبته إلى سيدى وهو السيد حقيقة ، وأخى وقد كتب الدهرُ بذلك وَثيقة ، أبقى الله تعالى جلاله محروساً ، ورَبْع وفائه لا يخشى دُروساً ، مِن رِباط الفتح وأنا بحقه عليم ، وعلى عهده مُقيم ، وشأنى توقيرٌ له وتعظيم ، وحب فيه خالص كريم ، ووَصَلنى خطابه

(١) القعدى ـ بفتح القاف والعين جميعا ـ الواحد من القعدة ، وهم قوم من الخوارج تقاعدوا عن نصرة أبى الحسنين على بن أبى طالب وقعدوا أيضا عن الخروج مع بقية إخوانهم ورأوا ألا يخرجوا على الناس ولا يمضوا إلى قتال ، ومن رأيهم أن التحكيم حق .

الخطير المبرور ، فكنت به كالصائم رأى الهلال ، والهائم عاين ماء الزُّلال ، عِلْق ليس يوازيه علق ، وسحر لكنه حَلَال طِلْق[١] ، ونظم لذكر الطائى طاو[٢] ، وصنعة لم يرها ولم يروها راء ولا راو ، رَمَت ابن الرومى بالخمول ، وبَشَرت اسم بَشار من الفحول ، وحكمت بأن النمرى[٣] فى نمرة الهَوَان مُدْرج ، والسرى[٤] عن سَرَاوة الإحسان مُخْرج ، فأما النثر فصهيل لا يجاوبه الرُّغاء ، وطِراز لا يحسنه البُلَغاء ، ونَقْد تَزِيف معه النقود ، ومَدًى تنقطع دونه الضُّمرُ القُود ، وغادر الصابئ وصَباه غير ذات هبوب[٥] ، والصاحبَ وهو من العجز مع شر مصحوب ، والميكالىَّ وميكالُه مرفوض ، والحريرىَّ وحريره فى سوق الكَساد معروض ، فأما بحر رئيس أرّجان ، فقد استخرج منه اللؤلؤ والمرجان ، وأبقاه فى ضَحْضاح ، بل تركه يمشى بأذرح ضاح ، فمن ذا يجارى فارسَ الصفين وإمام الصنفين؟ أبلغ من خط بقلم ، وأشهر من نار على عَلَم ، وماذا يقال فى أنامل تطرز بها الصحف ، وشمائل تفخر بها الروضة الأنُف ، واسم فى شرق البلاد وغربها ظاهر ، ووَسْم بالكتابة والنجابة لم يكن لبنى وَهْب وآل طاهر ، فالزمان يأثِر ، ما ينثر ، ويعظِّم ، ما ينظِم ، ولو أن الأزمنة قبله عمرت المحاضر بكل ناجم ، ونشرت المقابرَ عن الصَّنَوْبَرِى وكُشَاجم ، وجاءت بالكتاب من كل جيل ، والشعراء رَعِيلاً بعد رَعيل ، لطال هذا العصر بواحده آلافهَا ، وأنسى بخَلَفه أسلافهَا ، انتهى .

كتاب آخر لأبى المطرف

وكتب ــ رحمه الله تعالى ! ــ إلى صاحبين له فى معنى ما ألمعنا به آنفاً ، ما صورته :

تحية منكما أتتْنِي طابت كما طابَ مُرْسِلاها

(١) طلق ــ بكسر الطاء وسكون اللام ــ المطلق الذى لاحظر فيه من جهة ما

(٢) أراد بالطائى أبا تمام حبيب بن أوس الطائى ،

(٣) النمرى : هو منصور النمرى أحد شعراء الدولة العباسية

(٤) السرى : هو السرى الرفاء الموصلى ، أحد شعراء سيف الدولة الحمدانى

(٥) أراد أبا إسحاق الصابى ، وبمن ذكر بعده الصاحب ابن عباد ، وأبا الفضل الميكالى ، وأبا القاسم الحريرى صاحب المقامات ، ورئيس أرجان : أبو الفضل بن العميد

ويا لَهَا أذكَرَتْ عهوداً قلبيَ والله ما سَلاَهَا
حللتما فى البلاد أرْضاً رِيحَ صَبَاها عنى سلاها
لم يَصْبُ قلبى إلى سواها يومًا ولم يَسْلُ عن سلاها

كتابى أيها الأخوَان اللذان بودهما أقول ، وعن عهدهما لا أحول ، أنزلكما الله تعالى خير منزل ! وجعلكما من النوائب والشوائب بمَعْزِل ! من رباط الفتح ولِبِّى قديماً ملكتما رِقَّه ، وقلبى تعلُّماً وتعليماً عرفتما صدقه ، كيف حالكما من سَفَر طويتما خبره ، حين تجشمتما غرَرَه ؟ وكيف سمحت نفوسكما بأم الحصون ، وذات الظلال والعيون ؟ تربة الآباء ، ومنزلة الجُمَحِيِّينَ النجباء ، حتى صرمتما حبلها ، وهجرتما حَزْنَهَا وسَهْلها ، وخضتما غُبَّرَ الفِجَاج ، وخُضْر الأمواج ، وما ذاك إلا لتغلُّب الحادث النكر ، وتألّب المعشر الغُدُر ، ومن أجل الداهية النكاد ، والحادثة الشنيعة على البلاد ، أزعجتكم حين أزعجتنا ، وأخرجتكم كما أخرجتنا ، وطوّحت بنا طوائحُها ، واجتاحت ثمرنا وشجرنا جوائحها ، فشكراً لله تعالى على قضائه ، وتضرعاً فيما نرفعه من دعائه ، وهنيئاً لنا ولكم معشر الشُّرَداء ، المنطوين من الشجن على شرّ داء ، ذلك الطَّوْد الذى إليه أوَيْتُما ، وفى ظله ثوَيتما ، وعن رأيه ترَيان ، وبسَعْيه تسعَيان ، فوجهه المبارك لا يعدم رأيه نجحاً ، ولا يعدو لصبحه إذا دجا ليلُ الهمِّ صبحاً ، انتهى .

ترجمة لأبى المطرف ابن عميرة

وكان أبو المطرّف بن عُمَيْرة المذكور كما قال فيه بعض علماء المغرب : قدوة البلغاء ، وعمدة العلماء ، وصدر الجِلة الفضلاء ، وهو أحمد بن عبد الله بن عُمَيْرة المخزومى ؛ ونكتة البلاغة التى قد أحرزها وأودعها ، وشمسُها التى أخفت ثواقب كواكبها حين أبدعها ، مبدع البدائع التى لم يحظ بهاقبله إنسان ، ولا ينطق عن تلاوتها لسان ؛ إذ كان ينطق عن قريحة صحيحة ، وروِيَّة بدُرَر العلم فصيحة ، ذللت له صعب الكلام ، وصدَّقت رؤياه حين وَضَعَ سيدُ المرسلين صلى الله عليه وسلم وهو الذى أوتى جوامع الكلم فى يديه الأقلام ، وأصل سُلَفه من جزيرة شُقْر ، وولد بمدينة بَلَنْسِية ، وروى

عن أبى الخطاب بن واجب وأبى الربيع بن سالم وابن نوح والشلوبين النحوى وابن عات وابن حَوْط الله ، وغيرهم من الحفاظ ، وأجازه من أهل المشرق جماعة ، وكان شديدَ العناية بشأن الرواية فأكثر من سماع الحديث ، وأخذه عن مشايخ أهله ، ثم تفنن فى العلوم ، ونظر فى المعقولات وأصول الفقه ، ومال إلى الأدب ، فبرع براعة عدّ فيها من مجيدى النظم ، فأما الكتابة فهو فارسُها الذى لا يُجَارى ، وصاحب عينها الذى لا يُبَارى ، وله وعظ على طريقة ابن الجَوْزى ، ورسائل خاطب بها الملوك وغيرهم من الموحّدين والحَفْصِيين ، وله تأليف فى كائنة مَيُورقة وتغلّب الروم عليها نحافى الخبر عنها منحى الإمام الأصبهانى فى الفتح القدسى ، وله كتاب تعقَّب فيه على الفخر الرازى فى كتاب « المعالم » وله كتاب رد به على كمال الدين الأنصارى فى كتابه المسمى « بالتبيان ، فى علم البيان ، المطلع على إعجاز القرآن » وسماه « بالتنبيهات ، على مافى البيان من التمويهات » وله اختصار نبيل من تاريخ ابن صاحب الصلاة ، وغير ذلك .

ورد — رحمه الله! — حضرة الإمامة مَرَّاكُش صحبة أمير المؤمنين الرشيد حين قفوله من مدينة سَلَا ، واستكتبه مدّة يسيرة ، ثم صرفه عن الكتابة ، وقلده قضاء هيلانة ، ثم نقله إلى قضاء سلا ، ثم نقله السعيدُ إلى قضاء مِكْنَاسة الزيتون ، ثم قصد سَبْتة ، وأخذ ماله فى قافلة بنى مَرِين ، ثم توجه إلى بلاد إفريقية ، ووصف حالَه فى رسالة خاطب بها ابنَ السلطان أبا زكريا الحَفْصِى ، وهو أبو زكريا ابن السلطان أبى زكريا ، وكان صاحب بجاية لأبيه ، ولم يزل — رحمه الله تعالى ! — مذ فارق الأندلس متطلعاً لسكنى إفريقية ، معمور القلب بسكناها ، ولما قدم تونس مال إلى صُحْبة الصالحين والزهاد وأهل الخير بُرْهَة من الزمان ، ثم استُقْضِى بالأريس من إفريقية ، ثم بقابس مدّة طويلة ، ثم استدعاه أمير المؤمنين

المستنصر بالله الحَفْصى ، وأحضره مجالسَ أنسه ، وداخله مداخلة شديدة، حتى تغلّب على أكثر أمره .

ومولده بجزائر شُقْر فى شهر رمضان المعظم سنة ٥٨٠ ، وتوفى ليلة الجمعة الموفية عشرين من ذى الحجة سنة ٦٥٨ ، ألحفه الله رضوانه ، وجدد عليه غفرانه !

قال ابن الأبار فى « تحفة القادم » فى حق أبى المطرف المذكور : فائدة هذه المائة ، والواحدُ يَفى بالفئة ، الذى اعترف باتحاده الجميع ، واتصف بالإبداع فماذا يتصف به البديع [١] ، ومعاذ الله أن أُحَابيه بالتقديم ، لماله من حق التعليم ، كيف وسَبْقه الأشهر ، ونطقه الياقوت والجوهر، تحلت به الصحائف والمَهارق [٢] ، وما تخلت عنه المغارب والمشارق ، فحسبى أن أجهد فى أوصافه ، ثم أشهد بعدم إنصافه ، هذا على تناول الخصوص والعموم لذكره ، وتناوب المنثور والمنظوم على شكره ، ثم أورد له جملة منها قوله :

وأجَلْتُ فِكرى فى وِشَاحك فانْثَنَى ... شَوْقاً إليك يَجُول فى جَوَّالِ

أنصَفْتَ غُصْنَ البانِ إذ لم تدعه ... لتأوُّدٍ مَعَ عِطفك الميالِ

ورحِمْتَ دُرَّ العقد حين وضعْته ... متواريًا عن ثغرِك المتلالى

كيفَ اللقاء وفِعْلُ وَعْدك سِينُه ... أبدًا تخلصُه للاستقبال

وكماة قَوْمِك نارُهُمْ ووقيدُهَا ... للطارِقين أسِنَّة وعَوالى

وله مما يكتب على قوس قوله :

ما أنَادَ مُعْتَقَلُ القَنَا إلا لأن ... يَحْكِى تأطُّر قامتى العَوْجَاء [٣]

---

(١) البديع : هو بديع الزمان الهمذانى ، قدوة الحريرى فى المقامات ، وقريع الخوارزمي

(٢) المهارق : جمع مهرق ، وهو الصحيفة

(٣) أناد : اعوج ، وتأطره : تعطفه وتثنيه

تَحْنُو الضلوعُ على القلوب وإنَّنى ضِلَع ثوى فيها بأعْضَل داء

وله وقد أهدى وَرْدا :

خذها إليْكَ أبا عَبْد الإله فقَدْ جاءتكَ مثلَ خدودٍ زانها الخَفَرُ[1]

أتتْكَ تحكى سَجايامِنْكَ قدعَذُبَتْ لكن تغيَّرُ هذا دونه الغِيَرُ

إن شِمْتَ منها بروقَ الغيثِ لامعةً فسَوْف يأتيكَ من ماء لها مَطَرُ[2]

قال : وكتب إلى مع تحفة أهداها مكافئاً عن مثلها :

يا واحدَ الأدب الذى قد زانَهُ بمناقب جعَلَتْهُ فارسَ مَنْصِبِهِ

بالفضْل فى الهبة ابتدأْتَ فإن تعِرْ طرفَ القبول لما وَهَبْتُ خَتَمْتَ بِهْ

قال : وله ارتجالا بقصر الإمارة من بَلَنْسِيَة وأنا حاضر فى صبيحة بعض الجمع ، وقد حجم صاحب لنا من أهل النظم والنثر ، وأحسن إلى الحجام بالخصوص :

أرى مَنْ جاء بالموسَى مُوَاسًى ورَاحَةَ ذى القريض تعود صِفْرَا

فهذا مُخفِق إن قص شِعْرًا وهذا مُنجحٌ إن قص شَعْرَا

وله أيضاً :

هو ماعلمتَ من الأمير ، فما الذى تزدادُ منه وفيه لا يُرْتاب؟

لا تتقى الأجنادُ فى أيامه فقراً ، ولا يَرْجُو الغنى الكتابُ

وله بعد انفصاله من بلنسية عن وَحْشة فى ذى القعدة سنة (٦٢٨) :

أسيرُ بأرجاءِ الرَّجاء ، وإنما حديثُ طريقى طارق الحَدَثانِ

وأحضر نَفْسِى إن تقدَّمت خِيفةً لغض عِنانٍ أو لعض زَمانِ

أيتركُ حظى للحَضيض وقد سرَى لإمكانه فوق الذرا جَبَلانِ

وأخبِطُ فى ليل الحوادث بعد ما أضاء لِعَيْنِى منهما القمرانِ

---

(١) الخفر ــ بفتح الخاء والفاء جميعا ــ الحياء ، أوسدته

(٢) شمت : نظرت ، وأصله قولهم « شام فلان البرق » إذا نظر إلى سحابه أين يمطر

فيَحْيِي لآمالى حَيَاة مُعَادة وإنَّ عَزيزاً عزةٌ لمكانى
وقالوا: اقْتَرِحْ إنَّ الأمانىَّ منهما وإن كنّ فوق النجم تحت ضَمَان
فقلت : إذا ناجاهُمَا بقَضِيَّتى ضميرىَ لم أحفِلْ بشَرْحِ لسانى

وله أيضاً :

سلب الكَرَى من مُقْلَتىَّ فلم يجىء منه على نأى خَيَالٌ يطرقُ
أهفو ارتياحاً للنسيم إذا سَرَى إن الغَريقَ بما يرى يتعلّقُ

انتهى ماتلخص من « تحفة القادم » فى ذكر ابن عميرة أبى المطرف .

ومما كتب أبو المطرف ـ رحمه الله! ـ وفى أثنائه إشارة إلى الكفار الغالبين على بلاد الأندلس ، ما نصه :

ألاَ إن شخصينا على القَطْع واحد وجاحِدُ هذا للضرورة جاحد
فإن لم تصدق ما نَطَقْتُ بصدقه فإنك لى لاحٍ وللودِّ لاحد

ومعاذ الله عز وجل أن تلحانى ، أو تمنع أنفكَ ريحَ رَيْحَانى ، وكيف تصدّعنى بوجهك ، أوتشحذ لى غَرْبَ نَجْهِكَ[١] ، وأنا على غَيْبك أمين ، ولشمالك يمين ، ولكم دعوتَ بى فأجبتُ ، واستغنيتَ عنى فحجبت ، وأردت الاستبداد فما استطعت ، ونعتّ الوداد فما أحسنت النعت ، وإنما تُحْمَدُ فَرَاهة الأعوجىِّ[٢] إن جَرَى ، وتذكر فضيلة ابن السّرى إذا سَرَى[٣] ، فأما الاقتصار على عَظْم باد ، والانتظار لعَيْن عدمت السواد ، فخطأ من القائل ، وخطل عند العاقل ، ولله در أخيك من مغمض طرف التطرف ، قارىء أدب الصحبة على السبعة الأحرف ، كَرَعَ فى أعز مَوْرِدِ ، وتواضع فى شَرَف مَوْلد ، وسَمَا بنفسه عن أن يستخفه نسب يرفعه ،

---

(١) تشحذ : من قولهم « شحذ فلان سيفه يشحذه » إذا حدده وأرهفه وأمضاه ، والغرب ـ بفتح الغين وسكون الراء ـ حد السيف . والنجه : مصدر « نجه فلان فلانا ينجهه » إذا ردعه وانتهره واستقبله بما يكرهه

(٢) الأعوجى : الفرس الأصيل ، منسوب إلى أعوج ، وهو من الخيل المعدودة من الكرائم (٣) أخذ هذا من قول الشاعر :

إن السرى هو السرى بنفسه وابن السرى إذا سرى أسراهما

وحسب مامنا أحد يدفعه ، وكذلك الكرام يرون عليهم حقا ، ويَتَوَقَّوْنَ من لم يكن من الكبر مُوَقى ، ولَعَهْدى به وظلُّ الثروة بارد ، وشيطان الشبيبة مارد ، وبشره فى الملمات يرفّ ، وقدمه إلى الحاجات تَخِفُّ ، يصون عِرْضَه بماله ، ويخفى صَدَقَةَ يمينه عن شماله ، ويقسِّم جسمه فى جُسوم[1] ، ويقوم بالحقوق غير ملول ولا ملوم ، تلك المكارم لا قَعْبَان[2] ، وما تستوى البَدَنة المَهيضة مع غيرها فى القربان ، وعرضت بذكر العصر الخالى ، والقصر العالى ، وظل من فنن وَرِيق ، وعيش مع أكرم فريق ، وما تذكر من زمن تولّى ؟ وعهد على أن لا يعود تألى ، فارقناه أحسن ما كان ، وودعنا به الأطيبين الزمانَ والمكان ، فعفَتِ الرسوم ، وأفلَتْ تلك النجوم ، ورَمَتْنا عن قوسها الروم ، ثم خلفتنا فى المغانى ، وقسمتنا بين الأسير والعانى ، فأودى القلُّ والكُثر ، واشتفى من الإسلام الكفر ، فكم كأس أنس أرَقْناه ، ومنزلٍ فرقَةَ الأبد فارقناه ، وذكرت اجتيازك بين العَلَمين ، وقطعك متن اليم فى يومين ، وأنك انتقلت من ذوات الألواح ، إلى عَذَبات الأدواح ، ومن متهافت الشِّراع ، إلى منابت اليَرَاع ، ومن سكنى بيت السكان ، إلى منزل به الفلاح والملاح يشتركان ، حيث اجتمع الضَّبُّ والنون ، وأينع التين والزيتون ، وظللت الساحات ، وذُلِّلت الثمار المباحات ، فلاتُشْرِقنا يا أُصَيْل ، ولأم تلك الأرض الوَيْل ، انتهى .

ووصل هذا الكلام بالأبيات التى تقدّمت قريباً ، وهى قوله « زدنا على النائين عن أوطانهم إلخ » .

وكتب رحمه الله عن أهل شاطِبَةَ أيام كان قاضيا بها ، مهنئاً أمير المسلمين ابن هُود المستولى على الأندلس آخر دولة الموحِّدين بوصول الكتاب العباسى الكريم إليه من بغداد بولاية الأندلس، إذ كان ابن هُود حين ثار على الموحدين

---

(١) أخذ هذا من قول حاتم الطائى :

أقسم جسمي فى جسوم كثيرة وأحسو قراح الماء والماء بارد

(٢) أخذ هذا من قول أمية بن أبى الصلت :

تلك المكارم لاقعبان من لبن شيبا بماء فعادا بعد أبوالا

يدعو إلى الخليفة العباسى الذى كان أكثر الملوك فى ذلك الزمان يَدِينون بطاعته، بما نصه بعد الصدر :

أما بعد ، فكتَبَ العبيدُ — كتب الله تعالى إلى المقام العلى المجاهدى المتوكلى سعادة لا تبلغ أمداً إلا تخطته ! ويداً علوها أثبتته أيدى الأقدار وخطته — من شاطبة وبركاتُ الأمر المجاهدىّ المتوكلى ، والعهد الواثق المعتصمى ، تنسكب كالمطر ، وتنسحب على البشر ، وتقضى بعادة النصر والظفر ، وسعادة الورد والصَّدَر ، والحمد لله ، وعند العبيد من أداء فروض الخِدَم ، والقيام بحقوق النعم ، ما عُقِدت عليه ضمائرهم ، وسمت إليه نواظرهم ، واشترك فيه بادِيهم وحاضرهم ، فجناب أملهم فسيح ، ومَتْجر خدمتهم ربيح ، وحديث طاعتهم حَسَن صحيح ، وبسَنىّ النظر العلىّ اهتداؤهم ، وفى الباب الكريم رجاؤهم ، وبصدق العبودية اعتزازهم وإليها اعتزاؤهم (١) ، والله تعالى ينهضهم بوظائف المثابة العلية ، ويحملهم على المناهج السَّوية ، ووصل الكتاب الكريم متحلياً برُوَاء الحق ، ناطقاً بلسان الصدق ، واصفاً من التشريف والفَخَار المنيف ، ما صدر عن إمام الخلق ، فلا بيان أعجب من ذلك البيان ، ولا يوم كذلك اليوم تبدَّى نظره لِلعيان ، أو تأدى خبره فى أخبار الزمان ، نثرت فيه الخلع العباسية فى أعلى الصور ، وبرز منها للعيون ما يعثر البليغ عند وصفه فى ذيل الحَصَر ، ويهدى سواده سواد القلب والبصر ، فيالمشهدها ما أعجب ما كان ، ومرآها الذى راع الكفر وراق الإيمان ، وأشبه يومه بالأندلس يوم خرجت الرايات السود من خراسان (٢) ، وكفى بهذا فخاراً لا يحتاج ثابته مثبتاً ، أن باشرت بُرْداً باشر البدن الذى طاب حياً (٣) وميتاً ، فهو علو فى الإسناد ولا نظير له فى العَوَالى ، وفخار ضلّت عن مثله العُصُور الخوالى ، وجَلَّت بهجته أن تُخْلِقَ جدَّتَهَا الأيامُ والليالى ، ودل

(١) اعتزاؤهم : انتسابهم ، تقول « اعتزى فلان إلى فلان » تريد أنه انتسب إليه

(٢) الرايات السود : أعلام العباسيين عند قيام دولتهم ، وخراسان : موطن دعوتهم ومنها خرجوا

(٣) البدن الذى طاب حياً وميتاً : بدن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان الخلفاء يتداولون برده صلى الله عليه وسلم الذى كان أعطاه لكعب بن زهير حين مدحه

الكتاب العزيز على التسمية المشتقة من الجهاد ، والسمة من سيف أمير المؤمنين بما لايدخل فى جنس ذوات الأغماد ، وخير الأوصاف ماصدقه الموصوف ، والكريمُ النسب نسبته يُباهى بها الدين وَتُزْهَى السيوف :

فإن نحن سَمَّيناك خِلْنَا سيوفَنَا من التيه فى أغمادها تتبسَّمُ

ومما أفاده الكتاب المبهج بطيب أنبائه ، نص علامة سيدنا صلوات الله عليه وعلى آبائه ، فإنها تضمنت صفة لله عز وجل من صفات الكمال ، ودلّت على مذهب أهل السنة فى خلق الله عز وجل الأعمال ، وأشعرتنا معشَرَ العبيد بعناية سبقت بالمقام المجاهدى المتوكلى ـ أحسن الله تعالى إليه ! ـ حين تولى خلافة أمير المؤمنين صلوات الله عليه ، فإنه لماشايعه بعزيمة مساعدة ، ونية فى مَشارع الصفاء والإخلاص واردة ، ألهم زيادة فى العلامة شاركت الإمامة فى صفة واحدة ، فهذه كرامة فى العلامة ، هى علامة الكرامة ، وَهِبَةٌ من مواهب الكشف يجدها من امتثل قوله (فاستقم كما أمرت) فكان من أهل الاستقامة ، وتضمن الكتاب الكريم بيعة أهل جَيّان وما معها ، وإن هذه البشائر وما تبعها ، لفُرُوع عن هذا الأصل الصحيح ، وأقيسة من هذا النص الصريح ، بأدلة الخلاف قد استقلت ، وشبهة الخلاف قد بطلت واضمحلت ، والحمد لله على أنْ مَنَحَ جزيل النعماء ، وشرح باليقين صدور الأولياء ، وشرف هذه الأمة بإمامة نجل الأئمة الخلفاء ، وابن عم سيد الرسل وخاتم الأنبياء ، والعبيد يهنئون بهذه النعِّم ، التى لايستقل بذكرها قَلَم ، ولا يقطع عَلَم من وصفها إلا بدا عَلَم[1] ، وبهم من الأشواق إلى مشاهدة المعالم السنية ، ولَثْم اليمين الطاهرة العلية ، ما أكده دنو الدار ، وجدده ماتجدد للمقام العالى المتوكلى من نعم الله تعالى الجليلة المقدار ، والشاهدة له بإسعاد الأيام وإسعاف الأقدار ، فلو

---

(١) أخذ هذا المعنى من قول جرير بن عطية بن الخطفى :

إذا قطعن علما بدا علم حتى تناهين بنا إلى الحكم

خليفة الحجاج غير المتهم فى ضئضئ المجد وبؤبؤ الكرم

أمكنهم الإقدام لأقدموا ، ولو وجدوا رُخْصة فى المسير لعزموا ، وهم يستلمون البساط الأشرفى توهما ومِنْ أملهم أنهم فى الحقيقة قد استلموا ، انتهى .

و به تعلم أن الدولة العباسية خُطب لها ببلاد الأندلس ـ أعادها الله للاسلام ! ـ ولا يخفاك أن ماجَلَبْنَاه من ذلك وغيره مناسب للمقام ، فلا انتقاد ولا ملام .

رسالة من إنشاء لسان الدين ابن الخطيب

وقد رأيت أن أذكر هنا مخاطبة صَدَرَتْ من الغنى بالله صاحب الأندلس إلى السلطان المنصور أحمد بن السلطان الناصر محمد بن قلاوون من إنشاء الوزير الكبير لسان الدين بن الخطيب رحمه الله ، لما اشتملت عليه من أحوال الأندلس ، ونصها : الأبواب التى تُفْتَح لنصرها أبواب السماء، وتُسْتَدَرّ[١] من آفاقها سحاب النعماء، وتجلى بأنوار سعدها دياجى الظلماء ، وتعرَّف نكرة البلاد والعباد بالانتساب إلى محبتها والانتماء ، على اختلاف العروض وتباين الحدود وتعدد الأسماء ، و يُجْتزأ من صِلَاتِ صَلَاتِها عند الموانع من كمال حالات صفاتها بالإيماء ، وتحمل لها التحية ذوات الدُّسُر والألواح[٢] طاعنة نحر الصباح على كتد الماء[٣] ، أبوابُ السلطان الكبير ، الجليل الشهير ، الطاهر الظاهر ، الأوحد الأسعد ، الأصعد الأمجد ، الأعلى العادل ، العالم الفاضل الكامل ، سلطان الإسلام والمسلمين ، عماد الدنيا والدين ، رافع ظِلال العدل على العالمين ، جمال الإسلام ، علم الأعلام ، فخر الليالى والأيام ، ملك البرين والبحرين ، إمام الحرمين ، مؤمِّن الأمصار والأقطار، عاصب تاج الفخار ، هازم الفرنج والترك والتتار ، الملك المنصور ابن الأمير الرفيع الجادة ، الكريم الولادة ، الطاهر الظاهر ، الكبير الشهير ، المعظم الممجد الأسمى ، الموقر الأعلى ، فخر الجلة ، سيف الملة ، تاج الإمارة ، عز الإسلام ، مستظَلِّ الأنام ، قمر الميدان ، أسد الحرب العوَان[٤] ، المقدس المطهر ، الأمير أحمد بن والد السلاطين ،

---

(١) تستدر : يطلب درها ، وأراد أنهم يطلبون كثرة النعم الواصلة إليهم من جهتها

(٢) ذات الألواح والدسر : السفينة ، وفى القرآن الكريم (وحملناه على ذات ألواح ودسر)

(٣) الكتد ـ بفتح الكاف وكسر التاء ـ أصله مجتمع الكتفين من الإنسان وغيره

(٤) الحرب العوان : التى حورب فيها مرة بعد مرة

ومالك المسلمين ، وسيف خلافة الله على العالمين ، وولى المؤمنين ، سلطان الجهاد والحج ، ومقيم رأس العَجّ والثجّ ، محيي معالم الدين ، قامع المعتدين ، قاهر الخوارج والمتمردين ، ناصر السنة ، محيي الملة ، ملك البرين والبحرين ، سلطان الحرمين ، الملك العادل ، العالم العامل ، المنصور المؤيد ، المعان المرفع المعظم المبجل المؤمل ، المجاهد المرابط المغازى الممجد المكمل ، المطهر الكبير الشهير ، المقدس الملك الناصر أبى عبد الله محمد بن قلاوون الصالحى ، جعل الله فُسْطاط دعوته معموداً بعمود الصبح ، وحركات عزمه مبنية على الفتح ، ومجمل سعادته غَنِيًّا عن الشَّرْح ، وجياد أوصافه متبارية فى ميدان المَدْح ، وزناد رأيه وارية على القَدْح ، من موجب حقه وجوب الشعائر الخمس ، المرحب لأجل أفقه الشرقية بوفادة الشمس ، المجدد فى اليوم حكم ما تقرر بين السلف رحمهم الله بالأمس ، أمير المسلمين بالأندلس عبد الله الغنى بالله الغالب به محمد بن يوسف بن إسماعيل بن فرج بن نصر ، سلام كريم كما زحفت راية الصبح تقدمها طلائع مبشرات الرياح ، يفاوح أرجه أزاهِيرَ الأدواح [1] ، ويحاسن طُرَر الوجوه الملاح [2] ، يخص أبوتكم التى رتب العز فصولها ، وعضدت نصوص النصر نصولها ، ورحمة الله تعالى وبركاته .

أما بعدَ حمدِ الله الذى جعله فاتحة القرآن ، وخاتمة دعاء أهل الجِنان ، وشكره على ما أولى من مواهب الإحسان ، حمداً وشكراً يستخدمان من الإنسان ، ملكتى القلب واللسان ، والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد رسوله زهرة كِمَامة الأكوان ، وسيد ولد آدم على اختلاف اللغات والألوان ، الذى أذل بعزة الله نفوس أهل الطغيان ، وغطى بدينه الحق على الأديان ، وزويت له الأرض فرأى ملك أمته يبلغ مازُوِى له فكان الخبرُ وفق العِيان ، والرضا عمن له من الأصحاب

---

(١) الأزاهير : جمع أزهار الذى هو جمع زهرة ، والادواح : جمع دوحة ، بفتح الدال وسكون الواو ، وهى الشجرة الملتفة الأغصان

(٢) الطرر : جمع طرة ـ بضم الطاء ـ وهو الشعر فى مقدمة الناصية

والأحباب والأعمام والأخوال والإخوان ، صلاةً يجدّدها الجديدان ، ويُمليها الملوان[(١)] وتتزاحم على تربته المقدسة مع الأحيان ، ماسجعت طيور البراعة من أعواد اليراعة على الأفنان ، والتفتت عيون المعانى ما بين أجفان البيان ، والدعاء لأبوابكم الشريفة جعل الله تعالى عصمته تقيم بها وظيفتى الحجابة والاستئذان ، وضرب بدعوتها التى هى لذة الإقامة والأذان على الآذان ، واستخدم بروج الفلك الدوار فى أمرها العزيز استخدام الأنصار والأعوان ، حتى يُعْلم مافى المدافعة عن حماها مَخالبَ السِّرحان ، وفى الإشادة بعدلها كفتى الميزان ، ويهدى لها من الزهرة كُرَةَ الميدان ، ومن الهلال عوَض الصولجان ، وأبقى فى عواملها ضمير الأمر والشان ، إلى يوم تعنو وجوه الملوك[(٢)] إلى الملك الديان ، فإنا كتبناه إلى تلك الأبواب كتبَ الله لعتبتها النصرة الداخلة ، كما أخجل بمكارمها السحب الباخلة ، وجعل مفارق مناصلها المختضبة من نجيع عِداها غير ناصِلة ، وقرَن بكل سبب عن أضدادها فاصلة ، من دار ملك الإسلام بالأندلس حَمراء غَرْناطة ـ وصل الله سبحانه عادة الدفاع عن أرجائها ! وشدّ بأيدى اليقين عُرَا أملها فى الله ورجائها !ـ حيث المصاف المعقود[(٣)] ، وثمن النفوس المنقود ، ونار الحرب ذات الوَقُود ، حيث الأفق قد تردى بالقتَام وتعمم ، والسيف قد تجرد وتيمم ، وغُبار الجهاد يقول : أنا الأمان من دخان جهنم ، حيث الإسلام من عدوّه كالشامة من جلد البعير ، والتمرة من أوسق العِيرِ ، حيث المَصارع تتزاحم الحورُ على شهدائها ، والأبطال يعلو بالتكبير مسمع ندائها ، حيث الوجوه الضاحكة المستبشرة قد زينتها الكلوم بدمائها ، وإن هذا القطر الذى مهدت لسياستنا أكوار مَطاياه ، وجُعلت بيدنا والمنة لله عِيابَ عَطاياه ، قطر مستقل بنفسه ، مُربٍ يومه فى البرّ على أمسه ، زكىّ المنابت عذب المشارب ، متمم المآمل مكمل المآرب ،

(١) الجديدان ـ ومثله الملوان ـ الليل والنهار ، ويمليها : يطيل مدتها

(٢) عنت : خضعت وذلت ، وفى القرآن الكريم (وعنت الوجوه للحي القيوم وقد خاب من حمل ظلما)

(٣) المصاف : الأماكن التى تصطف فيها الجيوش للحرب

فاره الحيوان ، معتدل السحَن والألوان ، وسيطة فى الأقاليم السبعة ، شاهدة لله بإحكام الصنعة ، أما خيله ففارهة ، وإلى الرَّكض شارهه ، وأما سيوفه فلمواطن الغمود كارهة ، وأما أسَلُه فمتداركة الخطف ، وأما عوَامله فبينة الحذف ، وأما نبالُه فمحذورة القذف ، إلا أن الإسلام به فى سَفَطٍ[(١)] مع الحيات ، وذَريعة للمنيات الوحِيَّات[(٢)] ، وهَدَف للنبال ، وأكلة للشِّبال[(٣)] ، تطؤهم الغارات المتعاقبة ، وتخيفهم الحدود المصاقبة ، وتجُوُس خلالهم العيون المراقبة ، وتريب من أشكال مختطِّهم إلا أن يتفضل الله بحسن العاقبة ، فليس إلا الصبر ، والضرب الهبر ، والهمز والنبر ، والمقابلة والجبر ، وقد حال البحر بينهم وبين إخوان ملتهم ، وأساة علتهم ، يقومون بهذا الفرض ، عن أهل الأرض ، ويقرضون مَلِكَ يوم العرض ، أحسن القرض ، فلولا بعد المدى ، وغُول الردى ، ولَغَطُ العدا ، وما عدا مما بدا[(٤)] ، لسمعتم تكبير الحملات ، وزئير تلك القِلات ، ودوِىَّ الحوافر ، وصليل السيوف من فوق المغافر ، وصُرَاخ الثكالى ، وارتفاع الأدعية إلى الله تعالى ، ولو ارتفع هذا المكان ، وهو للأولياء مثلكم من حيز الإمكان ، لمقلتم مقل الأسنة الزرق ، حالَّة من أطراف قَصَب الرماح محال الورق ، وأبصرتم القنا الخطار قد عاد أخلة ، والسيوف قد صارت فوق بدور الخوذِ أهلة ، وعقود الشهادة عند قاضى السعادة مستقلة ، وكان كما تحصره علومكم الشريفة حدق سور الفتح ، وآخر ولاء ذلك المنح ، عُرِض على الفاروق فاحتاط ، وأغرى به من بعده فاشتاط ، وسرحت خيال ابن أبى سَرْح ، فى خبر يَدْعو إلى شرح ، حتى إذا وَلَدُ مروان تقلدوا كُرَتَهَا التى هَوَتْ ، وقضوا ما أنضجت ورثة الحق وشوت ، ويدهم على الأمر احتوت ، وفازت منه بما نوت ، نفل ولائده الوليد ، وجلب له الطريف والتليد ، وطرقت خيل طارق

(١) السفط — بفتح السين والفاء جميعا — شبه الجوالق والقفة يعبأ فيه المتاع والطيب ونحوهما (٢) الوحيات : السريعات ، والموت الوحى : السريع

(٣) الشبال : جمع شبل ، وهو ولد السبع (٤) ذكر ابن خلكان فى ترجمة ابن عنين أن أول من قال « ماعدا مما بدا » هو على بن أبى طالب وأخذها ابن عنين فى قوله : يادهر ويحك ماعدا مما بدا أرسلت سهم الحادثات فأقصدا

وضاقت عن أخباره المهارق، وجلت الفائدة، وظهر على الذخيرة التى منها المائدة[١]، ثم استرسل المَهَبُّ، ونصر الرب، ويكثر الطير حين ينتثر الحب[٢] وصرفَتْ أشرافُ الشام أعِنَّتَهَا إلى التماس خيره، وطارت بأجنحة العزائم تيمناً بطَيْره، وقصدته الطلائع صحبة بلج بن بشر وغيره، ففتحت الأقفال، ونفلت الأنفال، ونجح الفال، ووُسمت الأغفال، وافتتحت البلاد الشهيرة، وانتقيت العذارى الخِيَرة، واقتنيت الذخيرة، وتجاوز الإسلام الدروب وتخطَّى، وخضد الأرْطَى، وأركب وأمطى، واستوثق واستوطا، وتثاءب وتمطَّى، حتى تعدّدت مراحل البريد، وسَخِنت عين الشيطان المَريد، واستوسق للإسلام ملكٌ ضَخْمُ السُّرادق، مرهوب البوَارق، رفيع العَمَد، بعيد الأمَد، تشهد بذلك الآثار والأخبار، والوقائع الكبار، والأوداق والأمطار، وهل يخفى النهار؟ ولكل هُبوب رُكود، والدهر حَسُود لمن يَسُود، فراجعت الفرنج كرتها، واستدركت مَعَرّتها، فدوّمت جوارحها وحَلَّقَتْ، وأومضت بوارقها وتألقت، وتشبثت وتعلقت، وأرسلت الأعِنَّة وأطلقت، وراجعت العقائلَ التى طَلَّقَتْ، حتى لم يبق من الكتاب إلا الحاشية، ولا من الليل إلا الناشِيَة، وسقطت الغاشية، وأخلدت الفئة المتلاشية، وتقلّصت الظلال الفاشية، إلا أن الله تدارك بقوم رُجّح من سَلَفنا أثبتوا فى مستنقع الحرب أقدامهم، وأخلصوا لله بأسهم وإقدامهم، ووَصَلوا سيوفهم البارقة بخُطَاهم[٣]، وأعطاهم منشور العز من أعطاهم، حين تعين الدين وتحيز، واشتد بالمدافعة وتميز، وعادت الحروب سِجَالا، وعلم الروم أن لله رجالا، وقد أوفد جدّنا - رضى الله عنه ! - على أبواب سلفكم من وقائعه فى العدو كل مُبَشِّرة، ووجوهٍ به مُسْتَبْشِرة، ضحكت لها ثغور الثغور، وسَرَتْ بها فى الأعطاف حُمَيّا السرور، وكانت المراجعة عنها شفاء

---

(١) أراد مائدة سليمان التى غنمها المسلمون حين الفتح وقد تقدم ذكرها مرارا

(٢) أخذ هذا من قول شيخ المحدثين بشار بن برد :

يسقط الطير حيث ينتثر الحـ ـب وتغشى منازل الكرماء

(٣) أخذ هذا من قول الأنصارى :

نصل السيوف إذا قصرن بخطونا قدما، ونلحقها إذا لم تلحق

للصدور، وتمائم[١] فى دُرَرِ النحور ، وخَفَرًا فى وجوه البدور[٢] ، فإن ذمام الإسلام موصول[٣] ، وفروعه تجمعها فى الله أصول، وما أقرب الحَزْن ممن داره صُول[٤] ، والملة — والمنّةُ لله — واحدة ، والنفوس لا منكرة للحق ولا جاحِدَة ، والأقدار معروفة ، والآمال إلى ما يوصِّل إلى الله مصروفة ، فإذا لم يكن الاستدعاء ، أمكن الدعاء ، والخواطر فعَّالة ، والكل على الله عَالَة ، والدين غريب والغريب يحن إلى أهله ، والمرء كثير بأخيه على بعد محله[٥]

انتهى المقصود من المخاطبة مما يتعلق بهذا الباب ، والله الموفق للصواب .

(١) التمائم : جمع تميمة ، وهى فى الأصل خرزة تنظم فى خيط ثم تعلق في العنق، وأراد بها كل عوذة يقصد بها دفع العين ، والنحور : الأعناق، واحدها نحر .

(٢) الخفر — بفتح الخاء والفاء جميعاً — الحياء ، أو أشده ، ومن أخذه الحياء احمر وجهه ، فهذا هو ما أراده من وجود الخفر فى الوجوه .

(٣) الذمام — بكسر الذال ، بزنة الكتاب — العهد والحرمة .

(٤) أخذ هذا من قول حندج بن حندج المرى ، وهو أحد شعراء الحماسة :

ما أقدر الله أن يدنى على شحط من داره الحزن ممن داره صول

(٥) أخذ هذا من قولهم « المرء قليل بنفسه ، كثير بإخوانه »

الباب الثالث

في سَرْد بعض ما كان للدين بالأندلس من العز السامى العِماد ، والقهر للعدوّ في الرواح والغدوّ والتحرك والهدوّ والارتياح البالغ غاية الآماد[١] ، وإعمال أهلها للجهاد ، بالجدّ والاجتهاد ، في الجبال والوهاد[٢] ، بالأسنة المشرَعَة[٣] والسيوف المستلَّة من الأغماد[٤]

أقول : قدمنا في الباب قبل هذا ما كان من نصر المسلمين ، وفتحهم الأندلس ، وما حصل لهم من سُلْطان بها إلى مجيء الداخل[٥] ، فتقررت القواعد السلطانية ، وعلت الكلمة الإيمانية ، كما نَسْرُده هنا إن شاء الله تعالى .

دولة بنى أمية بالأندلس

وذكر غير واحد — منهم ابن حزم — أن دولة بنى أمية بالأندلس كانت أنبلَ دول الإسلام ، وأنكاها في العدو[٦] ، وقد بلغت من العز والنصر مالا مزيد عليه ، كما سترى بعضه .

وأصل هذه الدولة — كما قال ابن خلدون وغير واحد — أن بنى أمية لما نزل بهم بالمشرق ما نزل ، وغلبهم بنو العباس على الخلافة ، وأزالوهم عن كرسيها ، وقتل عبدُ الله بن على مروانَ بن محمد بن مروان بن الحكم آخِرَ خلفائهم سنة ثنتين

---

(١) الآماد : جمع أمد ، بزنة سبب وأسباب وجمل وأجمال ، والأمد : الغاية من الزمان .

(٢) الوهاد : جمع وهدة ، بزنة قصعة وقصاع ، والوهدة : المكان المنخفض والمطمئن من الأرض

(٣) المشرعة : اسم المفعول من قولهم « أشرع فلان سيفه » إذا سدده وصوبه نحو خصمه .

(٤) الأغماد : جمع غمد، بكسر الغين وسكون الميم ، وهو قراب السيف وجفنه

(٥) الداخل : هو عبد الرحمن بن معاوية ، الأموى ، وسيذكر المؤلف حديثه

(٦) أنكى : أفعل تفضيل من قولهم « نكى فلان في عدوه » إذا أوهنه وأضعفه

وثلاثين ومائة ، وتتبع بنى مروان بالقتل ، فطلبوا بطن الأرض من بعد ظهرها[١] ، وكان ممَّنْ أفلتَ منهم عبدُ الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان ، وكان قومه يتحيَّنُون له[٢] ملكا بالمغرب ، و يرون فيه علامات لذلك يأثرونها عن مَسْلمة بن عبد الملك ، وكان هو قد سمعها منه مشافهة ، فكان يحدّث نفسه بذلك ، فخاص إلى المغرب ، ونزل على أخواله نفزَة[٣] من برابرة طرابلس ، وشعر به عبدُ الرحمن ابن حبيب ، وكان قد قتل ابنى الوليد بن يزيد بن عبد الملك لما دخلا إفريقية ، فلحق بمُغِيلة[٤] ، وقيل بمكناسة ، وقيل : بقوم من زَنَاتة ، فأحسنوا قبوله ، واطمأن فيهم ، ثم لحق بمَلِيلة ، و بعث بَدْرًا مولاه إلى مَنْ بالأندلس من موالى المروانيين وأشياعهم ، فاجتمع بهم و بَثُّوا له فى الأندلس دعوة ، ونشروا له ذكراً ، ووافق قدومه ما كان من الإحَنِ[٥] بين اليمنية والمضرية ، فأصفقت اليمنية[٦] على أمره ، لكون الأمر كان ليوسف بن عبد الرحمن الفِهْرِى وصاحبه الصُّميل ، ورجع بَدْر مولاه إليه بالخبر ، فأجاز البحر سنة ثمان وثلاثين ومائة فى خلافة أبى جعفر المنصور ، ونزل بساحل المنكَّبِ ، وأتاه قوم من أهل إشْبيلِيَةَ فبايعوه ، ثم انتقل إلى كورة رَيَّةَ فبايعه عاملها عيسى بن مُسَاور ، ثم إلى شَذُونة فبايعه عتاب بن علقمة اللخمى ثم إلى مورور[٧] فبايعه ابن الصباح ، ونهَد إلى قُرْطُبة فاجتمعت إليه اليمنية ، ونُمِى

أمر عبد الرحمن الداخل

---

(١) طلبوا بطن الأرض : يريد أنهم اختفوا وبالغوا فى الاختفاء حتى لكأن الأرض ابتلعتهم

(٢) يتحينون : يترقبون وينتظرون

(٣،٤) نفزة : قبيلة من قبائل البربر سميت بهم قرية بمالقة ، وكذلك مغيلة

(٥) الإحن : جمع إحنة ، وهى العداوة والبغض والحقد والكراهية

(٦) أصفقت اليمانية : اجتمعت واتفقت

(٧) مورور : كورة متصلة بأحواز قرمونة ، وهى فى الغرب والجوف من كورة شذونة ، وذكرها فى الروض براءين مهملتين كما فى أصول هذا الكتاب ، وفى معجم ياقوت « موزور » بزاى بين الواوين

خبره إلى والى الأندلس يوسفَ بن عبد الرحمن الفهرى ، وكان غازيا بجِلِّيقية ، فانفضَّ عسكره ، ورجع إلى قُرْطُبة ، وأشار عليه وزيره الصُّميل بن حاتم بالتلطف له ، والمكر به ، لكونه صغير السن ، حديثَ عهدٍ بنعمة ، فلم يتم ما أراده ، وارتحل عبدُ الرحمن من المنكَّبِ ، فاحتلّ بمالَقَة فبايعه جندها ، ثم برُنْدَة ، ثم بشَريش كذلك ، ثم بإشْبيلِيَةَ ، فتوافت إليه جنود الأمصار ، وتسايلت المضرية إليه ، حتى إذا لم يَبْقَ مع يوسف بن عبد الرحمن غيرُ الفهرية والقَيْسية لمكان الصُّميل منه زَحَف حينئذ عبدُ الرحمن الداخل ، وناجزهم الحرب بظاهر قُرْطبة ، فانكشف يوسف ، ولجأ إلى غرْناطة فتحصّن بها ، واتبعه الأمير عبدُ الرحمن فنازله ، ثم رغب إليه يوسف فى الصلح ، فعقد له على أن يسكن قُرْطُبة ، ثم أقفله معه ، ثم نقض يوسف عهده ، وخرج سنة إحدى وأربعين ومائة ، ولحق بطُلَيْطلة ، واجتمع إليه زُهَاء عشرين ألفا من البربر ، وقدَّم الأميرُ عبدُ الرحمن للقائه عبدَ الملك ابن عمر المروانى ، وكان وَفَدَ عليه من المشرق ، وكان أبوه عمر بن مَرْوان بن الحكم فى كَفَالة أخيه عبدِ العزيز بن مروان بمصر ، فلما دخلت المسوّدة أرضَ مصر خرج عبد الملك يؤمُّ الأندلس فى عشرة رجال من قومه مشهورين بالبأس والنجدة ، حتى نزل على عبد الرحمن سنة أربعين ، فعقد له على إشبيلِيَةَ ، ولابنه عمرَ بن عبد الملك على مَوْرور ، وسار يوسف إليهما ، وخرجا إليه ولقياه ، وتناجز الفريقان ، فكانت الدائرة على يوسف ، وأبعد المفرَّ ، واغتاله بعض أصحابه بناحية طُلَيْطلة ، واحتز رأسَه ، وتقدم به إلى الأمير عبد الرحمن ، فاستقام أمره ، واستقر بقُرْطُبة ، وثبت قَدَمُه فى الملك ، و بنى المسجد الجامع والْقَصْر بقرطبة ، وأنفق فيه ثمانين ألف دينار ، ومات قبل تمامه ، و بنى مساجد ، ووفد عليه جماعة من أهل بيته من المشرق ، وكان يدعو للمنصور ، ثم قطع دَعْوته ، ومهَّد الدولة بالأندلس ، وأثّل بها الملك العظيم لبنى مروان والسلطان العزيز ، وجدّد ما طمس لهم بالمشرق من معالم الخلافة وآثارها ، واستلحم الثُّوّار عليه على كثرتهم فى النَّوَّاحى ،

وقطع دعوة آل العباس من منابر الأندلس ، وسدَّ المذاهب منهم دونها ، وهلك سنة ثنتين وسبعين ومائة ، وكان يُعْرف بعبد الرحمن الداخل ، لأنه أول داخل من ملوك بنى مروان إلى الأندلس ، وكان أبو جعفر المنصور يُسَميه «صَقْرَ قريش» لما رأى أنه فعل بالأندلس ما فعل ، وما ركب إليها من الأخطار ، وأنه نَهَد إليها من أنأى ديار المشرق من غير عصابة ولا أنصار ، فغلب أهلهَا على أمرهم ، وتناول الملك من أيديهم بقوّة شَكيمة ، ومَضَاء عَزْم حتى انقاد له الأمر (١) ، وجرى على اختياره ، وأورثه عقبه ، وكان يسمى بالأمير ، وعليه جرى بَنُوه من بعده ، فلم يُدْعَ أحد منهم بأمير المؤمنين تأدبا مع الخلافة بمقر الإسلام ومُنْتَدى العرب ، حتى كان من عقبه عبدُ الرحمن الناصر ، وهو ثامن بنى أمية بالأندلس ، فتسمى بأمير المؤمنين على ما سنذكره ، لما رأى من ضعف خلفاء بنى العباس بعد الثلثمائة ، وغلبة الأعاجم عليهم ، وكونهم لم يتركوا لهم غير الأسم ، وتوارث التلقيب بأمير المؤمنين بنو عبد الرحمن الناصر واحداً بعد واحد .

أبناء عبد الرحمن الداخل

قال ابن حيان : وكان لبنى عبد الرحمن الداخل بالعُدْوَة الأندلسية مُلْك ضخم ودولة متسعة اتصلت إلى ما بعد المائة الرابعة ، وعند ما شُغل المسلمون بعبد الرحمن وتمهيد أمره قوى أمرُ الجلالقة ، واستفحل سلطانهم ، وعمد فرويلة بن أدفونش ملكهم إلى ثغور البلاد فأخرج المسلمين منها ، وملكها من أيديهم ، فملك مدينة لُكَّ وبرتقال وَسَمُّورة وَقَشْتَالة وشَقُوبِيَة ، وصارت للجلالقة حتى افتتحها المنصور ابن أبى عامر آخرَ الدولة ، ثم استعادوها بعده فيما استعادوه من بلاد الأندلس ، واستوْلَوْا على جميعها حسبما يذكر ، ولله سبحانه الأمر ، اهـ .

---

(١) يقال « فلان ذو شكيمة » إذا كان صارما ذا حدة عسير الانقياد ، ويقال « فلان قوى الشكيمة » إذا كان شديد الأنفة قوى النفس أبيا للضيم . والمضاء : النفاذ ، وأصله مضاء السيف ونحوه وهو نفاذه فى ضريبته ، والعزم : الهم بالشىء والقصد إليه

وخاطب عبد الرحمن قارلة ملكَ الإفرنج ، وكان من طُغاة الإفرنج ، بعد أن تمرّسَ به مدة ، فأصابه صُلْبَ المكسرِ [١] ، تام الرجولية ، فمال معه إلى المدارة ، ودعاه إلى المصاهرة والسلم ، فأجابه للسلم ، ولم تتم المصاهرة .

قال ابن حيان : ولما ألفى الداخل الأندلس ثغراً قاصياً غُفْلا [٢] من حِلْية الملك عاطلا أرْهَفَ أهلها بالطاعة السلطانية ، وحَنّكهم بالسيرة الملوكية ، وأخذهم بالآداب فأكسبهم عما قليلٍ المروءةَ ، وأقامهم على الطريقة ، وبدأ فدوّن الدواوين ، ورفع الأواوين [٣] ، وفرض الأعْطية ، وَعَقَدَ الألْوِية ، وَجَنّدَ الأجناد ، ورفع العِماد ، وأوثق الأوتاد ، فأقام للملك آلته ، وأخذ للسلطان عُدّته ، فاعترف له بذلك أكابر الملوك وَحَذِروا جانبه ، وتحاموا حَوْزَته ، ولم يلبث أن دانت له بلاد الأندلس ، واستقل له الأمر فيها

فلذلك ما ظل عدوه أبو جعفر المنصور - بصِدْق حِسّهِ ، وَ بُعْدِ غَوْره ، وَسَعة إحاطته - يسترجحُ عبدَ الرحمن كثيراً ، ويَعْدِله بنفسه ، ويكثر ذكره ، ويقول : لا تعجبوا لامتداد أمرنا مع طول مِرَاسه وقوة أسبابه ، فالشأن فى أمر فتى قريش الأحوذيِّ [٤] الفذ فى جميع شؤونه ، وعدمه لأهله ونَشَبه ، وتسلِّيه عن جميع ذلك ببعد مَرْقى همته ، وَمَضاء عزيمته ، حتى قذَفَ نفسه فى لجج المهالك لابتناء مجده ، فاقتحم جزيرةً شاسعة المحل ، نائية المطمع ، عصبية الجند ، ضرب بين جُنْدِها بخصوصيته ، وقَمَعَ بعضهم ببعض بقوة حيلته ، واستمال قلوبَ رعيتها بقضية سياسته ، حتى انقاد له عَصِيّهُمْ ، وذل له أبِيّهم ، فاستولى فيها على أريكته ، ملكا على قطيعته ، قاهراً لأعدائه ، حامياً لذماره ، مانعاً لحَوْزَته ، خالطاً الرغبة إليه بالرهبة منه ، إن ذلك لهو الفتى كلُّ الفتى لا يكذب مادحه .

وصف أبى جعفر المنصور لعبد الرحمن الداخل

(١) تمرس به : تعرض له ، وأصابه : وجده ، وصلب المكسر : شديدا قويا لا يلين ولا يخور ، فلا يطمع فيه أعداؤه لذلك (٢) الثغر : المكان الذى تخاف عليه العدو لكونه على تخومه ، والقاصى : البعيد ، والغفل - بضم فسكون - الخالى

(٣) الأواوين : جمع إيوان ، والعامة تقول لوان ، وهو بيت يبنى طويلا

(٤) الأحوذى : السريع فى كل ما أخذ فيه ، ومنه قول الشاعر :

لقد أكون على الحاجات ذا لبث وأحوذيا إذا انضم الذعاليب

توافق المنصور وعبد الرحمن فى الخلق

وجعل ابن حيان من النوادر العجيبة موافقة عبد الرحمن هذا لأبى جعفر المنصور فى الرجولية والاستيلاء والصَّرامة ، والاجتراء على الكبائر والقساوة ، فإن أم كل واحد منهما بربرية ، وكان الداخل يقعد للعامة ، ويسمع منهم ، وينظر بنفسه فيما بينهم ، ويتوصل إليه من أراده من الناس ، فيصل الضعيف منهم إلى رفع ظلامته إليه دون مشقة ، وكان من عادته أن يأكل معه من أصحابه مَن أدرك وقت طعامه ، ومَن وافق ذلك من طلاب الحوائج أكل معه .

وفى كتاب ابن زيدون أنه كان أصْهَب[1] ، خفيفَ العارضين ، بوجهه خالٌ[2] ، طويل القامة ، نحيف الجسم ، له ضفيرتان ، أعور ، أخشم ؛ والأخشم : الذى لايشم ، وكان يلقب « بصقر قريش » لكونه تغرب وقطع البر والبحر ، وأقام ملكا قد أدبر وحده .

ولما ذكر الحجارى أنه أعور قال : ما أنشد فيه إلا قول امرئ القيس[3] :

لكن عُوَيرٌ وَفَى بذمَّتِه لاعَوَرٌ شَانَهُ ولا قِصَرُ

المنصور يبعث من يدعو له فى الأندلس فيقتله عبد الرحمن

وقال ابن خلدون : وفى سنة ست وأربعين سار العَلَاء بن مُغيث اليَحْصُبى من إفريقية إلى الأندلس ، ونزل بباجة الأندلس داعياً لأبى جعفر المنصور ، واجتمع إليه خلق ، فسار عبدُ الرحمن إليه ولقيه بنواحى إشبيلية ، فقاتله أياما ، ثم انهزم العَلَاء ، وقتل فى سبعة آلاف من أصحابه ، وبعث عبد الرحمن برؤس كثير منهم إلى القَيْرَوان ومكة ، فألقيت فى أسواقها سرا ، ومعها اللواء الأسود وكتاب المنصور للعَلاء ، فارتاع المنصور لذلك وقال : ماهذا إلا شيطان ، والحمد لله الذى جعل بيننا وبينه البحر ، أو كلاما هذا معناه ، وقد مر ذكر ذلك ، وكثرت

---

(١) الأصهب : الوصف من الصهبة ـ بضم الصاد وسكون الهاء ـ وهى لون حمرة أو شقرة في شعر الرأس

(٢) الخال : نكتة سوداء فى الوجه ، وهى من علامات الجمال عند النساء

(٣) كان عوير بن شجنة الطائى قد أجار هند ابنة حجر أخت امرئ القيس فوفى لها ، وفى ذلك يقول امرؤ القيس أبياتا منها هذا البيت

ثورة رؤساء العرب بالأندلس على عبد الرحمن الداخل ، ونافسوه ملكه ، ولقي منهم خطوبا عظيمة ، وكانت العاقبة له ، واستراب فى آخر أمره بالعرب ، لكثرة مَن قام عليه منهم ، فرجع إلى اصطناع القبائل من سواهم ، واتخاذ الموالى ، ثم غزا بلاد الإفرنج وَالبَشْكَنْس ومَن وراءهم ، ورجع بالظَّفَر ، وكان فى نيته أن يجدِّد دولة بنى مروان بالمشرق ، فمات دون ذلك الأمل ، وكانت مدة ملكه ثلاثا وثلاثين سنة وأربعة أشهر، إذ دخل الأندلس سنة ثمان وثلاثين ومائة ، ومات سنة اثنتين وسبعين ، وقيل : إحدى وسبعين ومائة ، فى خلافة الرشيد ، وأمه أم ولد بَرْبَرية اسمها راح، ومولده سنة ثلاث عشرة ومائة ، بديرحنا[1] من أرض دمشق ، وقيل : بالعليا من تدمُر ، ومات أبوه فى أيام أبيه هشام سنة ثمان عشرة عن إحدى وعشرين سنة ، وكفله وإخوتَه جدُّهم هشام ، ووَهب لعبد الرحمن هذا جميع الأخماس التى اجتمعت للخلفاء بالأندلس ، وأقطعه إياها ، ووَجَّه لحيازتها من الشام سعيد بن أبى ليلى ، وقيل : إنه لما قصد المغرب من فلسطين خرج معه أربعة : بدر مولى أبيه ، وأبو شجاع ، وزياد ، وعمرو ، وقيل : إن بدراً لحقه ولم يخرج معه فالله أعلم ، وخلف من الولد عشرين ، منهم أحد عشر رجلا وتسع أناث .

هرب عبد الرحمن من الشام

وحكى غير واحد أنه لما هرب من الشام إلى إفريقية قاصداً الأندلس نزل بمُغيلة ، فصار بها عند شيخ من رؤساء البربر يدعى وانسوس ، ويكنى أبا قُرَّة ، فاستتر عنده وقتاً ، ولحق به بدر مولى أبيه بجوهرٍ وذهبٍ أنفذته أخته إليه ، فلما دخل الأندلس واستتبَّ أمره به سار إليه أبوقرة وانسوس البربرى ، فأحسن إليه ، وحَظِى عنده ، وأكرم زوجته تكفات البربرية التى خبأته تحت ثيابها عندما فتشت

(١) هذا الكلام غير مستقيم ، فإن « دير حنة » يحدده ياقوت بأنه « دير قديم بالحيرة منذ أيام بناه المنذر لقوم من تنوخ يقال لهم بنو ساطع » فلعل أصل العبارة « بدير خالد » وهو دير بدمشق مقابل باب الفراديس ، وأصل اسمه « دير صليبا » إلا أن سيف الله خالد بن الوليد لما حاصر دمشق نزل فيه فنسب إليه ، ويحدده ابن الكلبى بأنه « على ميل من الباب الشرقى »

رسل ابن حبيب يبتها عنه ، فقال لها عبـــد الرحمن مداعباً حين استظلت بظله فى الأندلس : لقد عذبتنى بريح إبطَيْكِ ياتـَـكْفات على ما كان بى من الخوف ، وسطعتنى بأنتَنَ من ريح الجيف ، فكان جوابها له مسرعة : بل ذلك كان والله ياسيدى منك ، خرج ولم تشعر به من فرط فزَعك ، فاستظرف جوَابها ، وأغضى عن مواجهتها بمثل ذلك ، وهذا من آفات المزاح .

ومن محاسنه أنه أدار السور بقرطبة ، رحمه الله !.

هشام بن عبد الرحمن الداخل

وتولى الملك بعدَه ابنه هشام بعهد منه إليه ، وأمه أم ولد اسمها حُلَل ، وأفضى إليه الملك وهو بمـاردَةَ والٍ عليها ، وكان أبوه يوليه فى صِباه و يرشحه للأمر ، وكان الداخل كثيراً مايسأل عن ابنيه سليمان وهشام ، فيـذكر له أن هشاما إذا حضر مجلساً امتلأ أدبا وتاريخاً وذكرا لأمور الحرب ومواقف الأبطال ، وما أشبه ذلك ، و إذا حضر سليمان مجلساً امتلأ سخفاً وهذياناً ، فيكبر هشام فى عينه بمقدار مايصغر سليمان ، وقال يوما لهشام : لمن هذا الشعر :

وَتَعْرِف فيه من أبيـــه شمائلاً ومن خاله أومِنْ يزيد ومن حُجُرْ[1]

سَمَاحة ذا ، مع برذا ، ووفاء ذا ، ونائل ذا ، إذا صحا و إذا سكر

فقال له : ياسيدى لامرئ القيس ملك كندة[2] ، وكأنه قاله فى الأمير أعزه الله ! فضمه إليه استحساناً بمـا سمع منه ، وأمر له بإحسان كثير ، وزاد فى عينه ، ثم قال لسليمان على انفراد : لمن هذا الشعر ؟ وأنشده البيتين ، فقال : لعلهما لأحد أجلاف العرب ،

---

(١) الشمائل : جمع شمال ، وهى السجية والخلق والطبيعة ، وقال الشاعر عبد يغوث :

ألم تعلما أن الـملامة نفعهـا قليل ، ومالومى أخى من شماليا

وحجر أصله بضم الحاء وسكون الجيم ، إلا أنه لما احتاج إلى إقامة الوزن أتبع الجيم للحاء فضمها ، والعرب تفعل ذلك كثيراً ، قالوا «غصن» فضموا الصاد وأصلها التسكين

(٢) البيتان من قصيدة لامرىء القيس بن حجر الـكندى يقولهـا فى سعد بن الضباب ، وهو - فيما زعموا - أخو امرىء القيس ، لأن أم سعد كانت زوجا لحجر ، ثم فارقها وهى حامل ، فتزوجت الضباب فولدت سعدا على فراشه فنسب إليه .

أمالى شُغل غير حفظ أقوال بعض الأعراب؟ فأطرق عبدالرحمن، وعلم قدر ما بين الاثنين من المزية.

زهد هشام وسببه

ولما ولى هشام أشخَصَ المنجم المعروف بالضبى من وطنه الجزيرة الخضراء إلى قُرْطُبة، وكان فى علم النجوم والمعرفة بالحركات العلوية بطليموس زمانه حِذْقا وإصابة، فلما أتاه خلابه وقال له: يا ضبى، لست أشك أنه قد عَنَاك من أمرنا إذ بلغك مالم نَدَعْ تحديد النظر فيه، فأنشدك الله إلا ما نبأتنا بما ظهر لك فيه، فلَجْلَج وقال: أعفنى أيها الأمير، فإنى ألممت به، ولم أحقق النظر فيه لجلالته فى نفسى، فقال له: قد أجلتك لذلك، فتفرّغ للنظر فيما بقى عليك منه، ثم أحضره بعد أيام، فقال: إن الذى سألتك عنه جدّ منى، مع أنى والله ما أثق بحقيقته، إذ كان من غَيْب الله الذى استأثر به، ولكنى أحب أن أسمع ماعندك فيه، فالنفس طُلَعَة[1]، وألزمه الصِّلة أو العقوبة، فقال: اعلم أيها الأمير أنه سوف يستقر ملكك، سعيداً جدّك، قاهراً لمن عاداك، إلا أن مدّتك فيه فيما دل عليه النظر تكون ثمانية أعوام أو نحوها، فأطرق ساعة ثم رفع رأسه وقال: يا ضبى ما أخوفنى أن يكون النذير كلمنى بلسانك، والله لو أن هذه المدة كانت فى سَجْدة لله تعالى لقلّتْ طاعةً له، ووصَلَهُ وخلع عليه، وزهد فى الدنيا، ولزم أفعال الخير والبر.

مثال من جود هشام

ومن حكاياته فى الجود أنه كان قاعداً لراحته فى عِلِّية[2] على النهر فى حياة والده، فنظر إلى رجل من قدماء صنائعه من أهل جَيَّان قد أقبل يُوضِع السير فى الهاجرة، فأنكر ذلك، وقدّر شرا وقع به من قبل أخيه سليمان، وكان والياً على جَيَّان، فأمر بإدخاله عليه، فقال له: مهيم يا كنانى، فلأمرما، وما أحسَبُك إلا مزعجاً لشىء دَهَمك، فقال: نعم ياسيدى، قَتَلَ رجل من قومى رجلا خطأ،

(١) طلعة ـ بضم الطاء وفتح اللام ـ كثيرة التطلع إلى الشىء والتشوف له

(٢) العلية ـ بكسر العين أو ضمها وتشديد اللام مكسورة ثم ياء مشددة مفتوحة ـ الغرفه فوق غرفة

فحملت الدية على العاقلة ، فأخذ بها من كنانة عامة ، وحُمِلَ علىّ من بينهم خاصة ، وقصدنى أخوك بالاعتداء إذ عرف مكانى منك ، فمد هشام يده إلى جارية كانت وراء الستر ، وقطع قلادة عقد نفيس كان فى نحرها ، وقال له : دونك هـذا العقد يا كنانى ، وشراؤه على ثلاثة آلاف دينار ، فلا تُخْدَعَنّ عنه ، وبعه ، وأدِّ عن نفسك وعن قومك ، ولا تمكن الرجل من اهتضامك ، فقال : يا سيدى ، لم آتك مستجديا ولا لضيق المال عما حملته ، ولكنى لما اعتُمِدْت بظلم صُرَاح [1] أحببت أن يظهر على عِزّ نصرك ، وأثر ذبِّك وامتعاضك [2] ، فأتمجَّدَ بذلك عند من يحسدنى على الانتماء إليك ، فقال هشام : فما وجه ذلك ؟ فقال : أن تكتب إلى أخيك فى الإمساك عنى ، والقيام بذِمَّتك لى ، فقال : أمسك العقد ، وركب من حينه إلى والده الداخل ، واستأذن عليه فى وقت أنكره ، فانزعج ، وقال : ما أتى بأبى الوليد فى هذا الوقت إلا أمر مقلق ، ائذنوا له ، فلما دخل سلم عليه ، ومَثَل قائما بين يديه ، فقال له : اجلس يا هشام ، فقال : أصلح الله الأمير سيدى ، وكيف جلوسى بهمٍّ وذل مزعج ، وحُقَّ لمن قام مقامى أن لا يجلس إلا مطمئناً ، ولن يقعدنى إلا طيبُ نفسى بإسعاف الأمير لحاجتى ، وإلا رجَعْتُ على عَقِبى ، فقال له : حاشَ لك من انقلابك [3] خائباً ، فاقعد مُجَابا مُشَفَّعاً ، فجلس ، فقال له أبوه : فما الحدث المقلق ؟ فأعلمه ، فأمر بحَمْل الدية عنه وعن عشيرته من بيت المال ، فسُرَّ هشام وأطنب [4] فى الشكر ، وكتب الأمير إلى ولده سليمان فى ترك التعرض لهذا الكنانى بما لم يدُر فى خَلَده .

ولما دخل الكنانى لوَدَاع هشام قال له : يا سيدى قد تجاوزتُ بك حَدَّ

---

(١) اعتمدت — بالبناء للمجهول — قصدت ، والظلم الصراح — بضم الصاد — الذى لا عدل معه

(٢) الذب : أراد دفاعه عنه ، والامتعاض : أراد به ما يظهر من غضبه واستعظام ما وقع عليه

(٣) انقلابك : رجوعك وعودتك

(٤) أطنب في الشكر : أطال فى عبارته وأكثر منه

الأمْنية ، و بلغت غاية النصر ، وقد أغنى الله عن العقد المبذول بين يدى العناية الكريمة ، فتعيده إلى صاحبته ، فأبى من ذلك ، وقال : لا سبيل إلى رجوعه إلينا

وكان هشام يذهب بسيرته مذهبَ عمر بن عبد العزيز ، وكان يبعث بقوم من ثقاته إلى الكُوَر فيسألون الناس عن سير عُمَّاله ، ويخبرونه بحقائقها ، فإذا انتهى إليه حَيْف[1] من أحدهم أوقع به وأسقطه وأنصف منه ، ولم يستعمله بعد .

ولما وصفه زياد بن عبد الرحمن لمالك بن أنس قال : نسأل الله تعالى أن يزين مَوْسمنا بمثل هذا .

وفى أيامه فتحت أَرْبُونة الشهيرة ، واشترط على المعاهدين من أهل جِلّيقية من صعاب شروطه انتقال عدد من أحمال التراب من سور أَرْبُونة المفتتحة يحملونها إلى باب قصره بقُرْطُبة ، و بنى منه المسجدَ الذى قدام باب الجنان ، وفضلت منه فضلة بقيت مكوّمة .

وقاسى مع المخالفين له من أهل بيته وغيرهم حروبا ، ثم كانت الدائرة له .

وقصد إلى بلاد الحرب غازيا ، وقصد ألبَةَ[2] والقلاع ، فلقى العدوّ وظفر بهم ، وفتح الله عليه سنة خمس وسبعين ، و بعث العساكر إلى جِلّيقية مع يوسف بن بخية[3] ، فلقى ملكها ابن منده[3] ، وهزمه ، وأثخن فى العدو .

وفى سنة ست وسبعين بعث وزيره عبدَ الملك بن عبد الواحد بن مغيث لغزاة العدوّ ، فبلغ ألبة والقلاع[2] ، فأثخن فى نواحيها ، ثم بعثه فى العساكر سنة سبع وسبعين إلى أَرْبُونة وجريدة[3] فأثخن فيها ، ووطىء أرض برطانية ، وتوغل عبدُ الملك فى بلاد الكفار وهزمهم ، ثم بعث العساكر مع عبد الكريم بن

(١) الحيف : الظلم والجور وانتقاص الحق من صاحبه

(٢) ذكر فى الروض « أولية السهلة » وقال : إنها قريبة من قرطبة تعرف بالرملة ، وهى أم الأقاليم ، كثيرة الأهل ، واسعة الخطة ، مثمرة الأرضين ، بها ديار للعجم متقنة البنيان . وذكر ياقوت « ألية » بضم الهمزة وسكون اللام وياء مفتوحة ، وقال : إنه اسم إقليم من نواحى إشبيلية . والموجود فى أصول هذا الكتاب « ألبة » بالباء الموحدة ، وهو صحيح

(٣) كذا

عبد الواحد إلى ألبة والقلاع سنة ثمان وسبعين ، ومع أخيه عبد الملك بن عبد الواحد إلى بلاد جِلّيقية ، فانتهى إلى اسْتُرْقَة ، فجمع له ملك الجلالقة واستمد بملك البَشْكَنْس ، ثم خام[1] عن اللقاء ، ورجع أدْرَاجَه ، واتبعه عبدُ الملك ، وكان هشام قد بعث الجيوش من ناحية أخرى ، فالتقوا بعبد الملك ، وأثخنوا فى البلاد ، واعترضتهم عساكر الفرنج فنالوا منهم بعضَ الشىء ، ثم خرجوا سالمين ظافرين .

ومن محاسنه أنه جدّد القنطرة التى يُضْرب بها المثل بقرطبة كما سبق ، وكان بنَاهَا السَّمْح الخَوْلانى عاملُ عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه ، فأحكم هشام بناءها إلى الغاية ، وقال يوماً لأحد وزرائه : ما يقول أهل قرطبة ؟ فقال : يقولون : ما بناها الأمير إلا ليمضى عليها إلى صيده وقنَصه ، فآلى هشام على نفسه[2] أن لا يسلك عليها ، فلم يمرَّ عليها بعدُ ، ووفى بما حلف عليه .

ثم توفى سنة ثمانين ومائة ، لسبع سنين وتسعة أشهر من إمارته ، وقيل : لثمان ، وكان من أهل الخير والصلاح ، كثير الغزو والجهاد .

ومن محاسنه أيضاً إكمال بناء الجامع بقُرْطُبة ، وكان أبوه شَرَع فيه ، ومن محاسنه أنه أخرج المصَّدِّق[3] لأخذ الزكاة على الكتاب والسنة ، رحمه الله ! .

وعمره أربعون سنة وأربعة أشهر ، وولد فى شوّال سنه ١٣٧ .

الحكم بن هشام

وولى بعده ابنه الحكم بعهدٍ منه إليه ، فاستكثر من المماليك ، وارتبط الخيل ، واستفحل ملكه ، وباشر الأمور بنفسه ، وفى خلال فتنة كانت بينه وبين عميه اغتنم العدوُّ الكافر الفرصَةَ فى بلاد المسلمين ، وقصد بَرْشِلُونة فملكوها سنة خمس وثمانين ، وتأخرت عساكر المسلمين إلى ما دونها ، وبعث الحكم العساكر مع

---

(١) خام عنه : جبن ونكص ولم يقو عليه

(٢) آلى — ومثله تألى — حلف وأقسم

(٣) المصدق : أصله المتصدق ، فقلبت التاء صادا ، ثم أدغمت الصاد فى الصاد ، وأراد بالمصدق عامل الزكاة ، وهو الذى يجمعها ممن وجبت عليهم ، ويقال له الجابى أيضا

الحاجب عبد الكريم بن مُغيث إلى بلاد الجلالقة ، فأثخنوا فيها ، وخالفهم العدو إلى المَضَايق ، فرجع على التعبية ، وظفر بهم ، وخرج إلى بلاد الإسلام ظافرا ، وكانت له الواقعة الشهيرة مع أهل الرَّبَضِ[١] من قُرْطُبة لأنه فى صدر ولايته كان قد انهمك فى لَذَّاته ، فاجتمع أهلُ العلم والورَع بقُرْطُبة ، مثل يحيي بن يحيي الليثى صاحب مالك وأحد رواة الموطَّأ عنه وطالوت الفقيه وغيرهما ، فثاروا به ، وخلعوه ، وبايعوا بعضَ قرابته ، وكانوا بالرَّبَضِ[١] الغربىّ من قُرْطُبة ، وكان محلّه متصلا بقصره ، فقاتلهم الحكم ، فغلبهم ، وافترقوا ، وهدم دورهم ومساجدهم ، ولحقوا بفاس من أرض العُدْوة ، وبالإسكندرية من أرض المشرق ، ونزل بها جمع منهم ، ثم ثاروا بها ، فزحف إليهم عبدُ الله بن طاهر صاحب مصر للمأمون بن الرشيد ، وغلبهم ، وأجازهم إلى جزيرة أقريطِشَ ، فلم يزالوا بها إلى أن ملكها الإفرنج من أيديهم بعد مدَّة .

حروب الحكم وفتوحه

وكانت فى أيام الحكم حروب وفتن مع الثوَّار المخالفين له من أهل طُلَيْطلة وغيرهم .

وفى سنة ثنتين وتسعين جمع لُذَريق بن قارِلَةَ ملك الفرنج جموعَه ، وسار إلى حصار طَرَسُونة[٣] ، فبعث الحكم ابنَه عبدَالرحمن فى العساكر ، فهزمه ، ففتح الله على المسلمين ، وعاد ظافراً .

ولما كثر عَيْثُ الفرنج فى الثغور بسبب اشتغال الحكم بالخارجين عليه سار بنفسه إلى الفرنج سنة ست وتسعين ، فافتتح الثغور والحصون ، وخَرَّب النواحى ، وأثخن فى القتل والسبى والنهب ، وعاد إلى قُرْطُبة ظافراً .

---

(١) الربض ــ بفتح الراء والباء جميعاً ــ كل ما كان حول المدينة من بيوت ومساكن

(٢) أقريطش : بفتح الهمزة وتكسر ، والقاف ساكنة ، والراء والطاء مكسورتان بينهما ياء ساكنة « اسم جزيرة فى بحر المغرب يقابلها من بحر إفريقية لوبيا ، وهى جزيرة كبيرة فيها مدن وقرى » اه من ياقوت

(٣) طرسونة ــ بفتح الطاء والراء جميعا ــ مدينة « بينها وبين تطيلة أربعة فراسخ معدودة فى أعمال تطيلة ، كان يسكنها العمال ومقاتلة المسلمين ، إلى أن تغلب عليها الروم » اه من ياقوت

وفى سنة مائتين بعث العساكر مع ابن مُغيث إلى بلاد الفرنج فخرب وهدم عدّة حصون ، وأقبل عليه أليط ملكُ الجلالقة فى جموع عظيمة ، وتنازلوا على نهر، واقتتلوا عليه أياما ، ونال المسلمون منهم أعظم النَّيل ، وأقاموا كذلك ثلاث عشرة ليلة ، ثم كثرت الأمطار ، ومدّ النهر ، وقفل المسلمون ظافرين ظاهرين .

صفات الحكم

وهو أول من جَنَّد الأجناد ، واتخذا العدّة ، وكان أفحَلَ بنى أمية بالأندلس، وأشدّهم إقداماً ونجدة ، وكان يشبه بأبى جعفر المنصور من خلفاء بنى العباس فى شدّة الملك وتوطيد الدولة وقمع الأعداء ، وكان يُؤْثر الفقيه زياد بن عبد الرحمن، وحضر يوما عنده ، وقد غضب فيه على خادم له لإيصاله إليه كتاباً كره وصوله ، فأمر بقطع يده ، فقال له زياد : أصلح الله الأمير ! فإن مالك بن أنس حدّثنى فى خبر رفعه أن « مَنْ كَظَم غيظا يقدر على إنفاذه ملأه الله تعالى أمناً وإيماناً يوم القيامة » فأمر أن يمسك عن الخادم ، ويعفى عنه ، فسكن غضبه ، وقال : آللهِ إن مالـكا حدّثك بهذا ؟ فقال زياد : أللهِ إن مالـكا حدّثنى بهذا .

وكانت المجاعة الشديدة سنة سبع وتسعين ومائة ، فأكثر فيها مواساة أهل الحاجات ، وفى ذلك يقول عباس بن ناصح الجزيرى فيه :

نَـكِد الزمان فآمنتْ أيَّامُه ... مِنْ أن يكون بِعصْرِهِ عُسْرُ
ظَلع الزمان بأزمـة فَجَلاَ لَهُ ... تلك الـكريهةَ جودُهُ الغَمْرُ (١)

وكان نقش خاتمِهِ «بالله يثق الحكم و يعتصمُ».

وذكور ولده عشرون ، وإناثهم عشرون ، وأمه جارية اسمها زخرف .

وكان أسمر ، طُوَالاً (٢) ، أشمّ (٣) ، نحيفا .

---

(١) ظلع : أصل معناه غمز فى مشيه ، شبه الأعرج ، وأراد أنه أصيب بضعف وجلاله : كشف ، وجلاله الـكريهة : أذهبها ، والغمر ـ بفتح الغين وسكون الميم ـ الـكثير الواسع .

(٢) طوال ـ بضم الطاء ـ طويل بالغ الطول .

(٣) أشم : ولرف من الشمم ، وهو ارتفاع فى قصبة الأنف .

ومدّة ملكه ست وعشرون سنة ، سامحه الله ! .

وقال غير واحد : إنه أول من جعل للملك بأرض الأندلس أبَّهة ، واستعدَّ بالمماليك حتى بلغوا خمسة آلاف : منهم ثلاثة آلاف فارس ، وألفا راجل .

ثم توفى الحكم بن هشام آخر سنة ست ومائتين لسبع وعشرين سنة من ولايته ، ومولده سنة ١٥٤ .

آثار الحكم فى الدولة

وقال ابن خلدون وغير واحد : إنه أول من جند بالأندلس الأجناد والمرتزقة ، وجمع الأسلحة والعُدَد ، واستكثر من الخدم والحواشى والحشم ، وارتبط الخيول على بابه ، واتخذ المماليك ، وكان يسميهم الخرس لعجمتهم ، وحكى فى عدّتهم ما تقدم ، ثم قال : وكانت له عيون يطالعونه بأحوال الناس ، وكان يباشر الأمور بنفسه ، ويقرب الفقهاء والعلماء والصالحين ، وهو الذى وَطَأ الملكَ لعقِبه بالأندلس ، انتهى .

وكان له ــ فيما حكى غير واحد ــ ألفا فرس مرتبطة على شاطىء النهر بقبلى قصره يجمعها داران ، وهو القائل لما قتل أهل الرَّبَضِ وهدم ديارهم وحرثها :

رأبتُ صُدُوعَ الأرض بالسيف راقعاً وقدماً لأمْتُ الشَّعْبَ مذ كنتُ يافِعاً[(١)]

فَسَائل ثغُورى هل بها اليومَ ثُغْرَةٌ أبادِرُهَا مستنضىَ السيفِ دارِعَا[(٢)]

تُنَبِّيك أنى لم أكن فى قِرَاعِهِمْ بوَانٍ، وقدماً كنتُ بالسيف قارعَا[(٣)]

وهل زدت إذ وفَّيْتُهم صاعَ قَرْضِهم فوافَوْا منايا قُدِّرَتْ ومَصَارِعَا

فهٰذِى بلادى ، إننى قد تركْتُهَا مِهَادا ، ولم أترك عليها مُنازِعَا

وقال ابن حزم فى حقه : إنه كان من المُجَاهرين بالمعاصى ، السافكين للدماء ، ولذلك قام عليه الفقهاء والصلحاء .

---

(١) رأبت الصدع : المراد أنه أصلح ما فسد وضم ما انتشر ، ولأمت الشعب بمعناه

(٢) الثغور : جمع ثغر ــ بالفتح ــ وهو موضع المخافة ، والثغرة ــ بالضم ــ كل فرجة فى جبل أو بطن واد أو طريق مسلوك ، ومستنضى السيف : مستله ومخرجه من غمده

(٣) تنبيك : تخبرك ، والوانى : الضعيف الفاتر الهمة .

وقال غير واحد : إنه تنصّل أخيرا ، وتاب ، سامحه الله !.

ومن نظمه قوله متغزلا :

قُضْبٌ من البانِ ماسَتْ فوق كُثْبَانِ   وَلَّيْنَ عَنِّى وقدْ أزمَعْنَ هِجْرَانِى (١)

ومنها :

من لى بمُقْتَضِبَاتِ الروح من بَدَنى   يَغْصِبْنَنى فى الْهَوَى عِزِّى وسُلْطَانى

وقيل : إنه كان يمسك أولاد الناس ويَخْصِيهم ، ونُقلت عنه أمور ، ولعله تاب منها كما قدّمنا ، والله أعلم بحقيقة أمره .

من أخبار الحكم

ومن بديع أخبار الحكم أن العباس الشاعر توجه إلى الثَّغْرِ ، فلما نزل بوادى الحِجَارة سمع امرأة تقول : واغوثاه بك يا حكم ، لقد أهملْتَنَا حتى كَلِبَ العدو (٢) علينا ، فأيّمنا وأيتمنا ، فسألها عن شأنها ، فقالت : كنتُ مُقْبلة من البادية فى رُفْقة ، فخرجت علينا خيل عدو ، فقتلت وأسرت ، فصنع قصيدته التى أوّلها :

تململْتُ فى وادى الحِجَارة مُسْئدا   أراعى نجوماً ما يرون تغيرا (٣)

إليك أبا الْعَاصِى نَضَيْتُ مَطِيتى   تسيرُ بهمٍّ ساريا ومُهَجِّرا

تداركْ نساء العالمين بنصرة   فإنك أحْرَى أن تغيثَ وتَنْصُرَا

فلما دخل عليه أنشده القصيدة ، ووصف له خوف الثغر ، واستصراخَ المرأة باسمه ، فأنف ونادى فى الحين بالجهاد والاستعداد ، فخرج بعد ثلاث إلى وادى الحِجَارة ومعه الشاعر ، وسأل عن الخيل التى أغارت من أى أرض العدوّ كانت ، فأعلم بذلك ، فغزا تلك الناحية وأثخن فيها ، وفتح الحصون ، وخرب الديار ، وقتل عددا كثيرا ، وجاء إلى وادى الحجارة فأمر بإحضار المرأة وجميع من أسر له أحد

(١) القضب : جمع قضيب ، وأصله غصن الشجرة ، شبه به قدود الحسان ، والكثبان : جمع كثيب ، وأصله ما اجتمع من الرمل ، شبه به أردافهن ، وماست : تبخترت ، وولين : أعرضن ، وأزمعن : اعتزمن .

(٢) كلب العدو - من باب فرح - اشتد وقسا وألح فى قساوته .

(٣) مسئدا : اسم الفاعل من الإسآد ، وهو سير الليل كله ، وهو أيضا السير السريع

فى تلك البلاد ، فأحضر ، فأمر بضرب رقاب الأسرى بحَضْرتها ، وقال للعباس : سَلْهَا : هل أغاثها الحكم ؟ فقالت المرأة ، وكانت نبيلة : والله لقد شفى الصدور ، وأنكى العدو ، وأغاث الملهوف ، فأغاثه الله ، وأعز نصره ! فارتاح لقولها ، و بدا السرور فى وجهه وقال :

ألم تر يا عباسُ أنى أجَبْتُهَا على البُعْـدِ أقْتادُ الخميس المُظَفَّرَا[١]
فأدركتُ أوطارًا و بَرَّدْتُ غلةً وَنَفَّسْتُ مكروبًا وأغنيتُ مُعْسرا

فقال عباس : نعم ، جزاك الله خيرا عن المسلمين ! وقبل يده .

ومما عِيبَ به أنه قتل الفقيه أبا زكريا يحي بن مُضَر القَيْسى ، وكان قُدْوة فى الدين والورع ، سمع من سُفيان ومالك بن أنس ، وروى عنه مالك وقال : حدثنا يحي بن مضر عن سفيان الثورى أن الطَّلح المنضود هو الموز ، وكان قتل المذكور مع جماعة من العلماء وغيرهم[٢] .

ولاية عبد الرحمن ابن الحكم

وقام بأمره من بعده ابنهُ عبدالرحمن ، بعهد منه إليه ، ثم لأخيه المغيرة بعده فغزا عبدُ الرحمن لأول ولايته إلى جِلِّيقِيَّةَ وأبعد ، وأطال المغيب ، وأثخن فى أمم النصرانية هنالك ، ورجع .

قدوم زرياب المغنى عليه

وقدم عليه سنة ست ومائتين زرياب المغنى من العراق ، وهو مَوْلى المهدى ومتعلم إبراهيم الموصلى ، واسمه على بن نافع ، فركب بنفسه لتلقيه ، على ما حكاه ابن خلدون ، و بالغ فى إكرامه ، وأقام عنده بخير حال ، وأورث صناعة الغناء بالأندلس وخلف أولادا فخلفَهَ كبيرُهم عبدُ الرحمن فى صناعته وحُظْوته .

وفى سنة ثمان أغزى حاجبَهُ عبدَ الـكريم بن عبد الواحد إلى ألْبَةَ والقلاع ،

---

(١) أقتاد : أقود ، والخميس : الجيش الكثير العدد ، سموه بذلك لأنهم كانوا يقسمونه خمسة أقسام : مقدمة ، ومؤخرة ، وميمنة ، وميسرة ، وقلبا .

(٢) كان مقتله ومقتلهم فى وقعة الربض ، وقد سبق ذكرها ، وذكرها ابن خلدون (٤ / ١٢٦) .

فخرّب كثيرا من البلاد وانتسفها ، وفتح كثيرا من حصونهم ، وصالح بعضها على الجِزْية و إطلاق أسرى المسلمين ، وانصرف ظافراً .

حروب عبد الرحمن وسراياه

وفى سنة أربع وعشرين بعث قريبه عبيد الله بن البلَنْسِى فى العساكر لغزو ألْبَة والقلاع ، فسار ولقى العدوّ فهزمهم وأكثر القتل والسبى ، ثم خرج لذَريق ملكُ الجلاَلقة ، وأغار على مدينة سالم[1] بالثغر، فسار إليه فرتون بن موسى ، وقاتَله، فهزمه وأكثر القتل والسبى فى العدو والأسر ، ثم سار إلى الحصن الذى بناه أهلُ ألْبَة بالثغر نكايةً للمسلمين ، فافتتحه وهدمه ، ثم سار عبدُ الرحمن فى الجيوش إلى بلاد جِلِّيقية ، فدوّخها وافتتح عدّة حُصون منها ، وجال فى أرضهم ، ورجع بعد طول المقام بالسبى والغنائم .

وفى سـنة ست وعشرين بعث عبدُ الرحمن العساكر إلى أرض الفرنجة ، وانتهوا إلى أرض بَرْطَانِيَة ، وكان على مقدمة المسلمين موسى بن موسى عامل تُطِيلَة ، ولقيهم العدو، فصبر حتى هزم الله عدوهم، وكان لموسى فى هذه الغزَاة مقام محمود.

وفى سنة تسع وعشرين بعث ابنَه محمداً بالعساكر، وتقدم إلى يَنْبُلونة[2]، فأوقع بالمشركين عندها ، وقتل غرسيَةَ صاحبَهَا ، وهو من أكبر ملوك النصارى .

وفى أيامه ظهر المجوس ، ودخلوا إشبيلية ، فأرسل إليهم عبدُ الرحمن العساكر مع القوّاد من قُرْطُبة ، فنزل المجوس من مراكبهم ، وقاتلهم المسلمون ، فهزموهم بعد مقام صعب ، ثم جاءت العساكر مدَدًا من قُرْطُبة فقاتلهم المجوس ، فهزمهم المسلمون وغنموا بعض مراكبهم وأحرقوها ، ورحل المجوس إلى شَذُونة فأقاموا

(١) قال ابن سعيد : مدينة سالم بالجهة المشهورة بالثغر من شرقى الأندلس ، قال : وهى مدينة جليلة ، وقال فى تقويم البلدان : إن بها قبر المنصور بن أبي عامر (الصبح ٥ / ٢٢٨) .

(٢) ضبطها فى الصبح (٥ / ٢٣٤) عن تقويم البلدان بفتح الياء ، وسكون النون ، وضم الباء ، وقال «وهى مدينة فى غرب الأندلس خلف جبل الشارة، وهى مملكة فاصلة بين مملكتى قشتالة وبرشلونة ، وهى مما يلى قشتالة من جهة الشرق »ا ه ووقع فى ب ، ز « بنبلونة » والذى فى ابن خلدون «ينبلونة » كما ضبط فى الصبح

عليها يومين ، وغنموا بعض الشىء ، ووصلت مراكب عبد الرحمن إلى إشْبِيلِيَة فأقلع المجوس إلى لَبْلَة ، وأغاروا وسَبَوْا ، ثم إلى باجَة ثم أشْبُونة ، ثم انقطع خبرهم حين أقلعوا من أشْبُونة ، وسكنت البلاد ، وذلك سنة ثلاثين ، وتقدَّم عبدُ الرحمن بإصلاح ماخربوه من البلاد ، وأَكْثَفَ[1] حاميتها .

وفى سنة إحدى وثلاثين بعث العساكر إلى جليقية فدوّخوها ، وحاصروا مدينة لِيُون[2] ورَمَوْها بالمجانيق ، وهرب أهلها عنها وتركوها ، فغنم المسلمون مافيها وأحرقوها ، وأرادوا هَدْم سورها فلم يقدروا عليه ، لأن عرضه كان سبعة عشر ذراعا ، فثَلَموا فيه ثُلْمة ورجعوا .

ثم أغزى عبد الرحمن حاجبه عبدَ الكريم فى العساكر إلى بلاد بَرْشَلُونة ، فعاث فى نواحيها وأجاز الدروب التى تسمى البرت إلى بلاد الفرنجة فدوّخها قتلاً وأسراً وسَبْيا ، وحاصر مدينتها العظمى جَرَنْدَة[3] ، وعاث فى نواحيها ، وقَفَل ، وقد كان ملك القسطنطينية من ورائهم نوفلس بعث إلى الأمير عبد الرحمن سنة خمس وعشرين بهدية يطلب مواصلته ويرغّبه فى ملك سلفه بالمشرق من أجل ماضيق به المأمونُ والمعتصم حتى إنه ذكرهما له فى كتابه له وعبر عنهما بابنى مَرَاجل وماردة ، فكافأه الأمير عبدُ الرحمن عن الهدية ، وبعث إليه يحيى الغزَال من كبار أهل الدولة ، وكان مشهورا فى الشعر والحكمة ، فأحكم بينهما الوُصْلة ، وارتفع لعبد الرحمن ذكر عند منازعيه من بنى العباس .

ويعرف الأمير عبد الرحمن بالأوسط ، لأن الأول عبدُ الرحمن الداخل ، والثالث عبد الرحمن الناصر .

---

(١) أكثف حاميتها : صيرها كثيرة العدد ، وكان فى أصول هذا الكتاب « واكتنف حاميتها » وأصلحناه إلى ماترى عن ابن خلدون (٤ / ١٢٩) الذى يلخص المؤلف عبارته عنه ، والعبارة فيه « وأكثف الحامية بها » .

(٢) ليون : مدينة من بلاد الجلالقة فى شمال الأندلس .

(٣) كذا هنا وانظر (ص ٣١٦)

ثم توفى عبد الرحمن الأوسط سنة ثمان وثلاثين ومائتين ، بربيع الآخر ، لإحدى وثلاثين سنة من إمارته .

ومولده بطُلَيْطِلة فى شعبان سنة ست وسبعين ومائة .

وكان عالما بعلوم الشريعة والفلسفة ، وكانت أيامه أيام هدوء وسكون ، وكثرت الأموال عنده ، واتخذ القصور والمتنزهات ، وجلب إليها المياه من الجبال ، وجعل لقصْره مصنعا(١) اتخذه الناس شريعة ، وأقام الجسور ، و بنيت فى أيامه الجوامع بكُور الأندلس ، وزاد فى جامع قُرْطُبة رِوَاقَيْنِ ، ومات قبل أن يستتمه ، فأتمه ابنه محمد بعده ، و بنى بالأندلس جوامع كثيرة ، ورتب رسوم(٢) المملكة ، واحتجب عن العامة .

وعدد ولده مائة وخمسون من الذكور ، وخمسون من الإناث ، ونقش خاتمه « عابد الرحمن بقضاء الله راض » وفى ذلك قيل :

خاتَمٌ للمُلْكِ أضْحَى حُكْمُهُ فى الناس ماضِى
عابدُ الرحمن فيه بقَضَاء الله راضى

وهو أول من أحدث هذا النقش ، وبقى وراثة لمن بعده من ولده .

قال ابن سعيد : وفى أيامه انتهى مالُ الجباية إلى ألف ألف دينار فى السنة ، وكان قبلُ لا يزيد على سمائة ألف ، وقد ذكرنا فى غير هذا الموضع ما يخالف هذا فليراجع ، والله أعلم .

ومن توقيعاته : من لم يعرف وَجْهَ طلبه ، فالحرمانُ أولى به

ومن شعر عبد الرحمن المذكور قوله :

---

(١) المصنع : واحد المصانع ، وهو حوض يجتمع فيه ماء المطر ، وفى القرآن الكريم (وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون) والشريعة : المورد ترده الشاربة يستقون منه .

(٢) أراد برسوم المملكة نظمها وأوامرها التى يسير عليها العامة والخاصة .

ولَقَدْ تَعَارَضُ أوجُهٌ لأوامر فيقودُهَا التوفيقُ نحو صَوَابِها[١]
والشيْخُ إن يَحْوِ النهى بتجارِب فشِبَابُ رأى القوم عند شَبَابِها[٢]

وفى زيادته فى جامع قرطبة يقول ابن المثنى رحمه الله تعالى :

بَنَيْتَ لله خَيْرَ بيتٍ يَخْرُسُ عن وَصْفه الأنامُ
حج إليه بكل أوْبٍ كأنه المسجِدُ الحرَامُ
كأن مِحْرَابه إذا ما حُفَّ به الركنُ والمَقامُ

وقال آخر :

بنى مسجدا لله لم يك مثله ولا مثله لله فى الأرض مسجد
سوى ماابتنى الرحمن والمسجِدِالذى بَنَاه نبىّ المسلمين مُحَمَّدُ[٣]
له عُمد حُمْرٌ وخضر كأنما تلوحُ يَوَاقيت بها وزَبَرْجَدُ
ألا يا أمينَ الله ، لا زلتَ سالما ! ولا زلت فى كل الأمور تسدّدُ !
فياليْتَنَا نفدِيك من كلّ حادث وأنك للدنيا وللدين تخلُدُ

وكان كثير الميل للنساء ، وولع بجاريته طَرُوبَ ، وكلف بها كلفا شديدا ، وهى التى بنى عليها الباب ببِدَر المال حين تجنَّتْ عليه ، وأعطاها حليا قيمته مائة ألف دينار ، فقيل له : إن مثل هذا لاينبغى أن يخرج من خزانة الملك ، فقال : إن لابسه أنفس منه خطرا ، وأرفع قدرا ، وأكرم جوهرا ، وأشرف عنصرا .
وفيها يقول :

إذا ما بَدَتْ لىَ شَمْسُ النَّهَا رِطَالِعَةً ذَكَّرَتْنِى طَرُوبَا
أنا ابن المَيَامين من غالبٍ أَشُبُّ حُرُوباً وَأُطْفِى حُرُوبَا

---

(١) تعارض : أصله تتعارض ، فحذف إحدى التاءين .
(٢) شباب رأى القوم : شبوبه وقوته ، وأصله شباب الفرس أى نشاطه
(٣) أراد بالمسجد الذى بناه الرحمن الكعبة بيت الله الحرام ، وبالآخر مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة .

وخرج غازيا إلى جِلِّيقية فطالت غيبته فكتب إليها :

عَدَانِيَ عَنْكِ مَزَارُ العِدَا وَقَوْدِي إليهم سِهَاماً مُصِيبا

فَكَمْ قد تخطَّيْتُ من سَبْسَبٍ ولاقَيْتُ بعدَ دُروبٍ دُرُوبا [1]

أُلاَقِي بوَجْهى سُمُومَ الهَجِيـــر إذ كادَ مِنْهُ الحَصَى أن يذُوبا

تَدَارَكَ بى الله دِين الهـدى فأحْيَيْتُهُ وأمتُّ الصليبا

وسِرْتُ إلى الشِّرْكَ فى جَحْفَلٍ ملأت الحُزُونَ به والسُّهُوبا [2]

وساق بعض المؤرخين قضية طَروب هذه بقوله : إن السلطان المذكور أغضبها فهجرته ، وصدت عنه ، وأبت أن تأتيه ، ولزمت مقصورتها ، فاشتد قَلَقه لهجرها ، وضاق ذَرْعُه من شوقها ، وجهد أن يترضاها بكل وجه فأعياه ذلك ، فأرسل من خِصْيانه من يُكرهها على الوصول إليه ، فأغلقت باب مجلسها فى وجوههم ، وآلت أن لاتخرج إليهم طائعة ، ولو انتهى الأمر إلى القتل ، فانصرفوا إليه وأعلموه بقولها ، واستأذنوه فى كسر الباب عليها ، فنهاهم وأمرهم بسد الباب عليها من خارجه ببِدَرِ الدراهم ، ففعلوا ، و بنَوْا عليها بالبدر ، وأقبل حتى وقف بالباب وكلمها مسترضيا راغبا فى المراجعة على أن لها جميع ما سد به الباب ، فأجابت وفتحت الباب ، فانهالت البِدَر فى بيتها ، فأكبت على رِجْلِهِ تقبلها ، وحازت المال ، وكانت تبرم الأمور مع مضر الخَصِيّ فلا يرد شيئا مما تبرمه .

وأحبّ أخرى اسمها مدثرة فأعتقها وتزوجها ، وأخرى كذلك اسمها الشفاء ، وأما جاريته قلم فكانت أديبة ، حسنة الخط ، راوية للشعر ، حافظة للأخبار ،

---

(١) السبسب : الصحراء ، والدروب : جمع درب ، وهو الطريق إلى بلاد الروم

(٢) الجحفل : الجيش الكثير العدد ، والحزون : جمع حزن ، وهو ما غلظ من الأرض ، والسهوب : جمع سهب ، وهو الفلاة ، وأراد به ما يقابل الحزن ، وهو ما لان وتسهل من الأرض .

عالمة بضروب الأدب ، وكان مُولَعا بالسماع ، مؤثرا له على جميع لذاته ، وله أخبار كثيرة ، رحمه الله !.

ولاية محمد بن عبد الرحمن

ولما مات ولى ابنُه محمدٌ ، فبعث لأول ولايته عساكر مع موسى بن موسى صاحب طليطلة ، فعاث فى نواحى ألبَة والقلاع ، وفتح بعض حصونها ، ورجع ، و بعث عساكر أخرى إلى نواحى بَرْشِلُونة وماوراءها ، فعاثوا فيها وفتحوا حصونا من بَرْشِلونة ورجعوا .

حروبه وسراياه

ولما استمدّ أهلُ طُلَيْطلة المخالفون من أهل بلاد الأمير محمد عليه بملكى جِلِّيقِية والبَشْكنس لقيهم الأمير محمد على وادى سُلَيطة[1] ، وقد أكمن لهم ، فأوقع بهم ، و بلغت عدّة القتلى من أهل طُلَيْطلة والمشركين عشرين ألفا .

وفى سنة خمس وأربعين ظهرت مراكبُ المجوس ، وعاثوا فى الأندلس ، فلقيهم مراكبُ الأمير محمد ، فقاتلوهم وغنموا منهم مركبين ، واستشهد جماعة من المسلمين.

وفى سنة سبع وأربعين أغزى محمد إلى نواحى بَنْبلُونة[2] ، وصاحبُها حينئذ غرْسِيَةُ بن ونقة ، وكان يظاهر أردن بن أذفنش ، فعاث فى نواحى بَنْبلُونة[2] ، ورجع وقد دوّخها وفتح كثيرا من حصونها ، وأسر فرتونَ ابنَ صاحبها ، فبقى أسيرا بقُرْطُبَة عشرين سنة .

ثم بعث سنة إحدى وخمسين أخاه المنذر فى العساكر إلى نواحى ألبَة والقلاع فعاثوا فيها ، وجمع لُذَريقُ للقائهم ، فلقيهم وانهزم ، وأثخن المسلمون فى المشركين بالقتل والأسر ، فكان فتحا لا كِفَاء له .

ثم غزا الأمير محمد بنفسه سنة إحدى وخمسين بلاد الجلالقة ، فأثخن وخرب.

---

(١) كذا ، وهذه العبارة هى عبارة ابن خلدون (٤ / ١٣٠) مع اختصار طفيف ، والذى فيه « وادى سليط » .

(٢) انظر الهامشة رقم ٢ فى ص ٣٢٣ .

وفى سنة ثلاث وستين أغزى الأمير محمد ابنه المنذر إلى دار الحرب ، وفى السنة التى بعدها إلى بلاد يَنْبُلونة فدَوَّخها ورجع .

وفى سنة ثمان وستين أغزاه أيضا إلى دار الحرب ، فعاث فى نواحيها وفتح حصونا .

وفى أيام الأمير محمد خربت ماردة[1] وهدمت ولم يبق لها أثر .

وذكر بعضهم أنه رأى بالمشرق هذه الأبيات قبل أن تخرب ماردة[1] بأعوام، ولم يعلم قائلها وذلك سنة ٢٥٤ :

وَيلٌ لمارِدَةَ التى مردت … وتكَبَّرَتْ عن عُدْوَةِ النهر

كانت ترى لهمُ بهاَ زهر … فخَلَتْ من الزهَرات كالقفْر

فالويلُ ثم الوَيْحُ حين غَزَا … بجميعهم مِنْ صاحِبِ الأمر

ثم توفى الأمير محمد فى شهر صفر سنة ثلاث وسبعين ومائتين ، لخمس وثلاثين سنة من إمارته ، ومولده سنة سبع ومائتين .

ولاية المنذر ابن محمد

وولى بعده ابنه المنذر ، ولم تطل مدَّته ، وأقام فى الملك سنتين إلا نصف شهر ، وتوفى منتصف صفر سنة خمس وسبعين ومائتين ، وفيه قيل :

بالمنذر بن محمد … صَلَحتْ بلادُ الأندلُسْ

ولاية عبد الله ابن محمد

ثم ولى أخوه عبد الله ، قال ابن خلدون : كان خراج الأندلس قبله ثلثمائة ألف دينار : مائة ألف للجيوش ، ومائة ألف للنفقة فى النوائب وما يعرض ، ومائة ألف ذخيرة ووفرا ، فأنفق الوفر حين اضطربت عليه نواحى الأندلس بالثوّار والمتغلّبين فى تلك السنين ، وقلّ الخراج ، انتهى .

---

(١) ماردة : مدينة على جنوبى نهر بطليوس ، وهى مدينة أزلية ، ولها ماء مجلوب تحير صنعته ، قال الرازى : وهي إحدى القواعد التى بنتها ملوك العجم للقرار وكان اتخذها سلاطين الأندلس قبل الإسلام سريرا لملك الأندلس ، وكانت فى أيام بنى أمية يليها عظماء منهم ، ثم صار الكرسى بعد ذلك بطليوس . انتهى عن الصبح (٥ / ٢٢٤)

ومن نظم الأمير عبد الله قوله :

يا مُهْجَة المشتاق ما أوجَعَكْ ويا أسيرَ الحُبّ ما أخْشَعَكْ

ويا رَسُولَ العين من لحظِهَا بالردِّ والتبليغ ما أسْرَعَكْ

تذهب بالسر فتأتى به فى مَجْلس يخفى على من مَعَكْ

كم حاجةٍ أنجزتَ إبرازها تبَارَكَ الرحمنُ ما أطْوَعَكْ

وهذه الأبيات عنوان فضله ، و بَرَاعة استهلال نبله .

وكان الوزراء يُطَالعون بآرائهم الخليفةَ فى بطاقة ، فطالعه وزيره النَّضْر بن سَلَمة برأيه فى أمر فى ورقة ، فلما وقف عليها لم يعجبه ذلك الرأى ، فكتب :

أنْتَ يا نَضْرُ آبدَهْ ليس تُرْجَى لفائده[1]

إنما أنتَ عُدة لكَنِيفٍ ومائده[2]

وتوفى الأمير عبد الله سنة ثلثمائة ، ومدة ملكه نحو من خمس وعشرين سنة .

ولاية عبد الرحمن الناصر

وولى حافِدُهُ عبد الرحمن الناصر ابن ابنه محمد قتيل أخيه المُطَرف ، وكانت ولايته من الغريب ، لأنه كان شاباً ، وأعمامه وأعمام أبيه حاضرون ، فتصدَّى إليها واحتازها دونهم ، ووجد الأندلس مضطربة بالمخالفين ، مضطرمة بنيران المتغلبين ، فأطفأ تلك النيران ، واستنزل أهل العصيان ، واستقامت له الأندلس فى سائر جهاتها بعد نَيِّف وعشرين سنة من أيامه ، ودامت أيامه نحو خمسين سنة استفحل[3] فيها ملك بنى أمية بتلك الناحية ، وهو أول من تسمّى منهم بالأندلس بأمير المؤمنين ، عند ماالتاث أمر[4] الخلافة بالمشرق ، واستبدّ مَوَالى الترك على بنى العباس ، و بلغه أن المقتدر قتله مؤنس المظفر مولاه سنة سبع عشرة وثلثمائة فتلقب

---

(١) الآبدة : الداهية ، والآبدة : واحدة الأوابد وهى الوحوش .

(٢) الكنيف : المرحاض ، يريد أنه لا هم له إلا فى ملء بطنه وإفراغه .

(٣) استفحل : عظم وضخم .

(٤) التاث أمره : اختلط واضطرب وتكدر عليه .

بألقاب الخلافة ، وكان كثير الجهاد بنفسه والغزْو إلى دار الحرب ، إلى أن هزم عام الخندق سنة ثلاث وعشرين ، ومَحَّصَ الله فيها المسلمين ، فقعد عن الغزو بنفسه وصار يردّد الصَّوائف[١] فى كل سنة ، فأوطأ عساكر المسلمين من بلاد الإفرنج مالم يطؤه قبلُ فى أيام سَلفه ، ومدّت إليه أمم النصرانية من وراء الدروب يدَ الإذعان[٢] ، وأوفدوا عليه رُسُلهم وهداياهم من رومة والقسطنطينية فى سبيل المهادنة والسلم والاعتمال[٣] فيما يعنّ فى مرضاته ، ووصل إلى سُدّته الملوك من أهل جزيرة الأندلس المتاخمين لبلاد المسلمين بجهات قَشْتَالة ويَنْبُلونة وماينسب إليها من الثغور الجوفية ، فقبلوا يده ، والتمسوا رضاه ، واحتقبوا جوائزه ، وامتطوْا مراكبه ، ثم سما إلى ملك العُدْوة فتناول سَبْتَة ونقل الفُرْضَة[٤] من أيدى أهلها سنة سبع عشرة وثلثمائة ، وأطاعه بنو إدريس أمراء العُدْوة وملوك زَنَاتة والبربر ، وأجاز إليه الكثير منهم كما يعلم من أخبارِه ، وبدأ أمرَه أولَ ولايته بتخفيف المغارم عن الرعايا ، انتهى كلام ابن خلدون .

وفيه يقول ابن عبد ربه صاحبُ العقد يوم تولى الملك :

بدا الهلال جَديدًا ... والملكُ غَضٌّ جَديدُ
يا نِعْمَةَ الله زيدِى ... إن كان فيك مزيدُ
إن كان للصَّوْم فِطْر ... فأنتَ للدهر عيدُ

وأراد بأول الأبيات أنه ولى مستهلَّ ربيع الأول كما علم .

وما أشار إليه ابنُ خلدون فى غَزْوة الخندق فصله المسعودى فقال ، بعد أن أجرى ذكر مخالفة أمية بن إسحاق على الناصر ودخوله أرض النصارى ودلالته

---

(١) فى ب ، ز « يردد الطوائف » محرفا عما أثبتناه عن ابن خلدون (١٣٧/٤)
(٢) الإذعان : الانقياد والخضوع والطاعة .
(٣) الاعتمال : هو أن يعملوا بجهد وإفراغ وسع لا يقصرون ولا يتهاونون .
(٤) الفرضة ــ بالضم ــ المرفأ ، والميناء .

إياهم على عَوْرات المسلمين ، ما ملخصه : وغزا عبدُ الرحمن صاحبُ الأندلس سَمُّورة دارَ الجلالقة [١] ، وكان عبدُ الرحمن فى مائة ألف أو يزيدون ، وكانت الوقعة بينه و بنى رُذْمير ملكِ الجلالقة فى شوّال سنة ٣٢٧ بعد الكسوف الذى كان فى هذا الشهر بثلاثة أيام ، فكانت للمسلمين عليهم ، ثم ثابوا [٢] بعد أن حوصروا وألجئوا إلى المدينة ، فقتلوا من المسلمين بعد عُبورهم الخندقَ خمسين ألفاً ، وقيل : إن الذى منع رُذْمير من طاب من نجا من المسلمين أمية بن إسحاق ، وخوّفه الكمين ، ورغّبه فيما كان فى عسكر المسلمين من الأموال والعُدة والخزائن ، ولولا ذلك لأتى على جميع المسلمين ، ثم إن أمية استأمن بعد ذلك إلى عبد الرحمن وتخلص من رُذْمير ، وقبله عبد الرحمن أحسنَ قَبول .

وقد كان عبد الرحمن بعد هذه الوقعة جهز عساكر مع عِدّة من قوّاده إلى الجلالقة ، فكانت لهم بهم [٣] عدّة حروب هلك فيها من الجلالقة ضعفُ ما قتل من المسلمين فى الوقعة الأولى ، وكانت للمسلمين عليهم إلى هذه الغاية ، وردمير ملك الجلالقة إلى هذا الوقت وهو سنة ٣٣٢ [٤] انتهى .

وقال فى موضع آخر ما ملخصه : إن عبد الرحمن غزا فى أزيد من مائة ألف [فارس] من الناس ، فنزل على دار مملكة الجلالقة ، وهى مدينة سمورة ، وعليها سبعة أسوار من أعجب البنيان قد أحكمته الملوك السالفة ، و بين الأسوار فصلان وخنادق ومياه واسعة ، وافتتح منها سورين ، ثم إن أهلها ثاروا على المسلمين فقتلوا منهم ممن أدركه الإحصاء وممن عُرف أربعين ألفاً ، وقيل : خمسين ألفاً ، وكانت

---

(١) فى ب ، ز « مسمورة » وأصلحناه عن مروج الذهب (٢ / ٣٧ بتحقيقنا طبعة ثانية) .

(٢) ثابوا : رجعوا وعادوا ، وفي المروج « ثم أنابوا » ومعناه رجعوا أيضا .

(٣) فى المروج « فكانت لهم معهم » .

(٤) هكذا في المروج ، وهو الصواب ، وفى ب ، ز « وهو سنة ٣٢٦ » وهو خطأ لان الواقعة الأولى حدثت سنة (٣٢٧) وهو يتكلم بعدها قطعاً .

للجلالقة والبَشْـكَنْس على المسلمين ، انتهى كلام المسعودى[١] .

رجع إلى أخبار الناصر ـ فنقول : إن الناصر ـ رحمه الله ! ـ كان له نظم ، ومما نسب إليه بعضهم قوله :

لا يضرّ الصغيرَ حِدْثَانُ سنٍّ   إنما الشأن فى سُعُود الصغير

كم مقيم فازَتْ يداه بغُـنْم   لم تَنَـلْه بالرَّكْض كفُّ مُغِير

هكذا ألفيت البيتين منسوبين إليه بخط بعض الأكابر ، ثم كتب بأثره مانصه: الصحيح أنهما لغيره ، والله أعلم ، انتهى .

هدية ابن شهيد للناصر و كتابه معها

وكان الناصر ـ رحمه الله ! ـ قد استحجب[٢] موسى بن محمد بن حُدَيْرٍ ، واستوزر عبدَ الملك بن جَهْور ، وأحمد بن عبد الملك بن شُهَيد ، وأهدى له ابنُ شهيدٍ هديته المشهورة المتعدّدة الأصناف ، وقد ذكرها ابن حيان وابن خلدون وغيرهما من المؤرخين ، قال ابن خلدون : وهى مما يدل على ضخامة الدولة الأموية، واتساع أحوالها ، وكان ذلك سنة سبع وعشرين وثلثمائة ، لثمان خلون من شهر جمادى الأولى ، وهى هدية عظيمة الشأن ، اشتهر ذكرها إلى الآن ، واتفق على أنه لم يهادَ أحد من ملوك الأندلس بمثلها ، وقد أعجبت الناصر وأهلَ مملكته جميعاً، وأقروا أن نفساً لم تسمح بإخراج مثلها ضربَةً عن يدها ، وكتب معها رسالة حسنة بالاعتراف للناصر بالنعمة والشكر عليها ، فاستحسنها الناس وكتبوها ،وزاد الناصر وزيره هذا حُظْوة واختصاصاً ، وأسْمى منزلتَه على سائر الوزراء جميعاً ، وأضعف له رزق الوزارة ، و بلغه ثمانين ألف دينار أندلسية ، و بلغ معروفه إلى ألف دينار ، وثنى له العظمة لتثنيته له الرزق ، فسماه «ذا الوزارتين» لذلك ، وكان أول من تسمى بذلك بالأندلس امتثالا لاسم صاعد بن مَخْلد وزير بنى العباس ببغداد ، وأمر

---

(١) أصلحنا فساد هذه العبارة وأثبتنافيها زيادة بيض لها فى أصل ب ، عن المروج (١٦٢/١ بتحقيقنا طبعة ثانية) .

(٢) استحجبه : اتخذه حاجباً له ، واستوزره : اتخذه وزيراً .

بتصدير فراشه فى البيت ، وتقديم اسمه فى دفتر الارتزاق أول التسمية ، فعظم مقداره فى الدولة جدًّا .

وتفسير هديته المذكورة على ما ثبت فى كتاب ابن خلدون على ما يفسر : خمسمائة ألف مثقال من الذهب العين ، وأربعمائة رطل من التِّبر ، ومصارفةً خمسة وأربعون ألف دينار ، ومن سبائك الفضة مائتا بدرة ، واقتصر ابن الفَرَضى على خمسمائة ألف دينار فقط ، واثنا عشر رطلا من العُود الهندى الذى يختم عليه كالشمع ، ومائة وثمانون رطلا من العود المتخير ، ومائة رطل من العود الشبه المنتقى ، هكذا ذكره ابن خلدون .

وقال ابن الفرضى مستنداً إلى الكتاب الذى وجَّهه ابنُ شهيد مع الهدية : إن العود العالى من ذلك أربعمائة رطل ، منها قطعة واحدة مائة وثمانون رطلا .

وقال ابن خلدون : ومائة أوقية من المسك الذكى المفضل فى جنسه ، انتهى .

وقال ابن الفرضى ، نقلا عن الكتاب المصحوب مع الهدية : إن المسك مائتا أوقية ، واثنتا عشرة أوقية ، ومن العنبر الأشهب[1] الباقى على خلقته بغير صناعة خمسمائة أوقية ، منها قطعة عجيبة ململمة الشكل وزن مائة أوقية ، هكذا فى تاريخ ابن خلدون .

وفى ابن الفرضى أن الكل مائة أوقية ، وأن هذه القطعة أربعون أوقية .

ومن الكافور المرتفع النقى الذكىّ ثلثمائة أوقية .

قال ابن خلدون : ومن اللباس ثلاثون شُقَّة[2] من الحرير المختم المرقوم بالذهب

---

(١) العنبر الأشهب : الذى لونه الشهبة ، وهى بياض فى سواد ، وهذا أجود أنواع العنبر وأعلاها قيمة ، قال صاحب المفردات : وأجود العنبر الأشهب القوى ، ثم الأزرق ، ثم الأصفر ، وأردؤه الأسود .

(٢) الشقة ــ بضم الشين وتشديد القاف ــ أراد به الثوب المستطيل .

كلباس الخلفاء المختلف الألوان والصنائع ، وعشرة أفرية[1] من عالى جلود الفنك الخراسانية .

وخالفه ابن الفرضىّ ، إذ قال : ومن أنواع الثياب ثلاثون شقة وخُلُجٌ خاصية للباسه بيضاء وملوّنة ، وخمس ظهائر شعيبية خاصية له ، وعشر فراء من عالى الْفَنَك منها سبعة بيض خراسانية وثلاث ملوّنة ، وستة مَطارف عراقية خاصية له ، وثمان وأربعون ملحفة زهرية لكسوته ، ومائة ملحفة زهرية لرقاده .

ولم يذكر ابن خلدون ذلك ، وابنُ الفرضى أعرف ، لاسيما وقد استند إلى كتاب المهدِى وصاحبُ البيت أدرى .

قال ابن خلدون : وعشرة قناطيرشد فيها مائة جلد سَمُّور ، وقاله ابن الفرضى أيضا ، وزاد ابن خلدون : وستة من السرادقات العراقية ، وثمانية وأربعون من الملاحف البغدادية لزينة الخيل من الحرير والذهب ، ثم قالا معا : وأربعة آلاف رطل من الحرير المغزول ، وألف رطل من لون الحرير المنتقى للاستغزال ، وزاد ابن خلدون : وثلاثون شقة من الفربون لسروج الهبات ، وزاد ابن الفرضى فى الحرير المذكور : قيل : إنه قبضه منه صاحب الطراز ولم يأت به مع الهدية ، وإنما دفعه لصاحب الطراز ، وأثبته فى الدفتر ، قالا : وثلاثون بساطا من الصوف مختلفة الصناعات طول كل بساط منها عشرون ذراعا ، وقال ابن خلدون : منتقاة مختلفة الألوان ، قالا : ومائة قطعة مُصَلَّيات من وجوه الفرش المختلفة ، زاد ابن الفرضى : الصناعات من جنس البسط ، قالا : وخمسة عشر نوخا[2] من عمل الخز المقطوع شطرها ، قال ابن

---

(١) أفرية : جمع فروة ، قلبت واوه فى الجمع ياء لتطرفها إثر كسرة ، وذلك لأن التاء لااعتداد بها ، والفنك ـ بفتح الفاء والنون جميعا ـ وهو ضرب من الثعالب يكون فى بلاد الصقالبة كثيراً ، وفراؤه أجود الفراء وأعلاها قيمة .

(٢) الذى فى ابن خلدون (٤/ ١٣٨) « وخمسة عشر من نخاخ الخز المقطوع شطرها » وهو الموافق لما فى كتب المعرب ، فإن فيها « النخ : بساط طويل طوله أكثر من عرضه » .

الفرضى : وسائرها من جنس البُسُط ، قال ابن خلدون : ومن السلاح والعدّة ثمانمائة من التجافيف المزينة أيام البروز والمواكب ، وقال ابن الفرضى : مائة تجفاف بأبدع الصناعات وأغربها وأكملها ، قالا : وألف تُرْس سلطانية ، ومائة ألف سهم ، زاد ابن خلدون : من النبال البارعة الصنعة ، قال ابن خلدون : ومن الظهر خمسة عشر فرسا من الخيل العِرَاب المتخيرة لركاب السلطان فائقة النُّعوت ، وقال ابن الفرضى : ومن الخيل مائة فرس منها من الخيل العِرَاب المتخيرة لركابه خمسة عشر فرسا ، وخمس من عرض هذه الخيل مُسْرَجة مُلْجَمة لمراكب الخلافة مجالسُ سروجها خز عراقى ، وثمانون فرساً مما يصلح للوُصفاء[1] والحَشَم ، وقال ابن خلدون : مائة فرس من الخيل التى تصلح للركوب فى التصرف والغزوات ، وقال ابن الفرضى : وخمسة أبغل عالية الركاب ، وقال ابن خلدون : وعشرون من بغال الركاب مُسْرَجة ملجمة لمراكب الخلافة مجالسُ سروجِها خز جعفرى عراقى ، قال : ومن الرقيق أربعون وصيفاً وعشرون جارية من متخير الرقيق بكسوتهم وجميع آلاتهم ، وقال ابن خلدون فى الجوارى : متخيرات بكسوتهن وزينتهن ، وقال ابن خلدون : ومن سائر الأصناف قرية تغِل آلافا من أمداد الزرع ، ومن الصخر للبنيان ما أنفق عليه فى عام واحد ثمانون ألف دينار ، وعشرون ألف عود من الخشب من أجمل الخشب وأصيله وأقومه قيمتها خمسون ألف دينار ، انتهى .

وقال ابن الفرضى نقلا عن كتاب ابن شهيد المصحوب مع الهدية عند ما ذكر الرقيق ما صورته : وكان قد أربى[2] ــ أيَّدَهُ الله ! ــ بابتياعهم من مال الأخماس ، فابتعتهم[3] من نعمته عندى ، وصيرتهم من بَعْثى ، وَمع ذلك عشر قناطير سكر طبرزذ لاسُحَاق فيه[4] .

---

(١) الوصيف والوصيفة : الخادم ، والوصفاء الجمع .

(٢) أربى : تفضل وتطول وامتن ، وهو منتهى ما يمكن من الخضوع فى التعبير عن معنى رغب .

(٣) ابتعتهم : أراد اشتريتهم ، وشرى وباع يستعملان فى المعنيين جميعا .

(٤) أراد بالسحاق ــ بضم السين ــ الفتات والدقاق وما تكسر منه .

وفى آخر الكتاب : ولما علمت تطلع مولاى - أيده الله تعالى ! - إلى قرية كذا بالقنبانية[(١)] المنقطعة الغرس شرفها[(٢)]، وترداده - أيده الله تعالى ! - لذكرها لم أهنأ بعَيْشٍ حتى أعملت الحيلة فى ابتياعها بأحوازها، وأكتبت وكيله ابن بقية[(٢)] الوثيقةَ فيها باسمه، وضمها إلى ضِياعه، وكذلك صنعت فى قرية شِيرَةَ من نظر جَيَّان عندما اتصل بى من وَصْفه لها وتطلعه إليها، فمازلت أتصدَّى لمسرَّته بها حتى ابتعتها الآن بأحوازها وجميع منازلها وربوعها، واحتاز ذلك كله الوكيلُ ابن بقية[(٢)]، وصار فى يده له أبقاه الله سبحانه، وأرجوأنه سيرفع فيها فى هذه السنة آلاف أمداد من الأطعمة إن شاء الله تعالى، ولما علمت نافذَ عزمه - أبقاه الله تعالى ! - فى البنيان، وكَلَفه به، وفكرت فى عدد الأماكن التى تطلع نفسُه الكريمة إلى تخليد آثاره فى بنيانها - مد الله تعالى فى عمره، وأوفى بها على أقصى أمله ! - علمت أن أسه وقوامه الصخر والاستكثار منه، فأثارت لى همتى ونصيحتى حكمة حيلة أحكمها سعدك وجَدُّك اللذان يَبْعثان مالا يتوهم عليه حيلة أقيم لك فيها بعام واحد عدَدَ ما كان يقوم على يدى عبدك ابن عاصم فى عشرين عاما، وينتهى تحصيل النفقة فيه إلى نحو الثمانين ألفاً أعجل شأنه فى عام، سوى التوفير العظيم الذى يُبْديه العِيان قبلا إن شاء الله تعالى، وكذلك ما ثاب إلىّ فى أمر الخشب لهذه المنية المكرمة، فإن ابن خليل عبدَك المجتهد الدؤب انتهى فى تحصيل عدد ما تحتاج إليه إلى ثلثمائة ألف عود ونيف على عشرين ألف عود، على أنه لايدخل منه فى السنة إلا نحو الألفى عود، ففتح لى سعدُك رأيا أقيم له بتمامه جميعَ هذا الخشب العام على كماله بورود الجليبة لوقتها، وقيمته على الرخص ما بين الخمسين ألفاً والستين ألفاً، انتهى.

---

(١) يطلق اسم « قنبانية » على الروابى والسهول التى تمتد فى جنوب قرطبة على الضفة اليسرى من الوادى الكبير، والشرف - بفتح الشين والراء - قد مر ذكره مراراً، ارجع إلى ص ١٥٠، ١٦٠ من هذا الجزء.

(٢) هكذا فى الموضعين.

ومن غريب ما يحكى عن أمير المؤمنين الناصر المذكور أنه أراد الفَصْد، فقعد بالبَهْو[(١)] فى المجلس الكبير المُشْرف بأعلى مدينته بالزهراء، واستدعى الطبيب لذلك، وأخذ الطبيبُ الآلة وجَسَّ يد الناصر، فبينما هو إذ أطل زُرْزور[(٢)] فصعد على إناء ذهب بالمجلس، وأنشد:

أيها الفاصِدُ رفقاً بأمير المؤمنينـا
إنمـا تفصد عرقاً فيه مَحْيَا العالمينا

وجعل يكرّر ذلك المرة بعد المرة، فاستظرف أميرُ المؤمنين الناصر ذلك غاية لاستظراف، وسرّ به غايةَ السرور، وسأل عمن اهتدى إلى ذلك وعلّم الزُّرْزور[(٢)]، فذكر له أن السيدة الكبرى مَرْجانة أم ولده ولىِّ عهده الحكم المستنصر بالله صنعت ذلك، وأعدّته لذلك الأمر، فوهب لها ما ينيف على ثلاثين ألف دينار.

وذكر ابنُ بَسَّام أن أبا عامر بن شُهَيد أحمدَ بن عبد الملك الوزير أهدى له غلام من النصارى لم تقع العيون على شَبَهه، فلمحه الناصر فقال لابن شهيد: أنى لك هذا؟ قال: هو من عند الله، فقال له الناصر: تتحفوننا بالنجوم وتستأثرون بالقمر، فاستعذر[(٣)] واحتفل فى هدية بعثها مع الغلام، وقال: يا بنى كن مع جملة ما بعثت به، ولولا الضرورة ما سمحت بك نفسى، وكتب معه بهذه الأبيات:

أمولاىَ هذا البدرُ سار لأفقِـكُمْ وللأفْقُ أولى بالبدور من الأرض
أرَضّيكم بالنفس وَهْىَ نفيسـة ولم أرقبـلى مَنْ بمهجته يُرْضِى

فحسن ذلك عند الناصر، وأتحفه بمال جزيل، وتمكنت عنده مكانته، ثم إنه بعد ذلك أهديت إليه جارية من أجمل نساء الدنيا، فخاف أن ينتهى ذلك إلى

---

(١) البهو ـ بفتح الباء وسكون الهاء ـ البيت يكون أمام البيوت.
(٢) الزرزور: طائر من نوع العصافير يتبع الربيع والهواء الطيب.
(٣) استعذر: استنبط لنفسه العذر، أوطلب أن يكون له عذر عند سامعه.

الناصر فيطلبها فتكون كقصة الغلام ، فاحتفل فى هدية أعظم من الأولى ، وبعثها معها ، وكتب له :

أمولاى هذى الشمسُ والبدرُ أوّلا — تقدَّم كما يَلْتَقِى القَمَران
قِرانٌ لعمْرى بالسعادة قد أتى — فدُمْ منهما فى كوثر وجِنانِ
فما لَهُمَا والله فى الحُسْن ثالث — ومالَكَ فى مُلْك البريَّة ثانى

فتضاعفت مكانته عنده .

ثم إن أحد الوشاة رفع للملك أنه بقى فى نفسه من الغلام حرارة ، وأنه لا يزال يذكره حين تُحَرّكه الشَّمول(١) ، ويقرع السن(٢) على تعذر الوصول ، فقال للواشى : لا تحرك به(٣) لسانك ، وإلّا طار رأسك ، وأعمل الناصر حيلة فى أن كتب على لسان الغلام رقعة منها : يامولاى ، تعلم أنك كنت لى على انفرادى ، ولم أزل معك فى نعيم ، وإنى وإن كنت عند الخليفة مشارك فى المنزلة ، محاذر ما يبدو من سطوة الملك ، فتحيل فى استدعائى منه ، وبعثها مع غلام صغير السن ، وأوصاه أن يقول : من عند فلان ، وإن الملك لم يكلمه قط ، إن سأله عن ذلك ، فلما وقف أبو عامر على تلك الرسالة واستخبر الخادم علم من سؤاله ما كان فى نفسه من الغلام ، وما تكلم به فى مجالس المدام ، فكتب على ظهر الرقعة ولم يزد حرفا :

أمن بعد إحكام التجاربِ ينبغى — لدىَّ سقوطُ الطير فى غابة الأسَدْ
وما أنا ممن يغلب الحبُّ قلبه — ولا جاهل ما يدعيه أولو الحَسَدْ
فإن كنت رُوحِى قد وهبتك طائعاً — وكيف يُرَدُّ الروحُ إن فارق الجَسَدْ

فلما وقف الناصر على الجواب تعجب من فطنته ، ولم يَعُدْ إلى استماع واش به .

---

(١) الشمول — بفتح الشين — اسم من أسماء الخمر .
(٢) يقرع السن : هذه كناية يقصد بها الإخبار عن حصول الندم والتحسر والأسف
(٣) يريد لاتذع هذا لئلا يبلغه فيحترز ، لأنه يريد أن يبلوه .

ودخل عليه بعد ذلك فقال له : كيف خلصت من الشَّرَك ؟ فقال : لأن عقلي بالهوى غير مشترك ، فأنعم عليه ، وزادت محبته عنده ، وممن ذكر هذه الحكاية صاحب « مطالع البدور ، فى منازل السرور » .

ذكر غزوات الناصر

وأخبار الناصر طويلة جداً ، وقد مُنِحَ الظفر على الثوّار ، واستنزلهم من من معاقلهم ، حتى صفا له الوقت ، وكانت له فى جهاد العدو اليد البيضاء ، فمن غَزَواته أنه غزا سنة ثمان وثلثمائة إلى جِلّقية وملكُها أردون بن أذفونش ، فاستنجد بالبَشْكَنْس والإفرنجة وظاهر شانجة بن فرويلة صاحب يَنْبُلونة أمير البشكنس ، فهزمهم ، ووطىء بلادهم ، ودوّخ أرضهم ، وفتح معاقلهم[1] ، وخرب حصونهم ، ثم غزا يَنبلونة[2] سنة ثنتى عشرة ، ودخل دار الحرب ، ودوخ البسائط ، وفتح المعاقل ، وخَرَّب الحصون ، وأفسد العمائر ، وجال فيها ، وتوغل فى قاصيتها ، والعدو يُحَاذيه فى الجبال والأوعار ، ولم يظفر منه بشىء ، ثم بعد مدة ظفر ببعض الثوّار عليه ، وكان استمدَّ بالنصارى فقتل الناصرُ مَنْ كان مع الثائر من النصارى أهل ألْبَة ، وفتح ثلاثين من حصونهم ، و بلغه انتقاض طوطة ملكة البَشْكَنْس فغزاها فى يَنْبلونة ودوّخ أرضها واستباحها ، ورجع إلى قُرْطُبة ، ثم غزا غزوة الخندق سنة سبع وعشرين إلى جِلِّيقية فانهزم وأصيب فيها المسلمون ، وقعد بعدها عن الغزو بنفسه ، وصار يردد البعوث والصوائف[3] إلى الجهاد ، و بعث جيوشه إلى المغرب فملك سَبْتة وفاساً وغيرهما من بلاد المغرب ، وطار صيته وانتشر ذكره كما سبق ، ولما هلك شانجة بن فرويلة ملك البَشْكَنْس قام بأمرهم بعده أمه طوطة ، وكفلت ولده ، ثم انتقضت على الناصر سنة خمس وعشرين ، فغزا الناصر بلادها ، وخرب

(١) المعاقل : جمع معقل ، وهو فى اللغة الملجأ والموئل ، ويراد به هنا الحصن لأنه يمنع من يكون فيه من عدوه .

(٢) وقع فى ب ، ز « بنبلونة » وقد ذكرنا ضبطها فى ص ٣٢٣

(٣) الصوائف : جمع صائفة ، وهى الفرقة تغزو فى زمان الصيف .

نواحى يَنبلُونة وردد عليها كما مر الغزوات ، وكان قبل ذلك سنة ثنتين وعشرين غزا إلى وَخْشَمَة[١] ، ثم رحل إلى يَنبلونة ، فجاءته طوطة بطاعتها وعقد لابنها غَرْسِيَة على ينبلونة ، ثم عدل إلى ألْبَة و بسائطها فدوّخها وخرب حصونها ، ثم اقتحم جِلّيقيَّة وملكها يومئذ رُدْمير بن أردون ، فخام عن لقائه ، ودخل وَخْشَمَة[١] ، فنازله الناصر فيها ، وهدم بَرْغَش وكثيراً من معاقلهم ، وهزمهم مراراً ، ورجع ، ثم كانت بعدها غزوة الخندق السابقة ، وهابته أمم النصرانية ، ثم وفدت عليه سنة ست وثلاثين رسل صاحب قسطنطينية وهديته ، وهو يومئذ قسطنطين ، واحتفل الناصر لقدومهم فى يوم مشهود ، قال ابن خلدون : ركبت فى ذلك اليوم العساكر بالسلاح فى أكمل شِكّة[٢] ، وزين القصر الخلافى بأنواع الزينة وأصناف الستور ، وحمل السرير الخلافى بمقاعد الأبناء والإخوة والأعمام والقَرَابة ، ورتب الوزراء والخدمة فى مواقفهم ، ودخل الرسُلُ فهالهم ما رأوه ، وقُرّبوا حتى أدّوْا رسالتهم ، وأمر يومئذ الأعلام أن يخطبوا فى ذلك المحفل ، ويعظموا من أمر الإسلام والخلافة ، ويشكروا نعمة الله على ظهور دينه وإعزازه ، وذلة عدوه ، فاستعدُّوا لذلك ، ثم بهرهم هَوْل المجلس فوجموا ، وشرعوا فى القول فأُرْتِجَ عليهم ، وكان فيهم أبو على القالى وافدُ العراق كان فى جملة الحكم ولى العهد ونَدَبه لذلك[٣] استئثاراً ، فعجز ، فلما وَجُموا كلهم قام مُنذر بن سعيد البَلُّوطى من غير استعداد ولا رَوِيّة ولا تقدّم له أحد بشىء من ذلك ، فخطب واستحضر وجَلَّى فى[٤] ذلك القصد ، وأنشد شعراً طويلا ارتجله فى ذلك الغرض ، ففاز بفخر ذلك المجلس ، وعجب الناس من شأنه أكثر من كل ما وقع ، وأعجب به الناصر ، وولاه القضاء بعدها ، وأصبح من رجالات

وفود دول النصرانية عند الناصر

---

(١) فى ب ، ز «خشتمة» فى الموضعين ، وقد أثبتنا ما فى ابن خلدون (٤/ ١٤٢)

(٢) الشكة ــ بكسر الشين ــ السلاح التام والعدة الكاملة .

(٣) ندبه : اختاره ودعاه ، والاستئثار : أن يؤثره على غيره ويقدمه عليه .

(٤) جلى : جاء سابقاً لغيره ، والمجلي فى خيل السباق أولها فى بلوغ الغاية .

المعالم ، وأخباره مشهورة ، وخطبته فى ذلك اليوم منقولة فى كتب ابن حيان وغيره ، ثم انصرف هؤلاء الرسل ، و بعث الناصر معهم هشام بن هذيل بهدية حافلة ليؤكد المودة ويُحْسن الإجابة ، ورجع بعد سنتين وقد أحكم من ذلك ما شاء وجاءت معه رسل قسطنطين ، ثم جاء رسول من ملك الصقالبة ـ وهو يومئذ دوقوه ـ ورسول آخر من ملك الألمان ، ورسول آخر من ملك الإفرنجة وراء البرت ـ وهو يومئذ أوفة ـ ورسول آخر من ملك الإفرنجة بقاصية المشرق ـ وهو يومئذ كلدة ـ واحتفل الناصر لقدومهم ، و بعث مع رسول الصقالبة ر بيعاً الأُسْقُفَّ إلى ملكهم دوقوه ورجع بعد سنتين .

وفى سنة أر بع وأر بعين جاء رسول أردونَ يطلب السلم ، فعقدله ، ثم بعث فى سنة خمس وأر بعين يطلب إدخال فردلند[1] قومس قَشْتيلة فى عهده ، فأذن له فى ذلك، وأدخل فى عهده ، وكان غَرْسِيَةُ بن شانجة قد استولى على جِلِّيقِيَّة بعد أبيه شانجة ابن فرويلة ثم انتقض عليه أهل جليقية ، وتولى كبرهم قومس قشتيلة[2] فردلند المذكور ، ومال إلى أردون بن ردمير ، وكان غرسية بن شانجة حافداً لطوطة ملكة البَشْكَنْس ، فامتعضت لحافدها غرسية ، ووفدت على الناصر سنة سبع وأر بعين مُلْقية بنفسها فى عَقْد السلم لها ولولدها شانجة بن ردمير الملك ، و إعانة حافدها غَرْسية ابن شانجة على ملكه ، ونصره من عدوّه ، وجاء الملكان معها ، فاحتفل الناصر لقدومهم ، وعقد الصلح لشانجة وأمه ، و بعث العساكر مع غَرْسِيَةَ ملك جِلِّيقية فردّ عليه ملكه ، وخلع الجلالقةُ طاعة أردون إليه ، و بعث إلى الناصر يشكره على فعلته ، وكتب إلى الأمم فى النواحى بذلك ، و بما ارتكبه فردلند قومُس قَشْتيلة فى نكثه ووثوبه ، و يعيره بذلك عند الأمم ، ولم يزل الناصر على موالاته و إعانته إلى

(١) اسمه الإفرنجى «فرديناند» والعرب تعتاد أن تنقل الأسماء الأعجمية ببعض تحريف.

(٢) القومس : الرجل الشريف ، والأمير ، والملك ، وهى معربة ، وقد تكلم بها بعض العرب ، فمن ذلك قول الفضل بن العباس اللهبى :

وأبى هاشم ، هما ولدانى قومس منصبى ، ولم يك خيشا

أن هلك ، ولما وصل رسول كلدة ملك الإفرنجة بالشرق كما تقدّم وصل معه رسول ملك بَرشِلونة وطَرَّكونة راغباً فى الصلح ، فأجابه الناصر ووصل بعده رسول صاحب رومة يخطب المودة فأجيب ، انتهى كلام ابن خلدون ببعض اختصار

ولنفصل بعض ما أجمله فنقول : ذكر ابنُ حيان وغيرُ واحد أن ملك الناصر بالأندلس كان فى غاية الضخامة ورفعة الشأن ، وهادَتْهُ الروم ، وازدلفت[1] إليه تطاب مهادنته ومتاحفته بعظيم الذخائر ، ولم تبق أمة سمعت به من ملوك الروم والإفرنجة والمجوس وسائر الأمم إلا وفدت عليه خاضعة راغبة ، وانصرفت عنه راضية ، ومن جملتهم صاحبُ القسطنطينية العظمى ، فإنه هاداه ، ورغب فى مُوَادعته[2] ، وكان وصول أرساله فى صفر سنة ثمان وثلاثين وثلاثمائة ، وتقدم فى كلام ابن خلدون أنها ست وثلاثون ، فالله أعلم أيهما أصح ، وتأهب[3] الناصر لورودهم وأمر أن يتلقوا أعظم تلق وأفخمه ، وأحسن قبول وأكرمه ، وأخرج إلى لقائهم ببَجاية يحيى بن محمد ابن الليث وغيره لخدمة أسباب الطريق ، فلما صاروا بأقرب المحلات من قُرْطُبة خرج إلى لقائهم القوّاد فى العدد والعدّة والتعبية ، فتلقوهم قائداً بعد قائد ، وكمل اختصاصهم بعد ذلك ، بأن أخرج إليهم الفَتَيَين الكبيرين الخصيين ياسراً وتماما ، إبلاغاً فى الاحتفال بهم ، فلقِيَاهم بعد القواد فاستبان لهم بخروج الفَتَيَين إليهم بَسْط الناصر و إكرامه ، لأن الفِتْيَان حينئذ هم عظماء الدولة ، لأنهم أصحاب الخلوة مع الناصر وحرمه و بيدهم القصر السلطانىّ ، وأنزلوا بمُنْية ولىّ العهد الحكم المنسوبة إلى نُصَيْر بعُدْوة قُرْطُبة فى الرَّبَضِ ، ومنعوا من لقاء الخاصة والعامة جملة ، ومن ملابسة الناس طرّا ، ورتب لحجابتهم[4] رجال تخيروا من الموالى ووُجوه[5] الحَشَم فصيروا

---

(١) ازدلفت إليه : تزلفت له ، وعملت على التقرب إليه وأن تمت له بصلة .

(٢) موادعته : مهادنته ومسالمته . (٣) تأهب : استعد ، وأخذ الأهبة له .

(٤) حجابتهم : منع الدخول عليهم بغير إذن .

(٥) الوجوه : جمع وجه ، ويراد به صاحب الوجاهة .

على باب قصر هذه المنية ستة عشر رجلا لأربع دول ، لكل دولة أربع منهم ، ورحل الناصر لدين الله من قصر الزهراء إلى قصر قُرْطُبة لدخول وفود الروم عليه ، فقعَدَ لهم يوم السبت لإحدى عشرة ليلة خلت من ربيع الأول من السنة المذكورة في بَهْو المجلس الزاهر قعوداً حسناً نبيلا ، وقعد عن يمينه ولي العهد من بنيه الحكم ثم عبدُالله ثم عبدالعزيز ثم الأصبغ ثم مروان ، وقعد عن يساره المنذر ثم عبدالجبار ثم سليمان ، وتخلف عبد الملك لأنه كان عليلا لم يُطِق الحضور ، وحضر الوزراء على مراتبهم يميناً وشمالا ، ووقف الحجابُ من أهل الخدمة من أبناء الوزراء والموالى والوكلاء وغيرهم ، وقد بسط صحن الدار أجمع بعتاق البُسُط وكرائم الدرانك(1) ، وظُلِّلَتْ أبواب الدار وحناياها بظُلَل الديباج ورفيع الستور ، فوصل رُسُل ملك الروم حائرين مما رأوه من بهجة الملك وفخامة السلطان ، ودفعوا كتاب ملكهم صاحب القسطنطينية العظمى قسطنطين بن ليون ، وهو في رَقٍّ مصبوغ(2) لوناً سماوياً مكتوب بالذهب بالخط الإغريقي ، وداخل الكتاب مُدْرَجة(3) مصبوغة أيضاً مكتوبة بفضة بخط إغريقي أيضاً فيها وصف هديته التي أرسل بها وعددها ، وعلى الكتاب طابع ذهب وزنه أربعة مثاقيل ، على الوجه الواحد منه صورة المسيح ، وعلى الآخر صورة قسطنطين الملك وصورة ولده ، وكان الكتاب بداخل درج فضة منقوش عليه غطاء ذهب فيه صورة قسطنطين الملك معمولة من الزجاج الملون البديع ، وكان الدرج داخل جُعْبة ملبسة بالديباج ، وكان في ترجمة عنوان الكتاب في سَطْر منه قسطنطين وروماني المؤمنان بالمسيح الملكان العظيمان ملكا الروم ، وفي سطر آخر إلى العظيم الاستحقاق الفخر الشريف النسب عبدالرحمن الخليفة الحاكم على العرب

---

(1) الدرانك : جمع درنك ، وهو بساط ذو خمل قصير ، وتكون الدرانك فرشاً وتكون ستائر ، ويقال : درنيك ، ودرنوك ، معرب .

(2) الرق ــ بفتح الراء وتشديد القاف ــ الجلد الرقيق يكتب فيه ، وفي التنزيل الكريم (وكتاب مسطور في رق منشور) . (3) مدرجة : مطوية .

بالأندلس ، أطال الله بقاءه ! ولما احتفل الناصر لدين الله هذا الاحتفال أحبَّ أن يقوم الخطباء والشعراء بين يديه ، لتذكر جلالة مقعده وعظيم سلطانه ، وتصف ماتهيأ[١] من توطيد الخلافة فى دولته ، وتقدم إلى الأمير الحكم ابنه ولى عهده بإعداد من يقوم بذلك من الخطباء ، ويقدّمه أمام نشيد الشعراء ، فأمر الحكم صنيعه الفقيهَ محمد بن عبد البر الكشكينانى[٢] بالتأهب لذلك ، وإعداد خطبة بليغة يقوم بها بين يدى الخليفة ، وكان يدّعى من القدرة على تأليف الكلام ما ليس فى وُسْع غيره وحضر المجلس السلطانى ، فلما قام يحاول التكلم بما رأى هاله وبَهَره هولُ المقام وأبهة الخلافة ، فلم يهتد إلى لَفْظة ، بل غُشى عليه وسقط إلى الأرض ، فقيل لأبى على البغدادى إسماعيل بن القاسم القالى صاحب الأمالى والنوادر ، وهو حينئذ ضيف الخليفة الوافدُ عليه من العراقِ وأمير الكلام وبحر اللغة : قم فارْقَعْ هذا الوَهْى[٣] ، فقام فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ، وصلى على نبيه صلى الله عليه وسلم ، هكذا ذكر ابن حيان وغيره ، وكلام ابن خلدون السابق يقتضى أن القالى هو المأمور بالكلام أوّلا والمُعَدُّ لذلك ، ونحوُه فى المطْمَح ، والخطبُ سهل ، ثم انقطع القول بالقالى ، فوقف ساكتاً مفكراً فى كلام يَدْخُل به إلى ذكر ما أريد منه ، وقال فى المطمح : إن أبا على القالى انقطع وبُهت ، وما وصل إلا قطع ، ووقف ساكتاً متفكراً لا ناسياً ولا متذكراً ، فلما رأى ذلك مُنْذر بن سعيد — وكان ممن حضر فى زمرة الفقهاء — قام من ذاته ، بدرجة من مِرْقاته ، فوصل افتتاح أبى على لأوّل خطبته بكلام عجيب ، ونادى من الإحسان فى ذلك المقام كلّ مجيب ، يسحه[٤] سحاً كأنما كان يحفظه قبل ذلك بمدة ، وبدأ من المكان الذى انتهى إليه أبو على البغدادى ، فقال : أما بعد

---

(١) تهيأ له : اتفق حصوله له وتمكن منه ، وتوطيد الخلافة : التمكين لها وإرساء قواعدها.

(٢) فى ب ، ز « الكيسبانى » وهو من قرية « كشكينان » إحدى قرى قنبانية

(٣) يقال « رقع فلان الوهى » و « رقع الوهن » والمعنى أصلح ما فسد .

(٤) يسحه سحا : المراد أنه كان يتكلم فلا يتوقف ولا يتتعتع ، وأصل السح صب الماء متتابعاً .

حمدالله والثناءعليه ، والتعداد لآلائه ، والشكر لنعمائه ، والصلاة والسلام على محمد صفيه وخاتم أنبيائه ، فان لكل حادثة مقاماً ، ولكل مقام مقال[1] ، وليس بعد الحق إلا الضلال ، وإنى قد قمت فى مقام كريم ، بين يدى ملك عظيم ، فاصغوا إلى معشر الملأ بأسماعكم ، وأتقنوا عنى بأفئدتكم ، إن من الحق أن يقال للمحق صدقت ، وللمبطل كذبت ، وإن الجليل تعالى فى سمائه ، ، وتقدّس بصفاته وأسمائه ، أمر كليمه موسى صلى الله على نبينا وعليه وعلى جميع أنبيائه ، أن يذكّر قومه بأيام الله جل وعزعندهم ، وفيه وفى رسول الله صلى الله عليه وسلم أسْوَة حسنة[2] ، وإنى أذكركم بأيام الله عندكم ، وتلافيه لكم بخلافة أمير المؤمنين التى لَمَّتْ شعثكم ، وأمنتْ سِرْبكم ، ورفعت قوّتكم ، بعد أن كنتم قليلا فكثركم ، ومستضعفين فقوّاكم ، ومُسْتذَلِّين فنصركم ، ولاه الله رعايتكم ، وأسند إليه إمامتكم ، أيام ضربت الفتنة سُرَادِقَهَا على الآفاق ، وأحاطت بكم شُعَل النفاق[3] ، حتى صرتم فى مثل حدقة البعير ، من ضيق الحال ونكد العيش والتغيير ، فاستبدلتم بخلافته من الشدة بالرخاء ، وانتقلتم بيُمْن سياسته إلى تمهيد كَنَف العافية بعد استيطان البلاء ، أنشدكم بالله معاشر الملأ ألم تكن الدماء مسفوكة فحقنها ، والسبلُ مَخُوفة فأمنها ، والأموال منتهبة فأحرزها وحَصَّنها ؟ ألم تكن البلاد خرابا فعمَّرها ، وثغور المسلمين مهتضمة فحماها ونصرها ؟ فاذكروا آلاء الله عليكم بخلافته ، وتلافيهُ جَمْعَ كلمتكم بعد افتراقها بإمامته ، حتى أذهب الله عنكم غيظكم ، وشفى صدوركم ، وصرتم يداً على عدوّكم ، بعد أن كان بأسُكم بينكم ، فأنشدكم الله ألم تكن خلافته قُفْلَ الفتنة بعد انطلاقها من عِقَالها ؟ ألم يتلافَ صلاح الأمور بنفسه بعد اضطراب أحوالها

---

(١) هذا أحد وجهين جائزين فى مثل ذلك ، والآخر أن يقال « ولكل مقام مقالا » بالعطف على معمولى إن.

(٢) الأسوة ـ بضم الهمزة وسكون السين ـ القدوة .

(٣) الشعل : جمع شعلة ـ بضم الشين وسكون العين المهملة ـ وهى فى الأصل القطعة من النار .

ولم يكل ذلك إلى القوّاد والأجناد ، حتى باشره بالقوة والمُهْجَة والأولاد ، واعتزل النسوان ، وهجر الأوطان ، ورفض الدَّعَة[١] وهى محبوبة ، وترك الركون إلى الراحة وهى مطلوبة ، بطَوِيّة صحيحة ، وعزيمة صريحة ، وبصيرة ثابتة نافذة ثاقبة ، وريح هابَّةٍ غالبة ، ونصرة من الله واقعة واجبة ، وسلطان قاهر ، وجَدّ ظاهر ، وسيف منصور ، تحت عَدْل مشهور ، متحمِّلا للنَّصَب[٢] ، مستقلاّ لما ناله فى جانب الله من التعب ، حتى لانت الأحوال بعــد شدتها ، وانكسرت شَوْكة الفتنة[٣] عنــد حدتها ، ولم يبق لها غارب إلا جَبَّـه ، ولا نجمَ لأهلها قرن إلا جدّه ، فأصبحتم بنعمة الله إخوانا ، وبلم أمير المؤمنين لشَعَثكم على أعدائه أعوانا ، حتى تواترت لديكم الفتوحات ، وفتح الله عليكم بخلافته أبواب الخيرات والبركات ، وصارت وفودُ الروم وافدة عليه وعليكم ، وآمال الأقصَيْنَ والأدْنَيْنَ مستخدمة إليه وإليكم ، يأتون من كل فج عميق ، وبلد سَحيق ، لأخذ حبل بينه وبينكم جملة وتفصيلا ، ليقضى الله أمراً كان مفعولا ، ولن يخلف الله وَعْدَه ، ولهذا الأمر مابعده ، وتلك أسـباب ظاهرة بادية ، تدل على أمور باطنة خافية ، دليلُها قائم ، وجفنُها غـير نائم ، وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنَّهُمْ فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ــ الآية ، وليس فى تصديق ماوعد الله ارتياب ولكل نبأ مستقر ولكل أجل كتاب ، فاحمدوا الله أيها الناس على آلائه ، واسألوه المزيد من نَعْمَائه ، فقد أصبحتم بخلافة أمير المؤمنين أيده الله بالعصمة والسَّدَاد ، وألهمه خالص التوفيق إلى سبيل الرشاد ، أحسن الناس حالا ، وأنعمهم بالا ، وأعزهم قَرَاراً ، وأمنعهم داراً ، وأكْثَفَهم جمعاً ، وأجملهم صُنْعاً ، لا تهاجون

(١) الدعة في الأصل السكون ، وتطلق على لين العيش ورفاهته.

(٢) النصب ــ بفتح النون والصاد جميعا ــ مصدر نصب ينصب ، مثل فرح يفرح ، أى تعب وتحمل المشاق.

(٣) شوكة الفتنة : قوتها ، وحدتها : نشاطها.

ولا تذادون [١]، وأنتم بحمدالله على أعدائكم ظاهرون، فاستعينوا على صلاح أحوالكم بالمناصحة لإمامكم، والتزام الطاعة لخليفتكم وابن عم نبيكم، صلى الله عليه وسلم، فإن من نزع يدًا من الطاعة، وسعى فى تفريق الجماعة، ومَرَق من الدِّين [٢]، فقد خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين، وقد علمتم أن فى التعلق بعِصمتها، والتمسك بعُرْوتها، حفظَ الأموال وحَقْنَ الدماء، وصلاح الخاصة والدَّهْماء، وأن بقوام الطاعة تقام الحدود، وتُوفى العهود، وبها وُصلت الأرحام، ووضحت الأحكام، وبها سدّ الله الخَلَل، وأمّن السُّبُل، ووطّأ الأكناف، ورفع الاختلاف، وبها طاب لكم القَرَار [٣]، واطمأنت بكم الدار، فاعتصموا بما أمركم الله بالاعتصام به، فإنه تبارك وتعالى يقول: أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم ـ الآية، وقد علمتم ما أحاط بكم فى جزيرتكم هذه من ضروب المشركين، وصنوف الملحدين، الساعين فى شَقِّ عصاكم، وتفريق ملاكم، الآخذين فى مخاذلة دينكم، وهَتْك حريمكم، وتوْهين دعوة نبيكم، صلوات الله وسلامه عليه وعلى جميع النبيين والمرسلين، أقول قولى هذا وأختم بالحمد لله رب العالمين مستغفراً الله الغفور الرحيم فهو خير الغافرين.

وساقَ ابنُ سعيد فى «المغرب» هذه الحكاية فقال ما صورته: منذر بن سعيد البَلُّوطى، قاضى الجماعة بقرطبة، خطيبٌ مِصْقَع [٤]، وله كتب مؤلفة فى القرآن والسنة والورع، والرد على أهل الأهواء والبدع، شاعر بليغ، ولد سنة خمس وستين ومائتين، وأولُ سببه فى التعلّق بعبدالرحمن الناصر لما احتفل لدخول رسول ملك الروم صاحب قسطنطينية بقصر قُرْطُبة الاحتفال الذى اشتهر ذكره،

---

(١) لاتهاجون: لا يهيجكم أحد، أى لا يثيركم، ولا تذادون. لا تدفعون ولا تمنعون عن قضاء ما تريدون.

(٢) مرق من الدين: خرج منه كما يخرج السهم من الرمية، وهو وارد فى الحديث.

(٣) طاب: صار طيبا مقبولا، والقرار ـ بفتح القاف ـ الاستقرار والسكون

(٤) مصقع ـ بزنة منبر ـ ماهر بليغ أو عالى الصوت متتابعه، وجمعه مصاقع

أحب أن يقوم الخطباء والشعراء بين يديه ، لذكر جلالة مقعده ، ووَصْف ما تهيأ له من توطيد الخلافة ، ورمْيِ ملوك الأمم بسهام بأسه ونَجْدَته ، وتقدّمه إلى الأمير الحكم ابنه ووليّ عهده بإعداد مَنْ يقوم لذلك من الخطباء ، ويقدّمه أمام إنشاد الشعراء ، فتقدَّم الحكم إلى أبى عليّ البغدادى ضيف الخليفة ، وأمير الكلام ، وبحر اللغة ، أن يقوم ، فقام وحمد الله وأثنى عليه وصلى على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، ثم انقطع ، وبُهت فما وصل ولا قطع ، ووقف ساكتاً مفكراً ، فلما رأى ذلك منذرُ بن سعيدٍ قام قائماً بدرجة من مِرْقَاة أبى على ، ووصل افتتاحه بكلام عجيب بَهَرَ العقول جزَالة ، وملأ الأسماع جلالة ، ثم ذكر الخطبة كما سبق، وقال بعد إيرادها ما صورته : فصلب العِلْج وغلب على قلبه ، وقال : هذا كبير القوم، أو كبش القوم ، وخرج الناسُ يتحدثون عن حسن مقامه ، وثبَات جَنانه (١) ، وبلاغة لسانه ، وكان الناصر أشدّهم تعجباً منه ، وأقبل على ابنه الحكم – ولم يكن يُثْبت معرفته – فسأله عنه ، فقال له : هذا منذر بن سعيد البلُّوطى ، فقال : والله لقد أحسن ما شاء ، ولئن أخرنى الله بعدُ لأرْفعَنّ من ذكره ، فضَعْ يدك ياحكم عليه ، واستخلصه (٢) ، وذكرنى بشأنه ، فما للصنيعة مَذْهَب عنه ، ثم ولاه الصلاة والخطابة فى المسجد الجامع بالزهراء ، ثم توفى محمد بن عيسى القاضى فولّاه قضاء الجماعة بقُرْطُبة ، وأقرّه على الصلاة بالزهراء .

ومن شعره فى هذه الواقعة قولُه :

مقالى كحدّ السيف وَسْطَ المحافِلِ ... فرَقْتُ به ما بين حَقّ وباطل

بقلبٍ ذكيّ ترتمى جَمَرَاته ... كبارق رَعْدٍ عند رَعْش الأنامل (٣)

---

(١) الجنان : القلب ، وثباته معناه أنه لايعتريه خوف ولا تؤثر فيه نازلة .

(٢) استخلصه : اجعله من خلصانك وخاصتك .

(٣) قلب ذكى : سريع الفطنة حاد الإدراك متناهى الفهم .

فما دَحَضَتْ رجلي ولازلّ مِقْوَلي ولا طاش عقلي يوم تلك الزلازل (١)
وقد حدّقتْ حولي عُيُونٌ إخالها كمثل سهامٍ أثبتت في المقاتل
لخير إمام كان أو هو كائن لمقْتَبلٍ أوفى العصور الأوائل
ترى الناسَ أفواجا يؤُمُّون بابه وكلهمُ ما بَيْنَ راجٍ وآمِلِ (٢)
وفودُ ملوكِ الروم وَسْط فِنَائه مخافه بأسٍ أو رَجَاءَ لنائل
فعِشْ سالما أقصى حياة مؤمَّلاً فأنت رجاء الكل حافٍ وناعل
سَتَمْلكُهَا ما بين شرق ومغرب إلى درب قسطنطين أو أرض بابل

انتهى كلام ابن سعيد، وهو يؤيد كلام ابن خلدون أن المأمور بالخطبة هو القالي.

وذكر أن الناصر قال لابنه الحكم بعد أن سأله عنه : لقد أحسن ما شاء، فلئن كان حَبَّرَ خطبته هذه وأعَدَّهَا مخافة أن يدور ما دار فيتلافى الوَهْي فإنه لَبَديع من قدرته واحتياطه، ولئن كان أتى بها على البديهة لوقته فإنه لأعجب وأغرب.

قال ابن سعيد : ولما فرغ منذر من خطبته أنشد :

هذا المقام الذي ما عابه فَنَد لكن قائله أزْرَى به البلد (٣)
لو كُنْتُ فيهم غريباً كنت مُطرَّفاً لكنني منهمُ فاغتالني النكد

ويروى بدل هذا الشطر :

ولا دهاني لهم بغي ولا حَسَدُ

لولا الخلافة أبقى الله حُرْمَتَهَا ما كنتُ أرضى بأرض ما بها أحَدُ

قلت : كأنه عرّض بأبي علي القالي، وتقديمهم إياه في هذا المقام، والله أعلم.

(١) دحضت رجلي : زلقت، وزل مقولي : أخطأ لساني، وطاش عقلي : ذهب أو ضعف، ويروى «ولا طار عقلي» وهو أوضح، ويوم الزلازل : اليوم تكون حوادثه شديدة الوقع

(٢) أفواجا : جمع فوج ـ بفتح فسكون ـ وهو الجماعة، ويؤمون : يقصدون

(٣) الفند ـ بفتح الفاء والنون جميعا ـ الكذب، والخطأ في القول، وزأرى به البلد : انتقصه وقلل من قدره كونه من أهل البلد

ومن نظم منذر بن سعيد قوله :

الموت حَوْضٌ وكلُّنا نَرِدُ لم يَنْجُ مما يَخَافُه أحدُ

فلا تكن مُغْرما برزق غد فلست تَدْرِى بما يجىء غَدُ

وخُذْ من الدهر ما أتاك به ويسلم الروح منك والجسَدُ

والخيرُ والشرُّ لاتدعْهُ فما فى الناس إلا التشنيعُ والحسَدُ

وله وقد آذاه شخص فخاطبه بالكُنْية[1] ، فقيل له : أيؤذيك وأنت تخاطبه بالكنية ؟ فقال :

لاتعجبوا من أننى كَنَّيته من بعد ما قد سَبَّنَا وأذانا

فالله قد كَنَّى أبا لهب وَمَا كناه إلا خِزْيَةً وهَوَانَا

وقال فى المطمح : منذر بن سعيد البلوطى ، آية حركة وسُكُون ، وبَرَكة لم تكن معدة ولا تكون ، وآية سَفَاهة فى تحلم ، وجَهَامة[2] وَرَع فى طى تبسُّم ، إذا جدّ وجد ، و إذا هزل نزل ، وفى كلتا الحالتين لم ينزل للورع من مَرْقَب[3] ، ولا اكتسب إثما ولااحتقَبْ ، وَلِىَ قضاء الجماعة بقرطبة أيام عبد الرحمن ، وناهيك من عَدْل أظهر ، ومن فضل أشهر ، ومن جَوْر قبض ، ومن حق رفع ومن باطل خفض ، وكان مَهِيباً صليبا صارما غير جبان ولا عاجز ولا مراقب لأحد من خلق الله فى استخراج حق ورفع ظلم ، واستمر فى القضاء إلى أن مات الناصر لدين الله ثم ولى ابنه الحكم فأقره ، وفى خلافته استعفى مرارا فما أعفى ، وتوفى بعد ذلك لم يحفظ عنه مدّة ولايته قضية جور ، ولاعُدَّت عليه فى حكومته زلة ، وكان غزير العلم ، كثير الأدب ، متكلما بالحق ، متبينا بالصدق ، له كتب مؤلفة فى السنة

---

(١) الكنية : ماصدر بأب أوأم ، نحو « أبو الفضل » و « أم هانى » والعرب تجعل الخطاب بالكنية من دلائل تعظيم المخاطب ، وقال شاعر الحماسة :

أكنيه حين أناديه لأكرمه ولا ألقبه ، والسوأة اللقب

(٢) الجهامة : مصدر « جهم فلان جهامة وجهومة » إذا بسر وجهه واكفهر

(٣) المرقب ـ بفتح الميم والقاف ـ المكان المرتفع العالى

والقرآن والورع ، والرد على أهل الأهواء والبدع ، وكان خطيبا بليغا وشاعرا محسنا ، ولد عند ولاية المنذر بن محمد ، وتوفى سنة ٣٥٥ ، ومن شعره فى الزهد قوله :

كم تَصَابَى وقد علاكَ المشيبُ ... وتَعَامَى عمداً وأنت اللبيبُ ؟(١)

كيف تَلْهُو وقد أتاك نذير ... أن سَيَأْتى الحِمَامُ منك قريبُ ؟(٢)

يا سفيهاً قد حان منه رَحيلٌ ... بعد ذاك الرحيل يومٌ عَصِيبُ

إن للموت سَكْرة فارتقِبْهَا ... لا يُدَاوِى إذا أتتك طبيبُ

كم تَوَانَى حتى تصير رَهِيناً ... ثم تأتيك دَعْوَة فتجيبُ

بأمور المَعَاد أنت عليمٌ ... فاعملَنْ جاهداً له يا ريبُ

وتذكَّرْ يوماً تحاسَبُ فيه ... إن مَنْ يدَّكِرْ فسوْفَ يُنيبُ

لَيْسَ من ساعة من الدهر إلاَّ ... للمنايا بها عليك رقيبُ

ولعلنا نذكر شيئاً من أحوال منذر فى غير هذا الموضع .

صنيع الناصر فى إعذار حفدته

رجع لأخبار الناصر لدين الله — حكى أنه لما أعذر لأولاد ابنه أبى مروانَ عبيد(٣) الله اتخذ لذلك صنيعاً عظيما بقصر الزهراء لم يتخلف أحد عنه من أهل مملكته وأمر أن ينذر لشهوده الفقهاء المشاورون ومَنْ يليهم من العلماء والعدول ووجوه الناس ، فتخلف من بينهم المشاور أبو إبراهيم ، وافتقد مكانه لارتفاع منزلته ، فسأل فى ذلك الخليفة الناصر ، إذ أبو إبراهيم من أكابر علماء المالكية الذين عليهم المدار ، ووجِدَ الناصر بسبب ذلك على أبى إبراهيم ، وأمر ابنَه ولىَّ العهد الحكَمَ بالكتاب إليه ، والتفنيد له ، فكتب إليه الحكم رقعةً نسختُها « بسم الله الرحمن الرحيم ، حفظك الله وتولاك ! وسددك ورعاك ! لما امتحن أمير المؤمنين مولاى

---

(١) تصابى : أصله تتصابى ، حذف إحدى التاءين ، وهو كثير فى فصيح الكلام ، والتصابى : الميل إلى الصبوة واللهو ، وتعامى : أى تتغافل وتتصنع العمى ، واللبيب : الخبير العارف ذو اللب

(٢) روى عجز هذا البيت فى المطمح « أن يوم الحمام منك قريب » وهى خير مما هنا ، والحمام — بكسر الحاء — الموت (٣) تقدم فى أولاده « عبد الله » لا « عبيد الله » .

وسيدى ـ أبقاه الله ! ـ الأولياءَ الذين يستعدُّ بهم وَجَدَكَ متقدما فى الولاية ، متأخرا عن الصلة ، على أنه قد أنذرك ـ أبقاه الله ! ـ خصوصاً للمشاركة فى السرور الذى كان عنده ، لا أعدمه الله توالى المسرة ، ثم أنذرت من قبل إبلاغا فى التكرمة ، فكان منك على ذلك كله من التخلف ما ضاقت عليك فيه المعذرة ، واستبلغ أميرُ المؤمنين فى إنكاره ومعاتبتك عليه ، فأعيت عليك[1] عنك الحجة ، فعرِّفْنى ـ أكرمك الله ! ـ ما العذر الذى أوجب توقفك عن إجابة دعوته ، ومشاهدة السرور الذى سُرَّ به ورغب المشاركة فيه ، لنعرِّفه ـ أبقاه الله ! ـ بذلك ، فتسكن نفسه العزيزة إليه إن شاء الله تعالى » فأجابه أبو إبراهيم : « سلام على الأمير سيدى ورحمة الله ، قرأْت ـ أبقى الله الأمير سيدى ! ـ هذا الكتاب وفهمته ، ولم يكن توقفى لنفسى ، إنما كان لأمير المؤمنين سيدنا أبقى الله سلطانه ، لعلمى بمذهبه ، وسكونى إلى تقواه ، واقتفائه لأثر سَلَفه الطيب رضوان الله عليهم ، فإنهم يستبقون من هذه الطبقة بقيةً لا يمتهنونها[2] بما يَشِينها ، ولا بما يغض منها ويطرق إلى تنقيصها ، يستعدون بها لدينهم ، ويتزيَّنُون بها عند رعاياهم ومَنْ يفد عليهم من قُصَّادهم ، فلهذا تخلفت ، ولعلمى بمذهبه توقفت ، إن شاء الله تعالى » فلما أقرأ الحكم أباه الناصر لدين الله جوابَ أبى إبراهيم إسحاق أعجبه ، واستحسن اعتذاره ، وزال ما بنفسه عليه .

وكان الفقيه أبو إبراهيم المذكور مُعظما عند الناصر وابنه الحكم ، وحُقَّ لهما أن يعظماه ، وقد حكى الفقيه أبو القاسم بن مُفَرِّج قال : كنت أختلف إلى الفقيه أبى إبراهيم ـ رحمه الله تعالى ! ـ فيمن يختلف إليه للتفقه والرواية ، فإنى

---

(١) المساق كله يؤيد أن هذه العبارة قد تغيرت فيها الضمائر ، والأصل « فأعيت على عنك الحجة » أو « فأعيت علينا عنك الحجة » يريد أنه لم يستطع الاعتذار عنه لعدم معرفة حقيقة العذر .

(٢) لا يمتهنونها : لا يستخدمونها فيما يبتذلون فيه ويحتقرون ، ويغض منها : ينزل بهم عن أقدارهم .

لعِنْده فى بعض الأيام فى مجلسه بالمسجد المنسوب لأبى عثمان الذى كان يصلى به قربَ داره بجوفى قصر قُرْطُبَة ، ومجلسُه حافل بجماعة الطلبة ، وذلك بين الصلاتين، إذ دخل عليه خَصِىّ من أصحاب الرسائل ، جاء من عند الخليفة الحكم ، فوقف وسلم ، وقال له : يا فقيهُ ، أَجِبْ أمير المؤمنين أبقاه الله ، فإن الأمر خرج فيك (١) ، وها هو قاعد ينتظرك ، وقد أمرت بإعجالك ، فالله الله ، فقال له : سمعا وطاعة لأمير المؤمنين ، ولا عجلَةَ ، فارجع إليه وعرفه وفقه الله عنى أنك وجدتنى فى بيت من بيوت الله تعالى معى طلابُ العلم أسمِعُهم حديثَ ابن عمه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فهم يُقَيِّدُونه عنى ، وليس يمكننى تركُ ما أنا فيه حتى يتم المجلس المعهود لهم فى رضا الله وطاعته ، فذلك أوكد من مَسيرى إليه الساعَةَ ، فإذا انقضى أمر من اجتمع إلىّ من هؤلاء المحتسبين (٢) فى ذات الله الساعين لمرضاته مشيتُ إليه إن شاء الله تعالى ، ثم أقبل على شأنه ، ومضى الخصى يُهَيْنِم (٣) متضاجرا من توقفه ، فلم يك إلا ريثما أدى جوابه ، وانصرف سريعا ساكن الطيش ، فقال له : يافقيه ، أنهيْتُ قولك (٤) على نَصِّه إلى أمير المؤمنين أبقاه الله ، فأصغى إليه ، وهو يقول لك : جزاك الله خيرا عن الدين وعن أمير المؤمنين وجماعة المسلمين ! وأمتعهم بك ! وإذا أنت أوعيت (٥) فامض إليه راشدا إن شاء الله تعالى، وقد أمرت أن أبقى معك حتى ينقضى شغلك وتمضى معى ، فقال له : حسن جميل ، ولكنى أضْعُف عن المشى إلى باب السُّدّة ، ويصعب على ركوب دابة لشيخوختى وضعف أعضائى ، وبابُ الصناعة الذى يقرب إلىّ من أبواب القصر المكرّم أحوط لى وأقرب وأرفق بى ، فإن رأى أميرُ المؤمنين ـ أيده الله تعالى ! ـ أن يأمر بفتحه لأدخل

---

(١) يريد أن الأمر صدر من أمير المؤمنين وخرج إلى لأنفذه .

(٢) المحتسبين : الذين لايبغون على ما يصنعون أجرا إلا من الله تعالى .

(٣) يهينم : يتكلم بصوت خفى لايسمعه أحد عنه (٤) أنهيت قولك : أبلغته .

(٥) أوعيت : يريد أبلغت ما عندك إلى تلاميذك فوعوه وحفظوه عنك .

إليه منه هوّن على المشى ، ووَدُعَ جسمى [١] ، وأحب أن تعود وتُنهى إليه ذلك عنى حتى تعرف رأيه فيه ، وكذلك تعود إلىّ فإنى أراك فتى سديدا ، فكن على الخير مُعيناً ، ومضى عنه الفتى ، ثم رجع بعد حين وقال : يا فقيه ، قد أجابك أمير المؤمنين إلى ما سألت ، وأمر بفَتْح باب الصناعة وانتظارك من قبله ، ومنه خرجت إليك ، وأمرت بملازمتك مذكرا بالنهوض عند فراغك ، وقال : افعل راشدا ، وجلس الخصىّ جانبا حتى أكمل أبو إبراهيم مجلسه بأكمل وأفسح ما جرت به عادتُه غيرَ منزعج ولا قَلِق ، فلما انفضضنا عنه قام إلى داره فأصلح من شأنه ثم مضى إلى الخليفة الحكم فوصل إليه من ذلك الباب ، وقضى حاجته من لقائه ، ثم صرفه على ذلك الباب ، فأعيد إغلاقه على إثر خروجه ، قال ابنُ مفرّج : ولقد تعمدنا فى تلك العَشِية إثر قيامنا عن الشيخ أبى إبراهيم المرور بهذا الباب المعهود إغلاقُه بدُبْرِ القصر لنرى تجشُّم [٢] الخليفة له ، فوجدناه مفتوحا كما وصف الخصى ، وقد حَفَّهُ الخدم والأعوان منزعجين ما بين كنَّاس وفرّاش متأهِّبين [٣] لانتظار أبى إبراهيم ، فاشتدّ عجبنا لذلك ، وطال تحدثُنا عنه ، انتهى ، فهكذا تكون العلماء مع الملوك والملوك مع العلماء ، قدس الله تلك الأرواح ! .

ثم توفى الناصر لدين الله ثانى ـ أو ثالث ـ شهر رمضان ، من عام خمسين وثلثمائة ، أعظمَ ما كان سلطانه ، وأعز ما كان الإسلام بملكه .

قال ابن خلدون : خلف الناصر فى بيوت الأموال خمسة آلاف ألف ألف ثلاث مرات، انتهى .

وقال غير واحد : إنه كان يقسم الجِبَاية أثلاثا : ثلث للجند ، وثلث للبناء ،

---

(١) تقول « ودع فلان » بضم الدال من باب كرم وبفتحها من باب فتح ـ إذا سكن واستراح واستقر .

(٢) تجشمت لهذا الأمر : تكلفت له .

(٣) تأهب فلان لكذا : استعد له .

وثلث مدّخر ، وكانت جباية الأندلس يومئذ من الكُوَر والقُرَى خمسةَ آلاف ألف وأربعمائة ألف وثمانين ألف دينار ، ومن السوق والمستخلص سبعمائة ألف وخمسة وستين ألف دينار ، وأما أخماس الغنائم العظيمة فلا يُحْصيها ديوان .

وحكى أنه وجد بخط الناصر - رحمه الله! - أيام السرور التي صفت له دون تكدير يومُ كذا من شهر كذا من سنة كذا ويوم كذا من كذا ، وعُدّت تلك الأيام فكانت أربعة عشر يوما ، فاعجب أيها العاقل لهذه الدنيا وعدم صفائها ، وبخلها بكمال الأحوال لأوليائها ، هذا الخليفة الناصر حلف السعود ، المضروب به المثل في الارتقاء في الدنيا والصعود ، ملكها خمسين سنة وستة - أو سبعة - أشهر وثلاثة أيام ، ولم تصف له إلا أربعة عشر يوما ، فسبحان ذى العزة القائمة ، والمملكة الدائمة لا إله إلا هو .

ومما ينسب للناصر من الشعر ، وقيل : لابنِهِ الحكم ، قوله :

ما كُلُّ شيء فَقَدْتُ إلا عَوَّضَنى الله منه شَيَّا
إنى إذا ما مَنَعْتُ خيرى تباعَدَ الخيرُ من يَدَيَّا
مَنْ كان لى نِعْمَةٌ عليه فإنها نعمة عَلَيَّا

ومما زيَّن الله به دولةَ الناصر وزراؤه الذين من جملتهم ابن شُهَيد ، قال في المطمح : أحمد بن عبد الملك بن عمر(١) بن شُهَيد ، مفخر الإمامة ، وزَهْر تلك الكمامة ، وصاحب(٢) الناصر عبد الرحمن ، وحاملُ الوزارتين على سُمُوِّهما في ذلك الزمان ، استقلَّ بالوزارة على ثقلها ، وتصرف فيها كيف شاء على حدِّ نظرها والتفات مُقَلها ، فظهر على أولئك الوزراء ، واشتهر مع كثرة النظراء ، وكانت إمارة عبد الرحمن أسعد

---

(١) في المطمح ترجمتان إحداهما للوزير أبي عامر أحمد بن عبد الملك بن شهيد الأشجعي ، ولكن الكلام المذكور عنه ليس هو الكلام المنقول هنا ، والثانية للوزير أبي العباس أحمد بن عبد الملك بن عمر بن أشهب ، والكلام الذى ذكر عنه هو الكلام الذى ينقله المؤلف هنا ، فلعل ما في المطمح محرف في الأعلام.

(٢) في المطمح « حاجب الناصر » وكذلك في ا .

إمارة ، بعُدَ عنها كلُّ نفسٍ بالسوء أمّارة ، فلم يطرقها صَرْف ، ولم يرمقها محذور بطَرْف ، فقرع[١] الناس فيها هِضَابَ الأمانىِّ ورُبَاها ، ورتعَتْ ظباؤها فى ظلال ظُبَاهَا ، وهو أسَدٌ على بَرَاثنه رابض ، وبطَل أبدا على قائم سيفه قابض ، يروع الرومَ طيفُه ، ويجوس خلال تلك الديار خَوْفه ، ويَرْوَى بل يحسم[٢] كل آونة سيفه ، وابن شهيد يَنْتج الآراء ويُلْقحها ، ويَنْقُد تلك الأنحاء وينقحها ، والدولة مشتملة بغنائه ، متجملة بسنائه ، وكرمُه منتشر على الآمال ، ويكسو الأولياء بذلك الإجمال[٣] ، وكان له أدب تزخر[٤] لُجُجه ، وتَبْهَر حُجَجه ، وشعره رقيق لا ينقد ، ويكاد من اللطافة يُعْقَد ، فمن ذلك قوله :

ترى البَدْرَ منها طالعاً فكأنّما … يَجُول وِشَاحاها على لؤلؤ رَطْبِ

بَعِيدَة مَهْوَى القُرْط مُخْطَفَة الحشَى … ومُفْعَمَة الخلخال مُفْعَمَة القَلْبِ

من اللاَّء لم يَرْحَلْن فوق رواحل … ولا سِرْنَ يوما فى ركاب ولا رَكْبِ

ولا أبرزتْهُن المُدَام لنشْوَة … وشَدْوٍ كما تشدو القيانُ على الشَّرْبِ[٥]

وكان بينه وبين الوزير عبد الملك بن جهور متولى الأمر معه ، ومشاركه فى التدبير إذا حضر مجتمعه ، منافسة ، لم تنفصِل لهما بها مُداخلة ولا ملابسة ، وكلاهما يتربَّصُ بصاحبه دائرة السَّوْء ، ويغص به غَصَص الأفق بالنَّوْء ، فاجتاز يوما على رَبَضه ، ومال إلى زيارته ولم تكن من غرَضه ، فلما استأمر عليه ، تأخر خروج الإذن إليه ، فثَنَى عِنانه حَنَقاً من حِجَابه ، وضجرا من حُجَّابه[٦] ، وكتب إليه مُعرضا ، وكان يلقب بالحمار :

---

(١) فى ا والمطمح «ففرع الناس» وفرعوها ـ بالفاء ـ معناه طالوها وزادوا عليها ، وقرع ـ بالقاف ـ معناه ضرب .

(٢) فى ا والمطمح « ويروى من نجيعهم كل آونة سيفه » .

(٣) فى المطمح « ويكثر الأولياء بذلك الإجمال » ولما هنا وجه وجيه .

(٤) فى ب ، ز « تزهر لججه » وأثبتنا ما فى ا والمطمح .

(٥) فى المطمح « فتشدو كما تشدو القيان على الشرب »

(٦) كذا فى ا والمطمح ، وفى ب ، ز «أحجابه» ولعل الأصل «صحابه» أو «أصحابه»

أتيناك لا عَنْ حاجة عَرَضَتْ لنا إلَيْكَ ولا قَلْبٍ إليك مَشُوقِ
ولكنَّنَا زُرْنا بفَضْلِ حُلومنا فكيف تُلاَقِى بِرَّنا بعُقُوقِ

فراجعه ابن جهور يغض منه ، بما كان يشيع عنه ، بأن جدّه أبا هشام ، كان بَيْطَارا بالشام ، بقوله :

حَجَبْنَاكَ لما زرتنا غَيْرَ تائق بقلب عَدُوّ فى ثياب صَديق
وما كان بَيْطَارُ الشَّآم بِمَوْضِع يُبَاشر فيه برَّنَا بخَلِيقِ[١]

ومن شعره قوله يتغزل :

حلفتُ بمن رَمَى فأصابَ قَلْبِي وقَلَّبَهُ على جَمْرِ الصُّدُودِ
لَقَدْ أوْدَى تذكُّره بقلبى ولَسْتُ أشُكُ أن النفس تُودِى[٢]
فَقِيدٌ وَهْوَ موجودٌ بقلبى فوَا عَجَبًا لموجودٍ فقيد

وقد تقدم الكلام على هدية ابن شُهيد و بعض أخباره ، رحمة الله عليه ! .

ولاية الحكم المستنصر بالله

ولما توفى الناصر لدين الله تولى الخلافة بعده ولى عهده الحَكَمُ المستنصر بالله فجرى على رَسْمه ، ولم يفقد من ترتيبه إلا شخصه ، وولى حجابته جَعْفر المصحفى[٣] .

وأهدى له يوم ولايته هدية كان فيها من الأصناف ما ذكره ابن حيان فى « المقتبس » وهى : مائة مملوك من الإفرنج ناشبة[٤] على خيول صافنة كاملو الشّكة والأسلحة من السيوف والرماح والدّرق والتِّراس والقَلاَنس الهندية ، وثلثمائة ونيف وعشرون درعا مختلفة الأجناس ، وثلثمائة خُوذة كذلك ، ومائة بَيْضة هندية ، وخمسون خشبية[٥] من بيضات الفرنجة من غير الخشب

(١) فى المطمح « يصادف فيه برنا » وخليق : جدير وحقيق .
(٢) فى المطمح « لقد أودى تذكره بمثلي » وأودى : أهلك .
(٣) فى ا ، ب ، ز «جعفر الصقلبى» وأثبتنا مافى المطمح (ص٤ الآستانه) وما في ابن خلدون (١٤٤/٤)
(٤) ناشبة : رامية بالنشاب ، والعرب تبنى على وزن فاعل للدلالة على نسبة الموصوف به إلى ما أخذ منه ، كقولهم : تامر ، ولابن ، ودارع ، وفى ا ، وابن خلدون « ناشئة »
(٥) فى ابن خلدون «وخمسون خوذة حبشية من حبشيات الإفرنجة غير الحبش»

يسمونها الطاشانية[١] ، وثلثمائة حربة إفرنجية ، ومائة ترس سلطانية ، وعشرة جَوَاشن فضة مذهبة ، وخمسة وعشرون قرنا مذهبة من قرون الجاموس ، انتهى .

فتوحات المستنصر وسراياه

قال ابن خلدون[٢] : ولأوّل وفاة الناصر طمع الجلالقة فى الثغور ، فغزا الحكم المستنصر بنفسه ، واقتحم بلد فرلند بن غندشلب ، فنازل شنت اشتبين وفتحها عَنْوة واستباحها ، وقفل ، فبادروا إلى عَقْدِ السلم معه وانقبضوا عما كانوا فيه ، ثم أغزى غالباً مولاه بلاد جِلِّيقية وسار إلى مدينة سالم لدخول دار الحرب ، فجمع له الجلالقة ، ولقيهم ، فهزمهم واستباحهم وأوطأ العساكر بلد فردلند ودوّخها ، وكان شانجة بن رُدمير ملكُ البَشْكَنْس قد انتقض ، فأغزاه الحكم التجيبيّ صاحب سرقسطة فى العساكر ، وجاء ملك الجلالقة لنصره ، فهزمهم ، وامتنعوا بقُورِيَة[٣] ، وعاثوا فى نواحيها ، وقفل ، ثم أغزى الحكَمُ أحمدَ بن يعلى ويحيى بن محمد التجيبى إلى بلاد بَرْشِلُونة ، فعاثت العساكر فى نواحيها ، وأغزى هُذَيل بن هاشم ومولاه غالبا إلى بلاد القومس ، فعاثا فيها ، وقفلا ، وعظمت فتوحات الحكم وقوّاد الثغور فى كل ناحية ، وكان من أعظمها فتح قُلُمْرِيَة[٤] من بلاد البَشْكَنْس على يد غالب ، فعمرها الحكم ، واعتنى بها ، ثم فتح قُطُوبِيَة[٥] على يد قائد وَشْقة وغنم فيها من الأموال والسلاح والأقوات والأثاث وفى بسيطها من الغنم والبقر والرَّمَك[٦] والأطعمة والسبى ما لا يحصى .

---

(١) فى ا ، ب ، ز «الطشطانة» وقد أثبتنا ما فى ابن خلدون

(٢) أصل هذا الكلام فى ابن خلدون (٤/١٤٤) وفى الكلام زيادة عما هناك ونقص وتغيير كلام بكلام .

(٣) قورية : مدينة قريبة من ماردة ، بينها وبين قنطرة السيف مرحلتان .

(٤) مدينة من بلاد البرتقال ، بينها وبين قورية أربعة أيام ، وهى على جبل مستدير وعليها سورحصين ، ولها ثلاثة أبواب ، وهى فى نهاية الحصانة ، وفى ا «قلهرة»

(٥) لعل الأصل « قطلونية » فليس فيما بين يدينا من المراجع اسم «قطوبية» .

(٦) الرمك : جمع رمكة ـ بفتحات ـ وهى الفرس تتخذ للنسل ، معرب .

وفى سنة أربع وخمسين سار غالب إلى بلد أَلْبَة ، ومعه يحيى بن محمد التجيبى وقاسم بن مطرف بن ذى النون ، فابتنى حصن غُرْماج ، ودوّخ بلادهم، وانصرف ، وظهرت فى هذه السنة مراكبُ المجوس فى البحر الكبير ، وأفسدوا بسائط أَشْبُونَةَ وناشبهم الناس القتال ، فرجعوا إلى مراكبهم ، وأخرج الحكم القوّاد لاحتراس السواحل ، وأمر قائد البحر عبد الرحمن بن رُمَاحس بتعجيل حركة الأسطول ، ثم وردت الأخبار بأن العساكر نالت منهم فى كل جهة من السواحل .

تزلف ملوك الجلالقة للمستنصر

ثم كانت وفادة أردون بن أذفونش ملك الجَلَالِقَة ، وذلك أن الناصر لما أعان عليه شانجة بن ردمير — وهو ابن عمه ، وهو الملك من قَبْل أردون — وحمل النصرانية على طاعته ، واستظهر أردون بصهره فردلند قومس قشتيلة ، توقع مظاهرة الحكم لشانجة كما ظاهره أبوه الناصر، فبادر إلى الوفادة على الحكم مستجيراً به ، فاحتفل لقدومه ، وعَبّى العساكر ليوم وفادته ، وكان يوما مشهوداً وصفه ابن حيان كما وصف أيام الوفادات قبله ، ووصل إلى الحكم ، وأجلسه ، ووعده بالنصر من عدوّه ، وخلع عليه ، وكتب بوصوله ملقياً بنفسه ، وعاقده على موالاة الإسلام ، ومقاطعة فردلند القومس ، وأعطى على ذلك صَفْقة يمينه[1]، ورهن ولده غَرْسية ، ودفعت الصلات والحُمْلَانُ[2] له ولأصحابه ، وانصرف معه وُجوه نصارى الذمة ليوطّدوا له الطاعة عند رعيته ، ويقبضوا رهنه .

وعند ذلك بعث ابنُ عمه شانجةُ بن ردمير ببيعته وطاعته مع قواميس أهل جِلّيقية وسَمُّورة وأساقفتهم ، يرغب فى قبوله ، ويمتّ بما فعل أبوه الناصر معه ، فتقبل بيعتهم على شروط شرطها كان منها هدم الحصون والأبراج القريبة من ثغور المسلمين .

---

(١) أصل الصفق ضرب اليد على اليد ، وقد اعتادوا عند التعاهد على شىء أن يضع كل من المتعاهدين يده فى يد الآخر ، فهذه كناية عن أنه أعطى العهد على نفسه .

(٢) الحملان : الدواب ، سميت بذلك لأنه يحمل عليها .

ثم بعث ملكا بَرْشِلونة وطَرَّكونة وغيرُهما يسألان تجديد الصلح و إقرارهما على ما كانا عليه ، و بعثا بهدية ، وهى : عشرون صبياً من الخصيان الصقالبة ، وعشرون قنطاراً من صوف السمور ، وخمسة قناطير من القصدير ، وعشرة أدراعٍ صقلبية ، ومائتا سيف فرنجية ، فتقبل الهدية وعقد على أن يَهْدِمُوا الحصون التى تضرّ بالثغور ، وأن لا يظاهروا عليه أهلَ ملتهم ، وأن ينذروا بما يكون من النصارى فى الإجلاب على المسلمين .

ثم وصلت رسُلُ غرسية بن شانجة ملك البَشْكنس فى جماعة من الأساقفة والقواميس يسألون الصلح ، بعد أن كان توقف ، وأظهر المكر ، فقعد لهم الحكم ، فاغتبطوا ورجعوا .

ثم وفدت على الحكم أم لُذَريق بن بلاشك القومس بالقرب من جِلِّيقية ، وهو القومس الأكبر ، فأخرج الحكم لتلقِّيها أهلَ دولته ، واحتفل لقدومها فى يوم مشهود مشهور ، فوصلت وأسعفت ، وعقد السلم لابنها كما رغبت ، ودفع لها مالا تقسِّمه بين وفدها ، دون ما وصلت به هى ، وحملت على بغلة فارهة بسرج ولجام مثقلين بالذهب وملحفة ديباج ، ثم عاودت مجلس الحكم للوداع ، فعاوَدَها بالصِّلات لسفرها ، وانطلقت .

ثم أوطأ عساكره أرضَ العُدْوة من المغرب الأقصى والأوسط ، وتلقّى دعوته ملوك زَنَاتة من مَغْراوةَ ومِكْنَاسة ، فبثّوها فى أعمالهم ، وخطبوا بها على منابرهم ، وزاحموا بها دعوة الشِّيعة فيما بينهم ، ووفد عليه من بنى خزر[1] و بنى أبى العافية ، فأجزل صلتهم ، وأكرم وِفادتهم ، وأحسن مُنْصَرَفهم ، واستنزل بنى إدريس من ملكهم بالعُدْوة فى ناحية الرِّيف ، وأجازهم البحر إلى قُرْطُبة ، ثم أجلاهم إلى الإسكندرية .

محبة المستنصر للعلم

وكان مُحِبًّا للعلوم ، مكرما لأهلها ، جمّاعا للكتب فى أنواعها بما لم يجمعه

(١) فى ب ، ز « من بنى الحرز » وأثبتنا ما في ا وابن خلدون (١٤٦/٤) .

أحد من الملوك قبله ، قال أبو محمد بن حزم : أخبرنى تليد الخصِىّ - وكان على خزانة العلوم والكتب بدار بنى مروان - أن عدد الفهارس التى فيها تسمية الكتب أربع وأربعون فهرسة ، وفى كل فهرسة عشرون ورقة ، ليس فيها إلا ذكر أسماء الدواوين لا غير ، وأقام للعلم والعلماء سوقا نافقة[1] جلبت إليها بضائعه من كل قطر .

وفادة أبى على القالى على الناصر

قال أبو محمد بن خلدون : ولما وفد على أبيه أبو على القالى صاحبُ كتاب « الأمالى » من بغداد أكرم مَثْوَاه ، وحَسُنت منزلته عنده ، وأورث أهلَ الأندلس علمَه ، واختص بالحكم المستنصر ، واستفاد علمه

وكان يبعث فى شراء الكتب إلى الأقطار رجالا من التجار ، ويرسل إليهم الأموال لشرائها، حتى جلب منها إلى الأندلس ما لم يعهدوه ، وبعث فى كتاب « الأغانى » إلى مصنفه أبى الفرج الأصفهانى ، وكان نسبه فى بنى أمية ، وأرسل إليه فيه بألف دينار من الذهب العين ، فبعث إليه بنسخة منه قبل أن يخرجه إلى العراق ، وكذلك فعل مع القاضى أبى بكر الأبهَرِى المالكى فى شرحه لمختصر ابن عبد الحكم ، وأمثال ذلك ، وجمع بداره الحذاقَ فى صناعة النَّسْخ والمهرَة فى الضبط والإجادة فى التجليد ، فأوعى[2] من ذلك كله ، واجتمعت بالأندلس خزائن من الكتب لم تكن لأحد من قبله ولا من بعده ، إلا ما يذكر عن الناصر العباسى بن المستضىء ، ولم تزل هذه الكتبُ بقصر قُرْطُبة إلى أن بيع أكثرها فى حصار البربر ، وأمر بإخراجها وبيعها الحاجبُ واضح من مَوَالى المنصور بن أبى عامر ، ونُهِب ما بقى

(١) تقول « نفقت السوق » إذا راجت وكثر طالبو ما فيها ، وباب الفعل نصر

(٢) تقول « أوعى الشيء والكلام إيعاء » تريد أنه حفظه وجمعه ، وتقول « أوعى الزاد والمتاع » إذا جعله فى وعائه وجمعه فيه ، وفى التنزيل العزيز : (جمع فأوعى)

منها عند دخول البربر قُرْطُبة واقتحامهم إياها عَنْوة ، انتهى كلام ابن خلدون ببعض اختصار .

ولنبسط الكلام على الحكم فنقول : إن الحكم المستنصر اعتلى سرير الملك ثانىَ يوم وفاة أبيه يوم الخميس ، وقام بأعباء الملك أتم قيام ، وأنفذ الكتب إلى الآفاق بتمام الأمر له ، ودعا الناس إلى بيعته ، واستقبل من يومه النظر فى تمهيد سلطانه ، وتثقيف مملكته ، وضبط قصوره ، وترتيب أجناده ، وأوّل ما أخذ البيعة على صقالبة قصره الفتيان المعروفين بالخلفاء الأكابر ، كجعفر صاحب الخيل والطراز وغيره من عظمائهم ، وتكفَّلوا بأخذها على مَنْ وراءهم وتحت أيديهم من طبقتهم وغيرهم ، وأوصل إلى نفسه فى الليل دون هؤلاء الأكابرَ من الكتاب والوصفاء والمقدمين والعُرَفاء ، فبايعوه ، فلما كملت بيعة أهل القصر تقدّم إلى عظيم دولته جعفر بن عثمان بالنهوض إلى أخيه شقيقه أبى مروان عُبَيد الله المتخلف بأن يُلزمه الحضور للبيعة دون معذرة ، وتقدم إلى موسى بن أحمد بن حُدَير بالنهوض أيضاً إلى أبى الأصبغ عبد العزيز شقيقه الثانى ، فمضى إليهما كلٌّ واحد منهما فى قَطِيع[1] من الجند ، وأتيا بهما إلى قصر مدينة الزهراء ، ونفذ غيرهما من وجوه الرجال فى الخيل لإتيان غيرهما من الإخوة ، وكانوا يومئذ ثمانية ، فوافى جميعهم الزهراء فى الليل ، فنزلوا فى مراتبهم بفصلان[2] دار الملك ، وقعدوا فى المجلسين الشرقى والغربى ، وقعد المستنصر بالله على سرير الملك فى البَهْو الأوسط من الأبهاء المذهبة القبلية التى فى السطح الممرّد[3] ، فأوّل مَنْ وصل إليه الإخوة فبايعوه ، وأنصتوا لصحيفة البيعة ، والتزموا الأيمان المنصوصة بكل ما انعقد فيها ، ثم بايع بعدهم

---

(١) أصل القطيع يقال على جماعة الغنم ، وأراد منه هنا الجماعة مطلقا .

(٢) الفصلان : جميع فصيل ، وهو الحائط القصير دون سور البلد أو دون الحصن

(٣) الممرد : اسم المفعول من « مردت البناء تمريداً » إذا سويته وأملسته ، وفى القرآن الكريم (صرح ممرد من قوارير) .

الوزراء وأولادهم وإخوتهم ، ثم أصحاب الشرطة وطبقات أهل الخدمة ، وقعَدَ الإخوة والوزراء والوجوه (١) عن يمينه وشماله ، إلا عيسى بن فُطَيس فإنه كان قائماً يأخذ البيعة على الناس ، وقام الترتيب على الرسم فى مجالس الاحتفال المعروفة ، فاصطف فى المجلس الذى قعد فيه أكابرُ الفتيان يميناً وشمالا إلى آخر البَهْو كلٌّ منهم على قدره فى المنزلة ، عليهم الظهائر (٢) البيض شعار الحزن ، قد تقلدوا فوقها السيوف ، ثم تلاهم الفتيان الوصفاء ، عليهم الدروع السابغة (٣) والسيوف الحالية ، صفين منتظمين فى السطح ، وفى الفصلان المتصلة به ذوو الأسنان من الفتيان الصقالبة الخصيان لابسين البياض ، بأيديهم السيوف ، يتصل بهم مَنْ دونهم من طبقات الخصيان الصقالبة ، ثم تلاهم الرماة متنكبين قِسِيَّهم وجعابهم ، ثم وصلت صفوفَ هؤلاء الخصيان الصقالبة صفوفُ العبيد الفحول شاكِينَ فى الأسلحة الرائقة والعدّة الكاملة ، وقامت التعبية فى دار الجند والترتيب من رَجَّالة العبيد عليهم الجواشن والأقبية البيض ، وعلى رؤسهم البيضات الصَّقْلبية ، وبأيديهم التِّراس الملوّنة والأسلحة المزينة ، انتظموا صفين إلى آخر الفُصُل ، وعلى باب السُّدّة الأعظم البوّابون وأعوانُهُم ، ومن خارج باب السُّدّة فرسان العبيد إلى باب الأقباء (٤) ، واتصل بهم فرسان الحشَم وطبقات الجند والعبيد والرماة ، موكباً إثر موكب ، إلى باب المدينة الشارع إلى الصحراء ، فلما تمت البيعة أذِنَ للناس بالانفضاض ، إلا الإخوة والوزراء وأهل الخدمة فإنهم مكثوا بقصر الزهراء إلى أن احتمل جسد الناصر ــ رحمه الله ! ــ إلى قصر قُرْطُبة للدفن هنالك فى تربة الخلفاء .

---

(١) الوجوه : جمع وجه ، وهو ذوالوجاهة بين الناس ، سموه بالوجه لأن الوجه هوالجزء الظاهر من الإنسان الذى فيه معالم صاحبه .

(٢) الظهائر : جمع ظهارة ، وهى ضد البطانة ، مايكون ظاهراً للرائى من الثوب

(٣) السابغة : الطويلة الواسعة ، وفى التنزيل (أن اعمل سابغات)

(٤) الأقباء : جمع قبو ، بفتح فسكون ، وهو الطاق الذى عقد بعضه إلى بعض

وفادة الناس لبيعة المستنصر

وفى ذى الحجة من سنة خمسين تكاثرت الوفود بباب الخليفة الحكم من البلاد للبَيْعة والتماس المطالب ، من أهل طُلَيْطلة وغيرها من قواعد الأندلس وأصقاعها ،فتوصلوا إلى مجلس الخليفة بمحضر جميع الوزراء والقاضى مُنْذر بن سعيد والملأ(١) ، فأخذت عليهم البيعة ، ووُقِّعت الشهادات فى نسخها .

وفود ملك الجلالقة عليه

وفى آخر صفر من سنة إحدى وخمسين أخرج الخليفة الحكم المستنصر بالله مَوْلَيَيْه محمداً وزياداً ابنى أفلح الناصرى بكتيبة(٢) من الحشم لتلقى غالب الناصرى [الذى خرجوا إليه](٣) صاحِبِ مدينة سالم المورِدِ للطاغية أردون بن أذفونش الخبيث فى الدولة المتملك على طوائف من أمم الجلالقة والمنازع لابن عمه المملك قبله شانجة بن ردمير ، وتبرع هذا اللعين أردون بالمسير إلى باب المستنصر بالله من ذاته ، غير طالب إذن ولا مستظهر بعهد ، وذلك عند ما بلغه اعتزامُ الحكم المستنصر بالله فى عامه ذلك على الغزو إليه ، وأخذه فى التأهب له ، فاحتال فى تأميل المستنصر بالله والارتماء عليه ، وخرج قبل أمانٍ يُعْقد له أو ذِمَّة تعصمه فى عشرين رجلا من وجوه أصحابه ، تكنَّفهم غالب الناصرى الذى خرجوا إليه ، فجاء به نحو مولاه الحكم ، وتلقاهم ابنا أفلح بالجيش المذكور فأنزلاهم ، ثم تحركا بهم ثانى يوم نزولهم إلى قُرْطُبة ، فأخرج المستنصر بالله إليهم هشاما المصحفى فى جيش عظيم كامل التعبية ، وتقدموا إلى باب قُرْطُبة ، فمروا بباب قصرها ، فلما انتهى أردون إلى ما بين باب السّدة و باب الجنان سأل عن مكان رَمْسِ(٤) الناصر لدين الله فأشير إلى ما يوازى موضعه من داخل القصر فى الروضة ، فخلع قَلَنْسُوته ، وخضع نحو مكان القبر ، ودعا ، ثم رَدَّ قَلَنْسُوته إلى رأسه ، وأمر المستنصر بإنزال أردون

---

(١) الملأ – بفتح الميم واللام جميعا – القوم يكونون من أصحاب الرأى والمشورة ، وفي القرآن الكريم : (يا أيها الملأ إنى ألقى إلى كتاب كريم)

(٢) الكتيبة : الفرقة والجماعة من الجيش (٣) لا توجد فى ا وهى نابية

(٤) الرمس – بفتح فسكون – القبر

فى دار الناعورة ، وقد كان تقدّم فى فرشها بضروب الغِطاء والوِطاء ، وانتهى من ذلك إلى الغاية ، وتوسّع له فى الكَرامة ولأصحابه ، فأقام بها الخميسَ والجمعة ، فلما كان يومُ السبت تقدم المستنصر بالله باستدعاء أردونَ ومن معه بعد إقامة الترتيب وتعبية الجيوش والاحتفال فى ذلك من العدد والأسلحة والزينة ، وقعد المستنصر بالله على سرير الملك فى المجلس الشرقى من مجالس السطح ، وقعد الإخوة و بنوهم والوزراء ونظراؤهم صَفًّا فى المجلس فيهم القاضى منذرُ بن سعيد والحكام والفقهاء ، فأتى محمد بن القاسم بن طُمْلُس (٣) بالملك أردون وأصحابه وعالىَ لبوسه ثوبٌ ديباجى رومى أبيض ويَلْبُوَال من جنسه وفى لونه ، وعلى رأسه قلنسوة رومية منظومة بجوهر ، وقد حفته جماعة من نصارى وجوه الذمة بالأندلس يؤنسونه و يبصرونه ، فيهم وليد بن حيزون قاضى النصارى بقُرْطُبة وعبيد الله بن قاسم مُطْران طُلَيْطلة وغيرهما ، فدخل بين صَفَّى الترتيب يُقَلّب الطَّرف فى نظم الصفوف ، ويُجيل الفكر فى كثرتها وتَظَاهر أسلحتها ورائق حليتها ، فراعهم ما أبصروه ، وصلَّبوا على وجوههم (١) ، وتأملوا ناكسى رؤسهم غاضّين من أجفانهم قد سُكِّرت أبصارهم (٢) حتى وصلوا إلى باب الأقباء أوّل باب قصر الزهراء ، فترجل جميعُ من كان خرج إلى لقائه ، وتقدم الملك أردون وخاصة قوامسه على دوابهم ، حتى انتهوا إلى باب السدَّة ، فأمر القوامس بالترجل هنالك والمشى على الأقدام ، فترجلوا .

ودخل الملك أردون وحده راكبا مع محمد بن طُمْلُس (٣) ، فأنزل فى بُرْطُل (٤) البهو الأوسط من الأبهاء القبلية التى بدار الجند على كرسى مرتفع مكسوّ الأوصال بالفضة وفى هـذا المكان بعينه نزل قبله عدوّه ومناويه شانجة بن رُدْمير الوافد على الناصر

(١) من عادة النصرانى عند ما يرى نعمة أو مخافة أن يرسم على نفسه الصليب بيده

(٢) سكرت أبصارهم ـ بالبناء للمجهول وتضعيف الكاف ـ تحيرت وارتبكت وكأنها احتبست عن رؤية ما أمامها . (٣) هكذا فى ا وفى ب ، ز «طميس»

(٤) البرطل ـ بزنة قنفذ ـ شبه المظلة ، وأنكر الأصمعى عربيته

لدين الله – رحمه الله تعالى ! – فقعد أردون على الكرسى ، وقعد أصحابه بين يديه ، وخرج الإذن لأردون الملك من المستنصر بالله بالدخول عليه ، فتقدم يمشى وأصحابه يتبعونه إلى أن وصل إلى السطح ، فلما قابَلَ المجلس الشرقى الذى فيه المستنصر بالله وقف وكشف رأسه وخلع بُرْنُسَه ، وبقى حاسرا إعظاما لما بان له من الدنو إلى السرير ، واستُنْهِض ، فمضى بين الصفين المرتبين فى ساحة السطح ، إلى أن قطع السطح وانتهى إلى باب البهو ، فلما قابل السريرَ خَرَّ ساجدا سُويعةً ، ثم استوى قائما ، ثم نهض خطواتٍ ، وعاد إلى السجود ، ووالى ذلك مراراً إلى أن قدم بين يدى الخليفة وأهوى إلى يده فناوله إياها وكر راكعا مقهقرا على عقبه إلى وسادِ ديباج مُثْقل بالذهب ، جُعل له هنالك ، ووضع على قدر عشرة أذرع من السرير ، فجلس عليه ، والبَهْرُ[1] قد علاه ، وأنهض خلفه من استدنى من قوامسه وأتباعه ، فدنوا ممتثلين فى تكرير الخنوع[2] ، وناولهم الخليفة يدَه فقبلوها وانصرفوا مقهقرين فوقفوا على رأس ملكهم ، ووصل بوصولهم وليدُ بن حيزون قاضى النصارى بقُرطُبة ، فكان الترجمان عن الملك أردون ذلك اليوم ، فأطرق الحكم عن تكليم الملك أردون إثر قعودِه أمامه وقتا كيما يُفرِخ رَوْعُهُ[3] ، فلما رأى أن قد خُفِّض[4] عليه افتتح تكليمه فقال : ليسرك إقبالك ويغبطك تأميلك ، فلدينا لك من حسن رأينا ورَحْب قبولنا فوق ما قد طلبته ، فلما ترجم له كلامه إياه تطلّق وجهُ أردون[5] ، وانحط عن مرتبته ، فقبل البساط ، وقال : أنا عبد أمير المؤمنين مولاى ، المتوركُ على فضله[6] ، القاصد إلى مجده ، المحكم فى نفسه ورجاله ، فحيث وضعنى من فضله وعوضنى من خدمته رجوت أن أتقدم فيه بنية صادقة ، ونصيحة خالصة ، فقال له الخليفة : أنت

---

(١) البهر : هو انقطاع النفس وتتابع تصاعده بسبب إعياء أو خوف

(٢) الخنوع : الذل وأشد الخضوع

(٣) يفرخ روعه : هذه كناية عن الطمأنينة وذهاب الفزع

(٤) خفض عليه – بالبناء للمجهول – هون الأمر عليه وسكن فزعه .

(٥) تطلق وجهه : استبشر . (٦) تورك عليه : اعتمد .

عندنا بمحلّ مَنْ يستحق حسن رأينا ، وسينالك من تقديمنا لك وتفضيلنا إياك على أهل مِلتك مايغبطك ، وتتعرف به فضل جنوحك[1] إلينا ، واستظلالك بظل سلطاننا ، فعاد أردون إلى السجود عند فهمه مقالة الخليفة، وابتهل داعيا، وقال : إن شانجة ابنَ عمى تقدم إلى الخليفة الماضى مستجيراً به منى ، فكان من إعزازه إياه ما يكون من مثله من أعاظم الملوك وأكارم الخلفاء لمن قصدهم وأمَّاهم ، وكان قَصْدَه قصدَ مضطر قد شَنأته رعيته[2] ، وأنكرت سيرته، واختارتنى لمكانه من غير سعى منى علم الله ذلك ، ولا دعاء إليه ، فخلعته وأخرجته عن ملكه مضطرا مضطهدا ، فتطوّل عليه[3] ـ رحمه الله ! ـ بأن صَرَفه إلى ملكه ، وقوّى سلطانه ، وأعز نصره ، ومع ذلك فلم يقم بفرض النعمة التى أُسْدِيَتْ إليه ، وقصّر فى أداء المفروض عليه وحقِّه وحق مولاى أمير المؤمنين من بعده ، وأنا قد قصدت باب أمير المؤمنين لغير ضرورة من قرارة سلطانى وموضع أحكامى ، مُحكِّما له فى نفسى ورجالى ومعاقلى ومَنْ تحويه من رعيتى ، فشتان ما بيننا بقوة الثقة ومطرح الهمة ، فقال الخليفة : قد سمعنا قولك ، وفهمنا مَغزَاك ، وسوف يظهر من إقراضنا إياك على الخصوصية شأنه ، ويترادف من إحساننا إليك أضعافُ ما كان من أبينا ـ رضى الله تعالى عنه ! ـ إلى ندّك[4] ، وإن كان له فضلُ التقدم بالجنوح[1] إلينا والقصد إلى سلطاننا ، فليس ذلك مما يؤخرك عنه ، ولا ينقصك مما أنلناك[5] ، وسنصرفك مغبوطاً إلى بلدك ، ونشدّ أواخِىّ[6] ملكك وُنمَلِّكك جميع من انحاش إليك [من أمتك] و نعقد لك بذلك كتابا يكون بيدك نقرر به حدّ ما بينك و بين ابن عمك ، ونَقْبِضُه عن كل ما بتصرفه من البلاد إلى يدك ، وسيترادف عليك من إفضالنا

(١) جنح إليه : مال ولجأ . (٢) شنأته رعيته : كرهته وأبغضته .

(٣) تطول عليه : امتن وتفضل وأنعم

(٤) ندك ـ بكسر النون ـ مثلك ونظيرك . (٥) فى ا « مما أنلناه »

(٦) الأواخى : جمع أخية ـ بتشديد الياء ـ وأصلها عود يغرز طرفاه في فى الأرض فيظهر منه شبه حلقة تشد فيها الدابة ، وتطلق على الحرمة والذمة ، والمراد هنا أنه سيقوى ملكه ويثبته له ويمنع عنه عدوه .

فوق ما احتسبته[١] ، والله على ما نقول وكيل ، فكرّر أردون الخضوعَ ، وأسهب فى الشكر ، وقام للانصراف مقهقرا لا يولّى الخليفةَ ظهره ، وقد تكنفه الفتيانُ [من جملة الفتيان][٢] ، فأخرجوه إلى المجلس الغربى فى السطح ، وقد علاه البَهْر وأذهله الرَّوْع ، من هَوْل ما باشره ، وجلالة ما عاينه من فخامة الخليفة وبهاء العزة ، فلما أن دخل المجلسَ ووقعت عينُه على مقعد أمير المؤمنين خاليا منه انحطَّ ساجدا إعظاما له ، ثم تقدم الفتيان به إلى البهو الذى بجَوْف هذا المجلس ، فأجلسوه هنالك على وساد مثقل بالذهب ، وأقبل نحوه الحاجب جعفر ، فلما بصر به قام إليه ، وخضع له ، وأومأ إلى تقبيل يده ، فقبضها الحاجبُ عنه ، وانحنى إليه فعانقه ، وجلس معه ، فغبَّطه[٣] ، ووعده من إنجاز عِدَات الخليفة له بما ضاعف سروره ، ثم أمر الحاجب جعفر فصُبَّت عليه الخلع التى أمر له بها الخليفة ، وكانت دُرَّاعة[٤] منسوجة بالذهب ، و برنسا مثلها له لوزة مفرغة من خالص التبر مرصعة بالجوهر والياقوت ملأت عين العِلْج تجلة ، فخر ساجدا ، وأعلن بالدعاء ، ثم دعا الحاجب أصحابه رجلا رجلا فخلع عليهم على قدر استحقاقهم ، فكمل جميع ذلك بحسب ما يصلح لهم ، وخرّ جميعهم خاضعين شاكرين ، ثم انطلق الملك أردون وأصحابه ، وقدِّم لركابه فى أوّل البهو الأوسط فرسٌ من عتاق خيل الركاب عليه سَرْج حلى ولجام حلى مفرغ ، وانصرف مع ابن طُمْلُس[٥] إلى قصر الرصافة مكان تضييفه ، وقد أعِدَّ له فيه كل ما يصلح لمثله من الآلة والفرش والماعون ، واستقر أصحابه فيما لا كفاء له من سعة التضييف و إرغاد المعاش ، واستشعر الناس من مَسَرَّة هذا اليوم وعزة الإسلام فيه ما أفاضوا فى التبجُّح به[٦] والتحدث عنه

(١) فى نسخة عند ا « وسيترادف عليك من إحساننا » (٢) لا توجد فى ا
(٣) غبطه — بالتضعيف — نسبه إلى الغبطة
(٤) الدراعة — بزنة رمانة — ثوب مشقوق المقدم ، كالجبة .
(٥) هكذا فى ا ، ووقع في ب ، ز « طميس » وهى أيضا في نسخة عند ا
(٦) تقول « تبجح فلان بكذا » تريد أنه باهى به وفرح وافتخر

أياما ، وكانت للخطباء والشعراء بمجلس الخليفة فى هذا اليوم مقامات حسان ، وإنشادات لأشعار محكمة مِتَان ، يطول القول فى اختيارها ، فمن ذلك قولُ عبد الملك بن سعيد المرادى من قصيدة حيث يقول :

ملك الخليفة آيةُ الإقبال — وسعودُه مَوْصولَة بنَوَالِ
والمسلمون بعِزَّة وبرفعة — والمشركون بذِلَّةٍ وسَفَالِ[١]
ألقَتْ بأيديها الأعاجمُ نحوَهُ — متوقِّعين لصَوْلَة الرِّئْبالِ[٢]
هذا أميرُهُمُ أتاه آخذا — منه أواصِرَ ذِمَّةٍ وحِبَال[٣]
متواضِعاً لجلالِهِ متخشِّعاً — متبرِّعاً لَمَّا يُرَعْ بقتال
سينال بالتأميل للملك الرِّضَا — عِزًّا يعم عِداهُ بالإذلال
لايوم أعظَم للوُلاة مَسَرَّةً — وأشدُّه غيظاً على الأقيال
من يوم أردونَ الذى إقبَالُه — أمَلُ المَدَى ونهاية الإقبال
ملك الأعاجم كلها ابنُ ملوكِها — والى الرُّعاة إلى الأعاجم والى[٤]
إن كان جاء ضرورةً فلقد أتى — عَنْ عز مملكة وطَوْعِ رجال
فالحمدُ لله المُنيلِ إمامَنَا — حظَّ الملوكِ بقَدْره المتعالى
هُوَ يومُ حَشْر الناس إلا أنهم — لم يُسْأَلُوا فيه عن الأعمال
أضْحَى الفَضَاءُ مُفعَّماً بجُيوشه — والأفق أقتمَ أغبرَ السِّرْبال
لايَهْتَدِى السارى للَيْلِ قَتَامِهِ — إلا بضَوْءِ صَوَارم وعَوَالى
وكأن أجْسَام الكُمَاة تَسَرْبَلَتْ — مذعُرِّيَتْ عنه جُسُوم صِلالِ
وكأنما العِقْبَانُ عِقْبَانَ الفَلاَ — مُنْقَضَّة لتخطف الضُّلال

(١) السفال ـ بفتح السين ـ ما يقابل العلاء ، وفى البيت مقابلة اثنين باثنين
(٢) ألقت بأيديها : كناية عن استسلامها وخضوعها ، والصولة : الشدة والقوة والبطش ، والرئبال : الأسد
(٣) الأواصر : جمع آصرة ، وهى كل ما كان سببا تعطف من أجله على غيرك ، سواء أكان قرابة أو رحماً أو معروفاً
(٤) فى ا « وللأعاجم والى »

وكأن مُقْتَضب القنَا مُهتَزَّة أشْطَانُ نازحَةٍ بعيدةِ جَالِ[1]
وكأنما قُبْلُ التجافيفِ اكْتَسَتْ ناراً تؤجِّجُهَا بلا إشْعَالِ[2]

وقال بعض المؤرخين فى حق الحكم المستنصر عن فتاهُ تليد صاحب خزانته العلمية فيما حدث عنه الحافظ أبو محمد بن حزم : إن عدة الفهارس التى فيها تسمية الكتب أربع وأربعون فهرسة فى كل فهرسة عشرون ورقة ليس فيها إلا ذكر الدواوين فقط ، انتهى ، وقد قدّمناه عن ابن خلدون ، ونقله ابن الأبار فى التكملة .

صفات المستنصر وعنايته بالكتب

وقال بعض المؤرخين فى حق الحكم : إنه كان حسن السيرة ، مكرما للقادمين عليه ، جمع من الكتب ما لا يحد ولا يوصف كثرة ونفاسة ، حتى قيل : إنها كانت أربعمائة ألف مجلد ، وإنهم لما نقلوها أقاموا ستة أشهر فى نقلها ، وكان عالما نبيها ، صافى السريرة ، وسمع من قاسم بن أصبغ وأحمد بن دُحيم ومحمد بن عبد السلام الخُشَنى وزكريا بن خطاب وأكثر عنه ، وأجازله ثابت بن قاسم ، وكتب عن خلق كثير سوى هؤلاء ، وكان يستجلب المصنفات من الأقاليم والنواحى باذلاً فيها ما أمكن من الأموال حتى ضاقت عنها خزائنه ، وكان ذا غرام بها ، قد آثر ذلك على لذات الملوك ، فاستوسع علمه ، ودق نظره ، وجمت استفادته ، وكان فى المعرفة بالرجال والأخبار والأنساب أحْوَذِيًّا نسيج وحْدِه ، وكان ثقة فيما ينقله ، بهذا وصفه ابن الأبار وبأضعافه ، وقال : عجبا لابن الفرضى وابن بَشْكوال كيف لم يذكراه وقلما يوجد كتاب من خزائنه إلا وله فيه قراءة أو نظر فى أى

---

(١) : المقتضب : المقتطع ، والقنا : أراد بها هنا الرماح ، والأشطان : الحبال الشديدة الفتل ، واحدها شطن ، ووزنها سبب وأسباب

(٢) التجافيف : جمع تجفاف ، وهو ما يلبسه الإنسان يتقى به ، والقبل : جمع قبلة ، وهى شىء مستدير من عاج يعلق فى صدر الصبي أو المرأة ، وتؤججها : توقدها وتشعلها ، ووقع فى ب ، ز « قيل التجافيف » محرفا عما أثبتناه عن ا

فنّ كان ويكتب فيه نسب المؤلف ومولده ووفاته ويأتي من بعد ذلك بغرائب لاتكاد توجد إلا عنده لعنايته بهذا الشأن .

شيء من نظم المستنصر

ومما ينسب إليه من النظم قوله :

إلى الله أشكو من شَمَائِلِ مُسْرِفٍ عَلَيَّ ظَلُوم لا يَدِينُ بما دِنْتُ
نأتْ عَنْه دارِى فاستزاد صُدُوده وإنّى على وَجْدِى القديم كما كُنْتُ (١)
ولو كُنْتُ أدرِى أنَّ شَوْقِى بالِغٌ منَ الوجدِ ما بلغته لم أكُنْ بِنْتُ (٢)

وقوله :

عجبتُ وقد ودَّعْتُها كيف لم أَمُتْ وكَيْفَ انْثَنَتْ بعدَ الوَدَاعِ يَدِى مَعِى
فيا مقْلتِى العَبْرى عَلَيْهَا اسْكُبِى دَمًا ويا كَبِدِى الحَرَّى عَلَيْهَا تقطَّعِى

وتوفى — رحمه الله تعالى ! — بقصر قُرْطبة ثانى صفر سنة ست وستين وثلثمائة ، لست عشرة سنة من خلافته ، وكان أصابه الفالج (٣) ، فلزم الفراش إلى أن هلك — رحمه الله تعالى ! — وكان قد شدد فى إبطال الخمر فى مملكته تشديداً عظيما .

ولاية هشام ابن الحكم

وولى بعده ابنه هشامٌ صغيراً سنُّه تسع سنين ، ولا ينافيه قولُ ابن خلدون « قد ناهز الحلم » وكان الحكم قد استوزر له محمدَ بن أبى عامر ، ونقله من خطة القضاء إلى وزارته ، وفوّض إليه أموره ، فاستقل .

قال ابن خلدون : وترقت حالُ ابن أبى عامر عند الحكم ، فلما توفى الحكم و بويع هشام ولقب المؤيد بعد أن قتل ليلتئذ المغيرة أخو الحكم المرشَّح لأمره تناول الفتك به محمد بن أبى عامر هذا بممالأة من جعفر بن عثمان المصحفىِّ حاجب أبيه وغالب مولى الحكم صاحب مدينة سالم ومن خصيان القصر يومئذ ورؤسائهم

---

(١) نأت : بعدت ، واستزاد : زاد ، ويحتمل أن يكون « صدوده » فاعل استزاد ، وأن يكون فاعله ضميراً و « صدوده » مفعوله

(٢) الوجد : شدة الحب ، وبنت : نأيت وبعدت وفارقت

(٣) الفالج : استرخاء أحد شقى البدن حتى يبطل حسه وحركته

مبدأ أمر ابن أبى عامر

فاتن وجؤذر (١) ، فقتل ابن أبى عامر المغيرة بممالأة من ذكر ، وتمت البيعة لهشام ، ثم سَما لابن أبى عامر أملٌ فى التغلب على هشام لمكانه فى السنِّ ، وثاب له رأى فى الاستبداد ، فمكر بأهل الدولة ، وضرب بين رجالها ، وقتل بعضاً ببعض ، وكان من رجال اليمنية من مَعافر ، دخل جَدُّه عبدُ الملك مع طارق ، وكان عظيما فى قومه ، وكان له فى الفتح أثر ، وعظم ابنُ أبى عامر هذا ، وغلب على المؤيد ، ومنع الوزراء من الوصول إليه إلا فى النادر من الأيام يُسَلمون وينصرفون ، وأرْضَخَ للجند فى العطاء (٢) ، وأعلى مراتب العلماء ، وقَمَعَ أهلَ البدع (٣) ، وكان ذا عقل ورأى وشجاعة و بصر بالحروب ودين متين ، ثم تجرَّد لرؤساء الدولة ممن عانده وزاحمه ، فمال عليهم ، وحَطَّهم عن مراتبهم ، وقتل بعضاً ببعض ، كلٌّ ذلك عن هشام وخطه وتوقيعه حتى استأصلهم (٤) وفرَّق جموعهم ، وأول مابدأ بالصقالبة الخصيان الخدّام بالقصر ، فحمل الحاجب المصحفىَّ على نكبتهم ، فنكبهم وأخرجهم من القصر ، وكانوا ثمانمائة أو يزيدون ، ثم أصهر إلى غالب مولى الحكم ، وبالغ فى خدمته والتنصُّح له ، واستعان به على المصحفى فنكبه ومحا أثره من الدولة ، ثم استعان على غالب بجعفر بن [أحمد بن] (٥) على بن حمدون صاحب المَسِيلة وقائد الشيعة ممدوح بن هانىء بالفائية المشهورة وغيرها ، وهو النازعُ إلى الحكم أوّل الدولة و بمن كان معه من زَنَاتة والبربر ، ثم قتل جعفراً بممالأة ابن عبد الودود وابن جهور وابن ذى النون وأمثالهم من أولياء الدولة من العرب وغيرهم ، ثم لما خلا الجو من أولياء الخلافة والمرشّحين للرياسة رجع إلى الجند ، فاستدعى أهل العُدْوَة من رجال زناتة والبرابرة فرتب منهم جنداً ، واصطنع أولياء ، وعرَّف عُرَفاء من

---

(١) وقع فى ب ، ز « فائق وجودر » ووقع فى ا « فائق وجوذر »

(٢) المراد أنه زاد فى أعطياتهم زيادة قليلة

(٣) قمع أهل الفتن : أذلهم وقهرهم ودفعهم عما يريدون

(٤) استأصلهم : أفناهم ، وكأنه اقتلعهم من أصولهم وجذورهم

(٥) لا يوجد هذا الاسم فى ا وسيأتى فى ص ٣٧٦ ولا يذكر

صِنهاجة ومغراوة و بنى يفرن و بنى برزال ومِكْنَاسة وغيرهم ، فتغلب على هشام وحَجَره[١] ، واستولى على الدولة ، وملأ الدنيا وهو فى جوف بيته : من تعظيم الخلافة ، والخضوع لها ، ورد الأمور إليها ، وترديد الغزو والجهاد ، وقدّم رجال البرابرة وزَنَاتة ، وأخر رجالَ العرب وأسقطهم عن مراتبهم ، فتم له ما أراد من الاستقلال بالملك والاستبداد بالأمر ، وبَنَى لنفسه مدينة لنزله سماها الزاهرة ، ونقل إليها خزائن الأموال والأسلحة ، وقعد على سرير الملك ، وأمر أن يُحَيَّا بتحية الملوك ، وتسمى بالحاجب المنصور ، ونفذت الكتبُ والمخاطبات والأوامر باسمه ، وأمر بالدعاء له على المنابر باسمه عقب الدعاء للخليفة ، ومحا رسم الخلافة بالجملة ، ولم يبق لهشام المؤيد من رسوم الخلافة أكثر من الدعاء على المنابر وكَتْب اسمه فى السكة والطرز ، وأغفل ديوانه مما سوى ذلك ، وجَنَّد البرابرة والمماليك ، واستكثر من العبيد والعلوج للاستيلاء على تلك الرتبة ، وقَهَرَ من تطاول[٢] إليها من العلية ، فظفر من ذلك بما أراد ، وردد الغزو بنفسه إلى دار الحرب ، فغزا ستاً وخمسين غزوة فى سائر أيام ملكه لم تنتكس له فيها راية ، ولا أفلّ له جيش ، وما أصيب له بعث ، وما هلكت له سَرِيَّة ، وأجاز عساكره إلى العُدْوَة ، وضرب بين ملوك البرابرة ، وضرب بعضهم ببعض ، فاستوثق له ملك المغرب ، وأخبتت[٣] له ملوك زَنَاتة ، وانقادوا لحكمه ، وأطاعوا سلطانه ، وأجاز ابنه عبد الملك إلى ملوك مغراوة بفاس من آل خَزَر ، ولما سخط زيرى بن عطية ملكهم لما بلغه ما بلغه من إعلانه بالنَّيل منه والغَضِّ من منصبه والتأفف[٤] لِحَجْر الخليفة هشام أوقع به عبد الملك سنة ست وثمانين ، ونزل بفاس وملكها ، وعقد لملوك زَنَاتة على

(١) حجره : منعه من التصرف
(٢) تطاول إليها : سمت نفسه إلى جهتها ، وكأنما رفع نفسه حتى ينظر موضعها
(٣) أخبتت : خضعت وذلت وتواضعت
(٤) التأفف : التضجر وإظهار الغضب ، وأصله قول « أف »

ممالك المغرب وأعماله من سجلماسة وغيرها، وشرّد زيرى بن عطية إلى تاهَرْت(١) ، فأبعد المفرّ(٢) ، وهلك فى مفرِّه ذلك ، ثم قفل عبد الملك إلى قُرْطُبة ، واستعمل واضحاً على المغرب ، وهلك المنصور أعظم ما كان ملكا ، وأشدّ استيلاء ، سنة أربع وتسعين وثلثمائة ، بمدينة سالم مُنْصَرَفَه من بعض غزواته ، ودفن هنالك ، وذلك لسبع وعشرين سنة من ملكه ، انتهى كلام ابن خلدون ، و بعضه بالمعنى وزيادة يسيرة .

ولا بأس أن نزيد عليه فنقول : مما حكى أنه مكتوب على قبر المنصور رحمه الله تعالى :

آثاره تنبيك عن أخْبارِه ... حَتَّى كأنّك بالعِيان تَرَاهُ(٣)

تالله لا يأتى الزمانُ بمثْله ... أبدًا، ولا يَحْمى الثغورَ سِوَاهُ

وعن شجاع مولى المستعين بن هود : لما توجَّهْتُ إلى أدفونش وجدته فى مدينة سالم ، وقد نصب على قبر المنصور بن أبى عامر سريره ، وامرأتُه متكئة إلى جانبه ، فقال لى : يا شجاع ، أما ترانى قد ملكت بلاد المسلمين ، وجلست على قبر ملكهم ؟ قال : فحملتنى الغيرة أن قلت له : لو تنفَّس صاحبُ هذا القبر وأنت عليه ما سَمِع منك ما يكره سماعه ، ولا استقر بك قرار ، فهمَّ بى ، فحالت امرأتُه بينى و بينه ، وقالت له : صدقك فيما قال ، أيفخر مثلك بمثل هذا ؟ .

ترجمة للمنصور ابن أبى عامر

وهذا تلخيص ترجمة المنصور من كلام ابن سعيد ، قال رحمه الله : ترجمة الملك الأعظم المنصور أبى عامر محمد بن عبد الله بن عامر ابن أبى عامر بن الوليد بن يزيد ابن عبد الملك ، المَعافرى ، من قرية تَرْكَش ، وعبدالملك جدّه هو الوافد على

---

(١) تاهرت : مدينة بإفريقيه (تونس) من عمل بجاية ، وكانت قاعدة لبلاد المغرب الأوسط

(٢) المفر : المكان الذى فر إليه وهرب

(٣) تنبيك : تخبرك وتحدثك ، وأصله « تنبئك » بالهمز ، فسهل الهمزة بقلبها ياء لانكسار ما قبلها

(٤) فى نسخة عند ا « طرش »

الأندلس مع طارق فى أوّل الداخلين من العرب ، وأما المنصور فقد ذكره ابنُ حَيَّان فى كتابه المخصوص بالدولة العامرية ، والفتحُ فى المطمح ، والحِجارى فى المُسْهِب ، والشَّقُنْدى[١] فى الطرف ، وذكر الجميع أن أصله من قرية تَرْكش ، وأنه رحل إلى قرْطُبة ، وتأدب بها ، ثم اقتعد دكاناً[٢] عند باب القصر يكتب فيه لمن يَعِنّ له كتب من الخدم والمرافقين للسلطان ، إلى أن طلبت السيدة صُبْح أم المؤيد من يكتب عنها ، فعرّفها به مَنْ كان يأنس إليه بالجلوس من فتيان القصر ، فترقى إلى أن كتب عنها ، فاستحسنته ، ونَبَّهت عليه الحكم ، ورغبت فى تشريفه بالخدمة ، فولاه قضاء بعض المواضع ، فظهرت منه نَجَابة ، فترقَّى إلى الزكاة والمواريث بإشْبِيلِيَة وتمكن فى قلب السيدة بما استمالها به من التُّحَف والخدمة ما لم يتمكن لغيره ، ولم يقصر — مع ذلك — فى خدمة المصحفى الحاجب ، إلى أن توفى الحكم وولى ابنُه هشام المؤيد ، وهو ابن اثنتى عشر سنة ، فجاشتِ[٣] الرومُ ، فجهز المصحفى ابنَ أبى عامر لدِفاعهم ، فنصره الله عليهم ، وتمكن حبه من قلوب الناس .

وكان جواداً عاقلا ذكياً ، استعان بالمصحفى على الصَّقالبة ، ثم بغالب على المصحفى ، وكان غالب صاحب مدينة سالم ، وتزوج ابنُ أبى عامر ابنَته أسماء ، وكان أعظم عُرْس بالأندلس ، ثم بجعفر بن على الأندلسى ممدوح ابن هانىء على غالب ، ثم بعبد الرحمن بن محمد بن هشام التُّجِيبى على جعفر ، وله فى الحَزْم والكَيْد والجلَد ما أفرد له ابن حيان تأليفاً ، وعَدَدُ غزواته المنشأة من قُرْطُبة نيف وخمسون غزوة ، ولم تُهْزَم له راية ، وقبره بمدينة سالم فى أقصى شرق الأندلس .

ومن شعره :

---

(١) فى ب ، ز « القشندى » محرفاً عما أثبتناه موافقا لما فى ا وهو منسوب إلى شقندة — بفتح الشين وضم القاف وسكون النون — وهى قرية بعدوة نهر قرطبة قبالة قصرها

(٢) أراد أنه اتخذ لنفسه دكاناً يقعد فيه لمزاولة ما ذكر

(٣) جاشت : تحركت واضطربت ، وكأنما غلت صدورها غيظاً

رَمَيْتُ بنفسى هولَ كلِّ عظيمة ... وخاطَرْتُ والحرُّ الكريم يُخَاطِر
وما صاحبى إلا جَنَان مُشَيَّعٌ ... وأسْمَرُ خَطِّىٌّ وأبْيَضُ باتر(١)
فسُدْتُ بنفسى أهلَ كلِّ سيادة ... وفاخَرْتُ حتى لم أجِدْ مَنْ أفاخر
وما شِدْتُ بنيانا ولكن زيادة ... على ما بَنَى عبدُ المليك وعامِرُ
رفعنَا العوَالى بالعوَالى مثلها ... وأورثنَاهَا فى القديم مَعَافِرُ(٢)

وجوده مع صاعد البغدادى اللغوى مشهور .

وصدر عن بعض غزَواته فكتب إليه عبدُ الملك ابن شُهَيد ، وكان قد تخلَّف عنه :

أنا شَيْخ والشَّيْخُ يهْوَى الصَّبايا ... يا بنَفْسِى أقِيكَ كلَّ الرَّزَايَا
ورسول الإلٰهِ أسْهَمَ فى الفى ... ءِ لمَنْ لم يَخِبَّ فيه المَطَايَا

فبعث إليه بثلاث جوَار من أجمل السبى ، وكتب معهنَّ ، وكانت واحدة أجملهنَّ ، قوله :

قد بَعثْنَا بها كشمس النهار ... فى ثلاثٍ من المَهَا أبْكَارِ
وامْتَحَنَّا بعذرة البكر إن كنت تُرَجِّى بوَادِرَ الإعذارِ
فاجتهد وابتدِرْ فإنك شيخ ... قَدْ جَلا ليلَه بياضُ النهارِ
صانكَ الله من كلالك فيها ... فمنَ العارِ كلة المِسْمَارِ

فافتضهنّ من ليلته ، وكتب له بُكْرة :

قد فَضَضْنَا ختامَ ذاك السِّوَارِ ... واصْطبَغْنَا من النَّجيعِ الجَارِى
وَصبَرْنَا على دِفاعٍ وَحَرْبٍ ... فلَعِبْنَا بالدرِّ أو بالدرارى

(١) الجنان : القلب ، والمشيع : الجرىء القوى ، وكأنه لايخذل صاحبه لأنه قد رفد بنظرائه ، والأسمر : الرمح ، والخطى : المنسوب إلى الخط ، وهو موضع باليمامة نسبت الرماح إليه لكونه كان مكان بيعها ، وكانت تصنع فى الهند وتجلب إليه ، والأبيض : السيف ، والباتر : القاطع

(٢) العوالى الأولى أراد بها المجد الرفيع والشرف السامى ، والعوالى الثانية : جمع عالية ، وهى الرمح

وَقَضَى الشيخُ ما قضى بحُسَامٍ ذى مَضَاءٍ عَضْبِ الظبا بَتَّارِ
فاصْطَنِعْهُ فليس يَجْزِيك كُفْرًا واتخِذْهُ فَخْلاً على الكفار

وقَدِم بعض التجار ومعه كيس فيه ياقوت نفيس ، فتجرَّد ليسبح فى النهر ، وترك الكيس ، وكان أحمر ، على ثيابه ، فرفعته حِدَأة فى مخالبها ، فجرى تابعاً لها وقد ذُهِل ، فتغلغلت[1] فى البساتين ، وانقطعت عن عينه ، فرجع متحيِّراً ، فشكا ذلك إلى بعض مَنْ يأنس به ، فقال له : صف حالك لابن أبى عامر ، فتلطف فى وصف ذلك بين يديه ، فقال : ننظر إن شاء الله تعالى فى شأنك ، وجعل يستدعى أصحاب تلك البساتين ، ويسأل خُدَّامها عمن ظهر عليه تبديلُ حال ، فأخبروه أن شخصاً ينقل الزبل اشترى حماراً ، وظهر من حاله مالم يكن قبل ذلك ، فأمر بمجيئه ، فلما وقعت عينه عليه قال له : أحضر الكيس الأحمر ، فتملك الرعبُ قلبه وارتعش ، وقال : دعنى آتى به من منزلى ، فوكل به من حمله إلى منزله وجاء بالكيس ، وقد نقص منه مالا يقدح فى مَسَرَّة صاحبه ، فجبره[2] ، ودفعه إلى صاحبه ، فقال : والله لأحَدّثنَّ فى مشارق الأرض ومغاربها أن ابن أبى عامر يحكم على الطيور ويُنْصف منها ، والتفت ابنُ أبى عامر إلى الزبال فقال له : لو أتيت به أغنيناك ، لكن تخرج كفافاً لا عقاباً ولا ثواباً[3] .

وتوفى رحمه الله فى غزاته للإفرنج بصفر سنة اثنتين وتسعين وثلثمائة ، وحمل فى سريره على أعناق الرجال ، وعسكرُه يحفّ به ، وبين يديه ، إلى أن وصل إلى مدينة سالم .

ودامت دولته ستاً وعشرين سنة ، غزا فيها اثنتين وخمسين غزوة واحدة

---

(١) تغلغلت فيها : اشتد دخولها

(٢) جبره : أراد أنه أكمل النقص ، وأصل الجبر علاج العظم المهيض حتى يبرأ

(٣) أخذ قوله « تخرج كفافا » من قول مجنون بني عامر المعروف بمجنون ليلى :

فيارب سو الحب بيني وبينها يكون كفافا ، لاعلي ولا ليا

فى الشتاء وأخرى فى الصيف ، انتهى كلام ابن سعيد ، وفى بعضه مخالفة لبعض كلام ابن خلدون .

ترجمة جعفر المصحفى الحاجب

وقال الفتح فى «المطمح» فى حق المصحفى الحاجب جعفر بن عثمان المصحفى، ما صورته : تجرد للعَلْياء، وتمرّد[١] فى طلب الدنيا ، حتى بلغ المنى[٢] ، وتسوّغ ذلك الجَنى[٣] ، ووصل إلى المُنْتَهَى، وحصل على ما اشتهى، دون مجد[٤] تفرّع من دَوْحَته، ولا فخر نشأ بين مَغْدَاه ورَوْحَته ، فسما دون سابقة ، ورمى إلى رُتْبَة لم تكن لنفسه مُطَابقة ، فبلغ بنفسه ، ونزع عن جنسه ، ولم يزل يستقل و يطلع ، و ينتقل من مطلع إلى مطلع ، حتى التاح فى أفق الخلافة ، وارتاح إليها بِعِطْفِه كنَشْوان السُّلافة ، واستوزره المستنصر ، وعنه قد كان يسمع و به يُبْصر ، وحَجَبَ الإمام ، وأسكب برأيه ذلك الغمام ، فأدرك لذلك ما أدرك ، ونَصَب لأمانيه الحبائلَ والشَّرك ، فاقتنى اقتناء مُدَّخر ، وأزرى بمن سواه وسخر ، واستعطفه ابنُ أبى عامر ونجمُه غائر لم يَلُح ، وسره مكتوم لم يبح ، فما عطف ، ولا جَنَى من روضة دنياه ولا قَطَف ، وأقام فى تدبير الأندلس ما أقام و بُرْهَانه مستقيم ، ومن الفتن عَقِيم ، وهو يَجْرى من السعد فى مَيْدَان رَحْب ، ويَكْرَع من العزفى مَشْرَب عذب، و يَفُضُّ ختام السرور ، و ينهض بمُلْكٍ على لَبَّتِهِ مزرور ، وكان له أدبٌ بارع ، وخاطر إلى نظم القريض مُسَارع ، فمن محاسنه التى بعثها إيناس دهره و إسعاده ، وقاله حين ألهته سَلْماه وسُعَاده ، قولُه :

لعَيْنَيك فى قلبى عليك شجُونُ ... وَبَيْنَ ضُلوعى للشجُون فنُونُ

نَصيبى من الدنيا هواكَ ، و إنه ... غِذائى ، ولكنى عليه ضَنِينُ

---

(١) تمرد : أراد أنه طغى وتجاوز الحد

(٢) المنى : جمع منية — بضم الميم وسكون النون — وهي ما تتمناه نفسك

(٣) تسوغه — ومثله ساغه ، وأساغه ، واستساغه — أى وجده سائغاً فى المذاق سهل المرور فى الحلق ، والجنى — بفتح الجيم — الثمرة

(٤) فى نسخة عندا « دون محتد »

وستأتى هذه الترجمة من المطمح الصغير إن شاء الله تعالى بما فيه بعض زيادة ونقصان فى الباب الرابع .

ترجمة عن المطمح لابن أبي عامر المنصور

وقال فى المطمح فى حق ابن أبى عامر : إنه تمرَّس ببلاد الشرك أعظم تمرُّس[1]، ومحا من طواغيتها كلَّ تَعَجْرُف وتَغَطْرُس[2]، وغادرهم صَرْعَى البقاع، وتركهم أذلَّ من وَتدٍ بقاع[3]، ووالى على بلادهم الوقائع، وسدَّد إلى أكبادهم سهام الفجائع، وأغصَّ بالحمام أرواحهم، ونغص بتلك الآلام بكورهم ورَوَاحهم، ومن أوضح الأمور هنالك، وأفصح الأخبار فى ذلك، أن أحد رسله كان كثير الانتياب، لذلك الجناب، فسار فى بعض مسيراته إلى غَرْسِيَة صاحب البَشْكَنْس فوالى فى إكرامه، وتناهى فى برِّه واحترامه، فطالت مدته فلا متنزه إلا مرّ عليه متفرِّجاً، ولا منزل إلا سار عليه مُعَرِّجا، فحل فى ذلك، أكثر الكنائس هنالك، فبينا هو يَجُول فى ساحتها، ويُجِيل العَيْنَ فى مساحتها، إذ عرضت له امرأة قديمة الأسر، قويمة على طول الكسر، فكلمته وعرفته بنفسها وأعلمته، وقالت له : أيرضى المنصور أن ينسى بتنعمه بوسها، ويتمتع بلَبُوس العافية وقد نضت لَبُوسها، وزعمت أن لها عدة سنين بتلك الكنيسة محبسة، وبكل ذل وصَغَار ملبسة، وناشدته الله فى إنهاء قصتها، وإبراء غُصَّتها، واستحلفته بأغلظ الأيمان، وأخذت عليه فى ذلك أوكد مواثيق الرحمن، فلما وصل إلى المنصور عرفه بما يجب تعريفه به وإعلامه، وهو مُصْغٍ إليه حتى تم كلامه، فلما فرغ قال له المنصور : هل وقفتَ هناك على أمر أنكرته، أم لم تقف على غير ما ذكرته ؟ فأعلمه بقصة المرأة وما خرجت عنه إليه، وبالمواثيق الذى أخذت عليه، فعتبَه ولامه، على أن لم يبدأ بها كلامه، ثم أخذ للجهاد من فوْره

---

(١) تمرس : احتك، ومثله امترس، وتقول «مارس فلان كذا» إذا عالجه وزاوله

(٢) التعجرف . أن تركب غيرك بما يكره، والتغطرس : الكبر والتطاول

(٣) أخذ هذه العبارة من قول عبد الرحمن بن حسان بن ثابت الأنصارى ، وهو من شواهد النحاة :

وكنت أذل من وتد بقاع يشجج رأسه بالفهر واجى

وعرض مَنْ من الأجناد فى نَجْده وغَوْره ، وأصبح غازيا على سَرْجه ، مُباهيا مروان يوم مَرْجِه(١) ، حتى وافى ابن شانجة فى جمعه ، فأخذت مَهَابته ببَصره وسَمْعه ، فبادر بالكتاب إليه يتعرف ما الجلية ، ويحلف له بأعظم أليّة(٢) ، أنه ما جَنَى ذنبا ، ولا جفا عن مضجع الطاعة جَنْبا ، فعنف أرساله وقال لهم : كان قد عاقدنى أن لا يَبْقَى ببلاده مأسورةٌ ولا مأسور ، ولو حملته فى حواصلها النُّسُور ، وقد بلغنى بعدُ بقاء فلانة المسلمة فى تلك الكنيسة ، ووالله لا أنتهى عن أرضه حتى اكتسحها ، فأرسل إليه المرأة فى اثنتين معها ، وأقسم أنه ما أبصرهن ولا سمع بهنّ وأعلمه أن الكنيسة التى أشار بعلمها ، قد بالغ فى هدمها ، تحقيقا لقَوْله ، وتضرع إليه فى الأخذ فيه بطَوْله ، فاستحيا منه ، وصرف الجيش عنه ، وأوصل المرأة إلى نفسه ، وألحفَ توحشها بأنسه ، وغيَّر من حالها ، وعاد بسواكب نُعْماه على جَدْبها وإمحالها ، وحملها إلى قومها ، وكحلها بما كان شردَ من نومها ، انتهى .

وقال فى المطمح أيضا فى حقه ما نصه : فرْد نابه على مَنْ تقدمه ، وصوّبه واستحزمه ، فإنه كان أمضاهم سِنَانا ، وأذكاهم جَنَانا ، وأتمهم جَلالا ، وأعظمهم استقلالا ، فآل أمره إلى ما آل ، وأوهمَ العقول بذلك المآل ، فإنه كان آية الله فى اتفاق سَعْده ، وقربه من الملك بعد بُعْده ، بهر برفعة القَدْر ، واستظهر بالأناة وسعة الصَّدْر ، وتحرك فلاحَ نجمُ الهدوّ ، وتملك فما خَفَق بأرضه لواء عدوّ ، بعد خمول كابد منه غَصَصاً وشرَقا ، وتعذر مأمول طارد فيه سَهَراً وأرَقا ، حتى أنجز له الموعود ، وفرنحسُه أمام تلك السعود ، فقام بتدبير الخلافة ، وأقعد من كان له فيها إنافة ، وساس الأمور أحسن سياسةٍ ، وداس الخطوبَ بأخشن دياسة ،

---

(١) مروان : أراد به مروان بن الحكم ، الأموى ، و« مرجه » إشارة إلى « مرج راهط » وهو موضع بدمشق ، وقد وقعت فيه موقعة بين مروان والضحاك ابن قيس الفهرى ، انتصر فيها مروان ، وقتل فيها الضحاك

(٢) الألية : فعيلة من ألا يألو بمعنى أقسم وحلف ، وقال المجنون :

على ألية إن كنت أدري أينقص حب ليلي أم يزيد

فانتظمت له الممالك ، واتضحت به المسالك ، وانتشر الأمن فى كل طريق ، واستشعر اليمنَ كلُّ فريق ، وملك الأندلس بضْعاً وعشرين حجة ، لم تدحض[١] لسعادتها حُجة ، ولم تزخر لمكروه بهالجة ، لبست فيه البهاءَ والإشراق ، وتنفست عن مثل أنفاس العِرَاق[٢] ، وكانت أيامه أحمدَ أيام ، وسهام بأسه أسَدَّ سهامٍ ، غزا الروم شاتيا وصائفا ، ومضى فيما يروم زاجراً وعائفا ، فما مر له غير سَنيح[٣] ، ولافاز إلابالمعلَّى[٤] لابالمنيح ، فأوغل فى تلك الشعاب ، وتغلغل حتى راع ليثَ الغاب ، ومشى تحت ألويته صِيدُ القبائل ، واستجرَّت فى ظلها بيضَ الظبا وسُمْر الذوابل ، وهو يقتضى الأرواح بغـير سَوْم ، وينتضى الصفاح على كل رَوْم ، ويتلف من لاينساق للخلافة وينقاد ، ويخطف منهم كل كوكب وَقّاد ، حتى استبد وانفرد ، وأنس إليه من الطاعة ما نفر وشرد ، وانتظمت له الأندلس بالعُدْوة ، واجتمعت فى ملـكه اجتماعَ قريش بدار النَّدْوَة ، ومع هذا لم يخلع اسمَ الحجابة ، ولم يَدَعِ السمعَ لخليفته والإجابة ، ظاهرٌ يخالفه الباطن ، واسم تنافره مواقع الحكم والمواطن ، وأذل قبائل الأندلس بإجازة البرابر ، وأخمل بهم أولئك الأعلام الأكابر ، فإنه قاومَهُم بأضدادهم ، واستكثر من أعدادهم ، حتى تغلبوا على الجمهور ، وسلبوا عنهم الظهور ، ووثبوا عليهم الوثوبَ المشهور ، الذى أعاد أكثر الأندلس قفراً يبَاباَ ، وملأها وَحْشاً وذئاباَ ، وأعراها من الأمان ، بُرْهَة من الزمان ، وعلى هـــذه الهيئة فهو وابنه المظفر كانا آخر سعد الأندلس ، وحَدَّ السرور بها والتأنس ، وغَزَواته فيها شائعة الأثر ، رائعة كالسيف ذى الأُثُرِ ، وحَسَبه وافر ،

---

(١) لم تدحض : لم تبطل ولم تغلب ، وفى القرآن الـكريم (حجتهم داحضة)

(٢) أخذ هذه الفاصلة من قول الشاعر :

وشممت من أرض الشآ م نسيم أنفاس العراق

(٣) السنيح : الطائر أو الظبي يجيئك من جهة يسارك ذاهبا إلى جهة يمينك ، والعرب تتبرك به وتتيامن (٤) المعلى : أعظم قداح الميسر نصيبا

ونسبه مَعَافر ، ولذا قال يفتخر * رميت بنفسى . . . الأبيات * وزاد هنا بعد قوله « أبيض باتر » بيتا ، وهو :

وإنى لزجَّاء الجيوشِ إلى الوَغى ... أسود تلاقيها أسودٌ خَوَادِرُ(١)

وكانت أمه تميمية ، فحاز الشرف بطرفيه ، والتحف بِمِطْرَفَيْه ، ولذا قال القَسْطَلِّى فيه :

تلاقَتْ عليه من تميم ويَعْرُب ... شُمُوسٌ تلألا فى العُلاَ وبُدُورُ(٢)

منَ الْحِمْيَرِيِّينَ الذين أكفُّهم ... سَحَائبُ تَهْمِى بالنَّدَى وبحورُ

وتصرف قبل ولايته فى شتى الولايات ، وجاء من التحدّث بمنتهى أمره بآيات ، حتى صح زَجْره ، وجاء بصُبْحه فَجْره ، تؤثر عنه فى ذلك أخبار ، فيها عَجَب واعتبار ، وكان أديبا محسنا ، وعالما متفننا ، فمن ذلك قولُه يمنى نفسه بملك مصر والحجاز ، ويستدعى صدورَ تلك الأعجاز :

مَنَع العينَ أنْ تذوق المناما ... حُبُّها أن ترى الصَّفَا والمقاما

لى ديونٌ بالشرق عند أناس ... قد أحلّوا بالمشْعَرَيْن الحَرَاما

إن قَضَوْهَا نالوا الأمانى ، وإلاَّ ... جَعَلوا دونها رقابا وَهَامَا

عن قريب ترى خيولَ هشام ... يبلغ النيلَ خَطْوُهَا والشآما

انتهى ما نقلته من المطمح .

ترجمة أخرى للمنصور

وفى المنصور المذكور أيضا قال بعض مؤرخى المغرب ، ما زجا كلامه ببعض كلام الفتح ، بعد ذكر استعانته ببعض الناس على بعض ، وذكر قتله لجعفر بن على ، فقال بعده ما صورته : ثم انفرد بنفسه وصار ينادى صُروفَ الدهر هل من مبارز ، فلما لم يجده حمل

---

(١) زجاء : شديد السوق ، والوغى : الحرب ، والأسد الخادر : المقيم فى عرينه ، وفى شعر ليلى الأخيلية تصف توبة بن الحمير :

فتى كان أحيا من فتاة حيية ... وأشجع من ليث بخفان خادر

(٢) تلالا : أصله تتلألأ ، فسهل الهمزتين بقلبهما ألفين ، وحذف إحدى التاءين

الدهر على حكمه ، فانقاد له وساعده ، فاستقام أمره منفردا بمملكة لا سَلَف له فيها[١] ، ومن أوضح الدلائل على سَعْده أنه لم يُنْكب قطّ فى حرب شهدها ، وما توجهت عليه هزيمة ، وما انصرف عن موطن إلا قاهرا غالبا ، على كثرة ما زاول من الحروب ومارس من الأعداء وواجه من الأمم ، وإنها لخاصة ما أحسب أحدا من الملوك الإسلامية شاركه فيها ، ومن أعظم ما أعين به مع قوة سعده وتمكن جَده[٢] سَعَةُ جوده ، وكثرة بذله، فقد كان فى ذلك أعجوبة الزمان ، وأول ما اتكأ على أرائك الملوك وارتفق[٣] ، وانتشر عليه لواء السعد وخَفَق، حط صاحبه المصحفى ، وأثاره كامن حقده الخفى ، حتى أصاره للهُمُومِ لبيسا ، وفى غيابات[٤] السجن حبيسا ، فكتب إليه يستعطفه بقوله :

هَبْنى أسأتُ فأين العفو والكَرَمُ ... إذ قادَنِى نَحْوَكَ الإذعانُ والنَّدَمُ
يا خير مَنْ مُدَّتِ الأيدى إليه أما ... ترثى لشَيْخ رماهُ عندك القَلَمُ
بالغْتَ فى السُّخْطِ فاصْفَح صَفْحَ مقتدرٍ ... إن الملوك إذا ما اسْتُرْحِمُوا رَحِمُوا

فما زاده ذلك إلا حنقاً وحقداً ، وما أفادته الأبيات إلا تضرما ووقْدًا ، فراجعه بما أيأسه ، وأراه مَرْمَسَه ،وأطبق عليه محبسه ، وضيق تروحه من المحنة وتنفُّسه :

الآن يا جاهلا زلّتْ بك القَدَمُ ... تبغى التكرمَ لما فاتَكَ الكَرَمُ
أغْرَيْتَ بى مَلِكاً لولا تثبُّته ... ما جاز لى عنْدَهُ نطق ولا كلم
فَأْيأسْ من العَيْشِ إذ قد صِرْتَ فى طَبَق ... إن الملوك إذا ما استنقموا نَقَمُوا
نَفْسِى إذا سَخِطَتْ لَيْسَتْ براضيةٍ ... ولو تَشَفَّع فيك العُرْبُ والعَجَمُ

وكان من أخباره الداخلة فى أبواب البر والقربة بنيانُ المسجد الجامع، إلى أن قال:

---

(١) أراد أنه لم يرث الملك عن بعض أهله (٢) الجد - بفتح الجيم - الحظ والبخت
(٣) الارتفاق فى الأصل الاتكاء على المرفق أو على المرفقة وهى المخدة
(٤) الغيابات : جمع غيابة وهى قعر البئر أو قعر كل شىء ، وفى القرآن الكريم (وألقوه فى غيابة الجب) ووقع فى ب ، ز « غايات السجن » وأثبتنا ما فى ا

ومن ذلك بناؤه قنطرة على نهر قرطبة الأعظم ، ابتدأ بناءها المنصورُ سنة ثمان وسبعين وثلثمائة ، وفرغ منها فى النصف من سنة تسع وسبعين ، وانتهت النفقة عليها إلى مائة ألف دينار وأربعين ألف دينار ، فعظمت بها المنفعة ، وصارت صدراً فى مناقبه الجليلة ، وكانت هنالك قطعة أرض لشيخ من العامة ، ولم يكن للقنطرة عدولٌ عنها ، فأمر المنصور أمناءه بإرضائه فيها ، فحضر الشيخ عندهم ، فساوموه بالقطعة ، وعرّفوه وجه الحاجة إليها وأن المنصور لا يريد إلا إنصافه فيها ، فرماهم الشيخ بالغرض الأقصى عنده فيما ظنه أنها لا تخرج[1] عنه بأقل من عشرة دنانير ذهباً كانت عنده أقصى الأمنية ، وشرطها صحاحاً ، فاغتنم الأمناء غفلته ، ونقدوه الثمن ، وأشهدوا عليه ، ثم أخبروا المنصور بخبره ، فضحك من جهالته ، وأنف من غبنه ، وأمر أن يعطى عشرة أمثال ما سأل ، وتدفع له صحاحاً كما قال ، فقبض الشيخ مائة دينار ذهباً ، فكاد أن يخرج من عقله ، وأن يُجَنّ عند قبضها من الفرح ، وجاء محتفلا فى شكر المنصور ، وصارت قصته خبراً سائراً .

ومن ذلك أيضاً بناء قنطرة على نهر إسْتِجَة ، وهو نهر شِنّيل ، وتجشم لها أعظم مؤنة ، وسهل الطريق[2] الوَعْرة والشعاب الصعبة .

ومن ذلك أيضاً أنه خط بيده مصحفاً كان يحمله معه فى أسفاره [وغزواته][3] ، ويَدْرُس فيه ، ويتبرك به .

ومن قوة رجائه أنه اعتنى بجميع ما علق بوجهه من الغُبَار فى غزواته ومواطن جهاده[4] ، فكان الخدَمُ يأخذونه عنه بالمناديل فى كل منزل من منازله ، حتى اجتمع له منه صُرَّة ، ضخمة ، عهد بتصييره فى حَنُوطه[5] ، وكان يحملها حيث سار مع

---

(١) فى ا « ألا تخرج عنه » (٢) فى نسخة عند ا « الطرق الوعرة »

(٣) هذه الكلمة لا توجد فى ا

(٤) فعل سيف الدولة الحمدانى مثل ذلك ، وأمر أن يجعل الغبار لبنة توضع تحت رأسه فى قبره (٥) الحنوط — بفتح الحاء — مايوضع فى ماء الغسل من الطيب والكافور والأشنان ونحوه

أكفانه ، توقعاً لحلولِ مَنِيته ، وقد كان اتخذ الأكفان من أطيب مكسبه من الضيعة الموروثة عن أبيه[١] وغَزْل بناته ، وكان يسأل الله تعالى أن يتوفاه فى طريق الجهاد ، فكان كذلك .

وكان مُتَّسِماً بصحة باطنه، واعترافه بذنبه، وخوفه من ربه ، وكثرة جهاده ، وإذا ذُكِّر بالله ذكر ، وإذا خوف من عقابه أزدجر ، ولم يزل متنزهاً عن كل مايفتتن به الملوك سوى الخمر ، لكنه أقلع عنها قبل موته بسنتين[٢] ، وكان عَدْله فى الخاصة والعامة وبسط[٣] الحق على الأقرب فالأقرب من خاصته وحاشيته أمراً مضر وبابه المثل.

أمثلة من عدل المنصور

ومن عدله أنه وقف عليه رجل من العامة بمجلسه ، فنادى : ياناصر الحق ، إن لى مظلمة عند ذلك الوصيف الذى على رأسك ،وأشار إلى الفتى صاحب الدرقة، وكان له فضلُ محلٍّ عنده ،ثم قال : وقد دعوته إلى الحاكم فلم يأت ،فقال له المنصور: أو عبد الرحمن بن الفُطَيس[٤] بهذا العجز والمهانة ، وكنا نظنه أمضى من ذلك ؟ اذكر مظلمتك يا هذا ، فذكر الرجل معاملة كانت جارية بينهما فقطعها من غير نصف[٥] ، فقال المنصور : ما أعظم بليتنا بهذه الحاشية ! ثم نظر إلى الصَّقْلبى وقد ذُهِل عقله ، فقال له : ادفع الدرقة إلى فلان ، وانزل صاغراً ، وسَاوِ خصمك فى مقامه حتى يرفعك الحق أو يضعك ، ففعل ، ومثل بين يديه ، ثم قال لصاحب شرطته الخاص به : خذ بيد هذا الفاسق الظالم وقَدِّمه مع خصمه إلى صاحب المظالم لينفذ عليه حكمه بأغلظ ما يوجبه الحق من سَجْنٍ أو غيره ، ففعل ذلك ، وعاد الرجل إليه شاكراً ، فقال له المنصور : قد انتصفت أنت ، اذهب لسبيلك ، وبقى

---

(١) فى ا « من أبيه »
(٢) فى نسخة عند ا « بسنين »
(٣) فى ا « وبسطه الحق »
(٤) فى ا « بن فطيس »
(٥) النصف — بفتح النون والصاد جميعا — الاسم من الإنصاف وهو العدل .

انتصافى أنا ممن تهاون بمنزلتى ، فتناول الصَّقْلبى بأنواع من المذلَّة ، وأبعده عن الخدمة .

ومن ذلك قصة فتاهُ الكبيرة المعروف بالبورقى [١] مع التاجر المغربى ، فإنهما تنازعا فى خصومة توجهت فيها اليمين على الفتى المذكور ، وهو يومئذ أكبر خدم المنصور ، و إليه أمر داره وحرمه ، فدافع الحاكم ،وظن أن جاهه يمنع من إحلافه، فصرخ التاجر بالمنصور فى طريقه إلى الجامع متظلماً من الفتى ، فوكل به فى الوقت من حمله إلى الحاكم ، فأنصفه منه ، وسخط عليه المنصور ، وقبض نعمته منه ،ونفاه

ومن ذلك قصة محمد فَصَّادِ المنصور وخادمه وأمينه على نفسه ، فإن المنصور احتاجه يوما إلى الفَصْد ، وكان كثير التعهد له ، فأنفذ رسوله إلى محمد ، فألفاه الرسول محبوساً فى سجن القاضى محمد بن زرب [٢] لِحَيْف ظهرمنه على امرأته قدر أن سبيله من الخدمة يَحْميه من العقوبة ، فلما عاد الرسول إلى المنصور بقصَّته أمر بإخراجه من السجن مع رقيب من رقباء السجن يلزمه إلى أن يفرغَ من عمله عنده، ثم يرده إلى محبسه ، ففعل ذلك على ما رسمه ، وذهب الفاصدُ إلى شكوى ماناله ، فقطع عليه المنصور ، وقال له : يا محمد ، إنه القاضى ، وهو فى عَدْله ، ولو أخذنى الحق [٣] ما أطقت الامتناع منه ، عُدْ إلى محبسك أواعترف [٤] بالحق فهو الذى يطلقك ، فانكسر الحاجم ، وزالت عنه ريح العناية ، و بلغت قصته للقاضى ، فصالحه مع زوجته ، ، وزاد القاضى شدةً فى أحكامه .

دهاء المنصور

وقال ابن حيان : إنه كان جالساً فى بعض الليالى ،وكانت ليلة شديدة البرد والريح والمطر ، فدعا بأحد الفرُسان وقال له : انهض الآن إلى فج طليارش [٥] ، وأقم فيه فأول

(١) في نسخة عند ا « الميورقى »

(٢) في ب ، ز ونسخة عند ا « روب » وفى نسخة ثانية عند ا « زوب »

(٣) فى ب ، ز « ولو أخذنى بالحق » (٤) فى ب ، ز « واعترف »

(٥) في ب ، ز « فج طيالس »

خاطر يخطر عليك سُقه إلى ، قال : فنهض الفارس و بقى فى الفج فى البرد والريح والمطر واقفاً على فرسه ، إذ وقف عليه قربَ الفجر شيخ هَرِم على حمار له ، ومعه آلة الحطب ، فقال له الفارس : إلى أين تريد يا شيخ ؟ فقال : وراء حطب ، فقال الفارس فى نفسه : هذا شيخ مسكين نهض إلى الجبل يسوق حَطَبا ، فما عسى[1] أن يريد المنصور منه؟ قال : فتركته ، فسار عنى قليلا ، ثم فكرت فى قول المنصور، وخفت سَطْوته ، فنهضت إلى الشيخ وقلت له : ارجع إلى مولانا المنصور ، فقال له : وماعسى[1] أن يريد المنصور من شيخ مثلى؟ سألتك بالله أن تتركنى [أذهب] لطلب معيشتى ، فقال له الفارس : لا أفعل ، ثم قدم به على المنصور ، ومثله بين يديه وهو جالس لم يَنَمْ ليلته تلك ، فقال المنصور للصقالبة : فتشوه ، ففتشوه[2] فلم يجدوا معه شيئاً ، فقال : فتشوا برذعة حماره ، فوجدوا داخلها كتاباً من نَصَارى كانوا قد نزعوا إلى المنصور يخدمون عنده إلى أصحابهم من النصارى لِيُقْبلوا و يضربوا[3] فى إحدى النَّواحى المرطومة[4] ، فلما انبلج الصبح أمر بإخراج أولئك النصارى إلى باب الزاهرة ، فضُربت أعناقهم ، وضربت رقبة الشيخ معهم .

ثم ذكر هذا المؤرخ قصة الجوهرى التى قدمنا نقلها من مُغْرب ابن سعيد ، ولكنا رأينا إعادتها بلفظ هذا المؤرخ ، لأنه أتم مساقاً إذ قال عطفاً على دهائه : ومن ذلك قصة الجوهرى التاجر ، وذلك أن رجلا جوهرياً من تجار المشرق قصد المنصور من مدينة عَدَن بجوهر كثير وأحجار نفيسة ، فأخذ المنصور من ذلك ما استحسنه ، ودفع إلى التاجر الجوهرى صُرَّته ، وكانت قطعة يمانية ، فأخذ التاجر فى انصرافه طريق الرملة على شط النهر ، فلما توسطها واليومُ قائظ وعَرَقه

(١) فى ب ، ز « فماذا عسى » (٢) فى ا « ففتش »

(٣) فى ب ، ز « ليضربوا ويقتلوا »

(٤) المرطومة : اسم المفعول من قولك « رطم فلان فلانا فى الوحل رطما » وأراد الأماكن التى كثر فيها الوحل بسبب كثرة الأمطار .

فمصب دَعَته نفسه إلى التبرد فى النهر ، فوضع ثيابه وتلك الصرة[١] على الشط ، منرت حِدَأة فاختطفت الصرة تحسبها لحماً ، وصارت[٢] فى الأفق بها ذاهبة ، فقطعت الأفق الذى تنظر إليه عينُ التاجر ، فقامت قيامته ، وعلم أنه لا يقدر أن يستدفع ذلك بحيلة فأسرَّ الحزن فى نفسه ، ولحقه لأجل ذلك علة اضطرب فيها ، وحضر الدفع إلى التجار فحضر الرجل لذلك بنفسه ، فاستبان للمنصور ما بالرجل[٣] من المهانة والكآبة ، وفقد ما كان عنده من النشاط وشدة العارضة ، فسأله المنصور عن شأنه ، فأعلمه بقصته ، فقال له : هلا أتيت إلينا بحِدْثَان وقوع الأمر فكنا نستظهر على الحيلة ، فهل هُديت إلى الناحية التى أخذ الطائر إليها ، قال : مَرَّ مشرقاً على سَمْت هذا الجبل الذى يلى قصرك ، يعنى الرملة ، فدعا المنصور شُرْطِيَّه الخاص به ، فقال له : جئنى بمشيخة أهل الرملة الساعة ، فمضى وجاء بهم سريعاً ، فأمرهم بالبحث عمن غير حال الإقلال منهم سريعاً ، وانتقل عن الإضاقة دون تدريج ، فتناظروا فى ذلك ثم قالوا : يا مولانا ما نعلم إلا رجلا من ضعفائنا كان يعمل هو وأولاده بأيديهم ويتناولون السَّبْق بأقدامهم عجزاً عن شراء دابة ، فابتاع اليومَ دابة ، واكتسى هو وولده كسوة متوسطة ، فأمر بإحضاره من الغد ، وأمر التاجر بالغدو إلى الباب ، فحضر الرجل بعينه بين يدى المنصور ، فاستدناه والتاجر حاضر ، وقال له : سَبَب ضاع منا وسقط إليك ، ما فعلت به ؟ قال : هو ذا يا مولاى ، وضرب بيده إلى حُجْزَة[٤] سَرَاويله فأخرج الصُّرة بعينها ، فصاح التاجر طَرَباً ، وكاد يطير فرحاً ، فقال له المنصور : صِف لى حديثها ، فقال : بَيْنَا أنا أعمل فى جِنَانى تحت نخلة إذ سقطت أمامى ، فأخذتها وراقنى منظرها ، فقلت : إن الطائر اختلسها من

---

(١) فى نسخة عند ا « وترك الصرة على الشط » (٢) فى ا « وصاعدت فى الأفق »

(٣) فى نسخة عند ا « ما نال الرجل » (٤) فى ا « حجرة سراويله » وحجزة السراويل ــ بالزاى ــ الموضع الذى تكون فيه تكة السراويل ، ويقولون « فلان طيب الحجزة » يريدون أنه عف ، كقولهم : هو طاهر الإزار ، ونقى الثوب

قَصْرِك لقرب الجوار ، فاحترزت[١] بها ، ودعتنى فاقتى إلى أخذ عشرة مثاقيل عيونا كانت معها مصرورة ، وقلت : أقلُّ ما يكون فى كرم مولاى أن يسمح لى بها ، فأعجب المنصور ما كان منه ، وقال للتاجر : خذ صُرَّتك وانظرها واصدقنى عن عددها ، ففعل وقال : وحقِّ رأسك يا مولاى ما ضاع منها شىء سوى الدنانير التى ذكرها وقد وهبتها له ، فقال [له] المنصور : نحن أولى بذلك منك ولا نُنَغِّص[٢] عليك فرحك ، ولولا جَمْعه بين الإصرار والإقرار لكان ثوابه موفوراً عليه ، ثم أمر للتاجر بعشرة دنانير عوضا من دنانيره ، وللجَنَّان[٣] بعشرة دنانير ثوابا لتأنيه عن فساد ما وقع بيده ، وقال : لو بدَأنا بالاعتراف قبل البحث لأوسعناه جزاء ، قال : فأخذ التاجر فى الثناء على المنصور ، وقد عاوده نشاطه وقال : والله لأبثنَّ فى الأقطار عظيم ملكك ، ولأبينن[٤] أنك تملك طيرأعمالك كما تملك إنسها[٥] ، فلا تعتصم منك ولا تمتنع ، ولا تؤذى جارك ، فضحك المنصور وقال : اقصد فى قولك يغفر الله لك ، فعجب الناس من تلطف المنصور فى أمره وحيلته فى تفريج كربته .

غزوة مدينة شنت ياقب

ومن ذلك غزوة المنصور لمدينة شنت يَاقُبَ قاصية غليسية ، وأعظم مشاهد النصارى الكائنة ببلاد الأندلس ، وما يتصل بها من الأرض الكبيرة ، وكانت كنيستها عندهم بمنزلة الكعبة عندنا ، وللكعبة المثلُ الأعلى : فبها يحلفون ، و إليها يحجون من أقصى بلاد رومة وما وراءها ، و يزعمون أن القبر المَزُورَ فيها قبر ياقب الحوارى أحد الاثنى عشر ، وكان أخصهم بعيسى، على نبينا وعليه الصلاة والسلام! وهم يسمونه أخاه للزومه إياه ، وياقب بلسانهم يعقوب ، وكان أُسْقُفا ببيت المقدس فجعل يستقرى الأرضين داعيا لمن فيها حتى انتهى إلى هذه القاصية ، ثم عاد إلى

---

(١) فى ب ، ز « فاجتزت بها » (٢) فى نسخة عند ا « ولا ننقص »

(٣) في ب « وللجنانى » وذلك بمعنى قولهم بستانى

(٤) فى ا « ولأنبئن »

(٥) فى ب « كما تملك أنفسها »

أرض الشام فمات بها ، وله مائة وعشرون سنة شمسية ، فاحتمل أصحابه رِمَّته فدفنوها بهذه الكنيسة التى كانت أقصى أثره ، ولم يطمع أحد من ملوك الإسلام فى قصدها ولا الوصول إليها ، لصعوبة مدخلها ، وخشونة مكانها ، و بعد شُقَّتها ، فخرج المنصور إليها من قُرْطُبة غازيا بالصائفة يوم السبت لست بَقِينَ من جمادى الآخرة سنة سبع وثمانين وثلثمائة ، وهى غزوته الثامنة والأربعون ، ودخل على مدينة قُورِية ، فلما وصل إلى مدينة غليسية وافاه عددٌ عظيم من القوامس المتمسكين بالطاعة فى رجالهم ، وعلى أتم احتفالهم ، فصاروا فى عسكر المسلمين ، وركبوا فى المُغاوَرَةِ[١] سبيلهم ، وكان المنصور تقدم فى إنشاء أسطول كبير فى الموضع المعروف بقصر أبى دانس[٢] من ساحل غرب الأندلس ، وجهزه برجاله البحريين وصنوف المترجلين ، وحمل الأقوات والأطعمة والعُدَد والأسلحة استظهارا على نفوذ العزيمة إلى أن خرج بموضع برتقال على نهر دُوَيْرة ، فدخل فى النهر إلى المكان الذى عمل المنصورعلى العبور منه ، فعقد هنالك من هذا الأسطول جسرا بقرب الحصن الذى هنالك ، ووَجَّه المنصور[٣] ما كان فيه من المِيرة إلى الجند ، فتوسَّعوا فى التزود منه إلى أرض العدو ، ثم نهض منه يريد شنت يَاقُبَ ، فقطع أرضين متباعدة الأقطار ، وقطع بالعبور عدة أنهار كبار وخلجان يمدها البحر الأخضر ، ثم أفضى العسكر بعد ذلك إلى بَسَائط جليلة من بلاد فرطارش[٤] وما يتصل بها ، ثم أفضى إلى جبل شامخ شديد الوَعْر لامسلك فيه ولا طريق ، لم يهتد الأدِلاَّء إلى سواه ، فقدم المنصور الفَعَلة بالحديد لتوسعة شعابه وتسهيل مسالكه ، فقطعه العسكر، وعبروا بعده وادى مِنْية[٥] ، وانبسط المسلمون بعد ذلك

---

(١) فى ب « المفاوزة » والمغاورة :الإغارة (٢) فى ب « أبى وانس »
(٣) فى ا « ووزع المنصور »
(٤) فى ب « فرطارس » وفى نسخة عند ا « فلطارش »
(٥) فى نسخة عند ا « وادى مينه »

فى بسائط عريضة وأرضين [أريضة] ، وانتهت مغيرتهم إلى دير قسطان[١] و بسيط بلنبو[٢] على البحر المحيط ، وفتحوا حصن شنت بلاية ، وغنموه ، وعبروا سِبَاحَةً[٣] إلى جزيرة من البحر المحيط لجأ إليها خلق عظيم من أهل تلك النواحى ، فسَبَوْا مَنْ فيها ممن لجأ إليها ، وانتهى العسكر إلى جبل مُراسية المتصل من أكثر جهاته بالبحر المحيط ، فتخللوا أقطاره ، واستخرجوا مَنْ كان فيه ، وحازوا غنائمه ، ثم أجاز المسلمون بعد هذا خليجا فى معبرين أرشد الأدلاء إليهما ، ثم نهر أيلة[٤] ، ثم أفضوا إلى بسائط واسعة العمارة كثيرة الفائدة ، ثم انتهوا إلى موضع من مشاهد يَاقُبَ صاحب القبر تلو مشهد قبره عند النصارى فى الفضل ، يقصد نُسَّاكهم له من أقاصى بلادهم ومن بلاد القبط والنوبة وغيرهما ، فغادره المسلمون قاعا ، وكان النزول بعده على مدينة شنت ياقب البائسة ، وذلك يوم الأربعاء لليلتين خلتا من شعبان ، فوجدها المسلمون خالية من أهلها ، فحاز المسلمون غنائمها ، وهدموا مَصَانعها وأسوارها وكنيستها ، وعَفَّوْا آثارها ، ووكل المنصور بقبر يَاقُبَ من يحفظه و يدفع الأذى عنه وكانت مَصَانعها بديعة محكمة فغودرت هشيما كأن لم تَغْنَ بالأمس ، وانتسفت [بعوثه] بعد ذلك سائر البسائط ، وانتهت الجيوش إلى مدينة[٥] شنت مانكش منقطع هذا الصقع على البحر المحيط ، وهى غاية لم يبلغها قبلهم مسلم ، ولا وطئها لغير أهلها قدم ، فلم يكن بعدها للخيل مَجَال ، ولا وراءها انتقال ، وانكفأ المنصور عن باب شنت يَاقُبَ وقد بلغ غاية لم يبلغها مسلم قبله ، فجعل فى طريقه القصد على عمل برمند بن أردون يستقر[٦] به عائثا [به] ومفسدا ، حتى وقع فى عمل القوامس المعاهدين الذين فى عسكره ، فأمر بالكف عنها ، ومرَّ مجتازا حتى خرج إلى حصن بليقية[٧] من افتتاحه ، فأجاز هنالك القوامس

---

(١) فى ب « قشان » وفى نسخة عند ا « قسان » (٢) فى نسخة عند ا « بلنبوط »

(٣) فى ب ونسخة عند ا « بساحته » (٤) فى ا « نهر أبلة »

(٥) فى ا « جزيرة شنت مانكش » (٦) فى ا « ليستقريه »

(٧) فى نسخ ا « بليقة » و « بلقية » و « مليقة »

بجملتهم على أقدارهم ، وكساهم وكسا رجالهم وصرفهم إلى بلادهم ، وكتب بالفتح من بليقية ، وكان مبلغ ما كساه فى غزَاته هذه لملوك الروم ولمن حَسُنَ غناؤه من المسلمين ألفين ومائتين وخمسا وثمانين شُقَّة من صنوف الخز الطِّرازى ، وإحدى وعشرين كساء من صوف البحر ، وكساءين عنبريين ، وأحد عشر سقلاطونا ، وخمس عشرة مريشا[ت] ، وسبعة أنماط ديباج ، وثوبى ديباج رومى ، وفَرْوَى فَنَك ، ووافى جميع العسكر قرطبة غانما ، وعظمت النعمة والمنة على المسلمين ، ولم يجد [المنصور] بشنت يَاقُبَ إلا شيخا من الرهبان جالسا على القبر ، فسأله عن مقامه ، فقال : أونس يُعقوبَ ، فأمر بالكف عنه

قال : وحدث شعلة قال : قلت للمنصور ليلة طال سهره فيها : قد أفرط مولانا فى السهر ، وبدنه يحتاج إلى أكثر من هذا النوم ، وهو أعلم بما يحركه[1] عدم النوم من علة العصب[2] ، فقال : يا شعلة ، الملك لا ينام إذا نامت الرعية ، ولو استوفيت نومى لما كان فى دور هـذا البلد العظيم عين نائمة ، انتهى ما نقلته من الكتاب المذكور .

وقد رأيت أن أذكر هنا أخباراً ، نقلتها من كتاب « الأزهار المنثورة ، فى الأخبار المأثورة » .

قال فى الزهرة التاسعة والعشرين : تقدم إلى المنصور وانزمار بن أبى بكر البرزالى[3] أحد جنود المغاربة[4] ، وقد جلس للعرض والتمييز ، والميدان غاص بالناس ، فقال له بكلام يضحك الثكلى : يا مولاى ، مالى ولك أسكنِّى فإنى فى الفحص ، فقال : وماذاك ياوانزمار[3] ؟ وأين دارك الواسعة الأقطار ؟ فقال : أخرجتنى عنها والله نعمتُكَ ، أعطيتنى من الضياع ما انصبَّ على منهـا من الأطعمة ما ملأ بيوتى وأخرجنى عنها ،

---

(١) فى ا « بما يحرك »

(٢) فى نسخة عند ا « الغضب »

(٣) فى ب « واترمار بن أبى بكر البربرى » (٤) فى ا « أحد جند المغاربة »

وأنا بر برى مجوّع حديث عهد بالبؤس ، أتراني أبعد القمحَ عنى؟ ليس ذلك من رأيى فتطلّق المنصور [١] وقال : لله درك من فذعيٍّ لَعِيك فى شكر النعمة أبلغ عندنا، وآخذ بقلوبنا من كلام كل أشدق متزيد و بليغ متفنن ، وأقبل على مَنْ حوله من أهل الأندلس فقال : ياأصحابنا، هكذافلتشكرالأيادى وتستدام النعم [٢] ، لا ما أنتم عليه من الجحْد اللازم ، والتشكى المبرِّح ، وأمر له بأفضل المنازل الخالية .

وفى الموفيـة ثلاثين ما نصه : أصبح المنصور صبيحةَ أحدٍ ، وكان يوم راحة للخَدَمة الذى أعفوا فيه من قصد الخدمة ، فى مطر وابل غبَّ أيام مثله ، فقال : هذا يوم لاعهد بمثله ، ولا حيلة للمواظبين لقصدنا فى مكابدته ، فليت شعرى هل شذ أحد منهم عن التقرير [٣] فأغرب فى البكور؟ أخرج وتأمل ، يقوله لحاجبه ، فخرج وعاد إليه ضاحكا ، وقال : يا مولاى ، على الباب ثلاثة من البرابرة: أبوالناس بن صالح واثنان معه ، وهم بحال من البلل إنما توصف بالمشاهدة ، فقال : أوصلهم إلى وعجل ، فدخلوا عليه فى حال الملاّح بللا ونَدَاوة ، فضحك إليهم وأدنى مجلسهم ، وقال : خبرونى كيف جئتم ؟ وعلى أى حال وصلتم؟ وقداستكان كل ذى روح فى كِنِّه [٤] ، ولاذَ كل طائر بوَكْره ، فقال له أبوالناس بكلامه : يا مولانا ، ليس كل التجار [٥] قعد عن سوقه ، و إذا عُذر التجار على طلب الربح بالفلوس [٦] فنحن أعذر بإدراكها بالبدَر ومن غير رؤس الأموال ، وهم يتناوبون الأسواق على أقدامهم و يذيلون فى قصدها ثيابَهُم ، ونحن نأتيك على خَيْلك ، ونذيلُ على صَهَواتها ملابسك ، ونجعل الفضلَ فى قصدك مضمونا إذا جعله أولئك طمعا ورجاء ، فترى لنا أن نجلس عن

---

(١) تطلق : أشرق وجهه وانبسطت أساريره ، وذلك علامة رضاه عما قال وسروره به

(٢) فى ا « واستديموا النعم »

(٣) فى ا « عن التقدير »

(٤) السكن ــ بالكسر ــ المكان يستتر فيه

(٥) فى ا « كل تاجر »

(٦) الفلوس: جمع فلس، وهو من النقد ما كان من معدن غير الذهب والفضة كالنحاس

سوقنا هذا ؟ فضحك المنصور ودعا بالكسا والصلات ، فدُفعت لهم ، وانصرفوا مسرورين بغدوتهم .

وفى الزهرة الرابعة والأربعين : ما نصه كان بقُرْطُبة على عهد الحاجب المنصور محمد بن أبى عامر فتى من أهل الأدب قد رَقّتْ حاله فى الطلب ، فتعلق بكتاب العمل ، واختلف إلى الخزانة مدة ، حتى قُلِّد بعض الأعمال ، فاستهلك كثيرا من المال ، فلما ضم إلى الحساب أبرز عليه ثلاثة آلاف دينار ، فرفع خبره إلى المنصور ، فأمر بإحضاره ، فلما مثل بين يديه ولزم الإقرار بما برز عليه قال له : يا فاسق ، ما الذى جرّأك على مال السلطان تنتهبه ؟ فقال : قضاء غلب الرأى ، وفقر أفسد الأمانة ، فقال المنصور : والله لأجعلنَّكَ نكالا لغيرك ، ليُحْضَر كَبْل[1] وحَدَّاد ، فأحضر ، فكبل الفتى وقال : احملوه إلى السجن ، وأمر الضابط بامتحانه والشدة عليه ، فلما قام أنشأ يقول :

أوّاه أوّاه وكم ذا أرَى أكْثِرِ من تكرار أوّاه[2]
مَالِامرِئٍ حَوْلٌ ولاقوة الحولُ والقوة لله

فقال المنصور : ردوه ، فلما رُد[3] قال : أتمثلت أم قلت ؟ قال : بل قلت ، فقال : حُلوا عنه كَبْله[1] ، فلما حل عنه أنشأ يقول :

أمَا ترَى عَفوَ أبى عامر لابُدَّ أن تتبعه مِنَّهْ
كذلكَ الله إذا ما عَفَا عن عَبْده أدخله الجنّه

فأمر بإطلاقه ، وسوّغه[4] ذلك المال ، وأبرأه من التبعة فيه .

وفى الخامسة والأربعين : عرض على المنصور بن أبى عامر اسمُ أحد خَدَمه[5]

---

(١) الكبل ـ بفتح الكاف وسكون الباء ـ القيد

(٢) فى ا « من تذكار أواه » (٣) فى نسخة عندنا « فلما ردوه »

(٤) سوغه إياه : جعله له سائغا ، وكأنه سهل له ابتلاعه (٥) فى ا « خدامه »

فى جملة مَنْ طال سجنه ، وكان شديد الحقد عليه ، فوقع على اسمه بأن لاسبيل إلى إطلاقه حتى يلحق بأمه الهاوية ، وعُرِّف الرجل بتوقيعه ، فاهتم واغتم وأجهد نفسه فى الدعاء والمناجاة ، فأرق المنصور أثر ذلك ، واستدعى النومَ فلم يقدر عليـــه ، وكان يأتيه عند تنويمه آتٍ كريهُ الشخص عنيف الأخذ يأمره بإطلاق الرجل ، ويتوعده على حبسه ، فاستدفع شأنه مرارا إلى أن علم أنه نذير من ربه ، فانقاد لأمره ، ودعا بالدواة فى مرقده فكتب بإطلاقه ، وقال فى كتابه : هذا طليق الله على رغم أنف ابن أبى عامر ، وتحدث الناس زمانا بما كان منه .

وفى السادسة والأربعين ما نصه : انتهت هَيْبة المنصور بن أبى عامر وضَبْطه للجند واستخدام ذكور الرجال[1] وقُوَّام الملك إلى غاية لم يَصِلها ملك قبله ، فكانت مواقفهم فى الميدان على احتفاله[2] مثلا فى الإطراق ، حتى إن الخيل لتتمثل إطراق فرسانها فلا تكثر الصهيل والحَمْحَمة[3] ، ولقد وقعت عينه على بارقة سيف قد سَلَّه بعض الجند بأقصى الميدان لهزل أوجد بحيث ظن أن لحظ المنصور لايناله ، فقال : على بشاهر السيف ، فمثل بين يديه لوقته ، فقال : ما حملك على أن شهرت سيفك فى مكان لايُشْهر فيـه إلا عن إذن ؟ فقال : إنى أشرت به إلى صاحبى مُغْمَدا فذلق من غمده ، فقال : إن مثل هذا لايسوغ بالدعوى ، وأمر به فضربت عنقه بسيفه ، وطيف برأسه ، ونودى عليه بذنبه .

وفى السابعة والأربعين : أن المنصور كان به داء فى رجله ، واحتاج إلى الـكى فأمر الذى يكويه بذلك وهو قاعد فى موضع مشرف على أهل مملـكته ، فجعل يأمر وينهى ويَفْرِى الفَرِىَّ فى أموره[4] ، ورجْلُه تكوى والناس لايشعرون ، حتى شموا

---

(١) الذكور من الرجال المراد بهم الأقوياء الشجعان

(٢) احتفل المكان بالناس : امتلأ وغص بهم

(٣) الحمحمة : صوت الخيل دون الصهيل ، وهى أيضا صوت الفرس عند طلبه العلف

(٤) تقول : « فلان يفرى الفرى » تريد أنه يأتى فى شؤونه بالعجائب والغرائب التى لايقدر أحد على الإتيان بمثلها .

رائحة الجلد واللحم ، فتعجبوا من ذلك وهو غير مكترث .

وأخباره ـ رحمه الله تعالى !ـ تحتمل مجلدات ، فلنمسك العنان ، على أنا ذكرنا فى الباب الرابع والسادس من هذا الكتاب جملة من أخباره ، رحمه الله تعالى ! فلتراجع إلى آخره .

وقال الفتح فى المطمح[١] : وكان مما أعين به المنصور على المُصْحَفى ميل الوزراء إليه ، وإيثارهم له عليه ، وسَعْيُهم فى ترقيه ، وأخذهم بالعصبية فيه ، فإنها وإن لم تكن حِمِيَّةً أعرابيه ، فقد كانت سلفية سلطانية ، يقتفى القومُ [فيها] سبيلَ سلفهم ، ويمنعون[٢] بها ابتذال شرفهم ، غادروها سيرة ، وخَلَّفوها[٣] عادة أثيرة ، تشاح الخلف فيها تشاح [سلفهم] أهل الديانة ، وصانوا بها مراتبهم أعظم صيانة ، ورأوا أن أحداً لا يلحق فيها غاية ، ولا يتعاقد[٤] لها راية ، فلما اصطفى الحكم المستنصر بالله جعفر ابن عثمان واصطنعه ، ووَضَعه من أثرته حيث وَضعه ، وهو نزيعُ بينهم ونابغ[٥] فيهم ، حسدوه وذَمُّوه ، وخصوه بالمطالبة وعَمُّوه ، وكان أسرعَ صنف[٦] الطائفة من أعالى الوزراء وأعاظم الدولة إلى مهاودة المنصور عليه ، والانحراف عنه إليه ، آلُ أبى عبيدة[٧] وآل شُهَيد وآل فُطَيس من الخلفاء وأصحاب الرِّدَافة[٨] ، من أولى الشرف والإنافة[٩] وكانوا فى الوقت أزِمَّة الملك وقوّام الخدمة ، ومصابيح الأمة ، وأغير الخلق على جاه وحُرْمة ، فأحظَوْا محمد بن أبى عامر مشايعة ، ولبعض[١٠] أسبابه الجامعة متابعة ، وشادوا بناءه ، وقادوا إلى عنْصُره سَناءه ، حتى بلغ الأمَل ، والتحف بمناه واكتحَل ، وعند التئام هذه الأمور لابن أبى عامر استكان ، جعفر بن عثمان ،

---

(١) فى ب مكان هذه العبارة « وفى الثامنة والأربعين » وليس بشىء

(٢) في ب « ويحفلون » وهو نسخة عند ا (٣) فى ب « وتخلقوها »

(٤) فى نسخة « ولا يتقى لها راية » (٥) فى ا « وتابع »

(٦) فى ا « أسرع هذه الطائفة » (٧) في ا « عبدة »

(٨) فى ب « السدانة » (٩) فى ب « الأمانة » (١٠) فى ب « ببعض »

للحادثة ، وأيقن بالنكبة ، وزوال الحال وانتقال الرتبة ، وكفّ عن اعتراض محمد وشركته فى التدبير ، وانقبض الناسُ من الرواح إليه والتبكير ، وانثالوا على ابن أبى عامر فخف موكبه ، وغار من سماء العز كوكبه ، وتوالى عليه سعى ابن أبى عامر وطلبه إلى أن صار يغدو إلى قُرْطُبَة ويروح وليس بيده من الحجابة إلا [مجرَّدُ] اسمها ، وابن أبى عامر مشتمل على رَسْمِها ، حتى محاه ، وهتك ظله وأضحاه ، قال [محمد] بن إسماعيل : رأيته يُسَاق إلى مجلس الوزارة للمحاسبة راجلا فأقبل يدرم ، وجَوَارحُه باللواعج تَضْطرم ، وواثقٌ الضاغط ينهره ، والزَّمَعُ يقهره ، والبهر والسِّنُّ[1] قد هاضاهُ ، وقصرا خُطَاه ، فسمعته يقول : رفقا بى فستُدْرِكُ ما تحبه وتشتهيه ، وترى ما كنت ترْتَجِيه ، وياليت أن الموت يُبَاع فأغْلِيَ سَوْمَه ، حتى يَرِدَه من أطال عليه حَوْمه ، ثم قال :

لاتأمنن من الزمان تقلباً ... إن الزمان بأهله يتقلّبُ
ولَقَدْ أرانى والليوثُ تخَافنى ... فأخافَنِي من بعد ذاك الثعْلَبُ
حَسْبُ الكريمِ مذلةً ومَهَانَة ... أن لايزال إلى لئيم يطلب

فلما بلغ المجلس جلس فى آخره دون أن يسلم على أحد ، أو يومىء إليه بعين أو يد ، فلما أخذ مجلسه تسرع إليه الوزير محمد بن حَفص بن جابر فعنفه واستجفاه[2] ، وأنكر عليه تركَ السلام وجَفَاه ، وجعفر مُعْرض عنه ، إلى أن كَثُر القول منه ، فقال له : يا هذا ، جهلتَ المبرة فاستجهلت معلمها[3] ، وكفرت النعم[4] فقصدت بالأذى ولم ترهب مقدمها ، ولو أتيتُ نُكْرا ، لكان غيرك أدرى ، وقد وقعتَ فى أمر ما أظنك تخلص منه ، ولا يَسَعُكَ السكوت عنه ، ونسيت الأيادى الجميلة ، والمبرات الجليلة ،

(١) في ب ونسخة عندا « والبهر والنفس »

(٢) فى ب ونسخة عندا « واستحفاه » وفى أخرى « واستخفاه »

(٣) فى ا « فاستجهلت عالمها »

(٤) فى نسخة عندا « وكفرت اليد »

فلما سمع محمد بن حفص ذلك من قوله قال : هذا البهت بعينه ، وأىّ أياديك الغُرِّ التى منتَ بها، وعَيَّنْتَ[١] أداء واجبها ؟ أيدٌ كذا أم يد كذا ؟ وعَدَّد[٢] أشياء أنكرها منه أيام إمارته ، وتصرف الدهر طوع إشارته ، فقال جعفر : هذا ما لا يعرف ، والحق الذى لا يردُّ ولا يصرف ، دَفعى[٣] القطع عن يمناك ، وتبليغى لك إلى مُناك ، فأصَرَّ محمد بن حَفْص على الجحد ، فقال جعفر : أنشد الله من له علم بما أذكره ، إلا اعترف به فلا ينكره ، وأنا أحوج إلى السكوت ، ولا تحجب دعوتى فيه عن الملكوت ، فقال الوزير أحمد بن عباس[٤] : قد كان بعضُ ما ذكرته يا أبا الحسن ، وغيرُ هذا أولى بك ، وأنت فيما أنت فيه من مِحْنتك وطلبك ، فقال : أحرجنى الرجل فتكلمت ، وأحوجنى إلى ما به أعلمت ، فأقبل الوزيرُ ابن جَهْور على محمد بن حَفْص وقال : أسأت إلى الحاجب ، وأوجبت عليه غيرَ الواجب ، أو ما علمت أن منكوب السلطان لا يسلم على أوليائه لأنه إن فعل ألزمهم الرد لقوله تعالى : « وإذا حُيِّيتم بتحية فحيُّوا بأحسن منها أو ردُّوها » فإن فعلوا طاف بهم من إنكار السلطان ما يخشى ويخاف ، لأنه تأنيس لمن أوحش وتأمين لمن أخاف ، وإن تركوا الرد أسخطوا الله ، فصار الإمساك أحسن ، ومثل هذا لا يخفى على أبى الحسن ، فانكسر ابن حفص ، وخجل مما أتى به من النقص ، وبلغه أن قوما[٥] توجَّعوا له ، وتفجعوا مما وصله ، فكتب إليهم :

أحِنُّ إلى أنفاسكم فأظنها بواعثَ أنفاسِ الحياة إلى نفسى
وإنَّ زماناً صرتُ فيه مُقيَّداً[٦] لأثقلُ من رَضْوَى وأضيقُ من رمْسِ[٧]

انتهى ما ترجم به المنصور بن أبى عامر .

---

(١) فى ب « وعنيت أداء واجبها »
(٢) فى ب « وعين أشياء »
(٣) فى نسخة عند ا « رفعى القطع »
(٤) فى نسخة « أحمد بن عياش »
(٥) فى نسخة « وبلغه أن أقواما »
(٦) فى نسخة « صرت فيه مفندا »
(٧) فى ب « وأضيق من أمس » محرفا . والرمس : القبر

ولاية أبي مروان المظفر بن المنصور

ولنرجع فنقول : ولما توفي المنصور قام بالأمر بعده ابنهُ عبد الملك المظفر أبو مروان فجرى على سَنَن أبيه[١] في السياسة والغزو ، وكانت أيامه أعيادا دامت مدّة سبع سنين وكانت تسمى بالسابع ، تشبيها بسابع العروس ، ولم يزل مثل اسمه مظفرا إلى أن مات سنة تسع وتسعين وثلثمائة في المحرم ، وقيل : سنة ثمان وتسعين .

وكاتبه المعز بن زيرى ملك مَغْرَاوة بعد أن استرجع فاسا والمغرب إثر موت أبيه ، فكتب له العهد على المغرب ، وثارت الطوائف في ممالكهم ، وتحركت الجلالقة لاسترجاع معاقلهم وحصونهم .

ولاية عبد الرحمن الناصر لدين الله

قال ابن خلدون : ثم قام بالأمر بعده أخوه عبد الرحمن ، وتلقب بالناصر لدين الله ، وقيل : بالمأمون ، وجرى على سَنَن أبيه وأخيه[١] في الحجر على الخليفة هشام ، والاستبداد عليه ، والاستقلال بالملك دونه ، ثم ثاب له رأى في الاستئثار بما بقي من رسوم الخلافة ، فطلب من هشام المؤيد أن يوليه عهده ، فأجابه ، وأحضر لذلك الملأ من أرباب الشورى وأهل الحل والعقد ، فكان يوما مشهودا ، فكتب عهده من إنشاء أبي حفص بن بُرْد بما نصه : « هذا ما عهد به هشامٌ المؤيد بالله أمير المؤمنين إلى الناس عامة ، وعاهد اللهَ عليه من نفسه خاصة ، وأعطى به صَفْقة يمينه[٢] ، بيعةً تامة ، بعد أن أمعن النظر وأطال الاستخارة ، وأهمه ما جعل الله إليه من الإمامة ، وعَصَب[٣] به من أمر المؤمنين ، واتقى حلولَ القدر بما لا يؤمن ، وخاف نزولَ القضاء بما لا يُصْرف ، وخشي إن هجم محتومُ ذلك عليه ونزل مقدوره به ولم يرفع لهذه الأمة علماً تأوى[٤] إليه ، وملجأ تنعطف عليه ، أن يكون يلقى ربه تبارك وتعالى مُفرطا ساهيا عن أداء الحق إليها ، ونقص عند ذلك من إحياء قريش

(١) سنن أبيه ـ بفتح السين والنون جميعا ـ طريقته

(٢) أراد أنه أعطي بذلك عهده وذمته ، ووثق ما أعطاه

(٣) عصب كذا بكذا ، شده وقواه به ، وكأنه جعله له بمنزلة العصب

(٤) أوى إلى كذا يأوى ـ مثل رمي يرمي ـ إذا جعله مأوى يستتر به ويلجأ إليه من المخاوف .

وغيرها مَنْ يستحق أن يسند هذا الأمر إليه ، ويعوّل[١] فى القيام به عليه ، ممن يستوجبه بدينه وأمانته ، وهَدْيه وصيانته ، بعد أُطِّراح الهوى ، والتحرّى للحق ، والزُّلْفَى[٢] إلى الله جل جلاله بما يرضيه ، وبعد أن قطع الأواصر ، وأسخط الأقارب ، فلم يجد أحداً أجدَرَ أن يوليه عهده ، ويفوّض إليه الخلافة بعده ، لفضل نفسه وكرم خِيمِه وشرف مرتبته وعلوّ منصبه ، مع تُقَاه وعفافه ومعرفته وحزمه ، من المأمون الغيب ، الناصح الجيب ، أبى المطرِّف[٣] عبد الرحمن بن المنصور أبى عامر محمد بن أبى عامر ، وفقه الله ! إذ كان أمير المؤمنين ــ أيده الله تعالى ! ــ قد ابتلاه واختبره ، ونظر فى شأنه واعتبره ، فرآه مُسَارعاً فى الخيرات ، سابقاً فى الحَلَبات ، مستولياً على الغايات ، جامعاً للمأثُرات ، ومَنْ كان المنصور أباه ، والمظفر أخاه ، فلا غَرْوَ أن يبلغ من سُبُل البر مَدَاه ، ويحوى من خلال الخير ما حوَاه ، مع أن أمير المؤمنين ــ أيده الله ! ــ بما طالع من مكنون العلم ، ووعاه من مخزون الأثر ، يرى أن يكون ولىّ عهده القَحْطَانى الذى حدّث عنه عبد الله بن عمرو بن العاص وأبو هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : لا تقوم الساعةُ حتى يخرج رجل من قَحْطَان يسوق الناس بعصاه ، فلما استوى له الاختبار[٤] ، وتقابلت عنده فيه الآثار ، ولم يجد عنه مَذْهَباً ، ولا إلى غيره مَعْدِلا ، خرج إليه من تدبير الأمور فى حياته ، وفوّض إليه الخلافة بعد وفاته[٥] ، طائعاً راضياً مجتهداً ، وأمضى أمير المؤمنين هذا وأجازه ، وأنجزه وأنفذه ، ولم يشرط فيه مَثْنَوِيةً[٦] ولا خياراً ، وأعطى على الوفاء به فى سره وجهره وقوله وفعله عهدَ الله وميثاقه ، وذمةَ نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، وذمم الخلفاء الراشدين من آبائه ، وذمة نفسه ، أن لا يبدّل

---

(١) يعول : يعتمد (٢) فى ا « والتزلف إلى الله » والتزلف والزلفى : التقرب

(٣) فى ب ونسخة عند ا « أبى المظفر »

(٤) الاختبار : الابتلاء والامتحان والتجربة ، وفى ا « الاختيار »

(٥) فى نسخة « بعد مماته » (٦) مثنوية : استثناء .

ولا يغير ولا يحول ولا يزول ، وأَشْهَدَ الله على ذلك والملائكة ، وكفى بالله شهيداً ، وأشهد [من أوقع اسمه فى هذا][١] وهو جائز الأمر ماضى القول والفعل بمحضر من ولى عهده المأمون أبى المطرف[٢] عبد الرحمن بن المنصور وفقه الله تعالى ، وقبوله ما قَلَّده ، و إلزامه نفسَه ما ألزمه ، وذلك فى شهر ربيع الأوّل سنة ثمان وتسعين وثلثمائة ، وكتب الوزراء والقضاة وسائر الناس شهاداتهم بخطوط أيديهم ، وتسمى بعدها بولى العهد .

ونقم عليه أهلُ الدولة ذلك ، فكان فيه حَتْفه[٣] ، وانقراض دولته ودولة قومه ، وكان أسرع الناس كراهةً لذلك الأمويين والقرشيين ، فغَصّوا بأمره[٤] ، وأسِفوا من تحويل الأمر جملة من المضرية إلى اليَمَنية ، فاجتمعوا لشأنهم ، وتمشت من بعض إلى بعض رجالاتهم ، وأجمعوا أمرهم فى غيبة من المذكور ببلاد الجلالقة فى غَزَاة من صوَائفه ، ووثبوا بصاحب الشرطة فقتلوه بمقعده من باب قصر الخلافة بقُرْطُبة سنة تسع وتسعين وثلثمائة ، وخلعوا هشاماً المؤيد .

بيعة محمد بن هشام المهدى بالله

وبايعوا محمد بن هشام بن عبد الجبار ابن أمير المؤمنين الناصر لدين الله من أعقاب الخلفاء ،ولقبوه المهدى بالله ، وطار الخبر إلى عبد الرحمن الحاجبِ بن المنصور بمكانه من الثَّغْر ، فانفضَّ جمعُه ، وقفَلَ إلى الحضرة مُدِلا بمكانه ، زعيما بنفسه ، حتى إذا قرب من الحضرة تسلّل عنه الناس من الجند ووجوه البربر ، ولحقوا بقرطبة ، وبايعوا المهدى القائم بالأمر ، وأغرَوْه بعبد الرحمن الحاجب ، لكونه ماجناً مستهتراً غير صالح للأمر ، فاعترضه منهم مَنْ قبض عليه ، واحتز رأسه ، وحمله إلى المهدى و إلى الجماعة .

وذهبت دولة العامريين كأن لم تكن ، ولله عاقبة الأمور.

---

(١) هذه الكلمات لاتوجد فى ب ولا فى نسخة عند ا

(٢) فى ب ونسخة عند ا « أبى المظفر » كما فى أوائل الإشهاد .

(٣) حتفه : هلاكه وموته) (٤) غصوا ـ بالصاد المهملة ـ شرقوا .

وفى المهدى يقول بعضهم :

قَدْ قام مَهْدِيُّنَا ولكن ... بِمِلَّةِ الفسق والْمُجُونِ

وشارَكَ الناسَ فى حريم ... لولاه ما زال بالمَصُونِ

مَنْ كان من قبلُ ذا أَجَمًّا ... فاليوْمَ قد صار ذا قُرُونِ (١)

وكان رؤساء البربر وزناتة لحقوا بالمهدىّ لما رأوا من سوء تدبير عبد الرحمن وانتقاض أمره ، وكانت الأموية تعتدّ عليهم ما كان من مُظَاهرتهم العامريين ، وتنسب تغلب المنصور وغيره (٢) على الدولة إليهم ، فسخطتهم القلوب ، وخزرتهم العيون ، ولولا ما لهم من العَصَبية لاستأصلهم الناس ، ولغطت ألسنة الدهماء من أهل المدينة بكراهتهم ، وأمر المهدى أن لا يركبوا ولا يتسلحوا ، وردَّ بعض رؤسائهم فى بعض الأيام من باب القصر ، فانتهبت العامة دُورهم ، وشكا بعضهم إلى المهدى ما أصابهم ، فاعتذر [إليهم] وقتل من اتُّهم من العامة فى أمرهم ، وهو مع ذلك مظهر لبغضهم ، مُجَاهر بسوء الثناء عليهم ، وبلغهم أنه يريد الفَتْك بهم ، فتمشَّت رجالاتهم ، وأسرُّوا نجواهم ، واشتوَرُوا فى تقديم هشام بن سليمان ابن أمير المؤمنين الناصر ، وفشا فى الخاصة حديثُهم ، فعوجِلوا عن مَرامهم ذلك ، وأغرى بهم السواد الأعظم ، فثاروا بهم ، وأزعجوهم عن المدينة ، وتقبض على هشام وأخيه أبى بكر ، وأحضرا بين يدى المهدى ، فضرب أعناقهما ، ولحق سليمانُ ابن أخيهما الحكم بجنود البربر ، وقد اجتمعوا بظاهر قُرْطُبة وتوامروا ، فبايعوه ولقبوه المستعين بالله ، ونهضوا به إلى ثغر طُلَيْطلة ، فاستجاش بابن أدفونش ، ثم نهض فى جموع البرابرة والنصرانية إلى قرطبة ، وبرز إليه المهدى فى كافة أهل البلد وخاصة

ثورة على المهدى من العامريين

---

(١) فى نسخة عندنا « من كان من قبله أجما »

(٢) فى ا « المنصور وبيته » .

الدولة ، فكانت الدائرة عليهم ، واستلحم منهم ما يزيد على عشرين ألفاً ،وهلك من خيار الناس وأئمة المساجد وسَدَنتها ومؤذنيها عالَم ، ودخل المستعينُ قرطبة ختام المائة الرابعة[١] ، ولحق المهدىُّ بطليطلة ، واستجاش بابن أدفونش ثانية ، فنهض معه إلى قرطبة ، وهزم المستعينَ والبرابرة بعَقَبة البقر من ظاهر قرطبة ، ودخل قرطبة ـ أعنى المهدى ـ وملكها ، وخرج المستعينُ مع البربر ، وتفرقوا فى البسائط يَنْهبون ولا يُبْقُون على أحد ، ثم ارتحلوا إلى الجزيرة الخضراء ، فخرج المهدى ومعه ابن أدفونش لاتِّباعهم ، فكروا عليهم ، فانهزم المهدى وابن أدفونش ومن معه[٢] من المسلمين والنصارى ، واتبعهم المستعين إلى قرطبة ، فأخرج المهدى هشاماً المؤيد للناس ، وبايع له ، وقام بأمر حجابته ، ظناً منه أن ذلك ينفعه ، وهيهات ! وحاصرهم المستعينُ والبربر ، فخشى أهل قرطبة من اقتحامهم عليهم ، فأغروا أهلَ القصر وحاشيةَ المؤيد بالمهدىّ و إن الفتنة إنما جاءت من قبله ، وتولى كِبْرَ ذلك واضحٌ العامرى ، فقتلوا المهدى ، واجتمع الكافة على المؤيد ، وقام واضحٌ بحجابته ، واستمر الحصار ، ولم يغن عن أهل قرطبة ما فعلوه شيئاً ، إلى أن هلكت القرى والبسائط بقرطبة ، وعُدمت المرافق ، وجَهَدهم الحصار ، و بعث المستعين إلى أهل [ابن] أدفونش يستقدمهم[٣] لمظاهرته ،فبعث إليهم هشام وحاجبه واضح يكفُّونهم عن ذلك ، بأن ينزلوا لهم عن ثغور قَشْتَالة التى كان المنصور افتتحها ، فسكن عن مظاهرتهم عزم أدفونش ، ولم يزل الأمر حتى دخل المستعينُ قرطبة ومن معه من البربر عَنْوة سنة ثلاث وأربعمائة ، وقتل هشام سرًّا ، ولحق بيوتات قرطبة معَرّة فى نسائهم وأبنائهم، وظن المستعينُ أنْ قد استحكم أمره[٤] ، وتوثبت البرابرة[٥] والعبيد

---

(١) هكذا فى ب ونسخة عندنا ، وفى أخرى « ختام المائة الرابعة »

(٢) فى ا « ومن معهما »

(٣) فى ب ، ونسخة عند ا « يستعد بهم » وفى أخرى « يستمدهم »

(٤) استحكم أمره : تم وكمل (٥) فى نسخة عند ا « وترتبت البرابرة »

على الأعمال ، فولوا المدنَ العظيمة ، وتقلّدوا البلاد الواسعة[١] ، مثل باديس بن حَبُّوس فى غَرْناطة ، والبرزالى فى قَرْمُونة ، واليفرنى فى رُنْدَة ، وهرزون[٢] فى شَرِيش ، وافترق شَمْلُ الجماعة بالأندلس ، وصار الملك طوائف فى آخرين من أهل الدولة ، مثل ابن عباد بإشْبِيلِيَة ، وابن الأفطس ببَطَلْيَوْس ، وابن ذى النون بطُلَيْطلة ، وابن أبى عامر ببَلَنْسِيَة ، وابن هود بسَرَقُسْطة ، ومجاهد العامرى بدَانِيَة ، والجزائر ،

[قال ابن خلدون] وكان مائلا لبنى حَمُّود يهجو سليمان المستعين :

لا رحِمَ الله سُلَيْمانكم ... فإنه ضِــدّ سُلَيْمَانِ
ذاكَ به غُلَّتْ شياطينُها ... وحَلَّ هذا كلّ شَيْطَانِ
فَبِاسمِهِ ساحَتْ على أرضِنَا ... لهلك سكان وأوْطَانِ

وكان من أعظم الأسباب فى فساد دولة المستعين أنه قال هذه الأبيات مستريحا بها إلى خواصه ، وهى قوله :

حلفتُ بمن صَـلَّى وصام وكبرا ... لأغمدهـا فيمن طَغَى وتجـبَّرا[٣]
وأبصر دين الله تحيـا رسومه ... فبَدَّل ما قد كان منه وَغيّرا[٤]
فَوَاعجبا من عَبْشَمِيٍّ مملَّكٍ ... برَغْمِ العَوَالى والمعالى تَبَرْبَرا[٥]
فلو أن أمْرِى بالخيارِ نبذتُهُمْ ... وحا كَمْتُهُمْ للسَّيْف حكما مُحَرَّرَا
فإما حياة تســتلذّ بفَقْدِهِمْ ... وإما حِمَامٌ لانرى فيــه مأزرا

وقد سلك هذا المسلك المرتضى المروانى فقال :

قَدْ بَلَغَ البربرُ فِينَا بِنَا ... ما أفْسَدَ الأحْوَالَ والنُّظُمَا
كالسَّهْم للطائر لولاَ الذى ... فيــه مِنَ الرِّيشِ لمـا أصْمَى

---

(١) فى ا « الأعمال الواسعة » (٢) فى ا « وخزرون »

(٣) كان من حق العربية عليه أن يقول « لأغمدنها » بنون التوكيد ، ووقع فى نسخة عند ا « فيمن طغى وتكبرا » (٤) فى ا « فبدل ما قدلاح منها وغيرا »

(٥) عبشمى : منسوب إلى عبدشمس ، وفى نسخة عند ا « غاشمي » وفى أخرى « هاشمى »

قُومُوا بنا فى شأنهم قَوْمَةً تُزِيلُ عنَّا العَارَ والرَّغْمَا
إمَّا بها نَمْلِكُ ، أو لا نَرَى مايَرْجِــعُ الطَّرْفُ به أَعْمَى

دولة العلويين بقرطبة

وكان على بن حَمُّود الحَسَنى وأخوه قاسم من عقب إدريس مَلِكِ فاس وبانيها قد أجازوا مع البربر من العُدْوة إلى الأندلس ، فدَعَوْا لأنفسهم ، واعصوصب عليهم البربر ، فملكوا قُرْطُبة سنة سبع وأربعمائة ، وقتلوا المستعين ، ومَحَوْا ملك بنى أمية ، واتصل ذلك فى خَلَفٍ منهم سبع سنين ، ثم رجع المُلْكُ إلى بنى أمية.

وكان المستعين المذكور أديبا بليغا ، ومن شعره يعارض هرون الرشيد فى قوله :

* ملكَ الثلاثُ الآنسات عنانى *

الأبيات ـ قوله :

شعر المستعين

عجبًا يهَابُ الليثُ حدَّ سِنَانِى وأهابُ لحظَ فواترِ الأجْفَانِ *[1]
وأقارِعُ الأهوالَ لا مُتَهَيِّبًا منها سوى الإعراض والهِجْرَانِ
وتملكت نفسى ثلاثٌ كالدُّمَى زُهْرُ الوجوهِ نواعِمُ الأبدان[2]
كــكواكب الظلماء لُحْنَ لناظرى مِنْ فوق أغصانٍ على كُثْبَانِ[3]
حاكَمْتُ فيهنَّ السلوَّ إلى الهوَى فقضى بسُلْطَانٍ على سلطانى[4]
هٰذِى الهلالُ، وتلك بنتُ الْمُشْتَرِى حُسْنًا ، وهذى أُختُ غُصْنِ البان
فأبحْنَ من قلبى الحِمَى وتركننى فى عِزِّ ملكى كالأسير العانى
لا تعذِلوا ملـكا تذلل فى الهوى ذُلُّ الهوى عِزٌّ وملك ثانى
ما ضَرَّ أنِّى عَبْدُهن صَبَابة و بنو الزمان وهُنَّ من عُبْدَانى

---

(١) فى نسخة عند ا « وأهاب سحر فواتر الأجفان »

(٢) الدمى : جمع دمية وهى التمثال من العاج ، وزهر : جمع زهراء ، وهى البيضاء

(٣) فى ا « لحن لناظر » بدون ياء المتكلم ، وأراد بالأغصان قوامهن وبالكثبان أردافهن

(٤) يقع هذا البيت فى ا متأخرا عما يليه ، وفيها « إلى الصبى » وفى نسخة « عن الرضا »

إنْ لم أطِع فيهنّ سلطانَ الهوى كَلَفاً بهنّ فلستُ من مَرْوَانِ

ولاية علي بن حمود الحسنى الناصر وبقية بنى حمود

وولى الأمر بعده على بنُ حَمُّود الحسَنى ، تلقَّب بالناصر ، وخرج عليه العبيدُ و بعض المغاربة ، و بايعوا المرتضى أخا المهدى ، ثم اغتيل المرتضى ، واستقام الملك لعلى بن حَمُّود نحو عامين ، إلى أن قتلته صقالبته بالحمام سنة ثمان وأربعمائة ، فولى مكانه أخوه القاسم ، وتلقب بالمأمون ، ونازعه الأمرَ بعد أربع سنين من خلافته يحيي ابنُ أخيه ، وكان على سَبْتة ، فأجاز إلى الأندلس سنة عشر ، واحتل بمالَقَة وكان أخوه إدريس بها منذ عهد أبيهما ، فبعثه إلى سَبْتة ، ثم زحف يحيي إلى قرْطُبة فملكها سنة ثنتى عشرة وأربعمائة ، وتلقب المعتلى ، وفر عَمُّه المأمون إلى إشبيلية و بايع له القاضى ابن عباد ، واستجاش بعض البرابرة ، ثم رجع إلى قُرْطُبة سنة ثلاث عشرة وملكها ، ثم لحق[1] المعتلى بمكانه من مالَقَة ، وتغلَّب على الجزيرة الخضراء ، وتغلب أخوه إدريس على طَنْجة من وراء البحر ، وكان المأمون يعتدُّها حصنا لنفسه ، وفيها ذخائره ، فلما بلغه الخبر اضطرب ، وثار عليه أهل قرطبة ، ونَقَضُوا طاعته ، وخرج فحاصرهم فدافعوه ، ولحق بإشبيليَة فمنعوه ، وكان بها ابنه فأخرجوه إليه ، وضبطوا بلدهم ، واستبد ابنُ عباد بملكها ، ولحق المأمون بشَريشَ ، ورجع عنه البربر إلى يحيي المعتلى ابن أخيه ، فبايعوه سنة خمس عشرة ، وزحف إلى عمه المأمون فتغلب عليه ولم يزل عنده أسيراً وعند أخيه إدريس بمالَقَة إلى أن هلك بمحبسه[2] سنة سبع وعشرين ، وقيل : إنه خُنق كما سيأتى ، واستقل المعتلى بالأمر ، واعتقل بنى[3] عمه القاسم ، وكان المستكفى من الأمويين استولى على قُرْطُبة فى هذه المدة عند ما أخرج أهلها العلوية ، ثم خلع أهل قرطبة المستكفى الأموى سنة ست

---

(١) فى ا « ولحق المعتلى »

(٢) فى نسخة « إلى أن هلك عنده »

(٣) فى ا « واعتقل ابنى عمه » وما أثبتناه موافق لما فى ب ونسخة عند ا .

عشرة ، وصاروا إلى طاعة المعتلى ، واستعمل عليهم ابن عَطَّاف من قِبَله ، ثم نقضوا سنة سبع عشرة ، وصرفوا عاملهم، وبايعوا للمعتدّ [بالله] الأموى أخى المرتضى[١] ، وبقى المعتلى يردِّد لحصارهم العساكر إلى أن اتفقت الكلمة[٢] على إسلام الحصون والمدائن له ، فعلا سلطانه ، واشتدّ أمره إلى أن هلك سنة تسع وعشرين ، اغتاله أصحابه بدَسيسة ابن عَبَّاد الثائر بإشبيلية ، فاستدعى أصحابه أخاه إدريس بن على [بن حمود] من سَبْتة، وملكوه، ولقبوه المتأيد، وبايعته رُنْدة وأعمالها والمَرِيَّة والجزيرة الخضراء ، وبعث عساكِرَه لحرب أبى القاسم إسماعيل بن عَبَّاد والد المعتضد بن عباد ، فجاؤه برأسه بعد حروب ، وهلك ليومين بعد ذلك سنة إحدى وثلاثين ، وبويع ابنُه يحيى ، ولم يتم له أمر ، وبويع حسن المستنصر بن المعتلى ، وفر يحيى إلى قُمارِش فهلك بها سنة أربع وثلاثين ، ويقال : إنه قتله نجا ، وهلك حسن مسموما بيد ابنة عمه إدريس ، ثأرت منه بأخيها ، وكان إدريس بن يحيى المعتلى معتقلا بمالَقَة فأخرج بعد خطوب وبويع بها ، فأطاعته غَرْنَاطة وقَرْمونة ، ولقب العالى ، وهو الممدوح بالقصيدة المشهورة بالمغرب التى قالها فيه أبو زيد عبدُ الرحمن ابن مَقَانا[٣] الفَنْدَاقى الأشبونى من شعراء الذخيرة[٤] ، وهى :

أَلِبَرْقٍ لائحٍ من أندرين ... ذَرَفَتْ عيناكَ بالماء الْمَعِين[٥]
لعبت أسيافه عارية ... كمَخَاريقَ بأيدى اللاَّعِبين
ولِصَوْت الرَّعْدِ زَجْر وحَنِين ... ولِقَلْبى زَفَرَات وأنِين
وأنَاجِى فى الدُّجَى عاذِلَتِى ... وَيْكِ لا أسْمَعُ قولَ العاذلين[٦]
عَيَّرَتْنِى بسَقَام وضَنًى ... إنَّ هٰذَيْنِ لدين العَاشِقِين

(١) فى ب « وبايعوا المعتلى الأموى أخا المرتضى » وفى نسخة عند ا « للمعتمد الأموى » وفى أخرى « للمعتمدة الأموى »
(٢) فى ا « اتفقت الكافة » (٣) فى نسخة « بن مقاتل »
(٤) فى نسخة « من ساحل شنترة » (٥) فى نسخة « بالدمع المعين »
(٦) فى نسخة « وأنادى فى الدجى عاذلتى »

قد بَدَا لى وَضَحُ الصبحِ الْمُبِينْ فاسْقِنِيهَا قبْلَ تكبيرِ الأذِينْ
إسْقنِيهَا مُزَّةً مَشْمولةً لَبِثَتْ فى دَنِّهَا بِضْعَ سِنِين
نَثَرَ المزجُ على مَفْرِقِهَا دُرَرًا عامَتْ فعادت كالبُرِينْ
مع فِتيَانٍ كرام نُجُبٍ يَتَهَادَوْنَ رياحينَ المُجُونْ
شربوا الراح على خَدِّ رَشًا نَوَّرَ الوردُ به والياسمين(١)
وجَلَتْ آيَاتُهُ عامِدَةً سَبَجَ الشَّعْرِ على عاج الجبين
لَوَتِ الصُّدْغَ على حاجبهِ ضمةَ اللاَّمِ على عَطْفَةِ نُونْ
فترى غصنا على دِعْصٍ نَقًا وترى ليلا على صُبْحٍ مبين
وسَيُسْقَوْنَ إذا ما شَرِبُوا بأباريقَ وكأسٍ من مَعِين(٢)
ومَصَابِيحُ الدُّجَى قد طُفِئَتْ فى بقَايَا من سَوَاد الليل جُونْ
وكأنَّ الظلَّ مِسْك فى الثَّرَى وكأن الطَّلَّ دُرٌّ فى الغُصُون(٣)
والنَّدَى يقْطُر من نَرْجِسِهِ كدُمُوعٍ أسْكَبَتْهُنَّ الجُفُونْ(٤)
والثريَّا قد هَوَتْ من أفقها كقَضِيبٍ زاهرٍ من ياسمين
وانْبَرَى جنحُ الدجى عن صُبْحه كغُرَابٍ طار عن بَيْضٍ كَنِين
وكأن الشمْسَ لما أشْرَقَتْ فانثنت عنها عُيُون الناظِرِينْ
وَجْهُ إدريس بن يَحْيَى بن عَلِي بن حَمُّودٍ أمير المؤْمِنِينْ
مَلِكٌ ذو هَيْبةٍ لكنه خاشعٌ لله رَبِّ العالمين
خُطَّ بالمسْكِ عَلَى أبْوَابِهِ أُدْخُلُوهَا بسلام آمنين
فإذا ما رُفِعَتْ راياتُهُ خَفَقَتْ بين جَنَاحَىْ جَبْرَئِينْ(٥)

---

(١) فى نسخة عند ا « على خد فتى » (٢) فى ا « ويسقون إذا ما شربوا »
(٣) فى ا « وكأن النور در فى الغصون »
(٤) فى ا « أسبلتهن الجفون » وفى نسخة « نثرتهن الجفون »
(٥) جبرئين : لغة فى جبرائيل ، أمين الوحى

وإذا أشْكَلَ خطبٌ مُعْضِل صَدَعَ الشك بِمِصْبَاحِ اليقين
فبِيُسْرَاه يَسَارُ المعسرين وبيُمْنَاهُ لِوَاءُ السابقين
يا بنى أَحْمَدَ يا خيْرَ الوَرَى لأبيكم كان وفد المسلمين (١)
نزَلَ الوحىُ عليه فاحْتَبَى فى الدجا فوقهمُ الرُّوحُ الأمين (٢)
خُلقوا من ماء عَدْلٍ وتُقًى وجَميعُ الناسِ من ماءٍ وطِينْ
أُنْظُرُونَا نَقْتَبِسْ من نوركم إنه من نور ربِّ العالمين

[و] قيل : إنه أنشده إياها من وراء حجاب اقتفاءً لطريقة خلفاء بنى العباس ، فلما بلغ إلى قوله :

أُنْظُرُونَا نَقْتَبِسْ من نوركم إنه من نور ربِّ العالمين

أمر حاجبه أن يرفع الحجاب ، وقابل وجهه وجه الشاعر دون حجاب ، وأمر له بإحسان جزيل (٣) ، فكان هذا من أنبل ما يحكى عنه .

وخُلع العالى سنةَ ثمانٍ وثلاثين ، وولى ابنُ عمه محمد بن إدريس بن على ، وتلقب بالمهدى ، وتوفى سنة أربع وأربعين .

وبويع إدريس بن يحيى بن إدريس ، ولقب الموفق ، ولم يخطب له بالخلافة وزحف [إليه] العالى إدريس المخلوع الممدوح بالقصيدة السابقة ، وكان بقمارش ، فدخل عليه مالقةَ ، وأطلق أيدى عبيده عليها لحقده عليهم ، ففر كثير منهم ، وتوفى العالى سنة ست أو سبع وأربعين .

وبويع محمد بن إدريس ، ولقب المستعلى ، ثم سار إليه باديسُ بن حَبُّوس

---

(١) فى نسخة « رفد المسلمين »

(٢) فى ا « فاختبى » وفى نسخة « فاجتبى » وفى نسخة « فاجتنى »

(٣) فى نسخة « بمال جزيل »

سنة تسع وأربعين وأربعمائة ، فتغلب على مالَقَة ، وسار محمد إلى المَرِيّة مخلوعا ، ثم استدعاه أهل المغرب إلى مَليلة [فأجاز إليهم] وبايعوه سنة ست وخمسين ، وتوفى سنة ستين .

وكان محمد بن القاسم بن حَمُّود لما اعتُقل أبوه القاسم بمالَقَة سنة أربع عشرة فَرَّ من الاعتقال ولحق بالجزيرة الخضراء وملكها ، وتلقب بالمعتصم ، إلى أن هلك سنة أربعين ، ثم ملكها بعده ابنُه القاسم الواثق ، إلى أن هلك سنة خمسين ، وصارت الجزيرة للمعتضد بن عَبَّاد ، ومالَقَة لابن حبوس مزاحِمًا لابن عباد[١] .

وانقرضت دولة الأشراف الحَمُّوديين من الأندلس ، بعد أن كانوا يَدَّعون الخلافة .

قرطبة تولى عبدالرحمن بن هشام الأموى

وأما قرطبة فإن أهلها لما قطعوا دعوة الحَمُّوديين بعد سبع سنين من ملكهم وزحف إليهم القاسم بن حَمُّود فى البربر ، فهزمهم أهل قُرْطُبة ، ثم اجتمعوا واتفقوا[٢] على ردّ الأمر لبنى أمية ، واختاروا لذلك عبد الرحمن بن هشام بن عبد الجبار أخا المهدى ، وبايعوه فى رمضان سنة أربع عشرة وأربعمائة ، ولقبوه المستظهر وقاموا بأمره ، ومن شعره قوله :

طال عُمْرُ الليلِ عندى قد تولّعْتَ بصَدّى[٣]
يا غزالاً نقض العهدَ ولم يُوفِ بوَعْدِ[٤]
أنَسِيتَ العهدَ إذ بتنَا عَلَى مَفْرش وَرْدِ
واجتمعْنَا فى وِشَاحٍ وانتظَمْنَا نظمَ عِقْدِ
ونجومُ الليل تَحْكِى ذَهَباً فى لازَوَرْدِ

---

(١) في ا « مزاحما بابن عباد » وتقرأ بفتح الحاء على صيغة اسم المفعول

(٢) فى ا « وأصفقوا على رد الأمر إلى بنى أمية »

(٣) فى ا « مذ تولعت »

(٤) فى ا « نقض العهد » وفى نسخة « نقض الود ولم يوف بود »

قال الحِجَارى : لو قال « لؤلؤا فى لازوردِ » لكان أحسن تشبيهاً ، وأنشد متمثلا :

إنّا عِصَابتك الألى كنا نُكابد ما تُكابِدْ
هــذا أوانُ بُلوغنا الـــنُّعْمَى و إنجاز المواعِـدْ

وزير المستظهر يعاتبه

وكان حسان (١) بن أبى عبدة من وزراء المستظهر، ولما أكثر المستظهر دونه الاستبداد كتب إليه بقوله :

إذا غِبْتُ لم أحْضَرْ، و إن جئتُ لم أُسَلْ فسِيَّانِ منى مَشْهَدٌ ومَغيبُ
فأصْبَحْتُ تيميًّا ، وما كنت قبلها لِتَيْمٍ ، ولكنَّ الشبيهَ نَسيبُ

يشير إلى قول الأول :

ويُقْضَى الأمْرُ حين تغيب تَيْمٌ ولا يُسْتَأْذَنُونَ وهُمْ شُهُودُ

وعاتبه أيضاً بقوله :

إذا كان مِثْلِى لا يُجازَى بصَبْره فمَنْ ذا الذى بَعْدِى يُجازَى على الصَّبْرِ (٢)
وكم مَشْهَدٍ حارَبْتُ فيهِ عَدُوَّكم وأملْتُ فى حَرْبى له راحَةَ الدَّهْرِ
أخوضُ إلى أعْدائكم لُجُجَ الْوَغَى وأسْرِى إليهم حيثُ لا أحَدٌ يَسْرِى
وقَدْ نام عنهم كُلُّ مُسْتَبْطِن الحشى أكول إلى الممسى نؤم إلى الظهْرِ
فما بَالُ هذا الأمر أصْبَحَ ضائعاً وأنْتَ أمينُ الله تحكم فى الأمْرِ

وسيأتى إن شاء الله تعالى من كلام الوزير المذكور مايدلّ على عظيم قدره ، وهناك نذكر تحلية الفتح له .

ثورة على المستظهر

ثم ثار عليه لشهرين من خلافته محمدُ بن عبد الرحمن بن عبيد الله ابن أمير المؤمنين الناصر لدين الله ، فاتبعه الغَوْغَاء ،وفتك بالمستظهر، وتلقب بالمستكفى ،

---

(١) فى ب « حسن بن أبى عبيدة »
(٢) فى ب ونسخة عند ا « لايجار بصبره » وفى نسخة أخرى « لايجازى »

واستقلّ بأمر قُرْطُبة ، وهو والد الأديبة الشهيرة ولاّدة ، ولعلنا نُلم ببعض أخبارها إن شاء الله تعالى فيما بعد ، وكان أبوهُ عبد الرحمن قتله المنصور بن أبى عامر لسعيه فى الخلافة .

ثم بعد ستة عشر شهراً من بيعة المستكفى رجع الأمر إلى المعتلى يحيى ابن على بن حَمُّود سنة ست عشرة ، وخلع أهلُ قرطبة المستكفى ، وولى عليهم المعتلى من قبله ، وفر المستكفى إلى ناحية الثغر ، ومات فى مَفَرِّه ، ثم بدا لأهل قُرْطُبة فخلعوا المعتلى بن حَمُّود سنة سبع عشرة ، وبايع الوزير أبو محمد جَهْوَر ابن محمد بن جهور عميد الجماعة وكبير قرطبة لهشام بن محمد أخى المرتضى ، وكان بالثغر فى لارِدَةَ عند ابن هُود ، وذلك سنة ثمان عشرة ، وتلقب المعتدّ[١] بالله ، وأقام متردداً فى الثغر ثلاثة أعوام ، واشتدت الفتن بين رؤساء الطوائف ، واتفقوا على أن ينزل دار الخلافة بقرطبة ، فاستقدمه ابن جَهْور والجماعة ، ونزلها[٢] آخِرَ سنة عشرين ، وأقام بها يسيراً ، ثم خلعه الجند سنة ثنتين وعشرين ، وفر إلى لارِدَةَ فهلك بها سنة ثمان وعشرين .

ملوك الطوائف

وانقطعت الدولة الأموية من الأرض ، وانتثر سلك الخلافة بالمغرب ، وقام الطوائفُ بعد انقراض الخلائف ، وانتزى الأمراء والرؤساء من البربر والعرب والموالى بالجهات ، واقتسموا خُطَّتها ، وتغاب بَعْضٌ على بعض ، واستقل أخيراً بأمرها منهم ملوك استفحل أمرهم وعظم شأنهم ، ولاذوا بالجِزَى[٣] للطاغية أن يظاهر عليهم أو يبتزهم ملكهم ، وأقاموا على ذلك برهة من الزمان ، حتى قطع إليهم[٤] البحرَ ملكُ العُدْوة وصاحبُ مراكش أمير المسلمين يوسف ابن تاشفين اللَّمْتُونى ، فخلعهم ، وأخلى منهم الأرض .

(١) فى ب و نسخة عند ا « المعتمد بالله »

(٢) فى ا « ونزل آخر سنة عشرين »

(٣) الجزى : جمع جزية ، بكسر فسكون ، وهى مقدار من المال يعطونه فى نظير حمايتهم (٤) فى ب « حتى قطع عليهم »

بنو عباد ملوك إشبيلية

فمن أشهرهم بنو عَبَّاد ملوك إشبيلية وغرب[1] الأندلس الذين منهم المعتمد بن عباد الشهير الذكر بالمغرب والمشرق ، وفى الذخيرة والقلائد من أخباره ما هو كاف شاف .

بنو جهود فى قرطبة ثم بنو عباد

ومنهم بنو جَهْوَر ، كانوا بقرطبة فى صورة الوزارة ، حتى استولى عليهم المعتمد بن عَبَّاد ، وأخذ قرطبة ، وجعل عليها ولده ، ثم كانت له وعليه حروب وخطوب ، وفرق أبناءه على قواعد الملك ، وأنزلهم بها ، واستفحل أمره بغرب الأندلس ، وعَلَتْ يدُه على من كان هنالك من ملوك الطوائف ، مثل ابن حَبُّوس[2] بغَرْنَاطة ، وابن الأفطس ببَطَلْيَوْسَ ، وابن صُمَادح بالمرِيَّة ، وغيرهم ، فكانوا يخطبون سِلْمه ، و يغلون فى[3] مرضاته، وكلهم يُدَارون الطاغية و يَتَّقونه بالجزَى ، إلى أن ظهر يوسف بن تاشفين ، واستفحل ملكه ، فتعلقت آمال الأندلس بإعانته ، وضايقهم الطاغية فى طلب الجِزْية ، فقتل المعتمدُ اليهوديَّ الذى جاء فى طلب الجزية للطاغية ، بسبب كلمة [قالها] آسَفَه بها ، ثم أجاز البحر صريخاً إلى يوسف ابن تاشفين ، فأجاز معه البحر ، والتقوا مع الطاغية فى الزَّلَّاقة ، فكانت الهزيمة المشهورة على النصارى ، ونصر الله تعالى الإسلام نصراً لا كفاء له ، حتى قال بعض المؤرخين : إنه كان عدد النصارى ثلثمائة ألف ، ولم ينج منهم إلا القليل ، وصبر فيها المعتمدُ صَبْرَ الكرام ، وكان قد أعطى يوسفَ بن تاشفين الجزيرة الخضراء ليتمكن من الجواز متى شاء ، ثم طلب الفقهاء بالأندلس من يوسف ابن تاشفين رَفْعَ المكوس والظلامات عنهم، فتقدم بذلك إلى ملوك الطوائف، فأجابوه بالامتثال ، حتى إذا رجع من بلادهم رجعوا إلى حالهم ، وهو خلالَ ذلك يُرَدِّد

---

(١) فى ب « ملوك إشبيلية فى غرب الأندلس »

(٢) فى ب «مثل ابن باديس » وهى نسخة عند ا

(٣) فى نسخة «ويعملون فى مرضاته » وفى أخرى« ويعتملون »

سقوط دولة المعتمد بن عباد

عساكره للجهاد ، ثم أجاز إليهم وخلع جميعهم ، ونازلت عساكره جميعَ بلادهم ، واستولى على قُرْطُبة و إشبيلية و بَطَلْيَوْسَ وغَرْنَاطة وغيرها ،وصار المعتمدُ بن عباد كبيرُ ملوك الأندلس فى قبضته أسيراً بعد حروب ، ونقله إلى أغْمَاتَ قرب مراكش سنة أربع وثمانين وأربعمائة ، واعتقله هنالك إلى أن مات سنة ثمان وثمانين وسنلم بما قاله الوزير لسان الدين بن الخطيب فيه لما زار قبره[١] .

بعض أخبار المعتمد

وللمعتمد هذا أخبار مأثورة خصوصاً مع زوجته أمِّ أولاده الرميكية الملقبة باعتماد ، وقد روى أنها رأت ذات يوم بإِشْبِيلِيَة نساءَ البادية يَبِعْنَ اللبنَ فى القِرب وهنَّ رافعات عن سوقهنّ فى الطين ، فقالت له : [يا سيدى] أشتهى أن أفعل أنا وجوارىَّ مثلَ هؤلاء النساء ، فأمر المعتمد بالعنبر والمسك والكافور وماء الورد ، وصُيِّر الجميعُ طيناً فى القصر ، وجعل لها قِرَباً وحبالا من إبريسم ، وخرجت هى وجواريها تخوض فى ذلك الطين ، فيقال : إنه لما خُلع وكانت تتكلم معه مرة فجرى بينهما مايجرى بين الزوجين، فقالت له : والله ما رأيت [منك] خيراً، فقال لها : ولا يوم الطين ؟ تذكيراً لها بهذا اليوم الذى أباد فيه من الأموال مالا يعلمه إلا الله تعالى ، فاستحيت وسكتت .

[وولى بعده غَيْرَ من تقدم بنو رَزِين أصحابُ السَّهْلة ، و بنو الفهرى أصحاب البونت ، وتغلب عليهما أخيراً يوسف بن تاشفين][٢] .

بنو ذى النون ملوك طليطلة

ومن أعظم ملوك الطوائف بنو ذى النون ملوك طُلَيْطلة من الثغر الجَوْفى ، وكانت لهم دولة كبيرة ، و بلغوا فى البذخ والتَّرَف إلى الغاية ، ولهم الإعذار المشهور الذى يقال له « الإعذار الذُّنُّونى » و به يضرب المثل عند أهل المغرب ، وهوعندهم بمثابة عُرْس بُورَانَ عند أهل المشرق ، والمأمون من بنى ذى النون

(١) فى ا « حين زار قبره »

(٢) هذه الزيادة عن ب ونسخة عند ا

هوصاحب ذلك ، وهو الذى عظم بين ملوك الطوائف سُلْطَانُه ، وكان بينه [١] و بين الطاغية مواقف مشهورة ، وغلب على قُرْطُبة ،وملكها من يد ابن عَبَّاد المعتمد، وقتل ابنه أبا عمرو ، وغلب أيضاً على بَلَنْسِيَة وأخذها من يد بنى ابن أبى عامر .

وفى أيام حافد المأمون- وهو القادر بن ذى النون - كان الطاغية ابن أدفونش قد استفحل أمره ، لما خلا الجوّ من مكان الدولة [٢] الخلافية ، وخف ما كان على كاهله من إصر العرب ، فاكتسح البسائط ، وضايق ابن ذى النون ، حتى أخذ من يده طُلَيْطلة ، فخرج له عنها سنة ثمان وسبعين وأربعمائة كما سبق ، وشرط عليه أن يُظَاهره على أهل بَلَنْسِية، فقبل شرطه ، وتسلمها [ابن] الفونش، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

[ومن أعظم ملوك الأندلس الموالى العامريون مثل خيران وزهير وأشباههما ، وأخبار الجميع تطول] [٣] .

بنو هود ملوك سرقطة

ومن ملوك الطوائف بالأندلس بنو هُود ملوكُ سَرَقُسْطَة وماإليها ، ومن أشهرهم المقتدر بالله، وابنه يوسف المؤتمن، وكان المؤتمن قائماً على الأمور [٤] الرياضية ، وله فيها تآليف ، ومنها كتاب الاستكمال [٥] والمناظر، وولى بعده ابنه المستعين أحمد سنة أخذ طُلَيْطلة ، وعلى يده كانت وقعة وَشْقَة [وكان] زَحْفَ سنة تسع وثمانين فى آلاف لا تُحْصَى من المسلمين ليدافع الطاغية عن وَشْقَة ، وكان محاصِراً لها، فلقيه الطاغية وهزمه ، وهلك من المسلمين نحو عشرة آلاف ، وهلك هو شهيداً سنة ثلاث وخمسمائة ، بظاهر سَرَقُسْطة فى زحف الطاغية إليها ، وولى ابنُه عبد الملك عماد الدولة ، وأخرجه الطاغية من سَرَقُسْطة سنة ثنتى عشرة ، وتولى ابنه سَيْف

---

(١) فى ا « وكانت بينه وبين الطاغية » (٢) فى ب « مكانة الدولة الخلافية »

(٣) سقطت هذه العبارة من نسخة عند ا ، وتوجد فى نسخة عندها ، وفى ب مكان هذه العبارة « ثم زحف على الموالى العامزيين . إلخ »

(٤) فى ا «العلوم الرياضية » (٥) فى نسخة « الاستهلال والمناظر »

الدولة ، وبالغ فى النكاية بالطاغية ، ثم اتفق معه ، وانتقل بحَشَمه إلى طُلَيْطلة ، فكان فيها حِمامه [١] .

ومن شعر المقتدر بن هود قوله رحمه الله فى مبانيه :

قَصْرَ السرور ومَجْلسَ الذَّهَبِ بكما بَلَغْتُ نهايَةَ الأرب
لولم يَحُزْ ملكى خلافكما كانَتْ لدىَّ كفايَةُ الطلب

بنو الأفطس ملوك بطليوس

ومن مشاهير ملوك الطوائف [٢] بنو الأفطس أصحاب بَطَلْيَوْسَ وما إليها ، والمظفر منهم هو صاحب التأليف المسمى بالمظفرى فى نحو الخمسين مجلداً ، والمتوكل منهم قتل على يد جيش يوسف بن تاشفين ، وفيه قال ابن عَبْدُون قصيدته المشهورة :

الدهرُ يَفْجَعُ بعد العَيْن بالأثر فمَا البكاءُ على الأشباح والصُّوَرِ

وهى من غرر القصائد [الأندلسية] [٣] .

[ولما استولى ملوك لَمْتُونة على بلاد الأندلس] [٤] وأزالوا ملوك الطوائف منها ، و بقيت عمالهم تتردد إليها و بنوهم حتى فَشِلَتْ ريحهم ، وهبت ريح الموحدين ، أعنى عبد المؤمن بن على و بنيه ، فحاربوا لَمْتُونَةَ ، واستولوا على ملكهم بالمغرب بعد حروب كثيرة ، ثم أجازوا البحر إلى الأندلس ، وملكوا أكثر بلاد الأندلس ، وملك بنو مَرْدَنيش شرق الأندلس [وملخص ذلك أن الأندلس] [٤] كان ملكها مجموعا لِلَمْتُونَةَ بعد خلعهم ملوك الطوائف ، فلما اشتغل لَمْتُونَةَ فى العُدْوة بحرب الموحِّدين اضطربت عليهم الأندلس ، وعادت إلى الفرقة بعضَ الشىء ، ثم خلص أكثرها لعبد المؤمن و بنيه بعد حروب منها ما حصل بين عبد المؤمن و بين ابن مَرْدَنيش وقائده ابن هَمُشْك [٥] بفَحْص غَرْناطة ، وقد استعان ابنُ مردنيش

(١) الحمام - بكسر الحاء المهملة - الموت

(٢) فى نسخة عند ا « ومن مشاهير ملوك الأندلس بنى الأفطس » وفى أخرى « ومن مشاهير ملوك بنى الأفطس - إلخ » وكذلك وقع فى ب

(٣) كلمة « الأندلسية » لاتوجد فى أصل ا

(٤) مابين الحاصرتين ساقط من ب ومن نسخة عند ا (٥) فى ب « ابن همشكة »

بالنصارى على الموحّدين ، فهزمهم عبدُ المؤمن ، وقتلهم أبْرَحَ قَتْلٍ ، واستخلص غَرْنَاطة سنة سبع وخمسين وخمسمائة من يد ابن مَرْدَنِيش ، وولى الأمر بعد عبد المؤمن ابنُه يوسف ، وأجاز إلى الأندلس ، وكانت له مواقف فى جهاد العدوّ ، ووِلى بعده ابنُه يعقوب المنصور الطائر الصيت ، وكانت له فى النصارى بالأندلس نكاية كبيرة ، ومن أعظمها غزوة الأرك[1] التى تُضَاهِى وقعة الزلّاقة أو تزيد ، والأرك : موضع بنواحى بَطَلْيَوْسَ ، وكانت سنة إحدى وتسعين وخمسمائة ، وغنم فيها المسلمون ما عظم قدره ، وكان عدّة مَنْ قُتل من الفرنج — فيما قيل — مائة ألف وستة وأربعين[2] ألفاً ، وعدّة الأسارى ثلاثين ألفاً ، وعدّة الخيام مائة ألف وخمسين ألف خيمة ، والخيل ثمانين ألفاً ، والبغال مائة ألف ، والحمير أربعمائة ألف ، جاء بها الكفار لحمل أثقالهم لأنهم لا إبل لهم ، وأما الجواهر والأموال فلا تحصى ، وبيع الأسير بدرهم ، والسيف بنصف درهم ، والفرس بخمسة دراهم ، والحمار بدرهم ، وقسم يعقوب الغنائم بين المسلمين بمقتضى الشرع ، ونجا الفنش ملكُ النصارى إلى طُلَيْطلة فى أسوأ حال ، فحلق رأسه ولحيته ، ونكس صليبه ، وآلى أن لا ينام على فراش ، ولا يقرب النساء ، ولا يركب فرساً ولا دابة ، حتى يأخذ بالثار[3] ، وصار يجمع من الجزائر والبلاد البعيدة ويستعدّ ، ثم لقيه يعقوب وهزمه وساق خلفه إلى طُلَيْطلة وحاصره ورمى عليها بالمجانيق وضيق عليها ، ولم يبق إلا فتحُها ، فخرجت إليه والدة الأدفونش وبناته [ونساؤه] وبكَيْنَ بين يديه ، وسألنه إبقاء

يعقوب المنصور ابن يوسف أحد ملوك الموحدين

---

(١) ضبطها فى الروض ضبط قلم بفتح الهمزة والراء ، وقال « حصن منيع بمقربة من قلعة رباح أول حصون إذفونش بالأندلس ؛ وهناك كانت وقعة الأرك على صاحب قشتالة وجموع النصارى ، على يد المنصور يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن ملك المغرب ، فى سنة إحدي وتسعين وخمسمائة » اﻫ وذكر بعد ذلك أسباب الوقعة وتفصيل حوادثها .

(٢) فى نسخة عند ا « وستة وخمسين ألفا » وهى فى نسخة عند ب أيضا .

(٣) فى ا « حتى يأخذ الثأر »

البلد عليهن ، فرقَّ لهن ، ومَنَّ عليهن بها ، ووهب لهن من الأموال والجواهر ما جَلَّ، وردَّهُنَّ مكرمات ، وعفا بعد القدرة ، وعاد إلى قُرْطُبة ، فأقام شهراً يقسم الغنائم وجاءته رسُلُ الفنش بطلب الصلح ، فصالحه ، وأمَّنَ الناس مدَّته ، وفيه يقول بعض شعراء عصره :

أَهْلٌ بأن يُسْعَى إليه ويُرْتجى ... ويُزارمن أقصى البلاد على الرَّجا

مَنْ قد غدا بالمكرُمَاتِ مقلداً ... ومُوَشَّحَا ومختما ومُتوَّجَا

عمرت مقاماتُ الملوكِ بذكره ... وتعطَّرَتْ منه الرِّيَاحُ تأرجا

ولما أرسل له السلطان صلاح الدين بن أيوب شمسَ الدين بن مُنْقذ يستنجد به على الفرنج الخارجين عليه بساحل البلاد المقدّسة ، ولم يخاطبه بأمير المؤمنين ، لم يُجبه[1] إلى ما طلبه ، وكل ذلك فى سنة ٥٨٧ ، ومدحه ابنُ منقذ بقوله من قصيدة :

ابن منقذ رسول صلاح الدين الأيوبى إلى يعقوب

سأشكُرُ بَحْراً ذا عُباب قطَعْتهُ ... إلى بحر جُودٍ ما لأخراه سَاحِلُ

إلى مَعْدِنِ التَّقْوى إلى كَعْبَةِ النَّدَى ... إلى مَنْ سَمَتْ بالذكر منه الأوائلُ

إليك أميرَ المؤمنِينَ ولم تزَلْ ... إلى بَابِكَ المأمولِ تُزْجَى الرَّوَاحِلُ

قطعْتُ إليك البر والبحرَ مُوقِناً ... بأن نَداكَ الغمْرَ بالنُّجْحِ كافِلُ

وحُزْتُ بقَصْدِيكَ العُلاَ فبلَغْتُها ... وأدْنَى عطايَاكَ العُلاَ والفوَاضِلُ

فلا زلتَ للعَلْيَاء والجُودِ بانياً ... تبلِّغُكَ الآمالُ ما أنْتَ آمِلُ

وعدّتها أربعون بيتاً ، فأعطاه بكل بيت ألفاً ، وقال له : إنما أعطيناك لفضلك ولبيتك .

وكان عنوان الكتاب الذى أرسله صلاح الدين « إلى أمير المسلمين » وفى أوّله « الفقير إلى الله تعالى يوسف بن أيوب » وبعده من إنشاء الفاضل « الحمد لله الذى استعمل على الملة الحنيفية من استعْمَرَ الأرض ، وأغنى من أهلها مَنْ سأله

(١) فى ا ، ب ، ز « فلم يجبه » والفاء لا موضع لها ههنا

القَرْض ، وأجزى مَنْ أجرى على يده النافلة والفرض ، وزَيَّنَ سماء الملة بدرارى الذرارى التى بعضُها من بعض » وهو كتاب طويل سأله فيه أن يَقْطع عنه مادة البحر ، واستنجده على الإفرنج إذ كانت له اليد عليهم ، وعاد ابن منقذ من هذه الرسالة سنة ٥٨٨ بغير فائدة ، و بعث معه هدية حقيرة ،وأما ابن منقذ فإنه أحسن إليه وأغناه ، لا لأجل صلاح الدين ، بل لبيته وفضله كما مر ، وما وقع من يعقوب فى صلاح الدين إنما هو لأجل أنه لم يُوَفّه حقه فى الخطاب .

رجع ـ ولما استفحل أمر الموحِّدين بالأندلس استعملوا القَرَابة على الأندلس وكانوا يُسَمّونهم السادة ، واقتسموا ولايتها بينهم ، ولهم مواقف فى جهاد العدوّ مذكورة ، وكان صاحب الأمر بمراكش يأتى الأندلس للجهاد ، وهزم يعقوبُ المنصورُ كما سبق قريباً بالأرك ابنَ أدفونشَ ملك الجلالقة الهزيمةَ الشنعاء .

الناصر ابن يعقوب

وأجاز ابنه الناصر الوالى بعده البحرَ إلى الأندلس من المغرب سنة تسع وستمائة ومعه من الجنود ما لا يحصى ، حتى حكى[١] بعض الثقات من مؤرخى المغرب أنه اجتمع معه من أهل الأندلس والمغرب ستمائة ألف مقاتل ، فمحص[٢] الله المسلمين بالموضع المعروف بالعقاب[٣] ، واستُشْهِد منهم عِدّة ، وكانت سببَ ضعف المغرب والأندلس ، أما المغرب فبِخَلاَءِ كثير من قُرَاه وأقطاره ، وأما الأندلس فبطلب العدوّ عليها ، لأنه لما التاث[٤] أمرُ الموحدين بعد الناصر ابن المنصور انتزى[٥] السادة بنواحى الأندلس كلّ فى عمله ، وضعف ملكهم بمراكش ،فصاروا إلى الاستجاشة[٦] بالطاغية بعضهم على بعض ، وإسلام حصون المسلمين إليه فى ذلك ، فمشت رجالات الأندلس وأعقابُ العرب منذ الدولة الأموية ، وأجمعوا على إخراجهم ،

(١) فى ا «حتى يحكى بعض الثقات» (٢) محصهم : ابتلاهم واختبرهم

(٣) قال فى الروض « العقاب ـ بكسر العين ـ بالأندلس بين جيان وقلعة رباح وكانت فى هذا الموضع موقعة عظيمة وهزيمة على المسلمين شنيعة فى منتصف صفر ٦٠٩ » اه (٤) التاث أمرهم : اختلط واضطرب

(٥) انتزوا : تفلتوا وذهبوا (٦) الاستجاشة : الاستعانة وطلب المدد

فساروا به لحين واحد ، وأخرجوهم ، وتولى كِبْرَ ذلك محمد بن يوسف بن هود الجُذَامى الثائر بالأندلس وابن مَرْدَنيش وثوّار آخرون .

ابن الأحمر محمد بن يوسف

وقال ابن خلدون : ثم خرج على ابن هود فى دولته من أعقاب دولة العرب أيضاً وأهل نسبهم محمد بن يوسف بن نصر المعروف بابن الأحمر ، وتلقب محمد هذا بالشيخ ، فجاذبه الحبل ، وكانت لكل واحد منهما دولة أورثها بنيه ، انتهى .

وكان ابن هود يخطب للعباسى صاحب بغداد ، ثم حصلت لابن هود وأعقابه حروبٌ وخطوب إلى أن كان آخرهم الواثق بن المتوكل ، فضايقه الفنش والبرشلونى فبعث بالطاعة لابن الأحمر ، فبعث إليه ابن أشقيلولة ، وتسلم مُرْسِيَةَ منه ، وخطب لابن الأحمر بها ، ثم خرج منها راجعاً إلى ابن الأحمر ، فأوقع به النصارى فى طريقه ، ثم رجع(١) الواثق إلى مُرْسِية ثالثة ، فلم يزل إلى أن ملكها العدو من يده سنة ثمان وستين وستمائة ، وعوضه عنها حصنا يسمى يُسْر ، وهو من عملها ، فبقى فيه إلى أن هلك . وانقرضت دولة ابن هود ، والله وارثُ الأرضِ ومَنْ عليها .

رجع(٢) إلى ذكر دولة أولاد الأحمر ، لأن لسان الدين وزير أحدهم ، ولأنهم آخر ملوك الأندلس ، ومن يدهم استولى النصارى على جميعها كما سنذكره ، قال ابن خلدون : أصلهم من أرْجُونَةَ من حصون قُرْطُبة ، ولهم فيها سَلَفٌ من أبناء الجند ، ويعرفون ببنى نصر ، وينتسبون إلى سعد بن عُبَادة سيد الخزرج ، وكان كبيرهم لآخر دولة الموحِّدين محمد(٣) بن يوسف بن نصر ، ويعرف بالشيخ ، وأخوه إسماعيل وكانت له وجاهة فى ناحيتهم .

ولما فشلت ريح الموحِّدين ، وانتزى الثوار بالأندلس ، وأعطى السادة

---

(١) فى ا « ورجع الواثق »

(٢) فى ا « ولنذكر ملوك بنى الأحمر إجمالا »

(٣) فى ب ونسخة عند ا « نصر بن يوسف » وأثبتنا ما فى أصل ا

حصونها للطاغية ، واستقل بأمر الجماعة محمد بن يوسف بن هود الثائر بمُرْسِية بدعوة العباسية ، وتغلب على شرق الأندلس أجمع ، فتصدى الشيخ هذا للثورة [عليه](١) وبويع له سنة تسع وعشرين وستمائة ، ودعا لأبى زكرياء صاحب إفريقية ، وأطاعته جَيَّان وشَرِيش سنة ثلاثين بعدها، واستظهر(٢) على أمره بقرابته من بنى نصر وأصهاره بنى أشقيلولة ، ثم بايع لبنى هُود سنة إحدى وثلاثين ، عندما بلغه خطاب الخليفة من بغداد ، ثم ثار بإشبيلية أبو مَرْوَان الباجى عند خروج ابن هود عنها ورجوعه إلى مُرْسِية ، فداخله محمد بن الأحمر فى الصلح على أن يزوّجه ابنته ، فأطاعه ، ودخل إشبيلية سنة اثنتين وثلاثين ، ثم فتك بابن الباجى فقتله ، وتناول البطش(٣) به على بن أشقيلولة ، ثم راجع أهل إشبيلية بعدها بشهر دعوة ابن هُود ، وأخرج ابن الأحمر ، ثم تغلب على غَرْنَاطة سنة خمس وثلاثين بمُدَاجاة أهلها(٤) حين ثار ابنُ أبى خالد بدعوته فيها ، ووصلته بيعتها وهو بجَيَّان ، فقدم إليها على ابن أشقيلولة ، ثم جاء على إثره ، ونزلها ، وابتنى بها حصن الحمراء لنزوله(٥) ، ثم تغلب على مالَقَة ، ثم تناول المرِيَّة من يد ابن الرميمى وزير ابن هود الثائر بها سنة ثلاث وأربعين ، ثم بايعه أهلُ لُورقَة سنة ثلاث وستين ، وكان ابن الأحمر أولَ أمره وَصَل يدَه بالطاغية استظهاراً على أمره(٢)، فعضده وأعطاه ابن هود ثلاثين حصناً فى كَفِّ غَرْبه(٦) بسبب ابن الأحمر ، وليعينه على ملك قُرْطُبة ، فتسلمها ، ثم تغلب على قُرْطُبة سنة ثلاث وثلاثين وستمائة ، أعادها الله ! ثم نازل إشبيليَةَ سنة ست وأربعين وابنُ الأحمر معه ، ثم دخلها صلحاً ، وملك أعمالها ، ثم ملك مُرْسِيَة سنة خمس وستين ، ولم يزل الطاغية يقتطع ممالك المسلمين كورةً كورة وثغراً ثغراً

---

(١) هذه الكلمة لاتوجد فى أصل ا
(٢) استظهر به : تقوى به ، وكأنه جعله لنفسه ظهرا يحميه
(٣) فى نسخة عند ا « الفتك به » (٤) فى ا « بمداخلة أهلها »
(٥) فى ا « لنزله »
(٦) كف : منع ، وغربه : حدته وشدته وقوته

إلى أن ألجأ المسلمين(١) إلى سِيفِ البحر ما بين رُنْدَةَ من الغرب والبيرة من شرق الأندلس نحو عشر مَرَاحل [من الغرب إلى الشرق ، وفى قدر مرحلة أو دونها فى العرض ما بين البحر والجوف] ثم سخط ابن الأحمر وطمع فى الاستيلاء على سائر الجزيرة فامتنعت عليه ، وتلاحق بالأندلس الغُزَاة من بنى مَرِين وغيرهم ، وعَقَد ملكُ المغرب يعقوب بن عبد الحق لنحو الثلاثة آلاف منهم ، فأجازوا فى حدود الستين وستمائة ، وتقبل ابن الأحمر إجازتهم ، ودفع بهم فى نَحْرِ عدوه ، ورجعوا ، ثم تناسلوا(٢) إليه بعد ذلك ، ولم يزل الأمر على ذلك إلى أن هلك الشيخ ابن الأحمر سنة إحدى وسبعين وستمائة ، وولى بعده ابنه محمد الفقيه ، وأوصاه باستصراخ بنى مَرِين ملوك المغرب بعد الموحدين إن طرقه أمر أن يعتضد بهم ، فأجاز الفقيه إلى يعقوب ابن عبد الحق سلطان فاس والمغرب سنة ثنتين وسبعين ، فأجاب صريخه ، وأرسل ابنه وعساكره معه ، ثم أجاز على إثره وتسلّم الجزيرة الخضراء من ثائر كان بها وخطها(٣) ركابا لجهاده ، ونزل إليه ابنُ الأحمر عن طريف وما إليها من الحصون ، وهزم هو وابنُ الأحمر زعيمَ النصرانية دننة وفرق جمعه ، وأوقع بجموع الطاغية من كل جهة ، و بث سراياه و بُعوثه فى أرض النصرانية ، ثم خاف(٤) ابنُ الأحمر على ملكه ، وصالح الطاغية ثم عاد ، انتهى كلام ابن خلدون ملخصاً .

وثبتت [قدم] عقب ابن الأحمر بالأندلس ، واستولوا على جميع ما بأيدى المسلمين من ملكها مثل الجزيرة وطريف ورُنْدَة التى كانت بيد بنى مَرِين

وقعة دون بطره

و بعد مدة أَلَّبَ ملوكُ النصارى سنة تسع عشرة وسبعمائة على غَرْنَاطة ، وجاءها الطاغية دون بِطْرُه فى جيش لا يُحْصَى ومعه خمسة وعشرون ملكا ، وكان من خبر هذه الوقعة أن الإفرنج حَشَدوا وجمعوا وذهب سلطانهم دون بِطْرُه إلى طُلَيْطلة ، ودخل على

---

(١) فى ا « إلى أن لجأ المسلمون — إلخ »

(٢) هكذا فى ب ونسخة عند ا ، وفى أصل ا « تسايلوا »

(٣) فى ا « وجعلها ركابا لجهاده » (٤) فى ا « ثم خافه ابن الأحمر »

مرجعهم الذى يقال له البابا ، وسجد له ، وتضرع ، وطلب منه استئصال ما بقى من المسلمين بالأندلس ، وأكد عزمه ، فقلق المسلمون بغرناطة وغيرها ، وعزموا على الاستنجاد بالْمَرِينى أبى سعيد صاحب فاس ، وأنفذوا(١) إليه رُسُلاً ، فلم ينجع ذلك الدواء ، فرجعوا إلى أعظم الأدوية وهو اللَّجَأ إلى الله تعالى ، وأخلصوا النيات ، وأقبل الإفرنج فى جموعٍ لاتحصى ، فقضى ناصر مَنْ لا ناصر له سِواه بهزم أمم النصرانية ، وقتل طاغيتهم دون بِطْره ، ومن معه ، وكان نصرا عزيزا ويوما [مشهورا](٢) مشهودا

وكان السلطان إذ ذاك بالأندلس الغالب بالله أبو الوليد إسماعيل بن الرئيس أبى سعيد فرج بن نصر المعروف بابن الأحمر رغب أن يحصن البلاد والثغور ، فلما بلغ النصارى ذلك عزموا على منازلة الجزيرة الخضراء ، فانتدب السلطان ابن الأحمر لردّهم ، وجهز الأساطيل والرجال ، فلما رأوا ذلك طلبوا إلى طُلَيْطلة ، وعزموا على استئصال المسلمين [و بلادهم](٢) وتأهبوا لذلك غاية الأهبة ، ووصلت الأثقال والمجانيق وآلات الحصار والأقوات فى المراكب ، ووصل العدو إلى غَرْنَاطة ، وامتلأت الأرض بهم ، فتقدم السلطان إلى شيخ الغُزَاة الشيخ العالم أبى سعيد عثمان بن أبى العلاء الْمَرِينى بالخروج إلى لقائهم بأنجاد المسلمين(٣) وشجعانهم ، فخرج إليهم يوم الخميس الموفى عشرين لربيع الأول .

ولما كان ليلة الأحد أغارت سَرِيَّةٌ من العدو على ضيعة(٤) من المسلمين ، فخرجت إليهم جماعة من فرسان الأندلس الرماة ، فقطعوهم عن الجيش ، وفرت تلك السرية أمامهم إلى جهة سلطانهم ، فتبعهم المسلمون إلى الصبح ، فاستأصلوهم وكان هذا أول النصر .

---

(١) فى ا « ونفذوا إليه رسلا » (٢) هذه الكلمة ساقطة من ا

(٣) أنجاد ــ بفتح الهمزة ــ جمع نجد، وهو الشجاع (٤) فى ب «على سرية من المسلمين»

ولما كان يوم الأحد ركب الشيخ أبو سعيد لقتال العدو فى خمسة آلاف من أبطال المسلمين المشهورين ، فلما شاهدهم الفرنج عجبوا من إقدامهم مع قلتهم فى تلك الجيوش العظيمة ، فركبوا وحملوا بجُمْلتهم عليهم ، فانهزم الفرنج أقبحَ هزيمة ، وأخذتهم السيوفُ ، وتبعهم المسلمون يقتلون و يأسرون ثلاثة أيام ، وخرج أهل غَرْنَاطة لجمع الأموال ، وأخْذِ الأسرى ، فاستولوا على أموال عظيمة منها من الذهب ـ فيما قيل ـ ثلاثة وأربعون قنطارا ، ومن الفضة مائة وأربعون قنطارا ، ومن السَّبى سبعة آلاف نفس حسبما كتب بذلك بعض الغرناطيين إلى الديار المصرية ، وكان من جملة الأسارى امرأة الطاغية وأولاده ، فبذلت فى نفسها مدينةَ طريف وجبل الفتح وثمانية عشر حصنا فيما حكى بعض المؤرخين ، فلم يقبل المسلمون ذلك ، وزادت عدّة القتلى فى هذه الغزوة على خمسين ألفا ، ويقال : إنه هلك منهم بالوادى مثل هــذا العدد ، لعدم معرفتهم بالطريق ، وأما الذين هلكوا بالجبال والشِّعاب فلا يحصون ، وقُتل الملوك الخمسة والعشرون جميعهم ، واستمر البيع فى الأسرى والأسلاب(١) والدواب ستة أشهر ، ووردت البشائر بهذا النصر العظيم إلى سائر البلاد .

ومن العجب أنه لم يقتل من المسلمين والأجناد سوى ثلاثة عشر فارسا ، وقيل : عشرة أنفس ، وقيل : كان عسكر الإسلام نحو ألف وخمسمائة فارس ، والرَّجَّالة نحوا من أربعة آلاف راجل ، وقيل دون ذلك .

وكانت الغنيمة تفوق الوصف ، وسُلخ الطاغية دون بِطْره وحُشِى جلده قطنا ، وعُلق على باب غَرْنَاطة ، و بقى معلقا سنوات ، وطلبت النصارى الهدنة ، فعقدت لهم بعد أن ملكوا جبل الفتح الذى كان من أعمال [سلطان] فاس والمغرب ، وهو

---

(١) فى ب ، ا ، ز « والأسباب » والأسلاب : جمع سلب ـ بفتح السين واللام جميعا ـ وهو ما يأخذه المقاتل من قرنه

جبل طارق ، ولم يزل بأيديهم إلى أن ارتجعه(١) أمير المسلمين أبو الحسن المَرِينى صاحب فاس والمغرب ، بعد أن أنفق عليه الأموال ، وصرف إليه الجنود والحشود ، ونازلته جيوشه مع ولده وخواصه ، وضيقوا به ، إلى أن استرجعوه ليد المسلمين ، واهتم ببنائه وتحصينه ، وأنفق عليه أحمالَ مال فى بنائه وحصنه وسوره وأبراجه وجامعه ودوره ، ومخازنه(٢) ، ولما كاد يتم ذلك نازله العدوّ برا وبحرا ، فصبر المسلمون ، وخيب الله سعى الكافرين ، فأراد(٣) السلطانُ المذكور أن يحصّن سفح الجبل بسور محيط به من جميع جهاته حتى لا يطمع عدوّ فى منازلته ، ولا يجد سبيلا للتضييق عند محاصرته ، ورأى الناسُ ذلك من المحال ، فأنفق الأموال ، وأنصف العمال ، فأحاط بمجموعه إحاطةَ الهالَةِ بالهلال ، وكان بقاء هذا الجبل بيد العدوّ نيفا وعشرين سنة ، وحاصره السلطان أبو الحسن ستة أشهر ، وزاد فى تحصينه ابنه السلطان أبو عنان ، ولما أجاز السلطان أبو الحسن المذكور إلى الأندلس ، واجتمع عليه ابن الأحمر ، وقاتلهم الطاغية — هزمهم فى وقعة طريف ، واستولى على الجزيرة الخضراء ، حتى قيض الله من بنى الأحمر الغنى بالله محمدا الذى كان لسان الدين بن الخطيب وزيره ، فاسترجعها وجملةَ بلاد كجّيانَ وغيرها .

وكانت له فى الجهاد مواقف مشهورة ، وامتدّ ملكه واشتدّ حتى محا دولةَ سلاطين فاس مما وراء البحر ، وملك جبلَ الفتح ، ونصر الله الإسلام على يده ، كما ستقف عليه فى بعض مكاتبات لسان الدين — رحمه الله ! — فى مواضع من هذا الكتاب ، وسَعْدُ هذا الغنى بالله من العجائب .

و بقى ملك الأندلس فى عقبه إلى أن أخذ ما بقى من الأندلس العدوّ الكافر واستولى على حضرة الملك غَرْناطة أعادها الله للإسلام ، كما نبين [ذلك](٤) إن شاء الله ،

---

(١) فى ا « حتى ارتجعها أمير المسلمين » وليس بشىء ، لأن الحديث عن الجبل

(٢) في ب « ومحاريبه » (٣) فى ا « فرأى السلطان »

(٤) هذه الكلمة لا توجد فى ا

وخلت جزيرة الأندلس من أهل الإسلام ، فأبدِلَتْ[1] من النور بالظلام ، حسبما اقتضتة الأقدار النافذة [والأحكام][2] ، والله وارث الأرض ومَنْ عليها وهو خير الوارثين .

شيخ الغزاة

قال ابن خلدون : واتفق بنو الأحمر سلاطين[3] غَرْناطة أن يجعلوا مشيخة الغُزَاة لواحد يكون من أقارب بنى مَرِين سلاطينِ المغرب ، لأنهم أوّل من[4] ولى الأندلس عند استيلاء بنى عمهم على ملك المغرب لما بينهم من المنافسة ، وكان لهؤلاء فى الجهاد مواقِفُ مشهورة ، منها ما كتب على قبر شيخ الغُزَاة عثمان بن أبى العلاء لتستدل عند ذلك على ما ذكرناه « بحمد الله تعالى ، هذا قبر شيخ الُحمَاة وصدر الأبطال [و][2] الكُمَاة ، واحد الجَلاَلة ، ليث الإقدام والبَسَالة ، علم الأعلام ، حامى ذمار الإسلام ، صاحب الكتائب المنصورة ، والأفعال المشهورة ، والمغازى المسطورة ، و إمام الصفوف ، القائم بباب « الجنة تحت ظلال السيوف » سيف الجهاد ، وقاصم الأعاد ، وأسد الآساد ، العالى الهِمَم ، الثابت القَدَم ، الهمام المجاهد الأرضَى ، البطل الباسل الأمْضَى ، المقدّس ، المرحوم أبى سعيد عثمان ابن الشيخ الجليل الهمام الكبير ، الأصيل الشهير ، المقدّس المرحوم أبى العلاء إدريس بن عبد الله بن عبد الحق ، كان عمره ثمانيا وثمانين سنة أنفقه ما بين رَوْحة فى سبيل الله وغَدْوة ، حتى استوفى فى المشهور سبعمائة واثنتين وثلاثين غَزْوَةً ، وقطع عمره مجاهدا مجتهدا فى طاعة الرب ، محتسبا فى إدارة الحرب ، ماضى العزائم فى جهاد الكفار ، مُصَادما بين جموعهم تدفُّقَ التيار ، وصنع الله تعالى له فيهم من الصنائع الكبار ، ما سار ذكره فى الأقطار ، أشهر من المثل السَّيَّار ، حتى توفى

---

(١) فى ا « وأبدلت من النور » (٢) هذه الكلمة لاتوجد فى ا

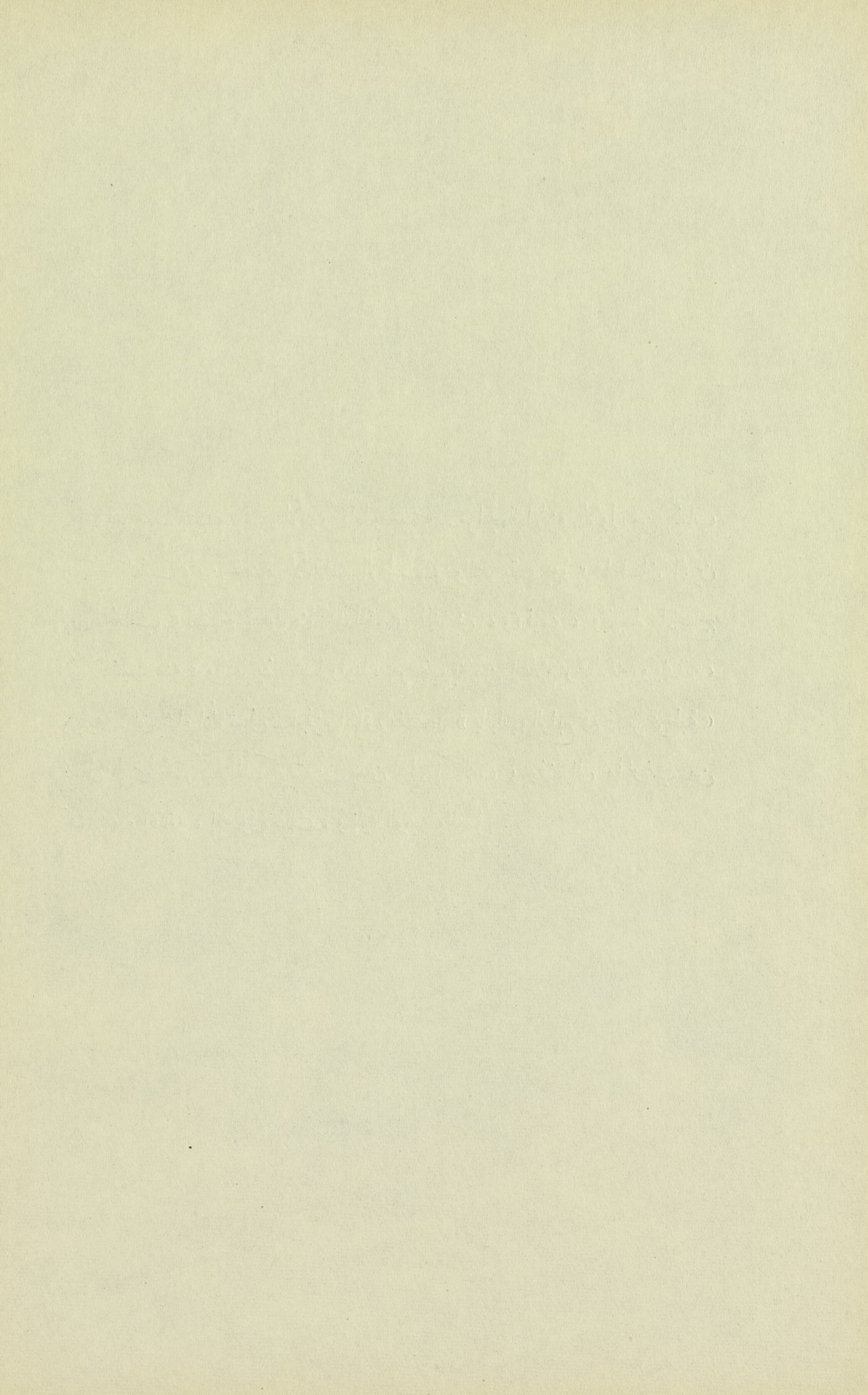
(٣) فى ا « قلت : وكان بنو الأحمر سلاطين غرناطة يجعلون ـ إلخ »

(٤) فى ا « لأنهم أدوا إلى لأاندلس »

رحمه الله وغُبَار الجهاد طَيُّ أثوابه ، وهو مراقب لطاغية الكفار وأحزابه ، فمات على ما عاش عليه ، وفي ملحمة الجهاد قَبَضه الله تعالى إليه ، واستأثر به سعيداً مرتضى ، وسيفه على رأس ملك الروم مُنْتَضى ، مقدّمةَ قبول و إسعاد ، ونتيجة جهاد وجِلاد ، ودليلا على نيته الصالحه ، وتجارته الرابحة ، فأُرتجَّتِ الأندلس لبُعْده ، أتحفه الله تعالى رحمة من عنده ! توفى يوم الأحد الثانى لذى الحجة من عام ثلاثين وسبعمائة » انتهى .

ومنها ما كتب به لسانُ الدين بن الخطيب - رحمه الله ! - فى تولية على بن بدر الدين مشيخَةَ الغزاة ما نصه : « هذا شيخ الغُزَاة الذى فُتح على الإسلام أبوابُ السراء ، وراق طرازا مذهبا على عاتق الدولة الغراء ، وأعمل عوَامل الجهاد ، فى طاعة ربِّ العباد ، شارعَةً لأهل الكفر والعناد ، من باب الإعمال والإغراء ، أمر به فلان صدر صدور أودَّائه ، وحسامه المشهور على أعدائه ، ووليه الذى خَبَر صدق وفائه ، وجلى فى مِضْمار الخلوص له مُغَبِّرا فى وجوه أكفائه ، شيخ شيوخ المجاهدين ، وقائد كتائبه المنصورة إلى غَزْو الكافرين [و] المعتدين ، وعِتْرته التى يُدَافع بها عن الدين ، وسابق وُدِّه المبرِّز فى الميادين ، الشيخ الأجل » إلى آخر ما وصفه به مما ضاق الوقت عن مثله ، والله ولى التوفيق .

قد تم ـ بتيسير مدبر الأمور كلها ومعونته ـ مراجعة الجزء الأول من كتاب « نفح الطيب ، من غصن الأندلس الرطيب ، والتعريف بوزيرها لسان الدين ابن الخطيب » للشيخ أحمد بن محمد المقَّرِى المغربى ، وترقيمه ، وضبط ما يحتاج إلى الضبط منه ، والتعريف بما رأينا التعريف به من أعلام رجالاته وبلدانه ، ويليه ـ إن شاء الله تعالى ـ الجزء الثانى مفتتحاً « بالباب الرابع فى ذكر قرطبة » نسأل الذى يُصَرِّفُ الملكوت أن يعين على إكماله ، ويوفق إلى ما نرغب من تجويده وإتقانه ، إنه ولى ذلك ، وإليه الوجه والعمل .



فهرس الجزء الأول من كتاب

« نفح الطيب ، من غصن الأندلس الرطيب »

للشيخ أحمد بن محمد ، الْمَقَّرِىِّ ، المغربى ، المالكى

فهرس الموضوعات الواردة فى الجزء الأول

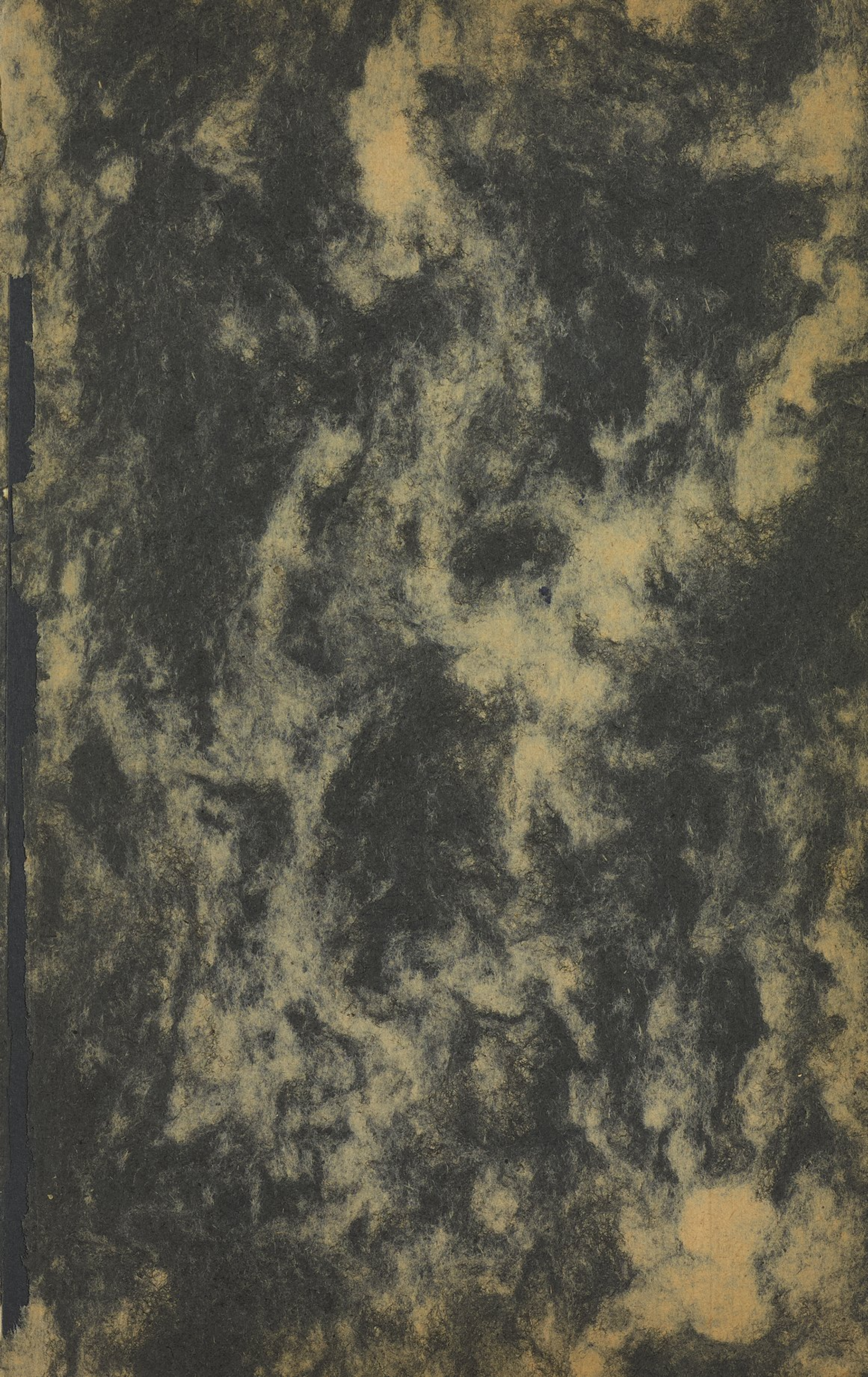
من كتاب « نفح الطيب ، من غصن الأندلس الرطيب »

للشيخ أحمد بن محمد ، الشهير بالمقرى ، المغربى

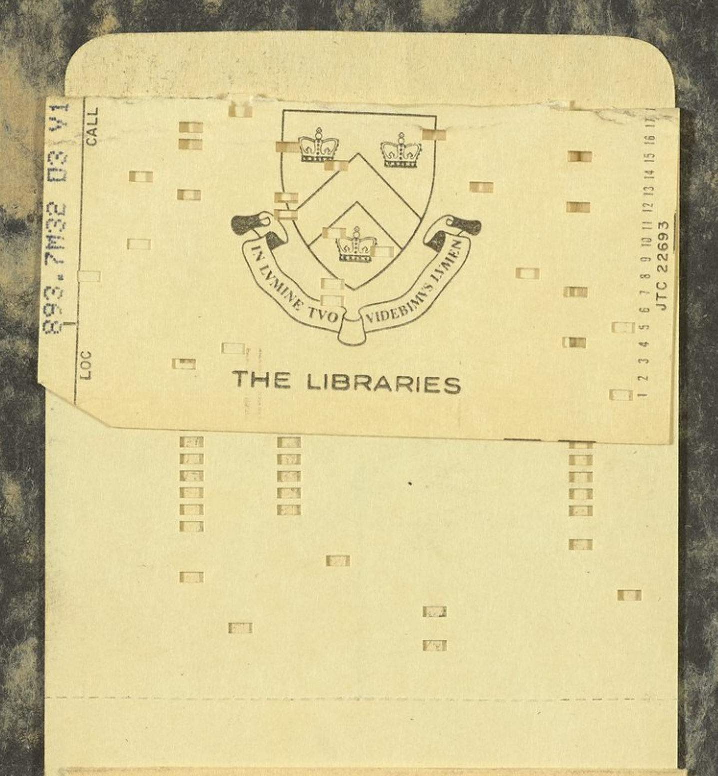
ص	الموضوع

تم فهرس الجزء الأول من «نفح الطيب ، من غصن الأندلس الرطيب»
والحمد لله أولاً وآخراً ، وصلاته وسلامه على سيدنا محمد وآله وصحبه






COLUMBIA UNIVERSITY
0026814420


CALL
893.7M32 D3 V1
LOC
IN LVMINE TVO VIDEBIMVS LVMEN
THE LIBRARIES
JTC 22693

